لورانس ملك العرب غير المتوج

تأليف: مايكل آشر

ترجمة: فاطمة نصر

هذه ترجمة كاملة لكتاب
Lawrence: The Uncrowned King
Of Arabia

بقلم: Michael Asher

الصادر عن دار نشر: Viking

فى عام ١٩٩٨

طبعة أولى ٢٠٠٠

كتاب سطور

هيئة التحرير :

اعتدال عثمان

فاطمة نصر

ـ الكتاب . لورانس ملك العرب عبر المتوج

Lawrence The Uncrowned King of Arabia

ـ المؤلف . مايكل آشر Michael Asher

ـ ترجمة : د. فاطمة نصر

ـ المراجعة التاريخية : عاصم الدسوقي

ـ غلاف وإخراج : حوبى

ـ الجمع والتنفيد : عصام عيسوى

ـ المراجعة اللغوية : عمر الشناوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠

رقم الإبداع ١٤٦٤١ / ٢٠٠٠

٨ و٢٣ تقسيم النيينبنى بحوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت : ٥٢٤٠٠٢٠ / ٥٢٦٣٥٩٩

e mail address sutour@misrnet com.eg

إصدارات سطور:

مجلة سطور

مجلة شهرية ثقافية عربية

كتاب سطور :

١ ـ محمد «سيرة الرسول»

٢ ـ صدام الحضارات

٣ ـ عصر الحساب والإلكترونات

٤ ـ القدس مدينة واحده عقائد ثلاث

٥ ـ العولمة والعولمه المضادة

٦ ـ التاريخ السرى للموساد

٧ ـ حريم محمد على باشا

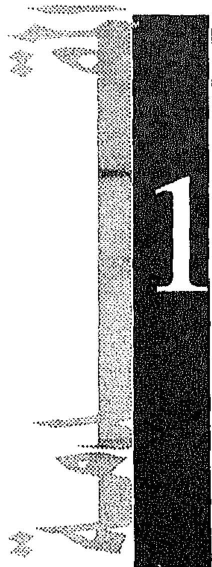
٨ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟

٩ ـ عولمة القهر

١٠ ـ صور حيه من إيران

إصدارات خاصة)

البحث عن العدل (السلطة والقانون والحريه)



لورانس

تفكيك الأسطورة:

عاصم الدسوقى

اقترن اسم لورانس فى كتب التاريخ
بثورة الشريف حسين أمير الحجاز
ضد الحكم التركى فى يوليو ١٩١٦
المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى
لقد أصبح يعرف فى الأدبيات
«بلورانس العرب» .

وقد خلعت هذه الكتب على لورانس ألوانا من البطولة وصنوفا من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تخلب لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها. وربما ترجع «أسطرة» هذه الشخصية إلى الغموض الذى اكتنف صاحبها عند الذين التقوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر فى رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه، ثم كانت وفاته وهو على ظهر دراجته التى كان يعشق ركوبها ويشعره بأنه يدوس العالم لتجعل منه بطلا تراجيديا بالمعنى المسرحى.

ولم ينشغل العرب الذين التقوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأثناء الصراع مع الأتراك بالتعرف على حقيقته، ولماذا يتصل بهم ويعرض خبراته لمساعدتهم فى الإعداد للثورة. كما لم يتوقفوا أمام ما لاحظوه عليه من سلوك شاذ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما اتضح لهم صدق تصوراته فى التطبيق العملى، وطالما أنه يساعدهم «فعلا» لإعلان مملكة عربية مستقلة طبقا لمراسلات الشريف حسين مع

هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ - ١٩١٦) . كما لم يدرك العرب آنذاك - ولم يكونوا منفردين فى هذا - أن لورانس ينفذ خطة فى استراتيجية بريطانية تمت صياغتها سرا منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا فى الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها . وقد استخدمت بريطانيا فى هذه الخطة وبمهارة ملحوظة التناقض بين عرب الحجاز (الشريف حسين) وحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على السلطة فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨ ، ولعبت على وتر العواطف القومية عند العرب تجاه الأتراك بحرص شديد حتى تحقق أغراضها .

والحاصل أنه فى ١٩١٢ أرسلت حكومة الاتحاد والترقى وهيب باشا ليكون واليا على الحجاز ولبس على باشوية جده كما كان الحال أيام السلطنة العثمانية الأمر الذى جعل الشريف حسين يتوجس خيفة من نيات الحكومة التركية الجديدة . فماذا يفعل ؟ . . . بحث عن ظهير يستند إليه فى الصراع الذى قد يتفجر ضد الأتراك . وآنذاك لم يجد سوى إنجلترا التى تحتل جيوشها مصر ،ويخضع لها أمراء

الخليج العربى من مسقط جنوبا إلى الكويت شمالا ، وتحتل عدن فى مدخل البحر الأحمر ، فأرسل ابنه عبد الله (أول أمير لإمارة شرق الأردن) إلى القاهرة والتقى باللورد كتشنر المعتمد البريطانى وعرض عليه الموقف ، وحاول أن يحصل على وعد بتأييد الإنجليز للشريف فى الصراع المرتقب مع الأتراك . غير أن كتشنر أبرق لوزارة الخارجية فى لندن بخلاصة المقابلة وحذره المسئولون من الالتزام بأية وعود . وكل ما خرجت به السياسة البريطانية من هذا الموقف أنها عرفت بوجود تنافس فى المصالح العربية التركية ففتحت له ملفا قد تستخدمه فى الوقت المناسب .

ثم جاء الوقت المناسب عندما انضمت تركيا فى نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب ألمانيا والنمسا (دول الوسط) ضد الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا) . وآنذاك كان اللورد كتشنر قد ترك منصبه فى مصر وأصبح وزيرا للحرب فى بلاده ، وتذكر مقابلاته مع الأمير عبد الله بن الشريف حسين ، ففتح الملف العربى التركى ، وبدأ تشغيل التنافس لصالح الإنجليز وحلفائهم . كيف ؟ . . يقوم الإنجليز بتشجيع الشريف حسين للقيام بالثورة ضد الحكم التركى لإعلان المملكة العربية طبقا للمراسلات ، وبهذا تنفتح جبهة على الأتراك لمواجهة الثورة تضطرهم لسحب جزء من قواتهم المحاربة فى أوربا فيضعف بذلك مركز أعداء إنجلترا .

وعندما تمت اتصالات الإنجليز فى القاهرة بالشريف حسين فى مطلع عام ١٩١٦ للإعداد للثورة لم يتساءل الحسين عن أسباب صمت الإنجليز طوال أربع سنوات منذ مقابلة ابنه عبد الله مع كتشنر (١٩١٢) عن الوقوف معه ضد الأتراك . . ولماذا جاء الاتصال للقيام بالثورة فى هذا التوقيت بالذات ، وغير ذلك من الأسئلة التى يطرحها العقل المركب غير البسيط فى مثل هذه الحالات . وكل ما لفت نظر الشريف أن الإنجليز أخيرا يدعمونه ليس فقط ضد مركزية حكومة الاتحاد والترقى وإنما بالثورة ضدها وإعلان المملكة العربية من دمشق .

إن هذه البساطة فى التفكير عند العرب بشكل عام وعند عرب الحجاز بشكل خاص كما وضح من تبادل المراسلات هو ما شد لورانس إلى العرب حيث وجد فى خصالهم ما ألهب خياله المريض الذى كونته قراءاته عن قلاع العصور الوسطى . وقد خرج من هذه القراءات بأن العصور الوسطى هى العصر الذهبى لتاريخ

الإنسانيه الذى توقف فى رأيه عند عام ١٥٠٠ حتى أنه لا يعترف بالتاريخ الحديث الذى يبدأ بالقرن السادس عشر . لقد كان العرب ـ دون أن يدروا ـ هم ضالة لورانس فى تجريب أفكاره وتصوراته عن المفكر البسيط غير المركب، وعن العمل الخام الذى يمكن تشكيله بمعرفة فنان يجيد التعامل مع الأشياء على طبيعتها .

والحقيقة أن شخصية لورانس التى انجذبت للعرب لم تكن متوائمة مع المجتمع الإنجليزى الذى نشأت فيه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فبقدر بعده عن الإنجليز كان قربه من العرب ولبس العكس . ومن ناحية أخرى أن ينخلع إنسان عن محيط مجتمعه ويعوض بكل ثقله فى مجتمع جديد لأمر شاذ وغير سوى . وهذا هو المدخل الذى اعتمد عليه مؤلفنا لكشف الوجه الحقيقى لشخصية لورانس التى حاول صاحبها إخفاءها عن الناس لتبقى متوارية، وفى هذا يقول لورانس . «إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة الإتيان بتعبيرات مجبره ومتضاربة ومضللة» .

فما مفتاح فهم شخصية لورانس ؟!

كان لورانس ثمرة لعلاقة غير شرعية بين والده سليل لوردات الإقطاع الإنجليزى، وسارا مربية الأسرة التى وقع فى غرامها . ويفهم من سياق سيرة حياته أن والده كان يحب حياة اللهو والترف، وزوجته امرأة شديدة التمسك بأهداب الفضائل الدينية ولم تكن تجاربه فى مجونه . ومن هنا وقع فى غرام سارا فى زمن كانت العفة فيه علامة أساسية للشرف وعنوانا له . وهنا اضطر العشيقان لمغادرة أيرلندة إلى ويلز ليبدآ حياة جديدة ولكن فى عزلة عن مجتمع ويلز، لا يختلطان بأحد حتى لا يفتضح أمرهما . وبعد عدة تنقلات من مكان لآخر استقرت الأسرة الجديدة فى أكسفورد عام ١٨٩٦ .

وفى أكسفورد التى شهدت صبا لورانس سيطرت عليه أمه تماما بل كانت شديدة القسوة فى تربية أبنائها تقربا إلى الله ليغفر لها خطيئتها ولعل هذه التربية القاسية وظروف مجيئه إلى الدنيا دون إخوته كانت وراء مازوكيته والبحث عن اللذة الأليمة فى التعذيب الجسدى والنفسى والجنسى . ولهذا حمل لورانس فى نفسه مجموعة من العادات المتناقضة غير المألوفة جعلته موضع فضول الآخرين

فأصبحت عيون الآخرين بالنسبة له هى الجحيم بعينه كما يقول سارتر . ومن ذلك أنه لم يحب المنافسة فى مجتمع رأسمالى تقوم الحياة فيه على أساسها ربما لأن المنافسة تفرض عليه الاختلاط بالآخرين فى الوقت الذى كانت أمه تريد إبعاده عن هذا المجتمع . وأيضا كانت سيطرة أمه والإحاطة به ليل نهار سببا فى ابتعاده عن التعلق بالنساء ، وحولته إلى حنثوى يحب اللواط مع من هم أكبر منه ويجد فى ذلك لذة أليمة وألما لذيذا . وعاش مختفيا تحت جناحى أمه حتى لا يفلت منها إلى العالم الخارجى . وهكذا لم يعش طفولة عادية أو مراهقة عادية شأن أقرانه . وعندما أراد الهرب من سيطرة أمه وجد فى التاريخ المهرب والملاذ الآمن .

وهكذا وفى مدرسة سانت جون بأكسفورد قضى عشر سنوات لم يعشق من مواد الدراسة غير التاريخ وبصفة خاصة تاريخ الشرق ومصر القديم . وربما كان حبه للتاريخ من باب الاغتراب عن مجتمعه بالتعلق بآخرين . وفى عام ١٩٠٦ جاءته منحة لدخول جامعة أكسفورد لدراسة الرياضيات ولكنه رفضها لحبه للتاريخ . وفى تلك الأثناء وهروبا من الواقع غير المواتى التحق بسلاح المدفعية الملكى مجندا وكانت تجربة قصيرة وفاشلة استغرقت أقل من ستة أشهر . ثم جاءته المنحة التى يريدها لدراسة التاريخ (١٢ يوليه ١٩٠٧) وعمره إذ ذاك تسعة عشر عاما . ومع هذا لم يكن منتظما فى حضور الدروس وانصرف إلى القراءة الحرة عن الزمن الذى يحبه قبل القرن السادس عشر .

وفى العام الأول بالجامعة وفى مطلع عام ١٩٠٨ كان قد فقد إيمانه بالمسيحية واستبدل باليقين الإيمانى الحدس ، وفى مرحلة تالية اتجه تفكيره إلى العقلانية لقياس كيفية حدوث الأشياء وإلى أين تتجه . ومن هنا حمل تفكيره بعض المفارقات ، فهو شديد العقلانية لدرجة أنه لم يكن بوسعه أن يؤمن بشىء ، أى أنه عاقل إلى درجة الجنون . وفى الوقت نفسه كان يرى أن الإيمان هو كل شىء ، وربما جعلته هذه المفارقات التى لم يكن يدرى بها بطبيعة الحال غير راض عن أعماله بشكل عام ، وفى هذا يقول : « لا شىء فعلته يبدو لى جيدا بالقدر الكافى » .

كانت تلك معالم شخصية لورانس النفسية والعلمية التى قابل بها العرب فى أول رحلة له لبلاد الشرق فى سوريا فى ١٨ يونيه ١٩٠٩ على ظهر السفينة

متجولا إلى بورسعيد ومنها إلى بيروت ليلتقي وجها لوجه بتاريخ الشرق الذى أحبه. وكانت هذه الرحلة خاصة بالتنقيب عن آثار حضارة الحيثيين القديمة شمالي سوريا حيث عمل مساعدا لعالم الآثار هوجارث. وكانت فرصته في التعرف على الناس وعلى الأماكن وهو يلتقط ما تجود به الحفريات من آثار لترضي أستاذه هوجارث. ثم غادر الشرق ليعود بعد ذلك في مهمة أخرى اختلطت فيها مزاعم مساعدة العرب ضد الأتراك بحقائق دعم قضية الحلفاء في الحرب ضد الأتراك، كما تقاطعت فيها خيوط حلم لورانس - كما قال بنفسه - بتحرير العرب من قيد الأتراك بإنشاء مملكة عربية بدوافع تحريرهم من الأتراك ليقعوا صيدا سهلا في شباك الإنجليز لتصفية المسألة الشرقية كما كانت تمثلها الدولة العثمانية التركية.

وليس من باب المغالاة القول إن المؤلف يثأر من لورانس لسبب أو لآخر.. يريد أن ينزله من عرش مزيف توج عليه ملكا للعرب أو زعيما لهم، إذ نراه يتعقبه في رحلاته التي كتب عنها في مذكراته ويقارن ما ورد بها بما ورد بمفكرته الصغيرة وبما ورد في رسائله إلى الآخرين، ثم نراه يقيس المسافات بين كل الأماكن التي ذهب إليها لورانس والزمن الذى استغرقه التنقل عبر هذه الأماكن ليقول للقارئ في النهاية كم كان لورانس كذوبا ومخادعا. ثم نراه يركز تركيزا شديدا على شذوذه الجنسي ويعتبره مفتاح فهم شخصية لورانس. وليس من شك أن التركيز على هذه المداخل الشخصية يسهم في تهشيم الصورة المثالية التي أراد لها لورانس أن تستقر في مخيلة الناس وخاصة في مخيلة أهل الشرق حيث تحتل الأخلاق مرتبة عليا في تقويم حركة الناس وتصرفاتهم وسلوكياتهم، وحسنا فعل.

فهل نجح المؤلف في هذا؟ إنني أدعو القارئ العربي ليتعرف على العالم الخفي للورانس «العرب» في الصفحات التالية.

عاصم الدسوقي

2 وادى القمـــر



إن القصة التى أوريها هى إحدى
أكثر قصص البشرية روعة من ت. إى.
لورانس إلى ڤيڤيان ريتشاردز يتحتم
علينا أن نعانى كى نرضى من ت. إى.
لورانس إلى شارلوت شو

ذات صباح قائظ فى أبريل، تسلقت جانب تل بوادى رُم فى الأردن متوقعا بين الحين والآخر أن أستشعر رياح الصحراء التى كانت تنقض على الأودية على مرمى بصرى وتعوى فى الضوء البرتقالى العتيق. قد يكون هذا الوادى بقايا مدينة مريخية قديمة أصبحت منبعجة مشوهة بفعل الزمن وبالفعل، فالبدو يطلقون عليه اسم «وادى القمر» ويعتقدون أنه قد هوى من النجوم. كنت أبحث عن البقعة التى تسمى «نبع لورانس» حيث كان «لورانس العرب» يستحم أثناء إقامته بالوادى عام ١٩١٧. كانت حقيبة الظهر التى أحملها لا تحوى سوى وعاء الشرب المطلى بالمينا ونسخة من كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» الذى كنت قد قرأته وأعدت قراءته على طوال سنوات عديدة. واليوم، كنت أشعر أن هذا الكتاب فى ثقل حجر الطاحون. كنت قد غادرت لتوى أحد خيام بدو الحويطات وهم أحفاد رجال القبائل الذين خرجوا للغزو مع لورانس وقد أدهشنى ما أخبرونى به: «لم يكن لورانس قائدا للثورة العربية، كان مجرد مهندس يعرف كيف يفجر خط السكك الحديدية - رجل ديناميت - هذا كل ما كانه». لقد كان لورانس بطل طفولتى، كما كان بالنسبة

لآلاف الآخرين ، ومن ثم ، كان لكلمات الأعراب تلك وقع شبيه بالكفر .

اسنغرق عثورى على ضالتى نحو عشرين دقيقة فقط . كان النبع يقع فى صدع على شكل V وكانت المياه تندفع من قمة جبل «الرْم» من ارتفاع آلاف الأقدام وتتدفق مقرقرة فى صهريج صخرى لتنساب منه فضة سائلة عبر قنوات ضحلة ونباتات يانعة وفيرة من النعناع والزعتر البرى . ملأت الإناء بمياه الصهريج وتذوقتها كانت عذبة باردة شهية ، ثم جلست فى ظل الحائط الصخرى وفتحت «أعمدة الحكمة السبعة» على الصفحة التى كنت قد علمتها حيث كتب لورانس : «على معقل نانئ من صخرة تزحف على سطحها القرمزى أوراق خضراء منسلقة ، وأيضا على نتوء أعلى الصخرة ، كانت هناك كتابات نبطية محفورة بوضوح . . وخربشات عربية ، يشهد بعضها على هجرات منسبة ، إلا أن ما استحوذ على انتباهى كان فقط المياه المتساقطة فى فتحة تحت ظل صخرة علوية» . ونظرت إلى أعلى لأجد الكتابات النبطية والعلامات العربية القبلية تماما كما وصفها لورانس منذ ما يقرب من الثمانين عاما . احتضنت اندفاع المياه والأعشاب البرية المتسلقة

العبقة، وللحظة روعني وصف لورانس الحميم لها. بدا لي وكأنما لورانس، الذى توفى قبل ميلادى بثمانية عشر عاما، كان هناك بجوارى، استشعرت حضوره كما لو كان ينظر من أعلى كتفي. ولدى عودتي إلى الصفحة انتابنى إحساس قوى لا عقلانى أنه يخاطبنى مباشرة كما لو كان يعرف بشكل ما أننى سأقتفى خطواته، وأنه كان قد كتب هذا خصيصا لى كى أقرأه فى هذا اليوم وهذه اللحظة.

طالما خبرت مثل هذه الرؤى فوق الطبيعية أثناء سفرى فى الصحراء حيث يولّد الاتساع والسكون والفراغ شعوراً باللازمن يكاد يلمسه المرء: طالما التقطت فئوسا قبل تاريخية من على السطح وأنا أعلم أن يدىّ هما أول ما لمسها بعد أن تركها صانعوها منذ مائة ألف عام. فبمقدور الروح الإنسانية، بشكل ما فى الصحراء، القفز عبر مثل هذه الفجوة. كنت واثقا أن لورانس قد شعر بهذا أيضا إذ يسود «أعمدة الحكمة» إحساس بالرهبة التى هى بالنسبة لى جوهر تجربة الإنسان فى الصحراء. أثّر «ت. إى لورانس» على حياتى بقوة منفردة؛ فبدون لورانس كان بالإمكان ألا أكون متحدثا بالعربية، وألا أمتلك القدرة على امتطاء الإبل وعلى قطع مسافة ١٦,٠٠٠ ميل على ظهر بعير، أو أن أحقق أول عبور للصحراء من الشرق إلى الغرب أى مسافة ٤,٥٠٠ ميلا، أو أن أعايش البدو التقليديين سنوات ثلاث. وبدون لورانس كان من المحتمل ألا أخدم فى الفرقة الجوية الخاصة، إذ إن بدونه لم تكن لتوجد هذه الفرقة (SAS) إن كلمات مضمضيّ من الجوبفات مازالت مشتعلة فى رأسى، وتساءلت وأنا أجلس هناك، كما تساءل عديدون آخرون، من لورانس الحقيقى؟ فالبنسبة لمداهبه، فإن كل كلمة قالها هى الحق، على حين ذهب ناقدوه بعيدا ليبرهنوا العكس. وفكرت أنه بالتأكيد، وبعد ثمانين عاما، بالإمكان الوصول إلى رؤية أكثر تعقلا وصدقا واعتدالا.

ولمدة عامين أخذت أقتفى أثر لورانس من مكتبة لأخرى، وعلى طول آلاف الأميال عبر صحراء الشرق الأوسط، على ظهور النوق أحيانا وعلى الأقدام أحيانا أخرى. وكان يحدث أن أشعر بحضوره، فى أماكن غير متوقعة فى ركن طلبل بأشمولية، أو عند بوابة برج قلعة الأزرق، أو عند قمة جبلية فى المدورة. وأسمع صوته مرة أخرى. وأحيانا، وبينما كنت أعبر سيناء على ظهر الناقة، أو أنسلق ممر الحفيرة، كنت أحس به هناك يتقدمنى بخطوات ويضاحكنى وأنى لو أسرعت للحقت به. لقد اكتسب سعيى وراء لورانس صفة الحج، وأخذت أنظر إلى هذه

المسيره كطقس دينى، شكل من أشكال تقديس السلف، تأكيد الماضى، أو إعادة اختراعه. بحثت وقرأت وسافرت، بيد أنه فى اللحظة التى كنت أعتقد فيها أن لورانس فى قبضتى، كان هو يفر منى ضاحكا ويظهر فى بقعة أخرى. كنت أجد فقط صورتى فى مرآة. لورانس وأنا يواجه أحدنا الآخر فى مرآتين متقابلتين تعكسان كلا منا إلى ما لانهاية. وأخيرا، فى هذه الصحراوات النائية، عرفت أن المشاهد جزء من موضوع مشاهدته، واستوعبت أنه لا يمكن أن يكون هناك لورانس محدد، بل عدد لا متناه من صور لورانس، مثل بلورات الكريستال، فى أعين ناظريه. أما من اكتشفته فكان لورانس الخاص بى، والحقيقة الخاصة بى، فالحقيقة أنواعها عديدة: نوع بطل ساكنا راكدا، وآخر ينثنى ويتنقل ويتبدل تبعا للفرد والزمان.

الباب الأول

الجوال

١٨٨٨-١٩١٦

الفصل الأول

الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

الطفولة المبكرة

١٨٨٦ - ١٨٩٦

1

عام ١٨٧٩ هبطت في دبلن شابة
جميلة تدعى سارا لورانس من عبّارة، كي
تبدأ مغامرة حياتها. أتت لتعمل مربية
لأطفال أسرة «جنتلمان» ثرى يدعى
توماس تشابمان الذى كان يمتلك قصراً
وضيعة شاسعة قرب دلفن فى إقليم
وستميث.

ورغم أن سارا كانت لم تتجاوز الثامنة عشرة، فقد كانت ذات مقدرة غير عادية ونزوع إلى السيطرة، وكانت قد تخطت الحواجز الاجتماعية التي وجد العديدون أنه من المحال تخطيها. كانت قد ولدت ابنة غير شرعية لصانع سفن في تاينسايد يدعى جون لورانس الذي هجرها، ثم تيتمت على يدى أمها السكيرة في سن التاسعة لبتولى تنشئتها راعى كنيسة أسقفية وزوجته في مرتفعات اسكتلندا وتلالها وفى آيل أوف سكاى. كانت سارا مصرة على أن تقفز عبر الفجوة التي تفصل الفتاة اليتيمة التي تنتمي إلى طبقة العمال وبين ربة المنزل التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى في زمن كان طفل السفاح يحمل معه وصمة العار في المجتمع، وكانت الطبقات شبه ثابتة في مداراتها مثل الأجسام السماوية. وفكرت أنه إن لم تستطع أن تصبح ملكة أو سيدة البيت الإقطاعي، فبإمكانها على الأقل توظيف قوتها للإيقاع بقلب السيد النبيل، وهذا تحديدا هو ما فعلته.

وكان توماس تشابمان، الذي التحقت بخدمته، قد تلقى تعليم الصفوة في إيتون

وسرنسستر . كان حفيدا لأحد البارونتيات وسلسيل سبعة أجيال من ملاك الأراضى الإنجليز الكلونياليين الذين مُنحوا أراضى فى إقليم كيرى برعاية السير ولتر رالى . امتلك تشابمان مزايا أرباب الحسب من التعليم والنشأة وملكية أراضى وضياع وخيول وعربات وخدم وثروة إلى جانب وقت الفراغ اللازم للتمتع بكل هذا . إلا أنه لم يكن سعيدا إذ كانت زوجته إيديث سليطة اللسان تعتبر المتعة خطيئة وكانت ، كما قال أحد الجيران ، من نوع النساء المتزمتات دينيا بأسلوب رهيب واللاتى يذهبن إلى الكنيسة فى جميع ساعات النهار ، واللاتى لو حدث وسقطت إحدى خادمات المطبخ فى الخطيئة يقمن بطردها بعد تلويث سمعتها . وكان نزوع إيديث الفتالى ـ والذى كان يجد تعبيره المفرط فى محاولاتها إدخال الفلاحين الكاثوليك إلى البروتستانتية قد أصبح مؤلما لدرجة أن توماس تحاشى صحبتها . وحينما ظهرت سارا فى الأفق لأول مرة ، كان توماس أبا لبنات أربع ، وقد وجد نفسه على شفا أواسط العمر وهو فى براثن زواج من امرأة قد توقف عن حبها منذ أمد طويل . وكان ، وهو السوداوى المزاج ، عديم الجدوى ، السكير ، قد أقلع

حتى عن المباهج التى كان النبلاء يقضون أوقاتهم فى ممارستها مثل الصيد والقنص وصيد الأسماك. وانطلقت سارا الجميلة إلى عالمه المظلم كالشهاب وأسرته. وكانت مرحة مليئة بالحيوية بالقدر الذى كانت به إيديث لا دنيوية تملؤها المرارة، هذا بالإضافة إلى قدراتها التنظيمية الفذة. كانت قد قدمت إلى قصره - ساوث هيل - لرعاية بناته إلا أنها سرعان ما تولت رعاية شئون المنزل بأكمله وأصبح من الملاحظ أن تعود الحيوية إلى توماس لدى ولوج سارا الغرفة. وسرعان - وربما كان هذا حتميا - ما وقع السيد الإقطاعى فى حب المربية.

وبالطبع، فلم يكن من غير المألوف «لجنتلمان» فيكتورى ضجر أن يغازل خادمته. إلا أن فكرة هجر شخص من النبلاء طبقته من أجل علاقة مع خادمة كان أمرا لايخطر على بال فى زمن كانت فيه الأرستقراطية البريطانية مازالت تحتفظ بسمعة شبه إلهية. وكانت سارا تعلم أنها تخطو على حبل مشدود. فلم يكن لديها ما تقدمه سوى نفسها. وكان من السهل أن ينتهى أمر أية فتاة أخرى أقل تصميما وقوة حضور أن تصبح أما شابة غير متزوجة مصيرها الإصلاحية أو ما هو أسوأ. إلا أن سارا تمكنت من إحكام قبضتها تدريجيا حول توماس، وتركت منصبها كمربية فى قصره لتعود للظهور عشيقة له فى منزل فى مدينة دبلن. وهناك ولد ابنهما الأول مونتاجيو روبرت - بوب - عام ١٨٨٥. وعاش توماس لفترة من الوقت حياة مزدوجة متنقلا بين زوجته وبناته فى ساوث هيل وبين عشيقته وابنه. وسرعان ما لاكت الألسن سيرتهما. فقد لمح نادل تشابمان سارا فى أحد المتاجر وسمعها تقدم نفسها على أنها «مدام تشابمان»، ثم تبعها بدافع الفضول حتى منزلها حيث شاهد توماس تشابمان يخرج من هناك، فاندفع إلى إيديث حاملا إليها الأخبار. وانفجرت الأخيرة بضراوة. وأجبر توماس على الاختيار ما بين حياته الزوجية المنهارة الفاشلة معها وبين علاقته غير التقليدية وغير المريحة ماديا بسارا. وباختياره لسارا اتخذ تشابمان أكثر قرارات حياته شجاعة. ومن ثم، وذات يوم عام ١٨٨٧ ترك قصره بحدائقه الشعثاء، ومروجه الخضراء وأشجاره الصنوبرية الأيرلندية، وبيد إرثه وتقاليده إلى الأبد ولحق بسارا فى دبلن ثم طلب الطلاق من إيديث التى رفضت بعناد. ومن ثم، قررا التحدى والهرب إلى لندن حيث يمكنهما البدء من جديد ثم غادرا أيرلندا ذات مساء قرب

نهاية عام ١٨٨٧ بالعبّارة، وحينما هبطا على الساحل في شمال ويلز في اليوم التالي كانا قد أصبحا السيد توماس لورانس وحرمه، لا توماس تشابمان اللورد الإقطاعي وسارا لورانس المربية، وقد لازمهما هذه الصفة طوال ما تبقى من حياتهما.

وتكاد تكون اللحظة التي تخيراها ليتزوجا عرفيا أكثر اللحظات قمعا في تاريخ الأخلاقيات البريطانية برمته. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر الذي تميز بليبرالية نسبية، أخذ المجتمع يتحول باتجاه التعصب البيوريتاني بنفحة لحركة الإحياء البروتستانتي الإنجيلي. ومن المفارقات، أن سارا كانت ضمن أتباع هذه الحركة. وكان عام ١٨٨٥ هو العام الذي بلغت فيه «حملة الطهارة» ذروتها، وكانت هذه حملة صليبية ضد التسيبات الجنسية حملت في ركابها الرعب الفيكتوري من الفوضى الاجتماعية ومن تحلل «الجنس الإمبريالي». ومن ثم، أصبح الجنس التابو الأعظم، وكانت المجتمع ينظر نظرة متعصبة إلى كل ما يتعلق بالجسد أو العري حتى وصل الأمر بالمجتمع المتحضر إلى تغطية أرجل آلات البيانو بالقماش حتى لا تُرى عارية. غدا القانون الأخلاقي صارما وأصبحت العذرية هي المثال والأسرة مقدسة إلى أبعد مدى، أما المرأة الساقطة التي تم التعرير بها فكانت مدعاة لأشد أنواع الاحتقار. وقد أدى الحظر الشامل على كل ما يتعلق بالجنس إلى جهل لا يمكن تصديقه في جميع مستويات المجتمع حتى أن طبيبا من أكسفورد أعلن أن تسعا من بين كل عشر نساء لا يبالين بالجنس أو يبغضنه بالفعل. أما الجزء الباقي من النساء، واللاتي يتمتعن به، فهن العاهرات». وقد عالج روبرت لوي ستيفنسون بخياله المتألق هذا الاحتشام الفيكتوري في روايته «الحالة الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» عام ١٨٨٦ إذ إنه في ذروة حملة الطهارة تلك كانت لندن بالفعل مركزاً دوليا للدعارة حيث فاق عدد بيوت الدعارة بها عدد المدارس. وكان الكثيرون من مرتادي هذه الأماكن من النبلاء الذين كانوا أعمدة المؤسسة الأخلاقية أثناء النهار. ورغم الحظر الصارم على ممارسة الجنس قبل الزواج فقد كان كثير من صبية الطبقة المتوسطة والعليا يخبرون أول ممارسات لهم مع الخادمات المقيمات بالمنازل.

كانت تلك هى الأشباح القوطية التى تتحرك فى خلفية الواجهة الڤيكتورية المحترمة، والمحيط المظلم الذى أتى إليه إدوارد لورانس - أو نيد كما كانت تدعوه العائلة - باكيا فى الساعات الأولى من صباح ١٦ أغسطس عام ١٨٨٨، ابنا لوالدين غير متزوجين كانا قد اختفيا من حياتهما الأصلية ليعيدا خلق نفسيهما فى حياة أخرى. ولد فى منزل يدعى جو - فروبا آت تريما دوك - على شاطئ ويلز، قريبا من محطة عبارات دبلن بدرجة كافية توحى بأن عائلة لورانس استقرت فى أول مكان مريح قابلها. وربما كان مما يتفق مع شخصية لورانس أن يزهو لاحقاً بأنه يشارك نابليون بونابرت - أحد عقليات القرن التاسع عشر الحربية العظيمة - تاريخ ميلاده رغم أن نابليون كان قد ولد فى الخامس عشر من أغسطس. وبعد أن اكتسب لورانس شهرته العالمية كبطل حربى قام بإعادة تقييم نابليون ووصفه بأنه «عبقرى جلف كان يفعل ما يرضى الغوغاء».

لم يتح الخوف من الافتضاح الذى لازم هرب والديه للعائلة فرصة للاستقرار. فقد عبرا مكان سكناهما بعد سنة من ميلاد لورانس وانتقلا إلى كيركودبرايت على شواطئ اسكتلندا الغربية، ثم أقاما لفترة قصيرة فى آيل أوف مان وسانت إيريه بجيرسى، وديناره فى بريتانى - وكانت كلها أماكن بعيدة عن مراكز المجتمع المتمدين حيث بالإمكان التعرف على توماس تشابمان. وفى تلك الأثناء ولد لهما ابنان آخران: ويليام وفرانك. وأخيرا حدثت نقطة تحول فى ربيع ١٨٩٤ كان قد مضى على ارتباط توماس وسارا ما يقرب من عقد من الزمان لم نُكتشف خلاله هويتهما المزعومة وكان أولادهما الأربعة يكبرون سريعا وتتولى تعليمهم مربيات. إلا أن الابن الأكبر كان يحتاج إلى الالتحاق بمدرسة محترمة وأيضا إلى حياة أكثر استقرارا. ومن ثم، اقتحما فى البداية الحياة فى بعض الأقاليم الإنجليزية واستقرا لبعض الوقت فى فولى على شواطئ ساوثامبتون، ثم قاما فى سبتمبر عام ١٨٩٦ بهجرة حاسمة إلى أكسفورد واستقرا فى منزل متسع شبه منعزل حيث ولد ابنهما الخامس آرنولد عام ١٩٠٠.

وكان منزلهما الجديد على شكل قلعة مصغرة من الطوب الأحمر ذا نوافذ ناتئة وتحصينات طبقا للأسلوب القوطى الفكتورى. ولو كان الشارع الذى قطناه جزءا

من مجتمع أكثر عراقة لتميزت العائلة، إلا أنه كان يرجع إلى عام ١٨٩٠ فقط وكان يسكنه معتربون مثلهما. لم يشك أحد في حقيقة أمرهما، على الأقل خلال حياة توماس كما لم يتأثر الأولاد. ومن الواضح أن عدم شرعية ميلاد لورانس لم تكن مصدرا للذنب أو الخجل إلى أن تكونت شخصيته. بيد أن هذا كان مدعاة إلى توتر كبير لتوماس وسارا وكان رعبهما من اكتشاف سرهما سبب امتناعهما عن الدخول إلى حياة اجتماعية نشطة حتى إنهما تحاشيا حفلات الشاى الأنيقة المتزمتة التي كانت تقيمها أرامل هيئة تدريس جامعة أكسفورد. واستمرت الأسرة في حياة داخلية منعزلة. وقد قال عنهم أحد جيرانهم لاحقا إن الأسرة لم تكن تتجول كثيراً في أكسفورد وكان لديهم بعض الأصدقاء شديدى الإخلاص. وكانوا دائما سعداء يتبادلون الفكاهة والنكات التافهة. إلا أن مسز لورانس كانت تتولاهم جميعا بالطبع.

وكانت سارا لورانس تتولاهم جميعا داخل المنزل بسوط من حديد. وقد لاحظ أحد الأصدقاء أنها كانت آسرة إلا أنها كانت مصدر خشية الآخرين إلى حد ما حيث إنها كانت تمارس تحكما مفرطا في جميع التفاصيل المنزلية. أما من حيث المظهر، فكانت صغيرة الحجم، أنيقة لها رأس جميل ويدان وقدمان صغيران، وشعر أشقر كث وعينان زرقاوان صافيتان ثاقبتان وفك يوحي بالإصرار. كانت حركتها دقيقة وكلامها واضحا مدروسا ومظهرها نبيلا. وكانت تنظر مباشرة إلى من تخاطبه بأعين مفتوحة وتعبير ساحر، ولا يفوتها شيء، وكانت ملاحظاتها ذكية وذاكرتها هائلة، ولها قوام يشع سلطة. كانت أيضا حريصة تصنع خبزها وتطعم العائلة العصيدة التي كانت تعدها بعناية وتطهوها على نار خافتة طوال الليل. أما أسلوب العمل في المنزل فكان هو أسلوب سارا فقط ولم يسمح للخدم أو للأطفال بالنقاش. لم تكن تسمح بإهدار أى شيء من المأكولات أو الفضلات. ونظرا لمعلوماتها الموسوعية عن النباتات فقد كانت تزرع أنواعا غريبة من الخضروات ولا تكل من زراعة الحديقة وتقدم الحبوب للآخرين لزراعتها وتنتظر النتائج. أيضا، كانت سارا قارئة نهمة تتكلم الفرنسية وتكتب مراسلات صحيحة بنفس الخط الذى كانت تكتب به حسابات بيتها الدقيقة. وإضافة إلى كونها ذكية، وعنيدة، ومترئسة، أو كما وصفتها إحدى جاراتها بأنها بدت وكأنها تعلم

كل شيء، كانت أيضا كريمة إلى حد الإفراط، قادرة على العطاء والتفاني، وبالنسبة لمن أحبتهم، كانت صديقة حقة مخلصة. ورغم عدم شعورها بالاسترخاء التام في حضرة من هم أسمى منها اجتماعيا، إلا أنها كانت بالتأكيد أوتوقراطية متعنتة مع الآخرين جميعا.

وكانت الدنيا بالنسبة لسارا إما سوداء أو بيضاء، صواب أو خطأ. لم تسمح بمساحة للمناقشة أو بهامش للحوار. أما المعيار الأخلاقي الوحيد فكان الوصايا العشر، والسلطة الوحيدة هي الإنجيل. لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تلقى منها مبادئ الحركة الإنجيلية الأصولية القبول. ورغم أن خطيئة الزنا مع توماس ظلت عبئا تحملته طوال حياتها، إلا أن مقولة أن الرب يبغض الخطيئة ويحب الخطائين كانت تذكرها بأنه مازال هناك أمل في الخلاص. كانت تستبصر هذا الطريق من خلال أطفالها الذين أنجبتهم من علاقتها الخاطئة وجعلت مهمتها تربيتهم جنودا أنقياء للمسيح. وجدت حافزا مشجعا لها في شخص أ. و. د. كريستوفر راعي كنيسة سانت آلديت بميدان بيمبروك في أكسفورد. وقد يعزى سبب انتقال عائلة لورانس إلى أكسفورد، إلى اللحاق برعايا هذا القسيس، حيث كانت العائلة قد استمعت إليه في آيل أوف وايت أثناء سكناهم فولي وتركت فيهم رسالة الحب التي بشرها بها أعمق الأثر.

وكان ينظر لرجل الدين هذا كشبح ذي قدسية حيث كان يقارب الثمانين حينما عرفته أسرة لورانس لأول مرة وعرف عنه رقته وحماسه وحيويته التي كانت تدفعه للخروج في جميع الأجواء وفي أي من ساعات الليل لعيادة المرضى والمسنين. وكانت الأصولية التي اعتنقها كريستوفر، قد تنامت كرد فعل للآراء الناقدة للكنيسة الأنجليكانية الرسمية التي أحبطت الطبقات الفقيرة. كان كريستوفر يدعو إلى تأكيد واضح للمبادئ المسيحية وإلى التفسير الحرفي للإنجيل والعودة إلى الأرثوذكسية المتطرفة للبروتستانتية الإنجليزية التقليدية ومن غير المحتمل أن يكون لورانس وامرأته قد اعترفا بسرهما له، إلا أنه من المؤكد أنه أصبح شخصا عزيزا شديد التأثير في حياتهما. كانت الأسرة تذهب للصلاة في الكنيسة بشكل منتظم وأصبح توماس عضوا في مجلس الكنيسة ربما نتيجة للمبالغ

السخية التى كان يتبرع بها ، وكان كريستوفر أيضا نائب رئيس جمعية الكنيسة للتبشير شديد الزهو بأن كنيسة سانت آلديت قد أمدت المبشرين بكثير من رجالها . وفى الوقت المناسب تولى كل من تبد وبوب التدريس فى مدراس الأحد التابعة لسانت آلديت كما أصبحا عضوان فى فرقة الصبية الخاصة بالكنيسة . وكانت غاية طموحات سارا أن يصبحا مبشرين ، ومن ثم يخلصان الأسرة من الظروف غير المقدسة لمولديهما .

وبحلول وقت التحاقهما بأكسفورد كانت سارا قد نجحت فى أن يقلع لورانس عن الخمر ، وطبقا لتعليق سير باسيل بلاكويل لاحقا ، فقد اكتسبت عائلة لورانس سمعة الحرص الشديد على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام والامتناع عن المسكرات والاقتصار على شرب الماء بشكل صارم حتى بمعايير تلك الأيام القاسية . وأمدت هذه القناعات الدينية توماس براحة روحانية ، وأصبح يتلو على أولاده صفحات من الإنجيل يوميا قبل ذهابهم إلى المدرسة ويؤم الصلاة المنزلية يوم الأحد . أما خارج نطاق العائلة فلم يكن له تأثير . كان طويلا ملتحيا متقاعداً . قالت عنه مسز بالارد التى اعتاد ابنها اللعب مع أبناء توماس ، أنه كان ودودا ساحراً إلا أن روح القيادة كان مصدرها مسز لورانس حتى إنها عندما سألت ابنها عن سبب تكرار ذكره لمسز لورانس وعدم ذكر زوجها أجاب بأنه مجرد زوج مسز لورانس . ونظراً لأنه كان خجولا يشعر بالاغتراب فى مجتمع أكسفورد شبه الأرستقراطى ، فنادراً ما كان يعبر عن مشاعره . رأى البعض أن مظهره كان متميزاً ، بينما تذكره آخرون شخصا هزيلاً تلتف حوله ملابسه كخيال المآتة. ظنه البعض غريب الأطوار مثاليا أو حتى معتوها . أما لورانس ، فقد رسم لاحقاً صورة رومانسية لأبيه كرجل «ذى شخصية متسعة الأفق ، متسامح ، ذى خبرة ، مهيب ، مندفع ، له حس فكاهى . . . «لوردا» بطبيعته ، وأنه قبل أن تروضه سارا كان مسرفاً ، رياضياً ، كثير ركوب الخيل وشرب الخمر» . كان توماس «جنتلمان» ينتمى لطبقة الملاك ، ورغم قلة موارده النسبية ، إلا أنه لم يحتج إلى العمل أبداً ، وكان يقضى أيامه يمارس اهتماماته مثل التصوير وركوب الدراجة وممارسة النجارة ودراسة معمار الكنائس وأحياناً ركوب اليخت واقتناص الطيور فى نيوفورست حيث كان قد استخرج تصريحا بالقنص هناك . ونظرا لوجود وقت فراغ كبير لديه ، فقد تمكن من تعليم أبنائه هذه المهارات

مما جعل لورانس يجبد التصوير حتى قبل انتهائه من دراسته . كما أصبح مثل والده مغرما بركوب الدراجة والمركبات المائية وأعمال النجارة وحبيرا في معمار العصر الوسيط وماهرا في استعمال البندقية . كان توماس يستمتع برفقة أبنائه ويمارس معهم ألعاب الكلمات ويطلع على المجلات التي يقرءونها ويصطحبهم في نزهات للبحث في الحفريات أو آثار العصر الوسيط . إلا أن تأثيره كان أقل بكثير من سارا . كانت شخصياتهما متضادتين لدرجة أن لورانس أرجع أثر «الشياطين التي كانت تراوده » إلى طبيعتهما المتنافرتين. إلا أنه في الواقع لم يكن هناك سوى القليل من الشواهد على التنافر . فطبقا لكل التقارير ، كانت علاقتهما دافئة وكان الجو المنزلي متآلفاً . ويبدو أن طبيعة توماس المتحفظة كانت تكمل روح سارا النارية ، كما أنه نظرا لحبه للسلام ورقته ، فقد عمد إلى الاحتفاظ بمهاراته الفائقة لنفسه وعبر فقط عن ديبلوماسيته وتسامحه ، إلا أن لورانس قدس الصورة التي رسمها بنفسه له كشاب مولع بركوب الخيل العنيف والشراب . كان توماس في جوهره رجلا سهل القيادة تهيمن عليه سارا وكان لورانس دون وعى منه يحتقر افتقاده للسلطة . لذا ، ظل يبحث عن شخصيات أبوية أكثر قوة طوال حياته ، ومن ثم ، كتب إلى اللورد ترنشارد ، أحد هؤلاء ، عام ١٩٢٨ قائلا «لو كان أبي بمثل حجمك ما تملّكت الدنيا آذانا كافية (للاستماع) إلى نزواتي وأفعالي الغريبة» . وظل توماس ، إلى جانب سارا ، شخصية هامشية : سكيرا أقلع عن الشراب يطوى أيامه في مقعده مدخناَ ، أو ربما ليقرأ كتاباً ، هكذا تذكرته مسز بالارد .

إلا أن الأسرة كانت تعتمد على دخله . فبعد ميلاد ابنه الثاني بوقت قصير ، أى عام ١٨٨٨ ، وقع اتفاقية تنازل بمقتضاها عن إدارة ضيعته في أيرلندا لأخيه الأصغر فرانسيس مقابل دخل سنوى له قدره مائتا جنيه ، إلا أن لورانس ادعى فيما بعد أن والديه كانا يعيشان حياة شبه فقيرة وتبنى مؤرخ لورانس ، بازيل هارت ، هذه الأسطورة باقتناع . وفي الواقع ، فإن دخل الأسرة من الأموال الأخرى والإرث ربما كان يصل إلى ستمائة جنيه استرليني سنوياً ، وكان هذا كافيا لجعلهم في وضع اجتماعي متميز . إذ إنه ، فيما بين عام ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، كان عدد سكان بريطانيا ٤٣ مليونا كان خمسة ملايين منهم فقط يعيشون على دخل يزيد على ١٦٠ جنيها استرلينيا سنويا . وكانت الملايين الثلاثة التي تتراوح دخولها ما بين ١٦٠ ،

٤٠٠ جنيه سنويا توصف بأنها تحيا حياة مربحة بينما كان يقال عمن تجاوزت دخولهم الـ ٧٠٠ جنيها سنويا أنهم أثرياء. ورغم عدم انتماء العائلة للفئة الأخيرة أثناء طفولة لورانس. فقد كان بإمكانهم توظيف خادمتين والاستمتاع بإجازات مكلفة كل عام. فقد تكلفت رحلة لورانس إلى سوريا عام ١٩٠٩، مثلا، ما يربو على مائة جنيه استرليني أى ما يعادل الدخل السنوى لمعظم البريطانيين فى تلك الفترة. أى أنه، طبقا لكل المعايير، سوى الأكثر ارتفاعا، كانت أحوال الأسرة المالية سعيدة إلى أبعد مدى.

قال لورانس، فى وقت لاحق، عن أبيه إنه كان صديقا أكثر منه مصدراً للسلطة، موحيا بمساواة غير معهودة فى علاقات الأبناء بالآباء فى ذلك الوقت. وفى الواقع، كان توماس رقيقا ورومانسيا بدرجة لم يستطع معها ممارسة العقوبات الجسمانية على أبنائه، تاركا هذه المهمة لسارا ذات العزيمة القوية؛ وكان هذا قلبا للروح السائدة فى العصر الڤيكتورى. وكان لتربية والدى سارا بالتبنى البيوراتينيين أثر فى استبطانها المثل القائل «وفّر العصا، تُفسد الطفل» فكانت تعمد إلى جلدهم على مؤخراتهم العارية عقابا على العصيان والعناد والكذب معتقدة أنها بهذا تنفذ المشيئة الإلهية. فالأطفال، طبقا لعقيدة المذهب الإنجيلى لا يولدون أبرياء، بل ملوثين بخطايا أسلافهم؛ فأطفال الزنا معرضون لأن يطوروا رغبات جنسية عارمة فى سن مبكر. ومن ثم، كان كلما كبر الأبناء مارست سارا يقظة الصقور تحسباً لأى مظاهر شهوانية لتعمد إلى قتلها فى مهدها. وكانت تحرص على رعيتها بشراهة وتملك من عرف الانغماس، وتشك فى مكائد النساء وخداعهن. وفى هذا الصدد، تعلق مسز بالارد قائلة إنها لم تكن تريد لأى من أبنائها أن يتزوج حتى إن إيرنى (شقيق لورانس) حينما خطب كتب خطاباً إلى مسز بالارد يطلب منها إبلاغ أمه بالنبأ.

كانت حاجة سارا للهيمنة على عالمها عمياء، ويائسة، ولا عقلانية. وكان مظهرها المسيطر، العالم ببواطن الأمور يخفى غضباً وألماً وشكوكاً يتعذر سبر أغوارها. لقد أحست ڤيكتوريا أوكامبو، التى عرفتها فى شيخوختها، أنها كانت امرأة تغلى بالعواطف الجياشة التى حبستها فى قميص حديدى من تصميمها الذى لا يلين. فقد ترك فيها حرمان طفولتها خوفاً مزمناً من النبذ، وفراغا عاطفيا هائلا

كانت تملؤه فقط باستنزاف طاقة واهتمام وتوكيدات زوجها وأبنائها وأى شخص يقع تحت يدها. كان بوب، أكبر أولادها وهو العطوف الخجول المحتشم، أول من أذعن لطلبها النهم للحب والاهتمام، ولم يتمكن قط من الفرار؛ فتبنى فلسفتها الأصولية الدينية ولم يتزوج، وبقى ملتصقا بها بقية حياته. كما أنه كان الوحيد من بين أبنائها الذى حقق طموحاتها وأصبح طبيبا ومبشرا فى الصين، حيث لحقت به سارا بعد وفاة توماس عام ١٩١٩. وحينما زارتها ڤيكتوريا أوكامپو فى الخمسينيات، وجدتها فى سريرها تعانى من ساق مكسورة، بينما كان بوب، وقد أصبح كهلاً، يقطن الغرفة التى تحتها مباشرة حيث كان يسارع بالصعود إليها، كما لو كان خادماً، حينما كانت تدق الأرض بعصاها. وقد وصفت سارا هذا الترتيب بأنه مريح.

أما نيد (لورانس)، فقد نما لديه فى طفولته رعب من أن تكتشف سارا عن مشاعره وقد كتب نيد لاحقا يقول إنها لو تمكنت من كنمها لفسدت مشاعره وانتهكت وكف أن تكون ملكه. وخلافا لبوب، كان لورانس ذا مزاج انفعالى، وكانت الضغوط عليه تولد المقاومة حتى إن مدرسيه فى المدرسة كانوا يتراجعون تلقائياً بعد أن يحاولوا إجباره على ما لا يريده. وكان من الحتمى أن ينجم تصادم فى الشخصية بينه وبين سارا، وفى هذا الصدد، كتب لورانس قائلا: «لم تكن هناك أبدا ثقة بينى وبين والدتى فقد كان كل منا يسعى إلى حماية ذاته كلما التقينا». كان وسارا صورتين متطابقتين تجذب إحداهما للأخرى وتنفران من تطابقهما. ورغم أنه كان حساساً لرغباتها يتوق لإرضائها إلا أنه كان يعلم يقينا أنه إذا رفع درعه العاطفى فإنها ستتعلغل داخله وتلتهم استقلاله كما التهمت استقلال بوب. ورغم أنه لم يكن ابنها المفضل، إلا أنها كانت تعقد عليه آمالا كبارا، وكان عليه طبقاً لها أن يكون كاملا، وشجاعاً، ونبيلا، وقوياً، ويعمل جاهدا، وصدوقا، ويحترم الآخرين، ومطيعا ومحباً، أى «فارسا أبيض نقيا». وقد كشف آرنى النقاب عن أن نيد كان هو من يتلقى النصيب الأكبر من ضرب أمه سارا، وشعر أنها قد أصابته بالأذى بشكل دائم. ورغم أنه لم يحدث أن ضرب بوب أو ويل، وأن آرنى قد ضرب مرة واحدة فقط، إلا أن عناد نيد الدائم كان يؤدى إلى ضربه باستمرار. ولم يكن التبرير الإنجيلى للضرب إلا قناعا لهذا الصراع على القوة. فلم يحدث

مثلاً أن تم جلد بوب لأنه لم يكن يبدى أية مقاومة فقد كان ووالدته على وفاق تام. أما نيد، فكان يستنير عزمها على كسر إرادته إلا أنها لم تنجح فى هذا بل إنها فى الواقع أدت إلى تقوية إصراره حيث إنه كان يزداد تصميما على عدم الخضوع مع كل ضربة يتلقاها. أصبح منفصلا عن الألم وعن الجسد الذى كان يتلقى العقوبة، إلا أنه نمى إرادته لدرجة أصبحت معها وحشاً ذا حياة مستقلة ـ أفعى ستؤدى لاحقاً إلى خنق قوته الإبداعية. إلا أن شخصيته كانت فى النهاية من صنع سارا بدرجة لا تقل عن أخيه الأكبر. فقد كان الولدان الأكبران يميلان إلى الاستجابة لمتطلباتها بأسلوبين متضادين تماماً ـ خضوع تام من جانب بوب ومقاومة كلية من جانب نيد ـ وقد تركت التجربة الجراح فى كليهما. وقد قال أحد الأصدقاء أن نيد وأمه كانا صديقين وهما بعيدان، أما إذا اجتمعا لمدة قصيرة، فإنه كان يجد نفسه مجبرا على أن يعاود القتال من أجل حريته العقلية. أما آرنى، الذى كان يصغر نيد باثنى عشر عاما، فقد خاض معارك شاقة ليحرر نفسه من قبضة والدته سارا، إلا أنه مع مرور الوقت نجح فى اختيار طريق ثالث، فقد تعود ببساطة ألا يلقى إليها بالاً وكان الوحيد من بين الإخوة الثلاثة الذين نجوا من الحرب والذى تزوج وأنجب طفلاً وعاش حياة تقليدية.

وكان لورانس، فى وقت لاحق من حياته، يستأجر رجلاً يدعى جون بروس ليجلده بين الحين والآخر على مدى ثلاثة عشر عاماً، وقد لجأ إلى اختراع مزيج معقد من الأكاذيب كى يفسر ضرورة هذا الإجراء. وقد كشف بروس عن حقيقة أن لورانس كان يجد إرضاء جنسياً من هذه الممارسات. إلا أنه من المحتمل أيضاً أن مثل هذا السلوك كان يعزى إلى الخبرات المروعة أثناء الحرب. وعلى الجانب الآخر، فهناك آثار واضحة لمازوكية لورانس (حبه المرضى لإهانة وتعذيب ذاته) فى اهتمامه المبكر بعقاب الذات ونكرانها. فكمراهق، تعود أن يصوم، ويظل دون نوم، ويحرم نفسه من اللذة، ويجبر نفسه باستمرار على السير وركوب الدراجة الطويل المضنى. وكان أيضاً يمارس الغطس فى الثلوج فى نهر تشيرويل المتجمد خلال ليالى الشتاء القارسة. ويبدو أن المحتمل هو أن الأزمات العنيفة التى خبرها لورانس أثناء الحرب عملت فقط على تكثيف المازوكية التى كانت جزءاً من تكوينه منذ أيامه المبكرة جداً ـ والتى انبثقت من خلال علاقته بسارا. فكان الصراع غير

المحتمل بين الانجذاب والنفور لا يحسمه سوى العقاب الجسماني، ولم يكن بمقدور الضرب القاسي أن يبعد شبح الشبق الجنسي، لكنه كان تعويضا عن الرغبة المحظورة. ومع تقدمه في السن، نما لديه رعب من المشاعر المرتبطة بالفعل الجنسي وأصبح مجبرا على أن يقلل من قلقه بإيجاد الموقف الذي كان يخشاه: فبدلا من الهروب بعيداً عما يتهدده أخذ يهرب باتجاهه. وقد نصح تشارلوت شو بعد ذلك بسنوات عديدة، قائلا «اعملي على استثارة مالا مفر منه بأشد الأساليب اكتمالا وسرعة». وكان الألم مصدر رعب للورانس طوال حياته طبقا لما كتبه لأخيه لاحقا: «لقد كان أقل القليل من الألم هاجسياً ورعبي الخفي منذ أن كنت صبيا». وقد أكد أخوه آرني أن خوفه من الألم كان غير طبيعي. ومن ثم، كان يتمكن من توقع ما كان يخشاه ويكتسب قدراً من التحكم فيه عن طريق إيقاع العقاب بنفسه الغطس في المياه المتجمدة، والصوم، وحرمان نفسه من النوم كي يصل إلى أقصى حدود التحمل الجسدي. وقد يكون لورانس هو الذي كان يعمد إلى استثارة التصادمات العنيفة مع أمه، لا شعوريا، كجزء من «هروبه القسري إلى الأمام».

لم يكن ما يشعر به من التهديد جسديا فقط بل أيضا نفسيا. فقد كانت أمه تحاول باستمرار سبر أغوار أحاسيسه الدفينة مما تسبب في كراهيته مدى الحياة لما كان يدعوه «الأسر ومحاكم التفتيش». ونخير أن يحمي نفسه من هذا التهديد النفسي بالانسحاب العاطفي ـ باكتساب نوع من التحفظ الذي تجاوز أمه ليشمل كل من تعامل معهم من الأفراد تقريبا. فقد كان يبدو، حتى أثناء طفولته، متباعدا عن مجاميع الأطفال الآخرين وبدا وكان هناك حزنا دفينا لا يمكن سبر غوره. وقد لاحظ مدرسوه أنه كان صامتا، رابط الجأش غامضا، وكان ثمة ملمح لقوة داخلية لا يمكن الإلمام بها. وكانت معرفته كشاب أمرا عسيرا، وتميز بكونه غير فضولي، مرح لدرجة الصخب أحيانا إلا أنه كان شديد كتمان ما بداخله. وفي هذا الصدد، كتب عنه أرنست ألتونيان أنه كان ببساطة «لا شخصي، فرد يشق الحياة، تدفعه ماكينة شبه صامتة». وكثيرا ما كانت حاجته لحماية نفسه تظهر في صورة هاجسية ترافقها صور حصار حربي وهجوم ودفاع. وقد كتب في هذا الشأن عن والدته قائلا. «أعتقد أنني أخشى أن أدعها داخل دائرة نفسي المنغلقة ولو بقدر طفيف. فقد كنت أعتقد أنها ما فتئت تحاصرني وأنها ستنتصر لو تركت شقا دون

حماية». وسنعاود هذه الصورة عن نفسه كدائرة أو قلعة مكتملة الظهور تكرارا. وحتى كصبى، فقد كان يقص على إخوانه قصة لا تنتهى عن الدفاع عن قلعة بواسطة عرائس حربية ضد حشود الأعداء الهمجيين. كما تظهر هذه الموتيفة مرة أخرى فى دراسته عن قلاع الصليبيين فى بريطانيا وفرنسا وسوريا التى كرس لها جل شبابه والتى قادته إلى بحثه الذى قدمه للحصول على درجته العلمية. وقد لاحظ سيريل «سكروجز» بيسون الذى رافقه فى بعض رحلاته للقلاع فى فرنسا أن اهتمامه لم يكن أساسا بالتاريخ الحربى بل بعقول المصممين وقلوبهم والمدى الذى أخضع التاريخ نواياهم للاختبار. وفيما بعد، وضع أسس نظريته فى الحروب غير النظامية على المعرفة التى اكتسبها من دراسته لتلك القلاع. وهكذا، فقد كان لهذا النموذج الذى تم تشكيله فى الأعماق السحيقة لطفولته أن ينبثق يوماً إلى الضوء كاستراتيجية يستخدمها ببراعة وبدرجة من النجاح الفذ فى «الثورة العربية».

قال نيتشه ـ الذى كان محل إعجاب لورانس الشديد ـ إن كل روح عميقة تتطلب قناعا. وكان القناع الذى ارتداه لورانس هو قناع المفارقة. فكان تباعده بخفى شوقا إلى انتباه الآخرين، وإلى الشهرة والتميز، أى تلك الأمور التى كان يحتقرها ولم يسمح لنفسه بإظهارها. فكان التباعد حاجزاً خلقه فى مواجهة العالم الخارجى، ووسيلة لمنع أى أحد من الاقتراب أكثر مما يجب. لم يكن بإمكانه أن يسترخى فى حذره إلا فى حضرة من هم أصغر منه سناً أو أقل منزلة، ورغم أنه فى وقت متأخر من حياته كوّن علاقات مع العظماء والمشاهير، إلا أنه اعترف لجون بروس ـ وهو رجل قليل الحظ من التعليم ينتمى إلى الطبقة العاملة ـ أنه لا يمكن الوثوق بمعظم علية القوم هؤلاء. وكان شعوره بأنه غير جدير بالحب مظهرا من مظاهر طبيعته المازوكية، كما منعه رعبه من الفشل من الكشف عن دخيلته. ومن ثم، وجد وسيلة أخرى لاجتذاب الناس موظفاً تباعده كأداة لجذب الانتباه، فكان يفصح عن لمحات ما يلبث أن يعمد إلى إخفائها ويغلف نفسه فى عباءة من الغموض المحير. وباختصار، وكما قال السير هارولد نيكلسون عن حق، فقد اكتشف لورانس مبكراً أن الغموض أنباء تتداول. فكان زملاؤه فى المدرسة والجامعة ينظرون إليه كشخصية شاذة، وكان يثير حيرة الآخرين بخصائصه غير المألوفة، كأن يصعد

المرتفعات راكباً دراجة ثم يهبط على قدميه ، أو أن يجلس فى قاعات الطعام بالجامعة ولا يأكل شيئاً ، أو أن يتبنى أنظمة غذائية غير مألوفة أو يرفض المساهمة فى الألعاب المنظمة أو أن يصوم يوم عيد الميلاد بينما ينشغل الجميع فى الولائم . وكان هذا البحث عن الاهتمام المبالغ فيه ظلاً لتباعده ، والمظهر الاجتماعى لمازوكيته .

وسرعان ما تعلم لورانس أن يغلف كل ما يفعله بالطقوسية والرومانسية ، وقد وجد هذا الأسلوب ناجحا بشكل ملفت ، ومن ثم عمد إلى شحذه ليجعل منه الشفرة ذات الفاعلية القصوى فى أسلحته . وتعلم منابلة الآخرين بواسطة هالة الغموض التى أحاط بها نفسه واختلاق آثار زائفة وتلفيق شباك لا نهائية من الألغاز والأحاجى ، كما أتقن إثارة حيرة من هم موضع اهتمامه بما أسماه المشاكسة غريبة الأطوار أو «الجدية فى غير موضعها» بحيث يستحث فضولهم ، ثم يندفع هاربا بشكل فجائى على أمل أن يتعقبه من هو موضع اهتمامه لمعرفة من هو هذا الشخص غريب الأطوار . وكان القليلون فقط هم الذين استطاعوا مقاومة نزواته . كما منحته نكاته وتهريجه والتوهجات المفاجئة لألمعيته ، أو ممارساته الخبيثة الشيطانية ، مقدرة لا تكاد تخفق على سحر الآخرين والإيقاع بهم حتى إن بازيل ليدل هارت شبهه بالمرأة التى ترتدى الحجاب وتكشف عن صدرها ، هذا ، بالرغم أن ليدل هارت قال عن ميول لورانس الاستعراضية إنها كانت «استعراضية مقلوبة» ، أى الرغبة ، لا فى استعراض جماله ومهارته ، بل لعرض قبحه ومعاناته وخزيه . وكأبعد ما يكون عن عشق الذات ، فقد كتب لورانس قائلا إنه يحتقر هذه الذات التى يكاد يسمعها ويراها .

الفصل الثاني

امنحنى النور يا إلهى

سنوات الدراسة

١٨٩٦ـ١٩٠٥

2

رغم أن أكسفورد كانت

على مدى نصف قرن، وقبل

وصول عائلة لورانس إليها عام

١٨٩٦، آخذة في التغير البطيء،

إلا أن حركتها كمدينة ظلت

بخطوة زمن

عربات الخيل.

كان الرجل الذى حولها فيما بعد إلى مركز صناعة سيارات، أى اللورد نافيلد، مازال يدعى مستر ويليام هنرى موريس مجردا من أى لقب، وكان حينذاك صانع دراجات وصاحب حانوت. وظلت المدينة كما قال عنها چان موريس ورشة تحيطها هالة لا أرضية، مليئة بالحرفيين المحترمين الذين تنبعث أصوات مطارقهم من الحوارى الخلفية، تخالطها طقطقات أنوال النساجين المنبعثة من شارع مجدولين. وكانت القليل من الكليات الجامعية قد اقتنت بعض السيارات إلا أن وسيلة النقل الشائعة فى شوارع أكسفورد كانت كراجات مصانع جعة هول أو موريل. كما كان المفروض ألا تتجاوز سرعة الترامات التى تجرها الأحصنة ـ كان هناك تسعة منها عام ١٩١٠ ـ ثمانية أميال فى الساعة كما كان يتم التنبيه على سائقيها بالإبطاء لدى مرور قطعان الماشية والتوقف تماما لدى مرور قطعان الأغنام. كانت أكسفورد مدينة محترمة ذات إيقاع بطىء، مكانا تضاء مساكنه بالكيروسين، بها قوارب للكليات الجامعية، وفرق إطفاء خاصة، وعربات تجرها الخيول، وكان بائعو الحليب مازالوا

يحملون بضائعهم فى مخمضات على عربات يد من مستودع ألبان سانت آلدين كما كان الكنبة الذين يعملون بالجامعة مازالوا يزنون الزبد فى السوق المغطى أمام كلية يسوع، والصبية يرتدون السراويل القصيرة الواسعة المزمومة تحت الركبة والقمصان ذات الياقات المجنحة، والفتيات تركب الدراجات مرتدية فساتين شبيهة بتلك التى كانت ترتديها شخصيات «أليس فى بلاد العجائب»، وبعضهن يمارسن رياضة التنس فى ملاعب الجامعة بمظهر خجول وهن يرتدين التنورات التى تغطى السيقان وقبعات من القش.

سافرت إلى أكسفورد لعلى أستعيد شيئا من الجو الذى نشأ فيه تى. إى. لورانس، وأتذوق رؤياه لبريطانيا التى حملها معه إلى الصحراء والشرق. ورغم أن الأيام قد ولت، وحل الترام ذو الطابقين محل ترام الأحصنة منذ زمن بعيد، فقد وجدت أن جزءا كبيرا من أكسفورد بداية القرن مازال باقيا. وقفت أمام المنزل رقم ٢ فى شارع بولستيد، الذى قد أصبح الآن مبنى رثا محاطا بأوعية القمامة التى تطفح بمحتوياتها، وتقف سيارات صدئة من ماركة مور... فى الفناء الأسمنتى،

وأجهدت أذني مخترقا عقودا مضت على أستمع إلى أصوات أبناء أسرة لورانس الكبار، بوب وبد وفرانك وويل وهم يغادرون المنزل إلى المدرسة كل صباح في ذلك الصيف القائظ المشرق في إنجلترا القديمة قبل أن تعبر الحرب العظمى العالم إلى الأبد. سرت في شارع وود ستوك باتجاه وسط المدينة ممسكا في مخيلتي بصورة الأولاد وهم يركبون دراجاتهم صفا واحدا في نظام صارم طبقا لسابع أعمارهم ويرتدون الملابس الصوفية من ماركة بيرتون المقلمة بالأزرق والأبيض والتي كادت تكون زيا رسميا للعائلة. مررت بتلك القبلات الحجرية الضخمة ذات الدرجات الجرانيتية والأروقة ذات الأعمدة المصمتة والتي كانوا يبصرونها في طريقهم، نفس القصور من الحجر الجيري الأصفر ذات القوائم من خشب الصنوبر، ومررت بقاعة الصلوات القوطية الفيكتورية، في شارع جي. إي، التابعة لكنيستي سانت فيليب، وسانت جيمس في مقاطعة أو صبغة والنون، ومنها إلى المتراس الأنجلوساكسوني لكنيسة سانت ماكيل في كورنر ماركت. مررت بنفس المحلات القائمة على نواصي الشوارع وبنفس الأكواخ ذات الشرفات، ونفس الحانات ذات الإسمين مثل الحصان والجوكي، والنسر والطفل، وأيضا نفس الواجهات التي تدل على التقشف الإليزابيثي لكليات باليول وسانت جون. ملت يمينا قبيل برج ساكسون وسرت بطول شارع جورج في اتجاه مدرسة الصبية على ناصية شارع نيو إن هول. كان المبنى مازال هناك، لكنه لم يعد مدرسة ولم يعد أيضا يقع في مقابل كنيسة سان جورج كما كان الأمر في زمن لورانس، فقد هدمت الكنيسة وحل محلها دار عرض إي. بي. سي. كان مبنى المدرسة فيكتوريا مهيبا صلدا، ذا أقواس وشرفة كنسية نقش على جانبيها الشعاران اللاتينيان: «امنحني القوة يا إلهي» و«الحق هو القوة». قضى لورانس عشر سنوات في هذه المدرسة. وحلم أثناء وجوده هناك بتحرير العرب من قيد الأتراك العثمانيين حيث كتب قائلا: «كنت أستدعي في مخيلتي آسيا الجديدة التي كان الزمن المتسلط يأتي بها إلينا ببطء، استحوذت فروسية العرب على غريزتي الصبية بينما كنت طالب ثانوي بأكسفورد وفكرت حينذاك أن أجعل منهم أمة». وقد يكون هذا هاجسا غير معتاد لطالب مدرسة لم يسبق أن ذهب إلى الشرق. إلا أن لورانس كان قد عرف الجغرافيا والتاريخ. فكانت دراسته اليومية للإنجيل قد جعلت جبال مدين ومؤاب Moab وإيدوم Edom

ويهودا والأماكن الأخرى شبه معروفة لديه كشوارع أكسفورد، كما أمده كتاب صغير يدعى «المساعد فى دراسة الإنجيل» بتفاصيل عصرية إذ وجد بين غلافيه المتواضعين مسحا للأرض المقدسة وفهارس للنباتات والأزهار والثدييات والزواحف والطيور والأسماك التى وردت فى الإنجيل، وأسماءها بالإنجليزية واللاتينية والعبرية وأحيانا بالعربية. وكفتى، تخبر جائزتين مدرسيتين عبارة عن كتابين عن تاريخ مصر واقتنى بعد ذلك أعمال هنرى ليارد عن الحفريات فى بلاد الشام القديمة ولم تكن تلك الأعمال أكاديمية متحجرة بل مغامرات مثيرة تمثل النظرة الفيكتورية إلى الشرق كمكان للغموض والغرابة والمدائن الخرافية المدفونة تحت رمال الصحراء التى تجوبها قبائل البدو. واكتشف لورانس فى كتابات لايارد كل العناصر التى لابد وأن الشرق كان يمتلكها: الغرائبية والحسية والفتنة. كان لا يمكن مقاومة هذه الصورة، وظل طيلة شبابه يعى الشرق كعالم مواز، أو كبعد قد يجد الفرصة فى الفرار إليه مستقبلا.

إلا أنه كانت ثمة مهمات مدرسية أقل إغراء يجب الالتفات إليها أولا. ولقد تذكر لورانس أيام دراسته كزمن بائس، ورغم ذلك فقد برهن على كونه سريع التعلم بدرجة غير معهودة حيث تفوق على بوب الذى كان قد علمه القراءة والكتابة. كانت لديه مقدرة مبكره على تعلم اللغات، وكان يعرف الفرنسية الدارجة منذ الأيام التى قضاها فى بريتانى، وأيضا بعض اللاتينية التى كان يدرسها الأولاد على يد مدرسين متخصصين استعدادا للالتحاق بالمدرسة. وكان يمتلك ذاكره قوية وأصبح قارئا سريعا قادرا على استيعاب جوهر أى كتاب خلال نصف ساعة طبقا لقوله. فاز بجائزتين فى عامى ١٨٩٦ و١٩٠٣، ثم حصل على جائزة السنة الخامسة فى اللاهوت رغم زعمه عدم إكمال إجابته كي يعطى لبوب فرصة للفوز وكان مازال فى الفرقة الخامسة. وفى السنة نفسها جاء ترتيبه الثمانين فى امتحانات أكسفورد المحلية .ورغم نجاحه الواضح إلا أن المدرسة لم تستحوذ على اهتمامه لأنها لم تعلمه ما يريد أن يعرفه وكان أن كتب فيما بعد أنها «كانت مضيعة للوقت، بغيضة، غير ذات جدوى، لقد كرهتها وازدريتها».

وربما كان شعوره بعدم الانتماء بين أقرانه أحد أسباب ذلك. فقد نما لديه منذ

أيام الدراسة شعور بالغرابة لم يفارقه تماما . . وكتب لاحقا بقول «إن هذه الغرابة لابد وأنها اخترقتني حتى النخاع . فقد شعرت بالغرابة في أكسفورد وكذلك في مطاعم الضباط (أثناء خدمتي) . كنت أشعر بالاختناق كسمكة تم اصطيادها وتركت في قارب مليء بالسواح» . وكشاب ، كان لورانس يرى نفسه دوما عملاقا محبوسا في جسد قزم وكان لصغر حجمه ومظهره غير الملفت أن يؤثرا في مفهومه عن نفسه طوال حياته . وفي زمن لاحق ، كان يستعمل لفظ «كبير» كلاحقة منفصلة ينعت بها من يعجب بهم بما في ذلك الأعمال الفنية والأدبية التي كانت تلقى إعجابه . ورغم ادعائه احتقاره للألعاب المنظمة لأنها تجرى طبق قواعد ونتائج ، إلا أن ما أدى به حقيقة إلى رفضها كان إحساسه بعدم اللياقة البدنية . أصبح شعاره الشخصي «لا تتنافس أبدا على أي شيء» . وقد أثر هذا في أخيه الأصغر آرني لدرجة أنه اعترف بعد سنين أن الحرج اعتراه حينما سأله نيد ذات مره عن نتيجة سباق كان قد اشترك فيه . ورغم أن إخوته وافقوه ظاهريا على نزوته غير التنافسية احتراما له ، إلا أن صفاتهم الحسمانية غطت على صفاته . فقد كان ويل ـ الذي كان يصغره بثمانية عشر شهرا فقط وكثيرا ما يقارن به ـ طويلا ، رياضيا ، ومثالا للتفوق الجسدي الكلاسيكي . وكانت المقدرة الرياضية التي فاز بمقتضاها ويل بجائزة في كلية سانت جون ، تفوقها مقدرة أخيه الأصغر فرانك الذي كسب كأس التحدي في الرياضة حينما كان في المدرسة الثانوية وكان بطلا لألعاب القوى لمرات ثلاث ، وقائد فريق كرة القدم ونائب قائد فريق الكريكيت . وقد شعر لورانس بالإهانة بكسر تقاليد الأسرة اللاتنافسية . وفي الواقع ، فإن شعاره «لا تتنافس أبدا» كان أحد المظاهر المتناقضة لقناع لورانس الذي حجب به طبيعته التنافسية القوية لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يسمع مديح أحد دون أن يشعر بالتضاؤل . إلا أن تقديره لنفسه كان من الضآلة بحيث إنه كان إذا امتدح مباشرة أنكر ذلك المديح كأمر غير مستحق . كان رفضه لمعايير الطبقة الوسطى مظهرا لاستعراضيته المقلوبة ، وكان رفضه المشاركة في أي رياضة منظمة أكثر تعبيراته المعلنة لهذا الرفض . وقد يكون من الصعب الآن معرفة كيف كانت البراعة الرياضية في الفترة الفيكتورية / الإدواردية تقترب من القدسية ، وكان من المفترض أن الرياضة تولد «العزم الحق» ، و«الإنصاف» و«الصحة الجيدة» و«روح الفريق»

و«التهذيب»، تلك الصفات التي كانت وثيقة الارتباط بأسطورة الإمبراطورية. وكان ثمة اعتقاد جدي في أوساط كثيرة أن بريطانيا تدين بإمبراطوريتها للرياضة، وأن المعارك التي جعلتها إمبراطورية عظمة قد كُسبت أولا «في ملاعب مدرسة إيتون». وكانت «حملة الطهارة» في أواخر القرن التاسع عشر قد أدت إلى تغيير مفهوم الرجولة وحلت القوة الجسدية محل القوة الأخلاقية، والعذرية الجنسية محل النزاهة الأخلاقية. وفي هذا الوقت عرَف أحدهم الذكورة بأنها «الواجب الوطني، والجمال الأخلاقي الجسدي الرياضي، والتأثير المحبب للعادات الإسبرطية والتحكم في الذات، واكتساب كل ما هو ذكوري والتخلص من كل ما هو أنثوي، لا إنجليزي، وعقلاني مفرط».

ولمعظم سني حياته، كان لورانس يقدس الصفات الذكورية لأنه عرف أنه ليس ذكوريا بالمعنى التقليدي رغم قوته الجسمانية العظيمة. ورغم أن الكثيرين شهدوا أنه كان أقوى من معظم من هم في حجمه ووزنه، إلا أن مظهره وهو شاب لم يترك هذا الانطباع، كما أن حساسيته لهذا الأمر توحي بأنه كان يؤرقه. ففي خطاب لوالدته من فرنسا عام ١٩٠٦، ثمة تلميح دفاعي في إصراره على أن الناس هناك يقولون إنه أنحف من بوب لكنه أكثر قوة رغم أنهم يفضلون ضخامة بوب على عضلاته هو باستثناء مدام شانيون التي صدمت حينما رأت عضلاته وهو يستحم واعتقدت أنه هرقل. كما أنه تفاخر أنه في أثناء مسيرته في سوريا عام ١٩٠٩ بأنه قطع ١٢٠ ميلا على الأقدام في خمسة أيام، ثم أضاف قائلا إن بوب وويل قد يضحكان من ذلك لكنهما لن يفعلا ذلك إن كان عليهما السير متعثرين في تلك الطرق البشعة. وهناك تقارير كثيرة عن معارك لورانس الجسدية حيث يبدو أنه كان يُهزم باستمرار حتى إن ساقه كسرت في إحدى تلك المعارك بالمدرسة. وفيما بعد، أخبر ليدل هارت أنه لا يوافق على التعارك بالأيدي، كما أنه كتب قائلا إنه إذا اقتضى الأمر العراك الجسدي فهو مقضي عليه. كما ترد على لسانه عبارات «صبياني» و«باتي» كثيرا بدرجة تسترعي الانتباه في وصفه لمن حوله حتى آخر أيام حياته مما يوحي بأنه كان ينظر لمظهره على أنه خنثوي. وكان وهو في الثانية عشرة من عمره ذا حساسية نادرة بين الصبية المراهقين، فكان يغمره السرور لرعاية أخيه الوليد آرني، وكان يقوم أحيانا بغسله في حوض حديدي وجره في

عرينه إلى ملعب كرة القدم حيث كان يمارس رفاق دراسته الأقوياء هذه الرياضة الذكورية. وحدث حينما تملك الخوف آرني وهو في الثالثة من عمره من التماثيل في أحد المتاحف، أن قام لورانس بنحت وجه حجري وأعطاه إياه كي يحطمه بمطرقة ليطرد الخوف. وكانت تلك استراتيجية مؤثرة إذ أصبح آرني أستاذا للآثار في كامبريدج وألف كتابه الشهير عن فن النحت الكلاسيكي، بالإضافة لما يوضحه تصرفه من مقدرة لورانس المدهشة على التوحد مع الأطفال. وكان آرني يعتقد أن مقدرة لورانس الخاصة على معرفة ما يعبر عنه عيون الآخرين تنحت عن فقدان داخلي للثقة، كما وصف كيفية تلبسه صفات الشخصيات التي كان يراها. ومن المفارقات أن هذه المقدرة على الاستجابة بتعبير الصفات كانت أحد مصادر قوة لورانس الفائقة، وكانت أيضا هي ما ميزه عن جنرالات الحرب المتحجرين السلطويين وجعلت منه قائدا عظيما حقا وإن كان غير تقليدي.

وترجع صفات لورانس الحساسة إلى الأثر العميق لشخصية والدته. فوراء تباعده، كان يملك مقدرة عظيمة على الصداقة مع الرجال والنساء. وكانت معظم روابطه العميقة مع الرجال. وكانت تلك الصداقات، في رأي آرني، تماثل في عمقها الحب الجنسي وقد جعل منها لورانس بديلا لهذا الحب. وحينما كان في المدرسة أقام صداقة مع رجل أكبر سنا هو ليونارد جرين وكان طالبا جامعيا في كلية سان جون. وكان لورانس يزهو بأنه بكسر قواعد الكلية ويزور صديقه في مسكنه هناك، وكان الاثنان يحلمان بإصدار كتب جميلة والعيش معا في طاحونة هواء على لسان بحر تتلاطم عليه الأمواج. وكان جرين، وهو شاعر طموح، ينتمي لتنظيم للرجال الشواذ ولدائرة من الشعراء والفنانين والروائيين عرفت فيما بعد «باليورانيين» (أورانوس هو إله إغريقي وأحد الكواكب السيارة) وكان مصدر وحيها «براءة وجنسانية الصبية الصغار». وكان أحد أعضاء تنظيم الشواذ البارزين لورانس هاوسمان الذي وجدت ستة من كتبه في مكتبة لورانس الشخصية بعد وفاته مع ثلاثة من أعمال ف. و. رولف الأيروسية المثلية، وكان الأخير أحد أعضاء «اليورانيين» ويحتمل أن يكون لورانس قد عرفه شخصيا أثناء سنوات الدراسة. وكان جرين شاعرا «يورانيا» أعجب لورانس بأعماله بدرجة كافية لأنه يخبره عام ١٩١٠ أنه رغم صعوبة أن يجد ناشرا لأعماله فلا يجوز له أن يزينها بأي شعور

بالحطبئة أو أى شىء مفرط. وقام لورانس بضم عمل شاعرين آخرين من «البورانيين» إلى مجموعته التى صدرت فى العشرينيات وحوت اسم هرى سكوت تبوك الفنان «السورانى» كأحد ثلاثة من الرسامين المفضلين لديه. وقد يكون قد التقى تبوك وهو طالب فى المدرسة بأكسفورد، وأيضا يحتمل أن يكون قد جلس إليه ليرسمه إذ إن تبوك كان صديقا لتشارلز بل أمين المتحف الأشمونى وكان رائدا مبكرا للورانس. ورغم أن نظرتهم للحب المثلى، خاصة بين الرجل الناضج والصبى الصغير، كانت مثالية ـ وغالبا ما كان صغار الصبية ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى ـ فإنهم نادرا ما مارسوا الشذوذ. وكان الكثيرون منهم رجال دين محترمين. وعلى أية حال، فقد كان العقد الأول من القرن العشرين زمنا غير موات للشواذ. فقد كان شبح أوسكار وايلد الذى حكم عليه بالسجن لعلاقاته بصبية مكاتب التلغراف عام ١٨٩٥ مازال يلقى بظلال كئيبة على الدوائر الأدبية فى العصر الإدواردى. وغالبا، فمن المؤكد أن علاقة لورانس بلينارد جرين كانت أفلاطونية. وقد أوحى آربى لاحقا بأن يكون لورانس قد شارك فى بعض مشاعر الشباب «اليورانى» بقوله إنه كان كثيراً ما يعجب بالجمال الجسمانى والرشاقة الحيوانية خاصة لصغارالذكور فى المجتمعات غير المتمدينة.

ورغم أن لورانس كان يحتقر الدور الجنسى للنساء، فقد تمكن من تكوين علاقات حميمة مع بعضهن أكثر من معظم الرجال الطبيعيين. وكان يشعر بالألفة مع من هن أكبر سنا «من نوع الزوجة وربة المنزل الطيبة والأم» وقد كتبت كلير سيدنى، وكانت من هذه الفئة، قائلة إنه كان قادرا على الصداقة العميقة وثيقة الروابط والتعاطف والفهم رغم عدم احتواء العلاقة على أى عنصر مرتبط بالحب. كما أنه لم يبذل جهدا فى سبيل هذا، فقد كان حضوره غير جسمانى ولم يبدُ أنه كان يعى حضور المرأة الجسمانى. إلا أن سيدنى، زوج السيدة سميث، لابد وأنه وعى أن لورانس لم يكن يمثل تهديدا جنسيا لأنه حينما قال بعضهم بوجود علاقة بينه وبين زوجته كان رد فعل سميث هو أن ألقى رأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكا. كان جهد لورانس الأعظم فى طفولته هو محاولة تخليص نفسه من براثن أمه الخانقة، وظل بعد ذلك باردا تجاه النساء خاصة من كانت منهن متملكة أو مندفعة. كان ذا مقدرة على رفقة النساء من أمثال كلير سيدنى سميث اللاتى لا يرسلن

إشارات جنسية وبتصرفن كالرجال. فقد كانت حواجزه الجسمانية تنغلق سريعا بمجرد استشعاره أية إشارات جنسية وكان يفر هاربا إذا أبت النساء التعامل كالرجال. وقد كتب يقول «لبست النساء بمصدر لذة لى، ولم أفكر أبدا مرتين، أو حتى مرة واحدة فى قوام امرأة، بينما نجد أجساد الرجال الساكنة أو المتحركة، خاصة فى الحالة الأولى، صدى فى نفسى مباشرة وبصفة عامة».

كان لورانس ثائرا ضد التقاليد بالفطرة رغم عمق حسه التاريخى. كان مغرما بقوله إن العالم توقف عام ١٥٠٠ بمقدم الطباعة والبارود، كما أنه تظاهر باحتقار عصر النهضة بعقلانيته وتوجهه الإنسانى. وقد سحره كصبى عالم العصور الوسطى وأصبح اهتمامه بها غراما ألقى بظلاله على واجباته المدرسية. كان يركب دراجته فى أنحاء أكسفورد ويقوم بطبع نسخ ورقية rubbings من التماثيل النحاسية للقساوسة وفرسان العصور الوسطى المدرعين. وحينما بلغ الخامسة عشرة كانت لديه مجموعة من تلك التماثيل المنسوخة من جميع أنحاء جنوب وشرق إنجلترا زيّن بها غرفة «الإخوة» التى كانوا يتقاسمونها فى رقم ٢ شارع بولستيد. وقد تذكر سيريل «سكروجز» بيسون أنه قد قام بعمل أول مستنسخ تحت إشراف لورانس فى ويدام فى أكتوبر عام ١٩٠٤ وقال «ومنذ هذا اليوم، كنا نقوم برحلات على الدراجة إلى كل قرية تقريبا فى الأقاليم الثلاثة وفى أماكن أخرى أكثر بعدا». وكان لورانس يتابع تنفيذ هوايته بدقة ويجرب طرقا مختلفة. وكان يجوب المكاتب والمتاحف لجمع المعلومات عن الفرسان والقساوسة والسيدات الذين كان ينسخ تماثيلهم ومعلومات مفصلة عن أزياء ودروع العصور الوسطى. وأصبح هاجسه المسيطر هو أساليب أنساب النبلاء، كما جمع التعبيرات المرتبطة بهذه الأساليب وأتقن نطقها وترديدها. وكان يقوم بجمع لفافات طويلة مسجل بها شعارات الأسر النبيلة ورسومات هذه الشعارات ورموزها بالألوان الصحيحة وبعناية فائقة. وكان لورانس يستغرق تماما فى الأدب الرومانسى مثل قصائد تنيسون عن فرسان الملك آرثر، وأيضا الملاحم الفلمندية، وأشعار شارلمان الفرنسية من القرن الثالث عشر. كان بحثه عن الآثار النحاسية يأخذ شكل مسعى مقدس فى حد ذاته، فعلى حين كان الشباب يخرجون للنظر إلى الفتيات فى سوق سانت جايلز، أو فى احتفالات الأعياد، كان لورانس يتابع مسعاه فى السراديب المظلمة

والكنائس. وكان لا يلقى بالا إلى قدسية الأماكن، ووظف قدراته على الإقناع فى التعامل مع الحراس، كما حدث عندما أمسك به هو وبيسون يخرجان من أحد السراديب لكنيسة سانت كروس محملين بالعظام الآدمية، وقد تذكر تيوتشوندى ضحكته «الشريرة» وهو يخترق طريقه إلى قطعة نحاسية محطما بعض مقصورات الكنيسة التى اعترضت طريقه. وقد كان إى. إم. فورستر هو أول من أشار إلى التوازى بين مسعى لورانس وراء الآثار النحاسية وبين مغامراته الأثرية اللاحقة فى الشرق، مشيرا إلى أن القطع النحاسية تم استبدالها ببقايا الآثار القديمة، والحراس القساة بقبائل البدو المتوحشة.

وكان جوهر اهتمام لورانس بما هو عصر أوسطى محاولته الهروب من ظروف الحياة وإعلان ازدرائه لتقاليد المشهد الاجتماعى البرجوازى الذى كان يعزو إليها علاقته غير المستقرة بسارا. وقد أسهمت مشاعر النقص والخزى التى ولدتها العلاقة فى الخجل المؤلم الذى لاحظه غالبية من التقوا به. وقد اعترف هو بأنه كان خجولا بدرجة غير طبيعية «خجولا من عدم لياقته ومن مظهره الجسدى وغرابته الانعزالية التى منعته أن يكون رفيقا لأحد بل مجرد شخص يتعرف به، كاملا، حاد الزاوايا مثل قطعة من الكريستال». بيد أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يشعر بالغرابة أو العزلة فى المدرسة. فرغم خجله ورفضه للألعاب كانت له شعبية حيث كانت عدم لياقته أمرا فى مخيلته هو. وفى الواقع، فقد لعب الكريكيت ممثلا عن مدرسته واشترك فى سباقات للسباحة وركوب الدراجات، وشارك بحماس فى ألعاب أخرى فى فناء المدرسة. ولم تكن تعوزه الصداقات الشخصية، فكصبى صغير، كان له صديق يدعى چون سنو، ثم كوّن معه سكروجز بيسون صداقة لم تفصم عراها أصبحت ذائعة الصيت وعلى قدر من سوء السمعة نظرا لمغامراتهما المتعلقة بالآثار ونسخ النحاسات. ورغم أن لورانس كان العنصر المهيمن وصاحب المبادرات لخططهما، فقد استرجع بيسون هذا «الرباط الوثيق» بحب. كما ذكر ثيو تشوندى أن لورانس قام بتعريف زملاء كثيرين له فى المدرسة بأسرار نسخ الآثار النحاسية، وكان هو ضمن هؤلاء، كما أنه نجح فى إقناعه - وقد أصبح ثيونشوندى أستاذا للرياضيات فيما بعد - بأن يؤدى بعمل واجب الحبر نيابة عنه وهو فى السنة الخامسة، مما يوضح أنه لم تكن تعوزه قوة التأثير. كما تذكر صديق طفولة آخر له

أنه كان مترنسا بأمر الآخرين بأسلوب محبب. وتذكر أيضا بوب لورانس، الذي كان أكبر منه سنا، أن لورانس كان من يقود الإخوة في ألعابهم بوجه عام. وقد وصفه آربي بأنه أحد أكثر من عرفهم لطفا وقد يكون أكثر الناس جميعا رقة ورحمة وأنه كان أحد أشد الناس إبهاجا في صحبته. كما كتب مبدج هول الذي عرف لورانس في المدرسة قائلا إن أية فكرة مؤداها أنه كان طالبا منعزلا متقلب المزاج يتحاشى رفقة الآخرين هي فكرة بعيدة كل البعد عن الصواب. فهواياته المثيرة وغرائب أطواره كان يستحيل معها أن يكون غير ذي شعبية. وقد شعر آربي أن موهبة لورانس في التوحد مع الآخرين وعلى أن يعكس احتياجاتهم ومشاعرهم مجسدة المقدرة الفائقة على إلهام الآخرين وتمكينهم من تجسيد أفضل إمكاناتهم وطاقاتهم.

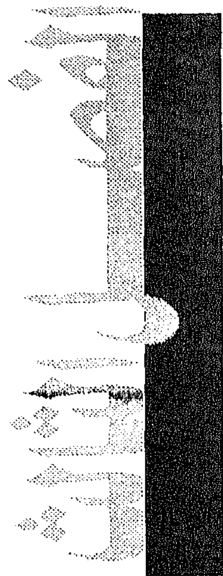
أما سارا، فقد اعتقدت أنها أم مثالية وعمدت، بعد وفاة لورانس، إلى رسم صورة مثالية للحياة العائلية ردد صداها «مساعدها» بوب الذي كتب يقول «لقد كانت طفولتنا جد سعيدة ولم يحدث وأن أفسدتها أية مشاحنات بين أي من الأفراد. كان والدانا يرافقننا دوما، مما عاد علينا بالإمتاع والفائدة، حيث إنهما شاركانا في تقدمنا وجعلا من المنزل مكان سلام، وخططا لمستقبلنا وتعليمنا وكان لهما أعظم الأثر على حياتنا». وبالتأكيد، فقد كانت طفولة لورانس سعيدة من حيث إنه لم يعوزه شيء مادي، وكان ناجحا في المدرسة محاطا بأصدقاء وإخوة أوفياء كان هو قائدهم دون منازع. إلا أن طفولته لم تكن تسع أضواء زاهية كما توحي الصورة الما قبل رفائيلية التي رسمها بوب. ويقدم وصف آربي لها أشد قتامة حيث يقول «كانت هناك تيورسانية قوية في الأسرة، وروح حطينة، وأمور غير طبيعية. فقد كانت مواضيع عدة بالوهات بينما لم تكن كذلك بالنسبة لعقل طفل مما أدى إلى حيرة الأطفال وإلى تشككات وفقدان ثقة في النهاية». أما تأكيد بوب بأن بند تمتع بأيام الدراسة فلا يتفق مع ذكريات لورانس الذي قال «ما زال الخوف من المدرسة يطاردني، هذه العقوبة المعلقة دوما والتي جعلت من السنوات بين الثامنة والثامنة عشرة تعاسة مجردة». وكأبعد ما يكون عن «المتعة والفائدة» التي قد تكون سارا قد عنتهما، فقد حطمت حياة لورانس وجعلت من المؤكد عدم تمكنه من السعادة أو التحقق. فقد خضعت حاجته لأن يكون مفردا منفصلا عنها،

محبوبا، سواء كان قويا أم ضعيفا، صادقا أم مخادعا، مصيبا أم مخطئا، لاحتياجات روحها الضارية. لم تكن تملك من أمرها سوى هذا. فقد ترسخت في مخيلتها صورة تلك الفتاة المرتعدة التى لم تعرف أبدا سبب نبذها بذلك الأسلوب الشائن وتركها وحيدة لتقلبات الكون المظلم. لم يُشف ذلك الجرح، ولم تكن لتسمح لأحد أحبته أن يتركها مرة أخرى أبدا. كان لورانس بحاجة بائسة إلى حب أمه. إلا أنه كان يحتاج أيضا أن ينظر إليه كشخص مستقل. فقد سعفت به أمه كامتداد لذاتها لدرجة أنها نظرت إلى أى تعبير عن التفرد من جانبه كتهديد. لقد كانت القوة التى فرضتها على أبنائها مرعبة. فحينما قرر آرنى فى النهاية أن يتزوج عمد إلى إخبار سارا من أثينا، من مسافة مأمونة. وفى اليوم المفترض لاستلامها خطابه، استيقظ من نومه فى غشية ولم يدر أين كان، ثم سار مترنحا فى الحديقة حيث تمكن من جمع شتات نفسه بعد جهد. فنظرا لأنه كان يعلم أن سارا تعارض زواجه بعنف فقد شعر أن تأثيرها قد «غمره برغم المسافة». فإن كان هذا «عينة» للقوى الروحية التى كانت تنطلق فى مواجهة تيد، فمن غير المستغرب إذا أن يدافع عن «دائرة استقلاله». كان كثيرا ما يبغض والدته ولا يتحمل أن يتواجد معها فى نفس الغرفة، إلا أنه لم يظهر هذا أبدا. فقد ظل سلوكه إزاءها لا تشوبه شائبة لكونها والدته، وكان يشعر أن من واجبه أن يمثل دور الابن المطيع. أما كعب أخيل فى صراعه معها فكان شعوره بالذنب. فكان يبالغ فى التظاهر بالبهجة وحلو البال فى حضرتها ويكبت مشاعره ويتحدث فقط عما يسره حتى يظهر بمظهر سعادة لا يشعر بها. وكان يعلم جيدا أنه لن يتمكن من إطلاق البطل الذى بداخله حتى يتحرر من سارا. فغدت مهمة حياته الأساسية أن يفر من قبضتها.

وفى وقت ما من عام ١٩٠٥ وصلت الأمور إلى ذروتها. فقد لحق لورانس بأبيه فى صيف هذا العام فى رحلة بالدراجة حول إيست أنجيليا حيث كان يقوم أيضا بنسخ الأتربات النحاسية وزيارة المواقع الرسمية، ويرسل التقارير الواجبة الرسمية إلى سارا.

وبعد أن تمتع بهذه الرحلة، بدأ الفصل الدراسى بأكسفورد فى ظل غمامة من التهديد. فقد رشح لمنحة لدراسة الرياضيات بجامعة أكسفورد وكانت تلك المادة لا تلقى منه قبولا. فقد أراد أن يدرس التاريخ ولم توافقه سارا التى أحست بعربرتها

أنه يسعى للابتعاد عنها. وأصبح الأمر موضع منازعات ولم تفلح مناوراتها القديمة من وعيد وعنف ومنابلة، فقد كان لورانس فى السابعة عشرة ولم تتح له سارا فرصة للمراهقة. وكان مازال متعلقا بأربطة مئزرتها وهذا ما كان له أن يؤثر فى مجرى حياته. ومن ثم، قرر أن يتبنى موقفا قاطعا. لم يحاول أن ينصارع معها علنا، فقد حالت تنشئته كجنتلمان إدواردى دون هذا. وتخير بدلا من هذا السبيل الوحيد المفتوح أمام مراهقته المختنقة وكان هو الهروب من المنزل.



عامه الأخير بالمدرسة

وأعوامه الأولى بالجامعة

١٩٠٦ـ١٩٠٨

3

كان بإمكان لورانس
أن يفر إلى البحر لو أن هذا حدث
من قرن مضى، إلا أنه التحق بالجيش
بدلا من هذا. وجد لورانس نفسه خلال
أيامه الأولى مدفعيا فى سلاح المدفعية
الملكى يؤدى واجب الحراسة فى سانت
جاست بكورنوول، هذا الموقع الذى
يطل على نهر الفال.

وفجأة وجد هذا الفتى الصغير «البنوتة» ذو الصوت الرفيع نفسه يحتك بالصبية الأجلاف ممن نشأوا في شوارع أقل مستوى بكثير من مستوى ضاحية شمال أكسفورد المرفهة. وكثيرا ما راودت فكرة الخدمة بالجيش مخيلته، إلا أنه وجد في الواقع كثيرا مما أسى له. كان الرجال أفظاظا بشكل يبعث على الدهشة، وكان كل حوار ينتهي بالعراك بالأيدي أو ببلطجة جماعية ضد الطرف المستضعف. وطوال ليالي الجمعة والسبت، كانوا يتشاجرون صاخبين مخمورين وكان الخوف يتملكه من خشونتهم، وكان كل طابور عرض صباحي يشهد خمسة أو ستة منهم مصابين بإصابات جسدية. شعر لورانس بالقلق وعدم الاستقرار حينما شاهد زميلا له يشج رأس آخر كان قد سرق أحد متعلقاته وكان هذا المشهد آخر قشة بالنسبة له، فقام بإطلاع والده على مكانه، وحضر الأب ودفع غرامة إعفاء ابنه من الخدمة.

وفيما بعد، أخبر لورانس ليدل هارت أنه استمر بالخدمة لمدة ستة أشهر، إلا أن

هناك روايات أخرى تذكر أن المدة كانت ثمانية أشهر، أو ثلاثة أشهر ولابد أن يكون أحد هذه الأرقام فقط صحيحاً. ففي يناير عام ١٩٠٦ حاول لورانس وصبى يدعى هـ. إى. ماثر التجديف فى قارب على نهر تشيرويل أثناء فيضانه والوصول إلى بانبرى، إلا أن القارب انقلب. وقد أكدت (سارا) أن نيد وشقيقه ويل قاما بتكرار المحاولة فى عطلة عيد القيامة. فإن كان هذا صحيحاً، فمن غير الممكن أن يكون لورانس قد بدأ خدمته العسكرية قبل فبراير بوقت طويل واستمر فيها بعد مارس عام ١٩٠٦. ولا يوجد سجل يوضح أن لورانس قد خدم فى المدفعية عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦، رغم احتمال استعماله اسماً مستعاراً، كما لم يتذكر أحد من أصدقائه أو إخوانه غيبة طويلة له. وأيضاً فقد كان بالتأكيد موجوداً فى أكسفورد لتأدية الامتحانات المحلية النهائية. وانتهى كثيرون من كتاب سيرته إلى أن هذه الحادثة لم تقع أبدا. وقد عثر على لوحة بعد وفاته رسمها له هنرى سكوت تيوك، الفنان «اليوراسى»، وهو بالزى العسكرى واعتبرت هذه اللوحة شاهدا على إقامته

فى قاعدة فالماوث عام ١٩٠٦ . وقد نعرف إبريك كيبجنون على أن شارة الكاب العسكرى التى يرتديها - رغم عدم وضوحها - هى شارة سلاح المدفعية الملكى. وفيما بعد أخبر لورانس أحد معارفه أنه كثيرا ما جلس إلى نبوك لير سمه. بيد أن تبوك، الذى احتفظ بسجل للوحاته، فيد هذه اللوحة بوضوح على أنها رسمت عام ١٩٢٢، وكان لورانس قد زار كورنوول فى تلك السنة. أما عنوان اللوحة فكان «بورتريه لجراى» واقتناها رجل يدعى أيضا جراى. ولم يعرف كيف انتقلت اللوحة إلى حوزة لورانس إلا إذا كان هو نفسه «جراى». فهل قابل لورانس تبوك فى أكسفورد أثناء زيارته لصديقه تشارلز بل؟ وهل تمت رحلته إلى كورنوول عام ١٩٢٢ بهدف تجديد صداقة نشأت أولا وهو مدفعى عمره سبعة عشر عاما؟ وكأشياء كثيرة فى حياة لورانس، فبالإمكان القول إن قصته عن تطوعه المبكر فى المدفعية ليست كل الحقيقة.

وقد اعترف لورانس أن إحساسه بعدم كفايته فى صحبة الآخرين من الرجال دفعه للتعويض بما أسماه «المبالغة، أو خطيئة الهواة» وكانت مهاراته فى المبالغة آلية دفاعية أضفت عليه هالة أكبر كثيرا من مظهره فى عالم فئة أكبر منه، وأقوى جسديا، وأكثر لياقة رياضيا. ورغم قدرته على تشييد بناء محكم دائم من الزيف، كما فعل فيما بعد مع جون بروس، فقد كان يميل، ليس إلى الاختراع، بل إلى تضخيم ما هو عادى ليجعل منه أمرا يسمى إلى المنظومة البطولية. وكان تراجعه المخزى قد أفسد إيماءاته المهيبة للتمرد بهروبه إلى الجيش إلا أن لورانس أنقذ هزيمته بأن حول المغامرة إلى أسطورة رومانسية غامضة، وكان من اللافت أن تدخل فى الأسطورة عناصر العنف والمعاناة والهوان التى داعبت مخيلته. والفانتازيا، والمبالغة، والتشويه هى آليات للمازوكية، وكانت الفانتازيا المتدفقة لتحقير الذات إحدى تعبيرات مازوكية لورانس، كان يتخيل نفسه وقد استُعبد طوال حياته بعمل فى صفوف الجيش كحيوان وسط القطيع، أو بين المنبوذين يعمل على أرصفة بورسعيد: فقد كتب قائلا: «بدا لى أن هناك نوعا من اليقين فى الهوان. أمان نهائى.. بإمكان الإنسان أن يرتفع إلى أى علو، إلا أن هناك مستوى حيوانيا لا يستطيع السقوط أدنى منه». كان أحد اكتشافاته المبكرة عن البشر أن كلهم تقريبا، بمن فيهم، واسعى المعرفة، يصدقون ما يودون تصديقه، ومعظمهم يودون

تصديق ما هو رومانسي ولبس ما هو واقعي كان هذا كشفاً عظيما بالنسبة للورانس مكنه من شحذ مهاراته كمخادع إلى أقصى درجة. وفي أحد خطاباته إلى أمه تباهى قائلا: «من السهولة بمكان أن يكتسب المرء مكانة (زائفة) كباحث في الكلاسيكيات». كان هذا بعد أن تفوه بمقولة لثيوقريطس، كان قد تعلمها لتوه، في أحد الأحاديث أثناء زيارة له للكلية الأمريكية ببيروت. وكان كضابط مخابرات شاب بقرر مبتهجا أنه «من السهل خداع العاملين بمكتب الحرب فيحترمون شخصا ما معتقدين أنه «ذو علم خاص إن هو تفوه عاليا بأمر من هذا القبيل». وكانت عملية الزخرفة بالنسبة للورانس هي تحديداً من أجل إحداث مثل هذا الأثر لأنه غالبا لم يكن لديه سبب للمبالغة. ولننظر مثلاً إلى خطابين كتب كليهما في عام ١٩١٢ عن عملية شراء «أجراس جمال» كان لورانس يعرضها بمنزله. أول هذين الخطابين كان بتاريخ ١٨ فبراير ومرسل إلى جيمس إلروى فيلكر، والثاني في ٢٠ مارس مرسل إلى والدته. يقول الخطاب الأول. «مرت اليوم في السوق قافلة طويلة من مائة بغل من بغداد.. وكانت تخطو على الرنين الهائل لجرسين عملاقين من الحديد يتأرجحان تحت بطن البغل الذى كان في المقدمة. .فذهبت واشتريت الجرسين، وسرت إلى المنزل منتصراً وأنا أحدث صوت قافلة بغداد...» أما الخطاب الثاني فيرد فيه «التقيت في سوق البهارات بحلب بقافلة جمال آتية تتراقص على رنين اسطوانتين عملاقتين من الحديد تتدليان من بطن الجمل الذى كان في المقدمة، فأوقفت الصف وابتعت الجرسين ومشيت راجعا إلى الفندق وأنا أحدث صوتاً مثل الصوت الذى كان يصدر عن قافلة الجمال».

لقد كانت الحيوانات إما بغالاً أو جمالاً، وإلا فأحد التقريرين مزيف كما أنه من غير المحتمل أن يكون لورانس قد نسى في غضون شهر أى الحيوانات كانت. وللإنسان أن يسأل «ماذا يهم إن كانت بغالاً أو نياقا؟»، وليس هناك سبب منطقي للكذب. ولنا أن نستخلص إما أن لورانس كان يستمتع بخداع الآخرين، أو أنه كانت له فكرته الخاصة عما هو حقيقي. وفي الحقيقة، فإن موقفه من الوقائع سيتضح بعد هذا بسنوات حين نصح روبرت جريفز قائلا إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة هي الإتيان بتعبيرات محيرة متضاربة أو مضللة. كما أنه اعترف حين اشتغاله مع العرب أثناء الحرب أنه لم يكن يخبرهم، ولم يكن يخبر رؤساءه

البريطانيين بالحقيقة كاملة، بل إنه كان يقوم بتصميم رواية الحقيقة التى تناسبه. كما كتب قائلا إنه لا يستطيع القول أين كانت تبدأ المخادعة وأين تنتهى، ويعترف أنه كان يكذب حتى فى رسائله وتقاريره الرسمية ثم أضاف «لابد وأنه كان لدى ميل وقدرة على الخداع، وإلا لما خادعت الناس بهذه المهارة». وقال عنه رونالد ستورز الذى كان يعمل معه عن قرب فى القاهرة إنه «غير مبال فى أحاديثه، وغير مسئول، ومراوغ، ومتعب، ومثير للغضب وفاقد السيطرة. كان يقرر كوقائع أشياء كان يعلم أن أحدا لن يتقبلها ـ مثله، مثل أى شخص عربى من الشارع وأى عربى من الجزيرة».

وقد يكون انسحابه السريع من المدفعية عام ١٩٠٦ قد حطم وهمه عن نفسه بشأن كونه «الرجل الصلب» الذى تمنى أن يكونه، إلا أن المغامرة نجحت نجاحا كبيرا فى اتجاه آخر. فلم تحاول سارا بعد ذلك فرض إرادتها عليه أو اللجوء إلى العصا. وبدأت أية حرية شعر بامتلاكها فى السنوات التالية فى اللحظة التى أوضح فيها لأمه قدرته على الانفصال عنها. وقد كتب بعد هذا بسنوات طويلة ذاكرا أن السابعة عشر كانت السن التى وجد فيها نفسه. وكانت الحادثة قد عكرت صفو مسيرة الأسرة الهادئة، وأصبح عليهم أن يحتفظوا بواجهة محترمة أمام المجتمع، ومن ثم، تم احتواؤه سريعا لدى عودته وطمست الحادثة ومنح، فى مقابل صمته، رغبته فى التقدم بأوراقه للحصول على منحة لدراسة التاريخ، وأدى الامتحانات المحلية ذلك العام فى سلام.

كما سمح له أيضا أن يقوم برحلة بالدراجة حول الكوت دو نورد فى فرنسا والتى كان قد أعد لها لوقت طويل مع صديقه سكروجز بيسون. ومن أجل هذا، طلب دراجة جديدة من شركة موريس من طراز خفيف مصمم لهذا الغرض، ذات مقود سباق ولها سرعات ثلاث، وكان يحب أن يذكر عنها فيما بعد، أن اللورد نافيلد الذى كان حينذاك السيد وليام هنرى موريس مجردا من أى لقب، قد صنعها بنفسه. كان ركوب الدراجات ظاهرة جديدة نسبيا فى بداية القرن. ورغم أن الدراجة التى تدفعها السلسلة الخلفية، ذات الإطارات الهوائية كانت قد اخترعت قبل عام ١٨٩٥، إلا أنها ظلت رفاهية مكلفة حتى عام ١٩٠٠ حيث تم

إنتاجها بالجملة. وكان توماس لورانس متحمسا للدراجة حتى فى التسعينيات حينما كانت الأسرة تقطن دينارد فى بريتانى. وكان قد حصل على أول دراجة له وهو طالب عام ١٩٠١. ولبس معروفا حتى الآن إن كانت الدراجة التى ابتاعها من أجل رحلته قد صنعت فعلا بأيدى اللورد نافيلد، إذ إن هذه قصة لورانسية نمطية أنكرها نافيلد. إلا أن القصة محتملة نظريا بما أنه كان قد عُرف عن نافيلد أنه كان يقوم بصنع الدراجات فى أكسفورد هاى ستريت حتى عام ١٩٠٨. بيد أنه أياً كان الأثر، فلا يوجد رمز أكثر إضفاء للجمال على شباب لورانس من دراجة السبق هذه، والتى تذكرها أصدقاؤه فيما بعد بوضوح، كما لو كانت امتداداً للورانس نفسه. فتذكر إدوارد ليدز كيف كانت تختفى بسرعة وثقة أعلى الطريق قبل أن تتاح للمرء فرصة كى يستدير وينظر إليها، بينما تذكرت ڤيڤيان ريتشاردز ببهجة كيف كانت الدراجة تنزلق فى صمت فى إيفلى رود بعد منتصف الليل. وقد قام لورانس بثمانى رحلات بالدراجة إلى فرنسا وقطع آلاف الأميال وهو يركبها.

فى الثالث من شهر أغسطس عام ١٩٠٦، غادر لورانس إنجلترا على عبارة إلى سانت مالو وهو منشرح السريرة. فقد انتهت الامتحانات، وكان بعيداً عن والدته. بدا العالم الجديد الشجاع مليئاً بالأضواء. كان غروب الشمس رائعاً، ووقف لورانس يرقبه على سطح العبارة وترك أبياتاً طويلة من الشعر الرومانسى تتلاعب فى رأسه. استوعب بهاء القمر منعكساً على الماء. وقد استعاد هذه الليلة كحلم بهيج وهو يغادر إنجلترا بعدذلك بعشرين عاماً، أى عند بداية أسفاره الاختيارية. أمضى شهراً فى الكوت دو نورد، وقطع ما يقرب من ستمائة ميلاً مسافراً مع بيسون. كان يقيم فى الفنادق، ويتسكع بين أرجاء الكاتدرائيات العظيمة والكنائس وأطلال القلاع العتيقة. وقد انعكست البهجة التى خبرها فى كتابات منطلقة فى بعض الخطابات التى أرسلها إلى إنجلترا. فقرب نهاية عطلته وصف لوالدته بهاء شاطئ بريتانى فى أشعار لكيتس وشيلى، واختتم برسالة ضمنية إلى سارا بأن كل شىء رائع «لأن لا أحد غيره هناك». ويعكس هذا الخطاب حالة قريبة من النشوة، لأن لورانس كان عادة ما يجد سعادة فى الإشادة بصنعة الإنسان أكثر من جمال الطبيعة. فخطاباته تحوى أوصافاً للمعمار، والكنائس من الداخل، وكان هذا يستغرق أحياناً صفحات. ورغم أنه كان يسجل هذه الأوصاف

للرجوع إليها شخصيا فى المستقبل، إلا أنه استخدمها فى خطاباته حاجزا يحجب به عواطفه الخفيفه التى تخلو منها تماما هذه الخطابات باستثناء بعض التعبيرات غير المهمة عن المشاعر الأسرية. وتعتبر خطابات عام ١٩٠٦ نموذجا ممتازا يوضح عزلته العميقة عن أسرته، وعن الأم التى اعتقدت بعدم وجود أسرار بينهما. فإن كان لابد وأن تعلم سارا كل ما يشعر به، فليخبرها إذا بكل شيء. غير أنه بدلا من التعبيرات الدافئة التى كانت تتوق إليها، كان يمنحها فقط حجارة جافة. فعلى حين أن العواطف الإنسانية قد تكون جامحة لا يمكن التنبؤ بها، فإن المعمار انتصار للنظام والتنظيم البشرى، مزج ناجح للوعى واللاوعى؛ رمز لمقدرة الإنسان على تغيير الجماد. وقد أكد فيما بعد - بشبه جدية - عدم إمكان وجود عمل إبداعى حق لا تتدخل فيه الأيدى، وأصبح مقتنعا أن الفعل الإنسانى يتم التعبير عنه بشكل أكثر اكتمالا فى تطويع المادة سواء كانت حجرا أو طفلا أو جلودا أو صلبا. ومقارنة بالجسد الإنسانى الضعيف، تبدو النتاجات الفنية لصنع الإنسان صلدة باقية. وكانت الرغبة القسرية فى الوصف هى الدافع الآخر من الإسهاب الوصفى الذى لا ينتهى. بدا الأمر كما لو أن ما رآه لورانس وما سمعه لم يكن ليصير له وجود موضوعى إلا إذا وصفه لشخص آخر. وقد اعترف فى وقت لاحق أن ممارساته الكتابية كانت للتعبير عما رآه وما سمعه بشكل أكثر دقة. ومن ثم، أصبحت موهبته فى الوصف مصدر قوته وضعفه ككاتب: قد كان حسه بالتفاصيل حسا تصويريا، إلا أن مهاراته كانت تصور الأحداث منفصلة بأسلوب يعوزه الاقتصاد والتتابع.

وفيما بعد، استنتج جورج برنارد شو أن لورانس كان «أحد أعظم كتاب الوصف فى الأدب الإنجليزى». أما فرانسيس يتس براون فقد أضاف أن «لهفته على الوصف.. قد تطورت وأصبحت جنونا».

كان همه الأول فى رحلته إلى فرنسا هو قلاع العصور الأوسطية، وكانت جوهرة هذه القلاع قلعة توقويدو، وهى قلعة من القرن الثالث عشر تقع على تل يطل على وادى الجوير المغطى بالغابات. وصل لورانس وبيسون إلى موقع الآثار بعد أن غادر لانيون عشية عيد ميلاد لورانس الثامن عشر وقضيا ساعات أربع يتجولان بين الآثار وسط شمس ساطعة رعوية. وجد لورانس أثناء تفحصه القلعة

برجا برجا وحجرا حجرا أنه يمارس لعبة هجوم ودفاع عقلية، ويضع نفسه موضع المحاصرين، ثم قرر وهو يشعر بالانتصار «أنه من المستحيل دخول المكان إذ إنه كان على العدو أن يصنع جسرين كى يصل إلى المدخل. وكان الهبوط إلى الأرض بسلم النزول من ارتفاع ٤٠ قدما..» وأعلن أن توقوبندو أفضل قلعة رآها وأن وصفه إياها لا يفيها حقها من العظمة. ولم يكن قد أحضر معه آلة تصوير ومن ثم أوكل إلى بيسون مهمة عمل رسوم تخطيطية. وتمتع الصديقان برفقة أحدهما الآخر، إلا أنهما وكما هو محتم، كانا كثيرا ما يتجادلان. واعتقد بيسون أن لورانس كان يقوم بمخاطرات لا داعى لها فكان يقفز على الخنادق بدلا من أن يستخدم الجسور ويتسلق أسوارا تكثر بها الأحجار المخلخلة وكان حدسه أن هذا لم يكن مرجعه الشجاعة بل حب الاستعراض. وقد تأكد له هذا وهو يرقب ساقى لورانس ترتعدان خوفا أثناء محاولته جاهدا تسلق بعض الصخور الخطرة، فقدم له يد المساعدة، إلا أن لورانس أزاحها غاضبا. وعلى حين كان بيسون متحمسا للطبيعة لاحظ أن لورانس لم يكن لديه حتى اهتمام تلاميذ المدارس العادى بالتاريخ الطبيعى. وقد يكون هذا قد نجم عن نفور لا إرادى من فكرة التكاثر، وهو أمر سيظهر بشكل أوضح فى حياته فيما بعد، حيث كان ينظر لكلمة «حيوان» على أنها لفظ للسباب يستدعى معه الغرائز البهيمية والعقل اللاواعى. وقد كتب فيما بعد يقول «إن أكثر ما كان يخشاه فى العالم هو «الحيوية الحيوانية». وقد كان لورانس يغتاظ من بيسون ويدعوه «جحشا» حينما كان يتسبب فى إبطاء سرعة سيرهم بالدراجات، إلا أن دراجة بيسون لم تكن ذات سرعات ثلاث مثل دراجة لورانس الذى كان يستعرض تفوقها مزهواً على المسطحات فى إيركوى حيث قطع نصف كيلو متر فى ثلاثين ثانية. بيد أنه لم تكن حتى هذه السرعة لترضيه ومن ثم ألمح إلى فاعلية الدراجة البخارية فى أحد خطاباته إلى أسرته.

وبعد عودة بيسون إلى إنجلترا فى ١٩ أغسطس مكث لورانس هناك أسبوعين آخرين. وقبل سفره تلقى نتائج امتحاناته التى كان ينتظرها بشغف. كانت النتائج ممتازة إذ كان ترتيبه الثالث عشر من أربعة آلاف وخمسمائة متقدم، وجاء ترتيبه الأول فى مادة اللغة الإنجليزية والثالث فى المعلومات الدينية. بدا مكانه فى جامعة أكسفورد مضمونا، إلا أن هذه النتيجة لم ترضه فكتب يقول «بشكل عام،

فالنتجية ليست جيدة بالقدر الذى كنت آمله». وسيظل عدم الرضا هذا أحد سماته طوال حياته، فمهما بلغ قدر العلو الذى كان يحلق فيه، لم تكن روحه الدائمة السعى للكمال لترضى. فكان يكتب قائلا: «لا شىء فعلته يبدو لى جيدا بالقدر الكافى.. إنه لشعور موجع بعدم الرضى ينتهى بأن أتمنى أنى لم أفعل شيئا على الإطلاق». وقد ظهر هذا بوضوح فى رحلته بالدراجة. فقد قطع لورانس ٦٠٠ ميل، حتى إنه فى أحد الأيام الأشد قيظا فى تلك السنة قاد الدراجة ١١٤ ميلا إلى دينارد ذهاباً وعودة. إلا أن هذا لم يكن ليرضيه. فلدى عودته إلى أكسفورد أخبر سكروجز بيسون أنه واصل رحلته بمفرده «متشوقاً لأن يحقق السرعة التى يرغبها» وقدم «وصفاً متوهجاً لما تحويه نورماندى ووادى اللوار من مواقع يجب مشاهدتها» حتى إن بيسون تملكته الرغبة فى لقائه هناك فى العام التالى. بيد أن خطابات لورانس توضح أنه لم يذهب أبدا بالقرب من نورماندى أو وادى اللوار فى عام ١٩٠٦، وأنه ظل متمركزاً فى دينارد بعد رحيل بيسون حيث كان يذهب للسباق كل يوم تقريبا، باستثناء قيامه ببعض الرحلات الثانوية.

وفى هذا الخريف، وبينما كان لورانس وبيسون يستعدان لامتحان القبول فى أكسفورد، كانت هناك مشاريع إنشائية تنفذ فى أكسفورد خاصة فى شارع كورنماركيت، وفى كليات جامعية مختلفة، وأيضا فى هاى ستريت. كان لورانس يترقب دوماً احتمال وجود كنوز أثرية. لذا، فقد كان يجوب تلك المواقع كل يوم تقريباً. ويقوم برشوة العمال بقليل من النقود نظير احتفاظهم له بما يجدونه. وبعد شهور من المثابرة تمكن هو وبيسون من اقتناء مجموعة رائعة من الفخار، والأوانى المصقولة، والزجاجات، والأنابيب، والعملات، ورغم أن هذه المقتنيات كانت تنتمى لعصور أحدث مما يروق للورانس، أى للقرنين السادس والسابع عشر، إلا أنها كانت مثيرة بدرجة يمكن معها إهداؤها إلى متحف أشموليان، حيث كان لورانس قد تعرف على وكيل مساعد قسم المحفوظات، لورنادر وولى. وكان وولى، الذى عرف لورانس أكثر من غالبية الآخرين فى فترة ما قبل الحرب، فى الخامسة والعشرين، وكان قد تخرج لتوه فى نيوكويلدج، وبدأ وظيفته التى جلبت له رتبة الفروسية اعترافاً بعمله الفذ كعالم آثار وحفريات. وكان وولى، وهو الإنسان العطوف النشيط الحساس أحد القلائل الذين لم يخضعوا أبدا لسحر شهرة لورانس

اللاحقة، كما اعترف أنه رغم أنه وجد الشاب لورانس ساحراً، وحتى موهوبا، فإنه لم يتعرف فيه على أية عبقرية فذة. وقد وصف معرفتهما المبكرة بأكسفورد بأنها سطحية. وبالمقابل، كان اهتمام أمين متحف الأشموليان به أعظم كثيرا، حتى إنه سرعان ما قبله معاونا غير رسمي بالمتحف. فكان يوكل إليه مهاما متفرقة مثل فرز مجموعات طبعات الآثار النحاسية، والفخار. وسرعان ما أصبح لورانس ذا معرفة بمجموعة العصر الوسيط أكثر من موظفي المتحف أنفسهم.

وفي تلك الأثناء، كان قد تقدم للحصول على منحة بكلية سانت جون، حيث كان أخوه الأكبر بوب يدرس الطب، بيد أن لورانس لم يوفق. إلا أنه في يناير التالي نجح في الحصول على منحة ممولة من إقليم ويلز للدراسة بكلية يسوع، وقد نال المنحة لأنه وُلد بويلز، وكان قدرها خمسين جنيها استرلينيا لدراسة التاريخ الحديث. وكانت كلية يسوع ويلزية إلى حد كبير لدرجة شعر لورانس معها بضرورة القيام برحلة بالدراجة إلى ويلز في عطلة عيد القيامة عام ١٩٠٧ ـ وكان لم يرها أبدا ـ كي يتعرف على مسقط رأسه. ويظهر في خطاباته إلى عائلته التي كتبها من هناك نوع جديد من البلاغة، قد يكون مديناً بها لجون راسكين، وكان لورانس قد قرأ له كتاب «حجارة ڤينيسيا» في العام السابق. وكان راسكين الشاعر أحد مؤسسي حركة إحياء «القوطية الفيكتورية»، كما أنه كان معنيا بانعكاس الروح البشرية في المعمار وقد اعتقد أن دقة الأعمال الحجرية القوطية الحقيقية من العصر الوسيط كانت نتيجة تمتع صناع ذلك العصر بحرية التعبير أكثر من نظرائهم المحدثين الذين فُرض عليهم أن يكونوا أصفاراً في خط الإنتاج. وقد حفز أسلوب راسكين (الذي اعتبر نموذجاً للنثر المنمق لكتاب المجتمع الراقي الفيكتوري) لورانس على محاكاته حيث كتب لدى قراءاته راسكين لأول مرة قائلا: «لدى الآن إدراك ما عن الأسلوب الصحيح لدراسة المعمار، وعن كيفية استخلاص أصدق الدروس منه». إلا أن إحدى أكثر اللحظات إحباطا في رحلته كانت حينما استمع إلى الشابة صاحبة فندق البليكان بكدويللي وهي تناقش أمره مع عائلتها. إن قلة ما هم الذين يستطيعون الإحجام عن التنصت. أما لورانس، الذي تسبب انعدام صورة داخلية عن ذاته لديه في أن يتلمس معرفة فكرة الآخرين عنه، فقد بذل جهدا ليتنصت على كل كلمة وكتب في تقريره يقول: «كان الأمر

طريفا هنا.. فقد انتهى مجلس العائلة إلى احتمال أن أصبح «شيئا ما».. وأعتقد أن هذا استنتاج غير مجد».

ذهب لورانس إلى كلية يسوع في ١٢ أكتوبر عام ١٩٠٧، إلا أنه ظل يعيش في رقم ١٢ شارع بولستيد معظم الوقت أثناء دراسته الجامعية، واتخذ سكنا جامعيا لمدة فصل دراسي واحد نزولا على نظام الجامعة. وقد اعترف تيو شويدي الذي التحق بكلية كرايست تشيرش في نفس العام، إنه وزملاءه أصابتهم الدهشة لدى معرفتهم أن لورانس تقدم لمنحة دراسية، ليس لأنهم شكوا في ذكائه، لكن لاعتقادهم أنه ليس لديه الالتزام الكافي المتطلب للحياة الأكاديمية. وقد ادعى لورانس فيما بعد أنه لم يحضر أية محاضرات في كلية يسوع، وأنه كان يقضي وقته في القراءات الخاصة التي لم تكن ذات علاقة في أغلب الأحيان بمواد دراسته. وكان أي شيء في التاريخ بعد عام ١٥٠٠ يصيبه بالملل. وكان مفهومه عن العصور الوسطى هو عالم الملك آرثر الفروسي أكثر منه عالم العبودية والطاعون الواقعي. وقد لاحظ المدرس النابه الشاب إل. سي. جين، الذي تولى إعداد لورانس لامتحانات القبول بأكسفورد، وكان ذا شخصية متوترة إلى حد ما، أن لورانس لم يكن أكاديميا بطبعه. كما لاحظ أن الكتب التي كان يقرؤها كانت هي فقط الكتب غير المعتادة، أو بمعنى آخر، تلك التي كانت تتوافق مع حسه بغموض ذاته. كما لاحظ أنه كان متباعدا وكان يأتي بمقولات مستفزة كي يختبر شخصيته. كما اعتقد إرنست بيكر، أن لورانس اختار أن يدرس التاريخ كسباح للقفز من فوقه، ورآه كفارس يتقلد سيفا استعدادا للمعركة. أما ميدج هول زميل لورانس في كلية يسوع، والذي كان أكثر قدرة على الملاحظة، فقد تحقق أنه «كان جوالا لا هدف له سوى التجوال» وكان هدفه الأوحد هو الهروب. واعتقد ريجينالد لين بول، معلم لورانس في مادة تاريخ العصور الوسطى، أنه شخص رومانسي رغم ملاحظته المغايرة بأنه كان يبدأ مقالاته بجملة متحدية، وكان أسلوبا تعلمه من نصيحة سير تشالز أومان، الذي سيقوم لورانس فيما بعد بدحض نظرياته عن قلاع العصر الوسيط. وحدث أن كتب لورانس مذكرة إلى معلمه يعتذر فيها من عدم حضوره إحدى حصصه، فأجابه معلمه ببديهية لاذعة قائلا إن هذا غير ذي أهمية إذ إنه سيتيح له ساعة من العمل المجدي.

لم يشارك لورانس كثيرا فى حياة كليته، وجذب إليه الأنظار بانعزاله. وكان رفضه الاشتراك فى النشاط الرياضى يثير دهشة البعض. لكنه كان من الحصافة بحيث إنه لم يشارك فى الجدل بشأن المراهانات مع المتحمسين من الكلية، فضلا عن أن يسخر منهم بأن يتبعهم فى الشوارع وهم فى طريقهم إلى الملاعب أو نادى التجديف، ويهزأ من صفاتهم الجسدية. وامتنع لورانس أيضا عن أشياء أخرى. فرفض أن يدخن أو يتعاطى المسكرات، ونادرا ما كان يحضر المآدب الرسمية فى قاعة الجامعة. وقد أوضح الأمر لأحد زملائه فى الجامعة، ويدعى إيه. جى بريس جونز، فقال إنه لا يجلس على الكراسى إن استطاع هذا، ولا يتناول الإفطار أو الغداء أو شاى الساعة الخامسة أو العشاء، كما أنه لا يقرب الدخان أو المشروبات المركزة وقال جونز «فى الواقع، لم يكن يفعل شيئا يؤهله ليكون عضوا عاديا فى المجتمع». وحدث ذات مرة أن لورانس اندفع إلى غرفة ميدج هول وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب مضحك مشوه وبدأ فى إطلاق الرصاص من النافذة فى اتجاه أسفل. وتحقق هول بعد ذلك أن الرصاصات كانت «فشنك» وأن لورانس أراده أن يكون مشهدا تمثيليا رغم ادعائه أنه كان يروح عن نفسه بعد خمس وأربعين ساعة عمل متواصلة دون راحة أو نوم. وقد شغل مسكنا جامعيا عام ١٩٠٨ أثناء أحد الفصول الدراسية وكان المسكن يطل على السوق المغطى ويعلو مطبخ الكلية حيث كانت روائح طهو الطعام العفنة تهب خانقة على الغرفة. وحين كان الجميع يستعدون للنوم فى وقت متأخر، كان لورانس ينشط «مثل القطة» ويجوب الشوارع المظلمة على دراجته، أو يقطع المربعات السكنية بمفرده. وأثار تجواله الليلى فضول طالب بالفرقة الرابعة يدعى ڤيڤيان ريتشاردز حيث ذهب ليبحث حالة طالب الفرقة الأولى المعزل، وسرعان ما أولع به، وكان ريتشاردز، وهو شاب ذكى، حاد زوايا الجسد، حساس، ابنا لمخترع من ويلز تزوج من أمريكية وكان والده قد قضى حياته يجمع أوسمة النعوق ويسخر من الفن والتاريخ والأدب. وقد أدى افتتان ريتشاردز بلورانس إلى منعطف آخر فجأة، أى إلى عالم الأشياء القديمة: «القلاع، والكنائس، والنحاسيات التذكارية والأوانى الفخارية والكتب ثم الكتب ثم الكتب». ولم يكن بالإمكان تجمع شخصين بهذه الدرجة من الاختلاف فكان ريتشاردز رياضيا، متعاليا، لا يستهويه الفكر، منتقدا لما حوله، وتقليديا. أما

لورانس فكان زنبقا، ومتقلبا، وغير تقليدى، ذا ميول عقلانية متطرفة، ومستغرقا فى كل ما هو قديم ورومانسى، ورغم هذا، فلدى أول لقاء به كتب ريتشاردز قائلا «تملكنا ود عميق سريع مازالت حيويته تحرك جوانحى بعد مرور ثلاثين عاما». سيطر هاجس حب لورانس على رينشاردز فأفاض على محبوبه ودا غير محدود، وخضوعا، وتضحية. إلا أن عاطفته لم تجد لها مردودا. فلم ينجذب إليه رغم أنه كان يتمتع بصحبته التى كان فيها إرضاء لغروره حيث كان ريتشاردز يسبغ عليه عظيم الاهتمام. إلا أنه لم تبد منه بادرة أبدا توحى بأنه فهم طبيعة اهتمام صاحبه به. وعرف أن ريتشاردز شخصية صعبة معقدة، يميل إلى ازدراء ما لا يفهمه، ويرتعد رعبا من الفجاجة التى كان يشير إليها لاغيا «بالمهنية». أحب لورانس موهبة ريتشاردز الفنية الخبيئة، وكان يسعده أنه يساهم فى تنقيبها، إلا أنه تجاهل الطاقة الرهيبة التى كانت تنبعث من رينشاردز قباله، محولا إياها إلى مصلحتهما المتبادلة. أحب أسلوب ريتشاردز المباشر وخبر معه ألفة لم يعرفها من قبل. إلا أن العلاقة ظلت بريئة، الأمر الذى أصاب ريتشاردز بالإحباط. وبعد سنوات طويلة، ادعى ريتشاردز أن لورانس غير ذى نزوع جسى. ويعتبر اعتقاده بأنه لم يكن لدى لورانس أى «حس جسدى» من أى نوع صدى لرأى كلير سيدنى القائل بأن «حضور لورانس كاد ألا يكون جسديا». إلا أن أيا منهما لم يستوعب حقيقة كون لورانس مازوكيا، ارتبطت أحاسيسه الجنسية ارتباطا وثيقا بخوفه من الألم. ورغم تفضيله الرجال على النساء، إذ توضح كتاباته المتأخرة انبهاره بفكرة الجنس الإيروسى المثلى، إلا أنه كان يتملكه الرعب من حقيقة الألفة الجسدية التى ارتبطت ارتباطا مباشرا بعلاقته المبكرة بوالدته حتى إنه كتب قائلا. «يصيبنى الاشمئزاز من التلامس بالعنيان والنفور». كما أنه أخبر إى. إم. فورستر لاحقا «أن تكوينه الجنسى» غريب. وكتب قائلاً بخصوص الفعل الجنسى المثلى «أعتقد أننى لا يمكننى أبدا فعله.. فلم يولد فىّ بعد الحافز القوى بدرجة كافية لأن يجعلنى ألمس مخلوقا آخر».

وفيما بعد، أخبر ريتشاردز روبرت جريفز أنه بعد انتقاله إلى مسكن خارج الكلية، كان لورانس يزوره باستمرار هناك بعد منتصف الليل، وقال إنه طلب من ريتشاردز ذات مرة مرافقته فى رحلة سباحة مجنونة للغطس فى الجليد فى نهر

تشيرويل المتجمد كي يكتشفا ما إذا كانت طبقة الجليد رقيقة بحيث يتاح لهما العطس ثم الخروج من الماء مرة أخرى. وقد رفض ريتشاردز الفكرة على أساس أنها مغامره سخيفة محفوفة بالمخاطر. إلا أن لورانس انطلق بمفرده وكرر هذا عدة مرات فيما بعد. وقد بيّن ريتشاردز اعتقاده أن متعة صديقه بهذه الرحلات الغريبة كان مصدرها جزئيا الدهشة التى كان يراها مرتسمة على وجوه التقليديين من الأفراد مثله. وهذه ملاحظة رئيسية فعلى حين كان صوم لورانس واتباعه أنظمة غذائية قاسية وحرمان نفسه من النوم تعبيرات عن طبيعته المازوكية، فقد كانت أيضا أوجها لميول استعراضية مقلوبة إذ إنه لو كان لا يتمرس فقط على قوة الاحتمال لمواجهة المحن المحتملة القادمة «بالمعنى البطولى الكلاسيكى»، لما كان هناك داع لمتفرجين، إلا أن لورانس لم يكن يميل للمعاناة الصامتة، إذ كان لابد من وجود شهود على محنته. وكما يقول ريتشاردز، كانت هذه إحدى سماته طوال حياته، أى السعى وراء صالة عرض خاصة لعرض بطولاته.

وقام ريتشاردز ولورانس معا باستكشاف عالم ويليام موريس، ذلك الصرح التليد للفن والتصميم الفيكتورى والذى ترك أثره على لورانس بقية حياته. ومن غير الواضح متى تعرف لورانس لأول مرة على موريس الفنان، وليس سميه ويليام هنرى موريس أو اللورد نافيلد رجل صناعة السيارات. لكن لورانس كان يسكن شمال أكسفورد خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، ومن ثم كان من المحال تحاشى السماع عن موريس حيث كانت تصميماته لورق الحائط المزخرف برسوم الرمان أحدث صيحة فى منازل أساتذة جامعة أكسفورد. وكان موريس تحديدا هو نوع الشخص المتعدد الثقافة الموسوعى الذى كان لورانس يتمنى أن يكونه، كان شاعرا متميزا، وروائيا، وحرفيا من الطراز الأول، ومصمما، وطباعا، ورساما، وكان رائدا لفن الطباعة من الأعمال النحاسية، كما أنه طاف بالكاتدرائيات الفرنسية فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وشق طريقه خلال صحراوات أيسلندا الباردة، وأعاد إحياء العمل الكلاسيكى «موت الملك آرثر» للكاتب مالورى، وكان مصدر إيحاء لحركة الفنون والحرف التى تبنت الاشتراكية الراديكالية، وساعد فى تأسيس جماعة «إخوان ما قبل رفائيل» وأنشأ دار كيلمسكوت الشهيرة للنشر والطباعة. وكانت فترة العصور الوسطى هى مصدر

إلهام موريس مثلما كان الحال مع لورانس. وكان هدفه إعادة إحياء روح الحرفية الفردية التى اعتقد أن الزمن الفكتورى الصناعى قد فقدها. وجعل منه هذا ماردا فى نظر لورانس الذى كان كشاب مشغولا دائما بممارسة حرفة ما كالطباعة من الأثريات النحاسية أو نحت الحجر أو الأعمال المعدنية أو نحت الخشب وحتى الحياكة. وعلى حين أعجب رينشاردز بمثابرة لورانس فى ممارسة هذه الحرف، إلا أن النتائج لم تكن تحوز إعجابه إلا فيما ندر. وذات مرة، أراه لورانس مصباحا كهربائيا كان قد صنعه من النحاس المطروق وصممه طبقا لنموذج مصباح مغربى مأخوذ عن أحد نقوشات هولمان هانت وكانت تدعى «ضوء العالم». واعتقد رينشاردز أن المصباح ردىء. بيد أنه أبدى إعجابه بحفر لشكل كلب بلجيكى كان لورانس قد نفذه على قضيب لمائدة فى غرفته. أما بوب، شقيق لورانس، فقد كتب قائلا إنه كانت لدى نيد، حتى وهو طفل، مقدرة عظيمة على تحسين وإصلاح الأدوات المنزلية. وقد تفاخر لورانس فيما بعد بتلك المقدرة وأسماها «الاستعداد لصنع وإصلاح الأشياء». ورغم أن نيد دعا نفسه «حوالا يبحث عن الأحاسيس وفنانا من نوع ما» فقد اعتقد آرنى أن أخاه حرفى أكثر منه فنانا، واعتقد أن لأخيه حاسة لتقدير الصنعة الجيدة والخامة الجيدة بغض النظر عن القيمة الفنية. وأثناء عمله بالكتابة فيما بعد، كان لورانس يتصرف كما لو أن هناك تقنية حرفية للتعبير الأدبى التى لو تعلمها المرء لأمكنه الإتيان برائعة أدبية كما لو أن الأمر لا يخرج عن كونه «عملية حسابية». وكان ماهرا فى استعمال التقنية إلا أنه اكتشف أن الأدب العظيم لا يكمن فى إتقان «الحبل»، لكن فى قوة الرؤية الإبداعية، الأمر الذى سبب له قدرا من المرارة. والحقيقة، أن القوة التى كانت تهيمن على روح لورانس (أى الإرادة العظمى التى شيدها فى مجابهة الجحافل البربرية التى ما فتئت تطرق تخوم وعيه فتستنزفه) كانت مضادة للإبداع. وهى إن كانت تستبعد العواطف الشاردة، فإنها أيضا قد أوهنت خصوصية الرؤية المرتبطة بتلك العواطف. فقد كان لورانس شخصا متحكما فى ذاته، عقلانيا بدرجة لا يمكن معها أن يصبح شاعرا أو فنانا أبدا. وكانت مأساة حياته الكبيرة هى اكتشافه أن الإبداع هو فى واقع الأمر تدفقا للجانب المعتم الذى قضى حياته محاولا كبته.

وقد استوحى لورانس من موريس فكرة إنشاء مطبعة يدوية، إذ إنه بدا له وأن

الطباعة هى المهنة المثلى لهاوى الفنون الذى توقع لنفسه أن يكونه فى المستقبل، ولدى تفكيره فى عمل دائم له كان لا يقوى على احتمال فكرة أن يحدّد بمهنة ما أو أخرى. وعلاوة على هذا، فقد بدا الأمر وأن الطباعة تحيطها هالة روحانية كان لها قبول فى نفسه، حتى إنه قال لوالدته فيما بعد إن «الطباعة ليست تجارة بل حرفة».

ومثله مثل موريس كانت الخاصية الحسية للكتاب جيد الطباعة تجذبه ليس فقط من الناحية الجمالية لشكل الطباعة، بل أيضا الإحساس بالورق، وبنية التغليف. وتمتلئ خطاباته بإشارات نخبوية شبه روحانية لمزايا جلد التغليف الرقى، ولتعقيدات عملية الحصول على اللون الأرجوانى الجيد من اللون الأحمر الأرجوانى الشامى. وعلى حين اكتفى موريس بمكان فى سوق هامر سميث التجارى، لم يكن للورانس وريتشاردز أن يكتفيا إلا «ببهو عصر أوسطى» حقيقى. وقد تكون الفكرة قد راودتهما لدى قيامهما «بالحج» إلى «ضريح» لموريس فى بوردكامدن، حيث كان زوجان بدعيان الكومرسواميس قد قاما بتحويل كنيسة صغيرة من القرن الرابع عشر إلى منزل حشدا فيه أشياء موريس التذكارية، بما فيها نسخة من أعمال تشوسر «أمير الطباعة الحديثة» التى تم تغليفها تغليفا رائعا فى الاستوديو الخاص «كلبمسكوت». وهناك توفرت لهما ميزة اطلاعهما على المطبعة الحقيقية التى استعملها موريس فى الاستديو الخاص به فى كليمسكوت والتى كانت مازالت تعمل. وقد تعمد رينشاردز أن يسجل أن رد فعليهما لم يكن فقط عاطفيا بل «كان حافزاً غير عادى للحماس العملى الذى أخذ يتجذر فى عقلينا. فسنقوم نحن أيضا بالطباعة، وسنحقق المكاسب من هذا كما نأمل بحيث يكون بإمكاننا العيش دون أن ننحنى لأى نوع من المهن». وأيضا، حفزت هذه الزيارة لورانس على قراءة رواية موريس «جذور الجبال» وهى رواية خيالية عن قبائل قوطية كانت تحيا جماعياً فى أبهاء وتنام فى أسّرة يتم إغلاقها، وتعقد مجالس شعبية على الطراز الإنجليزى القديم وتحارب بشجاعة فى المعارك. وقد قادته «الجذور» إلى روايات أخرى مثل «البئر التى تقع فى نهاية العالم» و«الغابة الواقعة خارج حدود الدنيا». ونقلته كل منها إلى عالم أسطورى بطولى. وقد ظل لورانس معجبا بموريس طوال حياته على حين خبت أحاسيسه تجاه الكتاب الأكثر شهرة. وكتب لتشارلوت شو فيما بعد

قائلا: «أعتقد أن كل فرد يحب كاتبا واحدا بدرجة غير عادية ودون تعقل... وأنا أفضل موريس على العالم أجمع» و«إن عقلي يخبرني أنه ليس كاتبا جيدا، إلا أنه كتب فقط المادة التي أهواها». وقد اعتقد لورانس أن فكرة بهو عصر أوسطي هي فكرة موريسية حقيقية أكثر من «بيت موريس الأحمر» في آبتون. وذات مرة، سحب ريتشاردز معه كي يريه كنيسة صغيرة من الحجر غير مستعملة قرب ويماوت كان يفكر في شرائها. كانت ذات بساطة عارية محببة إلى لورانس «وكانت الفانتازيا الموريسية» قد مارست قوة هائلة على لورانس، رغم أن عصر أوسطية موريس لم تكن حقة بدرجة أكثر من تلك التي تبناها لورانس. وهناك أكثر من تلميح أن للأبهاء الجماعية في رواية «جذور الجبال» أثرا في تعلقه اللاحق بحياة ثكنات الجيش، كما ألمح ريتشاردز أيضا أنه بالنسبة للورانس «كانت خيام الصحراء المصنوعة من شعر الماعز الأسود هي أيضا أبهاء عديدة مظلمة ذات أعمدة».

غير أن شطحات لورانس أثناء وجوده في كلية يسوع لم تقتصر على كونها مغامرات في أجواء عقلانية وجمالية فقط. ففي صيف ١٩٠٨ طلب من ريتشاردز أن يلحق به في مغامرة مدينية للإبحار في قناة طاحونة تربل. وتمدنا هذه المغامرة بالصورة الأولى للورانس كمنظم ومنفذ، وهذه شخصية حاول إنكارها لاحقا. كان لورانس دوما مهتما بالقوارب وتسييرها. واكتشف في سنواته الأولى في كلية يسوع دلائل على وجود مجرى مائي عصر أوسطي أو قناة طاحونة تربل التي كانت تجري تحت المدينة. وبعد جهد استطلاعي مدروس توصل إلى أن القناة كانت تبدأ عند فوهة بالوعة مجاري قرب كوبري هايث، وعزم على أن يتأكد من شكوكه بشأن تدفق تلك القناة في نهر إيزيس عند كوبري فولي. وكان ريتشاردز قد أخذ مجموعة من الأصدقاء جمعهم معا في قوارب ثلاثة للقيام بهذه المغامرة وكانوا: هيدج هول، وثيوشويدي، وإي. تي. بي ويليامز، وهـ. إي ماتر وكان من المتحمسين للرياضات المائية وكان لورانس قد شاركه في مغامرة فاشلة عام ١٩٠٦. وفي اليوم الموعود، أنزلت القوارب إلى المجاري عند كوبري هايث وهي مضاءة بالشموع ومصابيح الغاز، وكان النفق شديد الضيق بحيث كان على الشباب أن يقبعوا في القوارب منحنين إلى الأمام وأذرعهم تلامس جوانبهم لعدم

وجود فضاء كاف . وقال لورانس إنه قد يكون من دواعى التسلية أن يروا أى مصدر للضوء سيخبو أولا وكان الهواء قد أصبح فاسدا ، ثم تعجب بصوت عال عن موقف الفئران التى تحتل المكان ، وأضاف ، وقد أخذت القوارب تنساب فى الظلام «ليس هناك فضاء يسمح لدوران القوارب والعودة بنا» وكان كان لورانس وكأنما قد تكهرب بفعل روعة إثارة الخوف التى دفعته مرة أخرى للتظاهر بالشجاعة . أما فى حقيقة الأمر فكان الرعب قد تملكه من انسياب المياه من خلال تركيبات القضبان الأمر الذى كان سيؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه وتعطيل القوارب ، أو أن يرتفع منسوب المياه نتيجة لهطول الأمطار المفاجئ فيغرقوا . ولحسن الحظ لم تكن ثمة عوائق أو توقف مفاجئ من أى نوع . وحاول لورانس أن يدارى شعوره بالارتياح بإطلاقه قذائف فارغة من مسدسه أسفل تركيبات قضبان المجارى كى يجذب انتباه المشاة فى الطريق الذى يعلوهم . ثم اندفعت القوارب إلى ضوء النهار بالقرب من كوبرى فولى بعد عشرين دقيقة فقط من الإقلاع .

وبما أن اهتمام لورانس بهذه النشاطات التى تخرج عن نطاق المقررات الدراسية أو بهروبه إلى عالم موريس كان أكبر كثيرا من اهتمامه بالمحاضرات ، فقد كان من حسن حظه أن أدخل الأساتذة الممتحنون فى مواد التاريخ فى عام ١٩٠٨ خيار التقدم ببحث عن أى موضوع ذى صلة واعتبار البحث مادة دراسية خاصة . وتحقق لورانس أنه إذا اختار «التاريخ والاستراتيجية العسكرية» مادة خاصة سيصبح بإمكانه التقدم ببحث عن قلاع الصليبيين يعكس فيه كل ما تعلمه بشق النفس عن الحروب الدفاعية فى العصر الوسيط . وكان قد قام برحلته الثانية إلى فرنسا مع بيسون عام ١٩٠٧ ، والآن ، وفى عام ١٩٠٨ قرر أن يقوم برحلته الثالثة كى يشاهد ما فاته من قلاع صليبية ويرى بعض الكاتدرائيات التى استلهمها موريس فى خمسينات القرن التاسع عشر . وقد كان لهذه الرحلة أن تكون أكثر من رحلاته السابقة طموحا إذ إنه كان سيسافر بدراجته عبر فرنسا بمفرده إلى أن يصل إلى البحر المتوسط

وفى منتصف يوليو وصل إلى الهافر ، وتصارع مع عواصف البرد عابرا جيسور إلى كومبين ، ومن هناك إلى بروفان قرب باريس حيث اكتشف أسوار صد لمدينة حربية تنتمى إلى القرن الثانى عشر كادت تتحدى لعبته الذهنية الخاصة بالهجوم

والدفاع. وظل يحوم حول الأسوار ساعات حتى توصل إلى نتيجة أن الأسوار ربما كانت قد أقيمت كتجربة وقرر «أن الصد كان يكاد لا يقوى على الدفاع، ورغم هذا، فالتجربة في جوهرها متقدمة على عصرها بنحو نصف قرن». ثم وصل بدراجته إلى شامبين، وكان يحيى على الخبز واللبن والمشمش إذ إن الجو كان قد أصبح حارا بدرجة مخيفة. كان في هذه الآونة يتبع نظاما صارما: يصحو في الفجر حيث يصل إلى القلعة التي يريدها في منتصف النهار تقريبا ويفحصها لمدة ساعتين. ثم يستمر في رحلته بالدراجة بعد الظهر حتى يعود إلى فندقه في السابعة أو الثامنة مساء. وسرعان ما طغى الإلحاح المحض للرحلة على فرحه بوصوله إلى الملاع وأدى إلى حفوته، رغم أنه كان يشغل فكره بنظم صفحات كاملة من رسالته المقترحة وهو يقود دراجته. كانت بلاد الشمبانيا جميلة جمالا مذهلا، وشعر بنفسه يمتلئ طاقة وهو يسير بدراجته في بساتين الكرز وعبر القنوات المتلألئة؛ وهو يقطع حقول القمح والشعير الناضج الذهبي بينما يراقب المزارعين جماعات في طريقهم للحصاد، ومناجلهم تبرق في أشعة الشمس كالسيوف، وعربات التبن الضخمة تجرها الثيران البيضاء المصفرة. ثم شق طريقه جنوبا بثبات. وفي أواخر شهر يوليو كان هناك في أوفرني يحاول أن يجد طريقا أسفل المرتفعات المتعرجة البركانية الصارمة الكالحة مارا بحدائق تحوطها أسوار ضخمة من الصخور الحافة، ومتسلقا آلاف الأقدام بصعوبة وهو يواسي نفسه أن أحدا من الزمن الكلاسيكي لم يكن يحلم بمثل هذا العناء - خليط من عذابات سيزيف الذي كان عليه أن يدحرج حجرا أعلى الجبل دون توقف، وتانتالوس الذي حكم عليه أن يمسك بثمرة لا يستطيع مطاولتها، وثيسيوس الذي أجبر على أن يظل جالسا إلى الأبد، أما مكافأته، فكانت الاندفاع بالدراجة هبوطا دون توقف من أعلى ارتفاع ٤٠٠٠ قدم إلى وادي الرون. كان هذا الاندفاع محفوفا بالمخاطر ومثيرا لدرجة شعر معها بالغثيان لدى وصوله إلى القاع. ثم واصل رحلته في إقليم البروفانس وأحراش كامارو الجميلة الموبوءة بالبعوض حيث أصيب بأول جرعة له من الملاريا التي ستظل تزعجه طوال حياته. وأخيرا وصل إلى جبل لي بو المنعزل المغطى بالزيتون حيث نظر بعيدا من أعلى حافة خطرة عبر السهل. وفجأة راقب الشمس وهي تقفز من خلف سحابة وترسل ضوءها وميضا فضيا. كانت هذه إحدى أكثر لحظات حياته

إبارة، واحتفى بها بأسلوب لم يكن يملكه سوى شخص من جامعة أكسفورد فى تلك الحقبة، حيث صاح بكلمات إكسنافون بصوت مرتفع أزعج بعض السواح الغريبين وقال . «البحر .. البحر» .

الفصل الرابع

السلطان يحتسى الشاى كعادته

ثورة تركيا الفتاة

4

بينما كان لورانس يقود دراجته

في اتجاه الجنوب في طريقه إلى

البحر المتوسط

في شهر يوليو ذاك، قفزت إلى

وجهه عناوين الصحف

التي تحمل أنباء الانقلاب في تركيا.

وكانت الصحف تؤكد أحياناً أن

ثمة ثورة قائمة،

ثم تعود في اليوم التالي لتؤكد

لقرائها أن كل شيء هادئ،

وأن السلطان يحتسي شايه كعادته.

كتب لورانس لوالدته سائلا إياها بالحاح أن توضح الأمر الذى قد يكون مهما. أما ما كان يحدث فى الواقع فكان بداية النهاية للإمبراطورية العثمانية، هذا العملاق المترنح الذى هيمن على الشرق الأوسط وأوربا الشرقية قرابة خمسمائة عام. وكانت حفنة من شباب الضباط الأتراك قد استولوا على مقاليد الأمور فى الجيش الثالث العثمانى فى أوربا فى ٢٢ يوليو. ثم قاموا بتوجيه إنذار إلى السلطان عبد الحميد الثانى (الباديشاه) بأن يمنح البلاد دستورا أو يتنحى. وأيا كان الطريق الذى كان سيختاره، فقد كانت هذه هى النهاية الفعلية لسطوة الطاغية.

كان عبد الحميد يُنعت بـ«عبد الحميد الملعون»، و«السلطان الأحمر» و«عبد الحميد الدموى». وكان قد ترأس لسنوات ممالك عديدة فاسدة مستبدة امتدت من رمال الصحراء إلى تلال فارس. وكان الـ«الباديشاه»(وهو لقبه بالتركية) يصرف أمور مملكته خلف أسوار قصر يلدز وهو محاط دائما بجحافل الخصيان والأقزام والباوران شبه البكم والراقصات الشركسيات، يصرفها من خلال شبكة عريضة

من الحواسيس وجواسبس على الجواسبس، وكانت الشبكة تتصل به عن طريق أسلاك البرق البالغ طولها آلاف الأميال. وكان القصر نفسه عبارة عن أيقونة لخوفه المرضى المنفرد حبت إنه نادرا ما كان يغامر بتخطى حدود القصر، وفى نطاق تلك الحدود، أنشأ عددا هائلا من الممرات الخفية التى لم يكن يعرف خريطتها سواه. كانت نورات عصب عبد الحميد غير متوقعة لدرجة أن حتى رجال البلاط المتمرسين كانوا يرتعدون فى حضرته. كان يتذوق طعامه جماعات من خبراء اكتشاف السموم، وكان أحد حصيانه «يأخذ نفسا» من سجائره أولا. وكان يتم إحضار الحليب الذى يشربه فى زجاجات محكمة السدادات بعد أن يحلب من الأبقار التى عليها حراسة مشددة كان يحتفظ بآلاف المسدسات فى أماكن خفية فى أرجاء القصر ومنها عدد خبىء فى الحمام الإمبراطورى وحدث مرتين أن أطلق النار على شخصين يرينين تصادف وقوفهما فروعاه، ويقال إن أحدهما كانت ابنته. أما إدارته فكانت قد أصبحت محاكاة ساخرة للإدارات لدرجة أنها ضمت مهرج سيرك، وماسح أحذيه، ورجلا يعمل فى الأراجوز وابنا لأحد طهاته، وعبدا اشتراه فى

السوق المفتوحة. وكان «عبد الحميد الملعون» قد فقد الصلة بالواقع كلية. وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استشرى فيها الفساد حتى النخاع ولم يبق سوى دفعة واحدة كي تسقط متهاوية. وقد قام بهذه الدفعة شباب من «لجنة الاتحاد والترقى» الثائرين المتحمسين الذين كانوا فى غالبيتهم ضباط جيش تم تدريبهم فى أكاديميات السلطان العسكرية. كان هدفهم تحجيم الباديشاه (السلطان) إلى مجرد رمز. ووافق عبد الحميد على منح دستور على أمل الانتقام فيما بعد. فامتلأت شوارع إسطنبول بالجموع التى خرجت لأول مرة يتذكرها الناس لتعبر عن بهجتها.

وكان بين هؤلاء الذين احتفوا بتقليص سلطات الـ (الباديشاه) الشريف حسين بن على أحد الأعضاء الأكبر سنا فى الأسرة الهاشمية التى تنتمى إلى الحجاز غرب الجزيرة العربية. وكان الشريف منفيا فى إسطنبول تحت رقابة مشددة من قبل جواسيس الطاغية، ولم يكن قد غفر للسلطان أنه قد أمره باغتيال عمه الذى تم طعنه حتى الموت فى أحد شوارع جدة عام ١٨٨٠. ولم يتوقف حسين عن التدبير والتخطيط ضد الحكومة إلى أن أمره السلطان فى النهاية بالذهاب إلى إسطنبول مع جميع أفراد عائلته التى كان ضمنها أبناؤه الثلاثة الصغار. ولابد أن الذعر قد تملكه لدى مغادرته سفينته إذ إنه كان يعلم أن مستفدى السلطان كانوا عادة ما يجدون أنفسهم فى جوال مخيط يلقى به فى مضيق البوسفور فى الليالى المظلمة غير القمرية. وكان السلطان قد احتجز شقيقه فى زنزانة لمدة عشرين عاما، إلا أنه ولدهشة حسين فقد سمح له أن يعيش فى هدوء شديد لمدة خمسة عشر عاما كان ينتظر خلالها فرصته بحصافة، ولم يغفل لحظة عن عزمه على الرجوع إلى بلاد العرب كأمير لمكة. وكان قد اكتسب احترام من قابلوه إذ إنه كان شديد التأدب رغم كونه عنيدا متسلطا وشديد التصميم. وكان فى عام ١٩٠٨ رجلا يبلغ من العمر ما يقرب من خمسة وخمسين عاما، صلبا، ضئيل الجسم، ذا لحية شعثة، وعينين واسعتين باردتين كعينى صقر. كانت يداه مرهفتين وملامحه حسنة واضحة توحى بهالة بديعة من النبل. وكان يرتدى عباءته السوداء، وعمامة أهل مكة المحكمة بوقار وبساطة تليق بمكانته الشريفة. وكان محافظا ينتمى للمدرسة القديمة، يتحدث التركية بفصاحة أكثر من العربية، وعرف عنه علمه الدينى ومعرفته فى الشئون الدولية وحبه للشعر ومعرفته الموسوعية فى التاريخ الطبيعى.

وكان أهله الهاشميون أكثر العائلات المبجلة بين المسلمين حيث كان بإمكانهم تتبع نسبهم عبر سبعة وثلاثين جيلا إلى الرسول وابنته فاطمة، وكانوا هم الرعاة التقليديين لمكة والمدينة، تلك المواقع المقدسة في الإسلام والتي كان لتملكها قيمة رمزية حاسمة للباب العالي. ورغم أنه، ولمدة مائتي عام، كان السلاطين العثمانيون يعتبرون (خلفاء) الرسول، فقد كان عبد الحميد أول من استعمل هذا اللقب رسميا. ونظرا لأن إمبراطوريته كانت تتهاوى، فقد ارتأى أن يلعب بالورقة الإسلامية في محاولته الأخيرة البائسة لتجميع شتات الشعوب المتفرقة بين حدودها. كان السلطان يرتعد من الثورات الداخلية لدرجة أن أثارت القلقلة بين الأرمن عام ١٨٨٨ رد فعله المتوتر الفوري. فتحركت جيوشه وأعملت بينهم القتل المنظم: رجالا ونساء وأطفالا قرية قرية، في محاولة وتصميم لإبادتهم. وعلى حين كان الأرمن أقلية مسيحية، فلم يكن العرب فقط إخوة في الإسلام، بل أيضا كانوا يكونون نصف سكان الإمبراطورية تقريبا أي عشرة ملايين ونصف من إجمالي اثنين وعشرين مليونا، وكانوا أيضا يتفوقون عددا على الملايين السبعة والنصف الذين ينتمون للإثنية التركية. ومن ثم، صمم السلطان على خطب ودهم. فاستدعى العواطف الإسلامية ومنح الوقفيات للمدارس الإسلامية ورقى العرب للمناصب العليا. وفي عام ١٩٠١ بدأ إقامة خط سكك حديد الحجاز بزعم تسهيل الحج. ولم يكن من قبيل الصدف بالطبع أن يعمل خط السكة الحديد على تقوية قبضته على هذه المدن التي كانت جزءا حيويا من الواجهة الإسلامية. وكانت الحجاز تدار رسميا بواسطة عضو ذي منزلة رفيعة من الأسرة الهاشمية الذي كان يعين أميرا لمكة. وتمكن السلطان من الهيمنة على المنصب بنجاح بالتلاعب بالتنافسات بين أفرع الأسرة الثلاثة التي كان رجالها مؤهلين ليكونوا أمراء - كانت اللعبة أشبه باللعبة البريطانية ذات العجلات داخل العجلات، لدرجة كادت معها أن تستعصي على فهم أي أحد خارجها. وقامت لجنة «الاتحاد والترقي» لدى استيلائها على السلطة بتنحية الأمير الحاكم لفساده، وولت مكانه، بعد بعض المداولات، الأمير حسين. وكان الأتراك الشبان قد أرادوا للحجاز شخصا يحني لسادته ويحافظ على الأمر الواقع. وقد أقنعت حكمة حسين العملية، واستحواذه على الاحترام على مدى عقد ونصف، الحكومة أنه الشخص المطلوب.

ولابد وأن الشريف حسين لم تفته المفارقة من أنه، وهو الذى كان قد تم نفيه لمدة خمسة عشر عاما كشخص خطير مخرب يتم اختباره الآن على أساس أنه إنسان محافظ.

رست السفينة «طنطا» فى ٣ ديسمبر من عام ١٩٠٨ فى ميناء جدة وعلى متنها حسين وجميع أفراد عائلته. كان هناك من يختلسون النظر من مساكن الميناء البيضاء بباص الكريستال ونوافذها الشبكية وشرفها الخشبية ذات الطراز الباروكى عبر البوابة البحرية شبه المهدمة، حيث تجمع عدد من الشخصيات الرسمية والعرب المحليين لاستقباله ووقف الشريف على سطح السفينة «طنطا» حيث أكوام الخزانات البحرية والصناديق والسجاجيد الملفوفة، أو تراكمات خمسة عشر عاما فى المنفى، يراقب أشعة الشمس تومض على قلاع عشرات المراكب الشراعية (الدهو) وهى تشق طريقها فى اتجاه السفينة. كانت المراكب مزدحمة بأفراد تتردد هتافاتهم من أقصى السفينة إلى أقصاها: شيوخ قبائل البدو، والتجار، وأصحاب المراتب الرفيعة والثانوية، والقضاة، وأقرباء العائلة الهاشمية من بعيد كلهم أتوا كى يشاهدوا الأمير الجديد ويقدموا فروض الولاء إن أمكن. لم يكن للحسين إلا أن يوارى ابتسامة ساحره، فقد كان سلفه فى الواقع لعبة فى يد الوالى العثمانى الذى كان يسيطر على المدن والجيش والمحاكم، وكان مسئولا عن الميزانية والضرائب والأمن والدفاع. وعلى المستوى النظرى. اقتصرت مسئولية الأمير على قبائل البدو الجامحة التى لم تكن لتخضع لأحد. أما على مستوى الممارسة، فكان الأمر مختلفا إذ كان معظم الحجازيين المحليين الذين كان خمسة أسداسهم بدوا رحلا أو شبه رحل ينظرون للإدارة التركية على أنها سلطة غريبة. كان حسين قد تعلم أساليب مناملة القبائل منذ أن كان طفلا إذ إنه كان قد نشأ فى بلاط عمه الأمير، ومن ثم، كان على اتصال يومى، برؤساء البدو وتمرس جيدا فى التعامل مع القبائل والفصائل، وعلى إدارة دفة الأمور وسط متاهات الاتهامات والقدح والتذبذبات والمناقشات التى كانت تشغل يوم الأمير. كان الأتراك يسيطرون على المدن إلا أن المدن كانت تفصلها صحراوات يتحكم فيها البدو. وكان خط سكك حديد الحجاز هو فقط الذى يصل المواقع العسكرية العثمانية بالعالم الخارجى. وكثيرا ما فكر حسين وهو شاب فى العصيان وكان أيضا ضالعا فى مؤامرة عمه

للقيام بثورة فى عسير الإقليم الذى يتاخم الحجاز جنوبا، وهو ما أدى مباشرة إلى اغتيال الأمير. كان حسين ماكرا بدرجة كافية ليعلم مزايا خطب ود بريطانيا، فقد كانت الحجاز تعتمد على الهند البريطانية لاستيراد الحبوب، كما كان الأسطول الملكى يسيطر على البحر الأحمر. كان معجبا بالبريطانيين لاستقامة تعاملاتهم وصلتهم وكان هذا يتباين مع لسان السلطان المتشعب الثعبانى. وكان ميله للبريطانيين معروفا لدى الباب العالى. ولدى قيام حسين بزيارة السفارة البريطانية فى إسطنبول بعد اغتيال عمه بوقت غير طويل، حذره السلطان بعنف ونبهه إلى أنه يجب أن يصطاد «فى مياه صحية أكثر». وفى نفس الوقت، كان أحد جواسيس الحكومة قد كتب تقريرا وصفه فيه بأنه «عنيد متمرد... ذو مقدرة خطيرة على التفكير المستقل». وكانت هذه هى المقدرة التى عزم على أن يمارسها الآن كى يعيد إلى مكانة الأمير مجدها الشرعى. وحينما خطى على تراب بلده فى ذلك اليوم من ديسمبر عام ١٩٠٨، كانت أحلام الأمير تتجاوز حدود الحجاز بمسافة كبيرة.

حينما توفى الرسول عام ٦٣٢م لم يترك ورثة من الذكور، كما أنه لم يعين خليفة يتولى من بعده. ولبرهة، تأرجحت كفتا الميزان بالنسبة لمستقبل الإسلام. فقد أوضح محمد ﷺ أثناء حياته أنه «خاتم الأنبياء»، وآخر سلالة رسل الله إلى الخلق التى بدأت بآدم أبى البشر وتضمنت يسوع المسيح. ولذا، فالبنسبة لبعض أتباعه، كانت مجرد فكرة «خليفة» له، أمرا مشكوكا فيه. وفى النهاية، أعلن المسلمون تفضيلهم لأكبر صحابة النبى سناً، وهو أبو بكر، وابتدأ بذلك حكم ما سمى بالخلفاء الراشدين، وكانوا جميعا من أوائل من اعتنق الإسلام. ولم يكن بينهم من يرتبط بصلة قرابة مباشرة بالرسول. وقد اعتاد الغربيون النظر إلى الخليفة على أنه «بابا» مسلم، واستمر سوء الفهم هذا حتى القرن العشرين. وفى الواقع، لم يكن الخليفة مسئولا عن التعاليم الدينية التى كان يقرر شأنها «العلماء» الذين كانوا يكونون إجماعا من أهل المعرفة وكبار السن. أما دور الخليفة فكان سندا دفاعيا أى دورا يوازى دور الإمبراطور الرومانى المقدس بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، فى العصور الوسطى، ثم عادت الخلافة عام ٦٦١ إلى سلالة الرسول، وانتقل مركز السلطة من الحجاز إلى دمشق فى سوريا فى ظل الأمويين. ثم انتقلت العاصمة مرة أخرى بعد قرون إلى بغداد فى ظل العباسيين، وبعثر

هارون الرشيد أكثر سلالتهم شهرة. وكان العباسيون متأثرين إلى حد كبير بالفرس، وكانوا منذ وقت طويل قد نبذوا جنود البدو مفضلين عليهم المماليك، وهم طبقة من العبيد العسكريين الذين جُلبوا بشكل أساسي من القوقاز. وبفعلهم هذا، بذر العباسيون بذور سقوط دولتهم، فقد كان من الحتمي أن يصبح العبيد أسيادا، وأن يتقلص دور الخليفة ويصبح مجرد لعبة وظيفته إضفاء الشرعية على نظام المماليك. وحينما كسر السلطان سليم الرهيب شوكة جيش المماليك في سوريا عام ١٥١٦، وجد بين المسجونين شخصا لا يوحي مظهره بأية أهمية يدعى المتوكل واتضح أنه آخر الخلفاء من سلالة بني العباس عم الرسول. ورغم أن سليم الرهيب لم يتخذ لنفسه أبدا لقب «خليفة» فقد اتخذ اللقب ابنه سليمان العظيم (القانوني) الذي امتدت إمبراطوريته من بغداد إلى بودابست واستمرت الخلافة في أيدي الأتراك منذ ذلك الوقت.

وحتى لو أن الخلافة داعبت أفكار حسين، فقد كان يسودها أمر إعلاء شأن عائلته، خاصة أبناءه الأربعة علي وعبد الله وفيصل وزيد، الصبي الذي ولد في إسطنبول من زوجة الشريف الثانية الشركسية الجميلة عادلة هانم. وكان الأبناء الآخرون في العشرينيات من عمرهم، وولدوا في الحجاز، لكنهم نشأوا في تركيا نشأة نبلاء الإمبراطورية وتلقوا تعليما جيدا. فكانوا يتحدثون التركية بطلاقة أكثر من العربية وعرفوا الإنجليزية والفرنسية. كانوا شبانا رفيعي الثقافة، (كوزموبوليتانيين) إلى حد كبير، يتحدثون عدة لغات متدينين اكتسبوا مظهرا تركيا. ورغم أنهم كانوا على علم وثيق بحيل البلاط، فلم يعرفوا سوى القليل عن الصحراء مما تنامى إلى سمعهم، أو عن البدو والخيام السوداء وغارات الجمال. ورغم الطموحات التي كانت تحرك الشريف، فمن غير المحتمل أن يكون أولاده الشباب قد تخيلوا وهم يهبطون إلى الشاطئ في شهر ديسمبر ذاك أن الأمر سينتهي باثنين منهم أن يصبحا ملكين، أو أن أداة رفعتيهما سيكون خريج أكسفورد الشاب الذي كان له أن يخطو على تراب بلاد العرب، والذي كان وقف منذ أسابيع على تل في لين بو وقد تملكته النشوة لدى رؤيته الأولى للبحر المتوسط.

الفصل الخامس

شاب شبه مرموق

أكسفورد وسوريا ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩

5

عاد لورانس من رحلته فى فرنسا

وقد امتلأ رأسه بالشرق، وريتشارد

قلب الأسد، والحروب الصليبية.

وقد قام حتى بتصوير

نقش عربى على قلعة منترويل

بليان ـ التى يفترض أن ريتشارد قد

بناها ـ واعتقد أن

هذا النقش لم تسبق ترجمته أبدا.

كان قد قاد دراجته مسافة ٢٤٠٠ ميل، وعاش على اللبن والفاكهة، وعاد إلى وطنه وقد لوحته الشمس، وزادت نحافته، منتشيا بفكرة أطروحته عن المعمار العسكرى: قائلا «لقد وجدتها»، هكذا كتب إلى سكروجر بيسون «لقد وجدت الأطروحة أخيرا الانتقال من شكل المربع السباجى.. حقا، إنها لأعظم من أن تعبر عنها الكلمات».

كانت له أيضا رؤية عن العصور الوسطى الحقيقية مغايرة للصورة الموربسية الرومانسية لتلك العصور. فقد سحقه الإحساس بالفضاء والضوء فى كاتدرائية شارتر ـ تماما كما كان قد حدث لوليام موريس منذ خمسين عاما. وفى هذا الصدد كتب قائلا. «لقد كان شعور لم أخبره من قبل أبدا... كان كما لو أنى قد وجدت سبيلا.. يمتد حتى بوابات السماء، وتحت ما بالداخل حيث كان الباب مواربا». ومن هذه الكلمات، تشع النشوة الحقيقية التى اجتاحته، بعد أن نتخلى عن الأسلوب الراسكينى المتأنق الذى استعمله فى خطاباته كى يحدث أثرا فى فترة ما

قبل الحرب . كما أنه قد تحقق لأول مرة أن الإيمان المطلق ، لا الحرية كما اعتقد راسكين ، هو الذى مكن حرفيى العصور الوسطى من خلق تحفة مثل كاتدرائية شارتر . فقد كان عالم البائين فى العصور الوسطى ضيقا جدا ، إلا أنهم امتلكوا اليقين . صلة ما بالرب . . معرفة ما بمكانهم فى الكون . ولم تكن الحرية هى ما فقده الزمن الصناعى حيث كان التقنيون فى النهاية قوة محررة ، بل إنه كان اليقين . فبينما أتى عصر النهضة ، الذى كان يحتقره لورانس ، بالتنوير العقلانى ، فإنه أتى أيضا بالشك الذى سيسميه فيما بعد «ناجنا الحديث من الأشواك» . واختتم لورانس قائلا : «إن كاتدرائية شارتر بالتأكيد هى مشهد العمر . . مكان يستطيع المرء فيه عبادة الرب بحق . كانت العصور الوسطى أكثر صدقا فى هذا ما ، رغم ضيق أفقهم وجمودهم وجهلهم بالحقيقة كما نقول الآن ونحن فى حالة رضى عن النفس . . إلا أن الحقيقة عبر ذات أهمية إن كان الناس يعتقدون فيما يقولون ، أو كانوا على استعداد أن يوضحوا أنهم يعتقدون فى شىء ما» . كانت هذه احدى

مفارقات حياة لورانس، أى أنه وهو رجل شديد العقلانية، كان يستطيع أن يرى أن الإيمان هو كل شيء، إلا أنه كان عقلانيا بدرجة لم يكن بوسعه معها الإيمان بشيء. وكان التعبير الكامل عن هذه المفارقة هو حكمه على نفسه بأنه «عاقل إلى درجة الجنون». وفيما بعد، كان يحسد العرب الذين جعلوه يشعر بالتواضع بإيمانهم البسيط. فقد رآهم أناسا مازالوا يعيشون فى اليقين الروحانى للعصور الوسطى. «أناس مازالت ألوانهم أولية» كما كان يقول أو «أن هذه الألوان كانت فقط الأبيض والأسود وكانوا يرون الخط كفاف العالم فقط». وكان لورانس قد بدأ يفقد إيمانه بالمسيحية بحلول ١٩٠٨، وطبقا لإحدى الروايات، كان قد فقد وظيفته فى مدارس الأحد لأنه قرأ على الصبية إحدى قصص أوسكار وايلد الموصوم. كانت أمه سارا هى من دمرت إيمانه، كما دمرت كل شيء آخر فى حياته تقريبا. وقد كتب إلى تشارلوت شو قائلا: «إنها تستجدى حبنا لها وتحيلنا إلى المسيح الذى تقول إن فيه السعادة والحق. ولا يعنى هذا أنها تجد السعادة.. فهى تسبب لى ولأخى ولآرنى التعاسة العميقة. إننا بلا حيلة ونشعر أننا لا نتسبب أبدا فى إيلام إنسان كما تتسبب هى فى إيلامنا بطلباتها المستحيلة.. فلا يمكن أن (نفتح) حبا لها.. كما لو كان صبور ماء. كما أن المسيح ليس رمزا بل شخصية أفسدها ملاحم مؤمنين مثلها بها». وكانت أية ذرة من الإيمان قد تكون قد ملكها يوما ما اختفت وهو فى العشرين عندما كتب يقول: «ليس لدى أى يقين أو عدم يقين باستثناء يقينى بأنه لا يوجد يقين». وقد اعترف لاحقا أنه بالرغم من أنه «أحاط حياته بأسيجة احترازية بشكل ما أو بآخر فبالإمكان القول إنه ليس بمقدرة الإنسان أن يعرف شيئا حقا». وهذا يتناسق مع لورانس الذى قال لروبرت جريفز: «إننى أسقط فى العدمية حيث لا تستطيع أن تجد حتى ربا زائفا فى الكون يمكن الإيمان به». واستبدل لورانس باليقين الإيمانى الحدس أو القدرة العقلانية على حساب كيفية حدوث الأشياء وإلى أين تتجه. وقد منحته هذه الخاصية مظهرا من البصيرة الذى ستصفه كليرسيدنى سميث بعد إضفاء الرومانسية عليه «بالقدرة على التنبؤ». ولم يملك لورانس بالتأكيد مقدرة سحرية على التنبؤ بالحظ كما تخيلت سميث. فرغم أن حدسه كان أحيانا دقيقا بدرجة مذهلة، فقد كان أحيانا أخرى خاطئا بشكل بشع. وكان لورانس خبيرا فى انتقاء سبل ممكنة والإبحار فيها، وكانت له، وفقا لتعبير لويد

جورج «عبقرية التفكير المتقدم التي يسبق بها تسعة أفراد من عشرة». فقد كان الحدس الصحيح، هو ما أخبره قبل رحلته إلى فرنسا بوقت طويل أن قلاع الصليبيين في سوريا سوف تكون التتويج المختوم لرسالته المقترحة. بيد أن تشارلز بل من المتحف الأشمولي كان هو الذي أرشده في اتجاه موضوع الأقواس والأسقف ذات الرءوس الحادة والمدببة. وكان محال الجدل الدائم هو إذا ما كان الصليبيون قد نسوا هذا الشكل من مصادره الشرقية، أم أنهم كانوا هم الذين استحدثوه في الشرق. وقد أهلته معرفته بقلاع العصور الوسطى في بريطانيا وفرنسا تأهيلا تاما لمثل هذه الدراسة. واقترح عليه تشارلز بل وجوب زيارته لسوريا ليحسم هذه النقطة حسما نهائيا.

وعاد لورانس إلى حجرته في شارع بولستيد متحسرا على فقدان سكنه في الجامعة، تواقا إلى الإحساس بالانفصال عن الأسرة. كان يحتاج إلى بعض الهدوء من أجل دراسته، ومن ثم أقنع والديه أن يبنيا له كوخا صغيرا في طرف الحديقة مزودا بغرفة مكتب للدراسة وتصله المياه وموقد تدفئة وتليفون. ولكي يعزلها عزلا مزدوجا عن العالم الخارجي قام لورانس بتغطية جدرانها بطبقة مزدوجة من رقائق البولون. وكان ڤيڤيان ريتشاردز كثيرا ما يجده هناك راقدا على السجادة بجوار المدفأة وسط طقطقة النيران، يقرأ من كومة كتب أو منكبا على رسم قدمه بعناية. وذات مرة فاجأه صديقه ريتشاردز وهو يخطو ذهابا وإيابا على لوحة خشبية ذات مظهر غريب دقت فيها مسامير. وشرح لورانس له الأمر قائلا إنه كان يتمرس على تخطي المسافات خفية، الأمر الذي سيكون ضروريا لرحلته القادمة. إن رغب أن يتحاشى القبض عليه كجاسوس. كما أن ثمة مؤشرات أخرى على أنه كان يعد نفسه لرحلته إلى الشرق أثناء شتاء ١٩٠٨. فقد بدأ في أكتوبر قراءة كتاب تشارلز دواتي «الصحراء العربية Arabia Deserta»، ذلك الكتاب الكلاسيكي عن بلاد العرب والبدو الذي كتبه أبرز رحالة الصحراء في تلك الفترة، والذي سيمتدحه لورانس فيما بعد «كإنجيل بين نوعه». وقد كان الكتاب ذا جاذبية وأثر محبب عظيم في نفس لورانس نظرا لخليطه من النثر الشوسري والنثر الإليزابيثي، خاصة وأنه قد علم أن دواتي قد عمد إلى محاولة تنقية اللغة الإنجليزية كما فعل موريس. إذ إنه، بالنسبة للورانس، لم يكن للمغامرات المثيرة

والتجارب الدرامية أية جدوى إن لم تقدم بأسلوب أدبي مثالي، ومن ثم، فلم يعجب بريتشارد ببرتون الذى قد يعتبر أكثر مستشرقي القرن التاسع عشر ورحالته أهمية وإثارة. وأصدر حكمه عليه، وهو الشخص شديد التوتر سريع الغضب ذو الموهبة الهائلة، بأنه «جلف»، ومن ثم نبذ كتبه على أساس أنها «صيغت بأسلوب نثرى إنجليزى صعب لدرجة يتعذر معها قراءتها». أما «صحراء العرب» فقد ظل، مثل روايات موريس، محببا إلى نفسه بقية حياته.

وفي شتاء عام ١٩٠٨ التحق لورانس كمجند مبتدئ بالفيلق المنشأ حديثا بأكسفورد لتدريب الضباط. وقد تسبب هذا الفعل في دهشة زملائه. فقد كان اللامنتمي المعلن الذى رفض الاشتراك في الألعاب المنظمة لكونها «منظمة ولها قواعد» يرتدى الآن البزة العسكرية طوعا ويتلقى الأوامر بتواضع وينحنى للنظام العسكرى. وقد تكون الحقيقة أن فيلق التدريب قد استهوى فانتزبته المازوكية عن الحياة العسكرية - الأمر الذى قد لا يكون بدرجة الإرضاء الذى وجده كجندى متواضع في سلاح المدفعية الملكية - إلا أن البزه العسكرية كانت هناك في الحالتين. وكانت فرقة كلية يسوع وحدة إشارة من راكبى الدراجات، الأمر الذى منحه فرصة ركوب الدراجة، بالإضافة إلى أنه اعتبر بعض التدريبات ذات قيمة خاصة. وقد كتب فيما بعد أنه قد تعلم هناك إطلاق مدفع ڤايكرز الأمر الذى أفاده إبان ثورة العرب، بالرغم من أنه أخبر ليدل هارت أن خبرته في الفيلق كانت غير ذات قيمة من ناحية تعلمه الاستراتيجية. بيد أنه لم يواظب على ممارسة إطلاق النار من المسدسات. ثم وجد في ديسمبر فرصة لممارسة الاهتداء بالبوصلة حينما سار هو وسكروجرز بيسون في أحد الاتجاهات من قمة كومنر هيرست أثناء عاصفة ثلجية ووجدا نفسيهما يخوضان في القنوات المتجمدة ويواجهان زخات الثلج حتى كادا يسقطان في نهر أيزيس عند كوبرى فولى.

كان هذا في الواقع هو اليوم الأخير الذى قضاه لورانس وبيسون معا، فقد كانا قد تعديا مرحلة هذه الصداقة. وكان بيسون قد هجر علم الحفريات إلى علم الحيوان أى إلى اهتمامه الأول تاركا لورانس ليقوم وحده بالحفريات. وفي أواخر عام ١٩٠٨ ارتبط لورانس بدرجة أعمق بنشاط المتحف الأشمولى. فذات يوم،

وبينما كان يشاهد مجموعة العصور الوسطى، التقى مصادفة بإدوارد ليدز، وكان شابا خجولا يكبره ثماني سنوات، وكان إلى وقت قريب يؤدى الخدمة العسكرية الكولنيالية فى الملايو. وكان ليدز قد حل محل ليارد وولى كمساعد أدنى لأمين المتحف، ووجد لورانس وليدز أشياء كثيرة مشتركة بينهما لم يكن الخجل أقلها. وفى يناير التالى قدم ليدز لورانس إلى أمين المتحف الجديد دافيد هوجارث الذى كان له أن يمارس أثرا كبيرا على حياته. كان هوجارث حينذاك فى الخامسة والأربعين من العمر، مستشرقا وآثاريا من المدرسة الكلاسيكية، وكان قد سافر إلى سوريا وتركيا وفلسطين وحده سيرا على الأقدام وبصحبته مسدس، إذ إنه كان لا يطيق صبرا على سفاسف الأمور التى تبدو من الأهالى هناك. ثم كتب كتابا مرموقا عنوانه «باحث متجول فى بلاد الشام». وكان آثاريا ذا منزلة، وعمل مرة مديرا لمدرسة الآثار البريطانية فى أثينا، وقام بعمل حفريات فى قبرص ومصر تحت إرشاد فلندر بترى الشهير. كان يتحدث الفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية والتركية واشترك فى لجنة الجمعية الجغرافية الملكية، كما أنه عمل مراسلا صحفيا للـ «تايمز» فى جزيرة كريت أثناء ثورة ١٨٩٧. وكان هوجارث «جنتلمان» إمبرياليا إدورديا نمطيا. وكان شوفينيا، ومحافظا، وأتوقراطيا، معاديا للديموقراطية بشكل شبه فطرى، وكان أرستقراطيا على المستوى الفكرى. كما كان أبوى الأسلوب ذا مزاج هادئ. ونظرا لما تلقاه من تعليم رفيع المستوى فى كلية ونشستر ومودلين فقد عاش هاويا للفن مدى الحياة. لخص لورانس صفاته فيما بعد فى كلمة واحدة بقوله إنه «متمدين». أما الآخرون الذين لم يعجبهم خليطه من المظهر المنفر والمعارف الواسعة فقد رأوا فيه «قردا ذا تعليم عال». ورغم قدراته، فلم يحرز هوجارث أبدا على مركز عظيم فى أى مجال. فقد كانت مواهبه غير مركزة، وكان مثل لورانس ضجرا، لا يهدأ بدرجة لا يمكن معها وضعه فى إطار تعريف معين. كان يتأرجح بين الأكاديمية والمغامرة، حتى يمكن القول إن أكثر إرثه قيمة هو تعرفه على موهبة فذة فى شخص تى. إى. لورانس. أما بالنسبة للورانس، فقد كان لهوجارث أن يصبح رمزا أبويا وأبا بديلا. كان دائما «مثلا احتياطيا، دائما أجده ورائى إذا ما اعترانى الارتباك أو الحيرة». وخلافا لتوماس لورانس الذى كان قد قطع صلته دون داع بكل شخص ذى تأثير، ولم يكن بمقدوره أن يلجأ إلى

«المدرسة القديمة» طلبا للمساعدة كان هوجارث يعرف الجميع تقريبا. ولما لم يكن المجتمع الإدواردي مجتمعا يقدر الجدارة، فقد كان لورانس يعرف أنه، رغم مواهبه، بحاجة إلى راع ما ليصبح بإمكانه التقدم وقد اعترف فيما بعد أنه مدين لهوجارث بكل وظيفة جيدة حصل عليها. ولخص لورانس رأيه فيه قائلا إنه «رجل مدهش. إنسان في المقام الأول، ثم إنسان خبير، ثم شخص حي. إنه الأب الذي أستطيع أن أثق فيه دون تحفظات إذ إنه سيفهم ما يشغلني» وقد عرف لورانس منذ البداية ما يمكن أن يقدمه له شخص مثل هوجارث فسعى إلى كسب مودته.

لم يكن هوجارث يهتم كثيرا بقلاع لورانس الصليبية. كان لا يهتم، ويتغاضى عن أي شيء أركيولوجي غير متعلق بالآثار الكلاسيكية والشرق الأدنى القديم. أما ما كان يحرك مشاعر هوجارث، فكان هم الحيثيين، هذه الجماعة الإنجيلية الغامضة التي لم يكد يُعرف عنها شيء قبل عام ١٨٧٠. كانت قصة الحيثيين غريبة. ففي عام ١٨١٢ اكتشف المنقب الرحالة السويسري جوهان لانفيج بركارت حجرا مثبتا في جدار في سوق مدينة حماة السورية والذي كان منقوشا عليه كتابات بدت هيروغليفية. ولم يستطع فحصه تفصيلا نظرا لعداء السكان المحليين، إلا أنه شعر منذ اللحظة الأولى أن الكتابات الهيروغليفية كانت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة. ولم يكن لحجر حماة أن يدرس بدقة حتى عام ١٨٧٢، وحينذاك، تمت مقارنة النقوش التي على الحجر بأخرى على حجر مماثل في حلب، وبعدد آخر من النقوش المتناثرة في أنحاء آسيا الصغرى. وبحلول عام ١٨٧٦ تم اكتشاف كتابة حضارة الحيثيين المفقودة. وكان هوجارث قد قام بالعديد من الرحلات بحثا وراء تلك الحضارة ثم عاد إلى أكسفورد ومعه مجموعة من أختام الحيثيين الأسطوانية التي كانت فريدة من نوعها على مستوى العالم. فقد كانت هذه الأختام التي في حجم عقلة الإصبع أو أطول قليلا في حالات نادرة قد نقشت عليها صور معقدة التصميم، وأحيانا كانت تلك الصور سيريالية. نباتات متفتحة. حيوانات شائكة.. بشر في هيئة حشرات. ورغم أنه كان يشار إليها على أنها أختام، إلا أنها كانت تستعمل أدوات للطباعة، وكانت حين غمسها في أصباغ ملونة يمكن دحرجتها لتحدث نسج تشكيلات على جلد الإنسان أو أقمشة الزينة، أو على الأشياء كعلامة على ملكيتها. بيد أن أختام الحيثيين الأسطوانية لم تكن

لها مكان فى فانتازيا لورانس عن العصور الوسطى، إلا أنه أبدى اهتماما بها ووجه إليه أسئلة عن المكان المحتمل لوجود آثار تلك الحضارة، تملقا منه لهوجارث. كما بين له اعتزامه بالقيام برحلة حول القلاع الصليبية فى سوريا فى الصيف التالى وأنه بالتأكيد سيتمكن من توفير بعض الوقت للبحث عن الحيثيين. وحاول هوجارث، الذى لم تهتز مشاعره، إثناءه عن الرحلة قائلا إن الجو سيكون قائظاً فى الصيف لا يسمح بالقيام برحلة سيرا على الأقدام هناك. وإزاء إصرار لورانس، نصحه هوجارث بالاتصال بداوتى خبير الرحلات فى البلاد العربية. ومن ثم كتب لورانس إلى داوتى الذى لم يكن موقفه أكثر تشجيعا من هوجارث إذ أوضح أنه لم يذهب فى المقام الأول، أبعد من دمشق وأضاف «إن الحرارة شديدة طوال الليل والنهار فى شهرى يوليو وأغسطس... إنها أرض قاذورات لن يجد فيها الأوربى سوى المنعة الشريرة والرجل العاقل الذى يعرف البلد لن يفكر فى القيام برحلات طويلة سيرا على الأقدام». وأضاف داوتى إنه فى حالة إصرار لورانس على زيارة الشرق فعليه تعلم العربية.

أثارت توقعات داونى القاتمة المخاوف فى نفس لورانس. إلا أنه كان كلما زاد إصرار الأكبر منه علما على حماقة الرحلة، ازداد هو إصراراً عليها. وكانت رحلته بالدراجة فى فرنسا عام ١٩٠٨ إعدادا له: فسيوفر الشرق الخلفية للمغامرات التى يتوق إليها الفارس المتجول. ومن ثم، بدأ فى تعلم العربية على يد رجل دين سورى بروتستانتى هو المبجل نصار عودة، ومنه تعلم أساسيات القواعد وحوالى مائة كلمة اعتقد أنها كافية لإرشادات الطريق والطعام والمسكن والمعاملات المالية. وأمده والداه بأربعين جنيها لشراء كاميرا وحامل، ومن أجل دعم الصور التى سيلتقطها، تلقى دروسا فى الرسم من إى. هـ. نيو، وهو رسام معمارى، وكان من دواعى سرور لورانس أن نيو كان قد رسم حديثا رسوماً توضيحية لكتاب عن سيرة ويليام موريس. وقبل رحيله، قابل لورانس هوجارث مرة أخرى وأوكل إليه معلمه مهمة إحصار أختام أخرى للمتحف الأشمولى من منطقة جنوب تركيا التى كانت فى برنامج رحلته والتى سبق لهوجارث زيارتها ووجد بها العديد من أختام الحيثيين الأسطوانية، وخصوصا أن الأختام صغيرة ومن اليسير نقلها. وبهذا حقق لورانس مسعاه. ولإعداد نفسه للظروف قام باستظهار مقتطفات طويلة من كتاب

«الصحراء العربية»، كما قرأ كتاب «إرشادات عملية للمسافرين في الشرق الأدنى» للكاتب إي. إيه. رينولدز - بول. وعملا بنصيحة بول، ابتاع لنفسه مسدسا أوتوماتيكيا لحمايته من قطاع الطرق وقام بتفصيل بذلة من قماش خفيف بها عدة جيوب لحمل أشيائه. كما أمده النفي، عن طريق هوجارث، بهاري بيري جوردون الذي كان قد تجول في أنحاء سوريا في الموسم السابق، والذي ابتاع منه خريطة ذات حواشي. وفي ذات الوقت، كان قد تقدم بطلب للحصول على خطاب «الرضا»، أو الخطاب الرسمي للسفر الآمن من الحكومة العثمانية، عن طريق السير جون رايس، مدير كلية يسوع بواسطة اللورد كيرزن رئيس جامعة أكسفورد. وفي ١٨ يونيه عام ١٩٠٩ صعد إلى السفينة «مغوليا» المتجهة إلى بورسعيد ومنها إلى بيروت، وفي أحد جيوبه خريطة بيري جوردون، وفي جيب آخر مسدسه البيدكر.

كانت بيروت حينذاك من أكثر مدن الشرق الأوسط حيوية: وقد وصفها لورانس نفسه بأنها «بوابة سوريا» و(بارافانا) شاميا ملونا تتسلل منه.. التأثيرات الأجنبية». وبعد ذلك بتسعين عاما، حينما وصلت أنا هناك اقتفاء لأثره، كانت بيروت هيكلا للمكان، وكانت منطقة وسط المدينة الشهيرة قد أصبحت كسارة أحجار - متاهة أصابتها القذائف بدون مداخل أو أسقف. ورغم أن الحرب بين المسيحيين والمسلمين كانت قد توقفت، منذ وقت طويل، وانسحبت القوات الإسرائيلية، فقد كان (الإسرائيليون) مازالوا يحاربون الفلسطينيين في الجنوب اللبناني، الأمر الذي جعل من المستحيل بالنسبة لي أن أقتفي أثر رحلة لورانس عام ١٩٠٨. وبدلا من ذلك، كان علي أن أسلك طريقا غير مباشر، مستقلا حافلة من القاهرة إلى القدس، وعبر وادي الأردن إلى طبرية على بحر الجليل حيث وجدت غرفة في نزل كنيسة اسكتلندية. وكانت غرفتي التي تشبه الزنزانة، تطل على حديقة شاطئية مليئة بأشجار صنوبرية وأشجار السرو والبلوط القديمة. كانت هناك سحب متوهجة فوق البحيرة ومصدر إضاءة دوار منارة شاطئ يلقي بأشعته على المياه المائجة. وكانت النوارس والطيور البحرية الأخرى تعلو وتهبط فوق الأمواج كأنها قوارب من الورق. وكان لورانس قد وجد البحيرة «شديدة الزرقة، فبها الحركة دائمة، لا تهدأ تماما أبدا». إلا أنها «جميلة» وليست «مهيبة». أما طبرية

نفسها فقد وصفها بأنها «مدينة قذرة شديدة الحرارة». لا تعوزها المناظر التصويرية، وأحب ميناءها الصغير وقوارب الصيد فيها، كما اعتقد أن أسوارها المهدمة «جذابة». وعند زيارتي، كانت الأسوار مازالت هناك، إلا أن عددا من الفنادق الحديثة متعددة الطوابق التي ارتفعت غطت عليها وقد أفسدت الأثر الذي تحدثه.

وفي اليوم الثاني لزيارتي استأجرت دراجة جبال كي أتمكن من الذهاب إلى صفد، وهي أكثر مدن الجليل ارتفاعا، وكان لورانس قد قضى فيها أياما قلائل. كانت الأمطار قد تساقطت أثناء الليل. وكان الطريق على طول البحيرة الذي يخترق الجدول مبتلا ومن ثم استثارت العجلات الأوحال التي تناثرت على جاكتتي المصنوعة من المشمع. وبصعوبة، تسلقت أعلى قبر نعوم حول سلاسل المنعطفات الحادة التي لا تنتهي، وخلال مروج خضراء تكثر فيها الصخور الرمادية والأبقار السمينة التي كانت ترعى وطائر البلاشون الأبيض الأنيق. وعند روش بيناع Rosh Pinna كان الهواء سميكا نتيجة الضباب، والطريق قد أظلمته صفوف أشجار الصنوبر. توقفت لاحتساء القهوة في مكتبة ملحق بها مقهى، حيث جلس رجل شديد البدانة (صاحب المكان) على مائدة يقرأ صفحة الرياضة في صحيفة عبرية. بدا الرجل مهتما باقتفائي أثر لورانس وأخبرني «كان لورانس صديقا لليهود. وآمن بإسرائيل وطنا قوميا لنا. ولهذا، لن ننساه أبداً». كان هذا حقيقيا في جوهره، فمثله مثل بريطانيين عديدين في زمانه كانت فكرة إعادة اليهود إلى أرض آبائهم بعد ٢٠٠٠ سنة شديدة الإثارة. ونظر البريطانيون إلى أنفسهم على أنهم رعاة سريون للزمن، قادرون على توظيف ثرواتهم الضخمة لإعادة تشكيل التاريخ. وكان لورانس قد أصابه الإحباط خلال رحلته إلى الجليل عام ١٩٠٩ لأنه وجد البلدة مهجورة بالمقارنة بالصورة التي كان قد كونها في ذهنه من دراساته الإنجيلية. وكان قد تصورها ذات «شوارع ممهدة، ومنازل ذات أعمدة، وحمامات على طراز الروكوكو»، إلا أنه بدلا من ذلك وجد مكانا «به خيام بدو مهترئة، وأناس ينادون على الأفراد كي يأتوا ويتحدثوا معهم، وكلاب هجين تعض قدمي المرء». ولا نجد في هذه التعليقات أثرا لشخصية لورانس اللاحقة كمحب للعرب. وكان يعتقد أن فلسطين بلدا لطيفا في عهد الرومان، وأنه «بالإمكان جعلها كذلك

مرة أخرى» وكتب قائلا: «كلما أسرع اليهود بزراعة المكان كان هذا أفضل. إن مستعمراتهم تمثل نقاط مضيئة في الصحراء».

سرت بالدراجة من روش بيناع صعودا وسط ضباب بارد برودة الثلج، وكان الضباب قد استقر على الجبال كالبطانية، وأصبح الضغط على دواسة الدراجة أمرا مؤلما. وكانت الأضواء الأمامية للسيارات تلوح في الأفق مخترقة الضباب على فترات منتظمة كأعين شيطانية. كانت نفحات الريح تدفع الستائر إلى الأمام بين الحين والحين. كانت أيضا ثمة ومضات عابرة من البلدة أسفل التلال، بدت سحرية، بلدة من التلال والحقول تحتضنها الشمس. لم أتخيل أبدا أن الطريق إلى صفد يصعد هكذا مسافة ٢,٧٠٠ قدما بلا هوادة حتى بدا الأمر أحيانا وكأني أقود الدراجة صعودا إلى السماء. وكنت قد واصلت قيادتها في اتجاه علوي على السرعة الأولى لمدة ساعات خمس تقريبا. كان ألم ساقي صارخا. وفجأة، انزاحت الغيوم ووجدت نفسي في صفد وهي مدينة كبيرة تمتد حول حواف خمس أو ست قمم جبلية. ثم هطلت الأمطار على أشجار البلوط وأنا أتجه بدراجتي نحو وسط المدينة. بدا الأمر وكأنه ليس ثمة أثر لأية قلاع صليبية. ثم أوقفت رجلا مسنا كي أسأل عن الطريق. هز ذلك الرجل الودود رأسه وقال «لا إنجليزية، لا عبرية، لا عربية، فقط اليديش (لغة كان يتكلمها اليهود في وسط وشرق أوربا).» إذ كانت صفد ملجأ للناجين من الهولوكوست ولسلالاتهم. ومن ثم عدم وجود أي سبب لاهتمامهم بشيء مثل القلاع الصليبية إذ إن هناك بالنسبة لهم تاريخ واحد فقط. لم أعثر على القلعة أبدا. إلا أن مشهد جبل حرمون Hermon المذهل والمطر يزيح آخر خيوط الضباب كان إرضاء كافيا لي.

وصل لورانس إلى صفد في مساء ١٦ يوليو عام ١٩٠٩، كان منهكا بعد ما أسماه «تسلقا رهيبا من الوادي إلى أعلى البلدة المتعرجة». وكان قد غادر تبنين Tibnin ذلك الصباح وتوقف عند الظهيرة ليشرب من عين قادش الشهيرة بعد ما قطع هبوطا وصعودا في يوم واحد مسافة تعادل ارتفاع قمة مونت بلانك وكتب قائلا «إن فلسطين كلها هكذا.. فالطرق إما صاعدة أو هابطة.. لكنها لا تصل أبدا إلى أي مكان». ولما لم تكن هناك فنادق حينذاك، فقد وجد سكنا مع عائلة

طبيب إنجليزى كان يعمل فى مستشفى إرسالية يهودية. كان الطبيب عطوفاً على ضيفه الشاب، واصطحبه بعد الظلام ليرى القلعة، بيد أن متاعب الرحلة كانت قد بدأت تؤثر عليه، ثم مرض لورانس مصابا بأول هجمة من هجمات الملاريا التى ظلت تتبعه طوال رحلته.

وكان بعد أن بدأ رحلته وحده من بيروت فى بداية شهر يوليو، قد استمر مرتحلا على الأقدام لمدة تربو على الأسبوعين. سار فى اليوم الأول بطول ساحل صيدا مخترقا بساتين التوت والزيتون. كان الطريق يعج بالحركة: فلاحون يرتدون السراويل الواسعة والطرابيش، منتصبى القامة، يحملون بنادقهم ومسدساتهم ويتمنطقون بأحزمة الطلقات النارية. كان بعضهم يمتطى الخيول، وآخرون يسوقون أعدادا كبيرة من الجمال محملة بمحاصيلهم فى اتجاه الأسواق الساحلية. نظر لورانس باهتمام إلى الجمال التى وجدها فى كل مكان واعتقد أن وجوهها «بشعة»، إلا أنه أحب النغمات الخشنة لأجراسها، تلك النغمات التى كانت تتوارى بهدوء مع توارى القوافل فى ضبابية غروب الشمس. كانت صيدا التى تقع على حافة لسان بحر مدينة عصور وسطى بدرجة أرضته.. مدينة مسورة ذات طرقات ضيقة لدرجة عدم استطاعة مرور شخصين فيها جنباً إلى جنب، ولم يكن بمقدور عربة ذات عجلات الدخول إليها. ومن صيدا، تسلق لورانس الجبال فى اتجاه نبطية سائراً أعلى تخوم عميقة ومستمتعا بنسيم البحر المتوسط المنعش. مر خلال قرى صغيرة بيوتها من الطين وسط رقع من الحقول الخضراء ومارس لغته العربية مع القرويين. ومكث لأول مرة مع العرب فى منازلهم وأبهجه تعلمه الطقوس الاجتماعية المتطلبة. فكان يحيى مضيفه قائلا «السلام عليكم» فيُدعى إلى الداخل حيث كانت النساء تسحب لحافاً ثقيلاً ليجلس عليه. وبينما يقوم مضيفه بإعداد القهوة ويهيل عليه الأسئلة المعهودة كان الأطفال يفحصون متاعه. وبعد الشاى والقهوة، تُعد وجبة العشاء من البرغل المسلوق والخبز الرقيق وتقدم له. ولم يكن يسمح بالحديث أثناء الوجبات. وبعد ذلك، وحوالى الساعة التاسعة، كان ينسحب مع ألحفته إما إلى السطح أو إلى الشرفة. ثم اكتشف أن الألحفة سميكة جدا لا تناسب حرارة ليالى الصيف، ولما كانت مليئة بالبراغيث، فكان يفترشها بدلاً من استعمالها غطاء. كان يصحو عند شروق الشمس ويلحق بمضيفه عند نار المدفأة

ويرش وجهه بالماء. ثم يذهب حال سبيله بعد الإفطار الذى كان يتكون من الخبز واللبن الرايب، أو الحليب الطازج إن كان محظوظا. أعجبته بساطة أسلوب حياة الفلاحين الذى استدعى مشاهد طبيعية من مالورى وموريس. شعر بالارتياح فى المنازل ذات الأثاث الإسبرطى. حصير ومقاعد صغيرة دون مساند، وألحفة للنوم تطوى وتستعمل للجلوس عليها، أو تخزن فى فجوات فى الحائط ذات درجات فى حال عدم الاستعمال. أعجب بأسلوب ازدواج المنازل حيث خصص الطابق الأول لحيوانات المزرعة والأغنام والماعز والحمير والخيول، والطابق العلوى للآدميين. كما وافقه الاقتصاد فى الأكل بالأيدى من طبق مشترك، وباستعمال قطع الخبز كملاعق. وأعجب أيضا بطريقة غسل العرب أيديهم بصب المياه فوقها بدلا من حكها فى الحوض وبدت له أكثر نظافة بكثير من الأسلوب الإنجليزى. وقد اعترف بكرم الضيافة العربى وكتب إلى أبيه قائلا. «إنها لمدينة مجيدة بالنسبة للمسافر المتجول.. إذ إن كرم الضيافة أكثر من مجرد اسم. فالأشخاص العاديون مستعدون لاستضافة فرد لمدة ليلة، كما أنهم يسمحون لى أن أتقاسم معهم وجباتهم دون أدنى فكرة عن تقاضى نقود من مسافر متجول». ورغم أن هذا لم يكن صحيحا تماما، لأن مضيفيه كانوا أحيانا يتقاضون نقودا، فمن الواضح أنه قد جذبتهم إليه كبرياؤهم البسيطة. كان هذا التقدير جماليا، فقد كانت بعض أساليب حياتهم طريفة وغير مألوفة. كانوا محببين وذوى كبرياء إلا أنهم «كانت لهم صفات شديدة الطفولية، وكانوا بالطبع شديدى البساطة وعلى قدر مذهل من الجهل». ومكث لورانس أيضا مع مبشرين أجانب، وامتدح عملهم فى سبيل «تمدين» و«تعليم» السكان المحليين. وفى خطاباته إلى أهله، أظهر حاجته المعتادة إلى دعم تقديره لذاته باستعراض تفرده الواضح. فكان يقول إن نظامه الغذائى هو نفس نظام السكان المحليين، الأمر الذى كان يعتبره الأجانب ضربا من الجنون بينما كان ينظر العرب المحليون إلى عادة شرب الحليب الطازج والسير بدلا من الركوب على أنه جنون. كما اعتقد الأجانب أنه معتوه لأنه كان يتجول فى قيظ ما بعد الظهيرة. كما أنه أخبر والدته أنه قد أصبح «عربيا فى عاداته» إلا أنه فى نفس الجملة أخبرها أيضا وهو مزهو كيف اعتقد أحد الفرنسيين أنه فرنسى، دون أن يعى التناقض. وتوضح القراءة المتفحصة لخطابات لورانس من سوريا امتلاكه

لشخصية ذات قدرة على التكيف السريع مع المجتمع الجديد، على حين أنه ظل في جوهره غير منتم لأي مجتمع.

ووجد نفسه في شوارع نبطية الصبقة وسط مظاهر احتفالية. كانت الشوارع تعج بالجماهير التي تساوم على البضائع، وبالسقائين، وبائعي المرطبات، والفلاحين ومعهم منتجات حدائقهم الطازجة، والرجال وهم يندفعون حاملين على ظهورهم الذبائح التي يغطيها الذباب، أو حاملين أجولة فحم. وهناك، استأجر مرشدا مسيحيا اسمه باراك كي يقوده إلى قلعتي بوفورت وبانياس اللتين اعتقد أنهما مهمتان لبحثه. وقال عنه بوفورت إنه يميزها المنظر الأخاذ، فإلى الغرب كانت هناك زرقة البحر المتوسط المتألقة وإلى الشرق، وعبر وادي الأردن كان جبل حرمون وتخومه التي يغطيها الجليد المتلألئ. ومن نافذة القلعة قذف بحصاة في نهر الليطاني على مسافة ١٦٠٠ قدم إلى أسفل. ولكي يصل إلى بانياس أو قيسارية فيليبي الإنجيلية، اصطحبه باراك خلال مروج الأردن الخضراء المزدهرة والتي بدت له شبه مدارية مقارنة بقحل المرتفعات اللبنانية. كانت القرية التي تقع فيها غير جذابة، إلا أن لورانس اكتشف نبع مياه باردة شهية في كهف خبيء. كما أبهجه عثوره على نقوشات إغريقية قديمة فوق الكهف مكرسة للإله پان. وتقع قلعة بانياس التي بناها الفرسان الإسبتاريون في القرن الثاني عشر على أنف جبل حرمون الذي تسلقه لورانس متحمسا، حتى إنه تشجع وأوقد ناراً في الأجمة الموجودة بالفناء الداخلي كي يرى بوضوح. وكتب قائلاً. «لابد وأن تلك النار المشتعلة قد بدت بهيجة من بعد». ومن ثم، أسرع مالك القلعة مهرولاً ليرى ما يحدث، رغم أن لورانس ذكر أن الرجل لم يبد اعتراضا لأنه تمكن أخيرا من دخول الفناء بعد عشرين سنة، ثم ارتحل بمفرده من حنين إلى تبنين ووصل إلى صفد في اليوم التالي. ونظرا لأنه كان قد شفي من هجمة الملاريا فقد قام برحلة جانبية إلى شاسنليه حيث تعرف لأول مرة على رياح الشيروكو المحملة بالأتربة والتي تهب من الصحراء العربية في الصيف، وجعلته يشعر بالفضاء الشاسع خلف تلك التلال الأليفة. ثم هبط إلى منطقة بحر الجليل وتوجه أماماً إلى البحر المتوسط عبر سهول أردربلون التي تشبه رقعة شطرنج شاسعة من اللونين البني والذهبي تتخللها ممرات كالجبال الرفيعة وتتناثر فيها الخيام السوداء التي تشبه أعشاش الطيور بينما

كانت قوافل الجمال الهائلة دائمة الحركة فيما بينها . كانت النساء يغربلن الحبوب على أرضيات فرشت بالدريس ، وكان بين الحين والآخر يرى سحابات من العصافة والتبن والغبار تتصاعد فوق الحقول ، على حين كان الفلاحون يجمعون المحصول أو يدرسونه بالمدراسات والمذارى . ثم انتقل من شاطئ حيفا متجها شمالا إلى ما يعرف الآن بجنوب لبنان ، مرتحلا على الأقدام ، ومخترقا صور وصيدا ، وبعد ذلك قفل عائدا إلى بيروت .

وبعد أن استراح أسبوعا في فندق فيكتوريا ببيروت ، بدا الشق الثاني من الرحلة الذى آمل أن ينتهي به إلى اللاذقية وأنطاكية وحلب . وصل في الأسبوع الأول إلى جبيل شمال بيروت ، حيث توقف في مدرسة الإرسالية الأمريكية التى كانت تديرها الآنسة هولمز . وتذكرته الآنسة فريدة العقل ، وكانت مدرسة بالمدرسة ، وقد وصل إلى هناك متربا ومتعبا « يحمل صرة ربطها على ظهره » . كما تذكرت الآنسة عقل ، والتي أصبحت فيما بعد مدرسة له تعلمه اللغة العربية ، كيف اندفع إلى أعلى خلف الخادمة دون أن ينتظر الإذن له بالدخول ، وكيف أمتعها بعد ذلك بحكاياته عما احتمله « من مغامرات ومتاعب » أثناء الرحلة ، التى كثيرا ما نجا فيها من موت محقق على أيدى « الأكراد والأتراك الفساة » . وكان تفضيل لورانس المعلن « للمصاعب » ، وللنوم في العراء أحد أوجه استعراضيته المقلوبة التى كانت تتطلب مشاهدين . بيد أنه كان ، بينه وبين نفسه ، يحب الراحة حبا شديدا ، وكانت سعادته كبيرة بالأيام القليلة التى قضاها في إرسالية جبيل ، حيث كان يأكل جيدا ، ويستحم ، ويجلس باسترخاء في الحديقة تحت « أشجار خضراء خضرة حقيقية ويقرأ في مكتبة زاهرة بالكتب . وبعد أيام قليلة ، تم استقباله في الإرسالية الأمريكية بطرابلس ، غالبا مع خطاب تعريف من الآنسة هولمز . ومن هناك ، كانت ثمة مسيرة أيام ثلاثة إلى قلعة الحسن أو كرك الفرسان الشهيرة ، حيث استقبله الوالى العثمانى ، أو القائمقام ، الذى برهن أنه أبعد ما يكون عن الفسوق ، بل كان حانيا وعلى استعداد للمساعدة ، وكما عبر لورانس ، كان « مريحا جدا » . وقد كان لهذه القلعة ، أن تحتل مكانا مركزيا في بحثه قضى هناك ثلاثة أيام مسترخيا ، يفحص المكان ، ويلتقط الصور . ومثل بانياس ، كانت هذه القلعة قلعة فرسان اسبتاريين . كانت شاسعة ذات أسوار مزدوجة مهيبة ، تقف

وحدها في أرض قاحلة بها شجيرات خفيفة وتسلق لورانس وهو حافي القدمين، إلى منتصف جانبها المنحدر الداخلي المغطى بالطحالب. وكان تفكيره يجول بين ميزاتها ونقائصها. ورأى أن تسلقها لم يكن يصعب على الجيوش المحاصرة المزودة بسلالم لتسلق الأسوار، إلا أن ميلها الخفيف كان يعني أنهم لن يصلوا أبدا تحت وابل الحجارة المستديرة والقار المشتعل الذي كان يلقيه عليهم من أعلى المدافعون في الداخل. كما لاحظ ببهجة الفتحات التي كانت في الجدران والتي كان يلقي منها المدافعون قذائفهم، واعتقد أن تلك الفتحات لم تكن معروفة في أي مكان آخر في سوريا رغم أنها كانت معروفة في أوربا الأمر الذي يوحي بأن الفرسان أتوا بها فكرة جديدة من الغرب. وقد أعجب لورانس أيما إعجاب بالكرك وكتب لاحقا يقول. «إنها أفضل القلاع في العالم وأحسنها صيانة». وأمده «الحاكم المريح» بمرافق كي يزور قلعة صفيتة القريبة والذي أعجب بها لجدرانها الدفاعية النورماندية ذات الفتحات المبتكرة، التي لم ير لها مثيلا في أوربا. وكانت ذروة رحلته هي قلعة الكرك وصفيتة، وصهيون، تلك القلعة التي كانت مسلتها الصخرية الرشيقة تدعم مركز جسر متحرك، والتي اعتقد لورانس أن هذا الجزء هو أكثر أجزاء في القلاع التي رآها إثارة، وبعد زيارته هذه القلاع الثلاث كتب إلى والدته قائلا: «قد يسعدك الآن انتهائي من عملي المبدئي بنجاح: أي أنني قد ضمنت (كتابة) بحثي».

بعد أيام قلائل، ترك حاكم الكرك ورحل في اتجاه الشاطئ، وقضى الليلة الأولى نائما على أرض مفروشة بالدريس مع مجموعة من الفلاحين. وكان الرجال يدرسون حبوبهم ويعملون في مجموعات بالتناوب معظم الليل. وحينما حل عليهم جميعهم الإجهاد أيقظوا لورانس وطلبوا منه أن يقوم بالحراسة بمسدسه أثناء نومهم نظرا لوجود لصوص كثيرين، كما قالوا. ورغم اعتقاد لورانس بأن ما قالوه هراء إلا أنه نفذ ما طلبوه منه. وفي الصباح التالي، قيل له في طرطوس إن هؤلاء الرجال كانوا يحاولون إخفاء حجم ما جمعوه وأن من كانوا يخشونهم هم أصحاب الأرض لا اللصوص. إلا أنه تأكد من وجود اللصوص فيما بعد حينما كان قرب مسياف وحاول رجل يمتطي جوادا إطلاق النار عليه من على بعد ٢٠٠ ياردة. وكان مهاجمه، طبقا لما ذكرته الآنسة عقل «تركيا ضخما قاسي الملامح»، إلا أنه أخطأ

التصويب فسحب لورانس مسدسه الموتزر بهدوء وصوب إليه طلقة قاتلة تصويبا دقيقاً فأصابت إصبعه الأصغر ونزعت عنه الجلد . وصعقت اللص دقة لورانس السحرية في التصويب ، ووقف التركى وقد تجمد فى مكانه بينما تقدم لورانس وضمد له إصبعه وربت على ظهره وأرسله فى طريقه بعد أن منحه نصف نقوده . وكتبت الآنسة عقل قائلة . «إنها قصة داود وجوليات مع فارق أن داود هزم خصمه بسيفه على حين أن السلاح الذى كسب به لورانس يومه كان مودنه» . وهذه أسطورة أخلاقية من المحال تقرير كم منها اختلاق من خيال الآنسة عقل وكم منها اختلاق خيال لورانس . وكتب لورانس عقب هذا مباشرة إلى والدته قائلا : «إن التركى الضخم قاسى الملامح كان ببساطة جحشا ومعه بندقية عنيفة» . وأنه أطلق عليه النيران ممتطيا جواده فرد عليه لورانس فورا بإطلاق النار عليه فجرح الحصان الذى اندفع بضراوة . إلا أن قاطع الطريق تمكن من التحكم فى الحصان وأسرع يدور فى حلقة قطرها حوالى ٨٠٠ ياردة ليحاول مرة أخرى إلا أن لورانس أطلق قذيفته ثانية فوق رأسه ، الأمر الذى جعل الرجل «يفر كمتسابق يتخطى الحواجز» . ومرة أخرى ، لابد وأن واحدا من هذين التقريرين كان حقيقيا ، إذ إنه على حين أنه أشار للحادث «كفكاهة» فهناك من الشواهد ما يرجح أنه لم يكن على هذا القدر من التفاؤل فى واقع الأمر . فلم يسبق أن أطلقت عليه النيران أبدا . وإذا أخذنا فى الاعتبار خوفه المرضى من الألم ، فإن فكرة الرصاصة ، وهى تنغرس فى لحمه (مهما كانت قديمة) لا يمكن أن تكون فكرة لطيفة . وفى الواقع ، فقد هزه الحادث بدرجة كافية لأن يبلغ الوالى التركى المحلى عنها . كما جعله قلقه من تكرارها يقبل رفقة دورية من الفرسان الأتراك رغم علمه أن هذا سيكون عائقا لحركته . وبدأت ثقة لورانس من تلك اللحظة ، تضعف . وظهرت عليه آثار الخوف والحمى والحرارة والمتاعب والألم الشديد من ارتحاله راجلا . وبدا اهتمامه بالقلاع يدوى وحل محله الإنهاك والقدمين الموجعتين والملاريا . كان ينوى التوقف فى أنطاكية لعدة أيام ، إلا أنه ، ولأول مرة ، يغفل أحد أهدافه الرئيسية . ورغم أنه زعم فيما بعد أنه رأى أسوار أنطاكية عن بعد ، إلا أنه يبدو من غير المحتمل أنه قد اقترب منها . وأضاف مرافقوه الفرسان إلى متاعبه بحرد أنه رفض الركوب . ورغم أنه أخبر إدوارد ليدز لاحقا ، متظاهرا كعادته بالشجاعة ، أنه «جعلهم يسيرون» فى اليوم الأول على أقدامهم

حتى عجزوا عن الحركة، ثم أجبرهم على العودة لنقطة البداية ليصحبوا خيولهم، فقد كانت الحقيقة هي أنهم بمجرد امتطائهم خيولهم، كان عليه هو أن يجاهد من أجل اللحاق بهم. ولابد أن مشهد الشاب الإنجليزي وهو يسير، نصف أعرج، متثاقل مقتفيا أثر سرية خيالة كان من المفترض أن ترافقه، كان مشهدا عجيبا ومثيرا. ولم يكن لأحد أن يلومه إن هو امتطى الخيل. إلا أن إرادته الصلبة جعلت من المستحيل عليه الخضوع. ومن ثم، سار على قدميه المقروحتين المليئتين بالكدمات، ربما كان يلعن الخوف الذى تسبب فى أن يبلغ الحاكم عن الحادث «التافه» فى المقام الأول. وكادت مسيرة الأميال المائة والعشرين الأخيرة فى زمن قدره خمسة أيام أن تقضى عليه.

وحينما دخل حلب فى السادس من سبتمبر وهو يعرج، بعد مغادرته بيروت فى المرة الأولى بشهرين، كان لحمه قد نحل حتى العظم، وكان حذاؤه متهالكاً، وقدماه كتلتين من القروح التى لم تستطع إرادته «النتشوية» احتمال آلامها. كان قد أقسم أن يسير على قدميه بينما يمتطى الآخرون الخيول.. إلا أنه لم يعد باستطاعته الصبر. كان قد اعتقد بعدم وجود حد للألم الذى يمكنه إجبار جسده على تحمله، إلا أنه وجد أنه قد بلغ هذا الحد. ولم يكن من الأمور الهامة التى تدخل على نفسه الرضا أنه قد قام بالفعل برحلة مرموقة على مسافة ١٠٠٠ ميل. إذ إنه قد فشل فى الوصول إلى أنطاكية، وفى الوصول إلى أورفه وبلقا. كما فشل فى الحصول على أختام الحبثيين لبقدمها لهوجارث.

ومن المحتمل أنه قد خطر له وهو مسترخ فى حمامه فى فندق البارون بحلب أن خوفه كان سبب هزيمته. فقد كانت أورفه على بعد ١٠٠ ميل عبر الفرات - أى على مسافة مائتى ميل ذهابا وعودة. كان هذا يعنى، فى أحسن الأحوال، رحلة ثمانية أو عشرة أيام سيرا على الأقدام. بيد أنه شعر بعدم استطاعته فعل هذا. وبنراح شديد، قرر أن عليه، بعد كل شىء، أن يلعب دور السائح ذى الامتيازات، وأن يستأجر عربة بسائسين وبدفع أجرة باهظة بالنسبة لما فى جيبه قدرها سبعة جنيهات وكتب إلى والدته فى اليوم التالى مخبرا إياها بقراره إلا أنه لم يذكر شيئا عن شعوره بالإنهاك. ولابد أنه قد بدا لها فارسا أبيض لا يقهر. فقد أوحى أنه

فقط يعوزه الوقت إذ كتب . «لابد أن أسرع» . كان هذا الخطاب قد كتب في ٧ سبتمبر . أما ما حدث للورانس بين هذا التاريخ وبين يوم ١٩ سبتمبر حينما كتب مرة أخرى من حلب ، فقد ظل سرا .

وظهر لورانس في أكسفورد في منتصف أكتوبر وقد تأخر أسبوعا عن بداية الفصل الدراسي . وطبقا لإرنست باركر فقد كان «الحرمان قد أنحفه حتى العظام» ، كما فقدت آلة التصوير التي ابتيعت له بتكلفة باهظة . ورغم أن خريطة سيرى جوردون القيمة كانت مازالت في حوزته ، إلا أنها كانت مغطاة ببقع الدم ـ ومن ثم بدا الأمر وأن هناك حكاية وراء هذا . وأسر لورانس زملاءه من غير المغامرين بالرغم من قوتهم العضلية وأجسادهم الرياضية بأقاصيص عن مهاجمة الأكراد المتعطشين للدماء له أثناء بحثه عن أختام الحثيين ، وعن سرقتهم ممتلكاته وضربهم إياه حتى كاد يموت عندما أحبطهم عدم وجود كنوز معه كما اعتقدوا . ثم قال إنه تمكن من الزحف حتى نجا ، إلا أنهم تركوه دون نقود مما اضطره إلى العمل على سفينة شحن غير نظامية حتى يجد طريقه إلى مرسيليا وبهذه الطريقة وفر تكاليف رحلة العودة إلى أكسفورد . وحاز على إعجاب أصدقائه ، وكذا راعيه ومرشده المحتمل هوجارث ، وكان هذا أمرا أكثر أهمية بالنسبة له . وبالنسبة لهوجارث فقد أدى الشاب مهمته المقدسة وأحضر معه ثلاثين من أختام الحيثيين لتنضم إلى المجموعة الفريدة في المتحف الأشمولي . وقد لا يكون لورانس قد أخبره مباشرة أنه جازف بحياته ليحصل عليها إلا أنه أوصل إليه المعلومة بأساليب غير مباشرة . فقد كان بالفعل قد أصبح خبيرا في «تدليك الحقيقة» كي يصل إلى أهدافه ، وكان هدفه في هذه الحالة هو جذب اهتمام هوجارث الذي لم يكن قد منحه اهتماما كافيا من مركزه المتعالي حتى هذه اللحظة . ولا يعلم أحد ما قيل أثناء لقائهما الأول بعد عودته . فقط أخبر هوجارث ليدز فيما بعد أن «هذا الشاب مرموق . لقد ذهب إلى أماكن قلما زارها أجانب» .

فأين كان لورانس أثناء الأسبوعين الثاني والثالث من سبتمبر عام ١٩٠٩ . كان آخر ما كتبه إلى والدته قبل ذلك هو عن اعتزامه زيارة أورفه Urfa في ٧ سبتمبر وذكر أنه «يجب أن يسرع» ويوضح كشف مصروفاته أنه تلكأ في حلب لمدة

أسبوع في هذه المناسبة، الأمر الذى يجعل احتمال تاريخ رحيله هو ١٣ سبتمبر في أفضل الأحوال. فنحن نعلم أنه كان قد عاد إلى حلب في ١٩ سبتمبر لأنه كتب إلى إدوارد ليدز من فندق دو بارك في هذا التاريخ. وكانت الرحلة إلى أورفه بالعربة التى تجرها الخيول تستغرق من ثلاثة إلى أربعة أيام بأكثر الطرق مباشرة، أى ذلك الطريق الذى كان يخترق قرية الشراكسة منبج ويعبر نهر الفرات عند تل الأحمر ويخترق السروج قبل أن يصل إلى أورفه. فإن كان لورانس قد رحل يوم ١٣ سبتمبر، لسمح له الوقت بصعوبة أن يصل إلى أورفه ويعود يوم ١٩ سبتمبر، إذا افترضنا أنه قضى يومين أو ثلاثة متفقدا القلعة. وفي ٢٢ سبتمبر كتب إلى والدته من فندق البارون بحلب يخبرها أن رحلته إلى أورفه كانت بهيجة، إلا أن سرقة آلة التصوير في السروج في طريق عودته حينما نام سائق العربة الذى أوكل إليه الحراسة قد أفسدتها. أما الحادثة الأخرى التى رواها فكانت أن حصاناً جامحاً تسبب في انقلاب العربة رغم أنه هو لم يصب بإصابات خطيرة. ويظهر في هذا الخطاب حرصه على العودة إلى الوطن. فقد كانت نقوده قد نفدت تقريبا، وكان متعبا نتيجة لهجمة ملاريا رابعة، كما أحبطه هطول الأمطار المبكر الذى كان قد بدأ منذ أيام قليلة وكان كفيلا أن يجعل السير محالاً. كما أنه ذكر تقريراً نشر في صحيفة حلب مفاده أن شخصا يدعى السيد ادفارد لوفانس «قد اغتيل قرب عينتاب». وذكر، على سبيل التفكه، أن العاملين بالفندق استقبلوه كما لو كان شبحا، وعلق على التقرير قائلاً إنه «إشاعة مضللة عبثية»، مؤكدا لوالدته أنه لا توجد في أى مكان قرب عينتاب مدينة تركية على بعد ستين ميلا من حلب وثمانين ميلا غرب أورفه.

أما خطابه إلى ليدز الذى كتبه قبل ذلك بأيام فكان يروى قصة مختلفة. فقد ذكر أنه أثناء بحثه عن أختام للحيثيين إلى الشمال من تل بشار - وهى قرية في إقليم عينتاب قفز عليه رجل كان يقتفي أثره وعض يده وضربه بحجر على رأسه وسرقه. وقال إنه استرد ما سرق منه بعد أن دفع بقشيشا وأضاف أن هذا كلفه مجهودا ضخما وأصابه بالقرف من الإقليم مما دفعه إلى العودة إلى حلب. وطلب من ليدز ألا يذكر الهجمة مراعاة لوالديه، لكنه لم يذكر الرحلة إلى أورفه أو آلة التصوير المسروقة. ولم يذكر أيضا العربة أوسائسيها اللذين يفترض أنهما كانا

برففنه. كما أنه لم يصرح للبدر بأية نوايا عن العودة مباشرة، بل إنه أعلن أنه مازال يريد الدهاب إلى الكرك وبتراء اللتين تقعان في ولاية سوريا، بعيدا جدا عن جو حلب. فلو أن لدينا فقط حطاب لبدز الذى كتب فى ١٩ سبتمبر لاعتقدنا أنه كان فى رحلة مختلفة تماما عن تلك التى وصفها لوالدته قبل ذلك بأيام ثلاثة.

عير أنه كتب خطابا ثالثا أثناء وجوده فى حلب. ففى يوم ٢٤ سبتمبر، أى بعد يومين من الكتابة إلى سارة، وخمسة أيام بعد خطابه إلى ليدز، كتب إلى السير جون رايس مدير كلية يسوع موضحا أنه لن يحضر الأسبوع الأول من الفصل الدراسى. ويعتبر هذا الخطاب نموذجا رائعا للكتابة الإنجليزية المكبوحة وعرضا للتعالى يجعله جديرا بأن ينسب لشخص مثل اللورد نيلسون داته. فقد أخبر لورانس رايس أنه أصيب بأربع هجمات من الملاريا فى حين أنه كان قد «أعد نفسه لهجمتين فقط» وأنه «قد سُرق وكسرت عظامه تقريبا» فى الأسبوع السابق على كتابة الخطاب فقط. وحال هذا الخليط من الظروف التى تسببت فى المضايقة دون تنفيذ خطته لزيارة الكرك والشوبك نظرا لحلول الفصل المطير بمجرد استعادته القدرة على السير. وأخبر رايس أيضا أنه باستثناء هدا، فقد كانت رحلته «مبهجة» إد إنه قام بزيارة ست وثلاثين قلعة من مجموع خمسين فى طريقه، كما أنه جمع لهوجارث ثلاثين ختما حثيثا. وقال إنه سافر «على قدميه بمفرده» طوال الوقت، وعاش «كعربى وسط العرب» واكتسب بناء على هذا بصيرة فى أسلوب معيشتهم، الأمر الذى كان سيفشل فيه إن هو سافر مع قافلة

كانت زيارته لست وثلاثين قلعة حقيقة (أخبر ليدل هارت فيما بعد أنه زار ستين قلعة)، وأيضا كان قيامه برحلة مرموقة سيرا على الأقدام لمسافة ألف ميل فى سوريا أمرا لا يمكن إنكاره. إلا أن باقى خطابه إلى رايس كان مجرد تجميل غير ذى معنى. فلم يكن قد سافر بمفرده طوال الوقت، إذ إنه استأجر مرشدا عند نقطة معينة، كما أنه، ولشق طويل من الرحلة، كان فى صحبة مرافقين ممتطين الخيول. أما فى الجزء الأخير من الرحلة، ومدته أسبوعان، فإنه طبقا لكشف نفقاته، استأجر عربة وسائسين لزيارة أورفه رغم الغياب الواضح للعربة من خطابيه إلى رايس وليدز. لم يكن هذا الأسلوب يقرب من «العيش كعربى وسط العرب» كما

فعل داوتي. بل إنه في الواقع كان دوما يرتدي الزي الأوربي بما في هذا الخوذة التي كان العرب ينظرون إليها بكراهية لا عقلانية كما قال هو لاحقا. ثم إنه نزل ضيفاً على مسئولين أتراك وإرساليات غربية ونام في فنادق من بينها فنادق مريحة كلما أتيحت. وعلى حين أنه مكث على فترات مع العرب المحليين، فقد كان هذا نظير مبالغ نقدية أحيانا. ربما أن كثيرا مما قاله كان اختراعاً، أو على الأقل «مبالغة» كما في خطابه لرايس، فلماذا لا تكون قصته عن تكسير عظامه كذلك أيضاً؟ فهل أصيب لورانس في حادث انقلاب العربة الذي ذكره لوالدته، لكنه شعر بحرج لأن يخبر به رايس؟ ويقينا، أن حادث ضربه بعنف لدرجة فقد معها قدرته على السير لم تكن حقيقية كما أوحى خطابه بذلك، فقبل الخطاب بأيام كان قد أخبر ليدز بعزمه على زيارة بتراء. كما أن إصابته لم تكن شديدة بدرجة يلجأ معها إلى علاج طبي، ولا يبدو أيضا أنه قد رفع تقريرا بالحادث إلى القنصلية البريطانية في حلب. فقد أخبر رايس أنه قد تم القبض على اللص خلال ثمان وأربعين ساعة، كما أمتع روبرت جريفز فيما بعد بقصة طويلة مفادها أنه رافق مجموعة كبيرة من الشرطة التركية والمتطوعين إلى قرية قاطع الطريق الكردية كي يطلب تعويضاً. إلا أن الواضح هو أنه غاب عن حلب لمدة سبعة أيام، وإذا نحن أخذنا في الاعتبار عامل الوقت وحده فلا يحتمل أن يكون في خلال تلك الفترة قد انحرف عن طريقه في رحلة على قدمية إلى تل بشار في إقليم عينتاب والتي لم تكن على الطريق المباشر المؤدي إلى أورفه، مع الانتظار ليومين إضافيين لاسترداد ممتلكاته. وحينما قام بنفسه باقتفاء أثر الرحلة نفسها مرة أخرى عام ١٩١١ استغرق منه هذا ما يربو على الشهر. وإن كان قد ذهب إلى تلك الرحلة الجانبية في عربة مستأجرة، فأين كان سائق العربة الموثوق به حينما هوجم؟ ولماذا يدعي في كشف مصروفاته أنه استأجر العربة والسائسين لمدة أسبوعين، الأمر الذي يعني أنه قد غادر حلب قبل وصوله إلى هناك يوم ٦ سبتمبر؟ وعلاوة على هذا، فمن الواضح أنه ابتاع بعض أختام الحيثيين في حلب، إذ إنه كان قد أخبر ليدز يوم ١٩ سبتمبر أن لديه عشرين ختما فقط، على حين ارتفع هذا العدد إلى ثلاثين يوم ٢٤ سبتمبر. فإن كان من السهل الحصول على الأختام في حلب، فلماذا تكبد المشاق والنفقات للذهاب إلى تل بشار؟ هل كانت القصة مخترعة برمتها من أجل الفوز بالحظوة لدى هوجارث

بأنه يدعى أنه « كاد أن يقتل » لتحقيق بغيته؟ لماذا اختار أن يكتب أولا لليدز بدلا من أن يكتب للمقربين من أصدقائه مثل ڤيڤيان ريتشاردز وليارد حرين إلا إن كان قد أراد لفت نظر هوجارث؟ فقد عرف لورانس أنه لم يحقق كل ما سعى إليه في الرحلة. فقد كانت الرحلة بالغة المشاق، بالضبط كما حذره من هذا هوجارث وداوتى. وكان قد أصابه الإنهاك لدرجة عدم استطاعته إكمالها سيرا على الأقدام. فهل كانت قصة السرقة تكفيرا متخيلا لخطيئة الفشل، أى أنها كانت المثل الأول لنموذج النجاح العام والفشل الخاص، ثم التكفير بالعنف الذى سيصبح معتادا فيما بعد؟ وعلى الجانب الآخر، فإن كان لورانس لم يقم بزيارة تل بشار فكيف تأتى له مقابلة «أحمد أفندى» وهو رجل كان يسكن قرية قريبة من تل بشار وأشار إليه لورانس فى مذكراته كصديق من الزيارة الأولى؟ وأخيرا، كيف لم يكتشف هوجارث كذبه وهو الذى كان قد زار تل بشار منذ عام فقط؟ ولابد أن لورانس كان سيشعر بالسعادة لو عرف أنه قد أورث كتاب سيرته هذا النوع من الألغاز. وفى النهاية، فهو يتركنا مع سلسلة من الأسئلة ومجموعات دائرية من القصص وبقع من الدم على الخريطة التى قد توحى بقصص ما.

الفصل السادس

هوجارث يذهب للتنقيب

أكسفورد وكركميش

١٩٠٩ـ١٩١١

6

ذات يوم فى عام ١٩١٠ ،

وبعد فترة من عودته من سوريا ،

دعا لورانس ميدج هول لمرافقته فى

رحلة بالقوارب على نهر الأيزيس .

واصطحب لورانس معه فتاة جذابة

هى چانيت لاورى ، وطلب من هول أن

يصحبها فى قاربه (البنْط) بيسما

يتبعهما هو فى

زورقه الخفيف .

أدهش الطلب هول الذى طلبه منه فيما بعد إيضاحا لمقصده. وأخبره لورانس بأنه «يريد أن يفيق من إحباطه بجعل رجل آخر يتحدث نيابة عنه إلى الفتاة التى يعبدها». واستنتج هول من هذه الجملة المشوشة أن لورانس كان يحب جانيت وأنها قد رفضته. وكان قد رآهما معا من حين إلى آخر وتشكك فى وجود علاقة حب بينهما. وفيما بعد، سأل هول جانيت ما إذا كانت على علم بمشاعر لورانس وكانت إجابتها أنها تعرف، إلا أنها، ببساطة، لا يمكن التفكير بجدية فيه كخطيب. وبعد ذلك بسنوات طويلة، وحينما كانت جانيت فى السادسة والثمانين، ادعت أن لورانس كان قد طلب منها الزواج وأنها قد رفضته.

وكان لورانس قد عرف جانيت لاورى منذ الطفولة المبكرة. كانا رفيقى لعب حينما كان يسكن فى فولى أون ساونا مبتون ووتر، وكان والد جانيت وهو ناظر إحدى الضيعات المحلية، كثيرا ما يذهب مع توماس لورانس فى رحلات باليخت. وكانت جانيت قد التحقت بمدرسة داخلية فى أكسفورد عام ١٨٩٩، واستمرت

قريبة من عائلة لورانس دائمة الزيارة لهم حتى إنها كانت أحيانا تقيم معهم في منزلهم بشارع بولسند، وبذلك، كانت إحدى النساء القليلات التي سمحت لها سارا والدة لورانس بالدخول إلى المنزل، ومن ثم، أصبحت أختا بديلة لصبية عائلة لورانس، ورغم أنها عادت إلى هامبشاير بعد وفاة والدتها، إلا أن زياراتها لهم لم تنقطع. وكانت كثيرة اللقاء بلورانس أثناء سنوات دراسته بالجامعة، وكانا أحيانا يلتقيان في منزله لتناول شاي الساعة الخامسة أيام الأحد. وفي عام ١٩٠٨، تجاهلت وشقيقها لوائح الجامعة وزارته في مسكنه بكلية يسوع حيث تخلت عن قناعها الأرستقراطي لوقت كاف جعلها تسمح لنفسها بقذف قوالب السكر من خلال نافذة على أحد أساتذة الجامعة من الجيران. وكانت وهي الفتاة الملبنة بالحيوية، الدافئة، الشقية المشاغبة، ذات الروح المسيطرة والتي تكبر لورانس بسنوات ثلاث، تنظر إليه كأخ أصغر شديد الذكاء. وكان لورانس يحب التفكه

معها ويتحداها أن تأتى بأفعال صبيانية، ويشاكسها إن هى عجزت عن الإتيان بها. وقالت جانيت إنه فى أحد أيام عام ١٩١٠، وكانت بمفردها فى غرفة المائدة فى شارع بولسنبد، قفز لورانس فجأة، وأغلق الباب ليمنع الخادمة من الدخول، ثم طلب منها، دون عناق أو قُبل، أن تصبح زوجة له. وانفجرت جانيت، التى لم تكن تُكن أية مشاعر رومانسية، ضاحكة. وهنا نظر إليها لورانس بإذعان وقال «حسنا».

وهذا هو الشاهد الوحيد لدينا على أنه قد جذبته امرأة أبدا. كما أن هذا يبدو غير متوافق مع الكثير مما كتبه. إلا أنه ليس بالطبع من المحال أن يشعر فجأة بالمشاعر الذكورية الجنسية تعتمل داخله رغم كل شىء. ببد أنه يبدو من المستغرب، ومع الأخذ فى الاعتبار الجدال الذى اشتعل حول جنسانية لورانس، أن تحتفظ جانيت بالسر طوال هذه المدة. وقد أخبر أشخاص عديدون جيرمى ويلسون المؤرخ المعتمد للورانس، أن تقرير جانيت «مبالغ فيه». كما أوضح ديزموند ستيوارت وهو مؤرخ آخر للورانس، أن للقصة شبها «غير طبيعى» بحكاية رفض «بوو» للشاعر الجرنون سوينبرن. وقد كشف لورانس القدر الكبير عن ذاته فى خطاباته، إلا أنه لم يوضح أية مشاعر دافئة تجاه جانيت. كما أنه أخبر تشارلوت شو فى عام ١٩٢٧ أن صلته العاطفية بوالدته تمنعه أن يجعل من أية امرأة أخرى أما أو سببا فى إنجاب أطفال. وعلى حين أن الزواج وإنجاب الأطفال ليسا بالضرورة شيئا واحدا (كانت السيدة شو متزوجة لكنها لم تنجب أطفالا)، فقد أخبر لورانس روبرت جريفز أنه لم يستطع أبدا حب أى أحد، وأنه لم يكن له أى شأن مع النساء فى صباه، ومن ثم تعود العيش دونهن. ورغم أنه كتب إلى روبرت جريفز لاحقا أن مقولته الأخيرة لم تكن صحيحة كلية، وأنه قد أحب مرة واحدة، فقد ظهر أن هذا الاستثناء كان شخصا يدعى (س. أ) الذى ألهمه بدوره فى الثورة العربية، والذى أهدى إليه كتابه «أعمدة الحكمة السبعة». وبشكل عام، فمن المتوافق عليه أن «س. أ» هو سليم أحمد المكنى بداهوم، وهو فتى عربى تعلق به لورانس فى سوريا فى فترة ما قبل الحرب. وصلات لورانس «بالبورانيين» وغيرهم معروفة، رغم أن طبيعته المثلية ما كانت لتحول كلية دون احتمال عرضه الزواج من جانيت لاورى. وكان شقيق لورانس ويل الأكثر وسامة قد حاز إعجاب جانيت. وقد يكون لورانس

قد لاحظ ذلك مما أوحى إليه بدخول المنافسة. ويحتمل أن چانيت قد رفضته، إن كانت قصة عرض الزواج حقيقة، لأنها أحست بعدم مبالاته الأساسية بجنس النساء.

وسواء كانت چانيت لاوري قد جذبته أم لا، فإن لورانس سخر معظم اهتمامه في أوائل عام ١٩١٠ لبحثه. وكان يقضي وقتا طويلا يعمل به حتى إنه أهمل مواده الدراسية الأخرى، خاصة مقرر «الدراسة الخاصة» أو الحروب الصليبية. وأهمل مراجعتها حتى الأسابيع الأخيرة من الفصل الدراسي مركزاً فقط على الحقائق المجردة لمدة ثلاث ليال بينما كانت الامتحانات قائمة. أما البحث فكان نجاحا هائلا، وحصل لورانس فيه على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف، لدرجة أن المشرف عليه، ريجنالد لين بول، أقام حفل عشاء خاصا احتفاء به. وأكسفورد، كأية مؤسسة أخرى، معرضة للتأثر بالشخصية. فعلى حين كان لورانس ذا عقلية فذة، إلا أن مقدرته على أسر ومنابلة من هم أعلى منه مرتبة كانت فاضحة بدرجة أكبر. ويمكن تلخيص موقفه من أساتذته في النصيحة التي وجهها إلى أخيه ويل فيما بعد، والذي كان قد تتلمذ على بعض هؤلاء الأساتذة إذ كتب إليه قائلا: «أحذرك من صعوبة قيادة المستر جين والمستر باركر معا (في عربة واحدة)، وأن الطريقة الوحيدة للتحكم فيهما هي الإبقاء على خطك الخاص بينهما وأن تستغل من كل منهما ما يناسبك، وهذا أمر مرهق إلا أنه مربح للغاية». وكان في الظاهر يبدو ثائرا ناريا على المؤسسة بأسلوب أسماه «أسلوب الفارس الصعلوك الذي يطاعن كل قادم». كما لاحظ إدوارد ليدز «جسارته في مهاجمة آراء ونظريات الكتاب الآخرين». إلا أن «ثورات» لورانس كانت من أجل تبني أسلوب ما، إذ إنه كان يملك موهبة خارقة على أن يخبر من هم في مركز السلطة بما يريدون سماعه على وجه خاص. فقد كان لنظريته القائلة بأن أوجه المعمار العسكري الرئيسي قد وصلت العرب من الصليبيين لا العكس، أساس أيديولوجي يروق للإمبرياليين في العصر الإدواردي؛ وبالمثل كان اهتمام رجل مثل هوجارث بالحيثيين ينبع من اعتقاده أن الحيثيين كانوا من أصل هندي أوروبي، لا سامي، ومن ثم يمكن تقديم البرهان على أن للأوروبيين دورا في خلق حضارة الشرق. فقد كانت ملكات لورانس قد اكتملت تماما في سن العشرين. الذاكرة الفذة للوقائع؛ قوة الحدس الحادة كالموسى (حادة

أحيانا لدرجة كافية أن يجرح بها نفسه) ! والقدرة على تقصى الوضع المؤثر ، والقدرة على خلط الفانتازيا بالحقيقة ، وعلى أن يفتن ويغوى ويسلى ويقنع ويحفز الآخرين للعمل ؛ وتكريس نفسه للعمل باتجاه تحقيق هدف بعيد المدى ؛ والقدرة على أن يكون مرنا فى مواجهة التطورات وعلى أن يدفع بنفسه قدما فى ظل خوف غير عادى وبعزم لا يكل . ورغم أن لورانس كان غير تقليدى ، فمن غير المحتمل أن يكون هوجارث والآخرون قد رأوا فيه شخصا ضد المؤسسة ، ورغم أنه كان لويليام موريس ، بطل لورانس ، شطحات فى الاشتراكية الراديكالية ، فليس هناك أى شاهد على أن لورانس كان قد تخلى عن النزعة المحافظ العنيد لوالديه . فكان يسخر من القوانين والمؤسسات الليبرالية مثل قانون المعاشات لكبار السن ، وحركات المساواة بين الرجل والمرأة . ورغم أنه كان يكره السلطة ، خاصة النوع الجامد غير المنطقى منها ، إلا أنه كان أيضا يجد فيها سحرا خاصا . وقد كتب فيما بعد يقول إن ليبرالية الجسد والروح والنظافة والحيوية والمزاج المعتدل ، لا يمكن لها العيش فى ظل ظروف عبودية العمل الشاق الشائعة .

ورغم أنه كان يرغب فى العودة إلى الشرق بعد التخرج ، فإنه لم يجد فرصة فورية سانحة . وإزاء هذا قرر التقدم للحصول على منحة زمالة من كلية « أول سولز » . ولما لم يتمكن من الحصول على أحد المراكز المتاحة ، فقد قام بالتسجيل للحصول على درجة الـ B.Litt (تعادل الماجستير) فى الآثار ، وتقدم بمقترحات لرسالة عن فخاريات العصور الوسطى . ونال من كليته بسوع منحة قدرها ٥٠ جنيها استرلينيا وتقدم بأطروحته التى تمت الموافقة عليها يوم أول نوفمبر . ومن ثم قام بالإبحار إلى فرنسا فى نفس اليوم للمرة الثالثة فى ذلك العام ليشاهد مجموعة هائلة من فخاريات العصور الوسطى فى روان حيث وجد نفسه بعامل « كباله » من قبل العاملين بالمتحف نتيجة خطاب توصية من الباحث المرموق سالومون ريناش . إلا أنه كان قد حمل معه على العبارة إلى الهافر خططا أكثر إثارة من الفخاريات . فقد كان هوجارث قد أبحر إلى القسطنطينية كى يبحث إعادة فتح الموقع الأركيولوجى فى كركميش بالقرب من جرابلس ، فى منطقة الفرات العليا . فقد كانت ثمة مدينة حيثية جاء ذكرها فى الإنجيل وأعاد اكتشافها جورج سميث عام ١٨٧٦ ، وبناء على ذلك ، قام المتحف البريطانى بتنفيذ أعمال التنقيب . وفى عام

١٨٨١تم التخلى عن أعمال التنقيب. إلا أنه بعد مرور ثلاثين عاماً عاد الحيثيون للأذهان مرة أخرى. كان هوجارث يأمل أن يجد مفتاح الهبروغليفية الحيثية، الأمر الذى كان العالم ينتظره، فى كركميش. وفى سبتمبر، أصدر الباب العالى فرماناً بإعادة التنقيب، إلا أنه حدد ثلاثة شهور لبدء العمل. وحيث إن هوجارث كان يربد البدء فى فبراير التالى، فقد سافر إلى تركيا للبحث فى أمر التأجيل.

وكزائر دائم التردد على المتحف الأشمولى، تمكن لورانس من كشف خطط هوجارث، ومن تم، سأل ليدز بأسلوب بدا عشوائيا «عما إذا كانت لديه معلومات عن أية حفريات وشيكة الحدوث فى الشرق الأدنى». وأجابه ليدز بأنه كان عليه التحدث فى الموضوع منذ وقت مبكر إذ إنه قد تم اختبار أخصائى فى الكتابة المسمارية يدعى كامل - طومسون مساعدا لهوجارث فى عملبات التنقيب فى كركمش. واقترح لورانس أن يرافق البعثة بغير أجر إلا أن ليدز اعتقد أن المتحف البريطانى لن يقبله حتى بهذه الشروط. وكان هذا بمثابة صفعة له. إلا أن لورانس كان قد تعلم المثابرة. فلدى عودة هوجارث فى نهاية شهر أكتوبر حادثه شخصياً فى أمر طلب الالتحاق بفريق كركميش. وكان يعلم أن مؤهلاته لا ترقى إلى مستوى مؤهلات كامبل - طومسون، إلا أنه كان واثقا أن هوجارث لم ينس كيف أن عظامه كادت تتهشم بواسطة رجال القبائل المعادية فى محاولته جمع أختام الحبشيين له قبل عام. وقد كسب مناورته كسبا حسناً إذ إن هوجارث قفز مرحباً بالفكرة وأخبر لورانس أنه لن يصطحبه معه فقط كمساعد إضافى بل إنه سيحصل له على منحة زمالة من الدرجة الأدنى من كلية مودلين بحيث يتقاضى مائة جنيه سنويا أثناء عمله فى الموقع. وكاد لورانس ألا يصدق ضربة الحظ هذه. فقد انشق الشرق له فجأة فاتحا أبوابه؛ وصارت الأرض التى طالما حلم بها كصبى مفتحة أمامه. لم يخبر أحدا فى بادئ الأمر عن هذه الترتيبات. إلا أنه، وبينما كان فى روان لم يقدر على احتواء انفعاله وكتب إلى ليدز وهو منتش قائلاً: «سيذهب هوجارث للتنقيب، وسأذهب إلى سوريا خلال أسبوعين كى أمهد الأودية وأسوى الجبال تحت قدميه». وأضاف بلهجة تجمع بين البهجة والوقاحة أنه يحتضن أملاً أكبر من هذا وهو أن يتمتع بإبحار أكثر هدوءاً من إبحار اليوم السابق على العبارة العائدة إلى نيوهافن، إذ إن حركة الرياح قد أوقعته الليلة السابقة من سريره

العلوى على أحد المسافرين، ولدى محاولته شكر الرجل الغريب على أنه حال دون ارتطامه بالأرض انحصرت إجابة الرجل فى أن صاح «يا إلهى». وأضاف «لقد أخذت أضحك بعد هذا لمدة نصف ساعة بعد أن عدت إلى سريرى. إلا أننى لا أعتقد أن الرجل قد تحقق من موطن الفكاهة فى الأمر».

وصل لورانس وهوجارث وكامبل - طومسون إلى قرية جرابلس فى عصر يوم ١١ مارس عام ١٩١١، وقد تجمدوا من البرد بعد أن خاضوا مياه نهر ساچور وصارعوا رياحا سيبيرية البرودة، وكانت معهم قافلة قوامها عشرة جمال وأحد عشر حصان تحميل. كانوا قد غادروا حلب قبل ذلك بأيام وقد تأخروا أسبوعا عن البرنامج المقترح بسبب ظروف المناخ إذ إن الشتاء كان الأكثر برودة فى الشرق الأدنى منذ أربعين عاما. ولدى اختراق القافلة لطرقات القرية، تزاحم الأعراب لتحيتهم، وتطوع الكثيرون لمساعدتهم على تبريك الجمال وإنزال حمولات الخيل. وكان قد تم إخلاء منزل تمتلكه شركة محلية لحلوى السوس (العرقسوس) لسكناهم، وأسرعوا للاحتماء من قسوة الرياح القارسة، بينما كانت الجموع من السكان المحليين تتولى تفريغ المخازن ووضع متعلقاتهم بها قطعة قطعة.

كانت حفريات كركميش تقع على بعد حوالى ثلاثة أرباع ميل بعيدا عن القرية، وتتكون من ثلاث كومات ضخمة من الركام، كان يعتقد أن الأكبر حجما بينها - الوسطى - تغطى المدينة الحيثية الرئيسية. وكان جورج سميث قد اكتشف الموقع ملهما بحاسته السادسة، لأنه رغم ذكر الإنجيل للمدينة فى سفر إرميا، فلم يوضح التقرير الإنجيلى سوى أن المدينة كانت تقع فى مكان قرب نهر الفرات. كان سميث يعمل بالحفر على الخشب إلا أنه اكتسب شهرة عالمية بعد أن قام بترجمة بعض النصوص التى عثر عليها فى نينوى القديمة والتى أكدت قصة الطوفان الإنجيلية. وكانت تلك النصوص مكتوبة باللغة المسمارية البابلية - الأكادية، التى كانت نظاما مشتركا بين حضارات كثيرة فى العالم القديم، وسمى كذلك لأن رموزه الهيروغليفية (البكتوغرافية) اتخذت شكل إسفينات مخروطية يمكن نقشها بسهولة بواسطة قصبة مشطورة على طفل مبلل. وأمكن فك شفرة الرموز الهيروغليفية عام ١٨٦٠، إلا أنه فى حين أن الحثيين استعملوا

تلك الرموز فى نصوصهم، فقد اتخذت معظم نقوشهم الطقوسية أشكالا هيروغليفية لم تكن رموزها قد فكت شفرتها بعد. وكانت أسرار الهيروغليفية المصرية قد كشفت بواسطة حجر رشيد. ونظراً لأن سمبث قد علم أن مدينة كركميش كانت تضم مستعمرة من كتبة الهيروغلبفية الأجانب، فكان يؤمل أن تكشف الحفريات عن مفتاح ما للحيثيين القدامى.

وكانت كركميش قد أقيمت على تقاطع مجريين مائيين وارتكزت على حصن ارتفاعه ١٣٠ قدماً هيمن على المشهد المسطح وكان يطل مباشرة على منطقة ضحلة رئيسية من الفرات. وكانت مياه الفيضان الفجائى فى الربع تتقاذف وتنماوج وتزيد بلونها البنى أسفل متاهة من القنوات مكونة قناة عرضها ١٠٠٠ ياردة تجرى متماسة مع جزر على شكل أوراق الأشجار يسودها اصفرار ألوان زهورها. وعلى الضفة الأخرى كانت تفع قرية سامراء بين الحقول والبساتين ويكون مشهدها الخلفى جبال طوروس التى يكسوها اللون الأخضر صيفاً وتتوجها الثلوج شتاء. كانت كركميش عاصمة للحيثيين فى وقت مبكر حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. إلا أن موقعها على النهر منحها أهمية بالنسبة للجيوش الغازية ولذا توالت علبها الأيدى مرات عديدة؛ فاستولى عليها سرجون الأشورى عام ٧١٧ ق. م وبعد هذا بقرن هزم الفرعون المصرى نخاو الآشوريين، ذلك الحادث الذى سجله العهد القديم. وقد كشفت الحفريات المبكرة عن بعض النقوشات الهيروغليفية التى كانت تبشر باكتشافات جديدة. إلا أنه لم يكن قد حدث تقدم فى فك طلاسم هذه النقوش. ثم تسبب الكشف عن حاضرة الحيثيين عند بوعاز كوى بالقرب من أنقرة عام ١٩٠٧ فى إثارة التساؤل حول الهيروعليفيات مرة أخرى. وهكذا وجد هوجارث، ولورانس، وطومسون أنفسهم مرة أخرى فى جرابلس عام ١٩١١.

بدأ العمل خلال يومين من وصولهم بفوة قدرها مائة رجل استأجروهم من جرابلس والقرى المجاورة. وبينما قام طومسون بعمل مسح للموقع، قام لورانس بتشغيل العمال بادئا من حيث انتهى المنقبون السابقون. وسرعان ما اكتشفوا درجات سلم ضخم إلا أنها كانت من العصر الرومانى وكانت جزءا من طبقة متأخرة جدا أقيمت على الطبقات الحيثية. وكانت المهمة الكبرى فى الأيام الأولى

هى إزالة رقائق العصر الرومانى من أجل الوصول إلى الطبقات الأكثر أهمية التى كانت تقع على عمق حوالى عشرين قدما. وتحت إشراف جريجورى، وهو ملاحظ عمال قبرصى استقدمه هوجارث خصيصا لهذه المهمة، استخدم الرجال الحبال والعتلات وأخذوا يزيحون ألواحا ضخمة من الأسمنت الرومانى، كان الجميع يتصايحون ويصدرون الأوامر فى نفس واحد. وكان لورانس يستيقظ فى الفجر ليتناول طعام الإفطار من الخبز الذى يشبه المطاط والذى كان يصنعه طاهيهم الحاج ولبد الذى كان أيضا يعمل ترجمانا ومستخدما يقضى المهمات المختلفة. وكانت شخصية الحاج مميزة، إذ كان رجلا من أهل المدن مفتول العضلات من حلب، وبرهن على أمانته وإخلاصه وتفانيه فى العمل، إلا أنه كان كثير المكابرة، خاصة بعد احتسائه الخمور القوية وكان كثيرا ما يفعل هذا. كان موظفا سابقا عمل ترجمانا فى القنصلية البريطانية فى حلب، وكان فى الأربعين من عمره. وقد قيل إنه وبينما كان فى حالة سكر شديدة، حدث وأن منع دخول قوافل الجمال إلى حلب من بوابة أنطاكية بأن أطلق النيران على الحمالين من سطح منزله. وكان أيضا قد ضرب ضربا مبرحا من خمسة إخوة لامرأة كان على علاقة سرية معها، وقال إنه أطلق النيران على أربعة منهم فقتلهم ومن ثم التجأ إلى جرابلس هربا من الثأر حيث أصبح طاهيا ويضع مسدسه فى حزامه. ورغم أنه كان طباخا ماهرا بأسلوبه الخاص، فلم تعد مهاراته صنع الخبز بدون فرن، حيث كان يمكن للفريق ابتلاع خبزه فقط بإضافة كميات كبيرة من أحد أنواع المربى التسعة التى كان هوجارث قد أحضرها معه.

وبعد الإفطار، كان لورانس وطومسون يسيران حتى الموقع حيث يكون الرجال قد بدأوا العمل فى حوالى الخامسة والنصف صباحا. وأخذوا ينقبون فى الأسابيع الأولى عند قاعدة درجات السلم حيث لم يقرب المنقبون السابقون هذه المنطقة، وكان الفريق يعتقد أن القصر الملكى يقع هناك. وقد وجد لورانس التنقيب الفعلى «متعة كبرى». كان الرجال عادة يعملون فى مجموعات كل مجموعة من أربعة وكان كل فريق يتكون من حفار وجارف واثنين من الرجال يجمعون النفايات فى السلال «المقاطف» ويلقون بها فى النهر. وكان الجميع يتقاضون أجورا متساوية إلا أن معظمهم كان يطلب وظيفة الحفر التى كانت أسهل المهام ومعها الاحتمال

الأقوى للكشف عن «الأنتيكات». كان هذا الكشف حافزاً كبيراً إذ كان مكتشف «الأنتيكة» يُمنح بقشيشاً حيث تنعكس أهمية الأثر على المبلغ الذى يتقاضاه. ومع اقتراب أعمال التنقيب من النهر أصبحت الاكتشافات أكبر قيمة، لذا كان رجال النفايات يولون اهتمامهم لما قد يكون الحافرون أو الجارفون قد غفلوا عنه. وقد أظهر لورانس تمكنا كبيراً من فهم نفسية الرجال بأن استحدث نظاماً يقضى بأن يطلق ملاحظ العمال الرصاص إعلاناً عن كل اكتشاف، وكان عدد الطلقات يختلف باختلاف أهمية الأشياء المكتشفة؛ فكانت قطعة من العمل المنحوت يعادل طلقة بينما كان العمل الكامل يساوى سبع أو ثمانى طلقات. وقد نظر الرجال إلى جوائز الطلقات كشرف أعظم من البقشيش التى كان يصحب الكشف إذ إنه رغم كل شيء، فقد كان البقشيش مجرد نقود، وكان المكتشفون يتجادلون بشدة مع الملاحظين بشأن عدد الطلقات التى يستحقونها حتى كان الأمر يصل أحياناً إلى حد تبادل اللكمات. وكان الذين لا يحصلون على أية طلقات لعدة أيام يفجرون فى البكاء. وسرعان ما برهن لورانس على أن سر قوته كان مقدرته على حفز العمال، وكان كثيرا ما يحوّل العمل إلى لعبة بأن يثير الحفارين على الجارفين وناقلى النفايات حتى يأخذ كل فريق، بمن فيهم هو، فى الصياح والجرى بحيث ينجز عمل يوم كامل خلال ساعات.

وبحلول الساعة الثامنة صباحاً كانت تُشاهد صفوف من النساء والأطفال فى ملابسهم الحمراء والزرقاء الزاهية وهى تخرج من القرى الواقعة على سهول النهر تحمل أوانى اللبن الرائب فوق رءوسها. وكان هذا الوقت من اليوم يستهوى لورانس حيث إن الحرارة الشديدة لم تكن قد بدأت وحيث يكون الرجال نشطاء بدرجة كافية تسمح بتبادل الأحاديث والغناء والعزف على مزامير الرعاة. ورغم الثقافة العربية المهيمنة على هؤلاء الرجال، إلا أنهم كانوا خليطاً من الشعوب، الأكراد، والشراكسة والعرب والتركمان وكانوا أحيانا يتحدثون ثلاث أو أربع لغات وأحيانا يخلطون جملاً من كل تلك اللغات معاً. وكان لورانس الذى تلقى دروسا فى العربية المكتوبة من الآنسة فريدة العقل فى جبيل قبل أن يلتقى بهوجارث يجد لهجتهم العرسة «كريهة» وغير مفهومة تقريبا. وبينما كان الرجال يعملون، كان لورانس وطومسون - الذى كان يتحدث العربية أيضا - يشغلان نفسيهما بقياس

الأعماق وأخذ البصمات ونقل النقوشات ورسم الاسكتشات والتصوير. وسرعان ما تحققا أنه لا يوجد عمل كاف لكليهما. لذا قررا تقسيم الوقت إلى نوبات بالتبادل مع فترات في المنزل يفحصان فيها ما تم اكتشافه. وكان الرجال ينتهون من عملهم في الخامسة، ويرجع لورانس إلى المنزل ليكتب السجل اليومي وقوائم الموجودات ويفحص الفخاريات التي عثروا عليها أثناء اليوم والتي كانت عهدته الشخصية. وقد خدمته ذاكرته الرائعة، فكان بإمكانه أن يجانس بين الكسارات بشكل شبه فوري حتى ولو كانت قد اكتشفت ـ على مدى أشهر متفرقة. وكان ذا مقدرة على تذكر التفاصيل المعقدة للطبقة التي تم اكتشاف القطع بها حتى وإن لم يكن هو نفسه الذي اكتشفها وفيما بين السابعة يكون الحاج قد فرغ من تجهيز الطعام الذي كان محدودا حتى طرأت لهوجارث فكرة ابتياع الخبز من الأتراك. وحدث أن كان الأسى يتملك من لورانس ورفاقه حينما أفرغ الطاهي وعاء كاملا من بودرة الكاري على وجبة الأرز واللحم حتى إن لورانس قال «إنه كان مثل تناول لهب مخلوط بالشطة. إن الاثنين الآخرين يشتكيان من آلام في كبديهما».

ونعتبر إشارته إلى «الاثنين الآخرين» هامة، حيث إنه رغم حالة الرضى التي اعترته في كركميش إلا أنه من الواضح أنه قد عاود ارتداء معطف العراية الذي صممه لنفسه. فالتأكيدات المتواصلة في خطاباته على تمرده وتميزه وعظم قوة احتماله كانت في الواقع نتاجا لحالة عدم رضاء عميق عن النفس. فعلى حين امتنعت أسنان هوجارث عن مضغ الخبز «المطاطي» مثلا، وكان طومسون يأكل القدر القليل بصعوبة، كان لورانس في حالة «ازدهار»، كما أنه كان الوحيد من الثلاثة الذي ينام الليل بعمق لمقدرته الخاصة على النوم في أية ظروف (هذا على الرغم من أنه كان قد طلب بناء كوخ له في حديقة المنزل تحت زعم عدم تحمله الضوضاء). وقد كان هو الذي ثبت الأبواب والنوافذ والأرفف في المنزل لأنه كان الأكثر قدرة على عمل هذه الأشياء، ومن الواضح أنه هو الذي كان يقوم بحل كل مشاكل الحفر نظرا لما له من مقدرة أفضل على «تركيب الأشياء وتحسينها». أما هذه الهالة من السمو فكانت بالطبع متبناة ـ قوقعة لحماية ضعفه الداخلي ـ إلا أن البعض وجد هذا الوجه مقلقا ومن بين هؤلاء إرنست آلتونيان الذي زار كركميش تلك السنة. كان والد آلتونيان أرمنيا يدير مستشفى حلب ووالدته أيرلندية، أما

هو فكان طالب طب وذهب في إجازة إلى كركميش حيث التقى بلورانس وشعر أنه شاب «نسج حول نفسه شرنقة، إلا أنه لم يكن لديه ثقة الرجل الناضج التي تمكنه من مغادرة الشرنقة في الوقت المناسب». وقد وجد آلتونيان ذلك الشاب الهش الشاحب الصامت «متعالبا ومستحيلا». «بالوجه الأكسفوردى الخالى من التعبيرات، والأعين المسدلة، والحديث الخافت المتمسع؛ كان كيّسا، لا شخصى، مثيرا للإعجاب، مقلقا، وغير محبب». كما اعتقد أنه متكلف وقال إن مقدرته كانت ستكون بناءة لو أنه فقط «اعترف بقدرات الآخرين بأسلوب أقل إنكارا». وكان لورانس يخشى آلتونيان الذى كان يتحدث العربية بطلاقة، وجمع بين خليط من السكان المحليين والأوربيين، وكان مثقفا، وأمكنه أن يبصر من خلال كل أقنعته الكلونيالية. أما لورانس فكان ببساطة غير مستطيع الاعتراف بمقدرة آلتونيان لشعوره في أعماقه أن كل الرجال كانوا أكثر منه «رجولة».

وأبقى لورانس على شعوره بالرهبة إزاء هوجارث معتقدا أنه «رجل رائع» لخبرته الناسعة عن الشرق ومقدرته على التحدث بوضوح بلغات ست ومعلوماته الموسوعية. ومن ثم، حاول باستمرار أن يحوز على إعجابه، وعلى سبيل المثال، فقد أيقظه ذات مرة خلال رحلة بالقطار ليشاهد قرية حاروشيث مسرح أنشودة دبورا بالعهد القديم. ولحسن الحظ، فإن هوجارث كان يشاركه الإعجاب بالقصيدة وملأته البهجة. وكتب لورانس وهو راض إلى أهله قائلا: «لقد سارت الأمور سيرا حسنا». ومن جهته، اعتقد هوجارث بإمكانيات لورانس كآثارى وظنه أفضل من طومسون في النواحي الأركيولوجية. ورغم أنه كتب فيما بعد عنه «أنه مساعد يحوز الإعجاب». إلا أنه شك في مقدرته على تشييد العمل قدما. وقد لاحظ لنارد وولى الذى حل محل هوجارث فى كركميش فى الموسم التالى أيضا توجه لورانس الطائش اللامبالى وكتب يقول إن لورانس كان متقلب الأطوار فيما يتعلق بالعمل بشكل مثير للفضول: «كان إذا استثير اهتمامه ذا مهارة متميزة، أما إذا كره شيئا أو اعتقد بعدم أهميته تجاهله». وقال وولى إنه كان يجيد الانسجام مع العمال لدرجة أنه كان يعود أحيانا من جزء آخر من الحفريات ليجد لورانس جالسا مع العرب يناقش في موضوع عن التراث الشعبي أو إحدى اللهجات المحلية. وكان لا يمكن مثلا أن يرتكب شخص مثل كامبل ـ طومسون الذى كان إنجليزيا متعالبا

ضيق الأفق لدرجة احتقاره للسكان المحليين مثل هذا «الخطأ». ومن ثم كان بإمكانه تسخيرهم دون تردد مما حار إعجاب هوجارث الذى كان يُكنى بين العرب «بملاك الموت». وكتب لورانس عن طومسون قائلا إنه كان «لطيفا» و«ممتعا»، كما أعجب بمعرفته اللغات السامية. وقد عملا معا، على حد قول هوجارث، باتساق ممتاز. إلا أن هذا كان يرجع إلى مقدرة لورانس على أن يسحر به الآخرين، وكان لورانس يحدم مصالح هوجارث إذ إنه كان له موقف تنافسى إزاء زميله الذى يكبره، وكان يسخر بينه وبين نفسه من استعراضه لقوته العضلية ولمجموعة بنادقه ومسدساته وسيوفه وأدواته الخاصة بالمبارزة التى أحضرها معه إلى الموقع.

ورغم أن لورانس كان انعزاليا نوعا ما مع زملائه الإنجليز فقد كان يشعر بالراحة مع العرب حيث كان ينظر إليهم نظرة أبوية طيبة أوتوقراطية. ولم تكن صلته بهم قائمة على المساواة. وكان ألبك كيركبرايد هو من علق فيما بعد على أن لورانس كان أكثر استعدادا لحب من هم أصغر منه سنا أو أقل منزلة. كما أن تحدث كثيرا فيما بعد عن الإرضاء الذى كان يجده فى العيش مع طبقات المجتمع الدنيا. بيد أن استجابته الأولية للعرب كانت استجابة جمالية فقد رأى فيهم الوسامة رغم أن غالبيتهم كانوا شديدى النحافة وكان بعضهم أطول منه. كما سحرته ثقافتهم، ومن ثم كرس نفسه لمهمة تعلم ما يتعلق بعاداتهم ولغتهم. فلم يكن فقط يحفظ أسماء جميع العمال، بل سرعان ما استوعب أسماء قبائلهم وأسرهم وطبيعة علاقاتهم. وقد أدرك لورانس بشكل شبه فطرى أن الرجل فى العالم العربى أكثر من مجرد فرد: فيما يعرفه هو أسرته وروابط قرابته. وسرعان ما أكسبته هذه المعرفة وضعا خاصا بين السكان المحليين، وأصبح باستطاعته استعمالها استعمالا مؤثرا كسلاح نفسى. فكان مثلا يسخر من المتباطئين بأن يحكى بعض أسرار عائلاتهم. ورغم كون هذا عملا غير أخلاقى، إلا أنه كان أسلوبا مؤثرا فى الإدارة، وأصبح فى خلال شهر من وصوله يحكم فى المنازعات بشكل غير رسمى ويحل خلافات التنازعات بين الحمارين والجرافين وناقلى النفايات، ويفصل بين أعضاء الأسر التى بينها ثأر، ينصح رجلا بشأن مهر عروسه، ويدفع الكفالة لآخر ليفرج عنه، ويقوم بطرد بائع دخان أرمنى شك فى أنه يرغب فى شراء «الأنتيكة». وكان يزهو بأنه يضمد إصاباتهم وجروحهم التى كانت تحدثها الآلات والحجارة

المتساقطة ويداوى لذعات العقارب. ومن ثم، بدا يتصرف كمسئول بريطانى عن إقلم نموذجى فى إحدى المستعمرات الإمبراطورية النائية، يدير شئون سكانه المحليين. حتى إنه كتب قائلا: «كان على طومسون وأنا أن نكون أطباء وآباء روحيين ووكلاء للعرسان بالنسبة للجميع». وقد يكون هذا ترديدا لمقولات المسئولين البريطانبن الكلونياليين المتأدبين الذين «يحملون عبء الرجل الأبيض»، فمثلاً، كتب لوالدته قائلا عن الشعب العربى «إنه منير للعجب وأفراده جد بسطاء، إلا أنهم يملكون ذخيرة من الصراحة وحسن الفكاهة الطفولى اللطيف». أى أن العرب، طبقاً لهذه النظرة كانوا «المتوحشين النبلاء». وعلى حين أنه فى عام ١٩٠٩ امتدح تأثير الإرساليات الأجنبية بعملها على «تمدين» العرب، إلا أنه أصبح بدينها لتعربفها إياهم بالأفكار الأجنبية الغربية، الأمر الذى يؤدى إلى التأنير «الفج» على الثقافة التفليدية ودلك لأن العربى المتعلم «الفج» العالم بشئون دنباه والمتطلع إلى قوة خارج نظاق تحكمه يمثل تهديداً. ومن ثم، كان العربى التفليدى «السبيل» الذى يعرف مكانته ويتعامل معه باحترام مباشر غير واع ولا بتحدى أبدا حقه فى الهيمنة شخصا أفضل. وبما أن لورانس كان هو الذى يستأجر الرجال للعمل ويفصلهم، فقد كانت له السلطة الكاملة على مقدراتهم، وقد استمتع دون أدنى شك بتلك السلطة إذ كتب يقول: «إنه لشىء عظيم أن يكون الإنسان مستخدما للعمالة». وكان يبذل جهداً وعناية فى اختياره للعمال الجدد، ويرفض الكثيرين، ليس على أساس كونهم كسولين أو عير أكفاء، لكنهم لأنهم كانو يبدون وقورين أو متأدبين أكثر من الحد المطلوب، أى أنهم كانوا يفتقدون بساطة الأطفال المتطلبة فى «المتوحش النبيل». ولسوء الحظ، فلم تجد معاييره الجمالية إذ نشب فى شهر مايو خلاف خطير بين أولئك: العمال لم يحسمه سوى فصل حوالى ثلاثين منهم أى ثلث قوة العمل تقريبا. وقد أوضح لينارد وولى آن لورانس لم بكن بحب رجاله فى كركميش - جرابلس رغم ولعه الأنوى بالأعراب ونفافتهم إد كان له صديقان فقط وهما الملاحظ المحلى أو حوجة - حمودى، والسقاء سلم أحمد المكى بـ «داهوم».

وكان حمودى، وهو معامر يتفاخر بجدوره البدوبة، قد عاش شبابا طائشا وتورط فى عدبد من منازعات الدم والنأر. وسبق أن أعلنت السلطات التركبة أنه

حارج على القانون فاختبأ في التلال لمدة سنوات ثلاث كان يزور خلالها قريته متخفيا . إلى أن صدر عفو عنه عام ١٩٠٨ وعاش حياة رتيبة ، حتى أتى هوجارث وافتتح عمليات التنقيب في كركميش ، وسرعان ما لفت حماسه انتباه هوجارث فاختاره ملاحظا للعمال . كان طويلا رفيعا ، ذا وجه مستطيل نحيل ومظهر مؤثر بمعطفه الاستراكان ذى الأكمام الطويلة وعمامته الحمراء . وكان لا يذهب إلى العمل أبدا دون أن يتمنطق مسدسه ، وكثيرا ما كان يردد أنه لو تملك مائة جنيه فقط لاشترى حصانا جيدا وبندقية وهجر الحياة المستقرة : « سأقتل رجلا أو اثنين ثم ألتجىء ثانية إلى التلال ، وبحق الله سأكون أسعد حالا من الحياة كالبقرة داخل الجدران » . وإن كان إعجاب لورانس بحمودى قد أفسده أنه وجد أن « حديثه يبعث على الضجر الشديد » وأنه « لزج كحيوان رخو » فلم يفسد أمر كهذا أحاسيسه تجاه داهوم الذى يظهر لأول مرة فى يونيه عام ١٩١١ كسائق حمار فى الرابعة عشرة من عمره أجبر على تجرع مسحوق مُسهّل Seidlitz Powder تحاشيا للضرب أو السخرية ، وكجزء من حيلة لعبها على شرطى الدرك التركى ، وأيضا على أنه يعلن ، مثل فرايداى تابع روبنسون كروزو أن الرجل الأبيض ساحر « خطير جدا لأن باستطاعته أن يحول الشخص فجأة إلى فرس أو قرد كبير » . إلا أنه يظهر فى خطاب آخر كتبه بعد ذلك بأيام « كشخصية مثيرة للاهتمام ، وباستطاعته القراءة قليلا » ، وأنه أكثر ذكاء من « عامة الجند » ، وقد أبدى رغبة لإنفاق النقود التى يتكسبها فى كركميش ليلتحق بمدرسة كى يصبح عربيا نصف « فج » ، أى النمط الذى كان لورانس يبغضه . وفى الواقع ، فقد وجد لورانس نفسه منقسما أيديولوجيا تجاه داهوم ، فعلى حين أعلن « بمبالغة متكلفة » أن « العرب فى حالتهم الخام أفضل ألف مرة » إلا أنه اعترف أن حياة « العربى الخام » كانت « طاحنة بشكل بشع » . لا تناسب سوى « المستوى المنخفض للعقول القروية المتدنية » .

وخطابات لورانس ، منتقد عصر النهضة و« عصر العقل » بالتساوى ، فى تلك الفترة تكشفه فى أكثر حالات تناقضاته مع نفسه . فقد انتقد مثلا « الأجانب الذين يأتون هنا ليعلموا الناس والأحرى بهم أن يتعلموا منهم » ، إلا أنه يعلن بزهو فى نفس الوقت أنه قد علم داهوم أن يستخدم عقله بجانب غرائزه . ورغم أنه قد أخبر والدته مبتهجا أنه لا يوجد « بعد تأثير أجنبى » فى الإقليم ، إلا أنه تجاهل التأثير

الواضح لشخصين إنجليزيين. فقد كتب يقول: «إن استطعت فقط أن تشاهدى التدمير الذى أحدثه التأثير الفرنسى بدرجة أقل من التأثير الأمريكى، فلن تتمنى أبدا أن يمتد هذا التأثير». إلا أن الشهوة الكلونيالية «لتحسين الأفراد كسبت الموقف فى حالة داهوم، ففى غضون شهرين، كان لورانس يراسل الإرسالية الأمريكية فى جبيل لترسل له كتبا لتعليم داهوم. وطلب أن تكون هذه الكتب «عربية» لا «أجنبية» ولم يلاحظ لورانس فى هذا تناقضاً مع «العربى الخام» الذى كان قد دافع عنه بشدة منذ شهر واحد فقط. فالبنسبة له، كانت «لمسة» الأجانب الآخرين، خاصة الفرنسيين منهم، هى المُفسدة إذ كتب يقول: إنه لا يرغب أن بفعل مع داهوم أكثر من إعطائه الفرصة لتحسين نفسه. ويمكن للمرء هنا أن يقول إن هذا ما اعتقدت الإرساليات الأجنبية أنها تفعله تحديدا. إلا أن لورانس استطاع بطريقة سحرية حذف نفسه من المعادلة لاعتقاده أن أثره كان طيباً خالصا. وهذه النظرة بدأت من فرضية كمال الرجل الإنجليزى. فلا يمكن للعربى أن يطمح أبداً أن يكون إنجليزيا، إلا أن عليه أن يكون «إنساناً جيداً من نوعه». ومن أجل تشجيع هذا، اعتقد لورانس أن على الإنجليزى تعلم لغة العربى واستيعاب عاداته والإعجاب بتقاليده وعبر عن هذا بقوله «الإمساك بخاصيات من حوله من الناس: حديثهم، وعادات تفكيرهم؛ وسلوكهم تقريباً». ولدى الانتهاء من إنجاز هذا، يصبح بإمكانه «توجيههم، وإرشادهم وفقاً لإرادته». وكان لورانس يزدرى الأساليب الكلونيالية الأخرى، خاصة أسلوب الفرنسيين، لأن الفرنسى، على العكس، وضع نفسه فى موضع النموذج الذى يجب محاكاته: فبدلاً من أن يتعلم هو العربية، كان يشجع العرب على تعلم الفرنسية؛ وبدلاً من تعلم عادات العرب وتقاليدهم، شجع العرب على محاكاته. واعتقد أن نتيجة لأسلوب كلونياليته الخاص سيكون هناك شعب له نماذجه الثقافية المميزة وفى نفس الوقت يصبح تحت الهيمنة البريطانية بشكل غير معلن. أما الأسلوب الفرنسى فقد أوجد أناسا أصبحوا «مبتذلين»، وشعوبا متناقضة ليس باستطاعتهم الوصول إلى المستويات الأوربية المرتفعة فى الوقت الذى يكونون فيه قد تخلوا عن كل موروثاتهم. وكان لورانس شديد الحرص على تحاشى مثل هذا الموقف بأى ثمن. ونظرا لأنه اعتقد أن داهوم مادة ممتازة للتحسين، فقد علمه، ضمن أشياء أخرى، التقاط الصور فى

الموقع. بيد أن وولى وجد داهوم شخصا ذا ذكاء محدود بشكل مؤكد لدرجة أن غطى هذا العيب على شدة وسامة ملامحه. فقد كان جماله الجسدى، لا مقدرته على العقلنة، هو ما احتفى به لورانس، حبنا، وبعد عامين من هذا، نحت له تمثالا وهو عار ووضعه على سطح منزله. وقد أبدى وولى ملاحظته، بشكل غير مباشر، على أنه، ورغم عدم اعتراف لورانس بأية مشاعر ود تجاه أى شخص فقد كانت ثمة «مشاعر حب عميقة تعتمل داخله تجاه أفراد معينين». وببساطة، فقد وجد لورانس فى داهوم، أو سليم أحمد (س. أ) حب حياته العظيم.

حينما رحل هوجارث وجريجورى فى ٢٠ أبريل، اتخذت أطوار لورانس العربية شكلا مركبا، فنراه يترك المنزل وينام في الموقع. إما على تل الركام أو فى خندق، ولابد وأن هذا التطور قد أصاب العرب بالدهشة. اعتقد لورانس أن هذا يقربه منهم، رغم أنهم أنفسهم ما كانوا ليحلموا بالنوم سوى فى منازلهم ولم يكن التنقيب يسير سيرا حسنا إذ كان يكلف أربعين جنيها استرلينيا فى الأسبوع إلا أنهم حتى تلك اللحظة لم يكن لديهم ما يعلنون عنه من اكتشافات سوى رأس أسد غريب، ونقش نافر على البازلت، وأكوام من الفخاريات. ولم يتم العثور عى نقوشات حيثية. أو هيروغليفية. وحينما حل شهر مايو ولم يكونوا وعلى مدى أسبوع كامل، قد عثروا سوى على عملة رومانية، وجزء من شعر عنق أسد، وأساس لحائط بيزنطى، بدأت الفئوس تصطدم بطبقة من الصخر الصلد السفلية، وكانوا على وشك التخلى عن مواصلة الحفر. وفى ظل ظروف اليأس تلك، زارتهم جيرترود بل، وهى مستعربة وأركيولوجية متميزة، وكانت قد وصلت وهى تتوقع أن تلتقى بهوجارث وكانت جيرترود بل من نوع السيدات البريطانيات المتسلطات اللاتى تمكن بفضل مكانتهن الراقية فى المجتمع وتصميمهن من شق طريقهن إلى عالم الرجال. وكانت بل ذات نفوذ مؤثر ومن ثم خشى لورانس إن هى بعثت بتقرير عن الحالة الفعلية للتنقيب فى الموقع أن يُغلق تلمائيا. وكان قد بدأ يتلذذ بحياة التراخى والكسل هناك، ويأمل فى العودة لموسم قادم. لذا كان من المفهوم أن يتخذ موقفا دفاعيا عن الآنسة بل. كان لورانس يرى أنها لطيفة بشكل ما لكنها غير جميلة «إلا إذا أخفت وجهها وراء حجاب»، كما أنه وجدها فى البداية جد مربكة لصعوبة إرضائها. وحينما انتقدت الأسلوب الذى يسير به

التنقيب حاول هو وطومسون «هرسها»، باستعراضهما لعملهما الغزير، والتسارع في الحديث عبر متاهات من المواضيع مثل المعمار البيزنطي، والتراث الشعبي الإغريقي، وأناتول فرانس، والتركيبات اللغوية العربية، وأسعار ركوب الجمال. وقال إنه بعد تسعين دقيقة وجدت الآنسة بل سعادة في تناول الشاي والعودة إلى خيامها وهي تتمتم «إنها فعلا المعجزات». أما الآنسة بل فقد كتبت في مذكراتها ببساطة ودون الإحساس بأن هناك خلافاً، إنها قد التقت بطومسون، وشاب آخر يدعي لورانس الذي تنبأت له أن يصبح رحالة، وأضافت قائلة. «لقد قدما لي عرضا عن حفرياتهما وما عثرا عليه، وقضيت يوماً لطيفاً في معيتهما».

بيد أن أسوأ مخاوف لورانس تحققت في شهر يونيو حينما تلقى طومسون برقية من السير فردريك كنيون، مدير المتحف البريطاني، لتخبره بأن مجلس أمن المتحف غير راض عن نتائج التنقيب وبالتالي فلن يكون هناك موسم تنقيب آخر. ولم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى تسوية الحفر. وترميم الأواني التي بالإمكان ترميمها، وإنهاء العمل بالموقع. وفي شهر يوليو انتقل طومسون إلى تل الأحمر على الفرات لفك شفرة بعض الرموز الحيثية. ومن هناك رحل لورانس سيرا على الأقدام لزيارة أورفه ومشاهدة حران وبيره چك وتل بشار أو المنطقة التي ادعى أنه تعرض فيها للهجوم عام ١٩٠٩. وكانت نهاية تلك الرحلة مخزية كسابقتها حيث عاد متثاقلاً بعد أقل من أسابيع ثلاثة إلى جرابلس وقد أنهكته الملاريا والدوسنتاريا، وامتلأت يداه باللدغات المتقيحة، وتمزقت قدماه مرة أخرى. وخرجت القرية كلها تقريباً للترحيب به. وبعد مجلس استمر ساعة أحضر له حمودي الخبز والبيض المقلي والزبادي وتركه ليأكل وحده. وفي تلك الليلة نام على السطح مصاباً بصداع واستيقظ ليشاهد شروق الشمس على السهل ما بين النهرين وهو محموم. وترنح يسير بتصميم إلى كركميش معتزما قياس عمق بعض الخنادق، وحينما تبعه حمودي كي يساعده انتابته نوبة غضب شديدة ونهره بصوت عال ليعود من حيث أتى دون سبب واضح. وحينما وصل إلى تل الركام خر ساقطاً على ظهره ممددا ورقد هناك مدة سبع ساعات ونصف يبلله العرق البارد ويكاد ينشق رأسه من الألم. وحينما استجمع قوته ليقوم، دهشه أن يجد أن الساعة كانت الثالثة عصراً. ثم ترنح في اتجاه الخنادق ومعه شريط القياس

إلا أن بعضها كان عميقا ولم يكن ليتنى لنفسه أن يستطيع قياس عمقها دون السقوط أسفلها. وكانت رحلته عائدا إلى قرية جرابلس إحدى أكثر رحلات سيره مشقة على الإطلاق. فقد قطع فيها ثلاثة أرباع ميل فى ساعتين. وفى هذا المساء خط بين الخطابات بيد ثقيلة لدرجة أنه كاد لا يقوى على الإمساك بالقلم وأرسل بها عداء إلى بيره چيك ليستدعى له عربة ويطلب مساعدة الحاكم والطبيب المحلى. وعاده أعراب كثيرون من بينهم داهوم إلا أن شدة المرض أعجزته تقريبا عن رؤيتهم. ورقد منبطحاً فى اليوم التالى فى منزل حوجة، تزعجه نوبات الإسهال التى حتمت عليه أن يندفع إلى الخارج لقضاء حاجته. ووصل به الحال لدرجة أن أغمى عليه فى أحد الممرات وجرح خده جرحا عميقا على صخرة حادة الحواف. وفى المساء، أراحته مرة أخرى زيارة من داهوم. ولم تظهر العربة القادمة من بيره چك فى اليوم الثالث وخشى لورانس أن يكون العداء قد فر بنقوده. ورغم أن حمودى كان يبذل جهده من أجل راحته إلا أنه وجد أنه لا يطيق صبرا على هذا «الإنسان المضجر البشع». وكان من نواعت ضيقه بأسلوب حجا تكراره كل جملة خمس أو ست مرات موحيا بضعف لغة لورانس العربية ومؤكدا على كونه أجنبيا. ومن المحتمل أنه نظراً لضعفه فقد كان من الصعب فهم مايقوله بالعربية. أما الحقيقة، فإنه كان مديناً لحمودى بحياته.

وبينما كان لورانس راقدا فى شبه غيبوبة، كان حوجة يقود معركة مع الرأى العام. فقد نصحه جيرانه الذى عمل غالبيتهم فى الحفريات بواقعية وحشية أن يلقى به إلى الخارج إذ إنه لو حدث ومات الإنجليزى فلابد وأن يُتهم حمودى، قاطع الطريق سابقاً، بأنه دس له السم ومن ثم يلقى القبض عليه ويرح به فى السجن، إلا أن حوجة أرسى قواعده: فلو أنه طرد لورانس لما كان هذا انتهاكا لمبادئ الضيافة الإسلامية، إلا أن هذا سيكون إهانة شديدة لصاحب عمل قد يقدم له وظيفة فى المستقبل. ولابد أن لورانس قد استمع إلى بعض هذه الأحاديث. لأنه أعطى حمودى خطاباً موجها إلى والده يقرر فيه إنه فى حالة وفاته لا يتحمل حوجة أية مسئولية. وظلت حياته معلقة بخيط رفيع لمدة أيام ثلاثة. ثم تحسنت حالته قليلا فى الأول من شهر أغسطس. وأجبر لورانس نفسه على التحرك نحو النهر بصعوبة مع فترات توقف للراحة للاغتسال الذى كان يحتاجه بشدة. ووصل العداء فى

الساعة الرابعة والنصف عصرا من بيره جك دون عربة وقال إن الطبيب المحلى والحاكم رفضا المساعدة. ومن ثم، وجد لورانس نفسه فى مأزق كارثى وكان عليه أن يواجه فترة انتظار قدرها أيام خمسة كى يرسل من يبعث برقية لإحضار عربة من حلب، أو لبركب حصانا إلى ممبج حيث كانت توجد عربات أخرى. بيد أنه كان عليه أن ينتظر يومين كى يستجمع قواه. وبينما كان على وشك الرحيل انقلب عليه حمودى ورفض أن يعيره حصانه الذى لم يكن باستطاعته الوصول هناك بدونه. وترنح لورانس وهو ثائر بسبب انقلاب كرم مضيفه المفاجئ غير المتيسر ووصل إلى جزء آخر من جرابلس بمساعدة داهوم وتمكن من استئجار حصان لإيصاله إلى تل الأحمر حيث كان يأمل أن يقدم له أحد ما يركبه إلى ممبج. وكانت هناك مشكلة أخرى وهى عدم وجود نقود معه لدفع إيجار الحصان، إلا أن مالكه كان كريما وائتمنه على الحصان حينما أبلغه لورانس أنه سيقوم بتحويل النقود من البنك فى تل الأحمر ويرسلها إليه والحصان مع داهوم. ومن ثم، سافرا ليلا فى ضوء القمر ووصلا إلى جزء نهر الفرات الذى تقع عليه تل الأحمر ليحدا طريقهما وقد قطعته مياه نهر ساجور الذى فاض بمياهه. وعاص داهوم فى المياه وعبر سابحا وأحضر قاربا لنقل لورانس والحصان إلى الشاطئ الآخر، وهناك، تمكن لورانس من تغيير النقود فى أحد البنوك السورية وأرسل داهوم إلى بلدته سعيدا بعد أن منحه شلنين ونصف وبرفقته حصان جاره. ثم رقد عاجزاً فى مزرعة للقنب حتى منتصف الصباح حين تمكن من استجداء ركوبة فى عربة بضائع متجهة إلى ممبج. وهناك، وبعد معاناة المشاحنات مع السائقين تمكن من استئجار عربة إلى حلب حيث وصل يوم ٥ أغسطس وألقى بنفسه شاكراً فى فندق البارون.

وتناوبت عليه هجمات الحمى رغم أنه تمكن من ابتياع بعض الأشياء من سوق المدينة مع الحاج وحيد، كما استجوب بعض البائعين المحليين بشأن آلة التصوير التى سبق أن سرقت منه، إلا أنه كان يجهد نفسه كثيرا وقد أصيب بشبه غيبوبة. وذات مرة، جلس لتناول الطعام فى الفندق وهو مصاب بالدوار، ثم استعاد إدراكه لفترة كافية أن سبّ الجالس على المنضدة المقابلة داعيا إياه «خنزيرا» ومتسببا فى حالة هياج هائل. وكان الرجل يهوديا يونانيا. وأراد أصدقاؤه أن يجبروا لورانس على الاعتذار فى حين أن بعض مهندسى السكك الحديدية من الألمان البدناء أخذوا

جانب لورانس . وأخذ مدير الفندق يعدو بين الموائد وهو يعتصر كفيه . وبعد أيام ثلاثة استقل لورانس القطار إلى دمشق ، وفي يوم ١٢ أغسطس وعقب ليلة فظيعة أصيب فيها بالحمى أبحر من بيروت . وتمكن أن يكتب في مذكراته : «السفينة مليئة بالناس ومن الواضح أن كلهم سوريون» و«غادرت بيروت الساعة ١١ صباحا . انتهى كل شيء» . وتمكن من أن ينجو من أكثر سنوات حياته إثارة وحسماً بمعجزة . إلا أن كل شيء لم يكن قد انتهى . فقد كان طوال الطريق من جرابلس يحتضن خطابا من هوجارث يخبره فيه أنه ، ورغم كل شيء ، فمازال البحث جاريا بشأن موسم آخر في كركميش . ومن ثم كتب لورانس الآتي : «إنها أفضل أنباء سمعتها منذ مدة طويلة» .

الفصل السابع

البارون والنظام الإقطاعى

كركميش ومصر

١٩١١-١٩١٣

7

عاد لورانس مرة أخرى
إلى جرابلس بعد أن شفى من
مرضه. وكان قد تم إقناع السير
فريدريك كينيون باستئناف عمليات
التنقيب، ويرجع هذا جزئياً إلى ضغط
الحملات الصحفية التى قاد الكثير
منها هوجارث بماله من نفوذ.

وفى أواخر شهر يوليو نُشر خطاب فى صحيفة «التايمز» بعنوان «التخريب فى أعالى سوريا وما بين النهرين» كان له أثره مما أثاره عن الشبفوسة البريطانية إذ أوحى بأن حجارة كركميش القديمة كانت تستعمل فى بناء خط سكك حديد برلين/ بغداد الذى كان قد أوشك على الوصول إلى الفرات. ورغم أن الخطاب نسب إلى مجهول فقد كان كاتبه هو لورانس فى محاولة منه لاستغلال الرأى العام لصالحه باستخدام إعلام المؤسسة. ولم يوافق كنيون فقط على إعادة فتح الموقع بل إنه أيضا ضم لورانس للفريق المساعد براتب قدره ١٥ شلن يوميا. وعين صديق لورانس القديم ليارد وولى مديرا بدلا من كامبل ـ طومسون الذى كان قد قرر الزواج.

ولدى عودة لورانس كان أثر شركة السكك الحديد الألمانية واضحا، إذ إنها كانت تقوم بتشييد سقائف لاستعمالها مخازن ومعسكرات للعمالة استعدادا لإقامة الجسر الخشبى الذى كانوا على وشك بنائه. وكان راف فونتانا القنصل

البريطانى فى حلب قد أبلغهم بأسلوب تعوزه الثقة أن موقع كركميش ملكية بريطانية وأن عليهم ألا يلمسوا أى حجر أو نصل عشب هناك. ولم يعلم الألمان لدى موافقتهم على تحريك الكوبرى بقدر طفيف أن ادعاء فونتانا زائف. وكانت مهمة لورانس أثناء شهر نوفمبر أن يكتشف من هو المالك الفعلى للأرض الأمر الذى اقتضى منه الغوص فى محفوظات الحكومة فى بيره چك بمساعدة الحاج وحيد ومترجم من القنصلية البريطانية فى حلب. وكان اكتشافهم غير مشجع إذ إن المتحف البريطانى كان قد اشترى فقط أربعين دونم من إجمالى مساحة قدرها ١٦٠ دونما وكانت المساحة الباقية وقدرها ١٢٠ دونماً مملوكة لشخص من الأهالى يدعى حسن أغا. وقد توقع لورانس أن يؤدى هذا الموقف إلى مشاكل فى حينها. بيد أن إقامته كانت قصيرة حيث إنه كان قد قام بترتيبات للعمل تحت إشراف البروفسور فلبندرز بيترى فى مصر من أجل تحسين معلومات عن الأساليب الميدانية للتنقيب. وفى يوم عيد الميلاد من عام ١٩١١ غادر هو والحاج وحيد جرابلس بعربة خيل وسط أمطار شديدة. وبينما كانت العربة تعبر كوبرى للمشاة على نهر ساجور

انزلقت فى النهر وغمرت المياه أحد الخيول وشلت حركة الثانى بينما أخذ الثالث يضرب الهواء بأرجله بجنون. ولحسن الحظ، اندفع لورانس والحاج، اللذان كانا يسيران فى المقدمة، إلى الماء لإنقاذ أمتعتهما، بينما حاول السائق مهتاجا أن يرفع رأس الحصان الغارق. وتم إنقاذ الكثير من أمتعة لورانس، وعند مرحلة معينة أوشك الحاج على الغرق حينما انزلقت قدمه وسقط رأسا على عقب فى دوامة مائية واستغرق إخراج العربة ساعتين وسط هطول الأمطار الصقيعية. وحيث إن وجبة غذائهما تشربت بالمياه فقد اكتفى كل منهما بثمرة جوز وشربا كمية هائلة من المياه العكرة. وفى هذا الصدد، قال لورانس «لقد كان عيد ميلاد لا تمحى ذكراه».

وفى ١٢ يناير لحق لورانس ببترى فى كفر عمار على بعد خمسين ميلا جنوب القاهرة، ورغم أن لورانس كان قد حلم بمصر كصبى، إلا أن نظام البروفسور الصارم ومنهجيته لم ترق له مما تسبب فى كراهيته للعمل الذى كان يتكون بشكل أساسى من استخراج جثث محنطة من مقابرها. وكان بترى، الذى التقى به لورانس لفترة وجيزة فى متحف الأشموليان، أبرز علماء الآثار فى زمانه. وكان، خلافا لهوجارث الأكسفوردى الأبوى المترفع، قد بدأ مساحا متواضعا دون دراسة منهجية، ووظف مواهبه العظيمة لتغيير أساليب علم المصريات. فقد كان المتخصصون فى المصريات، قبل بيترى، لا يتعدون كونهم لصوص كنوز ونفائس محترمين يعملون تحت هاجس اكتشاف المعابد وتهريب أعداد كبيرة من التماثيل لا حصر لها إلى المتاحف فى الخارج. وكان بترى أول من لفت انتباه لورانس إلى تفاصيل الحفريات مثل النقوش وكسارات الأوانى، أو أجزاء التمائم أو بقايا خاتم.. إلخ. وكانت أساليبه للتأريخ تتضمن الأسلوب الذى أصبح سائدا الآن أى «التدهور الأسلوبى Stylistic degeneration». وعن قرب، وجد لورانس فى بترى قطعة أثرية «مثل الكاتدرائية». وحينما أتى لورانس إلى الموقع يرتدى قميصا واسعا و«شورت» أخبره البروفسور أن «القوم هنا لا يلعبون الكريكيت». ووجد لورانس رد الفعل هذا مبعثا للتسلية إذ إنه كان يرتدى نفس الملابس فى كركميش، إلا أنه تحقق أن ارتداء «الشورت» كان يعتبر انتهاكا للوقار فى مصر بيد أن الإشارة إلى الكريكيت كانت مبعث سخرية لورانس الذى كتب قائلا: «أعتقد أنه كان يعنى كرة القدم». ورغم أنه كان يعتقد أن بترى دوجماتى وعنيد إلا أنه كان يكن له احتراما كبيرا.

وأضمر لورانس عزوفاً شديدا عن المصريين الذين كانوا، خلافاً لعرب جرابلس، لا يمارسون اللعبة الكلونيالية التى يؤكدون فيها للرجل الإنجليزى أن قوته لا تنتقص من قدرهم. وقد وجدهم لورانس قبيحى المنظر وقذرين ومتبلدين وعبوسين وتعوزهم حيوية رجال جرابلس. ولم يستطع التحدث إليهم بنفس «الألفة اللذيذة غير المفيدة» لأنهم كانوا إما أفظاظا مكفهرين يذكرونه بمكانته، أوأنهم كانوا «يستبيحون لأنفسهم حريات» ويتجاهلون مكانته. ولم يكن أى من هذين الأسلوبين مقبولا لديه، إذ إنه افترض أن على العربى أن يعامل الإنجليزى بصراحة جافة جاهزة توحى بوهم المساواة دون تخطى الحدود إلى عدم الاحترام.

وفى مصر، كانت الهوة بين الأقوياء والضعفاء واضحة، أما فى الشام فكانت مستترة بشكل مريح. إلا أن هذه التحيزات مضافاً إليها الحنين إلى عودته لكركميش لم تثبط عزيمته لدرجة أن أعجب به بينرى وعرض عليه راتباً قدره سبعمائة جنيه استرلينى فى العام ليشرف على الحفريات فى البحرين أو فى مناطق أخرى من الخليج. ورغم إغراء هذا العرض إلا أن نداء سوريا برهن على أنه من القوة بحيث عاد لورانس إلى كركميش فى نهاية فبراير.

وكان على وولى أن يمكث بمصر حتى شهر مارس. وتلقى لورانس أوامر بأن يمضى فى بناء منزل بعثة التنقيب كمقر دائم. ومن ثم استأجر بمجرد وصوله إلى جرابلس اثنين وعشرين رجلا وبدأوا فى وضع الأساسات. بيد أن العمل توقف بسبب تدخل العريف قائد الحرس التركى الذى كان قد تموضع فى الموقع منذ زيارة لورانس الأخيرة. ومن ثم سأل العريف لورانس بأدب إن كان لديه تصريح ببناء منزل، وهنا أجابه لورانس بأن المسئولين قد حصلوا على تصريح وأن الحاكم المحلى على علم بذلك. وأجابه العريف قائلا إن هذا قد يكون صحيحاً إلا أن ذلك الحاكم لم يعد موجودا. ولم يكن هناك بديل من أن يوقف لورانس العمل وأرسل برقية إلى إسطنبول يطلب فيها تصريحاً. وبعد مضى أسبوعين كان لورانس مازال ينتظر التصريح. ثم سافر إلى حلب ليقابل وولى الذى كان قد وصل يوم ١٠ مارس متوقعا أن يجد المنزل معدا وتملكه الغضب حينما علم أن العمل لم يكن قد بدأ ومن ثم أرسل برقية إلى كينيون فى لندن يطلب اتخاذ إجراء. بيد أنه كانت ثمة

أحبار أشد سوءا. فلدى وصول لورانس ووولي إلى الموقع بعد أيام وشروعهم في استئجار عمال أخبرهم العريف أن العمل محظور وأرسل وولي خطابا قصيرا قاطعا إلى الحاكم يطلب منه أن يمنع تدخل العريف، ونظرا لثقته في تلقي إجابة سريعة شرع في استئجار ١٢٠ رجلا وبعد فترة وجيزة وصل العريف بخطاب ينص على أن الحاكم لا يعرف من هو وولي وأن العمل لا يجوز أن يبدأ تحت أية ظروف و«كانت هذه صدمة كريهة» هكذا كتب وولي «فلا يعني تأجيل العمل فقط إهدار الوقت، لكن أيضا سيدمر ثقة الرجال واحترامهم، وهو أمر له أهميته في بلدة تفتقر إلى المدنية».

واجتمع لورانس وولي وقررا مواجهة الحاكم. وفي ١٧ مارس ذهبا ممتطين صهوة جواديهما إلى بيره جك على مسافة ٢٥ ميلا إلى الشمال. وعبرا الفرات، وتركا مطيتيهما في الخان، ثم سارا بنشاط إلى سرايا الحكم التي كانت تظللها قلعة من القرن الثاني عشر. وأرسل وولي ببطاقته إلى مكتب الحاكم. ولما لم يتلق ردا، أرسل بطاقة أخرى بعد فترة. ومرت الدقائق دون أن يتلقى ردا. وشعر وولي أن هذه معاملة لرعاية بريطانيين لا يمكن احتمالها فانفجر غاضبا واقتحم هو ولورانس مكتب الحاكم وجلس دون استئذان أمامه. ثم تساءل وولي، بقدر من التهذيب، عن سبب حظر العمل في الموقع. وأجابه الحاكم، وكان شيخا بدينا ذا لحية صغيرة ويبدو عليه اللؤم، أن الفرمان الذي يسمح بالحفر في الموقع قد منح لشخص يدعى السيد د. ج. هوجارث، على حين أن أيا من الرجلين الجالسين في حضرته لا يحمل هذا الاسم، ومن ثم، لا يمكن السماح لهما بالعمل. واحتج وولي قائلا إن لديه خطابا من هوجارث ومن المتحف البريطاني، وبما أن تلك الخطابات كانت باللغة الإنجليزية، تجاهلها المحافظ وأخبرهما أنه قد يستطيع السماح لهما بالعمل إن كانا على استعداد لدفع مرتب مفوض غير رسمي. وتأكد وولي ولورانس أن الحاكم يبحث عن رشوة كبيرة. ولا نعرف ما تلى هذا على وجه الدقة. فقد ادعى وولي أنه قفز من مقعده وأمسك بمسدسه وصوبه إلى رأس التركي مهددا إياه بإطلاق النيران عليه فورا. بيد أن الأكثر احتمالا هو أنه قد أخبره أن العمل سوف يبدأ سواء أراد ذلك أم لم يرد، ومن ثم أخبره الحاكم أنه سيمنعه بالقوة. وحينذاك أجابه وولي أنه يأمل فقط أن يأتي هو على رأس الجنود إذ إن هذا سيمنحه فرصة إطلاق النيران

عليه أولا . فأجابه التركى «هكذا ! ! إذن فأنت تعلن الحرب على الإمبراطورية العثمانية» . وكان رد وولى هو «ليس على الإمبراطوربة العثمانية ، بل على حاكم بيره چك فقط» .

ولدى تحقق الحاكم من عدم انطلاء خدعته علبهما تراجع معلناً أنه لا يرى سبباً لئلا يبدأ العمل فى البوم التالى . وكان لديبلوماسية التهديد بالقوة «سفن المدفعية» هذه أثر كبير على لورانس ، رغم احتقاره «لأوهام الجنس الحاكم» ،إذ إنه بدأ فى محاكاة الأسلوب الحاد لمديره الجديد ، مثل ما حاكى من قبل أسلوب هوجارث الرزين . فكتب لإدوارد ليدز قائلاً : «إن وولى إنسان ممتاز حقاً . كان عليك أن نستمع إليه وهو يعلن أسفه لحاكم الإقليم عن كونه مضطرا لإطلاق النيران على جميع الجنود الذبن يحاولون منع العمل فى كركميش وأسفه على أن الضحية الأولى ستكون العربف الصغير» .

وعاد الاثنان إلى كركميش منتصرين حيث كان جيش العاملين قد استعد بالمسدسات والبنادق لمواجهة الأتراك . ولدى رؤيتهم الرجلين الإنجليزيين وقد عادا ممتطين جواديهما بخفة ودون أن يصابا بأذى ، هتف العرب بحماس صاحبه إطلاق النيران . وأطلق الحاج وحيد ، الذى كان وولى قد أوكل إليه مهمة الإشراف على العمال ، عشر طلقات من خلال سقف خيمته من بندقية لورانس ابتهاجاً بالمناسبة . واجتذبت الضوضاء مجموعة من المهندسين الألمان الذين اندفعوا لمشاهدة ما اعتقدوا أنه معركة لبصطدموا بموكب فرسان يرافق الحاكم نفسه الذى حضر لتقديم اعتذار رسمي وليؤكد للجميع أن بإمكانهم البدء فى العمل ، وغض طرفه عن مشروعية بناء المسكن رغم أن لورانس لم يكن قد تلقى الإذن بذلك من إسطنبول . ومن ثم عمد لورانس ، وقد ألهمته عدم المبالاة ، إلى الإبراق بصلافة إلى العاصمة مرة أخرى مقترحا أنه قد يكون من المناسب أن يحصل على إذن ببناء المنزل قبل أن بكتمل البناء بالفعل .

وبهذا ،كسب البريطانيون الجولة الأولى . إلا أن الحاكم التركى سرعان ما وجد طريقة لنوجبه ضربة إليهم . فقد شرعوا ، لفترة ، فى بناء المنزل ، واستخرج لورانس فسيفساء رومانية وجدها فى موقع على بعد ميل ذات ألوان رائعة ترجع إلى القرن

الخامس، وقام بتركيبها قطعة قطعة كأرضية لغرفة المعيشة. وأصبح منزل البعثة «قاعة من العصور الوسطى» التي طالما حلم بها مع ريتشاردز - مبنى متسعا أنشىء حول صحن يحوى ما لا يقل عن إحدى عشرة غرفة منها غرفة مظلمة لتحميض الأفلام. ومارس لورانس الحرف التي كان قد تعلمها في صباه حيث نال من الاستحسان مالم ينله في منزله. كما قام بصنع حوض استحمام وغطاء للمدفئة من النحاس المطروق، وصمم مقعدين صنعهما في حلب، وأقام أعمدة من البازلت وحليا للأبواب ،وفيما بعد، وضع عتبات عليا للأبواب على الطراز الحيثي. ثم قام باختيار الستائر والسجاجيد وأواني فخارية من بين الأوعية الحيثية التي لا تقدر بثمن وطاسات للشرب ابتاعها بأموال البعثة من قرية مجاورة، ولإراحة لضميره، قرر لورانس أن يعيد إلى المتحف أي شيء سيبقى بعد انتهاء المهمة. وتصور الأوصاف المتاحة لورانس في هذه الآونة كخبير متمرس في السجاجيد والأطعمة العربية والقهوة والتحف الفنية والأشياء الأخرى · «الأشياء الجميلة التي يملأ الفرد بها منزله». وطبقا لوولى فقد كان مظهر لورانس في المساء يختلف تماما عن مظهره في الصباح كشاب ذى شعر أشعث، أما في المساء، «فكان يصفف شعره بعناية ويجلس أمام مدفئة الشتاء ليقرأ... حتى إنه كان يبدو بشعره المصفف ومظاهر «الفخفخة» التي تحيط به، لا يمت بصلة للورانس الصباح».

وكانت التحفة الفنية التي تتوسط غرفة الجلوس قطعة نسيج مطرز من تصميم ويليام موريس أرسلت من أكسفورد وأصبحت مصدر تسلية لا ينقطع للورانس. فحينما كان يصل زائرون من أوربا كانوا، دون استثناء، يتجاهلون قطع الأنسجة العربية الرائعة التي جمعها، ويقفون محملقين في قطعة موريس. وحينما كانوا يتساءلون عن «البازار» الذى ابتاع منه هذا النسيج المدهش، كان لورانس يجيب وقد تملكته البهجة «آه، بإمكانكم شراءها من شارع أكسفورد نظير شلنات قليلة للياردة».

وقد أبقى لورانس ووولى المنزل مفتوحا لاستقبال أى قادم، وكثيرا ما كانا يدعوان المهندسين الألمان بأسلوب متحضر للطعام. ورغم أن مخاوف لورانس من أن تقوم الشركة الألمانية بنقل الحجارة القديمة إلى كركميش لاستعمالها في بناء

السكك الحديدية كانت هواجسه لا أساس لها، فقد استمرت كراهيته للألمان، وظاهريا، كان يسوءه منهم أنهم لا يعرفون كيف يعاملون العرب، بيد أن السبب الحقيقي كان تطفلهم على مجاله الخاص وتكوينهم مركز جذب بديل للأهالي. وكانت مهارات لورانس تتركز في كيفية تعامله مع العرب، وهذه مهمة كان يؤديها وفقا للتراث البريطاني للكلونيالية الأبوية التي تكونت عبر القرون. أما الألمان، فكانوا يفضلون الأساليب التيوتونية في الحكم، هذا رغم أن هدفهما كان واحدا في جوهره. ورغم أن لورانس حاول مخلصا أن يرى الأشياء من خلال منظور عربي ونجح في هذا أكثر من كثيرين غيره، إلا أن أسلوب «التوحد مع العرب» كان أسلوبا للتحكم. فقد اعتقد أن العرب أسمى أخلاقيا من الأوربيين لأنهم «بدائيون» ومن ثم «أبرياء» دون أن يدركوا ذلك. أما حقيقة موضعه المتميز فقد قرره بصراحة حينما كتب «وحقيقة، فإن هذا البلد بالنسبة للأجانب أكثر روعة من أن تعبر عنه الكلمات. فالإنسان هنا سيد في نظام إقطاعي». وقد أخفى إحساسه التنافسي مع الألمان لأنهم كانوا في حالة تكافل: فقد كان المهندسون في حاجة إلى ما يرصفون به الطرق، وكان البريطانيون بحاجة للتخلص من الحجارة التي كوموها في الموسم السابق كي يحفروا تحتها. ومن ثم، تم الاتفاق على أن يحمل الألمان أحجار البريطانيين وبهذا يتخلص البريطانيون من المخلفات دون نفقات. وناسب هذا الترتيب الجميع باستثناء حسن أغا، المالك الجزئي للموقع، الذي شعر أنه قد اعتدى عليه ومن ثم، دخل ذات يوم إلى المعسكر الألماني وطالب بثمن الأحجار وأصر الألمان على عدم قدرتهم على الدفع، وأنه إن تمسك بهذا فسيحصلون على الأحجار من جهة أخرى. وهرع حسن أغا إلى بيره چك ليشكو أمره إلى الحاكم الذي رأى في هذا فرصة للانتقام.

وعقب أيام قليلة، وصل رجل يمتطي جواداً ومعه استدعاء يقضي بأن يظهر لورانس أمام المحكمة الشرعية بتهمة سرقة ما قيمته ثلاثون جنيهاً استرلينياً من الأحجار وبيعها للألمان. وكان الاستدعاء غير قانوني نظرا لأن الأجانب كان يستثنون من المثول أمام المحاكم الشرعية. إلا أن لورانس صمم على حضور المحاكمة من باب المجاملة لأن التهمة كانت عبثية. وفي اليوم المحدد، ركب إلى بيره چك وقدم إلى المحكمة، وكانت جزءاً من سراي الحكومة، وثيقتين: موافقة موقعة من

حسن أغا يتنازل فيها عن أى شيء يوجد فى الموقع، وشهادة خطبه موقعة من رئيس المهندسين الألمان يقسم فيها أنه لم يدفع شبنا فى مقابل الحجارة. كما كان فى حوزة لورانس أيضاً وثائق تخولهم الحق فى العمل فى كركمبش، ومن ثم اعتقد أن هذه الأوراق كافية لرفض الدعوى. بيد أنه لم يضع فى حسبانه ألاعيب الحاكم، لذا، فقد أصيب بصدمة حينما أبرز الادعاء ستة شهود مستعدين أن يقسموا على أنه قد تم دفع مبالغ نظير المخلفات. وطلب المجلس أن يرى وثائق لورانس التى قاموا بمصادرتها على الفور تاركينه عاريا دون سند بيروقراطى. وفى تلك الليلة، حينما عاد إلى كركمبش، لم يكن سعيدا كما كان حينما غادرها فى الصباح، واستمر العمل كسابق عهده، إلا أن الحاكم أمر العريف بوضع حرس على البوابة. ومع هذا تمكن وولى من تخطى هذا الإجراء بأن استأجر سائقى حمير يعملون مع الألمان لإلقاء الحجارة بالقرب من موقع الألمان.

وفى اليوم المحدد للجلسة، شق وولى ولورانس والحاج وحمد طريقهم إلى بيره جك ومعهم البنادق والمسدسات وكأنهم فى طريقهم إلى غزوة بدوية. ولدهشتهم التقوا بحسن أغا فى طريقه عائدا من المحكمة وأخبرهم أن الجلسة قد تأجلت. إلا أن وولى لم يتقبل هذا، وتصور أن هناك معوقات أكثر، ومن ثم واصلوا سيرهم وطالبوا بمقابلة الحاكم الذى أخبره وولى أنه لا يمكنهم إيقاف العمل من وقت لآخر للحضور إلى بيره جك وأصر على عقد الجلسة فى ذلك اليوم. وبدا الحاكم ودودا لدرجة أن الشك لم يخامر وولى ولورانس عن دوره فى المؤامرة. وفى قاعة الجلسة كان هناك جمهور غفير أتى لقضاء الوقت بينما كان الكاتب يدون ما يحدث بالتفصيل. ووقف وولى وأعلن أنه مسئول مسئولية تامة عن القضية وأن الادعاء ليس لديه شهود. وهنا، طلب المدعى التأجيل لاستدعاء الشهود، ووافق القاضى فورا على الاقتراح رغم الاحتجاج وولى الشديد. وهنا، ثار غضب وولى ورفض الاعتراف بالسلطة القانونية للمحكمة للنظر فى القضية ونادى على الحاكم بصوت مرتفع. لدى ذلك، ضحك القاضى وأخبره أن الحاكم كان هو من احتجز الأوراق التى تخولهم حق العمل فى الموقع. وهنا فقط، تحقق وولى من خلفية المؤامرة حيث كتب «لقد كنا ضحية خدعة، وظهر الآن دور الحاكم فيها، وطالما كانت الوثائق فى حوزته، فأنا تحت رحمته». ورأى وولى أن الأمر يتطلب اللجوء

إلى ديبلوماسية البنادق، لذا، فقد أخرج مسدسه وأعلن أن القاضي لن يغادر قاعة المحكمة حيا إلا إذا أعاد الأوراق. وهنا، تجمدت ابتسامة القاضي الساخرة على شفتيه وسقط جالسا في مقعده. وأرسل وولي لورانس إلى مكتب الحاكم ليطلب الأوراق، وقد تذكر لورانس «أن وولي أبقاه جالسا في مكانه، بينما ذهبت أنا إلى الحاكم وأوضحت له موقف القاضي السيء»، أما وولي فقد قال: «إنه قد غاب لمدة دقائق قليلة فقط ثم عاد ملوحا بالأوراق وهو يقول إن الملعون كان يحتفظ بالأوراق في مكتبه». وحينما سأل لورانس إن كان قد واجه أية مشاكل أجابه «لم تكن هناك مشاكل باستثناء أن الحاكم أراد فسخ العقد مع حسن أغا».

بيد أن الأمر لم ينته تماما. فحينما وصل هوجارث في مايو لتقييم الموقف، قام بزيارة الحاكم الذى قدم له اعتذاره المخلص وأخبر إياه بجزع بأنه «استعمل سلطته لإبطال قضية ما كان يجوز أن ترفع». إلا أنه من الواضح أنه لم يخبر بهذا موكب الجنود الذين وصلوا إلى منزل البعثة الأحد التالي ومعهم ورقة ليطلع عليها وولي وكانت تنص على حكم المحكمة بالإدانة بدفع ثلاثين جنيها والمصاريف، وكانت تصرف وولي حازماً، فقد قال فيما بعد «قمت بتمزيق الورقة وعاد الموكب أدراجه محبطا».

كان عزم كيبيون الأصلي هو الاستمرار في التنقيب لموسم قصير فقط، ولم يكن قد تم اكتشاف سوى عن مخطوطتين. وفي مايو، أعلن هوجارث الأنباء المدهشة عن تبرع شخص غير معروف وهو رجل أعمال ثرى يدعى وولتر مورسون بخمسة آلاف جنيه استرليني دعماً للتنقيب. أى أنه قد أصبح بالإمكان استمرار العمل دون توقف. ومن ثم، قرر لورانس ألا يعود لإنجلترا ذلك الصيف كما كان قد اعتزم، وأن يبقى في الموقع لمراقبة الألمان. وكان أحد الأسباب الهامة لتعبيره خطته هو أن داهوم، الذى كان لورانس يرغب في اصطحابه إلى أكسفورد، قد رفض الدعوة. وقرر لورانس تأجيل عودته لما بعد موسم الشتاء. ثم أوقف العمل في الموقع في يونية، وشعر لورانس بالارتياح وهو يودع وولي في الإسكندرونة، حيث كتب «إنني حر مرة أخرى، وهذا حال يتحدث عن نفسه وعن مزاياه». واسنراح لأيام قليلة في حلب، ثم عاد إلى جرابلس حيث تمتع بالاستقلال التام. وكان أول فعل له هو أن ينتقل داهوم إلى منزل البعثة بحجة مساعدة والدة الحاج

وحيد التى كانت تعمل بالمطبخ، إلا أن السبب الحقيقى كان رغبة لورانس فى تسلية وحدته. ومن ثم، شغل وقته بإعطاء دروس فى الحساب والجغرافيا، حيث تغلب دافع تحسين الآخر على إعجابه بالعربى «الخام». ثم اضطر للتوقف عن التدريس لإصابته بالملاريا، وما إن شفى، حتى أصيب داهوم، وانتقلت العدوى إلى زوجة الحاج وحيد ثم طفلها. أما الحاج فقد لزم الفراش فيما بعد لاضطراب أمعائه نتيجة ما تعاطاه من شراب وتولى لورانس الرعاية الطبية للجميع.

إلا أنه فى نهاية أغسطس أصيب لورانس بالملاريا مرتين متتاليتين فعدل عن قراره بالبقاء فى جرابلس طوال الصيف، وانتقل إلى جبيل على شاطئ المتوسط ومكث مع الآنسة هولمز فى مقر الإرسالية الأمريكية. حيث كان قد لقى ترحيبا فيما مضى. وفى هذه المرة، اصطحب داهوم كطاه وخادم خاص. وقد أخبر روبرت جريفز فيما بعد أنهما قضيا صيفا ممتعا حيث كانا يتخفيان كسائقى جمال، ويساعدان الفلاحين فى الحصاد، ويسبحان، ويتجولان المنطقة. وقد وصف هذه الفترة فى خطاباته بأنها أروع صيف قضاه. أما بشأن تخفيهما كسائقى جمال فأمر مشكوك فيه لأن لورانس، لم يكن يعرف رأس الجمل من مؤخرته، ولم تكن معرفة داهوم بأفضل منه. إلا أنه من المؤكد أن لورانس كان يتجول فى جبيل مرتديا الزى المحلى وأنه ذهب للفرجة على قصر ابن وردان الشهير فى وادى الـ Orontes، كما كان يسبح فى البحر مع داهوم كل يوم تقريبا. كان فى حالة نشوة. فقد كان حرا وحيدا سوى من رفقة الصبى الذى كان يهيم به. كان يأكل وينام جيدا ويقرأ فى مكتبة الإرسالية ويمارس لغته العربية. وكان طوال حياته قد أخفى مشاعره تجاه الآخرين، وكبت أحاسيسه وتباعد عن الأفراد. أما مع داهوم، الذى كان «متوحشا» لم يشب عن الطوق، تمكن من الانفتاح عليه بشكل لم يستطعه مع أى فرد فى مثل عمره أو جنسه أو مرتبته. كان لا يشعر بالتهديد معه بل بالتقارب، ولم تكن هناك حاجة فى الواقع لأن يمثل دور المهرج أو يمارس «غرائب أطواره». ولم يشعر مع داهوم أنه خارج مجاله مثلما كان يشعر مع الرجال التقليديين الأكثر ذكورة. كان يشعر بالارتياح المطلق معه لدرجة أنهما كانا يجلسان صامتين لساعات طويلة متمتعين بدفء أحدهما الآخر وفى غير حاجة حتى للحديث. كانت قوته التى مارسها على داهوم عميقة، ولابد أن الفتى قد بدا له «ساحرا» من أراضى بعيدة، أبا روحيا

سحريا من النوع الذى يبصره المرء فى الأساطير فقط . ولم تكن العلاقة علاقة ندين، وكان من غير المستطاع أبدا أن تكون كذلك . فقد كان الفرق الاجتماعي شاسعا . كانا كعبد من العصور الوسطى وسيده تقريبا، أو على الأقل هذا ما تخيله لورانس الذى كتب فيما بعد عن هذه السنة قائلا: «إلا أننا هنا نعيش نظاماً إقطاعيا يمنح السيد حقوقا كثيرة؛ ومن ثم فلبس لدى مشاكل معه» . فالصبى الذى كان لورانس قد امتدح قدرته على الكتابة والقراءة منذ عام، ظل فى نظره «متوحشا» وكانت أكثر صفاته المحببة إليه هى أمانته وقوته وقدرته على المصارعة «بشكل جميل أكثر من كثيرين ممن هم فى مثل عمره وحجمه» . وكان ما نال إعجاب لورانس أكثر من أى شىء آخر، هو «براءة» داهوم، وكان يعنى بهذا براءته عن حقائق العالم السياسية، وعن الهوة الثقافية والقوة الاقتصادية التى كانت تفصلهما . كان لورانس يحتقر العرب الأكثر تعليما لميلهم إلى مساءلة سلطة الأوربى، الأمر الذى لم يكن يفعله داهوم «لبراءته» وباختصار، فقد رأى لورانس داهوم صبيا جميلا يعتمد كلية على مقتضيات نبله، ولم يكن يبدو أن لورانس يمانع فى هذا . وكان داهوم فى هذا هو الموضوع الرومانسى الكامل لأفضل ما يمكن للورانس (وهو الساحر ذو القدرة المطلقة) أن يمنحه، أى الحرية، أو «المنزل النبيل ذو الأعمدة السبعة» . كان لورانس يهيم بالفتى الصغير وشعر أن باستطاعته تحريك الجبال من أجله، وأن يلهم فيضانا عظيما من الحركة . ولابد أن قصيدته التى أهداها إلى داهوم (سليم أحمد) التى يقول فيها «أحببتك . . . فاستطعت أن أجذب فيضا من الرجال بين يدى . . وكتبتُ إرادتى نجوما عبر السماء . » تحتل مكانها كأحد أكثر القصائد المؤثرة التى صيغت فى حب صبى .

وقد يكون حبه لداهوم هو ما دفعه لتبادل الملابس معه . فكان بارتدائه «الدشداشة» يشعر أنه بطريقة سحرية قد أصبح داهوم . . أصبح لوقت قصير «المتوحش» البرىء الجاهل الذى طالما حلم به، يعيش عالم ما قبل عصر النهضة والعقلانية . وقد قضى لورانس حياته، مدفوعاً بخوائه الداخلى، يتقمص خاصيات الآخرين فى بحثه عن ذوات بديلة . وقد اكتشف فى داهوم ذاته البديلة الأكثر فاعلية أى شخصية يمكنه أن يتلبسها أو يتركها حسب هواه . وبدأ هاجس صباه، أخيرا، أى الفانتازيا الموربسية العصر أوسطية تلتحم فى هذا السحر والبهجة

الساحقة لكونه «بارون فى نظام إقطاعى» و«أوربى فى الشرق»، فقد كتب أنه «لا أظن أن أى أحد تذوق الشرق مثله بقادر على التنازل عنه فى منتصف الطريق». وقد تسببت سعادته فى إغفاله الفضيحة الاجتماعية التى كان ينيرها خاصة فى ضمير الآنسة هولمز الإنجليزية التى كانت قد رحبت بلورانس كمسيحى ملتزم ينتمى لأسرة إنجليزية وتفاخرت أمامه بحماس عام ١٩٠٩ عن انتصارات بعثتها التبشيرية. فقد تحول ذلك الطالب الجامعى الخجول الذى قابلته عام ١٩٠٩ أمام ناظريها إلى رجل يشعر بأهميته، ويدين الدخل الأجنبى، ويستعرض رفيقه الجميل ويتجول فى البلد مرتديا الزى المحلى. ولم تعجب الآنسة هولمز، التى كانت قد تنازلت عن إجازتها فى المناطق الجبلية الأكثر برودة، بسلوكه الجديد، أو بصديقه اللافت للأنظار. وقد ادعى لورانس، فيما بعد، أنها لم تستطع فهم لهجة جرابلس التى كان يتحدث بها داهوم، والتى كان قد دعاها هو «كربهة»، والتى اكتست فم داهوم الذهبى، إيقاعات الإغريقية القديمة الموسيقية. ومن غير المحتمل أن الآنسة هولمز، التى كانت قد قضت وقتا طويلا فى الشرق الأدنى، لم تستطع التفاهم مع داهوم إن كانت قد رغبت فى هذا. كما أنه من الواضح أنها لم تجد فى داهوم تلك «المادة الممتازة» التى تفاخر بها لورانس أمام زميلتها رايدر. ولم ينزل لورانس فى الإرسالية مرة أخرى، كما أنه لم يتلق خطابات أخرى من الآنسة هولمز أبدا. وحينما ذهب إلى بيروت فى فبراير عام ١٩١٣، لم تكن جبيل ضمن برنامجه.

وقضى لورانس وداهوم ثلاثة أسابيع فى جبيل، ربما كانت قد امتدت لولا تلقيه برقية عاجلة من الحاج وحيد يخبره فيها عن مأزق فى كركميش. فقد قام الألمان، الذين كانوا قد أخبروا لورانس أنهم سيؤجلون العمل خلال شهر يونيه، ببناء امتداد لخط السكك الحديدية يصل إلى تل الخلفات، وكانوا يستعدون لسرقة الأحجار التى استخرجها وولى ولورانس بعد جهد. وقد احتج الحاج وحيد لدى كونتزن، كبير المهندسين الألمان، الذى كان لورانس قد وصفه بقوله إنه «قوة سيىء السلوك». وأخبر كبير المهندسين الحاج أن لديه تصريحا من وولى، بيد أن الحاج، الذى كان يعلم قيمة الأحجار، لم يتراجع وأجاب كونتزن أنه لا يستطيع السماح له باستمرار العمل دون أوامر أخرى. وإزاء سخرية كونتزن منه، أرسل

الحاج من فوره رجلا إلى بيره چك ببرقية للورانس في جبيل، ثم تسلق تلك المخلفات في الصباح حاملا مدفعا ومسدسا استعدادا للدفاع عن كركميش. وحينما وصلت قوة العمل المكونة من حوالى مائة رجل إلى الموقع ومعهم الفئوس والجارف، هددهم الحاج بإطلاق النار على رأس أول رجل يلمس حوائط التل. ولم تكن لدى العمال شجاعة لخوض المشاكل، ومن ثم انسحبوا وجلسوا في الظل إلى أن وصل كونتزن وبدأ في الصياح، وعند ذلك، هدده الحاج بإطلاق النيران عليه أيضا.

كان هذا هو الموقف لدى وصول لورانس إلى حلب حيث أرسل إلى الحاج برقية يخبره فيها أنه في طريق العودة. إلا أن الحاج أخبره أنه قرر قتل كونتزن، وأنه - استعدادا لذلك - أبعد زوجته وتجرع قارورة كاملة من الويسكي وشحن مدفعه بالقذائف. وتملك لورانس الانزعاج فبحث عن رئيس كونتزن في حلب (مدير السكك الحديدية) واندفع إليه أثناء حفل عشاء قائلا إنه إن لم يرسل برقية على الفور إلى كونتزن للامتناع عما اعتزمه، فسيُقتل المهندس. ووجد المدير في هذا مادة رائعة للتفكه بيد أنه سرعان ما غير رأيه حينما هدده لورانس بأنه سيوقع شهادة أمام القنصل البريطاني يقسم فيها أن المدير لم يفعل شيئا لتهدئة الموقف. ومن ثم، وضع المدير تروللي كهربائي تحت تصرف لورانس حيث وصل في اليوم التالي إلى كركميش ليجد أن كونتزن كان على وشك هدم حوائط التل المهيبة. ونجح لورانس، بمساعدة فؤاد بك الوزير المحلي للتعليم العام، أن يقنع كونتزن بالتراجع وإزالة قضبانه. وبناء على ذلك تلقى كونتزن تعنيفا علنيا، على حين امتُدح الحاج بحرارة. ولدى عودة وولي في آخر سبتمبر وجد المعسكر وقد عمه السلام.

واستؤنف العمل في الحال تقريبا. وشعروا بارتياح وكأنهم حصلوا على جائزة باكتشافهم إطار باب حيثي عليه نقوش في حالة ممتازة. وكان وولي قد طلب عربة سكك حديدية خفيفة من أوربا إلا أن وصولها تأخر، لذا تطلب العمل قوة قدرها مائتا رجل كان الإبقاء عليهم أمرا مرهقا لأن تركيا كانت تحارب في البلقان وكان الباب العالي يجند كل الذكور اللائقين جسمانيا. واستعمل الإنجليز حصانتهم الدبلوماسية لحماية عمالهم كما وفروا ملاذا للفارين من التجنيد في مقر البعثة.

وحظر وولى دخول الموقع من قبل رجال الشرطة والجنود. وكانت هذه الخطة فاعلة. فعلى حين تهالك معسكر السكك الحديدية لم يفقد فريق كركميش رجلا واحدا، وأدى هذا إلى زيادة قدر البريطانيين ومنحهم حماية ضد العصيان المحلى، إذ إن الأقليات من أمثال الأكراد والأرمن كانوا يستعدون لتسوية حساباتهم مع الأتراك مستغلين في هذا ظروف حرب البلقان. وفي خريف عام ١٩١٢ قام وولى ولورانس بزيارة بصراوى أغا زعيم إحدى الطوائف الكردية الذى كان يعتقد أن زعيمهم العظيم قد مات مسموما بواسطة رجال «جماعة الاتحاد والترقى CUP». وأعلن بصراوى أنه سيتخلص من الحكومة التركية كلية، وكان الإنجليز قد ساءهم ما علموه عن اعتزام تلك الطائفة القيام بأعمال نهب في حلب انتقاما لموت قائدهم الأعظم. ومع قدوم الشتاء، وردت أنباء هزائم الأتراك في بلغاريا وتقدم الجيش البلغارى باتجاه اسطنبول، الأمر الذى كان مبعث بهجة الأكراد والعرب. وكانت المفارقة هي أنه طالما بقى السلطان عبد الحميد الثانى في السلطة كخليفة، استمر هؤلاء الناس في ولائهم للباب العالى. إلا أن الولاءات القديمة تهاوت مع مقدم «جماعة الاتحاد والترقى» ومن غير المحتمل أن يكون قد فات لورانس أن الناس كانوا ينظرون للحسين بن على أمير مكة على أنه الزعيم الدينى. وإن كان الصوت الخافت الأول لبوق دعوة التمرد على الأتراك قد انطلق في أذن لورانس الداخلية في تلك اللحظة، فلابد وأن مخاوفه على سلامة الحفريات وسلامة مواطنيه في حلب قد أخمد مثل هذا الصوت. وكان قد سمع أن الأكراد قد أرسلوا عميلا هناك لتحديد أفضل المنازل للنهب المحتمل. وقد خامر وولى ولورانس الشك في أن أحد هذه الأماكن قد يكون القنصلية البريطانية.

وهكذا اختار لورانس تلك الأوقات المضطربة لتجرب مهارته في التخفى في زى محلى. ورغم أنه كان يتكلم العربية بطلاقة حينذاك، فقد عرف أنه لا يمكن أن يظن أحد أنه عربى نظرا للون بشرته وسوء إلمامه بقواعد اللغة. غير أن شعوبا غير عربية عدة ذات بشرة فاتحة ودون إلمام بالعربية الصحيحة كانت تقطن شمال سوريا. واعتقد لورانس أنه بالإمكان الظن أنه ينتمى لإحدى هذه الأقليات. فما قدر إجادته للعربية في تلك الفترة؟ كان لورانس، فيما بعد، يتظاهر بالتواضع المضلل بشأن إجادته للغة، حتى إنه أخبر روبرت جريفز أنه لم يكن يعرف كلمة

واحدة من العربية الفصحى التى تختلف اختلافا كبيراً عن اللهجات المحلية. ولم يكن هذا صحيحا إذ إن لورانس كان قد درس الفصحى مع فريدة عقل فى جبيل عام ١٩١١، وكتب، على الأقل، جزءا من خطاب إليها بهذه اللغة. وهناك خطاب واحد مازال موجودا وقعه لورانس وكان موجها لشريف مكة حسين، ورغم أن لغة هذا الخطاب مفهومة فهى خليط من اللهجات والأساليب. وقد تم تحقيق هذا الخطاب من جانب الدكتور باسل حاتم من كلية الترجمة العربية والتفسير بجامعة هاريوت وات بإدنبرة، الذى انتهى إلى أن من كتبه شخص لسانه غير عربى واستبعد أن يكون لورانس قد أملاه على أحد الكتبة. أما عن لغة لورانس العربية فكانت مزيجا من اللهجات أساسها السورية والحجازية إلا أن نطقه كان ضعيفا وقواعده «معامرة» كما اعترف هو بذلك، وكان يتحدث بلكنة إنجليزية واضحة. وقد علق ألبك كيركبرايد الذى تربى فى مصر وكانت يتحدث العربية كأهلها، وأصبح فيما بعد زميلا للورانس، فقال إن لكنة لورانس ونطقه فقط كانا يفضحانه كأجنبى. بيد أن لورانس قرر خوض المعامرة متخفياً ليرى ما إن كان الناس سيظنونه من أهل البلاد. وواته الفرصة قرب نهاية شهر نوفمبر حينما وصل قروى إلى موقع التنقيب ليبلغهم أنه قد تم اكتشاف تمثال لامرأة تركب أسدين بالقرب من خلفاتى شمال بيره چك. وأعتقد لورانس أن القطعة قد تكون حيثية، ومن ثم ارتدى الزى المحلى ورحل مع داهوم ليبحث الأمر. ووجدا الريف يغلى بالاضطرابات. فقد كان قد تم تجنيد الآلاف فى الجيش لدرجة أن قرى بأكملها قد أصبحت بلا سكان. وصدرت الأوامر من الرؤساء إلى رجال القبائل الكردية للالتحاق بالجيش الإمبراطورى ثم الفرار منه بمجرد تسلم الأسلحة. وكانت الشائعات قد سرت فى الإقليم بكامله عن عصابات النهب مما أدى إلى أن تنشط الشرطة التركية وتتوتر، وأصبحت فى حالة ترقب دائم. وبمجرد أن دخل لوراس وداهوم إلى خلفاتى تم القبض عليهما بواسطة دورية عسكرية شكت فى كونهما هاربين من التجنيد. ثم قذف بهما بأسلوب غاية فى القسوة أسفل زنزانة قذرة. وأصيب لورانس بكدمات بينما التوى كاحل داهوم التواء أليماً. وقد قيل فى إحدى الروايات عن هذا الحادث إن لورانس تلقى ضربا مبرحا لدرجة نقل معها إلى المستشفى. وأيا كان الأمر، فقد تمكن الاثنان من الهرب عن طريق الرشوة، وتجاهلا

الاكتشاف ، وسارا مسرعين باتجاه جرابلس وقادهما طريقهما إلى منطقة نزيب حيث وجدا الأكراد في حالة هياج وهم يهرولون بحثا عن أي مسيحي لقتله ولم يفد لورانس سوى تنكره . ثم اكتشفا أسباب ذلك السلوك الغريب لدى وصولهما إلى قرية نزيب ، إذ إنه قد حدث أن نهبت عصابة من الأكراد المسلحين المكان بقيادة رجل يدعى درعي وأطلقوا النيران على طبيب مسيحي أرمني فقتلوه حيث كانت جثته مازالت هناك يغطيها الذباب . ومن ثم ، اختبأ جميع المسيحيين المحليين في نزيب وغيره هناك .

ورغم كدماته ، ومعرفته أنه قد نجا من الموت بأعجوبة فقد شق لورانس طريقه إلى الموقع وهو يشعر ببعض الرضا . إذ إنه ، أولا ، قد نجح في التخفي وظنه الناس فلاحا محليا . وثانيا ، فقد اكتشف بعض المعلومات القصيرة عن الأكراد . وثالثا ، فقد حدث ما هو أكثر أهمية له من الناحية النفسية ، إذ إنه حصل من خلال المعاملة التي لقيها في خلفاتي على عناصر الفانتازيا التي ترضي مازوكيته . فقد كانت تخالجه منذ صباه أحلام ماروكية عن الجيش ، أحلام قام بتنفيذها وهو في السابعة عشرة حينما تطوع في حامية المدفعية الملكية . لذا ، فقد راقت فكرة كونه هاربا من الجيش لمخيلته ، إذا كانت تمثل مقاومة لسلطة ساحقة ، بالإضافة إلى أنها أمدته بتبرير للعقوبة التي تمتع بها . ولم يكن الضرب الواقعي الذي تلقاه من الأتراك هو مصدر المتعة ، بل كان المصدر هو المشهد الذي عاشه في مخيلته فيما بعد مضخما إياه مرة تلو الأخرى ، والذي أمده بمادة لمخيلته في السنوات التالية .

سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال بريطانيا وسوريا ١٩١٣

8

تم طرد البلغار بالقرب
من بوابات إسطنبول وتبخر الخطر
الذى كان يهدد حلب. إلا أن لورانس
كان قد تنسم أول نفحات للثورة،
ووجدها مسكرة، فقال فى أبريل
عام ١٩١٣ «أما عن تركيا.. فليسقط
الأتراك. فاحتفاؤهم يعنى فرصة
للعرب الذينكانوا قادرين على تسيير
الحكم يوماً ما».

ولدى توقف الحفريات مرة أخرى، نجح في إقناع داهوم بمرافقته إلى أكسفورد. وكان الصبى حُذر فما مصى بشأن السفر إلى بلد لا يعرف عنه شيئا. فقد سمع حكايات عن إنجليز يستدرجون العرب الأبرياء بعيدا عن أوطانهم ليصنعوا منهم لحوما معلبة. وقد كان حمودى رجل العصابات التائب ذو الخبرة الكبيرة يميل إلى تصديق مثل تلك الروايات. وعندما رأى لورانس أن داهوم لن يوافق على الذهاب بمفرده تقدم بنفس العرض إلى حمودى الذى كان قبوله له يعد قفزة إيمانية شجاعة.

وفى أكسفورد أقامت المجموعة فى كوخ بطرف حديقة المنزل رقم ٢ شارع بولستيد. وكان لُحسن داهوم وقع كبير بين معارف لورانس، خاصة تشارلز بل الذى كلف الرسام فرانسيس دود برسم لوحة له. واستمتع داهوم بكونه مركز الاهتمام. وحينما قاطع شقيق لورانس وبعض أصدقائه دود أثناء لحظة هامة فى رسم اللوحة نظر الصبى إليهم بضيق. وكان هذا هو تعبير الإثارة الذى كان الفنان يبحث عنه فالتقطه وأبرزه تاركا لورانس ليعبر عن نشوته بشأن «الإلهام المطلق»

المتحسد فى اللوحة. وعلى حين كان يتم إرسال حمودى أحياناً ليقيم مع وولى، مكث داهوم مع لورانس، وكان يساعد أحيانا فى إفراغ الأنتيكات التى وصلت من كركميش التى كان يكن لها صداقة وكان من مصادر راحته أن يعرف ما حدث لها بعد اختفائها.

ووقع داهوم وحمودى فى أسر سحر بريطانيا، بيد أن آراءهما عنها كانت عقلانية بشكل أحبط لورانس الذى علق على هذا بقوله «لسوء الحظ أنهما على درجة من الذكاء تحول دون إتيانهم بردود أفعال مضحكة». وجد داهوم بريطانيا بلدة «بدينة» يملؤها أناس بدناء ويسودها الخصب واللون الأخضر والمياه الوفيرة.. جنة شاسعة لا توجد فيها قرى بل مدن صغيرة آمنة مليئة بالسكان وذات مبانى مرتفعة. ووجد الطعام دسم ووفير وتجول فى لندن راكبا مترو الأنفاق، وتمتع بركوب الدراجة فى شارع وود ستوك مرتديا «دشداشته»، وحدث ذات مرة أن شوهد يقف فى مراحيض عامة يربت على البلاط الأبيض اللامع ويتمتم قائلا «قوالب طوب جميلة.. جميلة» اعتقد أن سوريا ما هى إلا لدغة برغوث مقارنة

بإنجلترا وأن عدد العرب قليل جدا بالنسبة للإنجليز لدرجة لا يمكن لهم معها أن يكون لهم دور في سياسة العالم أبدا. ووافقه لورانس على رأيه هذا، فقد كان جزءا من دافع لورانس لإحضار هذين الشخصين إلى بريطانيا هو أن يدركا حقيقة قوة بريطانيا ووجودها بالمقارنة مع فساد الأتراك وضعفهم. أما ما هدف له بالنسبة لقومه فكان إحداث الصدمة، كي يؤكد سمعته كرجل إنجليزي غريب الأطوار. كما أنه دأب على القول بأن داهوم من أصول حبشية رغم عدم صحة هذا على الإطلاق بيد أن هذه المقولة نجحت في أن يُبطر للصبي كقطعة أثرية حية ضمن مجموعة كركميش الأثرية المعروضة بالمتحف. ومن ثم توافد الناس من على بعد أميال كي يلتقطوا الصور لهذين العربيين بزيهما القومي، وكأنهما وحشان عربيان. وساهم وولي في سريان مؤامرة الفانتازيا الحيثية التي تقول بأن وجه داهوم يشبه بعض وجوه التماثيل الحيثية. ولو أتيح لداهوم فهم هذا الادعاء لوجده نوعا من السخافة. فقد كان فلاحا عربيا بحيا على ضفاف الفرات ولا يعنيه الحيثيين في شيء. وبالنسبة للورانس وزملائه كان داهوم نموذجا لـ «المتوحش النبيل» حتى إن إدوارد ليدز كتب يقول: «مازالت صورة داهوم تراود مخيلتي.. فقد كان على درجة من الأناقة والحسن لا يناسبه معها أي عمل يدوي.. كان ذا مظهر نبيل».

ولم يستطع أي من ليدز أو لورانس أن يدرك أنهما قد وقعا في فخ فكري بخلطهما «النبل» وهو صفة أخلاقية «بالحسن» وهو صفة جمالية. وقد عبر ويل شقيق لورانس بشكل لا واعي عن هذه الوضعانية الجمالية الشبيهة بتلك التي تطبق في عالم الحيوان؛ وكان قد قام بزيارة لنبد في سوريا في وقت متأخر من هذه السنة وكتب عن البدو قائلا: «إن حوجة يكفي كنمط.. غير أنني رأيت نماذج أخرى أفضل». بيد أنه كان لدى لورانس حساسية من أن توجه إليه تهمة أنه يقوم «بعرض قرود»، لذا حاول المحافظة على كرامة أصدقائه العرب برفضه منحهم نقودا مقابل التقاط صور لهم. إلا أن حمودي لم يرق له هذا، فلم يعتقد أن كرامته ستؤذى بالتقاط الصور له، كما أن عادة تكريم الضيف بتقديم الهدايا له كان أمرا شائعا بالنسبة له. واعتقد ليدز أن العرب «طفوليون» وكان من مصادر تسليته أن سمع أنه حينما سُئل حمودي عما يريد أن يأخذه معه إلى بلده أجاب بأنه يريد

صنبور ماء معتقدا أنه سيكفل له الإمداد الدائم بالماء، وأيضاً أراد أن يأخذ معه لافتة «ابتعد عن العشب» التي ظنها تحمل قوة سحرية لمنع الناس من السير في الأماكن غير المرغوب فيها. بيد أنه كانت ثمة لحظة مقلقة عكرت صفو إقامتهما حينما التقيا بمصرى يدعى عبد الغفار كان صديقا لويل ويدرس بكلية سانت جون، فقد ادعى أنه أخبرهما «أننا سنقطع رقاب هؤلاء الكلاب قريبا»، وكان يعني الإنجليز. وحينذاك اندفع الرجلان عائدين إلى شارع بولستيد وطلبا بندقية لإطلاق النيران عليه. وأقلق هذا الحادث لورانس الذي كان قد أمر بإبعادهما عن أي عربي آخر؛ فقد كان يحتقر المتعلمين من العرب، ويكره المصريين، فمن كان هناك أسوأ من مصري متعلم؟ بيد أنه كان للقصة رنين مرضي بالنسبة له، إذ برهنت ولاء العربي «النبيل» المطرى للأوربي بالتقابل مع العربي الذي أفسده التعليم. كان لورانس يريد الحرية للعرب، بيد أنه بالنسبة للمصريين، فقد كانت الحرية لا تعني التحرر من تركيا بل من الإنجليز الذين كانوا قد ضموا بلادهم عام ١٨٨٢ .

وحينما عاد العربيان في أغسطس إلى جرابلس مضيا يتفاخران بين العمال الآخرين بتجاربهما بشكل مثير للاشمئزاز، الأمر الذي تسبب في مضايقة ملاحظ العمال القبرصي وذلك لطبيعته الغيورة. ومن جهته فقد زاد شعور لورانس بالتملك إزاء داهوم عن ذي قبل. وحينما زاره في وقت متأخر من تلك السنة ضابط جيش شاب يدعى هيوبرت يونج وكان يتحدث العربية وحارب فيما بعد إلى جانب لورانس أثناء الثورة العربية، جلس الاثنان لنحت ميزابين لسطح المنزل على شكل مخلوقات غريبة. فنحت هيوبرت واحداً في هيئة امرأة بينما صنع لورانس نموذجاً عاريا لداهوم. وحينما رأى وولي التمثال على السطح أصيب بصدمة إذ اعتبره إعلانا واضحا عن طبيعة لورانس المثلية وقال إن هذا كان رد فعل العرب الذين اعتبروا الفكرة فاضحة. ورغم أنه كان يسره القول فيما بعد أن ممارسة المثلية أمر عادى مقبول لدى العرب، فهذا بعيد عن الحقيقة ونتاج تفكيره ورغبته. وفي الواقع، فقد كان الشرق في موروث الاستشراق الأوربي مزبلة للنفايات الثقافية للصفات التي يحتقرها الغرب، وكان نمط العرب الشهواني يكوّن جزءاً من هذا التراث. أما في واقع الأمر، فلم تكن المثلية الجنسية أبداً موضع تقبل من العرب أو زهوهم، وهي إن مورست فإن ذلك يتم خلف الأبواب المغلقة. ورغم أن الاحتمال

الأقوى هو أن علاقة لورانس بداهوم كانت علاقة أفلاطونية ، فإن التمثال العارى كان يعلن عن غير ذلك . ومن ثم فقد لورانس كثيرا من السمعة الطيبة التى اكتسبها بهذا الفعل اللاإرادى المتهور .

كان لورانس يرى أن شمال سوريا هى «البلدة العربية التى يمتلكها» . وامتد توجهه التملكى هذا ليشمل جميع «رجاله» حتى إنه كتب باستظراف يقول إنه يود أن يصبح شيخ جرابلس . وحينما زاره شقيقه ويل فى أكتوبر عام ١٩١٣ وجد أن أخاه يعامل كما لو كان «لوردا» . فقال «إن نيد معروف لدى الجميع وإن حماسهم له أمر يبعث على التعجب» . وكان لديه أصدقاء فى حلب من العرب والأكراد والأرمن والشراكسة واليونانيين . وكان التزامه بما يفرضه «النبل» يسترعى الانتباه لدرجة اعتقد أنه الطبيب المحلى الذى يعالج كل الإصابات اليومية ويقوم بتمريض أصدقائه ، ويرسل القرويين المرضى إلى المستشفيات فى حلب ، ويحاول اتخاذ التدابير لتطعيم قرى بأكملها ضد الكوليرا حينما انتشر الوباء فى حلب عام ١٩١٢ . كما اعتبر نفسه عمدة محليا غير رسمى ، وشعر بالزهو الشديد حينما التجأ إليه ثمانية عشر من رؤساء الأكراد ليجرى المصالحة بين الفصائل المتناحرة والتى كانت الخلافات بينها قد استمرت أربعين عاما فكتب :
« . . . التقوا على أرض محايدة فى منزلنا . . . وتعلقوا بأعناق أحدهم الآخر مقبلين . .
ومنذ هذا الوقت ساد السلام شمال ما بين النهرين بشكل لم يحدث منذ أجيال» .
وكان يتولى الدفاع عن مصالح شعبه حتى إنه هدد أحد المهندسين الألمان بالجلد بعد أن تسبب فى ضرب داهوم . وكان مما قاله أيضا ، إنه عند استئناف الحفريات فى كركميش عام ١٩١٢ ، التحق عمال المعسكر الألمانى بالمعسكر الإنجليزى رغم أن شركة السكك الحديدية كانت تدفع أجوراً أعلى وقد اعتبر هذا مجاملة خاصة ، إلا أنه كان فى الواقع انتصارا للأبوية الخبرة ، فقد كان المراقبون الشراكسة الأفظاظ فى المعسكر الألمانى يضربون العمال إن هم أساءوا التصرف ، ولم يكن يسمح لهم بالتحدث إلى ملاحظيهم أو الحصول على بقشيش .

ورغم أن السجلات توضح أنه كانت ثمة خلافات بين العمال فمن المحتمل أن الجو فى المعسكر البريطانى كان أكثر بهجة . بيد أن علاقة لورانس بالعرب كانت

في جوهرها إحدى الميزات. فقد كان يتمتع بالقوة الناجمة عن كونه أوربياً في الشرق. كما أتاحت له تحركاته سيرا على الأقدام، مرتدياً أحيانا الزى العربي، أن يعلم الكثير عن تطلعات القوم العاديين أو أن «يدرس الجماهير» كما كان يقول. كما منحته حساسيته المفرطة المقدرة على أن يرى العالم من خلال أعينهم أكثر من غالبية الأوربيين. بيد أن ولاءه في النهاية كان للنخبة الحاكمة كما توضح ملاحظته عن «النظام الإقطاعي». وكان لورانس يدعى أنه يجد صعوبة في التعامل مع الناس ويحب أن يصور نفسه كمتفف غريب الأطوار تشغل عقله الأفكار والأشياء العربية. وفي الواقع، فقد اكتسب من عمله في كركميش مهارة فائقة في التعامل مع الرجال.

ويظهر التعبير الكامل عن نظرة لورانس الرومانسية لبلاد العرب والعرب في هذه المرحلة في المقال الذى كتبه عام ١٩١٢ ونشره في مجلة إيزيس (التى تصدر في أكسفورد) تحت عنوان «قصر ابن وردان» وكان قد زاره ذلك الصيف بصحبة داهوم. وكان القصر قد بناه الإمبراطور الروماني جوستينيان في القرن السادس. وقد قيل إنه كان قد تم عجن عطر الزهور مع الطين المستخدم في البناء بأسلوب تكتسب به كل غرفة عبقا مختلفاً. وتم اقتياد لورانس بين الأطلال حيث كان داهوم يتنشق الهواء ويقول «هذه رائحة ياسمين، وهذه بنفسج وتلك ورد». ثم قاده إلى نافذة مفتوحة وطلب منه استنشاق «أطيب عطر على الإطلاق.. أو ريح الصحراء الخالية المنسابة دون جهد التي لاطعم لها». وكتب لورانس أن عربه يولون العطور والرفاهية ظهورهم ويتخيرون الأشياء التى لا يد للإنسان فيها. أى أن لورانس يوضح هنا أن العرب ينظرون للمدنية المادية كمجرد معوق للهدف الحقيقى للحياة. وكانت هذه نقطة فلسفية وجدت صدى طيباً في أكسفورد ما قبل الحرب. إلا أنه من غير المحتمل أن داهوم كانت لديه المقدرة على فهم رومانسية لورانس التى كتبها من برج الرفاهية التى كان يحياها، أو أنه قد قال فعلاً الكلمات التى استنطقه بها لورانس، فلم يعتد فلاحو الفرات الذين كانوا يكافحون من أجل البقاء السعنى بالرياح التى كانت عدوا لهم أكثر منها صديقا. ومن غير المحتمل أيضا أن يدير داهوم، الذى كان يرغب بشدة في تعلم القراءة والكتابة كي يحصل على وظيفة أفضل، ظهره للرفاهيات إن هى تيسرت له. بيد أنها كانت غير

ميسرة، إذ حظر لورانس وولي على رجالهم استعمال المنتجات الغربية، وكانوا يعيدونهم إلى منازلهم إن أتوا إلى العمل مرتدين أحذية. لقد أراد العرب الرفاهيات التي كان الإنجليز يتمتعون بها: أما الإنجليز فكانوا على استعداد لإجبارهم على البقاء على ما هم عليه، كي يبقوا على الرؤية الرومانسية التي كانت محل إعجابهم. وتهدف قصة ابن وردان إلى التعبير عن ميول العرب الروحانية، وهذه نظرة عربية استشراقية خاصة مازالت سارية.

ولا يوحي هذا بعدم وجود بعض الأفراد العرب الذين كانوا يكنون الإعجاب الفائق بلورانس؛ فبعد عدة سنوات قال حمودي إن لورانس كان يتفوق على الرجال العرب منذ البداية في الركوب والصيد والسير، وأنه كان يمتلك هدفا ووضوحا عقليا. «فبينما كنا نلف وندور بعيدا عما نريده، كان هو يبتسم ويوضح لنا ما نبغيه». ومن الواضح أيضا أن داهوم أخبر فريدة عقل عام ١٩١٢ أنه لم يكن ثمة ما يفعله العرب ويستعصي على لورانس بل إنه كان يتفوق عليهم: «إننا نحترم ونعجب بشجاعته جدا إننا نحبه كما يحبنا بل إننا على استعداد لفدائه بأرواحنا». كانت سنوات لورانس في كركمبش أسعد سني حياته. وبحلول عام ١٩١٣ كان قد تخلى عن فكرة ممارسة الطباعة مع فيفيان ريتشاردز. وطبقا لريتشاردز كانت كركمبش «مثل مكان يتعاطى فيه ما يغيبه عن الوجود كل يوم، أو أنها كانت مثل رياضة عظيمة لها نتائج ملموسة في النهاية». بيد أنه سرعان ما انتهى هذا الوجود الرعوي، حيث اصطدمت موجة تاريخ مهولة بالعالم وغسلت معها البراءة كلها.

الفصل التاسع

أجبرنى رجال التأمين على البقاء فى مكانى

سيناء وسوريا وبريطانيا ١٩١٤

9

في نهاية ديسمبر
عام ١٩١٣ تلقى وولى برقية
من السير فريدريك كينيون من
المتحف البريطانى
يطلب منه هو ولورانس أن يلحقا
بمسئول فى هيئة المهندسين الملكية
لعمل مسح للنقب شمال سيناء تحت
رعاية «صندوق
فلسطين للتنقيب» .

كان الهدف هو الوصول إلى أثر طريق قديم للقوافل من فلسطين إلى مصر، والتعرف على بعض الوقائع المرتبطة بالأربعين عاما التى قضاها بنو إسرائيل متجولين هناك. أما السبب الحقيقى فكان عسكريا؛ مهمة جاسوسية داخل الأراضى العثمانية. ورغم أن تركيا كانت حليفا لإنجلترا، إلا أن اللورد كتشنر،، المندوب البريطانى فى مصر، تشكك أن العثمانيين سينضمون إلى ألمانيا فى حالة دخولها الحرب مع إنجلترا. وكانت سيناء تحمى الشريان التاجى للإمبراطورية البريطانية، أى قناة السويس، كما أن فلسطين تقع على حدود سيناء. واعتقد كتشنر أن القيام بمسح دقيق للمنطقة أمر حيوى لمستقبل قناة السويس.

التقت المجموعة بقائد البعثة كابتن ستيوارت نيوكومب فى بئر سبع. ودهل نيوكومب أن وجدهم على هذه الدرجة من حداثة السن. فقد كان ذكر المتحف البريطانى يستدعى رؤى رجال مسنين ذوى لحى بيضاء عششت فيها العناكب، يأتون وبرفقتهم الأطنان من الأثاث ومتاع السفر. لكن لم يكن مع وولى ولورانس

سوى القليل من الأمتعة، وبدت أعمارهم تتراوح بين الرابعة والعشرين والثامنة عشر. وتحقق بوكومب أن خطاباته إلى لورانس و وولي كانت تحمل عبارات الاحترام المبالغ فيه، فقرر العدول عن هذا على الفور. ومن ثم، بعث بهم إلى الصحراء بتعليمات أن يلتقوا في القصيمة على الحدود المصرية في غضون أيام. وحينما لم يظهرا هناك في الموعد المحدد انتاب بوكومب القلق وأرسل فريقاً من الهجانة المصرية للبحث عنهما وعاد الفريق دون أن يجد أثراً لهما. وتبع هذا مكالمات هاتفية محمومة عبر الحدود، وتم تنبيه دورية حرس حدود في الجانب العثماني. وثارت الشكوك حول أسر البدو لهما ومن ثم تم القبض على أربعين رهينة. وبعد يوم وصل وولي ولورانس وداهوم إلى القصيمة وأقدامهم مقروحة، إلا أنهم دهشوا لاكتشافهم أن الهجانة كانت تقتفي أثرهم وأوضح لورانس أن الجنون أصاب الإبل فقفزت أثناء الليل. ولذا، فقد ساروا إلى قادش بارنيا Qadesh Barea على أمل وجود إبل هناك، إلا أنهم، بدون قصد منهم، اتبعوا طريقاً جبلياً لا تسير به الإبل، ولذا لم تعثر عليهم الهجانة. وكتب لورانس ملاحظته عن هذا، «يوضح

هذا كيف يمكن تحدى الحكومة بسهولة فى بلد مهجور كهذا» وكان هذا درسا لن ينساه. ومكثوا أياما قليلة فى قادش باربا التى (كانت عاصمة بنى إسرائيل فى سنوات التيه !!!) ثم رحل وولى إلى البحر الميت ولورانس إلى العقبة حيث كان مقررا أن يلتقى بنوكومب. ووصل إلى رأس المنفذ بعد أيام خمسة ورأى خليج العقبة للمرة الأولى.

يقع هذا المنفذ الآن على الحدود الإسرائيلية المصرية. ولكى يصل إليه المرء، عليه تسلق مرتفع وعر من إيلات. وحينما كنت أمر عبر إيلات فى طريق عودتى إلى مصر قررت أن أقضى يوما هناك أتفحص فيه طريق الحجاج القديم الذى أبصره لورانس لأول مرة من وادى الرفث. واستأجرت دراجة جبلية إلا أنه تبين لى أن التسلق هنا كان أكثر صعوبة منه فى صفد بسبب الانحدار الشديد. كان اليوم قائظا ولم أكن قد أحضرت معى مياه لتأكدى من وجود أكشاك مشروبات فى الطريق. قادنى الطريق من مناطق إيلات السكنية فجأة إلى صحراء جرانتية جرداء ورءوس جبلية حادة كالسيوف وسوبفات (جمع مصعر ساق) أشجار منكسرة، وأظلاف حيوانات. ثم توقفت على منحنى وأنفاسى تتلاحق كى أبصر مشهد خليج العقبة المذهل ووادى عربة العظيم حيث يرتفع الصدع الإفريقى من البحر الأحمر بجدرانه الشاسعة من الحجر الجيرى ذى اللون الأبيض المائل للاصفرار، والصخور الجرانيتية الخضراء، والخليج ذا الشكل الهلالى المكتمل الذى تنمو عليه مجاميع شجيرات النخيل، وحافة مدينة العقبة وكأنها من البورسلين الزجاجى. ثم واصلت قيادة الدراجة وأنا أتصبب عرقا، وأخذ القيظ يشتد ويجف فمى أكثر وأكثر. لم يكن هناك أناس أو مساكن أو سيارات. كانت ثمة أشجار قليلة وندرة من النباتات، مجرد حجارة صوان عارية تكاد تشتعل. وأخيرا وصلت إلى لافتة تشير إلى صدع وقد كتب عليها «عين نبتافيم Netafim». ولفظ عين يدل على ماء من نوع ما. ومن ثم، انحرفت عن الطريق، وقدت الدراجة وهى تتقافز فى مسار حجرى لأتوقف فجأة وأتجنب سقوطى من على منحدر فى واد عمقه ٥٠٠ قدم. وبدا أن العين كانت تقع أسفل نتوء صخرى، وكان على أن أتسلق أسفل صدع صخرة خطر كى أصل إليها. ورغم أن الإرهاق الشديد قد تملكنى من قيادة الدراجة، إلا أن العطش كان يحرق حلقى، وأدركت أنه كان على الوصول هناك

بأى ثمن. كانت الصخرة مزلقة وضيقة، واستعملت يدىّ للتسلق هابطا. وفى بعض المواضع، كان الصخر مصقولا كالزجاج من مرور الناس عليه على مر السنين. كانت تسد بطن الوادى كِسارات الصخرالتى تراكمت عبر السنين. ولم يكن النبع يتعدى قناة ضحلة مبتلة حيث كانت جنبات الصخر تلامس بطن الوادى. وكأن شخصا ما قد قام بعمل حوض صغير تتجمع فيه المياه ملأته الطحالب ويرقات البعوض. وانحنيت وحملت الماء إلى فمى فى كفى بيرقاته وطحالبه. ولم تكن أفضل مياه تذوقتها، فلم أعرف لها طعما، إلا أننى كنت عطشان بدرجة لا تصدق. ثم تهالكت فى ظل صخرة وأنا أستمع إلى أغاريدالطيور العالية وصفيرها. وتحققت حينذاك أن تلك كانت المياه الوحيدة فى المنطقة كلها. وشعرت أنه يحق لى أن أضرب نفسى لإغفالى إحضار ماء معى إلى الصحراء وكانت مشقة الحصول عليها درسا أستحقه. ثم تسلقت عائدا وسحبت دراجتى إلى الطريق. كان ثمة مسار مغطى بكسارة الحجارة على بعد مسافة قليلة ولافتة تقول «توقف: هذه نقطة الحدود». وهنا حامرتنى فكرة أننى كنت أسير فى أحد أقدم الطرق فى التاريخ، فقد سلكه ملوك الهكسوس الرعاة فى عرباتهم الحربية لغزو مصر منذ أربعة آلاف عام. وأتى قمبيز الثالث ملك الفرس هنا على رأس جيشه عام ٥٢٥ ق. م، وأدخل معه الجمال إلى شمال إفريقيا. أما الطريق الحالى فقد حفره ورصفه السلطان سليم الرهيب العثمانى الذى حطم قوة المماليك فى الشرق الأوسط، كى ينقل مدافعه أثناء غزوه مصر عام ١٥١٧. وطوال قرون كان الحجاج المسلمون يستخدمون هذا الطريق للوصول إلى مكة والمدينة. وفى عام ١٩١٤ أتى تى. إى. لورانس واستغرق الأمر منه ساعات ثلاث للوصول من الهضبة إلى الساحل.

أما الآن فيوجد ماكدونالدز إيلات بين إشارات المرور فى نفس النقطة تقريبا التى كان يتلامس فيها طريق الحجاج مع الشاطئ. بيد أنه لم تكن توجد مدينة تدعى إيلات أو أمة تدعى إسرائيل عام ١٩١٤. وبدلا من الفنادق الفخمة وأماكن بيع الأيس كريم والملاهى والفتيات المستلقيات على الشاطئ فى لباس البحر، وجد لورانس شجيرات ورمالا وبعض نخيل الدوم وأكواخ الصيادين المبنية من البوص. ولكننى أن نيوكومب كان ينتظر مساء فى العقبة على بعد ميلين. فقد حظر

الحاكم المحلى عمل أيه حرائط . وعلى حين أن لورانس رأى تجاهل أمر الحاكم، فإن نيوكومب ركب لمسافة عشرين ميلا فى اليوم التالى لنلقى مكالمة هاتفية من كتشنر شخصيا حذره فيها ضد التصرف المندفع . وعلى الفور، استوعب لورانس الخطر . فقد كانت العقبة هى الميناء التركى الوحيد على رأس البحر الأحمر وكانت ذات أهمية حيوية لأية عمليات حربية قد تحدث فى الداخل فى المستقبل وسرعان ما فكر بأسلوب الهجوم / الدفاع . فبالإمكان الاستيلاء على العقبة من البحر بالطبع، إلا أنه رأى أنه سيكون بإمكان أية قوات هناك التراجع لأميال قليلة فقط إلى الجبال التى تحيط المكان من الجانبين فى الميناء . ومن ثم، فلابد لجيش الأعداء الذى يحاول التقدم أن يتثبت فى مكانه عبر قادر على الحركة . وكان الطريق الرئيسى للعقبة هو وادى إتم Ithm، وهو صدع هائل من الجوانب يفتح شرقى الميناء، وقد كان شديد الضيق وتسده جلاميد الصخور فى بعض الأماكن لدرجة عدم تمكن الإبل من المرور إلا فى صف مفرد . وفكر لورانس أن من يسيطر على وادى إتم يمسك بيده مفتاح الموقف .

ونظرا لأن مسح المكان الخرائطى كان ممنوعا، فقد قضى لورانس وقته يتفحص أطلال قلعة إيلا Ayla القديمة حيث التقط بعض الكسارات الفخارية . ثم حاول استئجار قارب يحمله إلى جزيرة فرعون على بعد عشرة أميال جنوب العقبة حيث توجد قلعة من العصور الوسطى، إلا أن الشرطة ألقت القبض على المراكبى، وحينما حاول لورانس وداهوم أن يبحرا بالقارب استوقفتهما الشرطة . بيد أن هذا لم يثبطه، فاستعار من نيوكومب بعض قرب المياه وسار بحماله حول الشاطئ إلى طابا حيث كانت الجزيرة على بعد أربعمائة ياردة من هناك . ثم قام بنفخ القرب واستعمل لوحا من الخشب كمجداف وسحب القربة التى ركبها داهوم خلفه . إلا أنه وجد أن الأطلال لم تكن تستحق هذا الجهد . ولدى عودته، أُجبر على مغادرة المكان تحت حراسة عسكرية .

وقرر لورانس السير شمالا إلى وادى عربة، ومنه إلى البتراء مدينة النبطيين القديمة المحفورة فى الصخر الأصم، وكان لورانس يريد الوصول إليها منذ أول رحلة له إلى سوريا عام ١٩٠٩ . ورغم ان التصوير كان ممنوعا وأنه كان تحت الحراسة المشددة، إلا أنه تمكن من التقاط بضع صور خفية بعد أن تظاهر بأنه يعانى من

الدوسنتاريا. ثم أرسل جماله الاثني عشر ورجاله الخمسة إلى وادي موسى في مدخل البتراء، وسار هو وداهوم خلسة وتمكنا من تضليل الحراس في متاهات الوديان حول جبل حور ثم اكتشفا طريقا بين التلال كانت تستعمله جماعات البدو الغازية المتجهة إلى سيناء. ووجد لورانس في البتراء نفسها وليمة ممتعة له ولم يكن مستعدا لأثر المكان الساحق. ولا يعزى شعوره بالرهبة إلى المعابد والمقابر المحفورة في الصخر، بل إلى الجمال الطبيعي للمكان بألوانه الرخامية الحمراء والسوداء، وصخوره المهيبة وقممه الشامخة، وذلك الممر الضيق «الشق» الذي يبدو أنه كهف كبير تحت سطح البحر تغطيه زهور الدفلي واللبلاب والسرخس. وشعر لأول مرة بعجزه عن الوصف فكتب لإدوارد ليدز قائلا: «لتتأكد أنه لن تخطر في خيالك ولو ومضة من جمال هذا المكان إلى أن تراه». ورغم أن آلاف الزوار الذين يتوافدون على المدينة الصخرية اليوم كانوا لم يفسدوها بعد، فقد كان هناك معسكر للسائحين يديره توماس كوك، وكان ثمة وفود قليلة تأتي للفرجة. وقد تمكن لورانس من أن يستجدي من الليدي إيفلين كوبولد، وكانت في زيارة للمكان، ثمن تذكرة قطار من معان إلى دمشق، وقرر في نفس الوقت، منطلقا من أسلوبه المترفع، أن يطلب من والدته أن تبحث عمن هي هذه السيدة في موسوعة الأفراد.

كانت معان على مسافة قصيرة من تلال البلقاء، وأرسل لورانس بقافلة أمتعته في المقدمة كالعادة. وصادفه أن الشرطة استوقفت جماله لأنها كانت ترعى في مرعى عام وقررت عدم الإفراج عنها إلا بعد دفع الغرامة. وكان لورانس قد تعلم من وولي رد الفعل المناسب لمثل هذه المشاكل. ومن ثم، التقط بعض من بنادق الشرطة وسار مسرعا في اتجاه مكتب الحاكم المحلي وهو يحمل الأسلحة تحت ذراعيه. وتبعه رجال الشرطة وقد منعهم الخوف من استرداد الأسلحة. ثم واجه الحاكم وطالبه بإلغاء الغرامة مقابل إعادة الأسلحة. ورغم ثورة الحاكم فقد وافق على غير إرادته. وحينما أمر رجاله أن يطلقوا سراح الجمال أجابه لورانس بصلافة «أرجوك لا تتعب نفسك. لقد غادرت الجمال المدينة منذ ساعة ونصف». ثم انتظر القطار في معان يومين ونصف متذمرا من عدم كفاءة مهندسي السكك الحديدية الأتراك. وأخيرا سافر بالدرجة الثالثة إلى دمشق، ولم يكن له أن يرى معان مرة

أخرى لمدة سنوات ثلاث ، وكان ذلك عن بعد حينما كان راكبا فى طريق العقبة على رأس الجيش الهاشمي .

سر لورانس بعودته إلى كركميش ، وكان قد عاف الصحراء ومن ثم تطلع مشتاقا إلى عمله الروتينى فى الحفريات وتمنى لو استمر لسنوات . وأخيرا ، وجد هذا الشاب الذى كان يمنى نفسه بأن يقضى حياته فنانا هاويا ، وجد نفسه وقد أصبح خبيرا محترفا . وكان قد اعترف لفيفيان ريتشاردز فى خطاب أرسله إليه الصيف السابق أن فكرة استقراره فى موطنه قد تلاشت منذ أن عرف الشرق « ... انزلقت تدريجيا حتى وجدت نفسى ، منذ أشهر ، وقد أصبحت أركيولوجيا عاديا . لقد قاومت بعنف وأنا فى أكسفورد حتى لا أنتمى لنمط محدد ، إلا أن رجال التأمين قد أجبرونى الآن على البقاء فى مكانى » . بيد أنه لم يكن للعمل أن يبدأ حتى نهاية مارس لأن كينيون كان قد غفل عن تجديد التصريح ، وفى اليوم الذى وصل فيه وولى ولورانس بالتصريح كانت هناك معركة فى معسكر السكك الحديدية .

بدأت المعركة حينما اكتشف أحد العمال الأكراد ويدعى على أن أجره عن عمله الشاق طوال شهر كامل كان خمسة قروش فقط . وكان أجر العامل اليومى فى الشركة الألمانية ثمانية قروش ، إلا أن الصراف كان يخصم ثمن الخبز الذى كان يصل من الفرات دون مقابل ولا يراه العمال . واحتج على قائلا إنه يستحق أكثر من خمسة قروش عن عمله إلا أن الصراف لم ينصت لهم فقذف الكردى بالنقود فى وجهه . وهنا قام خادم الصراف الشركسى بضرب على وطرحه أرضا ، إلا أن عليّا نهض حاملا حجرا فحاول الخادم إطلاق النار عليه الأمر الذى دفع الأكراد الآخرين ، وكان عددهم مائة وخمسين ، إلى أن يثوروا ويقذفوا بالحجارة على مكتب المهندسين الألمان فحطموا النوافذ . وحينذاك ، التقط الألمان بنادقهم وأطلقوا النيران على الجميع فأصيب ستة عمال من العرب الأبرياء الذين كانوا منهمكين فى أعمالهم على بعد ثلاثين ياردة . وهنا ألقى العرب معداتهم جانبا وأخرجوا مسدساتهم وأطلقوا النيران على العدو المشترك فعمد المهندسون المحاصرون إلى مهاتفة معسكرهم وسرعان ما اندفعت كتيبة مكونة من ثلاثين جنديا شركسيا

وتركيا وبعض زملائهم من المهندسين عبر القنطرة وبدأوا في إطلاق النيران من مسافة قريبة. وعندما خرج لورانس وولي من منزلهما ليريا ما حدث تعرضا لقذف النيران ولمح لورانس شركسيا يدعى أحمد زكريا يخطو على بعد حوالي ستين ياردة وبصوب إلى وولي. إلا أن الرجل لم يحسن التصويب وارتدت القذيفة حول قدميه. ومن ثم، اندفع لورانس إلى مكتب المهندسين ليخبر الألمان أنه لا يجوز إطلاق النيران عليه هو ووولي. وحينما وصل لورانس إلى التل أدهشه أن يرى أن حوالي ثلاثمائة كردي وعربي قد تسلقوه من الخلف واستعدوا لهجوم انتحاري على الكتيبة. كان من بحوزتهم مسدسات مشغولين بتعبئتها، أما الآخرون فقد أخذوا في التقاط العتلات والعصي. وحاول لورانس الدفع بهم إلى الخلف حتى إنه ألقى ببعضهم أرضا إلا أن أحمد زكريا بدأ في إطلاق النيران مرة أخرى، ورغم أنه لم يصب لورانس إلا أنه أصاب صبيا كرديا كان يتحدث إليه الأمر الذي فجر ثورة الأكراد المحمومة ولم يتمكن الإنجليز من منعهم من إطلاق النيران إلا بشق الأنفس. ومرت اللحظات الحرجة، ونجح وولي ولورانس أخيراً في إقناع الرجال أن يحملوا جرحاهم إلى منزل البعثة ثم تفرق الجمهور في القرية بعد حوالي ساعة. وكانت النتيجة هي قتل أحد الأكراد وإصابة حوالي عشرين برصاص الألمان.

وفي اليوم التالي، حينما وصل القنصل البريطاني والألماني برفقة كتيبة مكونة من ٢٥٠ جنديا عثمانيا كان المعسكر يسوده الهدوء. وطلبت شركة السكك الحديدية من وولي ولورانس أن يتفاوضا نيابة عنها للوصول إلى اتفاقية سلام وذلك عن طريق صديقهم الكردي بصراوي أغا. واقترح لورانس دفع ٨٠ جنيها استرلينيا دية عن الرجل المتوفى و ٤٠ جنيها تعويضا لباقي المصابين. كما أوصى أيضا بفصل الشراكسة واستبدال الصراف وأحد المهندسين وتعيين ١٢ كردياً مراقبين بأجر يومي. وقوبلت تلك المقترحات بارتياح من الطرفين وسافر بصراوي أغا في حماية القنصل البريطاني راف فونتانا إلى حلب لتوقيع الاتفاقية هناك. بيد أن وولي ولورانس لم ينسيا أحمد زكريا الشركسي الذي حاول متعمدا إطلاق النيران عليهما، ومن ثم أصدرت السلطات العثمانية تعليماتها بالقبض عليه غير أنه فر إلى الجبال ولم يعثر عليه أبدا. وبعد أسابيع أوقف العمل بالحفريات. وكان وولي ولورانس قد أعدا جزءا من تقريرهما عن مسح النقب The Wilderness of

Zin. ولما كان الأمر يتطلب بحثا جوهريا عن خلفية أعمال الاستكشاف الذى لم يكن من الممكن إعداده إلا من خلال المكتبات فى بريطانيا، فقد قرر لورانس العودة إلى أكسفورد بدلا من التجوال هذا الصيف. ولم يأت له رؤية داهوم أو كركميش بعد ذلك أبدا.

ففى ١١ من أغسطس، وبينما كان لورانس فى شارع بولستيد بأكسفورد، سمع أن بريطانيا وألمانيا قد أعلنتا الحرب. وتدافع الشباب بمن فيهم إخوة لورانس وزملاؤه السابقون من كل الأنحاء للتطوع فى الجيش. أما لورانس فقد امتنع. ورغم أنه أخبر روبرت جريفز فيما بعد أنه حاول الالتحاق بوحدة لتدريب الضباط إلا أنه رُفض لكثرة المتطوعين، فقد أنكر هذا واعترف لليدل هارت أنه لم يحاول التطوع أبدا. وقد أكد إدوارد ليدز، الذى كثيرا ما عمل معه لورانس فى المتحف الأشمولى، أن حمى التطوع لم تمسه أبدا «وعلى قدر ما أتذكر، فلم تكن لديه أية شكوك حول واجبه... فقد كان يريد أن يسهم وكانت شكواه أنه ليست لديه الفرصة للإسهام الجدى... إلا أنه انتظر». كان لورانس يرى بوضوح أنه يستطيع تأدية واجبه على أكمل وجه فى الشرق الأوسط، غير أن تركيا لم تكن قد لحقت بعد بالجانب الألمانى فى الحرب. وتوقعا منه لهذا، تقدم بطلب للالتحاق بالأركان العامة البريطانية فى مصر وفى سبتمبر كتب إلى صديق له يقول «إن المصريين يقولون إنهم يريدوننى لكن ليس الآن، وليس بإمكان وزارة الحرب قبولى حتى تبت وزارة الحرب فى مصر فى أمرى». كان لورانس ذا قابلية خاصة للتوتر، ومن ثم أقلقه الاحتمال المرعب ألا يدخل العثمانيون الحرب، لأنهم إن لم يفعلوا، فستصبح المهارات الخاصة التى اكتسبها على مدى السنوات الخمس الماضية غير ذات جدوى للمجهود الحربى. ولن يكون أمامه بديلا سوى الالتحاق بكتيبة مقاتلة ذاهبة إلى فرنسا. بدت أيام الانتظار القلق دون نهاية وكتب «يجعلنى الملل الرهيب عصبيا دون فعل شىء، ودون الحصول على أنباء مرة فى الأسبوع، وقلق من حولى». ولدى انتهائه من تقرير The Wilderness of Zin فى أكتوبر لم يستطع صبرا، وتقدم بطلب إلى مرشده دافيد هوجارث كى يحصل له على وظيفة عسكرية. وكان هوجارث يجد صعوبة فى الحصول على عمل عسكرى لنفسه، إلا أنه تمكن من إلحاق لورانس بوحدة MO4، أى القسم الجغرافى للمخابرات العسكرية وكان

رئيسه، الكولونيل هوت هيدلي زميلا لهوجارث في مجلس الجمعية الجغرافية الملكية. ومن حسن الحظ، كان هيدلي قد سمع عن قدرات لورانس من ستوارت نيوكومب ومن «صندوق التنقيب في فلسطين»، ووافق على ضمه كي يساعد في عمل خريطة موسعة لسيناء والتي كانت موجودة على شكل مسودة في ثمان وستين صفحة. كانت تعليمات هيدلي للورانس جافة إذ أخبره «اذهب فانظر ما أنت فاعل بهذا الشيء الملعون». لم يعن لورانس أنه لم ير سوى جزء صغير من شمال سيناء أثناء مسح النقب، وانتهى في ذات الليلة من خريطة مساحتها ست ياردات مربعة كان جزء منها دقيقا والأجزاء الأخرى من اختراعه كما اعترف بذلك. ومن الواضح أن هيدلي خُدع فيما اعتقد أنه إحاطة كاملة من لورانس بالتفاصيل، إذ إنه حينما استعلم منه هوجارث بعد أيام عما إن كان قد وجد الشاب ذا نفع أجابه «إنه يدير قسمي بأكمله الآن نيابة عني» وكان بإمكانه أن يضيف أن لورانس قد أصبح هو القسم لأن جميع موظفي الخرائط الآخرين كانوا قد أرسلوا إلى فرنسا. إلا أن لورانس كان مازال مدنيا، الأمر الذي أثار جدلا حينما أرسل لإيصال بعض الخرائط إلى الجنرال روبنسون، وكان ضابطا من رتبة كبيرة انتابه الفزع حينما رأى ذلك الشخص «التافه» في زيه المدني فصاح «أريد أن أتحدث إلى ضابط». وسرعان ما قام هيدلي بتصحيح الوضع بأن أوصى بضم لورانس إلى الخدمة حتى دون كشف طبي وتم تعيينه فورا «ملازما نائبا لأعمال الترجمة بصفة مؤقتة». ومن ثم ابتاع زيه في اليوم التالي من على مشجب في محل يبيع ملابس للجيش والبحرية.

وبينما كان لورانس وولي يتجولان في النقب في فبراير عام ١٩١٤، وصل الشريف عبد الله، الابن الثاني لحسين أمير مكة إلى القاهرة في زيارة لسلطان مصر. ولم يكن عبد الله حينذاك نفس الشاب غير ذي الخبرة الذي هبط من السفينة «طيطا» في جدة عام ١٩٠٨، بل كان قد قضى سنوات مراهقته في ممارسات تشد عوده، مثل ركوب الخيل مع جنود أبيه من البدو، والخروج مع أخويه علي وفيصل لشن غارات محدودة ضد القبائل المتمردة، أو القتال في عسير باسم الأتراك. وكان الكثيرون يعتبرون الشريف عبد الله الداهية ذا الشعبية الكبيرة، السلطة الحقيقية في الحجاز... وقد كان الآن في طريقه إلى إسطنبول للشكوى من

النظام الإدارى المحلى الجديد الذى كان المسئولون العثمانيون قد أعلنوه لتوهم. كان الهدف من هذا النظام، الذى سمى بنظام الولايات، هو إبعاد القيادات العربية التقليدية من أمثال والده الشريف حسين الذى استمر فى كسب قبائل البدو بشكل مطرد. وكان الباب العالى، من أجل تأسيس النظام الجديد، قد قرر مد خط سكك حديد الحجاز من نقطة انتهائه الحالية فى المدينة إلى مقر الأمير فى مكة. وبالفعل، قام بإرسال حاكم متشدد يدعى وهيب بك على رأس سبع كتائب مشاة وكتيبة مدفعية للمساعدة فى تنفيذ المهمة. وأدرك عبد الله أنه إن تم مد الخط فسيعنى هذا نهاية سلطة أسرته إلى الأبد.

وكان خط سكك حديد الحجاز قد وصل المدينة عام ١٩٠٨ أى العام الذى عاد فيه الهاشميون إلى مكة، غير أن الشريف حسين فضل السفر بالباخرة ويرجع هذا جزئيا إلى أن البدو كانوا يحاصرون المدينة. وكان الخط يعتبر انتصارا للنظرة الإمبراطورية العثمانية، ولدقة الهندسة الألمانية، فقد كان يعبر ٨٠٠ ميل من الصحراء والتلال القاحلة التى ظلت صامتة لآلاف السنين إلا من خطو الرجال ودواب الجمال. وكان طريقا سميتريا من الصلب اللامع الغريب، من تصميم مايسنرر باشا المهندس الألمانى ذى الدافع والعبقرية الفذة. وتم تنفيذه بواسطة قوة من الجنود الأتراك قوامها ستة آلاف جندى صبغت دماؤهم كل ميل من الخط تقريبا، كان الأتراك يحركون مطارقهم بتصميم لا ينثنى وهم يتقدمون ببطء ويعانون الحرارة والعطش والجوع والذباب والمرض. كانت هناك مشاكل كبيرة يجابهونها: الوديان الشاسعة التى كان يلزم مد الخطوط فوقها بدعامات بلغ عددها عشرين كوبرى مقوسا، وتكوينات الحجر الرملى التى كان يلزم شقها أو تفجير ممرات فيها. كان الخط بحاجة إلى صيانة متواصلة، فمثلا، كانت مواد الرصف تتآكل تاركة فتحات تحت القضبان، أو تسد الرمال القنوات التحتية، أو تمتلىء مياه الفيضانات بالرواسب وتجرف السدود، أو يخرّب البدو المغيرون الطرق. وكان العمال يشتغلون فى مجموعات مكونة من عشرين إلى خمسين شخصا، وكانوا دائما مسلحين، بينما كان الحراس يتمركزون فى الأماكن المرتفعة لينبئوهم بمقدم جماعات البدو. ولم يكن يسمح لأى بدوى بالاقتراب من المحطة دون تصريح وإلا تعرض لإطلاق النيران. وكانت كل محطة فى الحجاز تقريبا

تحميها قلعة حجرية، ولكل منها مخزن مياه جوفى، وفتحات لإطلاق النيران، وأسلاك شائكة تحيطها. فإن حدث ولمح الحراس قدوم جماعات مغيرة، أعطوا الإشارة لجماعات العمل، الذين كانوا يقفزون إلى المركبات ويندفعون نحو المحطة. وكان يحدث أحيانا أن يتعرضوا لهجمات عصابات السلب قبل أن يصلوا لبر الأمان، ويُصرعون رجلا رجلا. وكانوا فى أحيان كثيرة يجبرون على الاختفاء لأيام عديدة. فقد كان من غير الممكن التحكم فى البدو إذ إنهم لم يكونوا ليثقوا فى أحد، وكانوا دوما فى حالة حرب مع الحكومة وضد أحدهم الآخر. بيد أنهم كانوا متحدين فى كراهيتهم للسكك الحديدية التى قللت من حركة نقل البضائع، ومكنت الأتراك من إحكام قبضتهم على الحجاز.

وفى يناير عام ١٩١٤، والحاكم الجديد فى طريقه مع كتائبه العثمانى، لعب حسين بكارت البدوية سريعا، فجمع شيوخ القبائل وأخبرهم عن وصول وهيب وعن أهدافه: «إن السكك الحديدية ستقضى عليكم تماما، فبمجرد أن يتمكن الأتراك من الدفع بقواتهم إلى أحراء الحجاز، لن يكونوا بحاجة إلى دفع الذهب إلى البدو». ورأى البدو أين تقع منفعتهم، وأكدوا دعمهم لأميرهم. ولدى وصول وهيب قابله حالة من الفوضى. فقد كانت قبائل البدو قد قطعت خطوط الهاتف، وكانت المدن جائعة، وأخذ المغيرون ينهبون المحلات فى جدة ويهاجمون القوافل. واختفى رئيس الشرطة الذى اختطفه البدو فى طريق الحج. وبعث الحاكم برسالة يائسة إلى إسطنبول، وللحظة، بدا الأمر وكأن الأتراك سيرسلون بعثة تأديبية من سوريا بحرا. إلا أنهم تراجعوا، وعرضوا على عبد الله ٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبى لإقناع والده بإنهاء العصيان، مع وعد بأن يكون له نصف دخل السكك الحديدية بمجرد مد الخط إلى مكة. وأدرك عبد الله بفطنته أنه بمجرد إكمال خط السكك الحديدية ستختفى هذه الوعود.

ومن غير المؤكد إن كان عبد الله قد حضر إلى القاهرة بهدف جس نبض البريطانيين تجاه تركيا. وكان قد فكر بالفعل فى احتمال إشعال تمرد بين الوحدات العربية فى الجيش العثمانى فى سوريا والعراق، ثم يضمن أولا استقلال الحجاز بمساعدة البريطانيين، وربما دولة عربية أكبر فيما بعد. وقد يكون لقاء عبد الله

وكيتشنر، المعتمد البريطاني في مصر وحاكمها الفعلي، أثناء حفل استقبال رسمي، قد تم مصادفة أم عمدا. وكان كيتشنر يهتم بالحجاز من أجل سلامة الهنود الذين يؤدون الحج. وكان هذا هو الموضوع الذي نافشاه في لقائهما الأول. وفي اليوم التالي زار عبد الله كيتشنر واستعلم بأسلوب غير مباشر عن موقف بريطانيا في حالة تصاعد الصراع بين الهاشميين والأتراك. وكان كيتشنر حذرا، فهو شخصيا كان يعتبر تركيا عدوا مرتقبا سيهدد قناة السويس الهامة في حالة الحرب. وكان هذا في الواقع سبب لزوم وجوده، وهو الرجل الإنجليزي، كقوة فاعلة في مصر، وهي بلد كانت من الناحية الفنية مازالت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. إلا أن بلديه كانا مغلولتين رسميا. ومن ثم، فقد أوضح لعبد الله أن تركيا «بلد صديق حاربت بريطانيا في القرم من أجل حمايتها، ولهذا، فمن غير المحتمل أن تتدخل بريطانيا في صراع بين الحجاز والباب العالي».

ولم تجد احتجاجات عبد الله في إسطنبول لدى جماعة الاتحاد والترقي سوى آذان صماء. وعاد إلى القاهرة وهو يغلي لسوء استقباله. إلا أنه كان قد نمى إلى جواسيس الباب العالي معلومات عن مناوراته مع البريطانيين وأقنعوا كيتشنر بالعدول عن لقائه. وبدلا من هذا، تحدث عبد الله مع رونالد ستورز السكرتير الشرقي للوكالة البريطانية وطلب منه شحنة مدافع للتصدى للأتراك. وأجاب ستورز، إن اهتمام الإمبراطورية البريطانية الأوحد بالحجاز ينحصر من حيث «المبدأ» في سلامة حجاجها وكرر عدم استطاعة بريطانيا التدخل. إلا أن ستورز، بينه وبين نفسه، كان متعاطفا، وأوحى، عن طريق الكلمات المختارة أن إجابة بريطانيا ليست نهائية كما تبدو. وأحب الرجلان أحدهما الآخر؛ ستورز، المستشرق البريطاني التقليدي، وكان دمثا، مغرورا، مصقولا، وربما مخننا، محبا للفنون الجميلة والموسيقى؛ وعبد الله، وكان أميرا عربيا حكيما مهذبا مصقولا، ومقاتلا ذا شعبية كبيرة يستشهد دوما بأبيات الشعر العربي، ويحب الصحبة. وقد تكون الثورة العربية قد ولدت حينما واجه ممثلا الأمتين اللذان يتمتعان بقدر عال من الذكاء أحدهما الآخر في قصر عابدين وتبادلا تلميحات وتوجيهات بإشارات لا تكاد تُلمح.

ولم يكن بدا حتى نهاية هذا الخريف أن دخول تركيا الحرب أمر لا مفر منه. واستطاع كيتشنر أن يخرج إلى دائرة الضوء فأرسل فى ٢٤ سبتمبر برقية من لندن بتعليمات إلى ستورز أن يبعث برسول سرى موثوق فيه إلى «عبد الله فى الحجاز ليعرف ما إن كان الهاشميون سيؤازرون بريطانيا أم يعادونها فى حالة الحرب». ومن ثم، كلف ستورز عميلا فارسيا سابقا يدعى على أصغر، والذى عرف فيما بعد باسم «العميل X» بالذهاب إلى مكة مختفيا كأحد الحجاج. وفى ٥ أكتوبر، غادر على السويس ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام، واستأجر حمارا نظير جنيهين استرليبيين. وبعد أن اختبأ طوال الليل، وصل إلى المدينة المقدسة فى الصباح التالى. ثم تمكن من الاتصال بعبد الله بعد انتظار عدة أيام. وقبل نهاية الشهر وصل إلى القاهرة ومعه رسالة لم يتوقعها كتشنر الذى كان سيسعده مجرد موافقة العرب على عدم دخول الحرب، وبدلا من هذا، وعد عبد الله أن يظل محايدا مؤقتا. لكنه كان على استعداد بدعم دبلوماسى «أن يقود أتباعه المباشرين فى ثورة مسلحة»، الأمر الذى أدهش كيتشنر وتم إبراق النص إلى لندن فى ٢٩ أكتوبر. وبعد يومين، أعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب رسميا على بريطانيا. وفى أوائل ديسمبر، تم إرسال لورانس و وولى ونيوكومب إلى هيئة الأركان العامة بالقاهرة.

القاهرة.. أشياء لا يُنطق بها

القاهرة وما بين النهرين

١٩١٤ـ١٩١٦

10

لدى مغادرتى

السيارة الأجرة ذات اللونينالأبيض

والأسود فى ميدان الأزبكية

بالقاهرة،وجدت بعض الصعوبة فى

العثور عليفندق الجراند كونتيننتال.

وفجأة تحققتأنه، ذلك البنيان القبيح

المنهالك المقابل لحدائق الأزبكية، والذى

يخفيه جزئيا بعض

المحلات الكئيبة.

كنت قد رأيت صورة لما كان عليه المكان عام ١٩١٤ تتوج خطابا كتبه تى. إى. لورانس، وكان من الصعوبة أن أستوعب أن هذا المبنى المتهالك العفن هو نفس ذلك القصر الكلونيالى العظيم الذى أكد لى «كتالوج» إيه وسى بلاك A & C Black لعام ١٩١٦ أن قائمة نزلائه كانت من صفوة الصفوة. لقد انتهى العالم الفخم للزمن الجميل فى مصر حين كانت القاهرة مشتى عصريا ينافس نيس ومونت كارلو.. اختفى مثل الفندق نفسه خلف واجهة القاهرة الرثة كمدينة حديثة محمومة. ظهر لى فى الردهة المظلمة رجل يحوم الذباب حوله ذو أسنان صفراء ولحية لم تحلق منذ يومين وحينما سألته عن سعر الغرفة قال. إن هذا المكان لم يعد فندقا منذ عشر سنوات. وتلمس رجل آخر يدعى خالد أنهكه الزمن، كان يجلس فيما كان يوما مكتب الاستقبال؛ وأصبح الآن مكانا تساقط طلاؤه، وبهتت ستائره المخملية، يلمس طريقه وسط أرشيف الأوراق واستخرج كارت بوستال ملونا به صورة الفندق كما كان منذ عشر سنوات: كان مهملا كما هو الآن. وأخبرنى أنهم قالوا

إنه لا يمكن ترميمه، ونظرا لأنهم لا يستطيعون استعماله كفندق فقد حولوه إلى مكاتب. ثم أخبرني أنه وإن لم تكن ثمة فرصة لأرى غرف الأدوار العليا، إلا أنه سيريني الجزء السفلي. وهنا، أحضر حلقة كبيرة بها مفاتيح، وقادني كسجان عبر الردهة، وفتح شفة كبيرة من الصلب كانت قد سُمّرت على أبواب قاعة الطعام. كانت الغرفة متسخة بشكل يبعث على الدهشة، ومفروشة بسجاد مخملي خمري اللون وأصحى باهتا ومتعفنا ومغطى بروث الفئران وأجزاء من الكسارات المتساقطة من السقف. قال خالد. «لقد كنت خادما بالفندق في الزمن القديم. كان يؤمه الملوك والأمراء من جميع أنحاء العالم وكان أفضل فندق في مصر». ثم أشار إلى لوحات خشبية جدارية لآلهة مصرية قديمة ولفراعنة كانت تزين الجدران وقال «قام برسمها فنان إيطالي منذ أكثر من مائة عام». وفكرت أنه لابد وأن لورانس كان يعرفها جميعا إذ إن الجرائد كونتنتال كان قاعدته لشهور تسعة في عامي ١٩١٤ و١٩١٥، وكان يتناول الغداء والعشاء في هذه الغرفة كل يوم تقريبا. كان بالإمكان رؤية بقايا كشك وكالة سياحية في الردهة، ولوحة متآكلة

تعلن عن رحلة نيلية وبقايا محل مجوهرات. أراني خالد أيضا ما كان بارا، رغم أن كل ما تبقى منه كان الأرفف المصنوعة من المرايا المزينة بالفسيفساء حيث كانت تعرض القوارير وقال. «كانوا يشربون الويسكى هنا». وتخيلت القاهرة العظيمة الطيبة عام ١٩١٤ - رونالد ستورز، وبيرتى كليتون، وجورج لويد، وأوبرى هربرت، وستيوارت نيوكومب وآخرون - يحتسون مشروباتهم، ويقلبون فى رءوسهم شديدة التمدين أحلامهم بالإمبراطورية وبالثورة العربية.

سرت خارج الردهة إلى ضوء الشمس الأصفر وإلى حركة مرور متخمة حول سور حديقة الأزبكية التى تقع مقابل الفندق. كانت الحديقة قد أغلقت للجمهور منذ أن أُغتصبت فتاة هناك فى وضح النهار، كما أخبرنى خالد. وبدت الحديقة من خلال السور ذابلة مشعثة، إلا أنها كانت درة المدينة فى ١٥ ديسمبر عام ١٩١٤ حينما سكن تى. إيه. لورانس الجراند أوتيل، تلمؤها الشجيرات الغريبة من استراليا ومدغشقر وكوبا. فقد وجد لورانس القاهرة مدينة تملؤها الحياة. ولم تسهم الحرب التى كانت قد أعلنت مع تركيا قبل ذلك بشهرين فى الإقلال من جاذبية موسمها الشتوى، بل استمرت حفلات الاستقبال المحمومة وحفلات الرقص التنكرية والعشاء، والرحلات، ومباريات سباق الخيل ومباريات التنس فى كامل أوجها. وكان الموسم يبلغ ذروته فى المهرجانات التى كانت تقام فى سراى السلطان حسين كامل بعابدين، وفى مقر المندوب السامى البريطانى بقصر الدوبارة، حيث كان السير هنرى ماكماهون قد حل محل اللورد كيتشنر مندوبا بريطانيا. وكانت هناك مصادر أخرى للمتعة لمن لديهم الوقت الكافى من أعضاء الطبقة الراقية. فكان بإمكانهم لعب الجولف والبولو فى نادى الخديوى الرياضى فى جزيرة الزمالك، أو احتساء القهوة نظير قرشين فى جروبى أو الكافيه إجيبسيان، أو أن يعبوا الجعة الإنجليزية فى بوفيه السافوى، أو أن يحملقوا فى عروض الغوازى الممنوعة فى إلدرادو، أو أن يركبوا الحمير فى ضوء القمر حتى أهرامات الجيزة، أو أن يذهبوا للصيد فى دلتا النيل فى عطلة نهاية الأسبوع.

وكانت الحرب الوشيكة قد أضفت على الضباط البريطانيين الذين يسكنون الفنادق الأنيقة مثل الكونتيننتال وشبرد نوعا من الجاذبية، وكان الطلب كبيرا على الضباط غير المتزوجين من رتبة الملازم من الفتيات اللاتى يقضين الشتاء فى القاهرة.

فبعد الظلام، كانت تطفو، كالطواويس في الحديقة أعداد من الشبان متيبسي الظهور، في زيهم العسكرى الذى صنع خصيصاً لهم، وإزاراتهم وأحذيتهم اللامعة من ماركة «سام براون» وقبعاتهم الحربية وقد ضبطت بزاوية معينة محددة. ولا يبدو أن الملازم ثان لورانس كان ينتمى إلى هذه الطبعات الفاخرة من الرجولة البريطانية. فقد كان، وهو صغير الحجم، الأشعث المظهر، ذو الشعر الطويل أبعد ما يكون عن مظهر العسكرية، لدرجة أنه نادراً ما كان ينظر مباشرة في عين أحد، حيث ادعى أنه لن يمكنه التعرف على والدته إن هي ظهرت أمامه فجأة. وكان قد أتقن فن الحديث لمدة تتجاوز العشرين دقيقة دون أن يُظهر أن لديه أية فكرة عمن يخاطبه. وبالتأكيد فإن لورانس لم يحاك أزياء زملائه التى خيطت خصيصاً لهم. فقد كانت سراويله واسعة غير مكوية، وأزراره غير مجلوة وأزرار جيوبه مفتوحة في الغالب، أما حزامه «السام براون» فكان، في حالة ارتدائه له، فضفاضا ومتدليا. وكان دائماً يرتدى شارات لرتب مختلفة على الكتفين. لذا، كان من المحال في أى وقت القول ما إن كان ملازم ثان متواضعا أو مُقدماً ذا مطهر غير متوقع. كان دائما يرتدى قبعته بميل بحيث يظهر شعره القشى اللون من تحتها. وامتنع عن تزيين نفسه بالأوسمة كازدراء نهائى للتقاليد العسكرية وتعبير مرئى عن كونه «مدنيا يرتدى الزى العسكرى». وكان يرتدى حذاء من الجلد اللامع الذى يستعمل في المساء بدلاً من الحذاء العسكرى، ورباط عنق من اللون الأحمر الدموى بدلاً من رباط الجيش الكاكى. وفيما بعد، كتب المقدم بيرس جويس قائده في الحجاز، عن لقائه الأول بلورانس أنه «يتذكر رغبته العارمة أن يخبر لورانس أن عليه أن يقص شعره، وأن أزاريره القذرة وزيه يحتاجان لعناية مراسلته». وكان لغياب الشارة من على قبعته سبباً في مواجهته مصاعب كانت تروق له. فذات مرة، حيثما كان يحاول صرف شيك من شركة توماس كوك بالقاهرة سأله المدير عن وحدته فأجابه دون إيضاح «ليس لدى وحدة» حينذاك طلب المدير قائمة العاملين بالجش فقال له لورانس «لا تزعج نفسك فاسمى ليس على القائمة إلا أننى أود أن أصرف الشيك». وحبنما امتنع لورانس عن تقديم أية إثباتات عبر المدير عن أسفه لعدم استطاعته صرف الشيك إلا بعد أن يرسل برقية إلى إنجلترا.

وكان لورانس يميل إلى أن يمشي الهوينى بدلا من المشية العسكرية، كان أبصا

يتجاهل التحية من الآخرين بنفس الإصرار الذى كان يتجاهل به رؤساءه من الضباط ويحادث الجميع، سواء من رتبة أعلى أو أقل، بنفس اللهجة الأكسفوردية العملية المدروسة المتحذلقة الغريبة. كان يترك أثرا، قد درسه بعناية، بأنه ذلك الأكسفوردى، شارد الذهن، فى غير موضعه، وقد انتهى به الأمر دون قصد منه إلى ارتدائه الزى العسكرى. وكان يشير إلى قسم الخابرات على أنه«الكلية» ولا يخفى ازدراءه لضباط الجيش النظاميين البيروقراطيين، وللعسكريين الروتينيين، ولعشاق الصيد والقنص وصيد الأسماك من خريجى المدارس البريطانية العامة، هذا، رغم أنه كان يزهو لوالديه زهوا طبقيا من أنه يعمل مع «اللورد إنجلس، واللورد هارتيجنون والأمير ألكساندر من باتنبرج».

وكان مظهره الشاذ يناقض تفكيره الحاد. ومن ثم، أقسم أن ينهى حالة عدم الكفاءة، وقرر، وقد تم تعيينه مسئولا عن جمع الخرائط التى أمدت بها المساحة المصرية القيادة العامة، أن يمارس إنتاج الخرائط كمن يتناول «شربة الملح». فقد كانت المعلومات الطبوغرافية عن كثير من مسارح العمليات الحربية نادرة، وكانت أسماء الأماكن تكتب بطرق متنوعة مختلفة اختلافا كبيرا. ورغم أن لورانس كان يعرف أنه لا توجد طريقة محكمة لكتابة العربية بالإنجليزية، فقد كان فيما بعد يزهو زهوا كبيرا لمقدرته على تهجى الأسماء العربية؛ وتحقق أنه لابد وأن تكون هناك خطة متسقة متشابهة مع النطق الفعلى. ولم يدخر وقتا فى أن ينتقد نظام النقل إلى الإنجليزية المتبع فى المساحة لمدير مكتب نسخ الخرائط، و. هـ. كروثويت، وكان هو من ابتدع النظام. وكذلك، فقد أهان و. م. لوجان مدير مكتب جمع الخرائط الذى عارض بشدة أن يترأسه ذلك المدعى الصلف للمغرور. وتذكر إرنست دوسون أن أساليب لورانس لم تحل دون تعاون المغرورين وغير الأكفاء ومحبى التظاهر فقط، بل إن صلافته وغرابة أطواره وعادته المستفزة فى الاستهزاء بغيره كانت تثبط رجالا عقلاء ذوى مقدرة. وكانت روح القاهرة تختلف تماما عن كركميش التى وجد لورانس فيها نفسه أوربيا فى مساحة شاسعة كان فيها قنصلا غير رسمى، وصاحب عمل محلى، ورجلا ذا أهمية عظمى. وفجأة تنبه إلى أن اللعبة التى كان يمارسها فى القاهرة كانت أكبر كثيراً. ومن ثم سعى من منطلق إحساسه الفطرى بعدم الكفاءة وتقديره الضئيل لنفسه إلى تثبيت نفسه فى مكانه.

فتباعد عن الدوامة الاجتماعية. فلم يكن بالتأكيد أحد الذين يزينون مقاعد حانة الكونتننتال. وكان يقول إنه ليس من الممتنعين كلية عن الشراب ولكنه فقط غير ذي ميول اجتماعية تجعله يستمتع به في جلسة مسترخية. ولم يكن أبدا يشعر بالألفة مع المصريين، فبعد عدد من عزواته في الشوارع، أيقن أن المصريين يمقتون سادتهم البريطانيين. وكتب بعد استقراره في المدينة «إن بالقاهرة أشياء لا يمكن النطق بها. فقد قمت بإجازة الشهر الماضي لمدة يوم وذهبت لمشاهدتها: لا أرغب في المزيد، إنني لا أفكر أنه خلافا لهذه الحماقة فقد كان من المحتمل الآن أن أكون فوق تل عند منحنى الفرات في مكان نظيف حيث يوجد غير بعيد عني أناس محببون. لا أعرف ما إن كنت سأستقر مرة أخرى أبداً أو أني سأهتم بالأشياء المناسبة.»

وفي فبراير عام ١٩١٥ وصلت دراجة السباق الخاصة بلورانس من إنجلترا، وصار يركبها كل صباح من الكونتننتال إلى مقر القيادة العامة في فندق السافوى الذى كان موجوداً بما يعرف اليوم بميدان طلعت حرب، ويحتل مكانه الآن محل لبيع الملابس. وكان يدير قسم المخابرات الذى عين به صديقه ستبوارت نيوكومب ويضم ثلاثة من الضباط الآخرين. لينارد وولى وعضوى برلمان عن الحادات العمال تم تعيينهما حديثا وهما جورج لويد وأوبرى هربرت. ورغم القصص التى شاعت فيما بعد عن «الفرسان الخمسة» فقد كان، ومنذ البداية، هناك قسمان بالمكتب. نيوكومب، ولورانس، وولى الذين كان يعرف أحدهم الآخر عن قرب منذ أيام عملية مسح صحراء النقب، بينما كان هربرت ولويد كلاهما من ويلز وخريجى مدرسة إيتون وكانا قد خدما كملحقين شرفيين فى السفارة البريطانية فى إسطنبول، وكانا هواة استشراق من نوع هوجارث يتحدثان «ستة» لغات فيما بينهما، واكتسب هربرت صيت المغامر إذ إنه حارب فى صفوف الأتراك فى البلقان واليمن. كان الابن الأصغر للورد كارنافون، وتم تخليده فيما بعد باسم ساندى آربثنوت فى رواية «المعطف الأخضر Greenmantle» للكاتب جون بتشان: «تسمع عنه فى موانى الصيد الصغيرة المنسية حيث تنغمس جبال ألبانيا فى الأدرياتيك. وإن ذهبت إلى الحج فى مكة، فقد تلتقى بين الحجاج بعدد من أصدقاء ساندى. وفى أكواخ الرعاة فى القوقاز، ستجد قطعا من ملابس خلعها هناك. فقد

كان ذا موهبة فى خلع بعض من ملابسه فى تحركاته». كان هذا الهاوى الأسنقراطى الواثق من نفسه يلقى القبول والنفور من لورانس الذى اعتقد أنه «غير مألوف» و«إنه من الطرائف» إلا أنه «لطيف جداً». وبادل هربرت لورانس نفس الخليط من الإعجاب والانتقاص فكان يدعوه «مخلوف خرافى» و«نصف وعد» إلا أنه اعترف أن به مسّا من العبقرية. وكان لويد، الذى قسم وقته بين دائرته الانتخابية والشرق وإدارته للبنك، ويلزيا من الطبقة الراقية وقد وجده لورانس «مزعجا للغاية»، لكنه كان يقدر معرفته بالتجارة والسياسة، ومظهره الدال على الثقة، واسمرت صلته بلويد بعد سفره وهربرت إلى غاليبولى، كما أنه سافر معه فيما بعد إلى المعركة. ولم يشعر كل من لويد وهربرت بالارتياح إلى نيوكومب، واعترضا على تلقى الأوامر من هذا «المتسلل Sapper، سيىء التنشئة» رغم اعترافهما بشدة ذكائه ومقدرته. أما لورانس فكان له رأى مختلف فى نيوكومب وكتب عنه «إن نيوكومب نعمة كبرى.. فهو يدبر كل الجواسيس، ويسب كل من لا يؤدى واجبه من المرءوسين، ويمتص غضب الجنرالات، ويُليّن الأشياء. وبدونه، فلابد وأنى كنت سأصاب بالجنون». وكان رئيس نيوكومب المباشر هو قائد مخابرات الشرق الأوسط المقدم جلبرت «برتى» كليتون، الذى كان ضابطا سابقا فى الجيش المصرى، وكان قد حارب الدراويش فى أم درمان إلى جانب اللورد كتشنر. وكان كليتون النموذج الأصلى للشخص «الرمادى» هادئا، ومتواضعا، إلا أنه كان كما اكتشف لورانس «أكبر كثيرا... مما يبدو للوهلة الأولى». وكان قد خدم قبل الحرب كمندوب للسودان فى القاهرة، ومدير مخابرات للسردار أو القائد العام للجيش المصرى السير ريجينالد وينجيت، الذى كان يعمل أيضا حاكما عاما للسودان، ثم أعيد إلى الجيش مرة أخرى فى عام ١٩١٤ بواسطة السير جون ماكسويل القائد العام للقوات البريطانية فى مصر الذى منحه الحرية التامة فى إدارة عمليات المخابرات. وكان مركز كليتون يمنحه السلطة الكاملة، وآلى على نفسه ألا يقتصر على جمع معلومات الاستخبارات فقط، بل أيضا أن يتدخل، إذا تطلب الأمر، فى السياسة بحصافة. وحتى قبل إعلان الحرب مع تركيا فقد استقبل كليتون مقترحات ستورز بإشعال الثورة العربية بحماس، وكان من المؤيدين المبكرين للهاشميين. وفى أوائل عام ١٩١٤ أرسل خطابا إلى كتشنر يحثه فيه على

الاتصال الفوري بحسن. وفيما بعد، اعترف لورانس بإعجابه ببعد نظر كليتون وسياسته في عدم التدخل، إذ إنه يطلق يد مرؤوسيه في العمل. بيد أن وصفه لستورز بأنه «كسول، أو رث بائد، يزحف في صمت ومثابرة ويتخلل كل شيء» هو وصف لا يحتمل الإطراء الخالص. أما ستورز، فقد عرفه لورانس عن قرب، ووجد كل منهما الآخر، صحبة محببة. فقد كانا يشتركان في تذوق الأدب، وكان ستورز كثيرا ما يعود إلى منزله ليجد لورانس قابعا في المقعد يقرأ اللاتينية والإغريقية. واستعاد ستورز هذه الذكريات قائلا: «لقد وجدته متحدثا لافت النظر ومستفزا عن عمد، يحب التعامل مع صغائر الأمور على أنها صغائر ولا يقبلها أو يرفضها عشوائيا. وكان أحيانا ينفجر غاضبا بشكل مفاجئ لدى سماعه قصة تافهة خاصة إن كانت رسمية، أو لظلم ما قد وقع» وقد اعترف لورانس فيما بعد أنه يعتقد أن ستورز كان ألمع البريطانيين الموجودين في الشرق الأوسط، إلا أنه علق قائلا: إنه كان بإمكان تأثيره أن يكون أقوى لو أن هدفه كان أكثر تحديدا. وكان افتقاد لورانس «للإتيكيت» الاجتماعي يضايق ستورز أحيانا. ويذكر أنه حدث وأن رتب الأمور ذات مرة لحفل عشاء خاص للورانس ودعا إليه ضيوفا أربعة إلا أن لورانس لم يأت ولم يقدم اعتذارا. «وقد أخبرني فيما بعد أنني استغربت من تصرفه هذا بأن أخبرته بأنني لم أكن لأكترث لو أنه أخبرني في الوقت المناسب كي أدعو شخصا آخر بدلا منه»

وكان لورانس يصف عمله بأنه: يغسل الزجاجات ويؤدي عمل ساعي المكتب حيث يبري الأقلام وينظف ريش الكتابة، في القسم. إلا أنه، ورغم كونه أقل الموجودين في القسم مرتبة، فقد شارك في العمل مشاركة كلية. كان سبب وجود البريطانيين في مصر هو الدفاع عن قناة السويس. وكان الرأي منقسما بشأن أفضل الوسائل لتحقيق هذا. فقد كان ثمة غربيون يعتقدون أن الحرب الحقيقية كانت في الجبهة الغربية في أوروبا، وأن أي معركة أخرى على أي مسرح آخر كانت مجرد «مشهد جانبي». وكانوا يضغطون من أجل سياسة دفاعية خالصة في مصر. وهي سياسة كان لورانس، مثله مثل باقي قسم الاستخبارات، يعارضونها معارضة شديدة. فقد كانوا شرقيين، يعتقدون أن الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع. وكانوا يضغطون من أجل غزو بريطاني للإمبراطورية العثمانية، وبالتحديد من

أجل إنزال قوات في الإسكندرونة على شاطئ سوريا. وادعى لورانس كذبا فيما بعد، أن خطة الإسكندرونة كانت من أفكاره، إلا أنه كان أحد معضدي هذه الخطة تعضيدا قويا. فقد اعتقد أن السوريين سيثورون ضد الأتراك بمجرد هبوط البريطانيين هناك، وستقوم العناصر العربية في الجيش العثماني بحركة عصيان وتؤسس حكومة عربية هناك مستبقة بذلك الفرنسيين الذين كانت لهم خططهم بشأن سوريا. فقد اشتم لورانس رائحة الثورة في الجو حينما كان في كركميش في عام ١٩١٣، وكان يعرف جيدا أن السوريين على غير استعداد للتخلص من سيد أجنبي ليفسحوا الطريق أمام آخر أكثر بعدا عنهم. ورغم أن اقتراح إنزال قوات في الإسكندرونة لقي ترحيبا من مجلس الوزراء، إلا أن الفرنسيين وقفوا ضده، لأنهم أدركوا، كما أدرك لورانس، المخاطر التي تحملها لسياستهم الكلونيالية. وسرعان ما محت خطة إنزال قوات كبيرة في عالسولي هذا الاقتراح. ووجه لورانس اهتمامه إلى عسير، المنطقة الجبلية الخصبة المتاخمة للحجاز جنوبا. كان تحكم الباب العالي في هذا الركن القصي من الجزيرة ضعيفا، وكان الإدريسي، حاكم عسير، مناوئا شهيرا للأتراك. وفي فبراير، وقعت الحكومة الإنجليزية/الهندية اتفاقا مع الإدريسي تدفع له بمقتضاه راتبا قدره ٧٠٠٠ جنيه استرليني سنويا. ولفترة، راودت لورانس الآمال الكبيرة أن أتباع الإدريسي سيثورون ضد الأتراك وينشرون الثورة شمالا باسم أمير مكة. ومن ثم كتب «أعتقد أنني وبنوكومب سنذهب إلى القنفذة بعسير كمستشارين له. وإذا كان الإدريسي بالمستوى المأمول، فبالإمكان أن نندفع فورا إلى دمشق ونوجه ضربة إلى الفرنسيين في سوريا. إنها لعبة كبيرة، وأخيرا، فهذه هي اللعبة الجديرة بأن نلعبها». أما الإدريسي فقد برهن على كونه مجرد فقاعة، وأما أمير مكة نفسه فقد حافظ على صمت منذر خلال النصف الأول من عام ١٩١٥

وفي أواخر عام ١٩١٤ ألقت السلطات البريطانية القبض على شاب هندي كان يحاول العبور من الحدود الشمالية الغربية لأفغانستان إلى الهند. ووجدت قطع من الكتان مخبطة بملابسه تحمل تفاصيل مؤامرة عالمية لإشعال الجهاد الإسلامي ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا والحلف الثلاثي وكان الشاب هو رسول بركات الله، خارج على القانون، وعميل للحكومة التركية في كابول. وكان في

طريقه للقاء مصادر فى الهند كان منوطا بها العمل على تشجيع الفرق الهندية فى الجيش البريطانى على العصيان واغتيال قادتهم الأجانب والهجوم على مقارهم. وكما تبين فيما بعد، فقد كان الشاب أحد آلاف العملاء والدعاة والعلماء والاتقياء والجواسيس ومشبرى الرأى العام الذى تبعث بهم جماعة الاتحاد والترقى لاختراق الهند وإيران ومصر وأفغانستان وبلاد العرب وما بين النهرين وصحراء ليبيا والسودان. وكانت خطة الجهاد تهدف إلى إشعال العالم الإسلامى. وفى يوم ٧ نوفمبر، بعد أسبوع واحد من اشتعال الحرب، أصدر شيخ الإسلام فتوى مفادها أن من واجب كل مسلم أن يحمل السلاح ضد الحلفاء. ولما كان أحد أسس الجهاد هو حماية المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، فبدون مباركة راعيهما الشريف حسين، تصبح الفتوى مجرد قطعة من الورق لا أهمية لها.

وصمم الحسين على رفض منح مباركته. بل إنه كتب وفى نوفمبر، إلى أنور باشا، وزير الحرب العثمانى، إنه سيبارك الجهاد من كل قلبه ويدعو الله من أجل نجاحه، إلا أنه لن يسانده علناً خوفاً من أن يقوم الأسطول البريطانى فى البحر الأحمر بفرض حصار فورى. وكان أهالى الحجاز يعتمدون على الحبوب التى يستوردونها من الهند البريطانية، وفى هذه الحالة، كانوا سيواجهون مجاعة لدرجة أنهم قد يثورون على الحكم العثمانى، وبينما ساند الشريف الباب العالى شفاهياً لدرجة أنه كون قوة من المجاهدين، إلا أنه فى نفس الوقت اتصل بسرية تامة بالرئاسات الكبيرة فى الجزيرة العربية: ابن سعود في نجد، وابن رشيد فى شمر، والإمام يحيى فى اليمن، والإدريسى فى عسير، مبيناً أسباب عدم دعمه للجهاد كى يستنبط موقفهم من الأتراك. ومن بين هؤلاء، قرر ابن سعود الذى كان يتلقى راتبا كبيرا أن يظل محايداً ويترقب النتيجة. أما منافسه ابن رشيد الذى كان يخشاه فقد قرر الإلقاء بحباله مع الأتراك ،وكذلك فعل الإمام يحيى الذى كان يواجه البريطانيين فى عدن، أما الإدريسى، الذى كان يتلقى حافزا مالياً من بريطانيا فقد كان شديد العداء للأتراك. وفى هذه الأثناء، كان جمال باشا حاكم سوريا العسكرى والقائد العام للقوات التركية هناك، يعد الجيش الرابع العثمانى لاجتياح قناة السويس وحدد فبراير عام ١٩١٥ موعدا للاجتياح. وكانت جماعة الاتحاد والترقى تأمل أن يؤدى هذا إلى ثورة المصريين ضد مستعمريهم الكفار

البريطانيين. وقد أدى رفض حسين الاشتراك في تحريك المسلمين ضد البريطانيين إلى غضب العثمانيين، رغم أنهم كانوا لا يملكون سوى قبول الرفض رسميا، إلا أنهم قرروا التخلص من حسين سريا بالاغتيال أو القبض عليه. ولسوء الحظ، فقد وهيب باشا، حاكم الحجاز، الضالع الأكبر في المؤامرة، وبشكل غامض، الحقيبة التي تحوى كل الوثائق المورطة، وتم تسليمها إلى علي، الابن الأكبر لحسين. ومن ثم، أصبح لدى الشريف الآن برهان مباشر على النفاق المكياڤللي الذي كان وراء تأكيدات الباب العالي. وكان خط السكك الحديدية العظمة الوحيدة التي كانا يتنازعان عليها. وقرر حسين إرسال ابنه الثالث فيصل إلى إسطنبول لمواجهة جماعة الاتحاد والترقي بدليل جرمها. إلا أن علمه أن الهاشميين لم يكونوا بمفردهم في هذا، كان عزاء له.

وفي يناير حمل ضابط عربي شاب يدعى فوزي البكري، وكان ينتمي إلى قبيلة من التجار المرموقين في دمشق تتمتع بعلاقات ودية مع الهاشميين، رسالة شفاهية إلى الشريف من «الفتاة» وهي جمعية عربية قومية سرية في سوريا. وكانت الرسالة التي همس بها فوزي في أذن الشريف وهو جالس يحدق عبر نافذة مقره في مكة، هي أن القادة القوميين في سوريا والعراق، بمن فيهم الضباط العرب في الجيش التركي، يساندون ثورة ضد الأتراك من أجل استقلال العرب، ودعا حسين لأن يكون قائد هذه الثورة. غير أن الشريف الحذر لم يجب، وأخفى امتنانه، على الفور، إلا أنه طلب من ابنه فيصل أن يتوقف في دمشق في طريقه إلى إسطنبول، بهدف الاستماع إلى مقترحات «الفتاة». وصل فيصل إلى دمشق في وقت متأخر من الشهر، واعتذر بلباقة عن دعوة جمال باشا له للإقامة معه، وبدلا من هذا، أقام في منزل عشيرة البكري الريفي. وهناك، وتحت أعين نسيب البكري، شقيق فوزي الأكبر، عرف فيصل أسرار الجماعات القومية السورية «الفتاة» و«العهد». وكانت النسخة التي حملها فيصل معه إلى الحجاز هي «بروتوكول» دمشق الشهير، وهي خريطة توضح الحدود الممكنة للدولة العربية المستقلة بعد الحرب، وتفترح إلغاء كل الامتيازات الأجنبية، إلا أنها تؤيد تحالفا دفاعيا بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة في المستقبل. وفي منتصف يوليو، وبعد أن ناقش حسين البروتوكول مع أبنائه ومستشاريه، شعر أنه على درجة من القوة تمكنه من الفعل. وفي ١٨

أغسطس، وصلت شروطه لتدخل عربي ضد تركيا إلى المندوب السامي البريطاني في مصر السير ماكماهون بواسطة مبعوث سرى.

كان عام ١٩١٥ سيئا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية عامة وللورانس بشكل شخصى. ففى يناير حاولت اثنتا عشرة سفينة بريطانية رئيسية وأربع سفن بريطانية بقيادة السفينة جلالة الملكة إليزابيث، أكبر السفن البحرية التى أبحرت فى مياه المتوسط على الإطلاق، اقتحام مضايق الدردنيل. وبعد يوم واحد من القتال تراجع الأسطول البريطاني على عقبيه أمام ١٧٦ مدفعاً تركياً تم زرعها فى شبه الجزيرة وأصيب فقط أربعة من المدافع. وكانت هذه أغنية البجعة بالنسبة لأسطورة العظمة البحرية البريطانية: أى أن بريطانيا لم تعد تتحكم فى الأمواج. وفى نهاية أبريل شن البريطانيون هجوما برياً/بحرياً عارماً على غاليبولى حيث مزقت المدفعية التركية ميدفورس، أول الكتائب من بين عدد يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ من الحلفاء كان مخططا لهم أن يرسوا على الشاطئ. وكان من المتوقع أن تصل مدفورس إلى أهدافها بحلول اليوم الثالث، إلا أنه وبعد ثلاثة أشهر كانت مازالت تقاتل يائسة لتبقى مكانها. وكان فشل إنزالات غاليبولى إدانة بشعة للمخابرات البريطانية، إذ إن مدفورس، وكما اعترف لورانس، «لم تكن مستعدة بدرجة رهيبة ولم تكن تدرى أين هى ذاهبة، أو ما ستقابله، أو ماذا ستفعله» وكانت خرائطها عتيقة غير دقيقة وغير ذات قيمة. وقد سجل لورانس أن الحملة «كانت معها نسختان من خرائط (ربع بوصة)، لتركيا الأوربية كمصدر وحيد لها» وكان عامل المباغتة مفقودا تماما إذ لم تكن هناك أية تأمينات. أما عن تقدير قوات العدو، فلم يكن أحد يعرف حتى عدد الكتائب التركية المعادية. ولم يعتقد أحد فى النهاية أن هذا بالأمر المهم. فقد عبر لورانس نفسه عن هذا الحس العام بالثقة بالنفس حيث كتب قبل الإنزال مباشرة «إن تركيا، تلك العجوز المسكينة، تتماسك بصعوبة.. فكل ما فيها فى غاية المرض». وهكذا تمت أكبر عملية برية/بحرية عسكرية فى تاريخ الحرب على غير أساس من حسابات المخابرات تقريبا، وباعتداد مغرور فى «سيادة الرجل الأبيض». كما كتب أحد الأستراليين قبل الإنزال مباشرة «من سيوقفنا؟ لبس الأتراك الملاعين». إلا أن أولئك الأتراك الملاعين أوقفوهم فعلا، ولم يفلح حتى صد الهجوم الذى قام به جمال باشا على قناة السويس فى التعويض عن

هذه الواقعة بسهولة.

وعلى الجبهة الغربية، كانت ثمة حالة من الركود. وتلقى لورانس في مايو أنباء مقتل شقيقه فرانك بقذيفة حينما كان يقود فصيلته. فكتب خطاب تعزية وتهدئة إلى والديه، أما خطابه إلى شقيقه ويل فقد حافظ فيه على جموده المترفع الذي يناسبه: «إن وفاة فرانك، كانت كما نقول، صدمة، لأنها كانت غير متوقعة بالمرة. إلا أنني لا أعتقد في الأسف المبالغ فيه على مثل هذه الوفاة، لأنها كانت أسلوبا جيدا لإنهاء الفرد حياته. لقد تسببت ضخامة هذه الحرب في تغيير الإنسان لمنظوره لأننا عاجزون عن الإلمام بجميع التفاصيل». يبدو أنه بينه وبين نفسه كان يعاني من وخزات الضمير. فربما كانت المرة الأولى التي سأل فيها نفسه عما إذا كان من الصواب أن يتمتع بوظيفة مكتبية مريحة بعيدا عن القتال، في الوقت الذي يخاطر فيه أقرانه بحياتهم في الجبهة، فقد حارب بوكومب وولي في الجبهة الغربية، ولويد وهربرت في غالسبولي. كان يعرف قيمة إسهامه في المجهود الحربي، ويدرك أن معرفته المتخصصة ستضيع هباء إن هو أصبح مجرد شخص يطلق المدافع. وعلى مستوى أعمق، كان يعرف أن ما يبعده عن الجبهة هو رهبة من الألم. كان لورانس بطبيعته أبعد ما يكون عن البطولة، ورغم أن المحن التي أنزلها بنفسه قد أسهمت في تعريفه عن بعد بالمعاناة الجسدية، فقد كان يخشى الألم أكثر من أي شيء آخر. إذ أمضى حياته يهرب من الامتثال للواقع أكثر من مواجهته، وكان يجد أن الخطر يكاد يشله جسديا وفي هذا قال: «إن أحد الأسباب التي أقنعتني أنني لست رجل أفعال، هو الإسهال الروتيني الذي يصيبني لدى الأزمات». وبعد الحرب، كتب شقيقه آرني قائلا إنه «ليس بطلا أو شجاعا بطبيعته. وقد وضع نفسه في اختبارات قاسية حال معرفته بهذا، واستطاع أن يتغلب على نقاط ضعفه». ورأى جورج لويد أنه «ليس ضمن من لا يهابون شيئا كهؤلاء الذين يأتون بالأفعال الشجاعة».

وفي سبتمبر ١٩١٥ بدا الأمر وكأن ليس ثمة ما يبرر وجوده. فقد فشلت خطته بشأن الإنزال في الإسكندرونة وثورة الإدريسي وكتب «إن الشئون العربية قد تدهورت جميعها. فلم أر أبدا مثل هذه الحالة من الربكة الحقيرة تنال من أمر

ما. إن هذا يجعل المرء يزأر غضباً إذ إننا كان لدينا فرصة رائعة هناك». فقد اتجهت كل الجهود إلى النجاح فى غاليبولى حيث لم يكن بإمكانه أن يكون له دور. إلا أنه استمر يكتب ملخصات جغرافية وتقارير إلى القيادة العامة، ويتابع تحركات القوات التركية، ويقوم بين الحين والآخر باستجواب الأسرى السوريين وعمل لقاءات معهم. ورغم زهوه بمقدرته على تحديد الأقاليم التى ينتمون إليها من لهجتهم، فقد ظلت المعلومات الدقيقة عن سوريا وفلسطين ضعيفة. وبين الحين والآخر كان يذهب على دراجة بخارية مستعارة من فندق سافوى إلى بولاق حيث كانت توجد مكاتب المساحة، ويتجول أيضا بين البازارات وهو حزين، حيث كان يبتاع من حين لآخر سجادة لأسرته، أو خاتم حينى لهوجارث الذى كان مازال يحاول الحصول على وظيفة فى السلك العسكرى. وتناول العشاء مع الليدى إيفلين كوبولد التى كانت قد أقرضته نقودا فى مدينة البتراء. وكان يكتب برقيات بالشفرة ويحل شفرة برقيات أخرى ويشرف على طباعة الخرائط وإرسالها. كما وضع خططا أخرى غير صالحة للهجوم على سوريا. وقرأ مجموعة من المقتطفات الإغريقية، وأعمال هريديا، وويليام موريس. وأرسل وولى إلى بورسعيد لبكون همزة اتصال بالأسطول الفرنسى، وزاد عدد العاملين فى القسم بإلحاق روبرت جريفز المراسل السابق للتايمز. فضلا عن آخرين كانوا يجيئون ويختفون كالأشباح. وذهب لورانس فى رحلة قصيرة كى يحسن الاتصالات مع مكتب أثينا، ولدى عودته أحس بثقل أكثر لما أسماه «الخمول الرسمى». وبدأ يتلاعب بفكرة الذهاب إلى غاليبولى، وتساءل حتى عما إن كانت الحياة ستكون أفضل فى الخندق. وكانت القاهرة قانطة، ومتربة، وقذرة، ولخص لورانس أحاسيسه حينما أخبر هوجارث «أن كل شيء على وشك النعاس».

وسط هذا الجو من السبات الذى كاد أن يكون حسيا، وقع خطاب الشريف حسين مثل القنبلة. وأدهش ستورز، الذى قرأ الخطاب سطرا سطرا، أن الشريف كان يطلب تقريبا كل الممالك العربية للإمبراطورية العثمانية نظير المساعدة العربية ووجد من الصعب تصديق وقاحة حسين وأخذ يتمتم أثناء القراءة «إن خطأ الهولنديين فى شئون التجارة.. هو أنهم يقدمون أقل القليل ويطلبون أكثر الكثير». فقد كان البريطانيون، رغم كل عروض كيتشنر المزهوة بالخلافة،

ينظرون للشريف حسين على أنه مجرد شيخ قبيلة عربي، غير ذي أهمية، ولا يمثل سوى أسرته «الهاشميين»، وأن عليه، في نظرهم، أن يرضى باستقلال الحجاز. أما ستورز، فقد وجد الرسالة مصدرا للدهشة والتسلية إذ شعر أن تطلعات حسين «تقترب من الكوميديا السوداء» وأعتقد أنها لا تتعدى كونها مناورة استهلالية وقحة مجنونة لعملية مقايضة كالتي يسمعها المرء في البازارات « . . . بالإمكان التأكيد أنه ليس لدى الشريف حسين تفويض من شيوخ آخرين، وأنه يعرف أنه يطلب أكثر بكثير من حقه، ومما يأمله، ومما له من قوة أن يتوقعه، ربما كأساس لبدء المفاوضات». وبالتالي، لم تعبر إجابة مكماهون، التي صاغها ستورز وأرسلها يوم ٣٠ أغسطس، لم تعبر عن أي التزام. فقد اكتفى بتكرار تأكيدات كتشنر السابقة، إلا أنه رفض الدخول في قضايا الحدود قائلا إن مناقشة هذه المسائل تحت ضغط الحرب مضيعة للوقت. وأجاب حسين، بشكل فوري، معبرا عن دهشته لتردد بريطانيا، وقال إن المفاوضات تعتمد أساسا وفقط على ما إذا كانوا يقبلون الحدود المقترحة.

وحينما وصلت الرسالة الثانية إلى القاهرة، كان الموقف قد تغير. ففي هذا الشهر، عبر ضابط عربي شاب يدعى محمد شريف الفاروقي الحدود التركية في غاليبولي متظاهرا بقيادة مسيرة جنائزية وهرب إلى البريطانيين. وحينما أرسل إلى القاهرة، استجوبه لورانس بين آخرين وأدهشتهم إجاباته. فقد كان عربيا من العراق وادعى أنه من نسل ثاني الخلفاء الراشدين، عمر الذي عرف بالفاروق. وطبقاً لما قاله، كان عضوا في «العهد» أو التنظيم العربي للضباط العرب في الجيش التركي، والذي صاغ، مع التنظيم الشقيق الآخر، «الفتاة»، بروتوكول دمشق الذي أسس حسين مطالبه عليه.

غير أن مكماهون لم يكن ليستطيع أن يوافق على كل ما طلبه الشريف لأن فرنسا، التي كانت حكومتها على وشك توقيع اتفاقية معها حول مصير سوريا، كانت بالفعل تعتبر الجزء الغربي من البلاد حقا لها. وفي خطابه التالي لحسين، وافق على اقتراحاته مع بعض التحفظات التي شملت الأقاليم غرب حلب وحماه وحمص ودمشق، التي ادعى، تحت تأثير ما لقنه إياه لورانس بالتأكيد، أنها ليست

عربية خالصة. وكانت فرنسا تطالب بهذه المناطق الساحلية السورية والمناطق النائية التى تكون جزءاً من سنجق لبنان العثمانى وولاية بيروت. وكانت فرنسا حليفة إنجلترا، وقد تم تحديد هذه المناطق كمناطق تهم الفرنسيين في التقرير الذى كتبه لورانس نفسه فى وقت مبكر من هذا العام وأجاب حسين أنه لا يقبل القول بأن هذه المناطق ليست عربية خالصة، ومرة أخرى تعثرت المفاوضات نظراً لمطالب فرنسا. وقد علق لورانس قائلاً إن الفرنسيين، وليس الأتراك، هم الأعداء الحقيقيون فى سوريا.

وفى القاهرة بدأت حرارة الليالى تخف، إلا أن الصورة العامة للموقف كانت ماتزال قاتمة. وفى نفس الوقت، فقد أصبح من الواضح والمخيف أن عملية غاليبولى قد فشلت. وكتب لورانس: «لا تروقنى الأمور هناك، وأسوأ ما فى الموضوع أن الأمر كان فى منتهى البساطة إلى أن تخبطنا». ولدى وصول هوجارث الذى كان مازال يبحث عن عمل، انقشعت عنه الغمامة لبعض الوقت. إلا أن بعد رحيل هوجارث لأثينا أصابت لورانس حمى الملاريا لأول مرة منذ عام. ومرة أخرى ساد «الركود الرسمى». واعترف لورانس أن الموقف «يصيبه بالغثيان» ورغم ازدحام أيامه بالمهام، فقد كانت متماثلة لدرجة الملل. وتم تعيين نيوكومب فى غاليبولى وحل محله إن. سى. باركر أحد أبناء أخت كتشنر، الذى كان حاكماً لسيناء ذات يوم. وكان البدو يكنون له احتراما شديداً وينادونه باسمه دون لقب بك أو باشا كدليل على حبهم له. وكان معروفا عنه أنه يركب الإبل دون كلل، ويسير المسافات دون تعب، فمثلا، كان يقتفى أثر دجاجة صحراوية فى مناطق وعرة يخفه الوعول. واعتقد لورانس، الذى أصابته الغيرة من مكانة باركر، أنه على دراية واسعة بأمور سيناء وفيما عدا ذلك كان غير ذى فائده، وهدد أنه سيقتله يوما ما. وازداد أساه حين تلقى أنباء فى آخر شهر أكتوبر، أن طائرة شقيقه ويل، الذى كان مراقبا فى سلاح الطيران الملكى، قد أصيبت بقذيفة وأصبح فى عداد المفقودين على الجبهة الغربية. وهنا كتب إلى إدوارد ليدز «أشعر ببعض الكآبة، فقد قتل أحد إخوتى أولا ثم قتل الآخر. كانا أصغر منى، ولا يبدو أنه من الصواب أن أعيش فى القاهرة فى سلام. بينما يحدث كل هذا... أود الوصول إلى النهاية يوما». وطوال الشتاء، تعثرت المباحثات مع الشريف حسين بشكل لا نهاية له،

بينما أخذ الموقف فى غاليبولى يزداد سوءا. وفى النهاية، وفى يناير ١٩١٦، تم إجلاء بقايا مدفورس من الدردنيل. وكانت هذه الخطة خطرا على الإمبراطورية البريطانية. فهى لم يتم فقط إدلالها على يد «الأتراك الملاعين» على مرأى من العالم، بل إن آلافا من القوات العثمانية قد استعادت حيويتها واستعدت لشن هجمة على مصر. وكان العرب قد بدأوا يتأرجحون وأدى عدم الانتهاء من التفاوضات بين مكماهون والشريف حسين إلى تفاقم الموقف. وكانت الشكوك تملأ كلا من الشريف والقوميين السوريين من انتهاك أوربا للشرق، وبدت الأمور وكأن الحلفاء لم يكونوا عسكريا أندادا للأتراك العثمانيين. أما فى ليبيا، فقد كانت الجماعة الإسلامية الأصولية، الإخوان السنوسيون، قد بدأت تتجمع فى صمت، انتظارا للهجوم على مصر من جهة الغرب. وعلى الحدود السودانية، كانت هناك قلاقل من قبل السلطان على دينار المؤيد للأتراك. فلو حدث وانضم العرب فى سوريا والحجاز إلى الأتراك بدلا من الثورة عليهم، كان هذا سيعنى نهاية طموحات بريطانيا فى الشرق الأوسط.

وفى يوم رأس السنة لعام ١٩١٦، أتى الشريف حسين بإيماءة خطيرة توضح إيمانه بالأصالة البريطانية. فقد أبلغ مكماهون أنه سيؤجل النقاش الكامل حول الحدود إلى ما بعد انتهاء المعارك الحربية. ورغم أن هذا كان أمرا شجاعا فعلا، إلا أنه كان انتحاريا من الناحية السياسية، وأدى فيما بعد إلى اتهامه بأنه خان القضية مع الحلفاء. وقد أخبر حسين قرب نهاية حياته المؤرخ جورج انطونيوس، بأن خبرته أثناء شبابه فى استقامة البريطانيين فى الشئون الدولية قد جعلتهم ينالون إعجابه العميق، وأنه «قد طور اعتقادا راسخا فى معايير تعامل الإنجليز بشرف». وتلقى وعد مكماهون فيما يخص القضية الرئيسية، أى مدى استقلال العرب، وكان على استعداد أن يدع الاعتبارات الثانوية معلقة إلى أن تتضح الأمور، مع ثقة ضمنية أن كلمة الحكومة البريطانية كانت عقدا ملزما. بيد أن ثقته كانت فى غير موضعها بشكل مؤسف. فبعد أسابيع قليلة من استكمال مكماهون الاتفاقية مع الهاشميين، وقعت الحكومة البريطانية اتفاق سايكس بيكو مع فرنسا وروسيا، الذى قَسّم الشرق الأوسط بمقتضاه فيما بينهم فى حالة انتصار دول الحلف الثلاثى. إلا أنه فى هذه الأثناء وقعت الإدارة العسكرية فى القاهرة فى حالة تشتت

عميق بسبب كارثة أخرى كانت تحدث. فقد قطع الطريق على الفرقة السادسة الهندية بقيادة الماجور السير تاونشند في منطقة ما بين النهرين، في حيز ضيق من نهر دجلة عند قرية كوت، دون إمدادات غذائية. وكانت الإمبراطورية البريطانية تواجه خطر أكبر استسلام ذليل في تاريخها العسكري برمته.

وكان المشهد يشبه أحد المداخل المجيدة في «السلام البريطاني» الذي يصور الجنود ذوي المعاطف الحمراء وبنادقهم معطلة وصفوفهم مبعثرة والدماء تسيل في الصحراء. وبالتأكيد كان تاونشند يتذكر أيامه المجيدة في الدفاع عن شيترال حينما أخبر جنوده «إن واجبنا نحو إمبراطوريتنا، ومليكنا المحبوب، ووطننا، أن نصمد هنا ونحول دون تقدم الأتراك.. سنجعل التاريخ يتذكر هذا الدفاع كدفاع مجيد». إلا أنه بتقدم الربيع قلت إمدادات المجد الإمبراطوري. وقد تسببت حماقة تاونشند نفسه واثنين من القادة في وصول الأمور إلى طريق مسدود. ففي الأصل، كانت الأوامر الصادرة إلى كتيبته هي حماية محطة تكرير البترول البريطانية في عبدان ومنع أية مخاطر قد تتعرض لها السفن في الخليج إلا أن ما حدث كان مختلفا. فقد وجد السير تشارلز نفسه، وقد حفزته إنجازات من هم أعلى منه رتبة مثل الجنرال بوشامب داف في الهند، والسير جون نيكسون في البصرة، وجعلته يطارد الفرق التركية أعلى دجلة وهو في حالة نشوة. واحتفت الوحدات المعادية إلى أن واجه إليها الانسحام عند قطسيفون في هيئة عشرين ألف محارب عثماني، من ذوي العزم مدربين تدريبا عاليا. وقبل أن تجبر الكتيبة على التراجع كانت قد فقدت أربعة آلاف محاربا، ولو أن تاونشند تراجع تكتيكياً حتى القيادة البريطانية العامة لأنقذ غالبية رجاله. وبدلا من ذلك، قرر أن يقوم بعمل بطولي في الكوت حتى حاصر الأتراك على الفور.

واستمر صمودهم خمسة أشهر في مجابهة عشرين ألف جندي تركي كانوا يقصفون المدينة يوميا ويقنصون أي جندي قد تدفعه حماقته إلى الظهور على الساحة. أو يقذفون القنابل من مدافع قديمة أسماها الجنود الإنجليز «فاني». وحاولت فرقة إنقاذ من البريطانيين المتمركزين في البصرة اختراق طريق لها وسط الحصار التركي إلا أن العثمانيين ردوهم بعد أن كبدوهم خسائر بشعة. وكانت

طائرات السلاح الجوى البريطانى تحلق فوق شوارع المدينة يوميا فى محاولة بائسة لإلقاء الإمدادات من الدقيق والسكر التى كان معظمها يسقط فى مياه دجلة أو يقع فى يد الأتراك. وبحلول أبريل كان الجنود قد قضوا حتى على القطط والكلاب، وكانت تصرف لهم أقراص الأفيون حتى ينسوا جوعهم. وبدأ الجنود يفقدون الأمل وقد أنهكهم الخمول والإحباط والجوع.

وبوصول لورانس إلى ما بين النهرين كان أكثر من عشرين ألف جندى قد قتلوا أو أصيبوا فى المحاولات اليائسة لإنقاذ الحامية. ولم يكن البريطانيون على استعداد للإلقاء بجنودهم فى الأفران إلى أجل غير مسمى، فلم يكن، ببساطة، لديهم رجال وكانت المشكلة، هى إنقاذ الكوت دون أن يموت آلاف الرجال. وكانت أية استراتيجية سوى الهجوم الساحق على الجبهة غير متقبلة من رئاسة الحرب البريطانية. وكانوا قد فشلوا حتى فى حصار الوحدات التركية التى تطوق المدينة بحيث يتمكنون من فتح خطوط اتصال وامدادات مع المحاصرين. كان حل مشكلة الكوت يتطلب تفكيرا غير الذى يعرفه الجنرالات.. كان يتطلب عقلا حصيفا عبقريا لا تعوقه تقاليد طبقة المحاربين البريطانيين المتوارثة.. أى عقل مثل الذى يتمتع به لورانس.

وكان لورانس رغم انعدام خبرته الحربية، واثقا من قدرته على حل المشكلة، ولابد وأنه كان موضع ثقة رؤسائه أيضا. فقد كان قد تم إرساله إلى البصرة بخطاب من المندوب السامى مكماهون يقدمه فيه بقوله إنه كان يعمل وفقا لأوامر من المكتب العسكرى ليقدم خدماته فيما يخص الشئون العربية. «إنه أحد أفضل موظفى مخابراتنا هنا وأكثرهم قدرة ولديه معرفة كاملة ودقيقة بالمسألة العربية من جميع أوجهها». فإن أمكن تحريض قبائل حاى والفرات على الثورة، فطبقا لاعتقاد لورانس، يصبح بالإمكان إنقاذ الحامية الموجودة فى الكوت دون مذبحة جماعية مثل ما شهدته الفوات منذ البداية. وفى حالة الفشل، كان قد تم تفويض لورانس، وأوبرى هربرت الذى أحضر خصيصا لهذه المهمة، أن يقدما رشوة قدرها مليون إسترلينى (تم رفع المبلغ فيما بعد إلى ٢ مليون)، لجنرال تركى بعينه تم اختياره ليمكن حامية تاونسند من الذهاب.

ونزل لورانس البصرة حيث قابل عدة أصدقاء قدامى منذ أيام كركميش كان من ضمنهم جرترود بل وكامبل طومسون اللذان كانا يعملان فى قسم مخابرات البصرة تحت إشراف السير بيرسى كوكس، وأيضاً هيوبرت يونج، الضابط الذى يتحدث العربية والذى ساعده فى عمل التمثالين لسطح منزل البعثة عام ١٩١٣. غير أن يونج، الذى كان قد أعجب بلورانس فى لقائهما الأول، شعر بالإحباط تجاهه وكتب يقول: «بدا مدللاً إلى أقصى درجة، وقد اتخذ مظهراً مخالفاً للذى أتذكره عنه.. وكان حينذاك أن لاحظت عقدته المضادة للجندية.. واستأت منها إلى أبعد الحدود». وإن كان بالإمكان فهم استياء يونج، فأيضاً بإمكاننا تفهم استياء لورانس؛ فقد أهدر الجنود النظاميون آلاف الأرواح البريئة التى من بينها شقيقاه على الجبهة الغربية، وغاليبولى، والآن فيما بين النهرين. وكان يأمل فى لقاء السيد طالب من جماعة الرابطة العربية، إلا أنه كان خارج البلدة. وفى ٧ أبريل، التقى بسليمان فيظى أحد الشخصيات المرموقة بالبصرة وزميل سابق للسيد طالب وكان عضوا فى البرلمان العثمانى. وتذكر فيظى أن لورانس بدأ بقوله إنه يحب العرب ويتمنى نجاحهم وأن بريطانيا تعتزم منحهم الاستقلال إلا أنها لا تستطيع فعل ذلك إلا إذا قاموا بثورة ضد الأتراك. ثم أردف «لقد فوضنى البريطانيون فى أن أبدأ هذه الثورة، وأن أقدم ما تحتاجه من أموال وأسلحة.. وقد اخترتك لتشعل شرارة هذه الثورة». وأجابه فيظى أنه لا يستطيع إشعال هذه الثورة لأنه ليس زعيما قبليا.. إلا أن لورانس قال له «تستطيع أن تفعل المعجزات بالمال. فبإمكانك إقامة خيام عديدة واستئجار حرس وتابعين، والقيام بواجبات الضيافة لكل من يزورك، ومنح هدايا قيمة للمؤيدين. وبكل هذا، ستصبح قائداً عظيماً وسرعان ما تجد نفسك على رأس جيش عظيم». وأجاب فيظى إنه سيستشير أصدقاءه، بقايا أعضاء لجنة جماعة الرابطة العربية، بيد أنه عاد وقال إنهم رفضوا العرض. وكان لورانس يأمل فى أن يصحب بعضهم إلى الجبهة قبل أن يكشف عن تفاصيل خطته، إلا أنه والأمر كذلك، اضطر للذهاب إلى هناك وحده.

وفى ٩ أبريل غادر البصرة على سفينة ذات بدالات ومعه فصيلة مشاه مبحراً فى أعالى دجلة حيث كانت هذه المنطقة قناة بنية اللون لزجة تدخلها تعريجات ذات أشكال باروكية فى الأطراف وترسبات رملية عبر قدر هائل من الصوان

الأسود والرمادى الراكد. ورست السفينة فى الليلة الأولى عند القرنة، ملتقى دجلة والفرات والموقع المزعوم لجنة عدن. وبينما كان يحملق فى المياه الطينية، تذكر بشوق أصدقاءه فى كركميش وتساءل ما إن كان سيرى داهوم مرة أخرى. ورغم عدم علمه بذلك، ففد كان من المؤكد أن داهوم قد توفى، قتلته المجاعة المروعة والأوبئة عام ١٩١٦، التى عملت الحرب على تفاقمها. كانت كركميش جنة عدن الخاصة به، وكتب فيما بعد يقول «إلى أن ابتلعت الحرب كل شىء، لم أثمن شيئا أفضل من كركميش، كانت حياة مكتملة». وتصلح هذه الكلمات أن تكون قداساً جنائزياً لجيل بأكمله، للهولوكوست الذى وجد هو وأقرانه بأنفسهم أنه نقطة عقدة فى تاريخ العالم.. نقطة محيت بعدها كل الموروثات والافتراضات التى حكمت الحياة الأوربية لقرون.

وصل لورانس إلى «وادى» حيث يوجد مقر رئاسة قوة دجلة، بعد ستة أيام كى يتلقى «اعترافا» من الأعضاء كبار السن فى الفيادة. فقد كانت حملة الإغاثة تواجه المصاعبَ إلا أن الجنرالات كانوا عازمين على إرسال موجات أخرى من القوات. وقد أحزن لورانس أن يُقدم مواطنوه أضحيات على مذبح طموح القادة، نفس الحزن الذى أحسه أشهر شعراء الحرب ولفريد أوين:

ـ هل من أجراس (تقرع) لمن يموتون كالقطيع؟

ـ فقط غضب البنادق الوحشى

ـ فقط شخشخات المدافع المتعلثمة السريعة تستطيع أن تقيم علنا صلوات عليهم.

لم يرغب الجنرالات الإنجليز / الهنود أن يدرسوا أفكار لورانس. فقالوا إن الاستراتيجية غير التقليدية لا تتوافق مع مثال «الشرف العسكرى» ـ ذلك الشرف نفسه الذى تسبب فى ضياع آلاف الأرواح دون أن يكسب لهم بوصة واحدة من الأرض. وكان أى نشاط سرى أو تخريبى بالنسبة لهم يرقى إلى مستوى «الغش». كانت تحديدا نفس العاطفة التى تسببت فى الأيام الخوالى أن يأمر الضباط البريطانيون جنودهم أن يقاتلوا على مرأى من الناس وألا يختبئوا وراء الأشجار. بيد أن الأمر تجاوز مفهوم الشرف هذا الذى كان فى غير موضعه. فقد كانت فكرة

الثورة العربية تُرعب الضباط الكبار الإنجليز / الهنود إذ شعروا أن هذا قد يمد ملايين الرعايا المسلمين في الهند بمثال خطير، الأمر الذى كان يؤرقهم مجرد احتماله. وأراد الجنرالات تنفيذ الهجمات على الجبهة وفى اللحظة الحرجة، أصيب لورانس بالحمى، ولم يستطع فعل أى شيء سوى التقلب المحموم في سريره.

وفى الضوء المبكر ليوم ٢٢ أبريل أيقظه انهمار صادم لأصوات مدافع البريطانيين. واستمر الدوى لمدة خمس وأربعين دقيقة بضربات مدروسة بطيئة، وفجأة تزايد الإيقاع ليصبح... مقدمة لهجوم.. وكان الأتراك يتحكمون في خطوط خمسة خنادق فى مكان يسمى السنبات، وهو عنق زجاجة ضيق بين أحراش مالحة غادرة وشاطئ النهر. وكان موقعاً يصعب اختراقه، لكن من أجل الوصول إلى الكوت لم يكن لدى قوات دجلة خيار سوى محاولتهم شق طريق لأنفسهم هناك. وكانت فقط رأس الحربة، هى الفرقة التاسعة عشرة وكانوا جنوداً من أعالى أسكتلندا، بقايا لفرق البلاك ووتش Black Watch الثانية والتى كانت مازالت ملونة بالدماء، وقوة السيفورث الأولى، وكان قد تم تجميعهم فى كتيبة واحدة لهذه المعركة. وتحركت الكتيبة التاسعة عشرة فى الساعة السابعة صباحاً تماما، واشتعلت نيران المدافع التركية في مواجهتهم من مواقع أخفاها ضباب الحرارة المرقط؛ واندفع الاسكتلنديون مباشرة إلى فوهات المدافع المنطلقة. وكان التقدير أن الأمر سيستغرق منهم سبع دقائق لإحداث فجوة فى خط الأتراك إلا أنه استغرق أربعة دقائق فقط، وحينما وصل الرجال إلى مدى مدافع جيشوهم هم، أخذوا يلوحون بشاراتهم الحمراء ليتوقف القذف. وقادوا أنفسهم بجنون خلال الخنادق المملوءة بالمياه ليجدوا أن بنادقهم قد سدتها الأوحال وتوقفت عن الانطلاق. وبعد لحظات، اجتاح الجنود الأتراك الموقع من ناحية الأجنحة فى هجوم كاسح مضاد، وغمرت المياه الكتيبة التاسعة عشرة. وبدا الموقف ميئوساً منه. وأخذت الفرق التى فى المقدمة فى الانسحاب واحدة بعد الأخرى، تاركين الأسكتلنديين فقط الذين تجاهلوا أوامر الانسحاب. وكانت محاولتهم مواصلة التقدم وقيامهم بشن ثلاث هجمات متفرقة على خطوط الدفاع الثالثة أمراً يصعب تصديقه. ولم يعد رجل واحد من تلك الهجمات الثلاث.

وفي الثامنة والثلث كان كل شيء قد انتهى. فقد استغرقت الهجمة ساعة وعشرين دقيقة فقدت الفرقة التاسعة عشرة فيها ما يربو على ألف رجل. وكان مدى تقدمهم وتقهقرهم أكثر قليلا من نصف ميل. وفقدت كتيبة الأسكتلنديين أكثر من ستمائة. وعرف الجنرال يونج، قائد الفرقة، أن مهمة إغاثة الكوت قد فشلت. ولم يستطع أن يطلب منهم التقدم مرة أخرى.

ومرة أخرى أهدرت شجاعتهم. وبعد أسبوع رفرفرت الأعلام البيضاء على الكوت. وسيق ثلاثة عشر ألف جندي من الفرقة السادسة الهندية إلى الأسر حيث توفي أكثر من نصفهم. أما مهندس الكارثة الأول، الجنرال تاونشند، فقد هجر فرقته، وأمضى حالة «أسر» كريمة في فندق على مضيق البوسفور برفقة كلابه المحببة (الحيوانات الوحيدة التي لم تأكلها الفرقة الجائعة). وكان سير تشارلز بكن لكلابه حباً عميقا، إلا أنه لم يستعلم، ولو مرة واحدة، عن حال رجاله. ولم يسخر الأتراك فقط من خطة البريطانيين لرشوتهم، بل إنهم أيضا استغلوها في الدعاية السياسية. ويوم ٢٩ أبريل، قابل لورانس وهربرت الجنرالات لإجراء حوار، إلا أنه وجد أنه لن يُنفذ شيء من خططهما سوى مبادلة بعض الأسرى. وكلفت مأساة الكوت البريطانيين ثمانية وثلاثين ألف قتيل دون أن يجنوا منها مثقال ذرة من النفع السياسي. ولم يسبق للإمبراطورية البريطانية أن تصل إلى هذه الدرجة هبوطاً. فكان هناك مذابح على الجبهة الغربية، وهزيمة في غاليبولي، وهجوم تركي على قناة السويس، وانهيار في الكوت. وعاد لورانس إلى البصرة وقد خاب أمله وتعاظم إحباطه من فشل الاستراتيجية التي تبناها، وثار اشمئزازه من موقف الجنرالات الإنجليز الهنود، وكان مازالت لديه القناعة أن الحركة العربية كان من المحتمل لها أن تنقذ الموقف. بيد أن آماله جميعها تحطمت، وكتب «لم أفعل شيئا مما كان في ذهني وكان بمقدوري فعله». وفي السفينة في طريق عودته للقاهرة، كتب تقريراً ينتقدهم بقسوة لدرجة استلزم معها تخفيف لهجته قبل تقديم التقرير إلى السير أرشيبالد مري الذي كان قد حل محل السير جون ماكسويل كقائد عام.

ولدى وصوله إلى القاهرة، وجد لورانس أن مدفورد قد ضُم إلى القوة البريطانية في مصر، وأن مري كان يخطط فعلا لاستخدام قوات إضافية للمبادرة بتوجيه

ضربة في سيناء. واعتقد أن هذا، على الأقل، كان تحركاً نحو الأفضل. إلا أن استحسانه لم يدم طويلا، فقد اتضح أن مرى كان ضابطاً تقليدياً آخر ينتمي إلى المدرسة القديمة التي لا تثق بأقسام المخابرات والمقاتلين الشرقيين من أمثال كليتون ومن ثم، قسم شعبة المخابرات التي كانت قد كبرت، ونقل ضباط كثيرين إلى قيادة العمليات العامة في الإسماعيلية. وترك سبعة فقط - من بينهم لورانس - ليكوّنوا مخابرات القاهرة في فندق سافوى. وابتهج لورانس برؤية هوجارث الذي وصل إلى القاهرة في مارس مرتدياً زى الرائد البحرى في الأسطول البحرى الملكى. وكان قد عثر لنفسه أخيرا على وظيفة حربية في القسم الجغرافي للمخابرات البحرية، إلا أنه أرسل إلى القاهرة كي يساعد على إنشاء مكتب عربي جديد يمكن تجميعه من بقايا ضباط مخابرات كليتون في فندق سافوى، ويكون المسئول عنه السلطة المدنية متمثلة في المندوب السامي مكماهون، وكان للمكتب أن يدار تحت رعاية وزارة الخارجية ويكون مسئولا عن التطورات السياسية في الشرق الأوسط.

وفي واقع الأمر، فقد أنشىء المكتب، الذى حمل اسماً كودياً هو Intrusive أى «المقتحم»، ليس فقط لنشر ودعم العصيان بين العرب، بل أيضاً كأداة لنشر بشارة هذا العصيان في أرجاء أرفع الدوائر في السلطة البريطانية. وكتب لورانس «لقد كان هدفنا هو اختراق القاعات التقليدية في السياسة البريطانية الخارجية، وأن ننشىء شعبا جديدا في الشرق». إلا أن لورانس لم يكن أحد أعضاء «عصبة الرجال الجامحين» وفقا لتعبيره، بل احتفظ بوظيفته القديمة في مخابرات القاهرة. وأوكلت إليه مهمة تحرير نشرة مكتب المخابرات المعروفة بالنشرة العربية. وجاء هذا العمل وفق هواه لأن مهمته في الكوت أكدت له أنه ليس رجل أفعال. فقد قام بحجة إلى الخطوط الأمامية، والآن، تقبل أن يقضى بقية الحرب في المكتب: «أكثر الأماكن المتاحة متعة إلى أن يستفر الشرق الأدنى». ولم يكن هناك أمل في الحجاز طبعا، ورغم المفاوضات المطولة، فلم يكن هناك من يعتقد أن الشريف سيقاتل إن حان الوقت. وقبل صدور النشرة بيوم واحد، حدث تطور مفاجئ. ففى ٥ يونيو عام ١٩١٦، اليوم الذى غرق فيه اللورد كتشنر في بحر الشمال، رفع الشريفان على وفصل رايات الهاشميين القرمزية على أسوار المدينة، وأعلنا باسم كل العرب، انتهاء حكم الأتراك العثمانيين.



تى. إى لورانس (نيد) وهو فى الحادية عشرة .



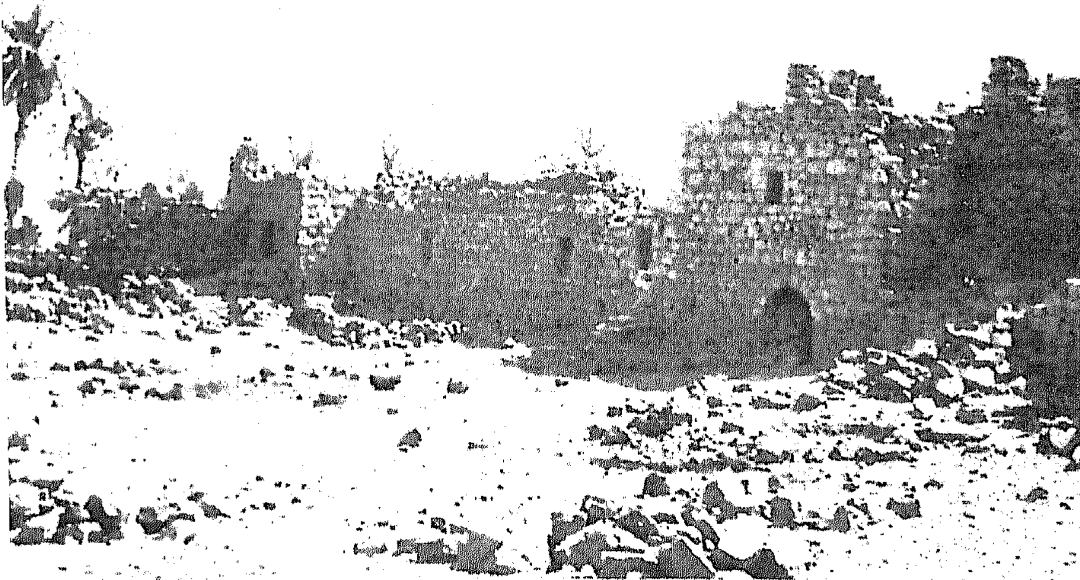
فيصل، التقطت الصورة فى مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩



اسكتش للورانس أثناء مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩ بريشة أوغسطس جون



جوترود بل، والسير هربرت صامويل المندوب السامى فى فلسطين ولورانس والشريف عبد الله فى عمان ـ أبريل ١٩٢١



برج البوابة فى قلعة الأزرق من تصوير لورانس، وكان لورانس قد مكث بالقلعة فى نوفمبر ١٩١٧ لعدة أيام للراحة. وبعد عام قام بتجميع قوة فى الأزرق حاصرت الأتراك وعزلتهم فى درعا خلال الأيام القلائل الأخيرة للحملة.



داهوم، أو سليم أحمد، العامل الصبى الذى عرفه لورانس فى كركميش وأحبه، التقط لورانس الصورة عام ١٩١١



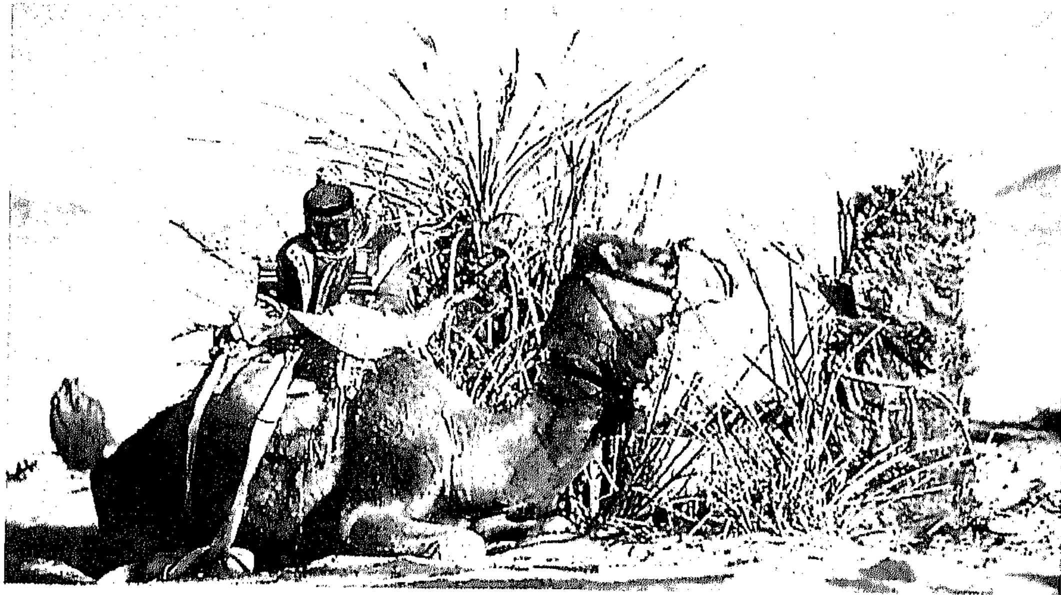
لورانس وهو يبتسم فى مقر قيادة الجيش البريطانى بالقاهرة عام ١٩١٨



امرأة من الحويطات فى وادى رُم وهى تعرض بفخر الوشم الذى رسم على وجهها ليلة زفافها



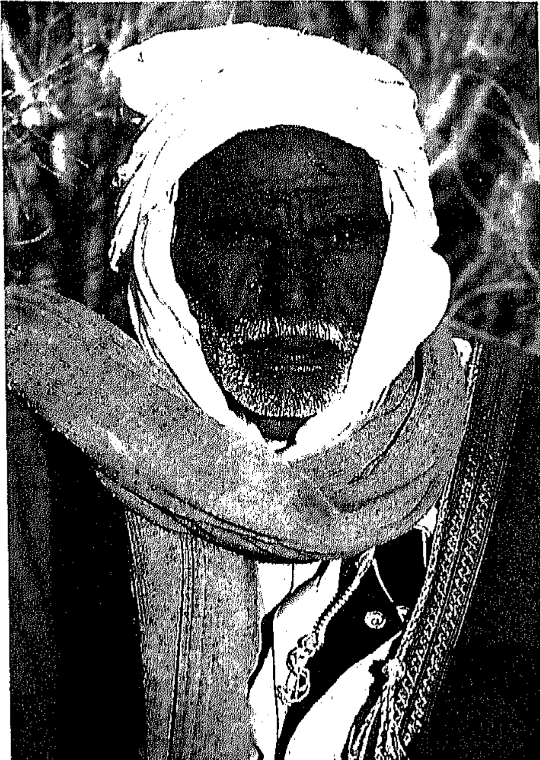
بقايا منزل قديم فى ينبع بالمملكة العربية السعودية



بدوى من الحويطات يحمّل جمله عند بئر المدورة وهى نفس النقطة التى انطلق منها لورانس وجماعته جنوباً للهجوم على خط حديدى قرب حلة عمار



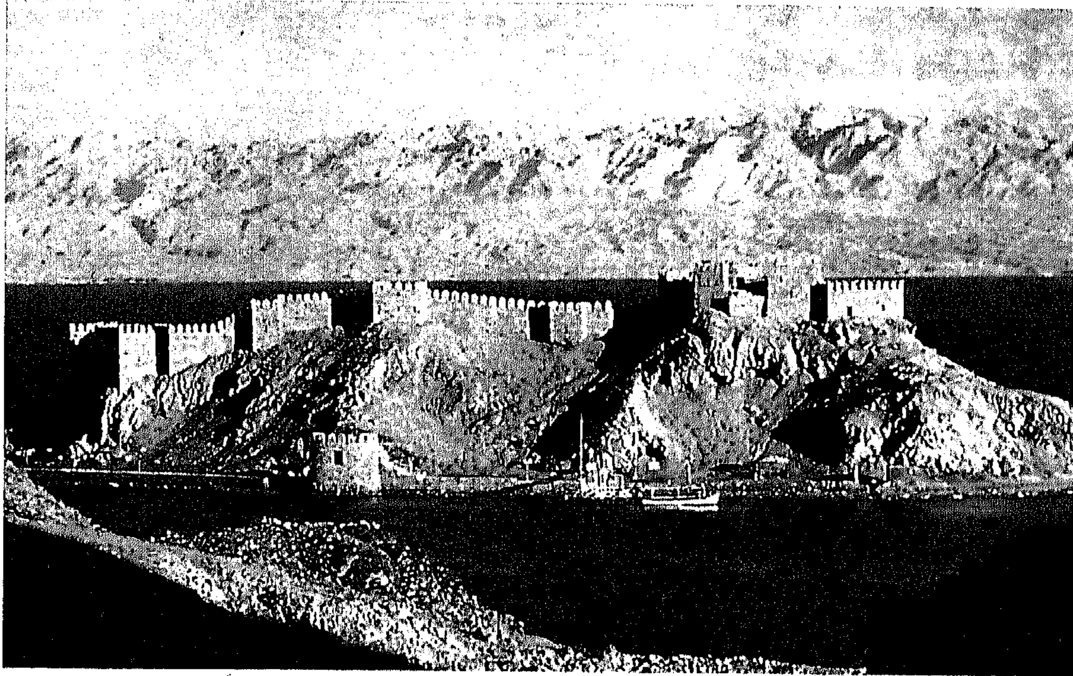
بدوى يملأ قربته وقد قال لورانس إن أساليب البدو صعبة حتى بالنسبة لمن
نشأوا عليها ، أما بالنسبة للغريب فهى موت فى الحياة



بدوى من حويطات الأردن التى تعاونت مع الهاشميين فى
الهجوم الأخير للورانس على العقبة فى يوليو ١٩١٧



الكاتب وابنه عند نبع لورانس فى الأردن حيث اعتاد لورانس الاستحمام فيه عند توقفه فى وادى رم عام ١٩١٧



جزيرة فرعونه قرب سيناء، وقد قام لورانس كأركيولوجى شاب بالعبور سابحاً إليها لفحص بقايا قلعة صليبية (تم الآن ترميمها)



جسر الحدية الصلب الذى شيده المهندسون الألمان والعمال الأتراك بين عامى ١٩٠٢ و١٩٠٨



قاطرة منقلبة فى محطة حدّية بالمملكة العربية السعودية ومازال
عدد من القاطرات الأصلية التى كانت تسير على خط سكك حديد
الحجاز موجودة فى صحارى الحجاز



تمثال لورانس كمحارب صليبى فى زى عربى نحته صديقه إريك كننجتون وهو موجود بكنيسة سانت مارتن الأنجلو ساكسونية القديمة بمقاطعة دورست فى إنجلترا

الباب الثانى

المحارب

أكتوبر ١٩١٦ - أكتوبر ١٩١٨

الفصل الحادى عشر

أكبر حدث فى الشرق الأدنى

منذ عام ١٥٥٠ اندلاع

الثورة العربية ١٩١٦

11

كانت أرضاً قاسية ،

أرضاً عطشى ،

أرضاً تحترق تحت سماء من

الكوبالت المصقول الأزرق ،

جحيم من الضوء الملتهب .

كان مكاناً للقمم العارية التي تغطيها الندبات، وقد تشققت وتشكلت في أشكال خيالية وكأنما بفعل مطرقة، مكاناً أطلقت فيه شياطين الغبار في وحشة موجعة؛ مكاناً من الأودية العميقة الجافة، والشجيرات الشائكة والنباتات البرية. لفافات من الرمال دون ماء، وحصباء سوداء وصخور بركانية يسميها البدو حراء. والحجاز اسم مشتق من الحاجز، إلا أنه، ولأجيال لا تحصى، كان الطريق للحج والتجارة. وكانت القوافل قبل الإسلام بزمن طويل تسير في مجاهله تحمل اللُبان (البخور) من ممالك البهارات إلى موانئ الشام. وقد مرت بلقيس، ملكة سبأ الأسطورية بهذا الطريق في رحلتها إلى بلاط الملك سليمان. ولم تزدهر مدنيات عظيمة هناك أبداً. بيد أن الواحات تتناثر في ثنايا تلك التلال والسهول الهيكلية اللامعة مثل جزر شاسعة خضراء في الأراضي الجدباء وبها ملايين من أشجار النخيل: المدينة، وينبع، والنخل، وتيماء، وخيبر، وديدان، والطائف.. وفي مكة، التي أسست في واد قحل لدرجة استحالة زراعته، ثمة موضع مقدس، أي الحرم،

حيث لا يجوز اصطياد حيوان أو قطع شجرة أو إهدار دم آدمى. ومنذ الجاهلية، كان الناس يؤمونه للتعبد أمام الكعبة والحجر الأسود الذى يقال إنه قد سقط من النجوم.

وفيما بين هذه الواحات كانت البرية والصحراء وسكان التلال، أى البدو، وهم أقوام دائمو الحركة والتغيير والتكيف لنزوات الأرض؛ يستقرون فى مكان ما لمدة تسمح بزراعة الحبوب حيناً، وحيناً آخر يطوون خيامهم ويرحلون بإبلهم إلى أحد المراعى النائية. وكانت التغييرات بطيئة الحدوث من جيل لآخر، ومن ثم لم يعد البدو، الذين لم يكن لهم تاريخ يذكر، يتذكرون وقتاً كانت الأمور فيه مختلفة. واعتقدوا أن أساليبهم خالدة غير متغيرة اكتسبت قداستها من الزمن. أما الوعاء المقدس الذى حفظوا فيه سجلاتهم، فكان الشعر، حيث تناقلته الأفواه، وامتلأ بقصص لا تنتهى عن الحروب والصراعات بين القبائل والغزوات والمناوشات التى لا تحصى. وكانت الأسلحة البيضاء، أى السيوف والرماح، هى التى تستعمل فى هذه الحروب، الأمر الذى كان يعنى أن قاتل من يُقتل بهذه الأسلحة يصبح معروفاً

للجميع، والثأر منه يقيناً. كان القانون المطلق السائد هو القانون التوراتي: العين بالعين والسن بالسن، أما المقولة التي دائماً ما كانت تتكرر في رواياتهم وتؤكد حتمية الثأر البطيئة فهي «وبعد أربعين عاماً، أخذ البدوي بثأره». وطبقاً لموروث البدو، فالثأر يقع على أي من الأقرباء الذكور للقاتل في خمسة أجيال، لأنه لا يمكن لأي فرد تتبع نسبه الحقيقي لأكثر من هذا. ففيما بعد والد جد الجد، يصبح النسب في عداد الأسطورة. أما القبيلة نفسها، فكانت نوعاً من الكيان المجرد، تتكون من عدد من العائلات من خمسة أجيال، وكان أفرادها يشعرون ببساطة أن كلاً منهم ينتمي للآخر، حتى وإن لم تربطهم رابطة دم. وكانت القبيلة هي المأوى والملاذ لكل الأفراد. ورغم استقلال القبائل الصارخ، ورغم حالة الحرب التي كانت قائمة فيما بينها، إلا أن مشاعر الوحدة والتكافل كانت تربط بينها مما يعرف بالعصبية التي تكمن فيها القوة الحقيقية لبلاد العرب. فالولاء لا يكون بين فرد وآخر وإنما الولاء المطلق يكون للقبيلة.

وفي الحجاز، كان البدو يعيشون على حليب نوقهم، وعلى التمر والحبوب من بساتين واحاتهم فلم تكن ثمة نقلة من الصحراء إلى أماكن الزراعة، وكانت قبائل غرب الجزيرة الكبرى مثل عتيبة وحرب وجهينة وبيلي ومضر، وبني عطية، تتكون من أسر تحيا وفقاً لتتابع أساليب الحياة: من الرّحل إلى شبه الرحل، إلى القرويين الذين نادراً ما كانوا يغادرون أماكنهم. وبينما كان يميل الذين كانوا ينتقلون إلى السخرية ممن هم أكثر استقراراً، إلا أنهم كانوا أقرباء، ويعُتبرون جميعاً شرفاء، ويستمدون شرفهم من سمعة القبيلة.

فرغم أن الأفراد في كل قبيلة كانوا متساويين، وكان الشيوخ مجرد رؤساء داخليين، إلا أن القبائل نفسها لم تكن متساوية فيما بينها. فقد كانت أنبل القبائل في وقت ما هي أقواها، وكانت تغير أنسابها وفقاً لهذا. وكانت هناك بعض القبائل المنبوذة مثل شرارة والعواصم والحطيم الذين لم يُقبلوا كمحاربين، ولا يقبل أحد الزواج منهم. كما كان هناك قوم آخرون غير منتمين يسمون بالصُليب وكانوا صناعاً غير مهرة وصيادين وعطارين. أما بنو عقيل فلم يكن ينتمون لأي من هذه المجموعات. فقد كانوا في غالبيتهم قرويين مستقرين من واحات القصيم ونجد، ولا يكونون قبيلة، بل جماعة من تجار الإبل ومرشدي القوافل عرفت في أنحاء الجزيرة

بصفتهم سماسرة أمناء، وخبراء إبل من أفضل مستوى، ومحاربين مرتزقة شجعان يحظون بالاحترام ويحافظون على الولاء لمن يتولون حمايتهم. وكانوا يحظون بالاحترام فى جميع أنحاء الجزيرة رغم عدم كونهم بدواً. ورغم أن حياة البدو كانت شاقة فإن ما ادعاه لورانس من أنها كانت «موتاً فى الحياة» توضح جوانب عن شخصيته هو أكثر ما تصدق على حياة البدو. فقد كانت ثقافتهم فى الواقع متكيفة تماماً مع الصحراء لدرجة شعورهم بالانتماء إليها. كانت آليات بقائهم هى إبلهم وقطعان ماعزهم وأغنامهم. وكانوا يأخذون منها معظم ما يستعملونه ويبتاعون باقى احتياجاتهم فى المدن. لم يكونوا يحيون بالثروة المادية ـ فهى أمر عابر فى مثل هذا الخواء ـ لكنهم اعتمدوا على قدسية السمعة. فكان الرجل يكتسب الشرف بإظهار الشجاعة وقوة التحمل وحسن الضيافة والولاء. وعلى حين لم تنج قافلة غريبة أو شخص مسافر أو خيمة منافسة من أعمال السلب. فإن الفرد بمجرد تقاسمه الخبز والملح مع المضيف كان يعامل بميثاق الشرف. كان الغزو من أجل الإبل هو «بهارات» حياة البدوى ووسيلته لاكتساب الشهرة، وكان يهاجم الجميع، إلا إذا رأى عكس ذلك. وكان يقدم خدماته نظير الذهب، بيد أنه لا يبيع روحه قط.

كانت الأوجه الروحانية، لا المادية، هى أكثر أوجه حياة البدوى صعوبة على فهم الغرباء. فقد كان البدو يحيون فى تتابعية زمانية / مكانية تختلف عن تلك التى يحياها الأوربيون: عالم مسطح؛ أضواء فى السماء؛ عالم لا يقاس بالكيلومترات والأميال. كانوا يسكنون عالماً كل شىء فيه ـ شجرة أو صخرة أو عين ماء له روحه الخاصة. إلا أنه عالم ينسب كل ما فيه لله. فالبدوى لا يمتلك شهوة التوضيح، أو فكر يبحث من خلاله عن الحلول، أو مفهوم لتحسين حياته وبيئته. فالإجابة على كل سؤال مكانها الإيمان وليس العقل. كانوا يحيون فى عالم دون أمان جسدى حيث يمكن أن ينزل بهم الموت (من الغزاة أو العطش أو الجوع أو الكوارث أو المرض) فى أية لحظة. بيد أنه كان لديهم إيمان وجودى، مثل أى أوربى من العصور الوسطى، كان لديهم المعرفة المطلقة بمن يكونون وإحساس بالهدف، وحس بالمعنى، وشعور بأن الله يحرك الأمور لما هو خير؛ حس بأنهم ينتمون للأرض وللكون؛ ذلك الذى افتقده الأوربيون المحدثون.

اخترق يوهان لدوفيج بيركهارت وريتشارد بيرتون مكة والمدينة متخفيين كمسلمين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأيضاً قام تشالز داوتى برحلاته فى الجزيرة العربية فى السبعينيات من القرن التاسع عشر. إلا أن الكثير من الأرض نفسها لم يكن معروفاً للعالم الخارجي. فقد أخبر دافيد هوجارث الجمعية الجغرافية الملكية أنه «حتى عام ١٩١٤، فإن أفضل معرفتنا بشبه الجزيرة العربية، بجميع أنحائها كانت جد ناقصة، ولم تكن معرفتنا بالنسبة لأكثر من نصف هذه المساحة الهائلة تساوى شيئاً يذكر.. وكانت المناطق شبه المجهولة هى التى تقع فى المنتصف ـ خاصة منتصفها الغربى؛ وظل الجزء الأكبر من هذه المنطقة محظوراً. كأرض مقدسة ـ على الرحالة والمكتشفين الأوربيين، سوى من كان يخاطر بنفسه منهم، ويتخفى بمهارة، الأمر الذى أعاق، إن لم يكن حال دونهم ودون ملاحظة الحقائق والمعالم ذات الأهمية الجغرافية وتسجيلها». ولم يكن قد تم مسح منطقة تهامة أو ساحل الجزيرة على البحر الأحمر، التى ظلت فى هذا الصدد مثلها مثل منطقة القطب الجنوبى. كما لم يكن لدى البريطانيين خريطة للجزء الداخلى يعتد بها. ولم يكن باستطاعتهم معرفة المسافة بين خط سكك حديد الحجاز والساحل أو حتى عدد المحطات جنوب العُلا. كما لم يكن بمقدورهم تحديد خط الطول عند أية نقطة لمسافة مائتى ميل من تلك البقعة وحتى مكة، أو أين، على وجه التحديد، تقع المدينة وكيف تبدو. وكان التخطيط الذى رسمه بيرتون للمدينة هو الخريطة الوحيدة المتاحة. وحينما خطا لورانس على شاطئ جدة فى ١٩ أكتوبر عام ١٩١٦ كان يعرف أنه يدخل أرضاً مجهولة.

كان عمر الثورة حينذاك أربعة أشهر وكانت على شفا مأزق خطير. فقد استعاد الأتراك زمام المبادرة، ورغم أنه لم يكن لحسين خيار آخر، فقد بدا للبريطانيين أنه يتصرف باندفاع. فقد أرسل ابنه فيصل إلى دمشق فى يناير عام ١٩١٦ فى رفقة أربعين حارساً شخصياً من رجال القبائل، كى يثير عصياناً بين الفرق العربية فى الجيش العثمانى فى سوريا والعراق. واكتشف فيصل أنه لم تكن ثمة أية فرق عربية فى سوريا، لأن جمال باشا الداهية (الحاكم العسكرى) قام بإرسالها جميعاً إلى جبهات أخرى وحلت محلها فرق عثمانلية، وقد سبب هذا استياء فيصل. كانت سياسة جمال باشا الجديدة قمعية. فقد حكم على واحد وعشرين قومياً

عربياً بالإعدام شنقاً فى الأماكن العامة فى دمشق وبيروت، وكان بينهم قضاة وكُتاب ومفكرون. وكان أيضاً على وشك إرسال ٣٥٠٠ جندى مدرب منتقين بقيادة خيرى بك إلى الحجاز، بزعم أنهم فى طريقهم إلى اليمن لمرافقة بعثة ميدانية ألمانية بقيادة البارون أوتهامر فون ستوتزنجن؛ إلا أن الهدف كان إحكام قبضته على الحجاز. وأدرك حسين أن أحكام الإعدام كانت ترمز إلى ثقة الأتراك الجديدة التى ألهمهم إياها نجاحهم فى غاليبولى والكوت، وراوده الشك أن الهدف الحقيقى وراء بعثة خيرى بك كان خلعه هو، وعرف أن عليه أن يتصرف قبل وصول القوات الجديدة إلى المدينة. وكان قد أسّر بالأمر إلى بنى حرب وعتيبة وجهينة وآخرين، وكان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على قواته من البدو وأن لديه فرق الهجن الدموية المدربة من مرتزقة بنى عقيل ورجال حرس بيشة من القبائل - سكان مرتفعات عسير - إلا أنه لم يكن لديه قوات نظامية، وإمدادات حديثة خاصة من الرشاشات والمدافع. بيد أنه كان يثق فى قواته البدوية وكان يعوق حركته عامل واحد فقط؛ فقد كان فيصل مايزال فى سوريا معرضاً لأن يقبض عليه جمال باشا بمجرد تسرب أى شىء عن أعمال قتالية. وبمهارة، حل فيصل المشكلة سريعاً بأن خدع جمال بإقناعه أنه سيعود للحجاز فقط لإحضار قوة متطوعين للجيش التركى. وغادر دمشق يوم ١٦ مايو وترك رجاله الأربعين تحت إمرة نسيب البكرى من «الفتاة» مع تعليمات لهم أن يهربوا بمجرد تلقيهم كلمة السر. ووصل إلى المدينة فى الأسبوع الثالث من مايو وبذلك صار الشريف حراً فى توجيه الضربة.

تعالى صوت المؤذن الوحيد من أعلى مئذنة المسجد الحرام فى مكة فجر ١٠ يونيه. كان الجو مازال لطيفاً فى هذه الساعة، والسماء صافية كالزجاج المشتعل، والهواء الساكن يحمل نذير حرارة ملتهبة. كانت هناك أشباح أشخاص معتمة فى الشوارع؛ بدو يلتحفون العباءات وقد غطوا وجوههم بإحكام بأغطية رءوسهم، وكانوا يختلطون برجال المدينة المندفعين لتأدية الصلاة. وفى معسكرات جِرول بطريق جدة حيث كان القائد التركى قد قضى ليلة، كان الأتراك ينامون وهم واثقون أن حرس وبنادق قلعة إجياد ستحميهم. كانت القلعة عبارة عن حصن ضخم ذى أبراج عديدة مقام على بقايا صخرة أعلى مدينة مكة. كانت القوات قليلة العدد - أقل من ١٥٠٠ رجل - إذ إنه فى فصل الصيف، كان الحاكم معتاداً

على الانتقال، مع أغلب الحامية، إلى مقره في الطائف الأكثر برودة. وكان نائب الحاكم في مبنى الحميدية، حيث مكاتب الحكومة، قائماً يتوضأ. وتوقف برهة للاستمتاع بجمال الأذان. وغير بعيد عنه، في القصر الهاشمي، كان الشريف حسين يستمع باهتمام إلى نفس الأذان الواضح، وهو يحملق من النافذة، ويرقب الأشخاص الذين كانوا يتجمعون ببطء في الشوارع. وفجأة توقف الأذان، وساد الصمت لبرهة. والتقط الشريف مدفعه، وبتمهل مدروس، أطلق من النافذة الطلقة التي بدأت على أثرها الثورة العربية رسمياً.

كانت هذه هي الإشارة التي ينتظرها رجال القبائل. وسرعان ما خلعوا عباءاتهم وأطلقوا وابلاً من القذائف على القلاع التركية، وعلى المعسكرات ونقاط الحراسة والمكاتب. استيقظت القوات في جرول ليجدوا القذائف تندفع من خلال نوافذهم كالذباب. ونهض القائد من سريره لينظر حوله مرتبكاً. فقد كان يهاجَم ولا يعرف ممن. واستمع بانتباه لدوى المدافع والرشاشات التي كانت سترافق الهجوم لو أنه كان هجوماً من الحلفاء؛ إلا أن ما سمعه كان فقط نيران الأسلحة الصغيرة. وحينما نظر خارج نافذته أبصر علماً قرمزياً يرفرف على القصر الهاشمي، لكنه لم يتبينه كرمز هاشمي إذ كانت الراية العثمانية قرمزية أيضاً. وسرعان ما أدار قرص الهاتف وحادث قائد بطارية قلعة إجياد. وكان قد أعطى أوامره للجنود في نفس اللحظة تقريباً باحتلال مواقعهم. وظهرت زخات الدخان عند فتحات البنادق في القلعة وتبعها زئير الطلقات في الشوارع. وبدت أصوات المدافع للمهاجمين البدو كشياطين الرعود. فقد كانوا مسلحين فقط بالبنادق الخفيفة muskets، ولم يكونوا قد سمعوا من قبل صوت المدافع. وفي معسكرات جرول، كان الأتراك قد استعادوا جأشهم بعد المفاجأة الأولى، وأخذوا يردون على النيران بقوة وقد شجعتهم أصوات المدافع. وبعد ذلك هاتف القائد الشريف قائلاً إن البدو يهاجمونهم وسأله عما إذا كان باستطاعته فعل أي شيء إزاء هذا. وأجاب حسين «بكل تأكيد» وأعطى الإشارة بتجديد الهجوم.

وفي التاسعة، وحينما كان الناس يستشعرون حرارة النهار المشعة في الشوارع، طلب القائد التفاوض. وسار الموظف المدني المحلي إلى المعسكرات رافعاً راية بيضاء وأخبره «أن هذه البلدة قد أعلنت استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية وأن

الأعمال القتالية ستتوقف فقط حينما تخلى قواتك المعسكر وتسلم أسلحتها كلها إلى القائد العربى» . وأمر القائد . وقد أذهله اكتشاف الموقف بطارية إجياد أن تطلق النيران . فقد صمم على المقاومة . واستمر القصف متقطعاً طوال النهار والليل ؛ وفى الصباح التالى هجمت جماعة من البدو على مقر الحراسة الرئيسى بجوار الحرم وكان أعضاؤها يطلقون صيحات الحرب ويلوحون بسيوفهم ورماحهم التى كانت تبرق بريقاً قاتلا فى ضوء الشمس . واندفعوا من أبواب المقر وأسروا المدافعين عنه . وفى اليوم التالى هجموا على مبنى الحميدية حيث احتمى نائب الوالى مع مرافقيه . وكان هو ورجاله قد أخذوا فى إطلاق النيران على كل من كان فى مرمى الطلقات ، وأصابوا بذلك عدداً ممن كانوا فى طريقهم للصلاة فى المسجد . وسار البدو خلسة من باب إلى باب إلى أن شنوا هجمة من مدى قريب وقفزوا من الظلال متصايحين . وألقى الأتراك بمدافعهم وقد أخافتهم ضراوة المهاجمين ورفعوا أيديهم مذعورين . ثم اقتيدوا إلى القصر الهاشمى حيث أرسل نائب الحاكم خطابات إلى القوات فى جرول وإجياد يأمرها بالاستسلام . بيد أن الوحدات التركية أصرت على عدم الإذعان واستمر أفرادها يطلقون النيران فى المدينة عشوائياً لدرجة أنهم أشعلوا النيران فى كسوة الكعبة ودمروا مقام إبراهيم وأحدثوا شقوقاً فى نقوش كانت تخلد حياة الخليفة عثمان . وكان لكل تلك الأفعال تأثير دعائى مضاد لهم . كما كان آخر عمل فى تلك القائمة نذير شئوم لأن اسم عثمان كان مرتبطاً باسم سلف الأتراك العثمانيين . بيد أن الموقف أضحى راكداً . فلم يكن بمقدور العرب الهجوم على إجياد حيث البطاريات المميتة كما لم يكن الأتراك قادرين أو مستعدين لشن هجمة مفاجئة . وظل الموقف متجمداً حتى أول يوليو حينما وصلت بطاريتان من مدافع الجبل بقيادة سعيد باشا على . ورغم أن المدافع كانت عتيقة أرسلها على وجه السرعة السير ريجينالد وينجيت سردار الجيش المصرى من بورسودان ، إلا أنها كانت مجدية للقصف عن قرب . وفى الوقت نفسه تقريبا أوقعت بطاريات المدفعية بعض المدافع التركية فى إجياد وأحدثت فتحات فى الجدران مكنت البدو ، الذين كانوا قد تمكنوا من تسلق المرتفعات المحيطة ، من الإلقاء بأنفسهم داخل القلعة ، وأعملوا القتل فى رجال الحامية وأسر من تبقى منهم ، واستولوا على خمس قطع مدفيعة ، و ٨٠٠٠ بندقية ،

ومئات الآلاف من صناديق الذخيرة. وحينذاك، وجهت مدافع الجبل إلى معسكرات جرول، وأشعلت الطلقات النيران فى المبنى ناشرة دخاناً مسمماً داخله. واستسلم الأتراك، الذين لم تكن لديهم مياه لإطفاء النيران، يوم ٩ يوليو. وبعد قتال استمر شهراً، كان العرب قد قتلوا وأصابوا ما يقرب من ٣٠٠٠ تركى، وأسروا الباقين. ومن ثم، كانت المناورة الافتتاحية للثورة العربية نجاحاً مذهلاً.

وكان قد تم الاستيلاء على ميناء جدة منذ زمن طويل. وهنا، استعمل حسين الذهب لإثارة جزء من قبيلة حرب ـ وكانوا جماعات من قطاع الطرق المعروفين ـ بقيادة محسن بن منصور، وهو شريف شجاع كان يحظى بكثير من الاحترام. وكان بنو حرب متمردين جامحين غير أهل للثقة، إلا أنهم كانوا يقاتلون نظير الذهب. وتجمهروا حول جدة لعدة أيام، وفى صباح ١٠ يونيه امتطى ٣٠٠ رجل من القبيلة إبلهم وخيولهم وتدافعوا فى اتجاه أبواب المدينة وقصفوا السهل بالمدافع، فانتشر الدخان بين الإبل المهرولة، ورشقوا الصفوف الأمامية بنيران الرشاشات. ثم استدار بنو حرب فجأة وانسحبوا خارج مدى النيران. وأرسل محسن فرقة من ركاب الإبل إلى الشمال الغربى لقطع إمداد المياه عن الحامية العثمانية التى كانت تتموضع خارج الجدران. وفى اليوم التالى دخلت سفينة البحرية الهندية هاردنج والزورق الحربى فوكس من أسطول الدوريات البريطانى فى البحر الأحمر الميناء وأمطر الحامية بالنيران المركزة فقتل ثلاثة من رجال الدرك الأتراك. وتكرر القصف يومياً حتى رست حاملة الطائرات بن ـ ماى ـ شرى قرب الصخور وانطلقت منها طائرات بحرية حلقت فوق أسوار المدينة وأسقطت فوقها القنابل. وفقدت الحامية التركية عزيمتها، وأصاب أفرادها العطش؛ ولدى علمها بعدم وجود تعزيزات فى الطريق إليها استسلم قائدها للشريف محسن. كما تحققت نجاحات مماثلة فى موانئ على شواطئ البحر الأحمر مثل ميناء المدينة وينبع، ورابغ التى تم الاستيلاء عليها بنهاية شهر يوليو. كما تم الاستيلاء على ليث والقنفذة فى الجنوب فى نفس الوقت تقريباً، وهربت القوات التركية عند أم اللج إلى الصحراء حينما أطلقت القذائف من الطراد فوكس على شارع رئيسى فى المدينة واخترقت أسوار القلعة. إلا أن مدينة الطائف الواقعة على مرتفعات الحجاز على بعد حوالى خمسة وسبعين ميلاً شرقى مكة فقد برهنت على صلابتها.

كانت الطائف، التى تقع على سهل رملى وسط بساتين الفاكهة وحدائق الزيتون على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر، مدينة مسورة. وكانت تخدم كسوق لبنى عتيبة، وهم بدو من وسط الجزيرة، وأيضاً لعدد من القبائل شبه الرحل. وكان قد تم إرسال عبد الله إلى هناك، مع سبعين من جماعة العقيل الممتطين فى أول يونيه بمجرد سماع عبد الله أخبار تقدم خيرى بك. وعسكر بقواته غرب المدينة، وأخبر الحاكم المحلى أحمد بك، أنه فى غزوة ضد البقوم، وهى قبيلة رُحل تعيش فى خمسمائة خيمة وتسكن وديان عسير. وكان أحمد بك يساوره الشك، إلا أنه حدس أنه مهما تكن نوايا الشريف فهو ورجاله السبعون من العقيليين سيئو التسلح لا يمثلون خطراً إزاء الأتراك البالغ عددهم ٣٠٠٠ رجل. وكان بحوزتهم عشرة من مدافع الجبل. وأخذ عبد الله يبعث رسله إلى معسكرات العتيبة والقبائل الأخرى يدعوهم للانضمام إليه ويعرض عليهم الأموال والأسلحة. وفى غضون أيام قليلة وصل البدو على إبلهم فى مجموعات صغيرة لا تلفت الانتباه وبسرعة فائقة ازدادت قوات عبد الله عدداً وبلغت ٥٠٠٠ فرد. وراقب أحمد بك، الذى كان يزور معسكر عبد الله كل مساء، جمع رجال القبائل والإبل بقلق. وفى خلال أسبوع كان الشريف قد أتم استعداداته لإعطاء الأوامر بالهجوم. إلا أن غالب باشا حاكم الحجاز استدعاه فجأة فى الليلة المحددة لبدء الهجوم. ونصحه مستشاروه الرئيسيون بتوخى الحذر. ورغم ذلك، ركب الشريف بشجاعة إلى قصر غالب باشا فى رفقة بدويين فقط تركهما فى الخارج بعد أن أمرهما بهدوء أنه فى حالة محاولة القبض عليه يكون عليهما منع الخطر من الخارج بينما يتولى هو معالجة الأمور مع الوالى. وسار عبد الله إلى الوالى ليجد أنه أراد أن ينصحه بعدم تنفيذ غزوته ضد البقوم وقال له «ثمة شائعات عن قيام ثورة فى أية لحظة الآن. هل ترى كيف يغادر سكان الطائف منازلهم مع عائلاتهم؟» فاحتج عبد الله قائلاً «دعنى أنفذ الغزوة كى يستعيد الناس ثقتهم». وفى تلك اللحظة دخل أحمد بك الغرفة وكان يبدو مهتماً واستعد عبد الله للتصرف. وهمس القائد بشكوكه فى أذن غالب مقترحاً القبض على عبد الله فى الحال. وترقب الشريف متحسساً مسدسه تحت عباءته. إلا أن الحاكم أشار للقائد بعد دقائق أن يتنحى جانباً وغادر عبد الله المكان طليقاً. وبمجرد وصوله إلى المعسكر بعث مجموعة من بنى عقيل ليقطعوا أسلاك البرق إلى مكة، وأمر كشافته بمنع أى مراسلين من مغادرة الطائف أو الدخول إليها حتى لو

أدى هذا إلى إطلاق النيران. وفى ليلة ١٠ يونيه حاصرت قواته الجزء الشمالى من المدينة، إلا أنه تم صدهم بسهولة حيث كان أحمد بك قد قوى أسوار المدينة بدعامات طينية وحصنها بخنادق. وكتب عبد الله يقول: «لقد نفذنا الهجوم بكثير من العنف. فقد قام رجالنا فى المركز بشن غزوة وعادوا ببعض الأسرى والغنائم. وفى الصباح الباكر بدأت المدفعية التركية تقصف مواقعنا قصفاً شديداً. ومن حسن الحظ أنه لم يحدث هجوم للمشاة». وفى غضون الأيام التالية حاول العرب غزو مواقع متفرقة بانتظام، ليجدوا أنفسهم وقد تفرقوا بسبب ضوضاء مدافع الأتراك. ومن ثم، فقد بنو سعد، وهم قبيلة من المزارعين، أعصابهم لدرجة أنهم تخلوا عن الشريف واتجهوا إلى قراهم. وتحين عبد الله فرصته بتأن، حتى وصلت مدافع الجبل المصرية فى منتصف يوليو، ثم حملها قطعاً قطعاً إلى أعلى وادى فاطمة من مكة ومعها مدافع هاوتزر التى كان العرب قد استولوا عليها. إلا أن حالة الركود استمرت. وفى هذا الصدد، قال عبد الله فيما بعد إنه لم يوظف المدفعية بالقدر الذى كان يتوجب عليه من أجل الاستفادة منها، على حين قال رجال المدفعية المصريون لهيوبرت فيما بعد إن البدو أصابهم الخوف من الهجوم، وأنهم لم يستغلوا قذائفهم أبداً. إلا أن صبر الشريف آتى أكله فى النهاية إذ استسلمت حامية الطائف فى ٢٢ سبتمبر وأسر الحاكم.

بقليل من المساعدة من البحرية الملكية البريطانية، وعدد محدود من القوات المدربة والآليات الحديثة سيطر الهاشميون على أهم المدن فى الحجاز. واستولوا على كمية هائلة من المعدات الحربية. أما الأهم منهذا فهو أنهم حققوا نجاحاً دعائياً لامعاً، وتوارت الأحلام التركية / الألمانية بشأن الجهاد المقدس. وقد اعترف جمال باشا بهذا فى خطبة عامة وصف فيها حسين بأنه شخص خائن وخسيس، أما المشكلة بالنسبة للعرب فتمثلت فى كون المدينة، لا مكة، هى مفتاح الحجاز. ولم يكن قد تم الاستيلاء عليها. فلم تكن المدينة فقط واحة ذات اكتفاء ذاتى، وأبعد ما تكون عن مدى مدافع البحرية البريطانية، لكنها كانت متصلة بالعالم الخارجى مباشرة عن طريق خط السكك الحديدية. وبحلول شهر يونيه كانت حاميتها قد وصلت إلى ١٢٠٠٠ جندى بقيادة فخرى باشا «سفاح أورفه» الشهير، وكان

جندياً موهوباً قوى العزيمة لا يرحم. وتدريجياً، أدرك حسين وأبناؤه أنهم لم يقدّروا قوة السكك الحديدية حق قدرها. فطالما بقيت المدينة في يد الأتراك استطاعوا نقل أى عدد من الرجال والمعدات إلى الحجاز، وشن الهجوم المضاد.

بعد أن رفع على وفيصل العلم فى ٥ يونيه، قاما بتقسيم قوة البدو إلى ثلاث فصائل قامت إحداها بنزع قضبان السكك الحديدية شمال المدينة بأيديهم المجردة، ولم يحقق هذا شيئاً، إذ إنه بدون متفجرات كان من غير الممكن إحداث تدمير دائم، ولم يكن لدى الأتراك نقص فى القضبان الاحتياطية، كما كانت محطاتهم القلاعية مزودة بفرق الإصلاح وكانت محيط أول محطة على خط السكة الحديدية، وتبعد ثلاثة عشر ميلاً غرب المدينة، وكانت مبنى صلداً من البازلت يحرسه حصن ضخم قوى يقع أسفل غطاء من التلال المنخفضة. وفى صباح ٥ يونيه انهالت النيران داخل المبنى من القناصة فى أماكن مختفية فى التلال المحيطة، بينما قامت فرقة أخرى بمناوشات عبر السهل المفتوح باتجاه الموقع. وكان الأتراك جيدى التحصين وردوا التقدم بنيران الرشاشات. ومما جعل الأمر أكثر سوءاً أن قوة كبيرة من المشاة بقيادة فخرى باشا شخصياً اندفعت من المدينة وهاجمتهم من الخلف. وتراجع العرب إلى التلال وأعادوا تجميع صفوفهم وشنوا هجوماً جماعياً على المدينة قوبل بنيران مكثفة من المدافع والرشاشات. وألقت أصوات المدافع الرعب فى قلوب البدو لدرجة أنهم استداروا معها ولاذوا بالفرار. واحتمى بنو عتيبة وعقيل بالصخور السوداء وركام الحمم ورفضوا أن يتزحزحوا. وأخذ فيصل يخطو بثبات ممتطياً جواده الأشهب ومرتدياً أبهى حلل الشرفاء، وسط سيل قذائف الأتراك والمفرقعات المتفجرة فى محاولة منه لحفزهم. لكن دون جدوى، فلم يكن للبدو أية خبرة فى هذا النوع من المجازر؛ وكان فيصل قد وضع ثقته فى بنى على، وهى قبيلة مزارعين تسكن قرية العوالى خارج أسوار المدينة وتتحكم بهذا فى إمدادات المياه. إلا أن هدير المدافع وفرار قوات البدو غير النظامية كان فوق احتمالهم، فطلبوا هدنة من الأتراك. وبينما كانت المفاوضات جارية، أحاطت قوات فخرى بالقرية، ودخلوها بعد إشارة متفق عليها ومعهم حرابهم الموجهة وقتلوا كل الرجال والنساء والأطفال، وأحرقوا المنازل ووجهوا الرشاشات إلى الأبواب كى يصيبوا من يحاولون الهرب. ولدى وصول فيصل ومعه حفنة من

البدو لإنقاذهم راعهم ما شاهدوه. فقد كان هذا الذبح العبثي للنساء والأطفال من البشاعات التي لا تنسى. وكانت تلك هي الضربة القاضية لروحهم المعنوية؛ وأجبر الهاشميون على التراجع، في البداية إلى بئر ماش جنوب المدينة، ثم إلى وادي عتيق. وطاردهم الأتراك ككلاب صيد وهم يدفعون بهم من مكان إلى آخر حتى تشتتوا. وقاد فيصل قواته إلى ينبع النخل - واحة من النخيل في تلال المدينة - وذهب علي إلى وادي إثم على بعد حوالي ثلاثين ميلاً جنوب غرب المدينة، حيث تمكنوا بصعوبة من الصمود. وقد أوشكت أطعمتهم على النفاد. وبدأ الأتراك في التقدم دون هوادة، وأخذوا يجمعون الإبل لركوبهم من القبائل المجاورة، ويستولون على الآبار والنقاط القوية ويحصنونها. وظلت القبائل العربية دون إمدادات أو ذخيرة سوى النزر القليل الذي كان يصلها من مكة بدلاً من رأس الجسر الساحلي عند راغب. وفي منتصف يونيو تم دعم قوات عليّ بفصيلة من الجنود العرب النظاميين الذين كانوا أعضاء سابقين في الفرق العثمانية التي أسرها البريطانيون وأفرجوا عنهم كمتطوعين في سبيل القضية العربية. وكان هؤلاء تحت قيادة ضابط مدفعية عراقي ذي مقدرة عالية هو نوري السعيد، الذي رأى من فوره أن موقف عليّ كان ميئوساً منه. فلم يكن بحوزته أية معلومات عن تحركات العدو؛ وكان على نوري السعيد أن يحدد مواقع ثلاث كتائب تركية، كانت تقتفي أثره بأن أرسل رجاله كخدعة لاجتذاب الطلقات. وكانت الذخيرة تقترب من النفاد وقد سيطر الأتراك على أقرب مصادر المياه. وشعر نوري السعيد أن قوات البدو غير مستطيعة وقف تقدم الأتراك، ونصحه بالانسحاب إلى الشاطئ في حماية مدافع البحرية البريطانية. ورأى أنه بالإمكان تكوين نواة للجيش العربي النظامي بقيادة عزيز المصري، وهو ضابط عربي متميز كان قد هرب من الأتراك، وقاتل مع السنوسي في صحراء ليبيا، ثم قام بعد ذلك بالتخطيط لاستراتيجية مفصلة للثورة العربية. واقترح المصري تكوين «طابور طائر» من العرب المتطوعين المتدربين وعددهم ٨٠٠٠ يمكنهم التحرك بمرافقة ثمانية من مدافع الجبل شمالاً من الحجاز إلى سوريا ويحطمون الخط الحديدي دون الالتحام مع الأتراك أبداً. إلا أن حسين منع هذه الخطة التي تبناها لورانس فيما بعد، وكان حسين يشك في ضباطه السوريين، وشعر أن مثل هذا الطابور الطائر سيكون خارج نطاق تحكمه. وفي الواقع، فقد قام

الشريف فيما بعد بالاستغناء عن خدمات عزيز المصرى المخطط الاستراتيجى لحرب العصابات، وكانت هذه خسارة للثورة لم تعوض. أما بالنسبة للموقف فى ذلك الآن، فقد نصح نورى على بالانسحاب إلى رابغ. وحينما فعل ذلك، تبين سبب عدم وصول آلاف الرشاشات وأطنان الإمدادات التى أرسلها البريطانيون إليهم.

وفى رابغ سرعان ما اكتشف على الإجابة على سؤاله الأخير. لقد سرق الشيخ حسين بن مبيرق الإمدادات: فقد كان الشيخ حسين بن مبيرق من زبايد حرب وكان مسئولاً عن الميناء. وكان لابن مبيرق ثأر مع الهاشميين، وكان أيضاً من المتعاطفين مع الأتراك سراً. واستدعى على أخاه الأصغر زيداً الذى حضر مع أحمد ابن منصور وقوة من بنى سالم، واستولوا على قرى ابن مبيرق بالقوة وعلى المخازن، وتتبعوا الخائن ورجاله حتى فروا إلى الجبال حيث ظلوا هناك كالأرواح الشريرة. وبدلاً من العودة إلى الميدان، ظل على وزيد هناك فى انتظار انتهاء عزيز المصرى ونورى السعيد من بناء قواتهما، وتركا فيصل يواجه الأتراك بمفرده. وأخذ الموقف يتدهور سريعاً. فقد كان لدى فيصل - الذى اتخذ له موقعاً فى درب سلطانى وهو الطريق الرئيسى إلى الساحل - ٤٠٠٠ من القوات النظامية تحت إمرته، وأيضاً كان بحوزته رشاشات ومدافع مصرية عتيقة بينما كانت مدافع الجبل التركية من ماركة كروب متفوقة عليها بقدر كبير. وكانت قوات فخرى فى المدينة قد بلغ مقدارها ثمانى كتائب كان لديها ستة عشر من مدافع الجبل واثنتين من معدات الميدان الثقيلة. وكان الفضل يرجع إلى السكك الحديدية التى مكنت الأتراك من نقل قوات جديدة طوال الوقت. ولم يكن باستطاعة قوات فيصل مواجهة قوات الأتراك ومن ثم أرسل الشريف جماعات من الغزاة يمتطون الإبل بقيادة الشريف على بن حسين من قبيلة الحارث، وكان شاباً معروفاً بضراوته، من أجل إقلاق راحتهم ليلاً بضربه مواقع الحرس والقوافل والاختفاء فى التلال. وعلى حين خسر العرب الكثير من القتلى، فلم يكد الأتراك يشعرون «بوخزات الدبابيس» هذه. وبدأ بدو فيصل فى الذوبان آفلين إلى خيامهم وقراهم. ولم يكن بوسع فيصل أن يمنعهم إذ إنه كان قد استأجرهم على أساس يومى ولم يكن لديه من النقود ما يدفع به أجورهم. وعند نقطة معينة، أجبر على إحضار صندوق ملأه بالحجارة الثقيلة وعين عليه حارساً طوال الليل لإيهامهم بقدرته على الإيفاء بالتزاماته. وشعر فيصل أن

غاية ما فى استطاعته هو الصمود لأسابيع ثلاثة أخرى، أما إجباره الأتراك على الانسحاب للمدينة فكان من ضروب المحال. وفى نهاية أغسطس ركب إلى الساحل حيث التقى بالليفتانت كولونيل سيريل ويلسون الذى كان قد تم تعيينه كممثل بريطانى فى جدة. وكان أصلاً حاكم إقليم البحر الأحمر فى السودان، وأُرسل إلى جدة متحدثاً باسم السير ريجينالد وينجيت، الضابط المسئول عن إمدادات الهاشميين فى ميناء بورسودان المجاور، وكان هذا أول لقاء لفيصل بالضابط البريطانى حيث شكا له باستفاضة عن حاجته إلى الذخيرة والإمدادات التى كانت من المفترض أن تصله من رأس الجسر الساحلى فى رابغ. وكان بحاجة إلى رشاشات ومدفعية حديثة وطائرات، بالإضافة إلى وجود قوات بريطانية فى رابغ. فقد كان من الواضح أن الأتراك يستعدون للتقدم باتجاه مكة، حيث ستكون رابغ، وهى مصدر المياه الأساسية على درب سلطانى، حجر العبور. وكان الجند النظاميون العرب غير مستطيعين إحكام قبضتهم عليها بعد، ولم يكن ذلك بمقدرة البدو. ورأى فيصل أن إنزال فرق بريطانية مدربة هو الحل الوحيد. ووافق حسين على ضرورة مثل هذا الإنزال لكنه اعتقد بوجوب أن يقتصر عدد القوات على ثلاثمائة رجل فقط. فقد كان يخشى من السماح لجند مسيحيين، أو مسلمين يعملون تحت إمرة المسيحيين، أن يهبطوا فى مجموعات كبيرة على الأرض المقدسة لأن الأتراك الذين كانوا قد عينوا الشريف المنافس لحسين، على حيدر، أميراً لمكة، كانوا قد أعلنوا أن حسين قد خان القضية بتحالفه من البريطانيين الكفرة. وكانوا ينوون فور استيلائهم على مكة شنق حسين علناً بصفته خائناً، وتدشين على حدير أميراً.

وفى سبتمبر، التقى فيصل بويلسون للمرة الثانية وكان برفقته إيه. سى. باركر الذى كان قد نقل إلى الحجاز كضابط مخابرات. وكرر فيصل الإلحاح فى طلب إنزال قوات بريطانية فى رابغ. ونظراً لأن ويلسون وباركر اقتنعا بقرب انهيار الثورة العربية فقد أسرعا إلى القاهرة لحث مَرى Murray على إرسال قوة بريطانية. ولم تكن القوة قد وصلت حتى نهاية سبتمبر، وبدا تقدم الأتراك نحو مكة وشيكاً مع اعتدال الجو. فقد كان كل ما فى طريق تلك القوة الساحقة هم جماعة بدو فيصل الهزيلة الممزقة المختبئة فى التلال.

الفصل الثاني عشر

«انقضت فى وسطهم كالحسام»

المهمة الأولى فى الحجاز أكتوبر ١٩١٦

12

في عام ١٩١٦ ، كانت
جدة ميناء ضئيلاً مسوراً تبلغ
مساحته نصف ميل مربع فقط .أما
الآن ، فهي مدينة مزدهرة تبلغ
مساحتها عدة مئات أضعاف ما كانت
عليه ويخدمها مطاران دوليان ، وتكاد
تغرق تحت سيل مزعج من السيارات .
وطرت إلى هناك وقيظ الصيف
في أوجه .

ولدى وصولي التصقت الرطوبة بجسدى مثل السترة. إلا أنه كان من دواعى سرورى أن أجد أنه قد تم الإبقاء على بعض الأجزاء المتفرقة من الميناء القديم. وكان قد بطل استعمال البحيرة الضحلة المتصلة بالبحر، والتى كانت رائحة الكبريت العفنة مازالت تتصاعد منها، كمرفأ للسفن. إلا أن ثمة بعض هياكل سفن متشابهة كانت ماتزال هناك على طول أرصفة الميناء. أما بوابة البحر القديمة، والتى كان لورانس قد دخل منها إلى المدينة قد تم ترميمها وبقيت أثراً. وشاهدت، بين المراكز التجارية مكيفة الهواء، والممرات الرخامية، نماذج من بنايات المساكن العالية الباروكية الطراز التى بنيت من الحجارة المرجانية والجيرية، والتى وصفها لورانس فى «أعمدة الحكمة». وكان بعضها ذا مساحات متواضعة ينتظم وسط مبانى حارات السوق الضيقة ويبدو مهدداً لأنه متهالك، بينما كانت البنايات الأخرى واسعة، لها سمات القصور، ذات واجهات ممتدة، وأبواب ثقيلة من خشب الساج المنحوت، ونوافذ خشبية مقوسة، ومشربيات مثل فلاتر الضوء الضخمة، وأشكال

تحاكى الشرفات و«الدرابزين»، وأشكال أخرى خشبية كبيرة لنوافذ وبوابات تحيط بواجهات المبانى بأكملها. وتجولت فى مناطق المشاة فى حرارة الصيف القائظة الرطبة وأنا أشعر بالسعادة لابتعادى عن ضوضاء السيارات، وحاولت أن أتخيل أننى رجعت إلى الزمن الماضى. ففى عام ١٩١٦ كانت هذه الحوارى، بالطبع، مظلمة، أو ممرات غير ممهدة تظللها أقمشة الأجولة التى يتسلل منها الضوء على شكل أشعة ذهبية، وتسدها الحمير والإبل المحملة؛ وتزدحم أثناء موسم الحج برجال حليقى الرءوس من كل الأجناس: أتراك، وبلوخستانيين وهنود وفارسيين، وآخرين من الملايو وجاوة، وأفارقة من زنجبار والسودان. إلا أن لورانس وجد جدة مدينة مهجورة فى أكتوبر عام ١٩١٦ وكتب قائلاً: «كانت خامدة، متوترة، مترقبة».. مدينة شبحية حيث كانت الأبواب تغلق دون صوت لدى اقترابه. وتتبعت طريق مسيرته وأنا أتحاشى السيارات وعثرت على المنزل الذى كان مقراً للبعثة البريطانية، وكان مبنى شبه مربع ذا نوافذ شبكية محفورة جيداً، وكان مطليا بألوان زاعقة، إلا أنه لم يكن مثل منازل السوق التى لا تخضع لنسق، الأمر

الذى كان مصدر جاذبيتها . كان قد تم ترميم المبنى بقدر كبير من الحماس وأصبح متحفاً للبلدية، وكان يقع على جزيرة مثلثة فى طريق الميناء الدائرى فى مواجهة السوق التجارى الكبير ذى الواجهة الزجاجية، وبدا قزماً بجوار جانب من برج البنك الأهلى التجارى المصنوع من الأسمنت والزجاج.

وكان لورانس وستورز قد وصلا إلى مبنى البعثة البريطانية فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩١٦ ليجدا سيريل ويلسون جالساً فى غرفة مظلمة خلف نافذة شبكية مفتوحة. وكان ويلسون، فى جوهره، رجلاً صادقاً شريفاً مستقيماً، اعتقد أن ستورز كان عاجزاً ومراوغاً، وأن لورانس، الذى كان قد التقى به مرة فى القاهرة، شخص يتظاهر بمعرفة كل شىء و«جحش صغير شديد الغرور». وكان يعلم أنهما لا يشاركانه رأيه بضرورة إنزال قوة بريطانية فى رابغ. وكان يشعر بالحرج من عدم إيفائه بوعده لفيصل. كما أنه رتب لقاء مع عبد الله الذى كان قد عاد منتصراً من الطائف ونصب خيامه عند مقبرة حواء على بعد أربعة أميال من المدينة. وركب ويلسون وستورز إلى خارج المدينة فى ذلك الصباح لمقابلة الشريف الذى جاءهم ممتطياً جواداً أشهب ودخل من بوابة جدة فى رفقة عدد من العبيد. وكان يرتدى ثياباً أنيقة مكونة من غطاء رأس من الحرير الأصفر وعباءة من وبر الجمل وثوب من الحرير الأبيض وحذاء من الجلد اللامع ذى رقبة تصل إلى الركبتين. وترجل عند مبنى البعثة البريطانية، وحضر اجتماع مع ستورز ولورانس وويلسون وعزيز المصرى رئيس الأركان الهاشمية الذى كان قد سافر إلى هناك مع ستورز، والسيد على باشا، الجنرال المصرى الذى قاد المدفعية فى التلال مع فيصل. وبعد أن وصف الأحوال فى الحجاز، كشف عبد الله عن قلقه بشأن الخطر الذى يتهدد رابغ. فلو حدث تقدم تركى لضاعت كل الانتصارات التى اجتهد العرب فى تحقيقها؛ فلم يكن سكان المدن جميعهم من مناصرى الهاشميين. كما كانت هناك مجموعات من البدو أنفسهم من جماعات حرب والبيلى وبعض الجهينيين الذين لم يكونوا موضع ثقة وقد يلحقون بصفوف الأعداء بسهولة. واستعلم بقلق عن إمكانية إنزال قوة بريطانية كان قد وُعد بها مراراً فى رابغ. وكانت تلك هى اللحظة التى كان ستورز يخشاها سراً. فقد كان السير آرشيبولد مرى، القائد العام البريطانى في مصر، هو من استنكر بعنف فكرة إرسال جنود بريطانيين فى اجتماع

له مع ويسلون فى الإسماعيلية يوم ١٢ سبتمبر، بحجة أنه كان بحاجة إلى قواته من أجل مهمة خطيرة هى حماية قناة السويس، وكان يخشى تصاعد عمليات جانبية لا يمكنه السيطرة عليها، كما حدث فى غاليبولى، تبتلع الأسلحة التى قد يحتاجونها فى أماكن أخرى. وكان مرى يرى أن الهاشميين قد أفسدوا «الثورة» وأرسل برقية إلى الجنرال روبرتسون رئيس الأركان الإمبراطورى فى لندن يقول فيها: «لقد أفسد الشريف الأمور، كما هو متوقع. ومن المحتمل أن يتمكن الأتراك من قمع الانتفاضة رغم الأعداد الكبيرة التى حشدت لمجابهتهم. ولا أعتقد أنه يجوز لنا إرسال قوات إليهم.. فلن تتوقف الطلبات إن بدأنا نحن إرسال قوة مشاة، فستليها المدفعية، ثم المهندسون، ثم جميع مؤن الحملات». وكان ويلسون وباركر يضغطان لإنزال قوة بريطانية، وكان مرى يبغض مثل هؤلاء الخبراء بغضاً تلقائياً تقليدياً، فكتب يقول «لا أثق فى أحكام أى مسئول عن الأمور العسكرية قضى الجزء الأول من حياته العملية فى هذه البلدة (مصر)، رجال مثل ويلسون وباركر اللذين يعملان الآن مع الشريف. فمثل هؤلاء مستعربون جيدون يعلمون عادات وتقاليد البلد، إلا أن توصياتهم العسكرية عديمة الجدوى ولا يمكن تنفيذها». وكان مرى قد رفض توصياتهما رفضاً قاطعاً، ودعم روبرتسون قراره فى لندن. وكانت مهمة ستورز المحرجة هى أن يبين لعبد الله أن الأمر لن يقتصر فقط على عدم إرسال القوات، بل إنه قد تم تعليق إرسال مبلغ العشرة آلاف جنيه استرلينى التى كان قد صدر قرار منحها له، كما تم سحب سرب الطائرات الذى كان قد أرسل إلى رابغ. وكان ستورز يعلم أن عبد الله سيعتبر هذا مرادفاً للخيانة. إلا أن ستورز سجل فى مذكراته أن عبد الله تقبل هذا «كجنتلمان من الطراز الأول. فلم تكن اللحظة التى أبلغناه فيها بالنكوص عن وعدنا بإمداده بالقوات، بل وسحب الطائرات أيضاً، لحظة محببة، ولا أود أن أُظهر حكومة جلالة الملكة لعربى فى هذا الضوء مرة أخرى». أما الواقع، فقد كان عبد الله مندهشاً وغاضباً، وذهب من فوره، بعد اللقاء، إلى الكولونيل برموند، الذى كان قد وصل لتوه ليكون مسئولاً عن البعثة العسكرية الفرنسية. وألمح عبد الله له أن الهاشميين قد يضطرون إلى السعى للصلح مع الأتراك نظراً لرفض البريطانيين مساعدتهم. وشعر برموند أنه إذا انسحب العرب من الصراع، فقد يطالب البريطانيون بأراضى الشرق الأدنى لهم

وحدهم فى حالة تحقيق النصر . فلم يكن باستطاعة الفرنسيين سحب أعداد كبيرة من الجنود من الجبهة الغربية للقتال ، أما الفرقة الفرنسية الصغيرة فى جدة ، فقد انحصرت أهميتها فى أنها هى التى ستضمن لهم مكاناً فى مؤتمر الصلح فيما بعد . فإن تحتم انسحاب تلك البعثة العسكرية فستتحطم آمال الفرنسيين حول سوريا . وأسرع برموند فيما بعد ، وهو يحمل الأخبار ، إلى ويلسون . وبعد تبادل محموم للبرقيات ، وافق البريطانيون على إعادة النظر فى المشكلة .

إلا أن هذا كله حدث فيما بعد . فقد جلس عبد الله خلال الاجتماع إلى النهاية صابراً . أما لورانس ، والذى لم يتكلم سوى قليل ، فقد بدأ بغضه له على الفور . وكما اعترف فيما بعد فقد كان الشريف «على قدر فائق من المهارة . كما كان يعلم أن عبد الله هو ساعد والده الأيمن ، وأن له شعبية كبيرة بين العرب . وكان مُحركا أولياً للثورة منذ البداية وفى الواقع ، فإن بالإمكان القول إن الثورة العربية كانت من خلق عبد الله . وكان ، وهو المرح المتفتح ، والمثقف المتحضر ، لا يتوافق مع مفهوم لورانس عن «المتوحش النبيل» . ولم يكن ثمة تشابه بينه وبين داهوم «البرىء» . فقد كان قوى الشخصية ، شديد الذكاء ، متمرساً فى شئون الدنيا ، مجربا ، خاض المعارك الدموية ، كما كان لاعب شطرنج من الطراز الأول . أى أن لورانس لم يكن يستطيع منابلته والتلاعب به . وأدرك لورانس أنه إن أراد البريطانيون التأثير فى الموقف لصالحهم ، فعليهم أن يجدوا رئيساً صورياً ، ويرسخوا أقدامه أو أن يجدوا قائداً يمكنهم تشكيله وفقاً لخططهم . فقد كان يرقب الأمور فى الحجاز عن كثب من شهر يونيو ، ويعلم أن الموقف حرج . وقال إن «الثورة كانت متوقفة ، الأمر الذى كان ينذر بكارثة فى حالة الحرب اللانظامية» . وكان ، بينه وبين نفسه ، ضد فكرة إرسال قوات بريطانية ، إلا أن أسبابه كانت تختلف عن أسباب مرى . فأولاً ، وكدعائى كبير ، فقد كان يعلم أن حرب العصابات تجرى على أساس أيديولوجى ، وأن وجود قوات من «الكفرة» على أرض الحجاز سيتسبب فى أن يبدو حسين كمرتّد ، على استعداد لتسليم المدن المقدسة إلى الكفرة . وثانياً ، وكان هذا أكثر أهمية بالنسبة له ، فلو حارب البريطانيون معركة العرب نيابة عنهم ، فلن يستطيع العرب المطالبة بدولة مستقلة بعد انتهاء الحرب . فلابد أن يُشاهَدوا وهم يقومون بثورتهم . فقد كان لورانس يؤمن إيمانا شديداً بقضية العرب ، إلا أنه رغم رغبته فى أن يراهم متحررين

من الأتراك العثمانيين، فمن غير المحتمل أنه قد اعتقد أبداً أنه يجب أن يكونوا مستقلين تماماً. ولم يكن، منذ البداية، يتصور دولة عربية واحدة، بل تكتلات صغيرة تمثل دولاً ضئيلة الشأن ذات استقلال صورى، تملأ بشكل طبيعى الفراغ الذى سيتسبب فيه سقوط الإمبراطورية العثمانية فى الشرق الأدنى. فلابد أولاً أن يتحقق النصر فى الحرب ثم تلتقى مصالح البريطانيين والعرب عند هذه النقطة وتتفرع من هناك، حيث إن الاثنين يريدان الانتصار على الأتراك. وبذلك، يتمكن لورانس من خدمة أهداف البريطانيين، وأيضاً من تحقيق استقلال العرب وهو يشعر أنه ليس ثمة تعارض بين هذه المصالح لبعض الوقت. وإن نشأ مثل هذا التعارض، فهو، دون شك، يعرف أولويات ولائه. فقد قال لكليتون فيما بعد «أنا مع بريطانيا، وأيضا مع العرب. وتحتل فرنسا المركز الثالث لدى. إلا أننى أعلم أنه قد يكون علينا أن نبيع أصدقاءنا الصغار كى نخدم أصدقاءنا الكبار، أو أن نبيع أمننا المستقبلى فى الشرق الأدنى، كى ندفع ثمن انتصارنا الحالى فى الفلاندرز». ورغم أنه قد يكون قد أدرك بينه وبين نفسه أن مشكلة الهاشميين كانت مشكلة سوء قيادة، إلا أنه قرر سراً أنه سيمدهم بالإرشاد الذى يحتاجونه، فقد كان ضابط مخابرات ملتزماً. ولم ير نفسه أبداً وهو «يقود فى المقدمة» وكان يؤمن بقوة أن مكانه خلف المكتب. وكان قد أنجز تصميمات ممتازة خلال الأشهر الماضية وقام بطبع عدد من طوابع بريد الحجاز كان هدفها أن تُرسى، فى أعين العالم، حقيقة أن الحجاز كانت مستقلة بالفعل.

وكانت مهمة لورانس فى الحجاز قد أتته بشكل غير مباشر. فقد كان الجنرال مرى قد أدخل تغييرات فى نظامه المخابراتى، حُرم بمقتضاه كليتون من سلطته المطلقة وأوكل إليه شئون المكتب العربى فقط الذى كان يرأسه حينذاك الماجور كينهان كورنواليس. وتضمن هذا التغيير إعادة توحيد قسم المخابرات فى القاهرة، الذى كان لورانس أحد أعضائه، ومثيله فى الإسماعيلية الذى كان يرأسه الماجور جى. فى. دبليو. هولديتش. وكان على المكتب العربى وقسم الاستخبارات أن يظلا هيئتين متمايزتين عن بعضهما تماماً. ولم يرغب لورانس فى الانفصال عن كليتون، ومن ثم حاول «جس نبض» إمكانية نقله إلى المكتب. وحينما حال

هولديتش دون إتمام النقل، التجأ لورانس إلى تكتيكات حرب العصابات. فكان يتسبب في إزعاج كبار المسئولين بأن يصحح أخطاءهم اللغوية الواردة في التقارير، ويسخر من ضآلة معلوماتهم عن جغرافية وعادات الشرق الأدنى. وحدث أن هاتفه أحد المسئولين في الإدارة ذات صباح وسأله عن موقع إحدى فرق الجيش التركي آنذاك، أمده لورانس بوصف دقيق وكفء عن مكونات الفرق ومواقعها لدرجة أنه حدد أسماء القرى التي كانت تتمركز فيها. وسأله الضابط المسئول «هل ذكرت هذه المعلومات في الملفات الخاصة» فأجابه لورانس «لا، من الأفضل أن أحتفظ بها في رأسي حتى أستوثق منها» فرد الضابط «لكنك لا تستطيع إرسال رأسك إلى الإسماعيلية في كل مرة» فقال لورانس «أود لو أمكنني هذا» وأنهى المكالمة.

وكانت مثل هذه الحيل نوعاً من العصيان، ولم تكن تحبب فيه رؤساءه. وأخيراً ذهب بشكواه إلى كليتون الذي وعده أن يطلب من المسئولين في لندن نقله كي يتخطى هولديتش. وفي تلك الأثناء، تمكن كليتون من إزاحة لورانس من طريقهم بأن طلب أن «يستعيره» من القيادة العليا. وكانت مشكلة كليتون الكبرى في الحجاز هي أنه، مع عدم وجود ضباط مخابرات في الخطوط الأمامية، لم تكن لديه سوى فكرة ضئيلة عما كان يحدث بالفعل أو عن عدد الفرق الحربية المتورطة. وكان ضابط مخابرات الحجاز، باركر، محدداً بمدينة رابغ. وأثناء لقائه هو وويلسون مع فيصل، شعر أن الشريف كان يميل إلى المبالغة، بأن يدعي، مثلاً، بأن الأتراك قد حشدوا قوات تقدر بخمسة وعشرين ألف جندي لمجابهته. ومن الواضح أن هذا كان هراء. وفكر كليتون في أمر المبالغات الأخرى التي قد يكون قد تم تمريرها على أنها حقائق. وبالإضافة إلى هذا فلم يكن يثق في أحكام ويلسون أيضاً، وكان يشك في أنه يقوم بالتلاعب في التقارير المخابراتية لتتفق مع تقديراته هو، وكان يشك أيضاً في أن ويلسون كان أحياناً يؤلف التقارير بشكل كلي. فلم يكن يعلم مدى التهديدات الواقعية من المدينة المنورة. وكان باركر يضغط على كليتون منذ فترة ليرسل ضابطاً إلى داخل الأراضي كي يحصل على معلومات كان هو في أشد الحاجة إليها، وكان من الواضح أنه كان يأمل أن يذهب بنفسه. إلا أن كليتون كتب إلى وينجت في ٩ أكتوبر أنه سيتم إرسال ستورز مرة أخرى لمقابلة عبد الله، وحسين إن أمكن. وأضاف «وأقترح إرسال لورانس معه إن سمحت له

القيادة العامة بالذهاب. فلا شك أنهما سيفيداننا، وسيحضران، فيما بينهما، تقديراً جيداً للموقف». وكانا قد غادرا السويس على السفينة «لمعة» يوم ١٤ أكتوبر. وفيما بعد، سيزعم لورانس أنه قد ذهب إلى الحجاز بدافع من نفسه كى يعثر «على الروح المحركة» للثورة. وكتب أنه قد طلب إجازة مدتها أسبوعان. ومن ناحية أخرى، ادعى ستورز أنه هو الذى طلب لورانس للمهمة، لأنه ببساطة كان يستمتع بصحبته، ومن ثم، فإنه هو الذى خلق «لورانس العرب» بالإضافة إلى الثورة العربية. وكانت الإجازة حقيقية، أى أنها كانت تقنية قصد بها الالتفاف حول أية معارضة قد يبديها هولديتش إلا أن ادعاء ستورز أنه هو الذى تقدم بالطلب نيابة عنه، وأيضاً ادعاء لورانس أنه قد ذهب بدافع من نفسه، فزائفان. فقد كان المكتب العربى هو الذى أرسله إلى الحجاز فى مهمة حيوية ومحددة.

وكان لورانس يعلم أنه لكى يأتى بتقرير صحيح، فقد كان عليه زيارة فيصل فى درب سلطانى، ولم ترق له الفكرة إذ كان يعلم أن الحجاز تعج بالمخبرين الأتراك والمتعاطفين معهم، وإنه إن قبض عليه، فستطلق عليه النيران كجاسوس. وإضافة إلى هذا، فلم يكن قد سُمح أبداً لأى ضابط مسيحى، بمن فيهم ويلسون وباركر، بزيارة الخطوط الأمامية. إلا أنه استعمل كل قوة تأثيره مع عبد الله، وتظاهر بمساندته لوجهة نظر الشريف بضرورة إنزال قوات بريطانية، وأوحى بشكل غير مباشر أن القرار بعدم إرسالها لم يكن نهائياً. وتجادل قائلاً إنه إذا سمح له بالحديث مع فيصل ورؤية الموقف بنفسه فقد يتمكن من مساندة قضية عبد الله بشكل أكثر إقناعاً. وكان عبد الله يشك فى أمره. ومن ثم، هاتف حسين فى مكة ليسأله رأيه، وتلقى الشريف الاقتراح بعدم ثقة. وكانت هذه هى أكثر اللحظات حسماً فى حياة لورانس كلها: ولو أن عبد الله أنهى المكالمة فوراً لانتهت القصة عند هذا الحد. ولعاد لورانس إلى مكتبه بالقاهرة غير آسف، ولم يكن للكولونيل لورانس أو «لورانس العرب» أن يولد أبداً، إلا أن عبد الله، لسبب ما، لم يُنه المكالمة. وجادل والده فى هذا الأمر، ثم أعطى السماعة لستورز الذى دعم الفكرة بكل ما يملكه من وسائل إقناع. ووافق الشريف بتراخٍ، وضد جميع مبادئه، أن يذهب لورانس إلى وادى صفراء ليزور فيصل. ولم يكن ثمة مجال للتراجع: فقد حُسم الأمر، ووجدت الأسطورة التى كانت فى سبيلها إلى التكوين، طريقها.

في عام ٦٢٤م اشتبك جيش محمد (ﷺ) مع قوة للأعداء في بدر حيث يلتقي وادي صفراء مع السهل الساحلي. وكان عدد المسلمين حينذاك قليلاً، ولو أنهم خسروا المعركة في بدر لكان ذلك أمراً جللاً في تاريخ مسيرة الإسلام. وبعد ألف عام من الموقعة، وجد أحفاد الرسول أنفسهم في موقف مماثل. ففي عام ١٩١٦ كان الشريف فيصل وقواته من البدو ينسحبون ببطء في وادي صفراء تطاردهم قوة تركية. ولو أن الأتراك قاموا بهجوم شامل مضاد في تلك اللحظة، لكان من المحتمل أن يخترقوا السهل الساحلي ويستولوا على رابغ ثم مكة، ولانتهت بذلك الثورة العربية.

وكانت بدر في زمن الرسول محطة هامة للتزود بالمياه في الطريق إلى مكة. إلا أنها قد تحولت اليوم إلى مجرد موقف للشاحنات في طريق السيارات ليس به مكان للإقامة. وصلتُ إلى هناك قادماً من جدة في حافلة في وقت متأخر من ليلة قائظة رطبة، ووقفت إلى جانب الطريق لمدة ساعة وأنا أحاول يائساً أن أشير إلى أي سيارة عابرة لتتوقف. وفي النهاية، ابتعت زجاجتي مياه، وسرت على الأسفلت لمسافة ميل حتى عثرت على بقعة رملية جافة حيث قمت بافتراش كيس النوم بعد أن تجنبت حية وعقربا. إلا أن القيظ لم يمكنني من النوم، فرقدت أرقب النجوم حتى الصباح. ولدى انبلاج الضوء، وجدت أنني في واد به رقع من أشجار الشوك والطرفاء، وكانت ترتفع فيه قواعد تلال جرانيتية شديدة الانحدار تلمع واجهاتها المنحوتة بزوايا حادة متوهجة في ضوء الشمس المبكر وكأنها جواهر مقطوعة. وكانت المنحدرات المنخفضة مغطاة بأعشاب رعي الماعز ذات اللون الأصفر الخردلي، والذي بدا عن بعد وكأنه بقع من آثار مرض جلدي تشوه الصخور. وأوضحت لي هذه الأعشاب المائلة للصفرة لغز اسم وادي الصفراء. ثم سرت عائدا إلى موقف الشاحنات. وبعد نصف ساعة من الانتظار وافق بدوي شاب من بني حرب على أن يوصلني إلى حمراء والمدينة بعربته نصف النقل نظير مائة ريال. وانفتح درب سلطاني، وهو الطريق الذي يزحف بامتداد وادي صفراء، أمامي كممر متعرج يتجه بثبات إلى أعلى إلى أن يصل «بانوراما» متسعة شاهدناها أمامنا، مشهد فضي ورمادي، كأمواج متعاقبة من السحب تمتد في المدى البعيد حتى بدت وكأنها تندمج مع السماء نفسها. ومررنا بقرية تلو الأخرى

منازلها من الطين المعالج بالحرارة، وهى الآن تقف دون أسقف على جانبى الوادى الصخرى وسط غابات من أشجار نخيل البلح: قرية الجديدة والحسينية والواسطة والخرمة. وكانت هذه القرى فى أيام لورانس فى قلب منطقة بنى سالم، وكانت تنتج تقريباً كل ما تحتاجه القبيلة من غلال وتمور. وكان البدو يقيمون فى القرى لمدة خمسة أشهر فى العام ويقضون بقية الأيام متجولين مع قطعان ماشيتهم ويتركون القرى فى رعاية عبيدهم الذين كانوا فى غالبيتهم من أصل إفريقى ولم تكن لهم مكانة قانونية وكان عددهم، وقت زيارة لورانس، ما يقرب من العشرة آلاف فرد.

وسألنى السائق البدوى عن مهمتى، وحينما ذكرت «لورانس العرب» تساءل «من»؟ وأجبت «رجل إنجليزى ساعد فى قيادة الجيوش العربية أثناء الثورة العربية العظمى». فتساءل ثانية «ماذا؟» وأجبت «لدى وجود الهاشميين هنا» فرد قائلا «آه، الهاشميون. لقد كان هذا منذ زمن طويل، إن هذا البلد الآن هو بلد السعوديين».

وتساءلت بينى وبين نفسى عما إذا كان هذا الرجل يتظاهر بالبلاهة أم أن الذاكرة القبلية قد أصبحت بالفعل قصيرة المدى. فقد كان بنو سالم، الذين كان ينتمى إليهم، إحدى العشائر الرئيسية فى قبيلة بنى حرب وهى قبيلة لها مكانتها فى الحجاز. وقد حارب أجداد هذا الشاب، وإخوان أجداده بالفعل مع فيصل، على حين ساندت جماعة أخرى من بنى حرب الأتراك. وكانت هذه الجماعة منافسة لعشيرته بقيادة «الخائن» الشيخ ابن مبيرق. وتذكرت فيما بعد أن بنى سالم كانوا هم من هربوا من خدمة الأتراك فى اللحظة المناسبة. وربما رأت القبيلة أنه من الأفضل تناسى هذه الذكريات.

وأدهشتنى حمراء. فلقد كنت قد تخيلتها قرية ضئيلة تقع فى شق على جانب الوادى. إلا أن مساحة المكان كانت هائلة، حيث كانت هناك آلاف من أشجار النخيل التى كانت رءوسها تتحرك مع اتجاه الريح مثل أعشاب البحر. وكان اتساع الوادى حوالى نصف ميل ويقع بين جدارين صخريين شديدى الانحدار. وكانت المنازل المهدمة تقع على حافة صخرية أسفل الرعن (أنف الجبل) الشمالى

وعلى تلال ترابية ترتفع من بطن الوادى بانحدار شديد. وكان لورانس قد ذكر أن عدد تلك المنازل هو مائة وخمسون، إلا أنه من الواضح أنه يوجد منها مئات كثيرة، كما كان هناك بقايا حصن تركى، جدعة طينية لا شكل لها تقع على جزيرة فى بحر النخيل. ولأجيال عديدة، كانت هذه القرية محطة على طريق الحجاج من ينبع البحر إلى المدينة. وحينما توقف ريتشارد بيرتون هناك وهو مُتخف كطبيب فارسى عام ١٨٥٢، كان يحرس الحصن فرقة من الجنود الألمان. وتسلقت الصخرة، وسرت متعثراً فى منطقة مكتظة بالحوائط الطينية المتكسرة المائلة والتى تآكلت بفعل الأمطار واتخذت أشكالاً سوريالية. وحاولت تصور ما كانت عليه هذه القرية فى أكتوبر عام ١٩١٦ حينما كان الوادى يعج بقوات فيصل المهزومة، وثلاثة من راكبى الإبل، أحدهم شخص إنجليزى كان قد ظهر فجأة على أطراف القرية.

فقد غادر لورانس ورفيقاه رابغ فى ٢١ أكتوبر تحت ستار الظلام. وكان الناظر عن بعد قد يظنهم بدواً حيث كان لورانس يرتدى غطاء رأس عربى ويخفى زيه العسكرى بعباءة.. إلا أنه كان من الممكن التعرف عليه عن قرب كشخص إنجليزى. فلم يكن فقط حليقاً ذا وجه تشوبه الحمرة، لكنه كان أيضاً لا يعلم شيئاً عن ركوب الإبل. وكان قد فضل السير على قدميه حينما وجد أن عليه أن يسافر ممتطياً جملاً فى النقب قبل ذلك بعامين. وكان الشريف على قد أمده على مضض بأفضل نوقه ومرافقين من بنى سالم وهما الشيخ عبيد وابنه عبد الله لاصطحابه إلى معسكر فيصل. ورغم أنه كان من المفترض أن يتخفى لورانس كشخص سورى إلا أن عبيد أمره ألا يتحدث إلى أحد. فقد كانت الصحراء والتلال مليئة بالجواسيس الأتراك، وكان ابن مبيرق «الخائن»، والذى كانوا قد مروا من منطقة عشيرته، سيسعده قتل لورانس أو بيعه للأتراك. وعبر المسافرون مناطق نخيل رابغ، ثم ساروا فى سهل تهامة الساحلى الممتد بلا نهاية. ولم يكن ثمة قمر، وكان الليل يتثاءب لا متناهياً أمامهم ولا يقطع صمته سوى إيقاع أظلاف الإبل على سطح الرمال. وحينما احتوتهم الظلمة، شعر لورانس فجأة بالترقب. فقد ولج بعداً معادياً مجهولاً لم يلجه سوى أوربيين قلائل ولم يغادره أحياء سوى عدد أقل. ولم يكن متأكداً أنه يثق فى رفيقيه. وكان، بالطبع، يعلم أن دور الرفيق كان

دوراً وقوراً بالنسبة للبدو. فقد كان على كل مسافر يريد عبور تخوم قبيلة ما أن يكون معه رفيق من القبيلة المحلية أو القبائل المتحالفة معها كى يسهل له المرور. لو هجم الرفيق على من قَبِل تولى مسئوليته لاعتبر هذا إهانة شائنة لميثاق الشرف البدوى. وكان إذا ثبت أن بدوياً قد ارتكب جريمة «البوقة» تم نبذه مدى الحياة ولا يقبل للزواج من نساء جماعته. وفى مجتمع قبلى، كان وجود الفرد دون قبيلة يعنى حكما بالموت، لأن أى قاطع طريق يمكنه أن يقتله دون خشية بدء نزاع ثأرى - وقد كان هذا هو العرف الاجتماعى الوحيد فى الجزيرة العربية الذى حال دون سفك الدماء على نطاق واسع، إلا أن لورانس ذكّر نفسه أن القواعد التى اتبعها البدو، مثلها مثل ميثاق شرف «الجنتلمان» فى إنجلترا، كانت مُثُلاً فقط. فمثلاً، كان قد تم اغتيال الرحالة الألمانى تشارلز هوبر الذى سلك نفس الطريق على يد رفاق من جماعة حرب حينما اكتشفوا أنه لم يكن مسلماً.

وناموا لساعات طويلة هذه الليلة وهم يلتحفون عباءاتهم. واستيقظوا فى برودة الفجر ووصلوا إلى بئر مستورة مع إشراق ضوء الصباح الباكر. وكان بعض من أفراد جماعة حرب المعادية يربضون تحت ظلالة من سعف النخيل. وتبعت أنظارهم جماعة لورانس بريبة وهم يمرون. ثم نزل لورانس ورفيقاه عن مطياتهم وجلس هو فى الظل. واصطحب عبيد وولده النوق لسقياها من بئر حجرية عمقها عشرون قدماً كانت قد أقيمت مواطئ للأقدام على جانبيها فى عمقها. وجمع عبد الله أطراف دشداشته فى حزام الطلقات، ثم علق قربة الماء المصنوعة من جلد الماعز على كتفيه ونزل البئر وهو يستشعر مواطئ الأقدام على جانبى البئر بمهارة. ثم ملأ القربة وتسلق صاعداً بشقة السحالى وصب المياه فى حوض صخرى. وحينما ارتوت الحيوانات، حمل عبيد طاسة مليئة بالماء إلى لورانس. وبعد ذلك شرب الرفيقان وجلسا مع لورانس فى الظل يراقبون رجال القبيلة المنافسة وهم يُروون قافلة من النوق الهزيلة ثم لف عبد الله سيجارة لنفسه.

وفى تلك اللحظة دهمت لورانس رؤية معينة. فبينما كانوا يرقبون ما يحدث، كما كتب لاحقا ،أتى شابان على جملين أصيلين عليهما أسراج فاخرة، وأناخاهما بجوار البئر. وألقى أحدهما، الذى كان يرتدى عباءة من الكشمير الفاخر، بالمقود

إلى الآخر وأمره أن يسقيهما . وسار النبيل الشاب بكبرياء إلى حيث كان يجلس لورانس ورفيقاه وارتمى على عَجُزه بجانبهم . كان الرجل نحيلاً ، أقرب إلى أن يكون صبياً ، يظهر عليه ميل للمشاكسة وله ملامح المحب للاستطلاع ، وشعر طويل مجدول بالأسلوب البدوى . وكان يبدو قوياً وعلى قدر هائل من الثقة بالنفس . ثم قدم للورانس سيجارة كان قد لفها ولصقها لتوه ، واستعلم عما إن كان سورياً . وترك لورانس السؤال معلقاً في الهواء وسأل الشاب إن كان من مكة . وفي تلك الأثناء ، كان رفيقه يجد صعوبة في سقيا الإبل . وكانت قطعان جماعة حرب المعادية تندفع بشراهة حول الحوض الحجرى ، ولم يعط رعاة إبلهم الفرصة للشاب ليسقى جمليه كما كان يقتضى ميثاق شرف المسافرين . وهنا صاح السيد متسائلاً «ما الخطب يا مصطفى ؟ اروهما فوراً» . فاقترب مصطفى منه وهو محرج وأخذ يشرح له كيف أن الرعاة الآخرين لم يسمحوا له بالسقيا . وعندئذ قفز الآخر واقفاً وتلفظ بقسم وقام بضربه ثلاث أو أربع ضربات بعصا على كتفيه . وبدا مصطفى متأسياً . إلا أنه ظل صامتاً . ورأى رجال جماعة حرب المعادية حول البئر أن عدم لياقتهم قد تسببت في إذلال الصبى ، لذا أسرعوا بإفساح مكان له عند البئر وأطعموا جمليه بعض العشب . وبعد أن أكل الجملان وارتويا ، تسلق «السيد» الصغير على جمله من غير أن ينخيه ، بل إنه جذب رأسه إلى أسفل بلطف ثم صعد على رقبته وقال لرجال حرب «جزاكم الله خيراً» وسار هو ورفيقه باتجاه الجنوب .

وبمجرد أن ذهبا بدا عبيد يضحك ضحكاً خافتا . وبعد أن امتطى لورانس ورفيقاه جمالهم وساروا باتجاه الشمال بيّن له عبيد أن «السيد» هو الشريف على ابن حسين الحارثى ، وأن مصطفى هو ابن عمه الشريف محسن .و كان الشريف على نائب فيصل الموثوق به ، ورغم حداثة سنه ، فقد اكتسب صيتاً غير عادى لشجاعته . وكان أحد حراس فيصل الشخصيين المختارين في رحلته إلى دمشق ، وحارب إلى جانبه ، أوائل شهر يونيو في السهول الدموية خارج المدينة . ثم قام فيما بعد ، بشن الغزوات ضد التقدم التركى عند بير درويش . وكان بين أفراد جماعة الحارث وجماعة حرب المنافسة عداوات ثأرية . ولو أن الرعاة قد شكوا في أمر هويتهما الحقيقيتين عند البئر لقاموا بطردهما . وقال عبيد إنهما اخترعا

تمثيلية السيد والتابع لخداع الآخرين. وأثر الشريف على فى لورانس تأثير السحر. واستمرت صورة المحارب الصبى «النبيل» التى لمحها عند مستورة فى رحلته الأولى فى الصحراء تأسره طوال الوقت الذى قضاه فى بلاد العرب.

ومثل الأحداث الأخرى المشكوك فى أمرها فى رواية لورانس، لا تظهر قصة اللقاء مع الشريف على فى التقارير الرسمية رغم أن لورانس كان يقوم بتسجيل تفاصيل أقل أهمية بكثير. وتأتى هذه الرؤية فى «أعمدة الحكمة» لتعّد المشهد لعالم من الخداع والصراع والقسوة وجد لورانس نفسه فيه آنذاك: عالم شباب حسنى المظهر يلتجئون باستمرار إلى استعمال العصا؛ عالم قبائل، بينها عداوات ثأرية ودموية، قبائل لا يمكن توحيدها إلا بتأثير هائل. إلا أنه من غير المحتمل أن يكون عبيد قد تعرف على هوية الشريفين من بنى حارث ولم يعرفهما أعداؤهما حول البئر. فقد كان البدو على قدر كبير من قوة الملاحظة، لا تفوتهم أية تفاصيل، رجال باستطاعتهم تذكر أثر كل جمل رأوه، والتعرف على العائلات والعشائر من مجرد الفروق فى الطرق التى يثبتون بها غطاءات رءوسهم. فلا يحتمل إذا أن يكون قد خدعهم عرض هاويين. وكان لابد أن يتبينوا أنهما ليسا مجرد سيد وخادم من مظهر مصطفى ومشيته وثيابه وسرج ناقته وعديد من التفاصيل الصغيرة الأخرى. ثانياً، فإن للقصة هذه صدى شائعاً معتاداً فى عديد من قصص «أعمدة الحكمة» الأخرى. فالألاعيب الصبيانية للشريفين الشابين هى مقدمة «لشقاوة» خادمى لورانس «فرج وداعود» كما أنه يمكننا تبين العنصر المازوكى - «الخنوع» و«الإذلال» وضرب أحد الصبيين - بوضوح. ويلعب الجلْد والإذلال العلنيين دوراً كبيراً فى قصة «فرج وداود». ونخرج من قصة على الحارثى فى «أعمدة الحكمة» بصورة للشريف كعربى الصحراء الأنيق الجذاب؛ أى البدوى الأرستقراطى المقابل لداهوم الذى عشقه لورانس قبل الحرب. إلا أنه يبدو من المحتمل على الأقل، أن هذه الرؤية للجمال الذكورى التى ادعى لورانس أنه خبرها عند مستورة، لم تكن أكثر من رؤية داخلية؛ إذ إن الظهور الأول للشريف على فى مفكرة لورانس الميدانية كان يوم ٨ مارس عام ١٩١٧، أى بعد تلك الواقعة بخمسة أشهر. ويصف لورانس الشريف فى هذا المدخل من المفكرة الذى كتبه بخط يده، كما لو أنه قد رآه للمرة الأولى.

وبمغادرتهم مستورة، خرجت المجموعة من نطاق فرع قبيلة حرب الأعداء إلى تخوم بنى سالم حيث كان رفيقا لورانس ينتميان. وأشار عبيد إلى الصخرة التى كانت تمثل الحدود، مبيّنا للورانس بداية تخوم قبيلته. أما ما سبب دهشة لورانس، فهو أنه رغم أن الأوربيين كانوا ينظرون إلى الصحراء على أنها برية قاحلة، إلا أنها كانت موطناً للبدو حيث كان لكل شجرة أو صخرة، أو تل، أو عين ماء مالِك. ورغم أن عادات البدو كانت تسمح للمسافرين أن يقطعوا الحطب أو يسحبوا مياها للارتواء، فقد كان الويل كل الويل من نصيب أى فرد غريب يحاول استغلال ذلك. وبدأ لورانس يشعر بإجهاد الرحلة عند الظهيرة. فآلمه ظهره وسيقانه من نخعات الجمل. وتقرح جلده من حرارة الشمس. وآلمته عيناه من التحديق فى حجارة الصوان المتأججة طوال الصباح. فقد كان قد قضى عامين فى مدينة القاهرة متنقلاً بين الفندق والمكتب. وتحقق أنه قد أُلقى به فى الصحراء فجأة دون أدنى إعداد. وعند مغيب الشمس، وصلوا إلى قرية مكونة من منازل مقامة من الأعشاب تدعى بير الشيخ، وتنتمى لقبيلة بنى سالم. وأناخ البدو الإبل إلى جانب أحد الأكواخ واستقبلتهم امرأة قادتهم إلى مكان يجلسون فيه وأوقدت نارا خارج المكان. ثم ذهب عبيد واستعار بعض الدقيق وخلطه بالماء فى وعاء ثم عجنه فى شكل بيضاوى مسطح وقام بدفنه بحذر فى الرمال أسفل جذوات النار. وبعد عشرين دقيقة أزاح الرمال، وأخرج الرغيف الساخن المخبوز ومسحه بيده ليزيل آثار الرمال وقسمه بين ثلاثتهم. ولم يكن صحيحاً ما ادعاه لورانس فيما بعد أن البدو يعتقدون أنه من غير الرجولة أن يأخذ المرء إمدادات لرحلة قدرها أقل من مائة ميل. فالحقيقة أن البدوى لا يهتم بأن يأخذ معه طعاماً وهو مسافر فى تخوم قبيلته لأنه يثق تماماً أنه سيحصل على إمدادات من أفراد القبيلة أثناء رحلته. وكانت «اللبة»، أو الخبز غير المختمر، هو طعام البدو المعتاد وسيصبح فيما بعد مألوفاً للورانس. أما حينذاك، فقد أكل قليلاً وحافظ قدر إمكانه على حسن اللياقة فى تصرفه. وفيما بعد، دعاه عبيد لينظر إلى بعض الآبار القريبة، إلا أنه اعتذر نظراً لأن عضلاته كانت متيبسة من ركوب الجمل.

وكان مازال عليهم أن يقطعوا مسافة أخرى تلك الليلة. وفى الفجر، وصلوا إلى بير ابن حسانى، وهى قرية أحمد المنصور من كبار شيوخ بنى حرب. وبينما

كانوا فى طريقهم أتى إليهم راكب جمل كان خارجاً من القرية وسار بمحاذاتهم، وأخذ يوجه إليهم سلسلة من الأسئلة أجابه عليها عبيد وابنه باقتضاب وعلى غير رغبة منهم. وأصر الإعرابى، وكان يدعى خلف، على تناولهم الطعام معه، وأجبرهم على إناخة إبلهم. وأتى بوعاء حديدى من خرجه ملىء بالخبز المغطى بالزبد والسكر، وقدمه لهم. وبعد أن انتهوا من طعامهم أخبر الأعرابى لورانس أن فيصل قد أُجبر على التراجع، فى اليوم السابق، من بير عباس إلى حمراء على مسافة غير بعيدة منهم، وأخذ يذكر أسماء المصابين من القبائل. وحاول أن يجذب لورانس للتحدث معه بأن سأله عما إن كان يعرف أياً من الأشخاص الإنجليز فى مصر. وأجابه لورانس بلهجة حلبية، وأخذ خلف يسأله عن سوريين كان يعرفهم. ثم تحول إلى الحديث فى السياسة وسأله عن رأيه فى خطط فيصل. وهنا، تدخل عبيد بشكل فجائى وغيّر الموضوع. وسرعان ما تركهم الرجل. واكتشفوا فيما بعد أنه كان جاسوساً يعمل لحساب الأتراك.

ووصلوا عند الظهيرة إلى الواسطة، وهى قرية ضخمة من قرى بنى سالم تتكون من ألف بيت طينى قائمة على أكوام ترابية وحواف صخرية طويلة عبر بطن الوادى وفوق أيكات النخيل السميكة. وعلم لورانس أن كثيراً من هذه البيوت كانت خاوية إذ كان فيضان ذلك العام يشبه موجة من مدّ البحر حيث تخللت المياه السدود ودمرت كثيراً من أشجار النخيل وجرفت طبقات التربة العليا التى كانت يُحتفظ بها بكثير من الحرص. ولإكمال المأساة، هاجمت الجماعة أسراب الجراد التى قلصت المحصول، مما دفع كثيراً من السكان إلى مغادرة المكان. واستراح لورانس ورفاقه فى الواسطة حتى وقت مبكر من عصر ذلك اليوم ثم أكملوا مسيرتهم عبر الوادى. إلا أنهم سرعان ما مروا بجمهرة من قوات البدو كانوا يجلسون حول نيران الطهو، أو تحت الأشجار يدخنون السجائر. وكانت ثمة قوافل محملة بالإمدادات تتحرك. وكان هؤلاء رجال فيصل وكان الكثير منهم من بنى سالم الذين أخذوا يتبادلون التحية مع مجموعة عبيد ولورانس. وبعد فترة وجيزة شاهدوا قرية «حمراء» أمامهم. ثم عبروا مجرى مائياً واقتيدوا إلى ممر مُسور وأناخوا جمالهم أمام أحد المنازل. وقاد عبدٌ يحمل سيفاً معقوفاً لورانس إلى داخل غرفة مليئة بالدخان حيث كان فيصل فى اجتماع مع مساعديه

العسكريين وهم ضابط عراقى من سلاح الفرسان يدعى مولود المخلص، وشيوخ قبائل بدو عديدون بمن فيهم بنو فقير والبيلى والروالة التى كانت قبيلة مركزها سوريا. وطبقا لما رواه لورانس فإن فيصل كان يقف بالباب بالفعل لدى اقترابه وهو «ينتظره متوتراً». بيد أن هذا مخالف للأسلوب العربى. والأمر الأكثر احتمالاً هو أنه حينما دخل لورانس وقف الشريف وصحبه طبقاً للأسلوب المعتاد حيث صافحهم لورانس كل فى دوره. فقد كان هذا هو أسلوب تحية الرجال من الملوك أو من الأفراد من رجال القبائل العاديين دون تمييز بينهم. ونال مظهر الشريف «النبيل» إعجاب لورانس وذكرّه بتمثال ريتشارد قلب الأسد، بطل صباه، الذى كان قد رآه فى أحد المتاحف الفرنسية. ووجد فيصل ذا مظهر ملكى وأقوى تأثيراً من أشقائه. وكان هذا أمراً مهماً بالنسبة له: فقد كان رد فعل لورانس الأول بالنسبة للعرب ينطلق من حسه الجمالى، كما أن الدعائى داخله أدرك أنه يتحتم على الثورة العربية، كى تجتذب البريطانيين، أن يكون لها قائد يماثل مظهره فكرة الأوربيين عن «العربى النبيل». فعلى حين كان عبد الله «مستديراً ومرحاً»، كان علىٌ يبدو واهناً ومريضاً. إلا أن مظهر فيصل كان متوافقا مع «الوصفة» تماماً وبدا للورانس أن الشريف رغم مظهره النبيل، كان يبدو شديد الإعياء وأكبر كثيراً من أعوامه الواحد والثلاثين. وكانت عيناه حمراوين ووجنتاه غائرتين وبشرته وقد تجعدت بخطوط من الألم. وكان يدخن دون توقف. وادعى لورانس فى «أعمدة الحكمة» أنه عرف فى التو أن «هذا هو الرجل الذى سيأتى بالمجد الكامل للثورة العربية»، إلا أنه أخبر ليدل هارت أنه، فى واقع الأمر، قد اعتقد ببساطة أنه من الممكن «صنع بطل للثورة من فيصل بسهولة، أكثر من إخوانه الأكبر سناً». وطبقاً لما رواه لورانس، فقد جلسا معاً وسط البدو، ثم سأله فيصل «ما رأيك فى مكاننا هذا فى وادى صفراء؟» فأجابه لورانس «حسناً! إنه بعيد جدا عن دمشق».

وكتب لورانس أن «هذه الكلمة انقضت كالحسام فى وسطهم. كانت ثمة ارتعادة خفيفة. ثم تيبس كل الموجودين حيث جلسوا، وحبسوا أنفاسهم لمدة دقيقة من الصمت». وكان فيصل هو من أزال التوتر. فقد رفع الشريف عينيه وابتسم باتجاه لورانس وقال: الحمد لله.. فهناك أتراك أشد قربا منا بكثير من هذا».

وجلس لورانس وفيصل فى الليلة الأولى فى الغرفة التى كان يملؤها الدخان، وتجادلا لساعات وسط طقطقة النيران التى كادت تخبو، وصوت رنين مدقات السبق؛ وكانت القهوة والشاى يمرران عليهما المرة تلو الأخرى، وفيصل يقوم بإطفاء السيجارة تلو الأخرى. ووجد لورانس كلام الشريف على قدر كبير من عدم المنطق، فقد كان شديد الغضب لأنه لم يصله سوى القليل فقط من الأسلحة التى طلبها من ويلسون، خاصة من المدفعية، وأصبح لورانس هدفاً لغضبه. وزعم فيصل أن مشكلة العرب الرئيسية هى عدم وجود مدفعية إذ إنه كان يمكن الاستيلاء على المدينة بمدفعين من مدافع الميدان. وكان البدو يرتعدون من صوت القذائف، وكان أى تلميح عن وابل من القصف يدفع بهم للتقافز بحثاً عن الحماية مثل الفئران. ولم يكن هذا يرجع لجبنهم كما أوضح الشريف، إذ إنه بإمكان البدو مجابهة الطلقات وضربات السيوف بشجاعة. إلا أنهم لا يتحملون فكرة تفجيرهم أشلاء. وتحدث فيصل عن المدفعية باستفاضة. وأدرك لورانس أن قوة البنادق فى معركة المدينة والمذابح التى حدثت قد تركت عليه أثراً يصعب تصديقه وأن صلابته قد تحطمت نتيجة لما شاهده فى ذلك اليوم. وأخبر ليدل هارت قائلاً «لقد استجمع (فيصل) شجاعته لدى الهجوم الأصلى على المدينة كى يبدو مقداما. وقد هزه هذا الجهد لدرجة أنه لم يندفع وراءالمخاطر فى المعركة مرة أخرى أبدا. ورغم أنه استعاد ثقته بعد وصول البطارية المصرية، إلا أنه انكسر مرة أخرى حينما رأى أن مدافع الجبل كانت غير ذات جدوى فى مجابهة مدفعية الميدان الثقيلة التركية التى أصابت إحدى قذائفها خيمته الخاصة. وقد رأى لورانس بينه وبين نفسه أن تقدير فيصل للموقف ساذج، وأنه لم يكن باستطاعته أبداً، بمدفعية أو بدون مدفعية، أن يقترب من الاستيلاء على المدينة. وشعر أيضاً أن الشريف لم يكن يتقن استعمال مدافع الجبل المصرية التى كانت ميزتها الأولى هى سهولة نقلها وتحريكها. وحاول إقناع فيصل أنه لا يجوز للجنود غير النظاميين أن يخوضوا معارك نظامية يلتحم فيها الجيشان، بل إن عليهم الهجوم بمجموعات صغيرة متحركة ومكتفية ذاتيا. فقد كان الأتراك محاربين دفاعيين مدربين كما أوضحت هزيمة البريطانيين فى غاليبولى التى كلفتهم خسائر مريرة. وكان لورانس يعتقد أن مجموعة واحدة من الجنود الأتراك المحصنين جيداً يمكنها هزيمة

الجيش الهاشمى بأكمله. إلا أن قوة الأتراك كانت تقوم على تركيزهم على أعداد كبيرة من الجنود؛ فى حين أن قوة العرب كانت تعتمد على القدرة على الانتشار؛ فقد كان البدو دائماً يتبعون هذا الأسلوب فى حروبهم القبلية وغزواتهم. إلا أن فيصل لم يوافقه. فقد ظل البدو يقومون لمدة أسابيع بهجمات برقية على المواقع التركية فى محاولة لإبطاء تقدمهم ولم تفلح «لدغات البراغيث» هذه فى وقف تقدم الأتراك. فما كان يحتاجه العرب هو المدفعية. وكان الشريف قد خطط لهجوم موسع ضد محطتين من محطات سكك حديد الحجاز هى البواط والحفيرة شمال المدينة، بقوة قوامها ثلاث آلاف رجل من جهينة كانوا يتمركزون عند خايف حسين. وكان الأتراك قد تمركزوا عند بير درويش بقوة لا تقل عن خمس فصائل من المشاة، وبمجموعتين من راكبى البغال، وبطارية مدفعية محملة على الإبل، وبطاريات مدافع ميدان وثلاث طائرات، وفرقة هجانة من العقيليين، واعتقد فيصل أنه لو حدث تحويل لاهتمامهم نحو الشمال فقد يتسبب هذا فى انسحابهم. إلا أن لورانس لم ترقه الخطة. فقد اعتقد أنه حتى فى حالة دعم من عبد الله فى الشرق حيث تحل قوة زيد محل قواته فى الوادى، فإن القوة التركية ستنسحب فقط بمقدار الثلث، وقد تستغل القوات الباقية الفرصة للتقدم عبر وادى صفراء إلى رابغ.

وتم إسكان لورانس مع رجال المدفعية المصرية حيث أمر قائدهم زكى بك، بنصب خيمة له. وعند انبلاج الفجر، حضر فيصل ومولود مخلص للقائه ثانية، وأخذوا يتجادلون جدلاً متواصلاً، لمدة خمس ساعات ونصف. وكان لورانس قد نام جيداً واستراح عقب رحلته، وكان متمكناً من كامل قوته على الإقناع. وشعر فى هذا اليوم أن حواراته كانت مؤثرة. واعتقد، بينه وبين نفسه، أنه رغم ذكاء فيصل الكبير، إلا أنه كان حذراً بطبعه، وكان ذا شخصية أضعف من شخصية شقيقه عبد الله الذى عرف عنه أنه كان يغار منه. وأخبر هو لورانس فيما بعد أنه حينما أشار على والده بتأجيل إعلان الثورة دعاه عبد الله جباناً. وكان يشير إلى أخيه الأكبر بلفظ «المفسد» كما أن فيصل كان عرضة للتأثر بالمشورة على عكس عبد الله. وقد أخبر لورانس ليدل هارت أن ضعف عبد الله كان ينحصر فى أنه ينصت إلى أى نصيحة وقتية رغم عدم اقتناعه». وكانت هذه الصورة جد مختلفة

بالطبع عن الصورة التى رسمها له فى رسائله الرسمية، حيث أكد على أن رجال فيصل كانوا يعتبرونه بطلاً، وأنه خاطر بحياته في المدينة لرفع معنويات قواته. وذكر أيضاً أنه عجول ومتسرع، سهل الاستثارة ومتكبر «مليء بالأحلام وبالمقدرة على تحقيقها». وقال أيضاً إن حقيقة الأمر لا تقتصر على أن فيصل فقد شجاعته نتيجة لاختراق إحدى القذائف خيمته مما دفعه إلى أن يأمر قواته بالانسحاب من بير عباس، لكن السبب يرجع إلى أنه «قد سئم عجزه الواضح». وكان هذا تعليقاً له نكهة قاعات أكسفورد العامة أكثر من كونه نتاج حرارة المعركة. وكان لورانس في الحقيقة يعتقد أن فيصل تعوزه الشجاعة ويرهب الأخطار، وقد ردد هذه الرؤية الخاصة آخرون ممن عرفوا فيصل من أمثال بيرس جويس الذى كتب قائلاً إن فيصل «لم يكن ذا شخصية قوية وكان يتغير طبقاً للظروف المحيطة به». واعتقد لورانس أن ولع فيصل بحرية العرب أجبره على مجابهة مخاطر يكرهها، ونظراً لأن طبيعة لورانس المازوكية قد دفعته هو لأن يفعل نفس الشيء، فقد تمكن من التوحد العاطفى مع الشريف. إلا أنه كان يتحتم أن يبدو قائد الثورة العربية. ذا شخصية بطولية فى أعين المؤسسة البريطانية، ومن ثم قرر لورانس أن «يصنع منه ما يظهره فى صورة متقبلة حتى ولو كان هذا يعني تصوير شخصية مزيفة له فى رسائله». ولم يكن التلاعب بالحقائق أمراً جديداً بالنسبة له من أجل تحقيق هدفه. وكان يكن للثورة العربية ما يكنه فيصل لها من العواطف. وكتب قائلاً: «لقد كنت محركاً لها منذ البداية، وكل آمالى معقودة عليها». ولم يكن هذا محض عاطفة إيثارية. فمنذ كركميش، كان لورانس قد ارتبط بالعرب بشكل رومانسى. وكان يرى فيصل والثورة العربية تعبيراً عن تمرده هو، فقد كانت عواطفه هى نفس العواطف التى دفعته أن يصطحب داهوم وحمودى إلى أكسفورد، أى الروح التنافسية، أو «الوحش داخله» الذى كان يتطلب اهتمام الآخرين ويتوق أن يتعرف عليه الآخرون كشخص متميز ومختلف. فقد كان موقفه من الهاشميين امتداداً لموقفه من داهوم. وكان قد كتب قائلاً: إنه يود أن «يساعد الصبي على أن يساعد نفسه» فقد أخبر جريفز فيما بعد أن هدفه مع العرب هو أن «يساعدهم على الوقوف على أقدامهم». فقد شعر لورانس أنه يعرف ما هو الأفضل بالنسبة لداهوم، وشعر الآن أنه يعرف ما هو الأفضل للهاشميين. وكان قد انتهى إلى أن

مشكلة الثورة العربية هى عدم وجود قيادة لها ؛ لذا فقد قرر أن يمدها بهذه القيادة عن طريق شخص يعمل بديلاً عنه، أى فيصل ذى الشخصية المطواعة. أما فيصل، فقد أثرت فيه بلاغة لورانس، وشجعه اعتقاده أن المسئولين فى القيادة العامة كانوا مهتمين بشئونه إلى درجة كبيرة. واعتقد أن لورانس كان مفوضا بأن يمنحه وعوداً محددة. وفوق كل شىء، فقد بدأ غموض لورانس وغرابة أطواره تجتذب الشريف. وبنهاية جلسة نقاشهما الثانية افترقا، متحابين، لتناول الطعام.

وفى عصر ذلك اليوم، عمد لورانس إلى التجول فى أنحاء الوادى ليتبادل الأحاديث مع جنود فيصل. وشعر أن روحهم المعنوية كانت مرتفعة بالنسبة لقوات مهزومة. وكان البدو، الذين عسكروا بين أيكات النخيل، ينتمون فى غالبيتهم إلى قبيلة جهينة الكبيرة التى كان مقرها وادى ينبع فى الشمال، وكان بين القوات أيضاً عدد كبير من جماعة حرب، أعداء جهينة الألداء. ووجد لورانس أن فيصل قد أنجز مهمة جيدة للتوفيق بين الأعداء التقليديين وجعلهم يحاربون فى نفس الصفوف بمهارة فائقة. إلا أنه كان واهماً: فقد كانت أموال الهاشميين، التى كانت تأتيهم من خزائن البريطانيين هى التى ابتاعت ولاء البدو الذين كانوا على استعداد للحاق بصفوف الأعداء إن ساءت الأمور. فقد كان إدراك البريطانيين للجيوش القبلية وفهمهم لها على أنها جيش إقطاعى بقيادة شريف من النبلاء خاطئاً. فقد كان عبيد الأرض Serfs فى أوربا الإقطاعية ملكية منقولة لأسيادهم الإقطاعيين، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية حينما يطلب منهم ذلك. ولم يكن البدو مثل هؤلاء. فلم يدينوا لأى أحد أو لأى شىء سوى قبائلهم ؛ ولهذا السبب، لم يكن ينظر لتغيير ولائهم على أنه «بوقة» أو خيانة طالما وافقت القبيلة على هذا التغيير. فقد كان الهاشميون والأتراك الذين يعملون معهم أجانب بالنسبة لهم. وكان لدى الأتراك بالفعل بدو غير نظاميين يعملون فى صفوفهم. وأما جماعة البيلى، وهى قبيلة قوية من الشمال تخشى الأجانب وتكرههم، فكانت مازالت مترددة. وأعلن أحد شيوخها، وهو سليمان رفادة، تحالفه مع الأتراك. وفكر لورانس أنه إن انضمت قبيلة البيلى بكاملها إلى الأتراك، فقد تتلوها جهينة. إلا أن الأتراك كانوا ينفقون سبعين ألف جنيه استرلينى شهرياً لشراء القبائل وكانوا يتلقون وعوداً خاوية فى غالبيتها. واعتقد لورانس أن

للهاشميين، فى النهاية، تأثيراً عاطفياً على البدو لا يمكن للأتراك إحداث ما يماثله.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقترب فيها لورانس من البدو. واستثاره مظهرهم، كما كان لخشونتهم وقع الرهبة عليه. ولم يكونوا كلهم رحلاً؛ فقد كانت غالبيتهم مزارعين وأشباه رحل. وكان الكثيرون منهم عبيداً مسلحين وتابعين يقومون على خدمة أهل الصحراء. وتراوحت أعمارهم بين الثانية عشرة والستين. وكان البدو رجالاً صغيرى الحجم ذوى بشرة سمراء، يشبهون الطيور، وكانوا ذوى أناقة خاصة بهم. فكانوا يرتدون فقط الدشداشات والسراويل المتسعة وأغطية الرأس ويتمنطقون بأحزمة الطلقات، ويحملون البنادق التى يطلقونها لأوهى الأسباب. وكانوا ذوى لياقة عالية، بإمكانهم السير والجرى فى حرارة الشمس لساعات عديدة، وهم حفاة الأقدام، على الصخور والرمال الملتهبة. وكانوا يتحركون بتوتر سريع مما كان يعطى الانطباع أنهم يودون أن يحرقوا طاقات لا محدودة. واعتقد لورانس أنهم سيكونون رجال حرب عصابات ممتازين إذا تم تدريبهم تدريباً سليماً، وقناصين مهرة أيضاً. فقد كانوا على مقدرة على الجرى والتسلق لمسافات طويلة كى يعثروا لأنفسهم على ركن مناسب يصوبون منه طلقاتهم، رغم أنهم كانوا حينذاك معتادين على بنادقهم القديمة البطيئة لا على البنادق الحديثة، ومن ثم، على الاشتباك مع الأعداء من مسافة قصيرة. وكانوا على دراية حميمة بالصحراء؛ كما أن مهاراتهم فى اقتفاء الأثر بدت خارقة للطبيعة. إلا أن لورانس شعر أنهم عديمو الجدوى كقوات تقليدية. فمن ناحية، كانت القوات الفعلية دائمة التغير لأن الرجال كانوا يعودون لزيارة زوجاتهم ويوكلون أسلحتهم إلى أشقاء أو أبناء عمومة لهم ليحلوا محلهم. وفى بعض الأحيان، كان السأم يصيب عشيرة ما بكاملها، فترحل. ولم يكونوا يتلقون الأوامر من أحد باستثناء شيخ القبيلة، ولا يعملون مع قبيلة معادية سوى تحت قيادة شخص من الأشراف الذين كانوا يعتقدون أن منزلتهم أعلى من السياسات القبلية. وكانوا أفراد شجعان لا يبالون بالأخطار، إلا أن عقيدة «السمعة» التى كانوا يحيون بها جعلتهم لا يحسنون العمل كفريق، فقد كان كل فرد سيد نفسه، ولم يكن يطيع الأوامر بسهولة أو يحارب فى الصفوف أو يساعد غرباء

تصادف وجودهم في نفس الجيش. فقد كانت العشائرية هاجس البدو المسيطر وكان شعارهم الذى يحيون به «أنا وأخى على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». وكانت الغزوة تقليدية تتم وفقاً لقواعد محددة. وكانت النساء والأطفال والرعاة العزل محرّمين. كما أنهم بعد غزواتهم كانوا يتركون ناقة واحدة على الأقل وراءهم حتى يتمكن ضحايا الغزوة من البقاء. وكان القتال أيضاً من أجل الممتلكات، خاصة الإبل، لا من أجل الحياة. ولم يكن أسلوب قتالهم يسمح بضحايا كثيرين، وقد حدد هذا الأسلوب منذ أجيال العداوات الثأرية. وكان قتالهم يعتمد على المحارب الفرد، فلم يكونوا يعرفون أسلوب الحروب الجديدة حيث تتقاتل الجيوش التى لا ملامح لها والأسلحة عن بعد ودون تفرقة. فقد كان لكل قبلى، بالنسبة للبدو، قدره كفرد وليس كمجرد جندى، وكان هذا هو سبب هروبهم حينما يواجهون بمعارضة راسخة أو بأعداد كبيرة. وقد وصف بيركهارت، عام ١٨٣٠، الحروب العربية بأنها تعتمد على مفاجأة العدو بهجمة غير متوقعة ثم نهب معسكره، وكتب يقول: «بإمكانى أن أورد أمثلة عديدة لقوافل من المسافرين أو فلاحين أجبروا مهاجميهم من الذين البدو الذين يزيدون على ضعفى أو ثلاثة أضعاف عددهم على الهرب». ومن ثم... يعد هؤلاء جبناء بؤساء ويستشهد على جبنهم بمعاركهم مع هؤلاء الفلاحين». وأسمى س. إس. جارفيز البدو «محاربين جيدين لمدة عشر دقائق فقط» وأضاف أنه «لا يوجد أشد ضراوة وإثارة للرعب من فارس عربى يتعامل مع عدو محبط، ولا يوجد أمر أكثر سهولة من نفس الأعراب حينما تواجههم قوة حقيقية». وكتب بيرس جويس فيما بعد أن البدو كانوا «خدعة أكثر من كونهم خطراً حقيقياً». وشعر أنه من المحال، بالنسبة لهم، الالتزام ببرنامج محدد. وأيضاً قال أليك كيركبرايد لاحقاً «بالإمكان قيامهم بهجمة رائعة. فإن نجحت، كان هذا رائعاً. وإن فشلت لاذوا بالفرار. وكان هذا الشيء الوحيد المعقول الذى يمكن عمله». واعتقد لورانس أنهم يصلحون لتدمير خط السكة الحديدية بالديناميت، ونهب قوافل الأتراك أو سرقة إبلهم. كما أنه ذكر في تقريره، «أنه بالرغم من أن المرء قد يسخر من طبيعتهم الارتزاقية، إلا أنهم لا يساعدون الأتراك رغم الرشاوى العديدة التى يتلقونها منهم؛ كما أن قوافل الإمدادات الهاشمية مازالت تجوب التلال دون أن يتعرض

أحد لها ».

وفى وقت متأخر من عصر ذلك اليوم التقى لورانس بفيصل مرة أخرى، وسارت محادثاتهما هذه المرة بشكل أفضل كثيراً. فقد اعتقد لورانس أنه لو فشلت خطة فيصل لتشتيت الأتراك، فقد يكون تحركهم التالى باتجاه مكة عن طريق رابغ. وفى هذه الحالة، سيكون أفضل توظيف لقوات البدو هو احتلال تلال صبح حول وادى صفراء التى تكوّن خطاً دفاعياً طبيعياً. ولن يكون لدى الجيش التركى خيار سوى التقدم عبر الوديان التى ستكون انحناءاتها وتعرجاتها هدية السماء لقوات حرب العصابات. ولن ينفع الأتراك حتى مدفعيتهم المنصوبة على التلال. واعتقد أنه يجب تزويد العرب ببنادق لويس الآلية وبعض مدفعية الميدان الحديثة من أجل رفع معنوياتهم، كما رأى أنهم فى حاجة إلى مستشارين فنيين ونظام اتصالات أفضل مع مسئولى القيادة العامة البريطانية، وحتى إلى أجهزة لاسلكى. واعتقد أنه رغم أن قوات البدو لن يكون بإمكانها أبداً شن هجوم، فإنها ستوفر حاجزا دفاعياً قوياً. كما أنهم يمكنهم تكوين قوة نظامية من عبيد مجندين ورجال من المدن، ومن المزارعين. وشعر لورانس أنه لو استطاع فيصل الصمود على هذه التلال لمدة شهرين، فسيستطيع عزيز المصرى فى هذه الآونة أن يدرب طابوره من النظاميين العرب فى رابغ. كما اعتقد لورانس أن إنزال قوات بريطانية فى رابغ لن يعادله شىء لتدمير قضية الهاشميين. وذكر أيضاً فى تقريره أن فيصل ومساعديه غير متعاطفين مع القوميين العرب الذين شُنقوا فى دمشق وبيروت لأنهم كانوا قد تحالفوا مع الفرنسيين، ملمّحاً بهذا إلى رؤسائه أنه ليس فى نية العرب تسليم بلادهم إلى سيد أجنبى آخر، وأنهم سيتشككون بقوة فى أى إنزال مكثف للقوات البريطانية. وكان حدسه صحيحاً، إلا أن ما ذكره من وقائع كان مزيفاً بالتأكيد؛ إذ إنه، فى حالة فيصل على الأقل، ثمة تقارير بشهود عيان تشير إلى أنه قابل شنق القوميين باستياء شديد عند سماعه الأنباء فى دمشق. كما أن لورانس قدم تصويراً مغلوطاً للبدو فى تقاريره على أنهم شديدو الإيمان بالقومية العربية. وكان البدو فى الواقع على درجة كبيرة من الشوفينية، يكرهون الأجانب ويعادون المسيحية. وكان من شأن إنزال قوات بريطانية تحطيم مكانة الهاشميين والإلقاء بالبدو فى أحضان الأتراك. وغادر لورانس المكان فى عصر يوم ٢٤ أكتوبر

برفقة أربعة عشر من رجال قبيلة جهينة متجهاً إلى ينبع دون أن يتوقع أن يلتقى بالشريف مرة أخرى. وكان مبعث رضاه أنه وجد فى فيصل بطلاً يمكن للبريطانيين التأثير عليه والتلاعب به، أو كما عبر هو بغموضه المعتاد، قائلاً «له من الأسباب ما يجعله ينفذ خططنا». كما أنه أيضاً كان واثقاً أنه قد أوجد حلاً لمشكلة رابغ، فكتب يقول «لقد أخبرت رؤسائى أن الدفاع عن مكة لا يتم عن طريق عقبة رابغ، لكن بتهديد فيصل للجناح العثمانى فى تلال صبح».

الفصل الثالث عشر

ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك

للانقضاض على الوجه

ينبع والوجه

ديسمبر ١٩١٦ ـ يناير ١٩١٧

13

كان تفكيراً يُعبر

عن رغبة. فالبدو لم يكونوا أبداً

مقاتلين دفاعيين. فحينما خرج فخرى

باشا من المدينة فى شهر ديسمبر على

رأس ثلاثة ألوية كاملة، حاصر بنى

سالم وسيطر .

على وادى الصفراء.

ورجع البدو مشتتين إلى قراهم دون اشتباك . وخلافاً لتأكيدات لورانس ، فلم يتلق بنو سالم أبداً أية بنادق آلية أو مدافع . وتمكن الأتراك خلال أربع وعشرين ساعة من اختراق السهل الساحلى. وقد أتى لورانس فيما بعد بتسمية «رفيعة المستوى» لما حدث ، إذ أطلق عليه «النظرية الثانية للحرب غير النظامية The Sec-ond Theorem» التى ذهب فيها إلى أن القول بأن «القوات غير النظامية غير قادرة على الدفاع عن خط أو نقطة ما كعدم قدرتها على شن هجوم عليها» .

وقد ظل الجنود المحترفون ومنذ البداية يرددون هذا دون أن يلجأوا إلى أية تنظيرات معقدة كنظرية لورانس. وقد دعا هذا إلى الاعتقاد بأن على القوات البريطانية الدفاع عن رابغ . إلا أن الوقت كان قد فات . وكان لورانس قد عاد من الجبل ، مثل عودة موسى ، وهو يحمل معه حل مشكلة رابغ منقوشاً على حجر . ثم قال بعد ذلك ، إن رسو قوة بريطانية فى الحجاز ، كان سيتسبب فى امتناع أى عربى

عن مساندة الشريف. وكما كان لورانس يعلم جيداً، فقد كان هذا ما أراد الجنرال مرى سماعه تحديداً. ومن ثم بدا للقيادة أن ما طلبه لورانس من إمدادات البنادق الآلية والمدافع والمستشارين العسكريين ثمناً بسيطاً يدفع لقاء الحفاظ على لواء أو اثنين. ومن ثم، أخذ نجم لورانس في الصعود في القيادة العامة، وعَرَف أنه في مركز قوى متفرد. فلم يحدث من قبل أن ذهب أحد إلى الجبهة، ولم يحدث أن تبعه أحد؛ فقد كان الضابط البريطاني الوحيد الذى شهد الأحوال هناك بنفسه. ثم أصبح اللاعب الرئيسي في الثورة العربية بعد أن تقدم بالشواهد التي شذبها بعناية كي تتفق مع أهدافه. وهيأت له معلوماته أيضاً قنوات اتصال مع لاعبين آخرين. ففي طريق عودته للقاهرة، لم يلتق فقط بالأدميرال ميس قائد الأسطول البحرى والذى كان معارضا للتدخل مثل مرى، بل إنه توقف أيضاً في الخرطوم ليجيب على أسئلة وينجت الذى كان يؤيد التدخل بشدة. وكان تمكنه من إقناع الطرفين أن كليهما مصيب تأكيدا لمقدرته على التلوّن. وبعد الاستجواب، كتب وينجت - الذى نقل إلى القاهرة بعد ذلك بفترة وجيزة ليحل محل مكماهون كمندوب

سامي - «لقد فهمت منه أنه يوافق على أن العرب سيرحبون - في حالة الطوارئ - [بلواء بريطاني]. وأنه يتمسك بأمله في النجاح، ويفضل هذا على التورط في هزيمة محققة نتيجة للفشل في الاحتفاظ برابغ». ولم يكن لورانس قد وافق على كل شيء من هذا. وفيما بعد ثار وينجت ثورة عارمة لدى قراءته مذكرته عن الموضوع. إلا أن الأمر كان قد نفذ حينذاك، وتمكن كليتون من إقناع السردار أن مري هو الذي أجبر لورانس على كتابة تلك المذكرة.

واستمر لورانس يعمل من مكتب القاهرة ويساعد في توجيه الثورة من مسافة آمنة. فلم تساعد رحلته إلى وادي الصفراء على إقناعه بصلاحيته كضابط ميدان. وكان قد تم نقله إلى «المكتب العربي» تحت رئاسة كليتون الذي أوكل إليه منصب مسئول الدعاية الذي كان مهيئاً له جيداً. بيد أنه كان لوينجت أفكار أخرى. فقد شعر السردار أن إلمام لورانس غير العادي بالعرب سيُهدر في القاهرة ومن ثم طلب من كليتون أن يرسله مرة أخرى إلى الحجاز ليعمل ضابطاً للاتصال مع فيصل. إلا أن كليتون كان كارهاً لإرساله. وعارض لورانس بشدة حينما علم بأمر نقله يوم ١٩ نوفمبر قائلاً إنه ليس مؤهلاً كرجل أفعال وإنه لا خبرة له في القيادة. إلا أن هذا الجدل لم يكن حقيقياً كلية لأن السنوات الأربع في كركميش كانت قد أكسبته مهارات هائلة في الإدارة. وادعى أيضاً أن فيصل رجل عنيد ولا ينتصح وهو ادعاء قد كشف لورانس بنفسه زيفه فيما بعد. واستمات لورانس كي يظل بعيداً عن القتال، واستعمل كل مهاراته البلاغية في سبيل هذا. إلا أن هذا لم يجد نفعاً. فقد أصدر السردار أمره ولم يكن هناك مفر من أن يكون له ما أراد. ووافق وينجت بشرط أن يحل ستيوارت نيوكومب - الذي كان قد رقي إلى رتبة الليفانتنت كولونيل - محله في ينبع - قاعدة فيصل الحالية - بمجرد عودته على أن يتفرغ لورانس «للمكتب العربي» مرة أخرى. وأدرك لورانس أن وقت العمل قد حان. فقد كُتب عليه الذهاب إلى الميدان ولا سبيل لتحاشي هذا. وبمجرد تقبله الأمر، استدعى قوة إرادته التي كان قد نماها في شبابه وأعد نفسه للعمل. وفي مواجهة خوفه من عدم تحمل أعصابه مجابهة الخطر، استعان بسنوات عقاب ذاته الطويلة، ومعرفته الحميمة بالألم والحرمان اللذين فرضهما على نفسه، ووَدّ لو يكون هذا كافياً. وفي يوم ٢٥ نوفمبر، أبحر إلى الحجاز مرة أخرى.

وصل لورانس إلى الحجاز في خضم أخطر الأزمات التى كانت الثورة قد مرت بها حتى ذلك الحين. ففي أول ديسمبر عثرت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على طريق بدون حراسة يؤدى إلى وادى الصفراء، واندفعت القوات مسرعة في أعقاب وحدات بنى سالم التى كانت تتولى حراسة الوادى. وعمد رجال القبائل إلى الفرار من الأتراك رغم قلقهم على قراهم. أما زيد، شقيق فيصل الأصغر، وكان على رأس قوة من الجنود المصريين النظاميين أعاره إياها وينجت، فقد سلك طريقه إلى الحمراء، إلا أن وابل نيران البنادق الآلية الذى قوبل به أعاقه. وكان زيد نفسه قد تمكن من الفرار من الأسر بصعوبة، وأخذ يتراجع باتجاه ينبع على الشاطئ. أما الأتراك الذين احتلوا وادى الصفراء، فقد أصبحوا في موقع يمكنهم من تهديد كل من ينبع ورابغ. وكان فيصل، حينما حدث الاختراق التركى، يجند قوة من جهينة للسير شمالاً بحذاء الشاطئ ومهاجمة ميناء الوجه الذى ظل في أيدى الأتراك. ولم يؤد سقوط الصفراء إلى عزله فقط عن مكة ورابغ، بل منع عنه أيضاً دعم بنى سالم. ولم يتبق له سوى بنى جهينة وكان يشك في استمرار ولائهم إذا سقطت ينبع ورابغ. وانفرط أيضاً عقد نظام جواسيسه وأخذت تصله تقارير شديدة التناقض. وفي ٢ ديسمبر، سارع ومعه ٤٠٠٠ مقاتل من رجال القبائل إلى «نخل مبارك» وهى واحة نخيل شاسعة، استعداداً لصد أى تهديد تركى لميناء ينبع الذى أصبح ملاذه الأخير.

وقبيل منتصف الليل، وصل لورانس إلى نخل مبارك مع عبد الكريم البيضاوى شريف جهينة ليجد مشهداً غاية في التشوش. كان الوادى ممتلئاً بدخان الحطب تتردد فيه أصداء ثغاء وهدير آلاف النوق، وكان رجال القبائل شبه العراة يهرولون في المكان وهم حفاة يثرثرون ويتبادلون الشتائم ويطلقون أعيرتهم النارية. ومن قبيل الحذر، أخفت جماعة لورانس جمالها في فناء مهجور، وذهب عبد الكريم لاستطلاع الأمور. ثم رجع بأنباء تقول إن الشريف قد عاد لتوه؛ وسرعان ما وجدوا الشريف يجلس على سجادة، هادئاً وسط الصخب، يُملى الخطابات على ضوء مصباح. كان برفقته معاونه مولود المخلص، ونائبه الشريف شريف حاكم الطائف الهاشمى. واستراح فيصل لرؤيته لورانس. فقد كان المعسكر بأكمله على وشك أن تنتابه حالة من الذعر، وكان المراسلون آتين، غادين، يُربضون نوقهم

وينهضونها حول جزيرة الشريف المتمثلة فى سجادته. وكانت دوريات الحراسة من البدو تقفز داخل المعسكر، أو تنتشر خارجة منه فى الظلمة محدثة ضوضاء. كان الرجال أيضاً ينزلون المتاع من على ظهور الدواب، وكانت الخيول والبغال تقاوم وتجفل. وبينما كانوا يتحدثون اندفعت إحدى النوق الحرونة هاربة، وألقت بحملها، وأمطرتهم بوابل من التبن، وكان فيصل ينصت بصبر إلى كل مراسل، وذى حاجة، وصاحب شكوى، ويتحدث إلى رجاله بثبات وكبرياء. وتحقق لورانس أن فيصل كان يحارب معركة داخلية يائسة. فقد صدمه تراجع شقيقه المفاجئ، وكان يعانى داخلياً من جراء ذلك. إلا أنه احتفظ بجلال مظهره أمام الناس. وراقبه لورانس أثناء حديثه إلى شيوخ كتيبة من البدو كان على وشك إرسالها لتطويق الأتراك وكتب انطباعه قائلاً: «كان قليل الكلمات، ولم تكن ثمة ضوضاء لا معنى لها، بل معانى صحيحة محددة. ثم اندفع الناس لتقبيل غطاء رأسه عندما انتهى». ومرة أخرى ألقى فيصل بمسئولية نجاح الأتراك على عدم وجود مدافع، وأبدى خشيته من أن ارتداد بنى سالم سيكون له أثر تتخفى وراءه أعذار بقية القبائل. وكتب لورانس إلى كليتون يقول «سيتم، من الآن فصاعداً، الاستغناء عن بنى حرب. وقد أخطأ الرجال الذين هربوا من الأتراك؛ وسيحاول بقية بنى سعد أن يقووا أنفسهم بتجنب المعارك، ويسعون إلى الصلح مع من يحتلون بساتين نخيلهم». وغفا فيصل ولورانس قليلاً، واستيقظا بعد ساعة فى برودة الفجر على رنين مدق القهوة. ثم تعرف لورانس على المعسكر وتحدث إلى البدو، خاصة من بنى جهينة، الذين اعتقد أنهم قد تملكهم القلق. وفى وقت متأخر من النهار غادرت قوة فيصل الوادى خشية الأمطار وعسكروا شمالاً. وركب الجنود كلهم معاً، وكونوا صفاً واحداً بحيث يركب فيصل بينهم على جواده، ويتبعه مساعدوه والأشراف، وحامل لوائه، وحراسه الذين بلغ عددهم ثمانمائة، ورجال بنى عقيل وبيشه المسلحين، ممتطين إبلهم. ورغم قتامة الموقف انتابت لورانس النشوة لمشهد الجيش العربى القبلى وهو يتحرك.

وكما يدعى لورانس، فقد كان حينذاك أن دعا فيصل لورانس لارتداء الزى العربى، وأهداه دشداشة مطرزة كانت عمته قد أرسلتها له من مكة. وفسر لورانس دافع فيصل لفعل هذا بشعور البدو بعدم الارتياح للزى العسكرى الكاكى الذى لم

يكونوا قد رأوا من يرتديه سوى الأتراك. إلا أن ما نقله لورانس عن فيصل أمر مشكوك فى صحته لأن رجال المدفعية المصرية والضباط العرب النظاميين من أمثال مولود المخلص ونورى السعيد وعزيز المصرى كانوا يرتدون الزى الكاكى. والأمر الأكثر احتمالاً هو أن لورانس كان من فكر فى هذا. فقد كان قد اعتاد ارتداء الزى المحلى فى سوريا. والآن، نشط حسه التقمصى ووجهه نحو فيصل خاصة، وطلب أن يرتدى نفس ملابسه. ولم يكن هذا إرضاء للعرب فقط، بل ميزة لنفسه أيضاً، إذ إن ارتداءه ملابس شريف مكة الفخمة منحه مكانة مرموقة بين الجنود. وكان ارتداؤه الزى المحلى فى سوريا من قبل قد مكنه من تحاشى لفت النظر إليه وسط الأجناس العديدة هناك. إلا أن أحداً، بمن فى ذلك لورانس نفسه، لم يعتقد إمكانية إخفاء وجهه الإنجليزى المتورد الحليق على أنه وجه عربى. وكان لهذا شقه العملى. فقد كانت الملابس العربية مريحة لدى امتطاء الإبل فى الصحراء أكثر من أى شىء صممه الأوربيون. فكان الثوب الواسع يسمح بتسرب الهواء البارد لأنحاء الجسد. أما غطاء الرأس السميك فكان يثبت حول الرأس، أو على الوجه فى العواصف الرملية، ويستخدم كمنشفة، وغطاء عند النوم، وحبل، ومصفاه للمياه، وضماد للجروح. كما كان الثوب الطويل أيضاً يستخدم كحجاب لدى قضاء الحاجة. وباختصار، كان ارتداؤه للملابس العربية فكرة ممتازة من الناحية العملية والأيديولوجية.

قضى لورانس مع فيصل وقتاً كافياً لتخطيط مدرج طائرات بدائى قرب معسكره تستعمله القوات الجوية الملكية التى كانت ستعمل قريباً فى ينبع؛ فقد كان الأتراك فى الطريق؛ وكان لورانس مقتنعاً أن جيش فيصل غير المتماسك لن يقوى على القتال. ولم يكن ثم بديل سوى الالتجاء إلى ميناء ينبع حيث كان الماجور هربرت جارلاند، من المهندسين الملكيين، مشغولاً بتدريب البدو على الهجوم على السكك الحديدية. كان الميناء ضعيف التحصين، وأدرك لورانس أن التحكم فيه لن يكون ممكناً سوى بمساعدة البحرية الملكية. ومن ثم امتطى ناقته عائداً إلى ينبع حيث وصلها مرهقاً فى الثالثة والنصف صباحاً بعد أن ظل ما يقرب من ثلاث ليال دون نوم. وأبرق فى الحال إلى الكابتن بويل فى سرية خفر البحر الأحمر، وإلى كليتون فى القاهرة. وقد عزا لهجته المتشائمة إلى إرهاقه؛ إلا أنه

أضاف «ورغم كل شيء، فالأمور سيئة».

وكان جارلاند، الذى أمل لورانس أن يجده في ينبع، نائماً على سطح سفينته في الميناء. إلا أن لورانس عثر على منزله، وألقى بنفسه على مقعد خشبى حيث استغرق في النوم. واستيقظ في وقت أتاح له رؤية جنود زيد المهزومين في وادى الصفراء وهم يدخلون المدينة. وتملكته الدهشة حين لم يظهر عليهم أى خجل لتعريضهم مستقبل الثورة للخطر. كما لاحظ أن زيد نفسه كان «غير مبال وفى حالة مزاجية حسنة». وخلال أربع وعشرين ساعة دخلت خمس سفن من مجموعة دوريات حراسة البحر الأحمر إلى الميناء وكان من بينها السفينة الحربية دافرين وإم ٣١، وهو قارب هجوم برمائى مصمم خصيصاً للقصف من الشاطئ. ولدى الوصول في موعده في يوم ٩، اندفعت قوات فيصل من قبائل عقيل وبيشه وهضيل داخل المدينة بعد انسحابهم من نخل مبارك. وذهب لورانس لالتقاط صور للشريف وهو يدخل المدينة مهزوماً. ولاحظ عدم وجود جنود جهينة غير النظاميين معه. وأسرع ليقابل فيصل لظنه أنهم قد لحقوا بالأتراك، إلا أن فيصل أخبره أن العدو وصل فجأة في اليوم السابق مع ثلاثة ألوية من المشاة وفرق تمتطى البغال، وجموع من البدو على ظهور الإبل ومرشد يدعى دخيل الله بن بديوى من أشراف جهينة. ثم تولوا قصف نخل مبارك بسبعة من مدافع الميدان، عجزت أمامها بطارية فيصل الضئيلة المكونة من مدفعين ألمانيين عتيقين بدون معينات مدى والتى لا تتعدى طلقاتها خمسة عشر رطلاً. إلا أنها عملت على تشجيع رجال القبائل بضوضائها. وكان رئيس مدفعيته السورى، راسم ساردست، قد انغمس في قصف مسرف متكرر بالمدفعية، وعملت الضوضاء وحدها على تقدم البدو. وادعى فيصل أن الأمور كانت تبدو حسنة إلى أن استدار الجهنيون على حين غفلة من موقعه على جناحه الأيسر وانسحبوا إلى ما وراء قواته الخاصة لسبب غير معروف. وحين اشتم الخيانة، أمر فيصل راسم أن يوفر طلقاته وانسحب مع قواته - من بنى عقيل، وبيشة وآخرين - حتى شاطئ البحر. وكتب لورانس عن وصول شيخ إلى منزل فيصل بينبع في اليوم التالى ليبلغه أن الجهنيين كانوا قد انسحبوا فقط «ليعدوا القهوة لأنفسهم» ثم واصلوا القتال لمدة أربع وعشرين ساعة بعد مغادرة فيصل. وأضاف لورانس أنه وفيصل انفجرا ضاحكين لدى سماعهما تلك

القصة، رغم أنه لا يقرر ما إن كان مبعث الضحك هو مفارقة الهزيمة أم العذر الواهى.. وبالتأكيد، فهذه قصة من النوع الأرستقراطى الذى يروق له، لقد هرب البدو من الميدان، لا لأنهم جفلوا من مواجهة الأتراك، لكن فقط لأنهم سمحوا لأنفسهم بفسحة لشرب القهوة. لقد كانت قصة إنجليزية حقاً. لكن هل كانت هذه هى الحقيقة؟

روى الضباط المصريون الذين شهدوا معركة نخل مبارك قصة مختلفة. فقالوا إن القوات التركية لم تشتبك فى المعركة، وأن الأتراك قاموا بالقصف مستعملين ثلاثة مدافع جبلية وبطارية من البنادق الآلية. ولم يحارب البدو أبداً، وفر كثير من الجهنيين إلى قراهم فى وادى ينبع دون إطلاق قذيفة واحدة. فبعد أن دفع فيصل لكل منهم شلناً، تبخروا لدى أول إشارة عن المعركة كما فعل بنو سالم من قبل فى وادى صفراء. ولابد أن هذه القصة شاعت فى ذلك الوقت لأنه حين التقى رونالد ستورز بفيصل بعد أيام، رد على شكواه عن عدم وجود مدفعية قائلاً: «إن رجال القبائل بحاجة إلى إثبات شجاعتهم فى أعين العالم؛ فحتى لو أنهم كانوا غير مستعدين وقتذاك للقاء أعدائهم فى ميدان قتال مفتوح، فقد كانت معرفتهم الوثيقة بطبيعة بلادهم الجبلية كفيلة بأن تجعل منهم أعداء يُهابون فى حرب العصابات». إلا أن ستورز كان ينظر للموقف كما لو كانت جهينة وحرب فرقاً بريطانية تتبع سلسلة من القيادات صعبة المراس. فقد كانوا فى الواقع يقاتلون بشجاعة بطولية ضارية إن هم شعروا بخطر يهدد شرف القبيلة. أما فى الثورة العربية، فكانوا يقاتلون كمأجورين، وكان هدفهم أن يكونوا فى الجانب الرابح. ولم يبد هذا، فى نظر رجل إنجليزى مثل ستورز، موقفاً شريفاً تماماً. أما بالنسبة للبدوى، الذى كانت قبيلته هى كل عالمه، فقد كان هذا جد شريف. فما كان يهم الجهنى هو بقاء جهينة لا الهاشميين الذين كانوا مجرد قبيلة أخرى. وكان فيصل يظن أن ستورز يعتقد أن الهاشميين يتحكمون فى القبائل الأخرى، ولم يكن هذا واقع الأمر، إذ إن البدو كانوا دائماً يفعلون ما يحلو لهم. وأصبح فيصل حينذاك دون دعم قبلى تقريباً وفقد الأمل فى مستقبل الثورة الذى اعتقد أنها ستتلاشى نهائياً خلال أسابيع ثلاثة. ومن ثم، كتب مذكرة مريرة إلى الجنرال مرى قائلاً إن كثيراً من القوات البريطانية التى حاربت معه كانت قد سُحبت من جبهة منطقة

العمليات البريطانية فى سيناء، وقال: «إن هذا لابد وأن يكون مصدر راحة كبيرة لك، إلا أن الضغط علينا أعظم مما نحتمله. آمل أن يسمح الموقف لك أن تتقدم فجأة نحو بئر سبع، أو أن تتظاهر بإنزال قوات فى سوريا، أيهما أفضل، إذ إننى أعتقد أن الأتراك يأملون أن يسحقونا سريعاً ثم يعودون للقتال ضدكم». ولدى إرسال لورانس للرسالة، ألحقها بالجملة التالية «أعتقد أن الشريف قد أوذيت مشاعره».

إلا أنه لم يكن ثمة وقت لتبادل الاتهامات. فقد كان الموقف فى ينبع خطيراً، وكان وصول الأتراك متوقعاً فى أية لحظة. ولم يكن العدد الكلى للقوات العربية فى المدينة يزيد على ألف وخمسمائة محارب. وأرسل فيصل ما تبقى من قبيلة جهينة مرة أخرى إلى الجبال لمشاكسة الأتراك. وحينما عاد جارلاند تولى مهمة الدفاع الطبيعى عن المدينة، فأصلح الخنادق القديمة وقوى أسوار المدينة المرجانية التى كانت ترجع إلى ثلاثمائة عام، وكرّ الأسلاك الشائكة، وموضع فرق بنادق آلية .وأرسل بويل إشارة إلى حاملة الطائرات ريفين التى كانت ترسو فى شرم ينبع إن تطلق حمولتها من طائرات البحر لمهاجمة المواقع التركية، ثم توجه إلى الشاطئ لعمل مسح للأرض. وكانت ينبع تقوم على شبه جزيرة يحوطها البحر من جهات ثلاث، وكان الجانب الرابع عبارة عن سهل مسطح ترابى دون غطاء. وكان على الأتراك كى يشنوا هجوماً أن يفعلوا هذا فى ظلمة الليل؛ وحينذاك سيكون الأسطول فى انتظارهم .وفى مغرب يوم ١١ ديسمبرساد السكون الميناء. ولم ينم أحد. وفى حوالى الساعة العاشرة اشتبكت القوات الطلائعية للأتراك التى تسللت بإرشاد أحد الجهنيين مع الحراس العرب على مسافة ستة أميال من أسوار المدينة. وأنذر منادو المدينة الحامية. وأرسل رجال استطلاع البحرية البريطانية إشارة من أعلى مئذنة المسجد إلى السفن المرابطة فى الميناء، حيث بدأ طاقمها فوراً فى عبور السهل وهم يحملون مشاعل إضاءة قوية لترشد بنادقهم. ووقفت القوات فى سكون تام فى وضع استعداد، وانتظروا، متوترين، هجوم الأتراك. إلا أن هذا لم يحدث أبداً، إذ إن الأتراك فقدوا جأشهم لدى رؤية الأضواء الكاشفة الخفية تتلاعب عبر السهل مثل أعين غيلان نارية مختبئة فى الظلام. واستداروا جنوباً باتجاه رابغ تاركين ينبع دون أن يمسوها. وكان هذا قراراً كلفهم خسارة الحرب، كما

كتب لورانس.

واتجهت الأنظار جميعها نحو رابغ التى كانت قطعة الشطرنج الأساسية فى اللعبة. وسرعان ما كانت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على بعد ثلاثين ميلاً من الميناء الذى كانت تحميه قوات البدو الهزيلة من النظاميين نصف المدربين بقيادة عزيز المصرى مع طلعة من الطائرات بقيادة الماجور روس. وقرر الشريف على، الذى كان يقود حامية رابغ السير بشجاعة للاشتباك مع الأتراك كى يخف الضغط على فيصل فى ينبع، وأيضاً لكى يتخذ موضعاً نهائياً. وحينما أخلى الأتراك نخل مبارك عاد إليها فيصل بجهد جهيد من البلاغة لإقناع الجهنيين بالقتال معه مرة أخرى. وفى اليوم التالى تعقبت قوته بكاملها الأتراك على أمل الإيقاع بهم فى شرك التلال بين جيشه وجيش على. إلا أن هذا لم يحدث. فقد هربت من على شجاعته حينما غابت عن عينيه مدافع البحرية البريطانية، وتراجع لدى سماعه شائعة زائفة تقول إن جماعة حرب المحلية قد لحقت بالأتراك، الأمر الذى سبب استياء وزير حربه عزيز المصرى. وتراجع فيصل مع رجال جهينة إلى نخل مبارك وهم يشعرون بنفس الاستياء ومكث كل من زيد وعلى فى رابغ على حين واجه هو الأتراك بمفرده فى درب سلطانى وفى نفس الوقت تملك الخوف من حسين فى مكة. وبالرغم من كل هواجسه السابقة، طلب من البريطانيين أن تدافع إحدى حامياتهم عن رابغ. وكان حسين قد كسب هدفاً محلياً فى نوفمبر بإعلان نفسه ملكاً على الحجاز. وكان هذا اللقب غريباً على المورورث العربى، لأنه على حين أن لمترادفات الألقاب العربية، مثل سلطان وأمير، دلالات على السلطة، فدلالات لفظ ملك هى «التملك». وقد أعلن حسين تغيير مكانته دون إنذار سابق ودون استشارة حلفائه. ولم يكن لهذه الخطوة ميزة سياسية حقيقية بل أدت إلى إثارة غضب الحكام العرب الآخرين مثل ابن سعود فى نجد. وفى لقاء له مع ويلسون فى جدة فى ١٢ ديسمبر، اتهم حسين البريطانيين بنقض وعدهم بأن يقطعوا خط سكك حديد الحجاز، وهو وعد لم يتم فى الواقع. وكان هذا تهديداً قصد به إيجاد العذر لأخطاء الهاشميين. فلو أن رابغ قد سقطت، لسقطت مكة، ولحُكم على حسين وأولاده بالموت. وبدا أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مكة هى إنزال قوات بريطانية فى رابغ، لكن كان هناك خطر فقدان حسين دعم المسلمين جميعاً فى حالة حدوث ذلك.

وبعد تفكير متأن أخبر وينجت الشريف أنه سيتم إرسال لوائين فقط موجودين على قائمة الانتظار فى السويس إلى رابغ شريطة تلقى طلب مكتوب منه وراوغ حسين. ولم يصل اللواءان البريطانيان أبداً. فقد فقد زيد وادى صفراء وظل عبد الله فى الحناكية قرب المدينة دون أن يفعل شيئاً. وكانت تنقصه المؤن من الطعام والماء والذخيرة. أما على، فكان قد سار خارجاً من رابغ إلا أنه عاد إليها على الفور. وبدت القضية خاسرة.

وأصبح من الواضح للهاشميين ولمستشاريهم البريطانيين أنه من الضرورى اتخاذ خطوة حاسمة. ودفع ويلسون علياً إلى إعادة تنشيط خطته للسير إلى مدينة الوجه على بعد مائتى ميل شمال الساحل، وكانت هى الميناء الأخير الذى ظل فى أيدى الأتراك فى الحجاز. وبسقوط الوجه، يصبح فيصل فى موقع يسمح له بتهديد خط السكك الحديدية شمال المدينة وصرف انتباه فخرى باشا عن رابغ. وبرهن فيصل حينذاك على صحة ثقة لورانس فى مقدراته الديبلوماسية، إذ إنه تمكن من استعادة جميع الجهنيين عن طريق خليط من الخطابة البليغة والذهب البريطانى، وجمع قوة من راكبى الهجن من رجال عتيبة وحرب وبيلى فى وادى ينبع. ورغم أن عدم فاعلية غير النظاميين فى الميدان كانت قد ثبتت، إلا أن لورانس استمر يؤمن بأهميتهم. فقد كان يعرف أن تردد فخرى باشا كل هذه المدة كان سببه التهديد المحتمل لخط السكك الحديدية. فإذا هدد العرب خط السكك الحديدية فسينتشر الجناح التركى حتى دمشق على بعد ثمانمائة ميل، وسيجبر الأتراك على تفريق قواتهم بطول المسافة كلها. وأتى فيصل ولورانس فيما بينهما بخطة مزدوجة طويلة المدى. وهى، أولاً أن يتحرك الشريف عبد الله وقواته البدوية المكونة من خمسة آلاف رجل من الحناكية إلى وادى عيْس حيث يمكنهم الهجوم على السكة الحديدية بسهولة، بينما يظلون فى نفس الوقت قرب ينبع. وثانياً، السير إلى الوجه مع كامل قوة فيصل من رجال قبائل وترك قوة هيكلية فقط للدفاع عن الميناء.

واعتقد لورانس أن هذين التحركين سيضعان الأتراك فى موضع دفاعى. إلا أن فيصل لم يتحرك خوفاً من سقوط رابغ. فقد كان مستعداً للموت دفاعاً عن أسرته،

وغير مستعد للانفصال عنهم حين يحين القضاء. ووصل ويلسون إلى ينبع في ٢٧ ديسمبر. وأعطى فيصل ضماناته الشخصية بأن البحرية البريطانية تستطيع الاحتفاظ برابغ لحين عودة قواته من الوجه. وبعد أسبوع سارت قوافل فيصل من البدو من نخل مبارك رافعين ألويتهم. وكان مشهداً بربرياً رائعاً لم تشهد الحجاز مثيلاً له في ذاكرة الأحياء. فلم تكن هذه غزوة قبلية، بل مسيرة جمهرة من القبائل. كان الجيش مقسماً إلى تسعة أقسام؛ وركب الشريف فيصل في مقدمة حرسه الخاص من جماعة عقيل، بينما ركب لورانس خلفه على بعد قليل منه، وتبعه ثلاثة من رافعي الرايات يحملون الألوية من الحرير القرمزي، وثلاثة من قارعي الطبول وهم يدقون على طبولهم الضخمة على إيقاع خطوات الإبل. وانتشر رجال العقيل المائتان وألف بشكل مروحي يميناً ويساراً، وأخذوا يرددون أهزوجة من أهازيج الإبل ارتجلوها ومعهم مغني القبيلة. وكانت ضفائرهم التي طاولت أكتفاهم ودُهنت بالزيوت وبول النياق تتأرجح أسفل أغطية رءوسهم، على حين انتفخت أثوابهم ذات الألوان الفاقعة بالهواء، وأخذت شُرَّابات أخراج الدواب تتراقص بجلال، بينما انطلق الرجال يرددون أهازيج القبائل بأصوات عميقة، فانتصبت آذان النياق، وخفضت رءوسها ومدت رقابها وأوسعت خطاها. ومع مرور أيام أخذت أعدادهم في التزايد حيث تدفق البدو من المناطق المجاورة ومن كل القبائل تقريباً لينضموا تحت لواء الهاشميين إلى أن وصل عدد القوة ثمانية ألف رجل. وفجأة أخذت صورة الهزيمة القاتمة تتراجع حتى أن سقوط دمشق بدا ممكناً. وأدرك لورانس وفيصل أن تلك كانت البداية الصحيحة للثورة، إذ إنه بعد هذا التجمع لن تعود الحجاز أبداً إلى ما كانت عليه. وقد أسمى لورانس ما حدث «أكبر إنجاز معنوى لحكومة الحجاز الجديدة»، وقال إنها المرة الأولى في الذاكرة التي تجتاز قبيلة كاملة تخوم قبيلة أخرى دون أن تفكر في النهب أو الثأر. كانت القبيلة كاملة بوسائل النقل والإمدادات ،متحدة على هدف عسكرى واحد ضد عدو مشترك. وكان عوده بن حمد، شيخ رفاعة، هو من قال لفيصل «ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه».

وفي فجر ٢٣ يناير تقدم أسطول صغير من السفن البريطانية يتضمن فوكس وهاردينج خلسة وسط غطاء ضباب بحرى إلى شاطئ البحر الأحمر مقترباً من

الوجه . وحينما تفحص الأدميرال وميس الشاطئ بمنظاره المعظم ، تبين شكل برج دائرى يقع على صخرة إلا أنه لم يجد أثراً لفيصل أو لورانس أو صفوف البدو . واستنتج وميس أن فيصل لم يستطع الوفاء بالموعد وانتابته الحيرة . كان ثمة ستمائة متطوع عربى على سطح السفينة هاردنج وكان معظمهم من عبيد جهينة السابقين وحرس فيصل القبلى من بيشة وقد تم إركابهم السفينة من أم اللج . وكان من المفترض أنهم سيحاربون تحت قيادة شيوخهم عمرو وصالح مع إرشاد اسمى من الماجور تشارلز ڤيكرى والكابتن إن . إن . إى . براى ، وكانا ضابطين متمرسين يتحدثان العربية ألحقهما وينجت بفريق مهمته العسكرية . وواجه وميس أحد خيارين : إما أن ينتظر ظهور فيصل أو أن يبدأ هجمته بدونه . فلم يكن بإمكانه الاحتفاظ بالعرب على ظهر هاردنج لمدة أطول كثيراً حيث كان يعوزهم الطعام والترتيبات الصحية . لكن ، هل كان باستطاعتهم الاستيلاء على المدينة ؟ فقد كان يسكن الوجه غالبية من المهاجرين المصريين من واحة القصير التى تقع مباشرة فى مواجهة المدينة عبر البحر الأحمر ، وكانوا معارضين للهاشميين ، وكان عدد الحامية التركية فيها ٨٠٠ رجل بالإضافة إلى مايقرب من ٥٠٠ جندى غير نظامى من فرق الجمال من عقيل . وقرر وميس أن باستطاعة العرب الاستيلاء على الوجه بواسطة ٥٠ بندقية بحرية وفريق إنزال مكون من مائتين من الأفراد من جنود الأسطول لدعمهم ، دون دعم قوات فيصل المتفوقة عدديا . وانسابت هاردنج وسط الضباب ورست على بعد ميلين من المدينة . وتسلق العرب إلى الصنادل البحرية التى كانت راسية فى خليج تحميه صخرة مرجانية . وكانوا حفاة يرتدون عباءات شعر الإبل لتحميهم من البرد وتنبعث منهم رائحة الأغنام . وأخذ الضباب فى الانقشاع وبدأت البنادق البحرية ترعد ضوضاء عميقة عالية حتى بدا الأمر للعرب وكأن الأرض نفسها تهتز . وتشبث نصف رجال القبائل بأماكنهم ورفضوا أن يتحركوا ، أما الباقون ، الذين كانوا قد استعدوا لأعمال النهب فقد قسموا أنفسهم إلى ثلاثة أقسام ذهبت مباشرة إلى شن هجوم ، وهم يصيحون بضراوة ، فى اتجاه المدينة . وتوقع الأتراك هجوماً شاملاً من الجنوب وكانت تنظيماتهم ضعيفة . ونظر الحراس المتمركزون فى المنازل الواقعة على الحدود الشمالية من النوافذ ليروا حشود رجال القبائل وهم يتصايحون ويندفعون تجاههم مباشرة . وسمعت بعض الطلقات التى

أصابت أعرابيين أو ثلاثة سقطوا مثل «الصور» القائمة وسط الصخور. وكان هذا هو الدفاع الوحيد الذى استطاعه الأتراك إذ وصل العرب إلى أول المنازل واقتحموا الأبواب وأطلقوا الرصاص على ثلاثة مصريين مدنيين وأخذوا فى تمزيق الحواشى وتحطيم الأثاث فى بحث مجنون عن الغنائم. وبعد ذلك، أخذوا ينتقلون من منزل إلى آخر ويدخلون فى اشتباكات ويقتلون وينهبون. وفى هذه الأثناء، كانت المجموعتان الثانية والثالثة قد اشتبكت مع الجنود الأتراك فى الخنادق، حيث أمطرهم فريق منهم بنيران البنادق بينما تقدم الفريق الآخر، بقيادة الشيخ صالح، ببطء تجاههم. وسار رجال القبائل على الحجارة الباردة غير مسرعين يتحسسون طريقهم بمهارة وقد زموا دشداشاتهم فى أحزمة ذخائرهم وحملوا بنادقهم على أكتافهم وفوهاتها مسددة للأمام بالأسلوب البدوى. كانوا على بعد ألف ياردة من الموقع التركى حينما فتح العدو عليهم النيران، وفجأة، انتقلوا إلى الخطة البطيئة وتوجهوا إلى قمة تلة احتموا خلفها وأخذوا يطلقون النيران فأصابوا عشرة أو أحد عشر تركيا.

وأرسل ڤيكرى، الذى كان قد تقدم معهم، إشارة إلى السفينة مستعملاً مرآة، وأخذت السفينة الحربية فوراً فى قصف تحصينات الأتراك إلى أن هرب الأتراك وتوقف القصف مدة تسمح للعرب بالتقدم. وتقدموا بثبات، وكادوا يصطدمون بمجموعة من مائتين من رجال الأسطول البريطانى كان قد تم إنزالها. وفى هذه الليلة، ناموا فى مواقعهم، وانتقلوا فى الصباح إلى أحياء من المدينة لم يكن قد تم الاستيلاء عليها ليكتشفوا أن معظم الحامية التركية بمن فيهم قائدهم، قد هربوا أثناء الليل واختبأت القوات القليلة التى تبقت فى المسجد. وبمجرد أن أحدث الطراد فوكس فتحة كبيرة فى حائطه، ترنح أفرادها خارجه عزلاً من السلاح وسقطت مدينة الوجه.

وصل جنود فيصل وبرفقتهم لورانس، وستيوارت نيوكومب الذى لحق بهم فى أم اللج، فى اليوم التالى ليجدوا المدينة فى أيد عربية. وفى هذا الصدد، كتب كابتن براى قائلا: «كانت رؤية جنوده فى أنحاء متفرقة من السهل المتموج باتجاه الجنوب الشرقى مشهداً مبهجاً.. وقاد فيصل نفسه طليعة الجيش، وكانت علامة حضوره

بينهم الراية الحمراء العملاقة التى رفعها حامل لوائه، وكانت بقعة اللون الوحيدة في جيشه». وهرول البدو إلى المدينة ممتطين خيولهم ونوقهم وهم يغنون ويمزحون وينفذون هجمات صورية. ولفت نظر براى أن مرحهم كان شديداً: «الأمر الذى يثير الدهشة، فقد خذلونا دون عذر، ولم تكن هناك أية محاولة لكسب الثقة رغم تفسيرات لورانس وفيصل اللاحقة. وينعكس هذا على قيادة فيصل، وبدرجة أكبر على مستشاريه البريطانيين». وكانت هذه بالفعل نهاية حزينة لمسيرة لورانس المذهلة لمسافة مائتى ميل. ورغم أنه شعر بالخزى لهذا الفشل بينه وبين نفسه، إلا أنه فى العلن، ألقى مسئولية التأخر على نقص المياه وضعف إبل فيصل التى نفق منها الكثير، وعدم كفاءة مرشديه الجهنيين. وفى سبيل الدفاع عن نفسه، هاجم تهور ڤيكرى، ملمحاً أن الهجمة حدثت قبل أوانها، وأن عدد الإصابات كان غير مقبول بالنسبة لجيش غير نظامى. وأوضح، عن حق، أن إصابات العرب ليست إحصائية بل مآسى شخصية وأسمى الهجمة حماقة عسكرية، واستنكر النهب وتحطيم المدينة التى كانوا يحتاجون إليها كقاعدة عربية. وكان ڤيكرى يعتقد أن زهو لورانس بإمكان دخول العرب إلى دمشق قرب نهاية العام ما هو إلا تبجح. وكان لورانس، من جانبه، ينتقد باستمرار الجنود المحترفين. ومن ثم، فقد أدان هذا المدفعى الذى مارس عمله فى السودان لمدة عشر سنوات، ووصفه بأنه شخص عديم الإحساس لأنه يشرب الويسكى فى حضرة فيصل الذى كان مسلماً ورعاً. وكان ينظر إلى ڤيكرى على أنه ضابط كلونيالى، وأنه رغم إتقانه العربية، يتعامل مع العرب من منطلق التنازل ولا يفرق بين العرب العاديين والعرب النبلاء من أمثال الهاشميين. أما أسلوب لورانس فكان جد مختلف. فقد حاول أن «يدخل تحت جلد العرب» ويحاكى أساليبهم ويرى أفضل خصالهم، وإن بدا سلوكهم غير مقبول للثقافة الأوربية. بيد أن السبب الحقيقى لسخطه على ڤيكرى كان مصدره لا شعوره وأحاسيسه المكبوتة رغم القناع الذى كان يتخفى وراءه. فقد كان هو وڤيكرى متشابهين فى الجوهر ويختلفان فى الأسلوب فقط. ورغم أن شرب ڤيكرى الويكسى فى حضور فيصل قد يكون دليلاً على عدم الحساسية، إلا أن ڤيكرى كان صريحاً (كان فيصل، الذى امتاز بسعة الأفق، قد تقبل فعله هذا ضاحكاً)، على حين كان تلبس لورانس للشخصية العربية عملاً تنكرياً، وانتقاده

لفيكرى غير منصف في غالبيته. فأولاً، كان وميس لا فيكرى هو من قرر عدم انتظار قوة فيصل. ثانياً: لم يكن بمقدرة فيكرى التحكم فى العرب. ثالثاً: فقد روع نهب المدينة وتحطيمها فيكرى وبراى بنفس القدر. أما لورانس، فلم يلق على نفسه أية تبعة لتأخر فيصل عن الموعد، وكانت الأعذار التى قدمها واهية. فكان قد تفاخر فى أماكن أخرى بمقدرة البدو على السير مسافات طويلة بأقل كمية من الطعام والماء؛ بالإضافة إلى أنه كان بمقدرته أن يرسل بسهولة فرقة متقدمة من رجاله الثمانية آلاف ليشتركوا فى الهجوم على الوجه. إلا أنه على الجانب الآخر، فقد قدّر حس لورانس الدعائى أن المسيرة قد نجحت لمجرد تحققها. فكما أدرك كان من شأن قدرة فيصل على تجميع مثل هذه القوة الهائلة من رجال القبائل وتحريكهم لمسافة ٢٠٠ ميل عبر الصحراء، وتهديدهم الآن لخط السكك الحديدية، أن يكون له أثره الساحق على معنويات الأتراك.

وكان الشريف عبد الله، أيضاً، قد وجه ضربة شديدة لمعنويات الأتراك حينما كان يسير إلى وادى عيس فى ١٣ يناير ومعه خمسة آلاف من البدو، والتقوا بقوة تركية بقيادة أشرف بك، السفاح السابق، قرب واحة خيبر. وكان عبد الله، طبقاً لما قاله فيصل، على مقدرة أن يتخذ قرارات وينفذها فى سرعة البرق عند الضرورة. ومن ثم، فقد دفع بفرسانه سريعاً، لدرجة أن رجال المدفعية التركية لم يستطيعوا تصويب سوى ستين طلقة قبل أن يتم الإيقاع بهم. وتم أسر جميع صفوفهم بمن فيهم أشرف، كما أستولى عبد الله على ٢٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبى، وعدد من السجاجيد والملابس والبنادق الآلية والمدافع وصناديق مليئة بالمسدسات. وبعد ذلك، عبر عبد الله البحر إلى وادى حمض وترك لفخرى باشا رسالة بين قضبان السكك الحديدية يخبره فيها أن أشرف بك فى أيدى العرب ويوجه فيها إليه تهديدات كارثية. ثم أرسل عبد الله رسولاً إلى فيصل ومعه خنجر أشرف بك المرصع كهدية بينما ظل هو يعسكر مع لورانس فى حارات غالب على الشاطئ. وأقيمت ولائم واحتفالات ضخمة. وكتب لورانس قائلاً «إن مغنى القبيلة نظم أهزوجة تمجد الانتصار فى ست عشرة دقيقة». ومكث العرب يوماً إضافياً فى أبو زرايبات فى وادى حمض للاحتفال؛ وكان هذا هو سبب التأخير وليس نقص المياه.

وقد أنهى أسر أشرف فى ١٣ يناير، وأنباء خطط مسيرة الوجه، خطط فخرى

باشا بالنسبة لرابغ. واستمر رجال جماعة حرب يناوشون جنوده في وادى صفراء لحسابهم لا لحساب الهاشميين. فقد كانت خطوط إمداداته تمتد بشكل خطير في مناطق معادية. وكان للبريطانيين تفوق جوى في رابغ؛ وكانت طائرات روس قد حلقت فوق المدينة نفسها مرات عدة، أما الأتراك، فقد أضعفهم عدو أشد فتكاً وهو ميكروب الكوليرا الذى كان يقضى على ٢٥ جنديا يومياً. وفي ١٨ يناير، أى بعد أسر أشرف بخمسة أيام، أمر فخرى باشا جنوده بالانسحاب إلى المدينة وإلى السكك الحديدية. وتبخر التهديد لرابغ؛ ولم يتحرك الأتراك مرة أخرى خارج المدينة طوال الحرب.

الفصل الرابع عشر

لا أعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل

وادى عيس ووادى حمض

مارس وأبريل ١٩١٧

14

قبيل غروب الشمس

بساعة أبصرنا محطة أبى

النعّام. كانت الأكمات وشجيرات

النخيل تلقى بظلالها، كعلامات

تعجب، عبر الألواح الخشبية الصلبة

على أرض الوادى. ومن بُعد، إذا لمحها

الإنسان من بين صفوف الأشجار

الشائكة، كانت أبنية المحطة تبدو

كمجموعة هندسية متناسقة داكنة،

وسط أشكال

طبيعية متجزئة

كانت ضئيلة في مواجهة جوانب الجبل الجرانيتية الوامضة التي كانت تشمخ خلفها . كان هذا هو وادى حمض ، حدود بلدة جهينة وبيلى . وكان سائقى مفلح ينظر إليها كأرض غريبة . حاولت أن أجد جملاً أحج به إلى الأماكن التى بدأ منها لورانس هجومه على خط سكك حديد الحجاز بأسلوبه البطيء المتروى الذى ناسبها . إلا أنه لا يوجد إبل تُمتطى فى المملكة العربية السعودية اليوم واضطررت آسفاً أن أستأجر سيارة من نوع Land Cruiser فى المدينة المنورة . وقضينا طوال فترة ما بعد الظهيرة نقتفى أثر خط السكة الحديدية . فقد تم إزالة القضبان والعوارض منذ زمن بعيد ، وكان بالإمكان التعرف عليها بمشقة فى بعض الأماكن عن طريق الجسور ، التى هى عبارة عن أرفف منخفضة تمر خلالها الرمال والصخور الصلصالية . وقد أقيمت المحطات على مسافة ثلاثة عشر ميلاً بين كل منها . وفى عام ١٩١٧ ، كان من عادة الأتراك أن تمر دورياتهم يومياً ، بشكل آلى لا يتغير مما مكن مجموعات لورانس الاستطلاعية من التنبؤ بتحركاتها . فقد كانت الدورية

تقطع نصف المسافة تحديداً من إحدى المحطات إلى المحطة التالية. وهناك يلتقى أفرادها بجيرانهم ويتحدثون ويتبادلون السجائر ثم تعود كل دورية متبعة الخط الحديدى. كان هناك ست محطات بين المدينة المنورة و«أبو النعام»، استدعت كلها صوراً من قصة «المحيط» حيث أجبر على وفيصل على التراجع، وهاجمهما فخرى باشا من الخلف فى يونيو عام ١٩١٦، فى حفيرة وبواط اللتين خطط فيصل للهجوم عليهما بقوة من رجاله؛ البوير حيث مازالت ترقد فى فناء المحطة نصف قاطرة كاملة وقد علاها الصدأ وغطيت بالكتابة المحفورة؛ واسطبل عنتر حيث عبر عبد الله الخط وهو فى طريقه إلى وادى عيس.

وكانت اسطبل عنتر تقع تحت جبل ذى قمم مزدوجة، اعتقد العرب فى موروثاتهم أن البطل شبه الأسطورى عنتر بن شداد قد ربط حصانه الضخم بها. بيد أن «أبو النعام» كانت أكثر المناطق التى استحوذت على اهتمامى لأنها كانت المكان الذى اشتبك فيه لورانس لأول مرة مع الأتراك، وتلمس بأصابعه قضبان السكك الحديدية المثيرة. وكان مدخل وادى عيس ظاهراً للعيان من جهة الغرب،

وكذلك أول قمتين لجبل الظلة حيث ثبت الشريف شاكر مدفعيته لقصف المحطة من على بعد ألفي ياردة. وتُوحي حمض وسور وادى بحس كغابات إفريقيا ـ كان هناك، في زمن لورانس الفهود والضباع والوعول، ويدل اسم النعام على وجود تلك الطيور هناك في الماضي. أما مفلح، فكان يعتقد بأنه مازالت هناك ضباع ووعول، وربما فهود أيضاً، رغم أنه لا يعرف أن أحداً شاهدها في السنوات الأخيرة. وحتى كبار السن الذين تحدثت معهم لم يشهد أى منهم نعامة. وسرنا ببقعة نمت فيها ثمار الحنظل الصغيرة المستديرة ذات اللون الأخضر المائل للصفرة. وتوقف مفلح ليجمع بعضها قائلاً إنهم يستخلصون منها ترياق لمرض السكر. وهذه الثمار سامة لمن يأكلها من البشر، إلا أن الحمير تطعم بها بعد سلقها. وكان البدو يستخرجون القطران من بذورها ليطلوا به قرب الماء. وهذه الثمار، مثلها مثل بدو الصحراء، متكيفة تماماً مع البيئة القاحلة. فحينما تجففها الشمس إلى أن تصبح مجرد قشور تذروها الرياح في الصحراء ناثرة حبوبها في كافة الأنحاء.

كانت «أبو النعام» منشأة على نموذج المحطات الأخرى التى شاهدناها. فكانت تتكون من مبانى ثلاثة رئيسية: حصن صلد؛ والمحطة نفسها، وبرج مياه بيضاوى الشكل، وليس دائرياً كما وصفه لورانس.وإلى الناحية الغربية كان هناك مسجد صغير ومبنى للبريد. كانت المبانى مشيدة من قوالب البازلت الأسود،وكان من الواضح أن الدور العلوى للحصن وجزء من برج المياه قد أعيد بناؤه بعد القصف العربى. وتفحصت أنا ومفلح الحصن الذى كان صلب التشييد، وكانت غرفه تفتح عن حوش مركزى مدفون تحت طبقات من فضلات الطيور. وكان ثمة سلم من الصلب يؤدى إلى خزان مياه تحت الأرض، ودرجات سلم تقود إلى الأدوار العليا التى كان بها ممرات وجدران ذات فتحات لإطلاق النيران. ونظرت بالمنظار المعظم على امتداد الوادى باتجاه بروزات الصخور المتكسرة التى كانت تحرس مدخل وادى عيس. كان الوادى مليئاً بالسعادى (rimth) التى تنمو فى مجموعات ذهبية كالجُزُر، وكانت هناك مجموعة من الإبل ترعى على أوراق الشجيرات فى سلام. وتعجبت: ماذا رأى قائد الحصن، وكيف كان شعوره لدى سماعه أصوات بنادق الشريف شاكر المرعبة صباح يوم ٣٠ مارس عام ١٩١٧ قبل أن يدك المبنى عليه؟ كان هناك وقتذاك مالا يقل عن ٤٠٠ رجل يدافعون عن المحطة، وكانوا يبيتون فى

خيام نصبت حولها. وكان المكان محاطاً بالأسلاك الشائكة. كان الأتراك يعلمون بوجود دوريات عربية في المنطقة ويتوقعون هجوماً وذلك لأن رجال لورانس كانوا قد أطلقوا القذائف على الحصن ليتأكدوا أن القوات ستبقى بالداخل. وأرانى مفلح، فيما بعد، الهيكل الحديدى الملتوى لأحد عربات القطار فى مواجهة الباب، مع عربات النقل ذات الارتفاع المنخفض التى كانت نصف مدفونة فى الرمال. كان المعدن ساخناً لدرجة لا يمكن معها لمسه. ومن المحتمل أن كان هذا من بقايا هجمة لورانس لأن إحدى قذائف شاكر كانت قد أصابت العربة الأولى من ست عربات ملحقة بالقاطرة التى كانت متوقفة على ألواح الجدران الخارجية وفجرت حمولتها الشديدة الاشتعال محدثة توهجات نارية. أما القاطرة، فقد سارت مباشرة جنوباً إلى المكان الذى زرع فيه لورانس لغمه الأول.

وكانت الوجه قد اتخذت قاعدة يمكن للعرب منها قطع خط سكك حديد الحجاز، إذ إن هدف فيصل النهائى كان الخنق البطئ للمدينة المنورة ثم الاستيلاء عليها. وبمعنى ما، فقد كانت مسيرته للانقضاض على الوجه نجاحاً ساحقاً. فقد جُندت قبائل البدو فى مناطق شمال الحجاز وما بعدها وأُتى بهم مسرعين تحت ألوية الهاشميين. واستقبل فيصل، فى شهر فبراير فقط وفوداً من آل شرارة والحويطات وبنوعطية وقبائل روالة من سوريا وأحراشها، ومن قبائل أولاد على وبيلى من الحجاز. كان هدف فيصل هو صهر القبائل وتشكيلها فى أمة عربية، وكانت مهمته الأولى هى إنهاء النزاعات الثأرية التى مزقتهم لأجيال. وكان ينصت بصبر وروية إلى كل ذى مطلب ويفحص تاريخ ادعاء كل مظلمة، ويوازن المطالب المتنافسة للدية حينما تكون موضع قبول، وحين لا يتم قبولها، كان يستدعى مبدأ التضامن العربى باسم والده حسين ملك الحجاز. كان مؤيدو الوحدة يقسمون على القرآن الكريم فى حضور فيصل شخصياً أن ينتظروا طالما انتظر، ويسيروا حين يسير، وألا يطيعوا تركياً، وأن يعاملوا من تحدث بالعربية برفق وأن يضعوا الاستقلال فوق الحياة والأسرة والمتاع. وكان البدو يقسمون، إلا أن اعتقادهم أنهم أمة واحدة يظل موضع شك. فقد كانوا يكرهون الأتراك ويودون لو غادروا تخومهم، وكانوا على استعداد لاتباع الهاشميين من أجل تحقيق هذا الهدف. بيد أنهم كانوا يعتبرون استقلالهم أكثر قيمة من الذهب، وحين كانت

أفكارهم تشرد خارج مناطقهم، فإنهم كانوا يفعلون هذا من أجل الكسب أو الغزو ؛ فقد ظلت أمتهم دوماً هي القبيلة والقبيلة والقبيلة.

ولاحظ لورانس أن الجهنيين كانوا قد بدأوا في العودة إلى منازلهم في وادى ينبع بعد أن شعروا بأنهم أغراب في منطقة البيلى. ومن المفارقات أن رجال العقيل، الذين لم يكونوا قبليين أو بدوا رحلا، هم فقط من كانوا على استعداد للسفر لمسافات أبعد كثيراً من تخومهم. وكان للعقيليين مشاكلهم الخاصة. فقد قاموا بأعمال عصيان ضد قائدهم عبد الله بن دخيل يوم ١٢ فبراير، ونهبوا خيمته وقاموا بجلد حراسه، ثم اندفعوا إلى معسكر العتيبيين الذين كان لهم معهم ثأر. إلا أن فيصل نفسه أثناهم عما اعتزموه، وفي هذه الأثناء، كان يخطو بينهم وهو حافى القدمين ويضرب بسطح سيفه. إلا أن السلام لم يعد إلا بعد أن قتل رجلان وجرح ثلاثون. وكانت مهمة لورانس مع فيصل قد انتهت بعد وصول نيوكومب إلى الميدان ليحل محله. إلا أن فيصل ولورانس كانا قد تعلق أحدهما بالآخر ولم يكن أحدهما يود أن يفارقه الآخر في خضم المعمعة. ورأى فيصل أن مكانه هو المستشار الرسمي والمحرك غير الرسمي للثورة العربية. وفي اليوم الذى رحلا فيه إلى الوجه كانت قد وصلت كليتون برقية من جدة تحوى طلب فيصل الشخصى بأن يستمر لورانس معه لأنه «ذو نفع كبير». ولم يكن أمام كليتون سوى القبول. وفي أول مارس، كتب إلى هيوبيرسون ـ الذى كان قد حل محل ويلسون بشكل مؤقت في جدة ـ «إن وجود لورانس مع فيصل له قيمة لا تقدر، ولو وجد شخص مماثل ليحتل مكاناً إلى جانب على، فإن هذا سيزيد بشكل عظيم احتمال التعاون بين الجنسين». وكان من الحتمى، ولدى لورانس ما لديه من مقدرة على التماهى مع الآخرين، أن يتوحد مع العرب في الثورة العربية. فقد شعر أن لجام القوة كان بين يديه. ونسى تحفظاته المبكرة على مكانه في الميدان. وانهمك في عمله لدرجة أنه استبعد كل ما عداه. والآن، وهو يرتدى الزى العربى ويتحدث العربية باستمرار، فقد تلبس الشخصية العربية ونسى كونه كابتن في الجيش البريطانى واعتبر نفسه فرداً في عائلة فيصل. فقد انتقى فيصل كزعيم رمزى للثورة، وكان هو وحده من سيقوده. كان يعلم أن فيصل شخص يسهل التأثير عليه، ومن ثم، اعتزم أن يكون مستشاره طالما استطاع ذلك. وكتب إلى عائلته يقول «إن موقعي شاذ. ولا أعتقد

أنه قد كان لأى رجل إنجليزى قبلى مثل هذا المكان». وكان فيصل يعتمد على لورانس لعلمه أن لهذا الرجل الإنجليزى خاصية لا غنى عنها للقائد الحق إنه كان يوحي بالثقة. ولم يكن باستطاعة لورانس أن يحدث أثراً عظيماً بسحر شخصيته فقط، بل كان أيضا بوسعه بعث الطمأنينة فى الآخرين بأن كل شيء سيسير نحو الأفضل. وكما قال السير هربرت بيكر فيما بعد«كان يبدو وكأنه يشع أثراً مغناطيسيا». هذا، رغم أن سلوكه الواثق كان فى حقيقة الأمر ستاراً لعدم ثقته الداخلي.، وشكوكه التي تسببت له في اضطراب عظيم. فقد كان مثل والدته سارا، يبدى للعالم وجهاً مختلف. إلا أنه كان يمارس تأثيره بحصافة. فلم يحاول إملاء أية استراتيجية على فيصل، ولم يكشف في المجالس العربية عن آرائه. ولم يكن يأمر باتخاذ طريق ما، بل كان يوحي به. وعلق لينارد وولى على هذا قائلاً: «... كان يأتي باقتراحات ذكية، إلا أنه كان نادراً ما يجادل لدعمها. فقد كان يقيمها على أسس سليمة بدرجة كافية وكان يتوقع أن يدرك المرء هذا بنفسه. فإذا لم تحظ بالموافقة يركن إلي الصمت وهو يبتسم». وكشف لورانس عن أسلوبه مع فيصل فى المواد السبع والعشرين التى كتبها للضباط كى يتبعوها مع الهاشميين: فقد كان يحاول أن يتأكد أن الشريف قد وضع خططه السرية أمامه؛ وكان دائماً يقبلها ويمتدحها ثم يقوم بعد ذلك بتعديلها بأن يستخلص المقترحات من فيصل نفسه بحيث تتوافق مع آرائه. وبعد أن يتفقا، كان يلتزم بها بحزم، ويدفعه إلى أن يلتزم هو بها بلباقة بحيث لا يشعر الشريف بهذا. وكان يظهر احترامه للشريف أمام الآخرين ويقوى من مكانة فيصل على حساب مكانته هو. وحينما يكون فى معسكر الشريف، كان لا يقوم بزيارته بصفته الرسمية، بل يظل فى معيته باستمرار، يأكل معه، ويحضر جميع المقابلات، ويقترح الأفكار فى الحديث العابر بشكل يبدو عشوائياً. إلا أنه كان يختفي حينما يحضر مشايخ القبائل لمبايعة الهاشميين لعلمه أن الأثر المبدئى لوجود أجانب ثقة مطلعين على أسرار فيصل سيكون ضاراً بالقضية. استحضر لورانس قدراته الهائلة على التركيز ليؤثر بها على شئون الشريف؛ وغمر نفسه كلية فى الثقافة العربية: فكان يراقب وينصت ويقلّب الأمور ويفكر مليا فى التفاصيل وينقب عن الدوافع والمكائد المتخفية تحت السطح ويحلل الشخصيات التى عليه التعامل معها. كان دائما يتوخى الحذر ولا

يقول ما لا يلزم قوله أبداً، ويراقب نفسه وأفعاله باستمرار. وقد تذكر بيرس جويس، الذى كثيراً ما شاهده فى اجتماعات مع العرب، أنه نادراً ما كان يتحدث: «فقد اقتصر على دراسة الرجال من حوله، وكان يعرف مسبقا أنه سيتم قبول خطته، وكان يرى أنه من الأفضل أن تترك مهمة إشعال حماس رجال القبائل للقادة العرب.. ولا يعود نجاحه دائماً لقيادته الفردية لجموع البدو.. لكن إلى الاختيار الحكيم للقادة.. وإلى إمداد الطاحونة بمواد الطحين الأساسية على هيئة جوائز ذهبية للإنجازات الحسنة».

وكان لورانس يدرك أن المسيرة إلى الوجه كانت نصراً معنوياً عظيماً لقضية الهاشميين؛ أما بالنسبة للضباط البريطانيين المحترفين الذين لم يعرفوا القدر الكافى عن الحرب الدعائية، فاعتقدوا أن المسيرة دليلاً على عدم كفاءة العرب، وأن البحرية الملكية هى التى أنجزت النجاحات الكبيرة. وأدرك لورانس حاجته إلى تحقيق نصر مستقل كى يثبت جدارة الحركة فى أعين القادة البريطانيين، وجدارته شخصياً أيضاً، إذ كان يعلم رأى الضباط من أمثال براى وفيكرى فى فشل فيصل فى الوفاء باللقاء فى مدينة الوجه، وفى دوره هو فى هذا الفشل.

وكان العرب بحاجة إلى الإتيان بشيء مذهل لكسب احترام البريطانيين. وبدا الأمر وكأن الفرصة تقدم نفسها. ففى ١٠ مارس رست السفينة «نور البحر» فى الوجه ومعها الأنباء التى هزتهم هزاً بصدور الأوامر لفخرى بك بالجلاء بقواته عن المدينة المنورة. وكان الانسحاب من هناك فى هذا الوقت نصراً كبيراً للعرب وكارثة للبريطانيين. فقد كانت قوات مرى قد عبرت سيناء، وكان حينذاك يعد لهجمة ضخمة ضد الدفاعات التركية فى فلسطين، تبدأ من غزة على الشاطئ وحتى بئر سبع فى الداخل. ومن ثم، كان الوصول المفاجئ لحامية المدينة التركية المنسحبة المؤلفة من ١٢٠٠٠ جندى ومعهم مدفعيتهم الكاملة إلى جناحه الأيمن أمراً غير مرغوب فيه على الإطلاق. وفى خطاب منه إلى لورانس أكد كليتون على وجوب الهجوم على قوات فخرى باشا وتدميرها قبل أن تصل إلى فلسطين، وأنه لا يجوز، تحت أية ظروف، أن يُسمح لها بالوصول إلى هناك. وكان نيوكومب وجارلاند مازالا يشنان غاراتهما التدميرية فى شمال البلاد. ولم يجد لورانس من خيار له،

بصفته الضباط الأعلى رتبة في الوجه، سوى تحمل مسئولية الموقف. وكانت مهمته الأولى تتطلب كل ديبلوماسيته وتستدعي كل صلات الثقة التي أسسها مع فيصل. فبين لفيصل وجوب التضحية بالأولويات العربية من أجل الأولويات البريطانية. وكان فيصل، وقد كشف لورانس له مؤخراً شروط اتفاقية سايكس / بيكو، يتطلع للتقدم نحو سوريا كي يقوى من مركز العرب هناك قبل أن يطالب بها الفرنسيون. وكان إقناعه فيصل بالقبول بالمتطلبات البريطانية في مدة لا تربو على ساعات قليلة شاهداً عظيماً على قوة الإقناع التي كان لورانس يتمتع بها. وبمجرد أن انتهى من هذا، جلس الاثنان يحددان كيفية توزيع قواتهما. ثم بعث، على وجه السرعة، بمراسلين إلى أخويه عليّ وعبد الله ليخبرهما بالموقف الجديد. فكان على أخيه على التحرك إلى الشمال الشرقي مع الجهنيين وبني سالم، وأيضاً كان يجب إرسال الديناميت إلى عبد الله مع تعليمات بتفجير خط السكك الحديدية في كل النقاط مهما كانت الظروف. وكان على مولود المخلص وراسم ساردست التوجه إلى فقير مع فرقة المشاة على بغالهم، وبرفقتهم مدفع جبلي. ويتوجه الشريف علي بن حسين من قبيلة بني حارث، أو «اللورد الصغير» الذي كان لورانس قد التقى به في الحمراء في أكتوبر السابق، إلى جيالة لمشاكسة القوات التركية هناك. وأيضاً، كان على فرق من آل بيلي وأولاد محمد أن يصطحبوا البنادق الآلية ويهددوا محطة العلا. وكان هدف هذه الخطة التي ارتُجلت عفو اللحظة هو احتواء الأتراك جنوب هذا الخط لأنهم تمكنوا من تخطي خط العلا وأصبحوا في حماية الحامية العثمانية في تبوك. وكانت محطة الحدية هي إحدى المحطات الهامة في طريق انسحابهم، إذ إنها المصدر المائي الوحيد لمسافة مائتي ميل. ومن ثم، عيّنها لورانس هدفاً شخصياً له. وكان قد تحدث عن إمكانية زيارته لعبد الله في وادي عيس حتى قبل أن يصل إلى الوجه. والآن، اتخذ قراره بالسفر إلى معسكر عبد الله ليشرح له الاستراتيجية الجديدة، ويلقى نظرة على الخط الحديدي، ويزرع الديناميت في أحد القطارات، وإن أمكن، يستولي على إحدى المحطات. وفي نفس الليلة، رحل إلى الوادي في معية مرافق.

كانت هذه أولى عمليات لورانس الكبيرة في الميدان. وكما كان يصر، فلم يكن ضابط ميدان مدرباً بل مسئولاً سياسياً مكانه المناسب إلى جانب فيصل.

وكان كل من جارلاند ونيوكومب، زارعا الألغام المدربان، قد سبقاه إلى شن هجمات على الطريق الحديدى. إلا أن هذه كانت حالة طارئة وشعر لورانس أن قوة عبد الله الجالسة فى وادى عيس لم تفعل سوى القليل طوال الأشهر الماضية لتبرر وجودها هناك. فكان عليه أن يدفع عبد الله إلى فعل شىء كما نجح مع فيصل، وسيتولى هو تحطيم النقطة الرئيسية على خط السكة الحديد بنفسه. ولابد أنه بدا للورانس، وهو فى طريقه مع مرافقيه، أن عبء حملة الشرق الأوسط برمته كان ملقى على كتفيه. إلا أن ذعره القديم من الإصابة الجسدية انتابه بمجرد أن سار فى طريقه. فقد ترك المرض علامته مع كل لحظات الضغوط العميقة فى حياته: فرحلاته فى سوريا انتهت بالملاريا والدوسنتاريا، وفى اللحظة الحاسمة أثناء مهمته فى الكوت عام ١٩١٦، أرقدته الحمى. وكانت الملاريا حقيقية، إلا أنها كانت تعاوده على فترات لدى انهيار دفاعاته النفسية. فقد كان خروجه إلى وادى عيس مسئولية رهيبة. وظهرت عليه الأعراض الجسمانية لمسئوليته عن ضرورة الأداء الصحيح تجاه العرب وتجاه رؤسائه البريطانيين، وللاحتمالات التى قد ترافق وجوده على أرض يربض عليها الذئب التركى. وفى الليلة الثانية من رحلته، عندما عسكر وفريقه عند عين «أبو الزريبات»، حيث كان فيصل قد تباطأ أثناء مسيرته إلى الوجه، أصيب لورانس بالحمى والدوسنتاريا والطفح الجلدى. وفى اليوم التالى الموافق ١٢ مارس رحل الفريق مبكراً. وقضى رفاق لورانس، وهم مراكشى يدعى حامد، وطاه سورى، وبعض العقيليين والرفاعيين، ومراوى وعتيبى، وهم يقضون يومهم فى جدال مستمر. وكانت الرحلة صعبة ولورانس يتألم. وبعد استراحة قصيرة فى منتصف الصباح، تسلقوا مجرى مياه ضيق باتجاه الصخور، وكانت كتلاً شاسعة محززة من الصخور البركانية المتشققة، حيث أجبروا على الترجل وسحب جمالهم على درجات صخرية وحواف جبلية حادة كأنصال السكاكين. ثم هبطوا إلى واد مفتوح ومنه إلى آخر وآخر حتى ضلوا طريقهم فى منطقة جلاميد البازلت الأسود التى تعرف بالحراء، حيث تعثرت الجمال وزلقت أرجلها. ثم سطعت الشمس حارقة وأصيب لورانس بالإغماء مرتين أثناء النهار، ولم يكن أمامه سوى أن يظل على سرج الجمل. وفى وقت العصر، كان عليهم الهبوط مرتين على منحدرات حادة مما زاد من إعيائه. وأخيراً، توقفوا فى الساعة الرابعة وخمس

وأربعين دقيقة لقضاء ليلتهم في مجرى مائي يدعى وادي خيطان حيث قام لورانس بفك حزام خرجه وألقى بنفسه في ظل بعض الصخور وكان منهكاً ومصابا بصداع وحمى. أما ما حدث بعد هذا فيمثل إحدى الفجوات الغامضة التي هي من ملامح حياة لورانس حيث يبدو الأمر وكأننا ننتقل من عالم الوقائع الصلدة أي الأزمنة والمسافات والأرقام والتواريخ التي تملأ مفكرته، إلى عالم تحت أرضي من الكوابيس والأشباح.

فطبقا لما رواه لورانس في «أعمدة الحكمة السبعة»، فقد قطع عليه أحلامه صوت إطلاق الرصاص عن قرب، إلا أن هذا لم يقلقه لأنه تخيل أن أحد البدو كان يصطاد أرنبا برياً للعشاء. إلا أن الأمر لم يكن هكذا. فسرعان ما أيقظه سليمان العتيبي وقاده إلى أخدود آخر ليريه جثة عقيليّ يدعى «سالم» قتل بعيار أحدث جرحا مفتوحا في جبهته. ورأى لورانس بوضوح أن الجلد كان محترقاً في الأطراف مما يوحي بإطلاق النار عن قرب. وعلى الفور، شك في سليمان متذكراً الثأر بين آل عتيبة وآل عقيل، إلا أن علي، وهو عقيلي كبير السن، أكد له أن القاتل هو خادم لورانس نفسه، أي حامد المراكشي. وأرسل لورانس رجاله ليبحثوا عن حامد ثم زحف تحت أغطيته حيث سرعان ما سمع حفيفاً. وفتح عينيه ليرى المراكشي يرفع أحزمة خرج جمل قريب، وكان من الواضح أنه ينوي تحميل ناقته ليزحل. إلا أن لورانس سحب مسدسه وأوقفه وتدافع العرب الباقون وعقدوا مجلس قضاء على الفور، واعترف حامد أنه وسالم تجادلا وأنه فقد أعصابه فقتله من مدى قريب. وطلب علي والعقيليون تطبيق مبدأ العين بالعين، وكان لورانس يعرف أن هذا هو قانون الصحراء القديم، كما أنه كان على أية حال مضطرباً لدرجة أنه لم يستطع التدخل طلبا للرأفة. فوافق على أن اغتيال سالم كان جريمة لا تغتفر. وكان من الواضح أن حامد لابد وأن يقتل. ولكن من سينفذ حكم الإعدام؟ فإن قتله على يد أحد من العقيليين سيبدأ دورة ثأر بينهم وبين المغاربة، وكان يوجد الكثيرون منهم في جيش فيصل. وكان لورانس فقط هو من في موقع قاضي العدل الذي كان بإمكانه تنفيذ الحكم في الشخص المدان دون إحداث ضرر. ومن ثم، أمر المحكوم عليه بالدخول في أخدود كان قد ضاق حتى أصبح شقاً عرضه بضع بوصات. وترك له مهلة قصيرة لمراجعة نفسه. وتكور حامد باكيا على الأرض فأمره لورانس

بالوقوف وأطلق عليه الرصاص بيد مرتعشة. وارتمى المغربى أرضاً وهو يسعل دماً فأطلق عليه لورانس الرصاص مرة أخرى إلا أنه أصابه فى رسغه فقط وأحدث به جرحاً بسيطاً. ورقد حامد على الرمال وهو يصرخ، فاقترب منه لورانس ووضع فوهة مسدسه عند فكه وأطلق عليه الرصاص مرة أخرى فارتعش جسده ارتعاشة خفيفة. ونادى لورانس على العقيلى ليتولى دفنه وترنح هو إلى حيث كان متاعه وتهاوى على مرقده. أما ما سجله فى مذكراته يوم ١٢ مارس فيتكون من خريطة تخطيطية لوادى خيطان وعليها سهم يشير إلى موضع أطلق عليه «شق الموت» وكتب بخط عنكبوتى «نمت هنا؛ ليلة رهيبة، أطلقت النار».

والآن، لأن يقتل الفرد فى خضم المعركة، فهذا أمر، أما أن يطلق الإنسان النار من مسافة قريبة إراديا على رجل ميت عاجز، فلابد وأن يكون هذا محنة لا يحتملها سوى القلائل، خاصة إن كان من أطلق الرصاص فرداً يرتعد من الحمى. ولم يكن لورانس جندياً خشناً؛ بل لم يكن فى الواقع قد قاتل فى أية معركة. وبعد ذلك بعامين وفى نهاية الحرب، كتب أليك كيركبرايد بعد أن شاهد ما شاهده لورانس من أعمال القتل أنه «بدا مصدوماً بحق لما رآه من استعمالى غير المحدود لمسدسى. فقد كنت أحياناً، حينما يصبح الشخص كريهاً، أصوب إليه المسدس وأقتله فيصيح لورانس قائلاً «أوقف هذا المزاج الدموى بحق السماء». ولا يبدو أن مثل هذا الشخص يشبه من وجد أنه من السهل عليه وضع فوهة المسدس تحت ذقن الرجل وأن يطلق الرصاص عليه متعمداً.

والمدخل الذى تحتويه مذكراته عن هذه الفترة يوحى أنه قد تم إطلاق الرصاص على شخص ما فى تلك الليلة. إلا أن المدخل شبه مشفر بطريقة لافتة. كما أنه لا توجد أيضاً أية إشارة عن الحادث فى تقارير لورانس. وأيضاً فهو لا يشير إليها لاحقاً أبداً. رغم أن الإنسان يتصور أن حادثاً كهذا كان لابد وأن يترك أثره الذى لا يمحى. ويدعى لورانس فى رسالة كتبها فيما بعد أنه غادر الوجه ومعه «أربعة من آل عقيل وأربعة من رفاعة»: وإذا افترضنا أنه قد أهمل ذكر خادمه السورى، والمراكشى، يظل سليمان العتيبى غامضاً لا يأتى ذكره فى أية مذكرات أو رسائل، ولا يظهر إلا فى «أعمدة الحكمة السبعة». ونقرأ أيضاً فى مدخل مذكراته الميدانية عن يوم ١٣ مارس الآتى: «معنا ١٢ جملاً ورجلاً، سورى، وزلفى، ورصى،

وعنيزى، ومراوى، ورفاعى». وكان هناك اسم آخر تم تسويده بشدة. ورغم أن مجموع هؤلاء ليس اثنى عشر، فإن لورانس يكتب بتحديد أكثر فى رسالته اللاحقة المطبوعة على الآلة. فلا يوجد ذكر للرجال الإثنى عشر. وفى مدخل يوم ١٣ مارس، أى اليوم التالى لما ادعاه من إطلاق النار، كتب «معى سورى، ومغربى، ومراوى، ورفاعى وثلاثة رجال من عنيزة والرص والزلفى (عقيل) بالترتيب».

والتناقض الوحيد هنا إذن أن المراكشى - أو حامد كما يفترض - والذى تطلب شطب اسمه من القائمة، ومن اليوميات المكتوبة بخط اليد من قبل، يظهر لاحقاً فى الوثيقة الرسمية المطبوعة على الآلة. فهل من المحتمل أن يشطب الفرد بشدة على الاسم فى مذكراته الخاصة - نتيجة للندم كما يفترض - ثم يضمنه التقرير الرسمى؟ والتفسير الواضح أن الاسم قد تم شطبه بعد نشر الرسالة الرسمية - مما يوحى أن حامد كان حياً يرزق فى ١٣ مارس، أى بعد يوم من إطلاق لورانس الرصاص عليه، كما أننا إذا قرأنا الوصف الذى جاء فى «أعمدة الحكمة السبعة» قراءة متأنية نكتشف أن الأمر لا يبدو حقيقياً. فإن لورانس يصف العقيلى لدى وصوله ليرى الجثة بأنه كان «يجرى على غير هدى كالمجنون»، ثم يضيف أنه أرسل الرجال فيما بعد للبحث عن حامد. وكان العقيلى والرفاعى قد قضيا حياتهما فى الصحراء، يقتفيان أثر الغزاة الأعداء والجمال الضالة. ورد فعلهما الطبيعى فى هذه الأحوال هو اقتفاء أثر القاتل بطريقة منهجية وفى رواية «أعمدة الحكمة السبعة» يقرر لورانس أنهم توقفوا فى وادى خيطان بعد غروب الشمس، الأمر الذى يشير إلى أن المغامرة كلها حدثت فى الظلام. ولا يبين، والأمر كذلك، كيف تأتى له أن يتبين بوضوح كاف الجلد المحترق من أثر الطلقات. إلا أنه يذكر فى التقرير تحديداً أن مجموعته قد توقفت فى الساعة الرابعة والنصف، أى قبل غروب الشمس بساعتين، مما يوضح حدوث القتل أثناء النهار الأمر الذى تكون معه آثار القاتل واضحة. وقد يقال إن طبيعة وادى خيطان الصخرية هى من أسباب عدم وضوح الأثر. إلا أن المعسكر لابد وأنه أقيم حيث توجد رقع رملية، إذ كيف يتأتى لبدوى يحترم نفسه أن يربط إبله على الصخور حيث تكون عرضة لجرح أركابها؟ هذا بالإضافة إلى أن لورانس يذكر الأخدود الرملى الذى أطلق فيه الرصاص على الرجل. وأخيراً، فثمة نموذج مألوف لهذه القصة، فهى تتشابه بشكل يشير حب

الاستطلاع مع رواية محاولة قتله في تل بشار بسوريا عام ١٩٠٩ . ففي كلتا الحالتين . تفشل أحلام لورانس الهرقلية بسبب مرضه وضعفه الجسدى ؛ وهو يقدم في كلتا الحالتين حالة حرجة (الإصابة) لتبرير فشله . فهل لرد فعل لورانس المبدئي لحادثة القتل ، أى قوله « شعورى بأن هذا ما كان له أن يحدث اليوم من دون الأيام جميعها وأنا أعانى الألم » أهمية خاصة ؟ وهل أطلق لورانس الرصاص فعلا على حامد المراكشي ؟ هل قام أحد غيره بإطلاق الرصاص ؟ أم هل كان حامد مازال حياً يوم ١٣ مارس ؟ ربما كان حامد قد قتل ليلة ١٢ مارس . بيد أننا إذا أخذنا في الاعتبار شخصية لورانس ، وأيضاً حقيقة أنه لم يشر إلى الحادث المزعوم بعد ذلك أبداً ، فإنه من غير المحتمل أن يكون هو شخصياً قد أطلق الرصاص على الرجل بنفسه .

وفي الثالثة صباحاً انطلق الجميع . وكان لورانس مريضا لدرجة حتمت على الرجال رفعه إلى ظهر ناقته . وبعد يومين أو أكثر من الخوض في متاهات الحثالة والحرات التي كانت تحيط بوادى عيس ، أناخ لورانس ورجاله إبلهم عند عين ماء أبو مرخاء ، حيث كان عبد الله على وشك إقامة معسكره وسط تشوش زعيق رجال القبائل وصهيل دواب النقل . ووجد لورانس في نفسه القوة الكافية لأن يحيى عبد الله ويسلمه تعليمات فيصل . ثم أقل راجعاً وانتظر أن تنصب خيمته وألقى بنفسه على الفراش . ولم يبرح الخيمة لمدة ثمانية أيام .

نحن الآن في الخامس عشر من شهر مارس . وكان فيصل ولورانس قد خططا لوجود القوات العربية في مواقعها خلال عشرة أيام انقضت منها خمسة . وكانت الملاريا قد شلت حركة لورانس ، بالإضافة إلى إصابته بالدوسنتاريا . وسواء كان هذا يرجع إلى الطبيعة ، أو إلى الخوف ، أو إلى عبء ألم الضمير الناجم عن قتله رجلاً ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة القتال وشعر أنه لو نجح فخرى باشا في الوصول إلى تبوك ومنها إلى فلسطين لانقلب ميزان الحرب كله ، ولعاد عليه جزء رئيسى من أسباب الفشل . وبينما كان يرقد ساعة بعد ساعة يحملق في سقف خيمته ، بدأت كتلة رؤى مشوشة تدور في مخيلته كالدوامة . فكر في طفولته وهو يتوق إلى الشرق ، والشعور الذى تملكه وهو في المدرسة أن يحرر العرب ، وسلسلة الأحداث المتزامنة التي أتت به إلى سوريا ، والنقب ، وأخيراً إلى بلاد العرب . فقدكانت كل

أحداث حياته تقوده إلى هذه النقطة. فلم يكن أبداً رجل أفعال. إلا أن فكرة واحدة ترسبت فى عقله بوضوح بارد مثل قطرة الماء وهى تسقط على سطح عين من الماء؛ إن هو، لورانس، قد أصبح يتحكم فى الحملة بالقدر الذى أراده. فقد كان البريطانيون ينظرون إلى الثورة من خلال عينيه، كما تعنى علاقته الوثيقة بفيصل أن العرب أيضاً يرون البريطانيين، إلى درجة كبيرة، من منظوره هو. فقد كان هو المحور: إنه هو، لورانس ملك العرب غير المتوج. فإنه يتحكم فى سريان المعلومات بين العرب والبريطانيين، وباستطاعته تطويع الأحداث بالطريقة التى يريدها. وتسارعت هذياناته مخترقة حواجز وعيه بأسلوب لم يخبره من قبل؛ فتهاوت التحصينات، وتدافعت قبائله الداخلية مقتحمة. وخبر إحساساً عميقاً بالصلة؛ حساً عميقا بالمعنى؛ تحرير الأمة العربية وكسب الحرب للبريطانيين. لقد أوكل إليه تحقيق هذين الهدفين. إن الحاجة اللحظية تسببت فى رد فعله الأول تجاه الثورة العربية. بيد أنه قد تم إغفال أشياء كثيرة. فحتى الآن، كان الجميع، بمن فيهم هو، أسرى هاجس الاستيلاء على المدينة. ولكن ما قيمة هذا؟ وتحركت منظومة من الأفكار تركزت كل منها فى موقعها مثل السُقاطات، وجعلته يبتسم وقد شعر بنفاذ بصيرة مثير فجائى. لقد تم كسب الحجاز فعلاً. تم كسبه فى يوم مسيرة جيش فيصل إلى الوجه. فمنذ اللحظة التى هدد فيها العرب خط السكك الحديدية لم يكن لدى الأتراك من خيار سوى تبديد قوتهم دفاعاً عنها. فالحامية التركية الآن منغرزة فى المدينة تأكل لحوم دواب النقل الخاصة بها وقد شلت مقدرتها على الحركة. فلم يكن العرب بحاجة للاستيلاء على المدينة. كما أن قطع السكك الحديدية كلية سيمنح العدو العذر للسير خارج المدينة. وطالما بقوا فى المدينة فهم لا يمثلون تهديداً للعرب أو للجناح البريطانى. وسرعان ما بدأ تفكيره يجرى الحسابات تلقائيا. ما مساحة الجزيرة العربية؟ ربما ١٤٠,٠٠٠ ميل مربع. كيف يتأتى للأتراك الدفاع عن هذه المساحة الشاسعة ضد سكانها؟ وطبقاً لحساباته، كان يلزمهم موقعاً محصناً كل أربعة أميال مربعة تحرسه قوة من ٢٠ رجلاً على الأقل. أى أنه يلزمهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل لكل مساحة الجزيرة. واتضح له أن الدفاع عن جزيرة العرب يفوق مقدرة الأتراك. نعم، بإمكانهم الدفاع عنها بواسطة خط محصن ومخندق كما هو الحال فى دفاعاتهم ضد البريطانيين فى فلسطين. إلا أن

هذا يتم فقط لو سار عدوهم في تشكيلات ترفرف الرايات فوق قواته. أما إذا افترضنا أن العرب اقتصروا على كونهم مجرد تأثير ؛ فكرة، شيء ما غير ملموس لا يمكن المساس به ؛ ليس له واجهة أو ظهر ؛ يتدفق مثل الغاز من مكان إلى آخر. فإنه ليس عليهم الاشتباك المباشر مع الأتراك. فلا يجوز تطبيق فلسفة كلوزفيتز العسكرية القائلة بأن هدف الحرب هو تركيز أكبر قوة عند أقوى نقطة للعدو وتحطيمه بضربات ساحقة. فإن قتل الأتراك رفاهية. إن العرب يستطيعون بواسطة تكوينات صغيرة متحركة ضرب العدو في أضعف نقاطه، ثم يعمدون إلى الاختفاء في ملاذهم، أي البرية، حيث لا يمكن للأتراك اقتفاء أثرهم. وكانت الميزات التي يتمتع بها العرب هي السرعة والمدى والزمن، لا الأسلحة النارية. فلم يكونوا بحاجة للدخول في معركة ثابتة، أو أن يكونوا هدفاً للعدو. فهم، بعكس الجيوش النظامية، لا يتحملون إصابات كثيرة إلا أن شن حرب بواسطة أشباح خابية ضد المعدات والتجهيزات التقنية والقضبان والمحطات والكباري كفيلة بتحقيق أهدافهم دون أن يتعرضوا لمخاطر جسيمة. فقد كانت الصحراء محيطاً يتحرك فيه العرب غير مرئيين، وأيضاً حاضرين في كل مكان، لا يعتمدون فيه على قواعد أو اتصالات أو نقاط ثابتة. فهم، باستغلالهم الصحراء، قادرين على إنهاك العدو وتحاشي المعارك الحاسمة وقطع خطوط الاتصالات، وتوجيه الضربات القوية ثم الانسحاب السريع. وتبين لورانس برؤية واضحة أن الصحراء هي حليفه الأعظم ؛ لقد اكتشف قوة الصحراء.

وبعد ثمانية أيام من الحمى، بدأ الضباب ينقشع، وتذكر أنه تم إرساله للحيلولة دون تسيير حامية المدينة المنورة إلى سوريا. وكان قد مر ما يقرب من الأسبوعين على مغادرته الوجه، إلا أنه لم يكن ثمة تحرك من قبل فخرى باشا. وكان فخرى باشا قد رفض بشدة، رغم عدم علم لورانس بذلك، مغادرة المدينة المنورة التي لم يتم الجلاء عنها إلا بعد انتهاء الحرب. وأراد لورانس أن يستعيد خطته للهجوم على خط السكك الحديدية، وليس لقطعه كلية، للحيلولة فقط دون مغادرة الأتراك المدينة. وفي يوم ٢٠ مارس سحب نفسه من فراشه لفترة كافية للحديث مع عبد الله الذي وجده متراخياً وفي حالة رضاء عن نفسه. وقفزت الكراهية التلقائية للشريف إلى المقدمة. فكتب لورانس إلى ويلسون فيما بعد قائلاً إن الأحوال في

المعسكر غير مرضية، إذ كانت قوة عبد الله البالغ عددها ٣٠٠٠ رجل من قبيلة عتيبة أقل مستوى، كمقاتلين، من الجهنيين وآل حرب. ووجد أن شيوخهم جهلاء ويفتقدون الحماس للحرب. كما استعمل بلاغته ليعلى من شأن «فيصله». ولم يترك وسيلة لم يستعملها لتشويه سمعة عبد الله. فرسم له صورة رجل بدين منغمس فى الملذات، يأكل جيداً، ويقرأ الصحف، ويتحدث عن الأسر الملكية الأوربية، ويدبر «المقالب» القاسية لمضحك بلاطه، ويعتكف معظم وقته داخل خيمته. كما قال إنه لم يكن يمارس أية رقابة على رجاله، فنادراً ما كان يزور مشايخ القبائل، ولم يكن يسمح، سوى للمقربين، بدخول خيمته. ولم يكن لعبد الله اهتمام بسوريا ـ التى كانت هاجس لورانس ـ إلا أنه كان يخطط لضم عسير وإخضاع اليمن. وكان لورانس يقدر حصافته السياسية لدرجة جعلته يعتقد فى جدية هذا الاحتمال. بيد أن ملاحظاته عنه، بشكل عام، كانت مريرة وقاسية لدرجة الإيحاء باحتمال شعوره بمنافسة له من عبد الله، الذى كان لا ينحنى لإرادته. وفى الواقع، فإن حاجة لورانس لأن يوضح لويلسون أنه «ليس ثمة شىء بينهما» كانت عذرا غير متطلب، أى نفى، غير مطلوب، يبرهن على حقيقة ما. أما عبد الله نفسه، فلم يسعده وصول لورانس. فلم يكن يرغب فى وجود أى ضباط أجانب فى وادى عيس وذلك لما قد يحدثه حضور مسيحى من أثر سلبى على قبائله. وقد كتب فى مذكراته أن أحد مشايخ القبائل قد سأله قائلاً «من هذا القادم الأحمر؟ وماذا يريد؟». على حين أن متعصباً من الوهابيين كان أيضاً قد هاجمه لصداقته مع المسيحيين. وكتب قائلاً إن لورانس كان له «تأثير سلبى على القبائل المتعصبة». وكان الشعور العام ببغض حضوره واضحاً بين القبائل. كما أن الشريف كان يولى الاستيلاء على المدينة اهتماماً خاصاً، واعتقد أن قيام الجيوش العربية الثلاثة: قوات على فى رابغ، وفيصل فى الوجه، وقواته هو فى وادى عيس، بحركة «كماشة» كانت كفيلة بإسقاط المدينة. ولم يوافق على تشتيت القوة العربية بمهاجمة نقاط عديدة على خط القتال. وكان لوجهة نظره هذه بعض الصواب؛ فلو أسقط العرب المدينة لكان هذا انتصاراً معنوياً ضخماً، يترك الحرية للجيوش العربية الثلاثة للتحرك داخل سوريا. إلا أن لورانس قد بات مقتنعاً أن العرب لن يستطيعوا إسقاط المدينة، وأن هزيمتهم هناك، من شأنها تدمير القضية العربية إضافة لما سيتكبده من

إصابات وضحايا كثيرين. وقد تعامل عبد الله مع لورانس برفق، إلا أن موقفه النهائى كان أن الاستراتيجية الهاشمية ليست شأناً من شئون رجل إنجليزى، وأنه لا يجوز له التدخل.

بيد أن لورانس كان أكثر توفيقاً مع نائب عبد الله، الشريف شاكر، وكان شخصاً نحيل الجسد ذا ملامح صبيانية يبلغ من العمر السابعة والعشرين. وكان فى طفولته رفيقاً للأمراء الهاشميين ونشطت حاسة لورانس الجمالية فى رفقة شاكر، إذ إنه على حين كان يرى أن عبد الله تعوزه الهيبة، بدا له شاكر «أرستوقراطياً بالمولد». ومع ذلك، كان شاكر متوحداً مع البدو، يدعو نفسه عتيبياً، ويجمع شعره فى ضفائر، ويزرع القمل فى رأسه إرادياً، لدرجة أنه كان يتمنطق بإزار من الشوك كان يفترض أنه يحد من نمو المعدة. وكان فى نظر لورانس «عربياً، نبيلاً» آخر فى قائمته التى تضمنت فيصل وعلى بن حسين الحارثى، والتى استبعد منها عبد الله لجلافته ـ رغم أنه كان موهوباً عقليا ويتمتع باستقلال لدرجة العنف ـ وقال لورانس إن العتيبيين كانوا يقدسون شاكراً وكانوا يفضلون تلقى الأوامر منه على تلقيها من رئيسه. إلا أنه كان يقدّر فيصل بشكل خاص لمجرد أنه كان قابلاً «للإرشاد الملائم» الذى كان باستطاعة لورانس إمداده به، أما عبد الله العنيد فكان محصناً ضده. وكان لورانس دائماً يتخذ موقفاً أبوياً إزاء العرب كباراً وصغاراً. فقد كان يعلم ما هو الأفضل بالنسبة لهم. وأحب لورانس شاكراً، على وجه التحديد، لأنه وافقه على خطة للهجوم على السكك الحديدية فوراً. كما قدر أيضاً معونة القاضى دخيل الله، قاضى جهينة. والذى كان قصير القامة قوى البنية فى الخامسة والأربعين من العمر سفعته أجواء الصحراء. وكان له مظهر وسلوك «الضفدع الطينى». وكان دخيل الله قد خدم مع الأتراك فى وادى ينبع، وفى الواقع فقد كان هو من أرشدهم فى ليلة ١١ من ديسمبر عام ١٩١٦ حينما أخافتهم التشكيلات غير الأرضية التى صنعتها أضواء البحرية الكاشفة. وكان هو، وكتعويض عن فعلته هذه، الذى فجر الكوبرى القريب من محطة أبو النعام قبل ثلاثة أسابيع وكان الفعل الوحيد، كما ذكر لورانس لرؤسائه، الذى قامت به قوات عبد الله منذ أن تحركت إلى وادى عيس. وكان لدخيل الله أسبابه الخاصة للحديث مع لورانس: فقد أراد الصلح مع فيصل بعد أن ساعد الأتراك. وقد أفاد لورانس من

هذا الموقف إلا أنه بدون دخيل الله ما كان له أن ينظم أي شيء.

ورغم رغبته في البدء فوراً، فقد أحس أن بدنه مازال واهناً. فقد عاودته الحمى والطفح الجلدى والأورام وألزمته الفراش لليومين التاليين. وفى يوم ٢٢ تمكن من بعث رسالة إلى بيرس جويس، الذى تولى القيادة فى الوجه، يقول فيها إنه يأمل فى أن يتمكن من تشكيل قوته الخاصة سريعاً، وإنه يعتزم الذهاب إلى خط السكك الحديدية اليوم التالى للاستطلاع. وقال إنه سيمكث فى وادى عيس لبعض الوقت كى يتأكد من أن شيئاً ما قد أنجز. وطلب من جويس أن يرجو فيصل ألا يظل فى الوجه، لأن مجرد العلم بأنه يتحرك لمهاجمة خط السكك الحديدية كفيل بإشعال حماس العرب وذعر الأتراك. وكانت لهجة الإصرار فى خطاب لورانس تدل على قدر السطوة التى حققها على حساب القائد العربى: فقد أخبر جويس عن أمله الكبير أن يرى فيصل فى جيادة أو عين الشفاء سريعاً. ورغم أنه قرر أن يرحل يوم الأحد ٢٥ مارس، إلا أنه كتب فى مفكرته فى اليوم التالى «مازلت مريضاً جداً». وأخيراً، فقد رحل بعد هذا بيومين عازماً على مهاجمة محطة أبو نعام، التى كانت تقع فى مكان مناسب فى مواجهة وادى عيس وتحجبها عن الأنظار مجموعة من القمم - أى الظلة. وجمع لورانس ما يقرب من ثلاثين من عتيبة وحفنة من الأشراف، وكانت المجموعة ستعمل فرقة كشافة لمجموعة أكبر كثيراً يقودها الشريف شاكر ومزودة بالمدافع والبنادق الآلية. وغادروا المعسكر مع ضوء النهار، وكانت أظلاف جمالهم تحدث صوتاً كالطحين على أحجار الصوان الصلبة فى أرض الوادى، وألقى لورانس بمخاوفه خلفه بجهد جهيد من إرادته. وبعد أن ركبوا لمدة يومين، وصلت المجموعة إلى الظلة حيث عسكروا فى ملاذ من البروزات الصخرية بين أشجار الطرفاء الضخمة. وترك لورانس المعسكر وتسلق قمة ارتفاعها ٦٠٠ قدم ليتجسس على المحطة، ووجد نفسه مرهقاً إثر الحمى التى يعانى منها، وكان يلهث ويتوقف باستمرار لالتقاط أنفاسه. ومن أعلى القمة، فاز بجائزته، إذ إنه أطل على مشهد واضح للمحطة التى كانت تقع على بعد ٦٠٠٠ ياردة: وكانت عبارة عن أبنية ثلاثة ضخمة وكوبرى على عشرين قوسا، وكان دخيل الله قد فجره من قبل ثم جرى إصلاحه. وكانت الخطة الأصلية هى إرسال قوة من القبائل لاحتلال التل الواقع خلف المحطة، أى جبل أُنسيل Unsayl وشن الهجوم

من الخلف. إلا أنه حينما وصل الشريف شاكر عصر اليوم التالي ومعه القوة الرئيسية اكتشف لورانس أنه قد أحضر معه ٣٠٠ رجلاً فقط ـ أى ثلث العدد الذى كان قد وعد به. وقدر أن هذه القوة لا تكفى لهجوم مشاة. وقرر الشريف قصف المحطة بدلاً من ذلك، وزرع الألغام على جانبى الخطوط الحديدية. وأرسلت مجموعة فى الفجر شمالاً لزرع الألغام ولقطع خط البرق، بينما قاد لورانس مجموعة أخرى من عتيبة لزرع الألغام على طول الخط الممتد من أبو نعام إلى اسطبل عنتر أى المحطة التالية جنوباً. ولم يتبادلوا أى حديث، وتبخترت الإبل فى سكون حتى وصلوا فى الساعة الحادية عشرة والربع إلى امتداد مهجور للخط.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها لورانس قضبان السكك الحديدية ووجد ملمسها مثيراً. وزرع عشرين رطلاً من ألغام جارلند ـ مارتينى - Garland Martin (كان هربرت جارلاند قد صممها بنفسه) تحت القضبان، وضبط مفتاح الضغط الذى سيعطى إشارة وقت ضغط ثقل القطار على المعدن. وبعد ذلك، وضع مدفع آلى وطاقمه فى مجرى مائى على بعد ٥٠٠ ياردة خلف بعض الشجيرات السميكة. ثم ركب رجاله من العتيبيين مطاياهم واتجهوا جنوباً ليقطعوا خطوط البرق. ونظراً لأن العرب كانوا غير قادرين على تسلق عمود البرق، كان على لورانس أن يفعل هذا بنفسه. وبعد أن قام بقطع الأسلاك تراخت قبضته وسقط من ارتفاع ١٦ قدماً لينقذه مرشده القاضى محمد. وفى النهاية، أصبح كل شىء معداً؛ وكانت الخطة أن تنطلق القذائف من مدفع شاكر على المحطة مع أول ضوء للنهار التالى. ومن ثم، سيكون على الأتراك أن يبرقوا فوراً لإرسال دعم لهم؛ إلا أنهم حينما يجدوا خطوط البرق وقد قطعت، يصبحوا مجبرين على إرسال قطار فى اتجاه المدينة يسير من فوره فوق ألغام لورانس فيعطل أو يدمر. وحينما يهبط الطاقم لإنقاذه، تتصيدهم قذائف البنادق الآلية.

ووصلت مجموعة لورانس إلى معسكرها قبيل الفجر ليجدوا «شاكر» فى موقعه مع بنادقه. وفى السادسة والنصف تماماً انطلقت النيران والأدخنة من البطارية عبر الوادى وارتدت ضوضاء الانفجارات وأصوات انطلاق القذائف على جدران الصخور. وانهارت الأدوار العليا لأبنية المحطة والقلعة من جراء الانفجارات الثلاثة الأولى للقذائف، واخترقت ثلاث أو أربع قذائف خزان المياه محدثة ثقوباً به

ومحطمة هيكله فاندفعت المياه منهمرة على جدران البرج. أما القذائف الأخرى التالية، فقد أشعلت النيران فى معسكر الأتراك، ودمرت أكوام الحطب المشتعلة وقودا للمحركات، وأصابت عربات القطار. وانفصلت القاطرة، وقعقعت باتجاه المدينة، وراقبها لورانس حابساً أنفاسه وهي تقترب من الألغام التى زرعها. وفجأة سمع انفجاراً مدوياً، وظهرت سحابة من الغبار، وتوقفت القاطرة. إلا أن المؤشر كان قد تحرك متأخراً، كما علم لورانس، فتعطلت العجلات الأمامية فقط. وقفز طاقم من سبعة رجال وبدءوا فى إعادة تثبيت العجلات فوراً. وانتظر لورانس صوت انطلاق البنادق الآلية، إلا أنه لم يأت أبداً. فقد كان الرجال قد تعبوا من الانتظار وحملوا أمتعتهم وانتقلوا عائدين إلى المعسكر. وجن جنون لورانس إذ إنه أجبر، عاجزا، على أن يرقب الفريق التركى وهو يعيد القاطرة إلى الخط مرة أخرى حيث بدأت تتحرك ببطء باتجاه الجنوب. إلا أن المعركة من أجل المحطة قد حمى وطيسها. فقد كان العتيبيون يناوشون الأتراك قرب المبانى تحت غطاء كتل الدخان المتماوجة، ويتقافزون وهم حفاة من شجيرة إلى أخرى وهم يطلقون النيران. وهاجموا موقعين للأتراك، وكانوا يقومون بقتل رجل من بين كل اثنين ويأسرون الآخر، ثم قاموا بالهجوم على الجزء الشمالى للمحطة وأسروا واحداً وعشرين رجلا، كلهم من السوريين الذين قام لورانس باستجوابهم فيما بعد. كما أتيحت للورانس أيضاً فرصة لأن يتفحص عربة القطار الموجودة بها الفرامل، والتى كان الأتراك قد خلفوها وراءهم، واكتشف أنها كانت مبطنة بالأسمنت ،إلا أن الأتراك الذين كانوا فى القلعة كانوا قريبين بدرجة لا تسمح لهم بالتلكؤ، كما أن كثافة الدخان حالت دون إطلاق النيران. وتوقف العرب عن الهجمات، وانسحبوا بعد أن قتلوا وأصابوا سبعة وعشرين تركياً. وخلال يومين، كانوا قد عادوا إلى معسكر عبد الله.

واعتبر لورانس نجاح أول محاولة لزرع الألغام فى الخطوط الحديدية محدوداً. فقد نجت القاطرة بعد كل شيء. وفى تقريره، انتقد العتيبيين الذين لم يكن قد طلب منهم فعل الكثير، ولم يكن متوقعاً منهم أداء ما قد يطلب منهم. إلا أنه كان مصمما على أن يجرب مفتاح ضغط الديناميت، وقرر أن يحاول إصابة القطار بين محطتى حدية ومدحرج التاليتين لأبو نعام. وفى ٢ أبريل انطلق مع مجموعة

تتضمن قاضى جهينة وعشرين من قبيلتهم واثنين من الأشراف وفريق بنادق آلية وقسماً من رجال المشاة السوريين. ومرة أخرى، ساروا من وادى عيس إلى وادى حمض، حيث ناموا على منبطح رملى وأقلقهم فى الليل هطول الأمطار الغزيرة. وارتفعت درجة الحرارة فى اليوم التالى وانعكست أشعة الشمس على التربة حتى بلغت حرارتها درجة لم يستطع معها لورانس السير حافى القدمين كما يفعل البدو، وكان عليه ارتداء صندله. ورعدت الدنيا فوق التلال طوال الصباح، وتلفحت الدنيا حولهم بسحابات متقطعة لونها أصفر فسفورى وأزرق. وفجأة أدرك لورانس أن السحابات كانت أعمدة من الغبار بلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم تدور فى دوامة مزدوجة متجهة بثبات نحوهم. وبعد ثلاث دقائق فقط اصطدمت بهم الرياح كالصفعات وفتحت عباءاتهم، وملأت أعينهم بحبات الرمال اللاذعة، وأخذت تدور حول الإبل مما جعلها تصطدم ببعضها البعض. واستمرت الدوامة الهوائية ثمانى عشرة دقيقة فقط أعقبها هطول الأمطار المتجمدة، فالتصقت عباءات الأعراب بظهورهم وأخذوا يرتعدون على السروج. وبعد الظهيرة، تسلقوا جرفاً شديد الانحدار ليلقوا النظر على الخط الحديدى إلا أن دوامات الضباب حجبت الرؤية؛ وفى طريقهم إلى أسفل، انزلقت قدم شخص عتيبى على الصخر المبتل وسقط من ارتفاع أربعين قدماً فتحطمت جمجمته على الأحجار. وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى قتل أثناء تأدية المهمة.

وبعد الظلام، عبر لورانس، والقاضيان، وشيخ من عتيبة يدعى سلطان السهلى إلى خط السكة الحديدية. وكانت مدحرج، وهى محطة صغيرة بها برج ماء، تقع على جرف شديد الانحدار، حيث ينحرف الخط انحرافاً حاداً باتجاه الشرق. وسرعان بعد أن غادروا، ما سمعوا نداء البوق من المحطة معلناً عن العشاء. واستاءوا لهذا، إذ إنه كان عليهم قضاء الليل على مسافة قريبة من الأتراك بحيث لا يستطيعون إيقاد النار. ثم عثروا على خط السكة الحديدية حوالى الساعة العاشرة وركبوا بمحاذاته وهم يبحثون عن موضع مناسب للبنادق الآلية. وكانت الرؤية من السوء بدرجة لم يستطيعوا معها تمييز المواقع، لذا اختار لورانس موضعاً لزرع الألغام بطريقة عشوائية عند الكيلو ١١٢١، ثم أناخت المجموعة إبلها فى سكون. وكان زرع الألغام هذه المرة معقداً نسبياً، ووضع لورانس الزناد الشعرى

بحيث كان متقلقلاً، كما اعترف هو بذلك. وتم له زرع شحنتين لتدمير الخطوط على بعد ثلاثين ياردة من إحداها الأخرى، ثم أوصلها بمفتاح الضغط الذى ثبته فى منتصف المسافة بينهما، وكان هذا يعنى أن أياً كان اتجاه القطار فستنفجر شحنة على الأقل تحت جسده. واستغرق شحن الألغام ساعتين. وبينما كان يعمل تساقط مطر خفيف أدى إلى أن تتخذ الرمال شكل كتلة طبعت عليها آثار أقدامهم. وكان لورانس يعلم أنه حين يحين موعد القطار، فستتفحص دورية تركية الخط بوصة بوصة بحثاً عن علامات مريبة، وأن آثار الأقدام التى خلفوها ستكشف أمرهم. فقد كانت عميقة بدرجة لا يمكن معها إخفاؤها. ومن ثم، أحضر لورانس ومجموعته جمالا لتخطو على الرمال لمسافة مائة ياردة على جانبى الخط، ثم أخذت طريقها إلى الصحراء الممتدة، بحيث بدا الأمر وكأن قوة كبيرة قد عبرت خط السكة الحديد ليلاً. ثم امتطوا إبلهم لمسافة مأمونة، وأخفوا أنفسهم خلف قمة صخرية انتظارا لشروق الشمس. وفى هذه الأثناء كانت تنتابهم الرعشة، ويلهثون من خلال أسنانهم التى أخذت تصطك من البرد القارس. ثم نشر الفجر خيوطاً حمراء عبر التلال ذات النتوءات. كما لو أنه يباركها، وصهرت الحرارة السحب، ونشرت النيران فى جسد لورانس. وتمنى لو لم تبدأ أى أعمال قتالية حتى يدفأ جسده تماماً. ومع ضوء النهار، وصلت فرق البنادق الآلية. وزحف القاضى دخيل الله لينظر ما كان يحدث. وفى الساعة السابعة والنصف سلكت دورية مسلحة من الأتراك طريقها على طول خط السكة الحديد وتوقفت عند الكيلو ١١٢١. ورغم أن الألغام كان مخبأة بعناية. إلا أن لورانس راقب الموقف وقلبه فى حلقه من الخوف. بيد أن الدورية واصلت سيرها جنوباً والتقت بدورية من الحدية، أى المحطة التالية مما جعل لورانس يتنفس الصعداء. وبعد ساعة، سمع لورانس صوت عجلات القطار، ورأى القاطرة وتسع عربات أخرى تقترب من الجنوب ولدهشته، فقد مرت القاطرة على الألغام، دون أن يحدث شيء، وكانت العربات مليئة بالنساء والأطفال، لذا شعر لورانس بالارتياح لعدم انفجارها. إلا أنه كفنان متفجرات، شعر بالإحباط لأنه رغم ضبطه لمفتاح الضغط بعناية فإنه لم يعمل. وقرر أنه يحتاج إلى تعيير. إلا أنه فى هذه اللحظة رأى أن الحرس التركى المتمركز أعلى المرتفعات المحيطة بالمدحرج قد اكتشف تجمعات العدو فى منطقته وفتح نيرانه عليهم من

مسافة ٥٠٠٠ ياردة، ورغم أن هذه المسافة كان يستبعد معها حدوث أضرار، إلا أن لورانس كان يعلم أن عدد الأتراك في المدحرج والحدية يربو على الألف، وأن دورياتهم ستبدأ فوراً في البحث عنهم. لذا قرر أن يحفظوا كرامتهم ويتراجعوا، فقادوا إبلهم ببطء، كي لا يرهقوا البغال التي كانت تحمل المدافع الثقيلة والتي كانوا يسحبونها خلفهم. وفي وقت متأخر من بعد الظهيرة، قادوا إبلهم مرة أخرى برباطة جأش وعادوا إلى الموقع تحت طلقات نارية متفرقة كي يغيروا المقداح المعطل. وكان الأتراك قد اعتادوا إطلاق النيران على أية جماعة من البدو تقترب من خط السكك الحديدية، ولم يكن لهم أن يعرفوا عن بعد أن جماعة لورانس كانت وحدة حرب عصابات. واقترح دخيل الله خطة ألمعية لإبعاد شكوكهم، فاقترح أن ينيخ الجميع إبلهم بحذاء الخط الحديدي ثم يؤدون صلاة المغرب ويؤمهم هو. ولم يكن الجهينيون يراعون الشعائر الدينية، وكان لورانس يعتقد أنهم ربما لم يؤدوا أية صلوات منذ عام مضى؛ أما هو فلم يكن يعلم كيف يؤدى الشعائر؛ إلا أنه تتبع حركات المصلين وهم يركعون ويسجدون، ولاحظ أن الحيلة قد انطلت على المراقبين الأتراك. وكتب فيما بعد «كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي صليت فيها كمسلم في جزيرة العرب».

وحل الغروب، وكان على لورانس أن يؤدى مهمة البحث عن آلية القدح المدفونة في الظلام الدامس. ولم يكن هذا أمراً محبباً إلى نفسه. فلو حدث وانطلقت فجأة، فستدمر العبوتان الخط لمسافة ٧٠ ياردة، وسيُنسف أى شخص في هذا المدى ويُقطع جسده إرباً. ومما زاد الأمر سوءاً إصرار كل مجموعة الجهينيين على مرافقته كي يؤازروه. وبينما كان يتحسس الطريق إلى آلة الإشعال بأصابع مرتعشة، دهمته رؤى رهيبة عن انفجار العبوتين فيه وفي مرافقيه. واستغرق العثور عليها ساعة، وهنا أدرك فوراً سبب عدم اشتعالها إذ إنها غارت في التربة بمقدار جزء من البوصة بسبب ليونة الأرض فضلاً عن طريقة تثبيتها. ومن ثم، أعاد ضبطها سريعاً، ثم هرول ومجموعته إلى إبلهم وامتطوها متجهين شمالاً نحو الأجراف التي تختبيء خلفها مدحرج وهم يزرعون الألغام في طريقهم. وكان جارلاند قد درب كل الجهينيين من فريق لورانس. وكانوا ينطلقون في الظلام كالنمل يثبتون العبوات في الفتحات الأرضية ذات الأقواس وعلى القضبان. أما

لورانس، فقد تسلق عمود البرق وقطع الأسلاك. وبعد لحظات، تمزقت أوصال الظلام بعنف حينما انفجرت كل العبوات في نفس الوقت تقريباً، فحطمت عشرات القضبان واجتزت رأس الكوبرى. وحالما انتهت المهمة أسرع العرب إلى إبلهم وامتطوها عائدين سريعاً إلى المعسكر. وكانوا في حالة جموح شديد لدرجة أن قاذفي المدافع من مجموعتهم أخطأوهم وظنوهم الأعداء، ومن ثم أطلقوا بعض النيران في الظلام. ولم يصب أحد لحسن الحظ. وقام لورانس وهو في حالة رضى ليستيقظ في السابعة والنصف على صوت ألغامه وهي تنفجر على بعد. ثم أخبره اثنان من كشافته الذين كان قد تركهم للمراقبة، أن قطاراً يحمل ٣٠٠ شخصاً من قوات الإصلاح مع أكوام من القضبان البديلة فجر الألغام مدمراً معه عجلاته. ورغم أن حجم التدمير لم يكن بالقدر الذى تمناه فقد سره انفجار الألغام، كما أن مجموعته قد أحدثت من الدمار ما يكفي لوقف الخط. وكان يعرف صعوبة اكتشاف ألغام جارلاند مما أدى إلى توتر الحاميات التركية على الخطوط الحديدية. وأثناء التجربة وصل إلى استنتاجاته الشخصية عن البدو. فاستخلص أنهم قوم غريبو الأطوار، وكتب قائلاً: «إن السفر معهم غير مرض للشخص الإنجليزى إلا إذا كان يتمتع بصبر في عمق وعرض البحر». ودعاهم عبيداً لشهواتهم مجردين من الصلابة العقلية، مدمنين للقهوة والحليب والماء ومستهلكين جشعين للحم الضأن. وقال إنهم كانوا يحلمون دوماً بالجنس. ويدغدغون أحاسيس بعضهم البعض بالحكايات الداعرة. وأضاف إلى أن عفتهم ترجع فقط إلى طبيعة حياتهم الشاقة، فلو أتيحت لهم ظروف أكثر ازدهاراً لأصبحوا شهوانيين داعرين خالصين. وكانوا أيضا يقاومون من يشكون في أنه يحاول قيادتهم ويهربون منه. إلا أنه إذا تملك المرء صبرا ليبين لهم الأمور من وجهة نظرهم، فإنهم يأسرونه بفعل ما يسر خاطره. وكتب قائلاً: «إن الطريقة التي يعملون بها واضحة، فعقولهم تعمل كعقولنا،ولا يوجد فيهم ما هو غير مفهوم أو مختلف جذرياً عنا، وسيصبحون تابعين إن تحملناهم ولعبنا لعبتهم». وبعد عمليته الكبرى الأولى تحت نيران العدو، كُتب له ولمن معه البقاء. فقد خاطر بحياته متحسساً مكان المقداح الشّعرى، ووجده غير صالح للاستعمال. والآن، منحته إثارة المعركة وزخم مهمة حفظ التوازن على حافة الهاوية في كل لحظة تقريباً، إحساساً بالاتصال والهدف لم

يخبره من قبل. وفجأة، أدرك لورانس أن هذا هو ما خلق له: فقد كانت كل سنوات التجوال تعده لهذا.

وسارت القافلة عائدة إلى وادى حمض والرجال يغنون. ووصلوا إلى معسكر عبد الله في «أبو مرخاء» بعد يومين حيث وجد لورانس خطابا من فيصل كان برهاناً على التقدير الذى يتمتع به في معسكر الشريف: «صديقى العزيز المحب.. أود كثيراً أن أراك، فلدى الكثير مما أرغب إخبارك به. إن تدمير خط السكة الحديدية أمر يسير. فقد وصل الماجور جارلاند وباستطاعتنا إرساله لهذا الهدف. بيد أن هناك حاجة شديدة إليك هنا. فأنا أواجه تعقيدات شديدة لم أتوقعها أبداً...». وكما قال لورانس فيما بعد، فواقع الأمر هو أن الشريف كان قد تملكه الضيق بسبب مكوثه بعيداً عنه لوقت طويل، وكان يعانى حالة من التوتر والإرهاق. وبعد أن تلقى تأكيدات عبد الله بشن جماعته هجمات على خط السكك الحديدية كل ليلة، رحل مع القاضى محمد، وثلاثة من العقيليين، ووصل إلى الوجه يوم ١٤ أبريل ليلتقى برجل سيرتبط به مصيره ارتباطاً وثيقاً: كان هذا المحارب شبه الأسطورى، رئيس قبيلة الحويطات، عودة أبو طيبى.

الفصل الخامس عشر

لا أحد يعرف حاليا مكان الكابتن لورانس

15

كان عودة أبو طيى
أكثر من يهابه الناس من محاربى
الجزيرة العربية. كان طويلاً، نحيلاً، ذا
أنف معقوف كمنقار نسر، تبدو عيناه
كشقين من طول تحديقه فى الشمس.
كان حضوره يرافقه هالة من الخطر،
وكان يبدو وكأن شيطاناً يتملكه، وهو
ما نصفه الآن بالسيكوباتية
أوالاضطراب العصابى.

فقد كان كثيراً ما يتملكه الغضب الأعمى الذى لا يهدأ إلا بممارسة العنف . ولم يكن يستطيع التحكم فى قوله ، فكان يكيل الإهانات علناً للأفراد بأن يروى أكاذيب فاضحة عنهم ويتحداهم أن يعارضوه . وادعى أنه قد قتل خمسة وسبعين شخصاً فى المعارك ، وكثيرون منهم من مدى قريب . وعرف عنه أيضاً أنه كان ينزع قلوب أعدائه ويأكلها . وحدث فى عام ١٩٠٩ أن فتح النيران على مجموعة من شرطة الدرك الأتراك الذين هبطوا إلى خيامه طلباً للضرائب وقتل اثنين منهم بينما فر الآخرون . وظل هارباً من الأتراك الذين أعلنوه خارجاً على القانون وأصدروا حكماً بالقبض عليه .

ولم يكن عودة مؤهلاً بحكم المولد لتولى مشيخة قبيلته التى كانت تنحصر تقليدياً فى فرع جازى من قبيلة الحويطات . وطبقاً لعادات البدو ، فحينما لا تعترف القبيلة بالسلطة الوراثية لشيخها ترفعها عنه تلقائياً ، ومن ثم تخلى قوم الشيخ عرعر بن جازى عنه لمصلحة حرب أبو طيى أولاً ، ثم لعودة ، الذى أبقى على

السلطة ارتكاناً على صيت شجاعته ونشاطه وقسوته وكرمه . لم يكن عودة ثريا ، إذ إنه لم يكن لبدوى محترم أن يصبح ثرياً إذ كان البدو يقدرون الجود لا الثروة ويرهبون الرجل الذى يحصد الكثير وينفق معظم ما يحصل عليه . وكان جود عودة ، حتى فى هذه الأرض التى كان أهلها يزهون بالكرم ، أسطورياً . ففى غضون جيل واحد ، تحول فرع الطويحة من الحويطات ، تحت قيادة عودة وإرشاده لابن عمه محمد الضحيلان ، من عشيرة مزراعين رحل ، إلى أكثر قوات الغزاة كفاءة فى كل شبه الجزيرة ؛ وعرف عنهم أن هجماتهم وصلت شمالاً حتى حلب وجنوباً إلى وادى الدواسر على حدود الربع الخالى . وألهمتهم ضراوة عودة حماساً وحيوية وقسوة ومثابرة مما أدى إلى خوضهم مواجهات عديدة حتى تقلص عددهم خلال عقود قليلة من ألف محارب إلى خمسمائة . كان يميزهم الجموح والفوضى ، وكان لهم من غرابة الأطوار ما يفسر قصر تاريخهم كغزاة ورحل يقومون بتربية الإبل . فقد كان يعوزهم النظام فى مسيراتهم ، ويتجادلون دون توقف حول أماكن معسكراتهم . كانوا يمتلكون الأراضى ، ويحملون معهم فى غزواتهم مظلات

الوقاية من الشمس وزجاجات المياه المعدنية . وعرف عنهم الخيانة وتجاهلهم لصلة الرحم والاستهزاء بأعراف البدو . وقد وصف لورانس فيما بعد الحويطات بأنهم البدو الحقيقيون . أما فى الواقع ، فقد كانوا موضع احتقار كمحدثى نعمة من قبل قبائل الصحراء الكبيرة مثل الروالة وشمر ، إلا أنه لم يكن بإمكان أحد أن يتجاهل ضراوتهم بما فى ذلك المشايخ الأقوياء من أمثال نورى الشعلان أمير روالة الذى تظاهر بصداقته لعودة بن طيى .

أما أعدى أعداء عودة فكان حميد بن جازى سليل عرعر إذ كان قد نشب بينهما نزاع حول مسألة تتعلق بالشرف . فقد كان سليل ابن جازى قد استحوذ على ناقة من رجل من شرارة والذى كان فى حماية عائلة عودة ؛ ووصل عودة وبعض أقربائه إلى خيمة ابن جازى لطلب التعويض فتعرضوا لإطلاق النيران ؛ ومن ثم أطلق عودة النار على ابن لهم واستولى على الناقة . واستمر العداء بين ابن جازى وابن طيى منذ تلك اللحظة ، ونتج عن النزاع مقتل عنّاد بن عودة الذى هجم عليه خمسة يمتطون إبلاً من أتباع مُلتقى بن جازى عند بعير فى أرض الصوان . وكان الابن الذى تبقى لعودة ، والذى لم يكن يفارقه أبداً ، صبياً فى الحادية عشرة . وفى عام ١٩١٤ عقدت أفرع قبائل الحويطات هدنة متقلقلة ورحلوا إلى شرق السكك الحديدية فى سهل جفر فى وادى سرحان ، حيث دأبوا على نهب القوافل التركية والإغارة على بنى صخر ؛ إحدى القبائل البدوية القوية فى الشمال ، وكانوا أيضاً فى حالة حرب مع آل شرارة - وهى عشيرة محتقرة كانت تقوم بتربية الإبل - فى الجنوب . ثم ظهر عودة فجأة فى أوائل شهر أبريل من عام ١٩١٧ فى معسكر فيصل بالوجه ومعه ولده حامياً وحيداً له ، وأعلن مبايعته للهاشميين . وكان هذا نصراً عظيماً لفيصل إذ إن وجود شخص مثل عودة معه ، يضيف إلى هيبته ، ويمنحه أيضاً مفتاح منطقة معن ، وهى المنطقة الخلفية للعقبة ، الميناء الكبير على البحر الأحمر المتبقى فى قبضة الأتراك . وبالإضافة إلى هذا ، فقد اعتاد الحويطيون مهاجمة خط السكك الحديدية ، وفى عام ١٩٠٩ هددوا بهدم كل الجسور فى إقليم معن إن لم يدفع الحاكم نقود حماية . ورغم أنه تم دفع المبلغ المبتز ، إلا أن الحويطيين استمروا فى الهجوم من آن لآخر على المحطات ونهبها . وفى منتصف أبريل من عام ١٩١٧ ، حينما عاد لورانس إلى الوجه يملؤه الاقتناع بمبدئه الجديد عن حرب

العصابات، وبوجوب تجاهل المدينة المنورة، وجد فى عودة الحليف الذى كان يبحث عنه.

لم يكن لورانس من اقترح فكرة الاستيلاء على العقبة: فقد كانت قد نوقشت منذ اندلاع الحرب. وفى أغسطس عام ١٩١٦، أى قبل وصول لورانس إلى بلاد العرب، فاتح الجنرال مرى الجنرال روبرتسون رئيس القسم الإمبريالى العام فى لندن بشأن الفكرة، وأبرق روبرتسون إليه قائلاً «أما عن العقبة، فما يجب فعله هو أن ترسم خطتك، وتخبرنا بما تعنى، ونقرر بعد ذلك ما إن كان سيتم تنفيذها أم لا». إلا أن كل الخطط التى بحثت احتلال الميناء كانت تتصور هجوماً من البحر. وكان لورانس قد رأى أن هذا التوجه غير عملى، ربما منذ عام ١٩١٤. ومن المؤكد أنه عارضه فى التقرير الذى كتبه عام ١٩١٥. وفى أول مارس من عام ١٩١٧ أرسل تشارلز ڤيكرى برقية إلى كليتون ليتحسس موقفه بالنسبة للاستيلاء على العقبة بقوات من جيش فيصل؛ فكتب ڤيكرى: «يتشوق الشريف فيصل إلى احتلال المدينة، ويعتقد... أنه سيكون لاحتلالها أثر سياسى ممتاز على السوريين». إلا أن فيصل كان يفكر فى إنزال بحرى بمساعدة القوات البريطانية والمدفعية البحرية. أما رد كليتون، الذى وصل بعد أسبوع، فقد أكد التحفظات السياسية لا العسكرية «إنه من المشكوك فيه أن وجود قوات عربية فى العقبة أمر مرغوب فيه، حيث ستعمل على إقلاق قبائل من الأفضل أن تظل هادئة إلى أن يحين الوقت». بيد أنه أفصح عن الطبيعة الحقيقية لتحفظاته فى تقريره إلى مكماهون فى شهر مايو: «إن احتلال العقبة بواسطة قوات عربية قد يؤدى إلى مطالبة العرب بالمدينة، وهو أمر غير وارد إطلاقاً بعد الحرب، إذ إنه قد تكون للعقبة أهمية فى خطة الدفاع المستقبلية عن مصر. ومن ثم، فإنه لأمر جوهرى أن تظل العقبة فى أيد بريطانية بعد الحرب». ووجد لورانس، لدى عودته إلى الوجه، فيصل مكتئباً ومحبطاً. فعلى حين أن الشريف، فى البداية، كان مصمماً على الاستيلاء على المدينة المنورة، إلا أنه نمى إليه فى آخر شهر مارس أن ستين ألفاً من القوات الفرنسية قد تم إنزالهم فعلاً فى سوريا، أو أنهم على وشك ذلك، وقدسبب له هذا القلق وحفزه على التخطيط للتقدم نحو سوريا على وجه السرعة. وكان يرى أن سقوط سوريا فى أيدى الفرنسيين سيكون كارثة، إذ إنه لا يمكن أن يكون ثمة وجود للحجاز القاحلة

بدون سوريا الخصبة. ووافقه لورانس على هذا، وذهب للقاء قائد الوجه البريطانى، بيرس جويس على الشاطئ لإقناعه بالعدول عن الهجمة على العلا بهدف عزل حامية المدينة التركية، وكانت هذه فى الأصل هى الخطة التى رسمها نيوكومب واعتقد لورانس أنها حمقاء؛ إذ إن الاستيلاء على نقطة وسط على خط السكك الحديدية يعنى تعريضها لهجمة كماشة من قوة المدينة والحامية القوية بتبوك. وشرح لورانس لجويس الرؤيا التى دهمته بشكل فجائى فى وادى عيس وتبين إزاءها أن من مصلحة العرب أن يظل الأتراك فى المدينة. وعبر مرة أخرى عن مخاوفه أن يفقد البدو عزمهم لو حدثت بينهم إصابات كبيرة. وعبر عن اعتقاده أن الاستراتيجية الأفضل هى الإبقاء على خط السكك الحديدية مشلولاً جزئياً وإجبار الأتراك على المقاومة السلبية. وكانت خطط الهجوم على العلا فى سبيلها إلى التنفيذ: كان جارلاند ونيوكومب قد اتخذا وضع الهجوم؛ ولو تم الاستيلاء على المدينة سيتمكن فيصل من التحرك شمالاً بسرعة كبيرة (ولم يكن هذا أمراً مطلوباً).

وعندما رأى أنه من الصعب إقناع جويس، تحول لورانس إلى عودة. وكان الإنزال البحرى فى العقبة أمراً ميئوساً منه، ومن ثم شرع، منذ وقت طويل يفكر فى أسلوب بديل. فقد كانت دفاعات العقبة عند فوهة وادى إثم تواجه البحر وكان هذا هو الاتجاه الذى يُتوقع هجوم العدو منه. وبالتأكيد، فإن التسلل العميق، بواسطة قوة صغيرة منتقاه يظهر أفرادها فجأة فى المواقع التركية الخلفية من الصحراء، سيفاجئ الأتراك. وكانت هذه خطة جريئة مبتكرة، أصبحت فيما بعد نموذجاً لكل غزوات الاختراق العميق عن طريق قوات خاصة التى نفذت طوال القرن. وكانت الخطة تحمل من المخاطر الكثير. فكان الوصول إلى العقبة عن طريق وادى إثم يتطلب قطع طريق دائرى قوامه ٦٠٠ ميل عبر أسوأ المناطق الصحراوية فى الجزيرة، بما فى ذلك امتداد يسمى الهول لا تتمكن فيه بعوضة أوذبابة من الحياة. كما أنه لن تكون هناك إمدادات حربية متقدمة؛ مدفعية أو بنادق آلية، أو قوافل إمدادات أو نظاميين مدربين. وكانت الغارة هذه تحتاج إلى رجال صحراء أشداء يستطيعون العيش على ما يستخلصونه من أرض الصحراء. ومن المفارقات أنه كان عليه استبعاد البدو لأنهم لا يقاتلون خارج نطاق تخومهم القبلية. ومن ثم، لم

يتبق أمامه سوى العقيليين من أتباع فيصل بصفتهم مرتزقة أشداء تم تجنيدهم من واحات نجد. ولن يقوى على البقاء حياً في تلك المجاهل التي تنعدم فيها المياه سوى فئة صغيرة لا يزيد عددها عن قدر سرب من الجند؛ هذا إن تم حل مشكلة الإمدادات. إلا أنه، ونظراً لقدر الأسلحة النارية المحدود، سيكون على دوريات قصف المدى الطويل تحاشي الاصطدام مع العدو، لأن مجرد وجودهم خلف خطوط الأعداء سيضعهم تحت رحمة أية قوة أكبر مع عدم وجود خط واضح للهروب. وسيكون عليهم، وهم على مسافة تمكنهم من الهجوم على هدفهم، أن يجندوا متطوعين محليين، إذ إن قوة صغيرة مثلهم لن يمكنها الاستيلاء على العقبة بمفردها. لذا، ستتطلب المهمة مقدرة على الإقناع والتبشير إضافة إلى تحمل الصعوبات الهائلة والمخاطر. وقرروا أن يقوموا بتحرك غير مباشر كثير الانعطافات عبر وادى سرحان، وهو طريق هام للاتصال بين جزيرة العرب وسوريا كانت الحويطات ترعى فيه إبلها. وفي حالة لو تمكن جواسيس الأتراك من اكتشاف الحملة، فلن يحدسوا هدفها بدقة، حيث سيوحي اتجاهها باحتمال هجمة على معان ودرعا، أو حتى على دمشق وليس على العقبة. أما لورانس، فكان عليه أن يشن هجمات برقية على السكك الحديدية تصل شمالاً حتى وادى اليرموك كي يؤكد هذه الشكوك. ثم تنعطف هذه القوة في اللحظة الأخيرة انعطافاً حاداً نحو الجنوب الغربي وتندفع عبر الصحراء الغربية إلى مدخل وادى إتم. وحدس لورانس أن المعركة الرئيسية ستندلع هناك.

وبدون عودة الطيبي كان سيحكم على الخطة بالفشل. فقد كانت حويطات عودة تتحكم في منطقة العقبة، وكان الأمر سيحتاج ليس فقط للنوايا الحسنة بل أيضاً لمتطوعين من القبيلة إذا حدثت الهجمة. ووجد لورانس، لحسن الحظ، قبولاً من عودة الذى قام معه بصياغة تفاصيل الغارة. أما مع زملائه البريطانيين، فقد ظل لورانس غير واضح بشأن طبيعة العملية الحقيقية، إذ إنه كان قد قرأ رد كليتون على ڤيكرى، وكان على دراية تامة بعزم البريطانيين الاحتفاظ بالعقبة في مجال نفوذهم. إلا أنه فكر في أن استيلاء العرب على العقبة سيرضى جميع الأطراف حينما يصبح واقعاً. فسيضع البريطانيون آخر موانىء البحر الأحمر العثمانية في أيدى الحلفاء ويؤمّنون بهذا جناح مرى الأيمن أثناء تحركه إلى داخل فلسطين، كما

ستوفر للعرب قاعدة إمدادات لعملياتهم في سوريا . أما بالنسبة للورانس فستكون هذه ضربة «معلم» تثبت للعرب جدارته، وتثبت لرؤسائه قيمة عمله بين العرب. ولم يكن على استعداد أن ينتظر أوامر مباشرة يطلب إليه فيها الامتناع، ومن ثم لم يحدد خططه في أى تقرير له إلى القيادة العامة. ومن الواضح أن ويلسون اعتقد أن معان كانت الهدف فقد أرسل إلى القاهرة البرقية التالية في أول مايو «في غضون عشرة أيام سيتوجه الشيخ عودة أبو طيى من الحويطات الشرقية إلى بلدته شرق معان، وسيرافقه الكابتن لورانس الذى سيبدأ فوراً أعمال تدمير للخطوط الحديدية. وسيكون هدفه الأول الاستيلاء على معان وبالتالى إخلاء الموقع من هناك حتى العقبة».

وأضحى لورانس الآن وحده. فلم تتم الموافقة الرسمية على خطته ولم يُعرف حتى هدفها الحقيقي. وكانت المخاطرة هائلة إلا أن لورانس أرضى ضميره بأن عملية العلا لن ينقص منها سواه هو ومجموعة قليلة من رجاله. وقضى أيامه القلائل الأخيرة في الوجه يتنقل بالطائرة والسيارات المصفحة بحثاً عن طائرة كانت قد تحطمت في الصحراء. وفي ٨ مايو، تولى هو والشريف ناصر مسئولية توفير ٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبي كانوا يحتاجون توفيرها لتجنيد عناصر من البدو في الناحية الأخرى. وكان على ناصر، الذى اعتقد لورانس أنه أكفأ جنود العصابات من بين كل الهاشميين، يتولى قيادة المهمة برفقة سوريين هما نسيب البكرى وزكى الدوربى الذى كان عليهما المساعدة على تجنيد الفلاحين السوريين في صفوف الهاشميين. أما رجال الحويطات فكان بينهم عودة، وابن عمه محمد الضحيلان المخطط الاستراتيجي الكفء، وابن أخيه الذى عرف عنه مقدرته على الغزو، ويدعى زعل أبو طيى إلى جانب سبعة عشر من المقاتلين العقيليين بقيادة رئيسهم ابن الدغيشر. وفي اليوم الأول سلم لورانس ناصر وعودة ومحمد الضحيلان بعض المسدسات، وأحضر كل منهم في اليوم التالى نصف جوال دقيق وملئوا قربهم بالماء، وحشوا أحزمتهم بالذخيرة، وأيقظوا إبلهم التى كانت تئن وترسل رذاذها كى يبدءوا إحدى أكثر الغارات جرأة في تاريخ الحروب.

كان الصيف في عنفوانه، وحرارة النهار خانقة. وفي الصباح الثانى أعمى

أبصارهم توهج انعكاس الشمس على الصخور، ثم توقفوا في الساعة الحادية عشرة، رغم رغبة عودة في مواصلة السير، وحطوا رحالهم أسفل بعض شجيرات السنط، وعلقوا أغطيتهم على الأشواك التماساً لمساحة أقدام قليلة من الظل. وكان لورانس في مفترق حاسم في حياته، وكان ضعفه الجسماني يفسد خططه دوماً. وأصبح التقدم مروعا، وأجبر لورانس ورجاله على الترجل في الأودية الضيقة وعلى سحب إبلهم من حبال الرءوس، ثم على السير ترادفياً حيث يسحب شخص الناقة من الأمام ويحفزها الآخر من الخلف. وكانت الشمس تمطرهم بضربات كالصلب القاسي. وترنح لورانس وهو يكاد يفقد وعيه نتيجة الحرارة والجهد والحمى. وبعد هذا الطريق كان عليهم السير وسط سلسلة من الصخور المعلقة وكانت من الخطورة بدرجة انزلقت معها ناقتان وتحطمت سيقانهما في الشُعب. وكانت الناقتان قد أضعفهما الجرب. وسرعان ما نزل إليهما الحويطيون وذبحوهما بخناجرهم الحادة، وقطعوا لحومهما بمهارة وقسموها بين الرجال. ثم أجبروا على إنزال حمولات الإبل وتحميلها بطريقة أفضل كي يتحاشوا مزيداً من الإصابات. ثم واصلوا، بعد أيام قليلة من السير إلى عين أبو راغة، وبدأت مخاوف لورانس الرهيبة من احتمال المخاطر، والتي كانت كامنة طالما ظل في الوجه، تطارده فكتب في مفكرته في ١٣ مايو: «اليوم، ألم وكرب». كما أن بطء المسيرة أحبطه بعد أن تعود على الهرولة في الصحراء على إبل خفيفة الحمولة، ومن ثم ضايقته هذه الرحلة الصحراوية البطيئة الشاقة. وكانت الإبل قد أضعفها الجرب، وكان عودة يعلم أن عليهم الاستغناء عنها كي يصلوا إلى نهاية رحلتهم. وكانت الأولوية بالنسبة للبدو هي الإبل، إذ كان فقدانها يعني موتاً أكيداً. وأجبر لورانس لدى مواجهته أكثر الخبرات المخيفة التي تعرض لها في حياته على الهرب قدماً إلى الخوف. وكان التأخر المستمر قد أعياه فكتب في ١٤ مايو قائلاً: «لو أننا نستطيع فقط التقدم».

إلا أن مزاجه اعتدل مؤقتاً لدى توقفهم عند نبع ماء. وهناك، التقى بصبيين من العقيليين يدعيان علي وعثمان كانا معرضين للعقاب لإشعالهما النار في المعسكر. ورغم أن لورانس ذكر في «أعمدة الحكمة السبعة» أن الصبيين قد ترجياه أن يأخذهما معه، وأنه أجابهما قائلاً إنه رجل بسيط لا يصطحب خدماً، فإنه كتب في

مثل حشد من الذباب. ثم سمع قعقعة البنادق وصوت الطلقات المخيفة تئز في الهواء وتقذف بالأحجار المتناثرة حولهم، وانطبح بعض العقيليين أيضاً من فورهم وأخذوا في إطلاق النيران بينما اندفع آخرون مخاطرين بحياتهم، نحو العدو وهم يطلقون صيحات التحدى. ولم يتوقع المغيرون هذا الحشد الكبير أو هذا الدفاع العدوانى، ومن ثم، ألجموا إبلهم سريعاً وقفلوا عائدين. وتعرف عليهم عودة من قطع ملابسهم وقال إنهم من الشمريين الذين كان أميرهم ابن رشيد يساند الأتراك.

وفي يوم ١٩ مايو، أى بعد رحيلهم من الوجه بعشرة أيام، ملئوا قربهم من أعين المياه في درعا، ثم عبروا الخطوط الحديدية في المساء إلى الديزاد، وكان هناك حصن تركى بدا مهجوراً، وشرع اللغامون المدربون من العقيليين في زرع الألغام على القضبان، وأعدوا طبقات من القطن المتفجر وعبوات الجلاتين التى فجروها تتابعياً، الأمر الذى أرسل في الوادى أصوات الانفجارات تصم الآذان، وسحابات من الدخان. وانفجر عودة، الذى لم يكن قد رأى المتفجرات من قبل، في ضحك بهيج وارتجل أبياتاً من الشعر بهذه المناسبة. واندفع العقيليون نحو إبلهم، وأثناء امتطائهم لها، قام لورانس بقطع ثلاثة من أسلاك البرق وسحب أعمدتها أرضاً بواسطة ست من الدواب. ثم هرولوا في الظلام إلى أن أصبح السير فائق الصعوبة، فأقاموا معسكرهم على إحدى القمم. وفي الظلام، رقد لورانس ينصت إلى صيحات الجنود في المحطات والمواقع الأمامية على الخط، وإلى بعض الطلقات النارية التى كانوا يواجهونها وسط الظلام إلى من يتخيلون أنهم مغيرون. ولم يجرءوا على إشعال نار أو إرسال إشارات نارية للاتصال بحاملى الأمتعة الذين كانوا قد انفصلوا عن الباقين في الظلمة. وفيما بعد عاد كشافان وقادا لورانس ورجاله إلى المجموعة الرئيسية التى كانت تعسكر آمنة خلف كثيب رملى، وتمكنوا من اختطاف سويعات قليلة من النوم وحينما امتطوا إبلهم كان الظلام مازال دامساً، وتولى عودة قيادتهم عبر التلال والكثبان، وعند الفجر، وجدوا أنفسهم على حافة سهل شاسع وامض يمتد بلا نهاية باتجاه الشرق، ويهبط بثبات حتى يندمج مع سديم السماء الشرقية. كان هذا هو الهول، سندان الرمال والأحجار الشاسع الخالى حتى من شجرة أو شجيرة أو نصل عشب.

وساروا عبر البرية لخمسة أيام في براثن عاصفة رملية ملتهبة امتصت الرطوبة من أجسادهم. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم سوى شرب بضع رشفات في اليوم لأن مياههم كانت محدودة ولم تكن ثمة مصادر مائية سوى في وادي السرحان. ومع مرور النهار، كان لورانس يبصر توهجات تندلع فجأة من الفراغ، وأعمدة من البخار تتصاعد كالدخان الناري. فلم تكن الحياة فقط معدومة هناك، بل لم تكن هناك ثمة علامة على وجود حياة. وبينما كانت جماعته تسير بتراخ إلى الأمام في الفراغ، محملة باتساع السماء الرهيب، حاول لورانس، دون جدوى، البحث عن آثار للسحالي أو الفئران أو الحشرات أو الطيور. وحولتهم ضخامة هذا السهل الساكن الصامت إلى مجرد نقط سوداء على حمرته. وبدا للورانس أنهم لا يحرزون أي تقدم، لأن الأفق ظل على نفس البعد أمامهم وخلفهم وعن هذا كتب: «لقد شعرنا بالضآلة فيه. كنا نتقدم عبر سكونه وثباته بجهد غير ذي جدوى» كان الصوت الوحيد هو رجرجة المياه في القرب المصنوعة من جلد الماعز، وصليل الأخرج المسمري ووقع أظلاف الإبل على الحجارة الجافة. وبحلول ظهر اليوم الأول اندفعت من الأفق رياح تغلي محملة بمذاق توابل صحراء النفود التي تقع فيما وراء الرياح. وأحكم العقيليون أغطية رءوسهم حول أفواههم. أما لورانس فقد قرر مواجهة العاصفة حتى النهاية من منطلق العناد المازوكي، وكنتيجة لهذا، تشققت شفتاه بشدة وانبح حلقه من الغبار لدرجة أنه وجد صعوبة في الأكل لمدة الأيام الثلاثة التالية. وواصلوا المسيرة من الفجر حتى الغروب، وشعر عودة بنفسه بأنه غير مستريح في هذا الخواء وقرر عدم مقدرته على السفر أثناء الليل لمخاطر احتمال أن يضلوا الطريق ويظلوا يتقلبون في صحراء مجهولة إلى أن يموتوا من العطش. وسرعان ما اندمجت أرض أحجار الصوان مع منبطحات الملح (القيعان) التي كانت ترسل وميضاً أبيض يغشي البصر في أشعة الشمس، ويتولد عنه إحساس بالألم لدرجة أن لورانس كاد يفقد الوعي عدة مرات. وأخيراً، وفي ٢٤ مايو، أبصر أول حياة حيوانية ذات أهمية منذ أن ولج السهول نعامتان تتبختران مسرعتان عبر الأفق. ولدى إحضار أحد العقيليين بيض النعام، توقف هو وعودة وناصر ونسيب البكري ليفطروا به. ثم لحق لورانس بالمجموعة الرئيسية بعد ساعات ليجد خادمه جاسم مفقوداً. كانت ناقته هناك، كاملة، عليها عدل الخرج

المفترضة به من الصحراء . إلا أنه بعد ثلاثة أسابيع من الحادث ، يأتى اسم رجل آخر يدعى « جاسم الشامت » فى قصة يرويها عن محاولة لمحاكاة ساخرة لأسلوب عودة البلاغى الملحمى . وأحداث هذه القصة فى الواقع تتخذ من الوجه مسرحاً لها قبل رحلة العقبة . غير أن السؤال الهام هو عما إذا كان « جاسم الشامت » وجاسم الذى يرد فى قصة الإنقاذ هما رجل واحد . وأولاً ، فإن « الشامت » ليس اسماً لعائلة ، بل كنية ، والكنية هنا تنطبق على جاسم كما قدمه لورانس . كما يتصادف وجود إشارتين فى « أعمدة الحكمة » إلى عربى يدعوه لورانس « الشامت » وذلك فقط ، بعد حادثة الهول - الإشارة الأولى ترد بعد معسكر أبو لسان بحوالى شهر حين يسأل لورانس الشامت وهو يبحث عن عودة فى ميدان المعركة « أين ذهب الفرسان ؟ » . أما الإشارة الثانية فغير مباشرة ، فيذكر لورانس فى وصفه لغارة المدورة التى حدثت فى سبتمبر التالى أن« الصبى الشامت - شديد الاندفاع » قد قتل فى الهجوم . فإن كان الشامت وصبى لورانس جاسم هما نفس الشخص فإنه يبدو محتملاً أن لورانس أعاد جاسم فعلاً من الصحراء وأنقذ حياته . وفضلاً عن هذا ، لا يعنى تعبير « أهدرت ساعتين ونصف فى البحث عن جاسم » لا يعنى فى الاصطلاحات اللغوية الإنجليزية بالضرورة أن المحاولة قد أجهضت ، فهويدل فقط على ضيق لورانس لأن جاسم قد أهدر وقتاً وطاقة نتيجة عدم كفاءته . وكثيراً ما تعبر مذكراته طوال المسيرة إلى العقبة عن تلهفه على مواصلة السير . وأخيراً ، فإن لورانس كتب أيضاً فى مذكراته تعبير « لا يساوى ثمن ناقة » الذى ذكر لاحقاً أنه أتى على لسان عودة والذى كان رده عليه « لا يساوى نصف كراون » . وتحمل معها هذه التعليقات الإيحاء بتوجيه اللوم المتعمد لشخص ارتكب عملاً أحمق - كأن يذهب للنوم فى الصحراء بينما كانت القافلة تتحرك ؛ ومن غير المحتمل أن توجه هذه التعليقات إلى ندٍّ ، مهما كانت درجة سوء طبعه ، كان قد فقد لتوه . ويبدو لى أن توازنات الشواهد توحى بأن لورانس قد رجع فعلاً إلى الهول وحده وأنقذ حياة جاسم . وهذا فعل مرموق شجاع من رجل كان يرتعد خوفاً من الألم .

كانت الليلة رهيبة . فلم يكن لدى الجماعة ماء ، ولم يكن باستطاعتهم النوم أو صنع الخبز . وبدلاً من ذلك ، رقدوا على أرض الصحراء يتقلبون ويتضورون جوعاً وعطشاً . وكتب لورانس فى مذكراته « الليلة أسوأ ما خبرت » . وحينما شقشق

الفجر التالي وجدوا أنفسهم في وادى السرحان العظيم وعلموا أنهم قد عبروا الهول: أى أنهم خلفوا وراءهم رعب العطش. وأن المحنة انتهت. وأقاموا المعسكر مع انبلاج الضوء الأول للشمس، وبحلول الساعات الثانية كانوا قد وصلوا إلى بئر أرفاجة، وهو مجرى ضيق عمقه ١٨ قدماً يحوى مياهاً طينية لونها مثل القشدة الصفراء، عفنة الرائحة، كريهة المذاق. ثم ألقوا بمتاعهم، ورووا إبلهم وقادوها إلى المراعى، وجلسوا ليستمتعوا بفترة راحة كانوا جديرين بها بعد جهد عبورهم «سندان الشيطان». ولم تمض ساعات قليلة على الراحة حتى روعتهم صيحة «غزاة.. غزاة». ورأى لورانس طابوراً من البدو يخب باتجاه الآبار على إبل سريعة، والبنادق فى أيديهم. وفى الحال، قام هو وناصر بحشد أفراد القبيلتين الذين كانوا قد انبطحوا على بطونهم وبنادقهم مصوبة خلف أمتعتهم استعداداً للدفاع عن المعسكر. واندفع زعل أبوطيبى نحو ناقته وامتطاها بشجاعة باتجاه الدخلاء الذين استداروا وتراجعوا فى الصحراء لدى مواجهتهم بالمقاومة المنظمة. إلا أنهم لم يذهبوا بعيداً. فبينما كان لورانس ورجاله يجلسون فى المساء حول النار حيث كان عقيلى يدعى عساف يقوم بتقديم القهوة لهم بالدور، انطلق وابل من الرصاص فى الظلام أصاب عساف الذى كان واقفاً بجرح قاتل توفى بعده بدقائق. وأخمد رجال لورانس النيران على الفور، وتدحرجوا إلى الكثبان حيث عينوا موقع العدو من ومضات طلقات بنادقهم، وصوبوا نيرانهم المركزة، فأقلع الغزاة، واختفوا فى الظلام. وكتب لورانس فى مذكراته «أطلقت النيران علينا الليلة، وقتل عقيلى بعد تقديمه القهوة إلى الرجال مباشرة».

ولم تفسد أية حادثة أخرى دخولهم المحبب إلى وادى السرحان. وفى غضون يومين، كانوا قد عثروا على معسكر على أبو فتنة، وهو أحد مشايخ الحويطات، حيث مكثوا أياماً عدة يستمتعون بتناول لحم ضأن الحويطات بأسلوب ملكى. وتركهم عودة هناك ورحل شمالاً ليقابل نورى الشعلان الشيخ الأكبر لقبيلة روالة القوية، والذى كانوا بحاجة إلى معونته الخفية أو المعلنة لو أريد للعملية أن تنجح. وتقدم لورانس وناصر وجماعتهم ببطء فى الوادى الذى بدا مقبضاً للورانس، فقد استشعر فيه بشر نشط، بثعابينه ومياه آباره المالحة الكريهة ومستنقعاته الملحية ونخيله المتقزم وشجيراته التى لا تثمر. وكان هذا مشهداً انعكاسياً لحالته

حديث لورانس الازدواجى. فقد كان نسيب تحديداً من نوع العرب الذين يفترض أنهم «متقلبين قصيرى النظر» وكانوا محل كراهية لورانس والبريطانيين؛ فقد كان لورانس والبريطانيون يتماهون مع أكثر العناصر المحافظة فى المجتمع العربى، وقد تطرق لورانس فى «أعمدة الحكمة» إلى هذا الرأى الاستشراقى التقليدى عن التوافق الجوهرى بين «الجنتلمان» الإنجليزى «الشريف» والبدوى وهذا مصنف حُشد فيه أعضاء العائلة الهاشمية الذين نالوا رضاه رغم أنهم نشأوا فى إسطنبول. ومن ثم، أشار إلى عدم إبداء نسيب رضاه عن إنقاذه البطولى لجاسم، على حين تفهم عودة والشريف ناصر ـ اثنان من جنتلمانات الطبيعة ـ الموقف تماماً. وحينما زادت الولائم فى وادى سرحان على قدرة الأفراد على التحمل، انسحب نسيب ومساعده زكى الدروبى، على حين كان لورانس وناصر من اللباقة والرقى لدرجة إبدائهما الإجلال لمضيفيهما بأن تحملوا الوليمة حتى النهاية. ويُعرّف نبل المرء فى كتابات لورانس بسلوكه على المائدة وعاداته فى المأكل. وقد حاول بمثل هذه الأساليب البلاغية البرهان على وجود صفات مشتركة بين الإنجليز والعرب الأقحاح ـ أى البدو ـ أكثر من عرب المدينة «المنحطين» و«الحقراء» و«الخونة» الذين لا يوثق بهم، رغم أن هؤلاء المدينيين كانوا الغالبية العظمى فى العالم العربى، ومن ثم، وطبقاً لتعريف آخر، يمكن اعتبار هذه الشريحة العرب «الأقحاح». وبالطبع، فلم يكن العرب «الأقحاح» موجودين، فإن الفكرة كانت ببساطة مفهوماً أيديولوجياً كان ذا نفع عظيم للكلونياليين، إلا أن المفهوم كان ضبابياً؛ فالإشارة للبدو على أنهم العرب «الأقحاح» هو فى الواقع أمر ليس أكثر قبولاً من القول إن العائلة الملكية البريطانية هم «البريطانيون الحق»، ومع إغفال ملايين السكان الآخرين الباقين. وعلى أية حال، فلم يحسم لورانس الموقف مع بكرى بأسلوب شريف. فذهب أولاً للقاء عوده، وبيّن له أنهم إذا هجموا شمالاً عن طريق تخوم روالة، فستتلقى روالة، لا الحويطات، معظم ثقة البريطانيين ومديحهم وذهبهم. ثم تحدث سراً مع ناصر، وأشعل الغيرة التلقائية بين الهاشميين ـ الأحفاد المباشرين للرسول ـ وبين عائلة البكرى الذى يدعون النسب المباشر (الزائف كما ألمح لورانس) لخليفة الرسول أبى بكر الصديق. وانتهى بأن كسب الاثنان معاً، واتفق على أنه بعد أن يتم التجنيد، يركب نسيب إلى جبل الدروز ليمهد الطريق

للمسيرة القادمة إلى دمشق. وحاول لورانس أن يتأكد أن نسيب لا يملك المال الذى يكفى لإشعال ثورة مناسبة بأن أقنع عودة وناصر أن يطالبا بالسبعة آلاف جنيه استرلينى التى أعطاها إياه فيصل لينفقها فى سوريا. وأصبح الآن التوتر الناشئ عن هذا الرياء، ومثابرته على الإبقاء على الخط الذى رسمه لنفسه، والكذب على المتطوعين الجدد يوماً بعد يوم، وتمثيله دور البدوى، يفوق قوة احتماله. وكان رعب لورانس الساحق منذ خروجهم من الوجه قد أزعجه دافعاً إياه إلى التحرك باتجاه الأمور الأكثر إثارة لمخاوفه. وكان بطء الحركة فى وادى سرحان مصدر عذاب لشخص فى مثل طبيعته المازوكية. وأخيراً تحرك شيء داخله فجأة فكتب فى مذكراته فى ٥ يونيه «لا أستطيع تحمل هذا يوماً آخر... سأتجه شمالاً وأتخلص من الأمر».

ويوحى لفظ «أتخلص» أنه كان يفكر فى مهمة انتحارية. ويتوافق رد الفعل هذا مع توجهه إلى «الهروب للأمام» الذى أظهره فى شبابه، فقد كان السير وحده، أو فى معية آخرين قليلين متوغلاً داخل أراضى تحت السلطة التركية هو المعادل النفسى لغوص لورانس فى الجليد فى نهر« تشيرويل» المتجمد. وكتب «إن جرحاً جسدياً سيكون بمثابة منقذ محبب لتعقيداتى الداخلية». إلا أنه كتب قبل أن يرحل مذكرة مثيرة (ميلودرامية) إلى كيتون ضمن مذكرات كان سيخلفها وراءه، موحياً أن دافعه كان ببساطة هو إحباطه إزاء ما كان يتوقع منه من تجنيد البدو على أساس من الخديعة. وكتب «كليتون.. لقد قررت أن أنطلق وحدى إلى دمشق آملاً أن أُقتل وأنا فى طريقى؛ فبحق كل الآلهة، حاول أن تنهى هذا العرض قبل أن يتطور. إننا نناديهم أن يحاربوا من أجلنا على أساس من الكذب، ولا أستطيع أنا تحمل هذا». لابد وأن لورانس اعتقد أن هذه المذكرة قد تكون مقولة نبيلة مناسبة لتكريمه فى حالة وفاته. إلا أن ما هو أكثر احتمالاً هو أن المصدر الحقيقى لهذا الدافع «للهروب للأمام» كان تكوينه النفسى. فلم تكن «تعقيداته الداخلية» هى الاستشهاد الناجم عن «الكذب من أجل القضية» بقدر كونها ضغط الخوف الساحق المستمر الذى أفسد أيامه.

وبالتأكيد، فقد كان ثمة نهج فى تهور لورانس أيضاً. فقد حدس أن نسيب

كان عليه أن يكون فى الجانب المنتصر. إلا أن دعمه سيكون غير معلن مؤقتاً؛ وكتب لورانس فى مذكراته «إنه مستعد لأن يورط نفسه الآن لأية درجة عدا العداء السافر انتظاراً لحصوله على امداداته من الطعام لهذا العام».

وصل لورانس إلى النبك فى ١٧ يونيه بعد أن قطع ٥٦٠ ميلاً فى مناطق يحتلها الأعداء. كان قد قام بتفجير جسر ودفع الأتراك إلى تحريك ست كتائب من الجبهة والتقى بكثير من القادة الرئيسيين فى المنطقة وعاين ميادين القتال المحتملة. وكان هذا إنجازاً هائلاً، بل أحد أعظم مهام جمع المعلومات خلال الحرب. واستحق عليه أرقى الأوسمة. إلا أن هذه الرحلة إلى الشمال مازال يغلفها عدم اليقين، ويتحمل لورانس كثيراً من اللوم على هذا وذلك لعاداته الراسخة فى إحاطة نفسه بالغموض. فقد أشار إلى المهمة فى «أعمدة الحكمة» بشكل عارض إذ قال: «كانت النتائج غير مناسبة مع المخاطر، وكان الفعل غير مبرر فنياً، مثله مثل الدافع إليه». واقترح ڤيڤيان ريتشاردز هدفاً أدبياً خالصاً لعفوية الإشارة إلى رحلته هذه؛ فلو أنه فصّل وصفها لقلل من شأن حبكة مهمة العقبة ولأوجد هبوطاً مفاجئاً فى السرد. وقد انتهى عديد من كُتاب سيرته إلى أن القصة كانت ملفقة؛ كما أخبر نسيب البكرى، الذى تحدث بعد ذلك بأربعين عاماً، سليمان موسى أنه متأكد أن لورانس لم يغادر وادى السرحان أبداً ولا لمدة يوم واتهمه «بالنفاق وتشويه السمعة ونشر الفرقة وعدم الوفاق». إلا أن لهجة نفى البكرى توحى بشدة أن ذاكرته كان يشوبها الغضب لما ذكره لورانس عنه فى «أعمدة الحكمة»؛ وأضاف نسيب أنه على حين طالبه عودة وناصر بالسبعة آلاف جنيه التى كان فيصل قد أعطاها إياه بدعوى نفاد نقودهما، إلا أنه رفض إعادتها. وقال إن ناصر قد ألمح إلى أن لورانس كان وراء طلب النقود، وأنه وعودة تظاهرا أن نسيب قد أعادها، على حين أنه لم يرجع جنيهاً واحداً. وفى مواجهة إصرار نسيب على أن لورانس لم يغادر المعسكر، فإن أمامنا مذكراته حيث تبدو الكتابة فيها أحياناً كثيرة غير مقروءة والمداخل غير مفهومة، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك المعقول فى أنه قام فعلاً بزيارة رأس بعلبك والأماكن الأخرى المذكورة فى التقرير. غير أنه يبقى التساؤل عن سبب قول لورانس لروبرت جريفز فيما بعد «لقد أعطيت وصفاً مختصراً عن رحلاتى فى نبك فى تقريرى إلى كليتون. وكان هذا جزءاً من الحقيقة. فقد حدثت أشياء أثناء

ذلك. ولا أريد أن يتمكن أحد من تتبع أثر القصة كلها...» فإذا كانت القصة حقيقية فلماذا لم يرغب لورانس أن يتتبعها أحد؟ وماذا كان يعني بمقولته التي وردت في وقت سابق أن «الدافع كان غير مبرر». ثمة إجابتان محتملتان، أو على الأحرى إجاباتان تكمل إحداهما الأخرى وتمثلان مستويين من نفس لورانس. والإجابة الأولى على مستوى الوعي تتعلق بهدف إشعال فتيلة ثورة عامة بين القبائل تتزامن مع أي غزو بريطاني لفلسطين. وقد أمدت المعلومات التي جمعها لورانس، وخاطر من أجلها بحياته، القيادة العامة بتقرير مفصل بيّن المجموعات المختلفة من القوميين السوريين العرب المستعدين لتوجيه الضربة. وإلى حد ما، خصصت فيما بعد أموال وثروات طائلة للعرب على أساس هذا التقرير. إلا أن الثورة السورية لم تتبلور كلياً أو حتى جزئياً حتى الأيام الأخيرة من الحملة. فقد انحرفت الخطة الرئيسية التي فكر فيها لورانس أثناء مسيرته شمالاً، إذ إنه فقد أعصابه حينما حان الوقت، وفشل في دعوته إلى ثورة عامة في سوريا. وقد يكون ما دفعه إلى حذف تفاصيل رحلته شمالاً هو شعوره بالذنب لهذا الفشل والذي عبر عنه في طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة». أما السبب الآخر فقد يكون قد ظل كامناً في الجزء المعتم من عقله. فلابد وأن الرحلة قد ألهمتها بالفعل مازوكيته، وحاجته إلى تسكين قلقه بالهروب إلى الأمام وهذا واضح من الملاحظة التي أوردها في مذكراته والتي تقول إنه سيذهب شمالاً ليلقي بها جانباً، ولم يستطع فيما بعد أن ينسى أن الخوف كان دافعه أكثر من الشجاعة الشوفينية التي توقعها الآخرون. وقد تمت مكافأته فيما بعد بوسام الفارس Companionship of the Bath على أساس تقريره، وكاد أيضاً أن يحصل على وسام فيكتوريا Victoria Cross (V.E) لولا وجود ضابط آخر. وكانت فكرة مكافأته على ما اعتقد هو أنه جبن مصدر تسلية مريرة له، فكتب «قليل من التعويض ما هو إلا جبن بالنسبة لهؤلاء الذين يستحقون وسام فيكتوريا، والذي يضعني صيتي بينهم. وبالطبع، فأنا أعرف في نفسي أنني لست شخصاً شجاعاً، وأنا غير آسف. فمعظم الشجعان أشخاص تعوزهم الجاذبية». وخطرت له، فيما بعد، فكرة أن الجبن والشجاعة وجهان لنفس العملة، حين أعلن أن الرجل الذي باستطاعته الهرب هو الحاصل على وسام فيكتوريا. ويلخص خطاب له إلى تشارلوت شو موقفه من الشجاعة: «حينما يمر أحد

جاثمين في ظل الشجيرات المتناثرة، بينما كانت إبلهم وخيولهم مسرجة في حالة تأهب. وفي المساء دخل المعسكر ببطء راكب منهك: لقد استولوا على فويلة وقتلوا الحامية التركية إلى آخر رجل. فقد فتح الحويطيون النيران، بقيادة شيخهم جاسم أبو دميل بمجرد تلقيهم الإشارة هذا الصباح. إلا أن الأتراك تمكنوا من صدهم في البداية. ولأنهم اعتقدوا أن هذه هي مجرد هجمة قبلية، أرسلت الحامية التركية مجموعة لتتبع المهاجمين، ووجدوا في طريقهم معسكراً أعزل للحويطات فقاموا بذبح ست نساء وسبعة أطفال وطعن شيخ كبير فقتلوه. وثار غضب الحويطات فاندفعوا من مواقعهم على قمم التلال، وحالوا دون انسحاب الأتراك وقاموا بذبحهم جميعاً. وبعد ذلك اتجهوا، وقد تملكهم غضب مجنون، إلى الحصن، واستولوا عليه إثر هجمة شرسة، وأطلقوا الرصاص على كل تركي وجدوه رغم أن قليلاً منهم تمكنوا من الفرار والانسحاب إلى معان. وكانت هذه هي الأخبار التي انتظرها لورانس ورجاله. وفي غضون عشر دقائق كانوا قد امتطوا دوابهم وساروا عبر سهل جفر باتجاه محطة غدير الحج على خط حديد الحجاز في الطريق إلى رأس الممر عند أبو اللسان.

وسار طابور رجال حرب العصابات في وسط الغبار إلى أن ظهر أمامهم خط السكة الحديدية وأعمدة البرق التي بدت كأنها طواطم غريبة وسط الخواء. وحينما رأت القوات التركية جماعة من الغزاة قادمين فجأة في سكون من وسط السراب، تجمدوا من الهلع وانسحبوا إلى المعاقل. وهرول عقيليو لورانس من جسر إلى جسر يزرعون المتفجرات وهم يعلمون أن أصواتها ستصل معان وترسل قوة إغاثة تركية إليهم. لكنهم سيكونون، قد اختفوا في هذه الأثناء، في الصحراء كالسحابة. وفجر العقيليون عشرة جسور ودمروا عشرات القضبان، وتوغلوا وقت الغسق لمسافة خمسة أميال داخل هضبة شيرة وهم يعتزمون قضاء الليلة هناك. إلا أنهم بمجرد أن أوقدوا نيران الطهو وصل ثلاثة فرسان إلى المعسكر بأنباء مؤداها أن فرقة تركية من القوة المائة وثمانية وسبعين قد سارت من معان وأعادت الاستيلاء على فويلة من الحويطات. وكانت هذه أنباء سيئة، لأنه إن لم يتمكن العرب من شق طريق يصلون منه إلى وادي إثم فلن يتمكنوا من الوصول إلى العقبة.

وأعطى ناصر الأوامر بالسير فوراً؛ وألقى الأعراب بالأخرج فوق ظهور نياقهم وأخذوا في السير وخبزهم الطازج مازال في أيديهم. وسارت نياقهم على البازلت، وعلى هضبة شيرة المكسوة بنبات الأفستين. ولدى انبلاج الفجر، ترجل لورانس ليتمتع بمشهد سهل جويرة الذى يقع آلاف الأقدام أسفل موقعهم وقد اكتسب لوناً أحمر ذهبياً مع بزوغ الشمس، وكانت تتخلله تشعبات قنوات جرف ويحده الجزء الرئيسى من مرتفعات وادى إثم ووادى روم، تلك المرتفعات التى أعادت تشكيلها عوامل التعرية. وكان جاسم أبو دميك ورجاله من الحويطات مازلوا ملوثين بالدم. من أثر معركتهم مع الفصيلة التركية، وكانوا بانتظارهم قرب أبو لسان بأنباء مؤداها أن الحامية التركية المعسكرة في المنخفض الطبيعى حول العين مازالت نائمة. وبحذر، وباستعمالهم المنحنيات وكفاف الأرض، قام القناصون العرب بمحاصرتهم. وبمجرد تموقعهم فتحوا نيرانهم فجأة، مما جعل الحراس الأتراك يتخذون وضع الاستنفار الكامل. وهرول زعل أبو طيى وفرقة من فرسانه لقطع خطوط البرق إلى معان. وهرع الأتراك وهم يمحون أثر النوم من أعينهم وصوبوا وابلاً من طلقات الأسلحة الصغيرة في التلال. وسرعان ما انطلقت الأدخنة من مدفعهم الجبلى، وانطلقت القذائف من التجويف، وانفجرت على مدى أبعد كثيراً من صفوف العرب. وهرول القناصون العرب، وقد جرحوا، وأطلقوا النيران وهم يتحركون بسرعة أكبر من مقدرة الأتراك، الذى أغشى ضوء الشمس أبصارهم، وشوشت الأشباح تفكيرهم، على اللحاق بهم، وأصبحوا عاجزين عن تقدير المدى. ولم يكن بجعبة رجال المدفعية التركية سوى عشرين طلقة سرعان ما نفدت. وكان لهيب الشمس شيطانياً في هذا اليوم. وشعر العرب أعلى الهضبة وكأن جلودهم تُشوى ببطء بين الصخور التى نزعت أسطحها شرائط من هذه الجلود. ولم تكن ثمة مياه ليرووا ظمأهم المتأجج وبلغت الحرارة بعد الظهيرة مبلغاً زحف لورانس على إثره إلى شق عثر فيه على قطرات من المياه القذرة امتص بعضها من كم قميصه بعد أن بلله. وسرعان ما لحق به ناصر وهو يلهث من بشفتين متشققتين. وسخر منهما عودة، الذى دخل عليهما وهما راقدان وقال «حسناً كيف الحال مع الحويطات؟ لغو فقط دون فعل». وأمّن لورانس على قوله وقال إن الحويطات يكثرون من الطلقات لكنهم لا يصيبون. وشحب وجه عودة من

لحق المئات من قبائل الحويطات والحيوات بقوة الهاشميين الذين ارتفع بذلك عددهم إلى ما يربو على الألف. واستسلمت خضراء فى الصباح دون قتال. وكان قارب مدفعية بريطانى، عرف فيما بعد أنه «سليڤوى»، قد رابط فى الخليج فى الفجر وأرسل بعض الطلقات فى التلال. وركب ناصر ولورانس مسرعين خارج إثم عبر وادى عربة العظيم حيث لمحوا البحر من خلال ضباب كثيف، إلا أن «سليڤوى» كان قد رحل. وكان عليهم أن يحملوا أخبار الانتصار بنفسهم إلى القاهرة على الإبل. ووجدوا مدينة العقبة مدمرة مهجورة وقد حطمها منذ أسبوع قصف قوارب المدفعية البريطانية إلى قطع صغيرة. واستولت الفرقة الهاشمية التى كانت قد سارت ستمائة ميل فى الصحراء الملتهبة لتصل إلى هناك، على غنيمتها دون طلقة واحدة.

وقد أصر أفراد الحويطات الذين قابلتهم في وادي رُم على استحالة هذا الإنجاز، لذا اصطحبت واحداً منهم، صباح بن عيد إلى سيناء لإنجاز هذا العبور معي كي أبرهن لهم أنه لم يكن محالا . وكان جد صباح قد خرج مع لورانس في عديد من غاراته، لكنني اعتقدت أن بدو الأردن قد اعتادوا على السفر في العربات ٤ × ٤ ، لذا فهم لا يعرفون ما يتأتى للرجال والإبل إنجازه. وخلافاً لهم، كان بدو سيناء مازالوا يركبون إبلهم، وابتعت منهم أربعا من أفضل المطايا التي استطعت الحصول عليها من طرابين بنويبع . ورغم أن خريطة لورانس الخاصة كانت بحوذتي بعد أن قمت بتصويرها من سجلات الجمعية الجغرافية الملكية إلا أن تكرار السفر على نفس خط الرحلة قد برهن على أنه أكثر صعوبة بكثير مما توقعت . فأولاً، كان يفصل العقبة عن سيناء قطاع ضيق من إسرائيل وكانت الحدود بين مصر وإسرائيل عند رأس النقب (أو نقب العقبة في أيام لورانس) مغلقة آنذاك . وكان عليّ أن أجد طريقاً بديلاً أعلى الجرف يقارب الطريق الذي سار فيه لورانس ويؤدي بنا إلى رأس

النقب. وأرانى أحد سائقى الإبل، وهو شيخ يدعى فريج، من طرابين، وادى تويبة ـ وهو طريق كثير الالتواءات يمر بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيرى محازٍ للطريق الذى سار فيه لورانس إلا أنه كان يبدو فى طابا على الجانب المصرى من الحدود. وكان فريج سيرافقنا كمرشد فى الجزء الأول من الرحلة حيث سينتظرنا رفيق آخر من الحويات عند ثمد وكانت زوجتى ماريا أنطوانيتا رابعتنا، وهى راكبة إبل متمرسة وتتحدث العربية بطلاقة.

وحينما اقترب اليوم المعهود، بدأت أدرك أن المهمة التى ألقيناها على كاهلنا مهمة رهيبة. وكنظرة أولية، بدت رحلة فى الصحراء على ظهور الإبل تستغرق تسعاً وأربعين ساعة مجرد لدغة بعوضة مقارنة بالرحلة التى استغرقت ٢٧١ يوماً عبرت فيها وزوجتى ٤٥٠٠ ميل من الصحراء على ظهور الإبل. إلا أن المكوث على السرج أعلى الناقة ليلتين كاملتين دون راحة بدا فجأة جهداً يتطلب الكثير رغم قصر زمن الرحلة. وكان دافع لورانس عظيماً بالطبع، فلم يكن فقط قد حقق نصراً مذهلاً، لكنه أيضاً كان قد ترك القوات الهاشمية ولديهم نقص فى المؤن أدى

التفسير الوحيد الذى توصلت إليه هو أن جماعته كانت تدفع الإبل للهرولة إذ إنه بالهرولة السريعة يمكن قطع هذه المسافة فى هذا الوقت بالضبط. إلا أن لورانس قال تحديداً إنهم ساروا بالنياق ولم يهرولوا إذ كتب: «لو أننا دفعناها للسير بسرعة لانهارت من الإنهاك.. لذا اتفقنا على أن ندعها تسير مهما بلغت درجة إغراء الأرض».

وبدا الليل بغير نهاية. وهبت الرياح بقوة أشد برودة، وكاد فريج، الذى كان فى السبعين، أن يتجمد على ظهر الناقة. ولم يكن يملك، خلافا لنا نحن الأصغر سناً، رفاهية فرصة النزول إلى رمل الصحراء ليطرد البرد بالسير. وكاد يدهمنا، ونحن ركوب على السرج، شعور داخلى مرعب بفقدان الصلة بالواقع والانجراف فى بُعد كابوسى، أو كابوس النوم العميق والسقوط من أعلى ظهور الإبل على الصخور الحادة. أما حينما كنت أسير، فكان يطاردنى خوف آخر كنت أتجاهله أثناء النهار: الخوف من السير خطأ فوق لغم. فقد كان فى سيناء ألغام حية، بقايا حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، ورغم أن البدو أعلنوا أنهم يعلمون أماكن الألغام، فلم يكن أحد متأكداً بصفة كلية. وكنت أيضاً أشعر بالثقة وأنا على السرج، أى فى مكان يعلو على سطح الصحراء؛ إلا أننى حينما كنت أخطو على قدمى، كانت تنتابنى رؤى مخيفة عن انفجارات غير متوقعة وزخات دخان، وأحدنا راقد فى برودة الصحراء وساقه أو ساقها قد دمرت. ومرت الساعات ببطء مؤلم ونحن فى طريقنا. وكانت ثمد، التى ادعى لورانس أنه وصلها فى منتصف الليل، مازالت نائية: وفى مخيلتى كانت نائية كالقطب الشمالى ثم انبعثت، فى مكان ما من رأسى المنهكة، وفى ساعات الصباح الأولى، احتمالات غير مؤكدة بأن لورانس لم يخبرنا بالحقيقة.

وقبل الفجر بساعة توقفنا وأشعلنا النار لندفئ فريج الذى بدا فى ضوء مشعلى شاحباً كالموت، وأخذ الآن يرتعد من البرد بشكل واضح لدرجة خشيت معها أن يموت. وبشهامة عظيمة، ألقى صباح عباءته المبطنة بجلد الغنم حول كتفى الشيخ الناتئتين. إلا أنه استمر يرتعد، وكان علينا أن نرفعه فوق ناقته. ولم تنقذه سوى الشمس التى انبلجت وهى ترسل موجات نابضة من الضوء الذهبى. تكشفت

ضخامة هذه البرية المقفرة. وكنا قد وصلنا لنهاية النفق، إذ إن الليل كان قد حبسنا في حيز قدرته ياردات قليلة مربعة: والآن، أصبحنا فجأة أشبه بالنمل في لا متناهية من الصخر في حمرة الخوخ، تعترض امتدادها نقط قمم حادة كأنياب ناتئة منعزلة، وتنحدر مختفية في منخفض في وادى ثمد. وأدخلت علينا أشعة الشمس الدفء بلطف، ونحن نتتبع مجارى المياه التى جفت، حيث كان ثمة أعشاب لترعاها إبلنا. واختفى شحوب فريج وبدأ تنفسه ينتظم مرة أخرى. وسرعان ما وصلنا إلى الطريق الذى كان يلتف هابطاً فى منطقة جافة تهب عليها العواصف الترابية ثم يختفى.

وكانت بئر ثمد حيث ارتوت إبل لورانس، مازالت هناك تقع إلى جوار بناء وحيد فى ظل شجرة شوكية. وعلى كتف الوادى، رأيت معسكرات شرطة سيناء التى كانت قد هجرت يوم وصول لورانس عام ١٩١٧. وأنخنا إبلنا وانزلقنا من فوقها. والتف الشيخ فريج فى بطانيته ونام فى ظل شجيرة. ثم جلسنا فى الظل لنعد الشاى. وكانت ساق صباح قد أصيبت بكدمة شديدة من السرج، كما ثقب كعبى حذاء ماريانا أنطوانيتا. كانت الساعة العاشرة صباحاً، وكان هذا يعنى أن لورانس قد وصل قبل ذلك بعشر ساعات. وأضاف هذا ساعات عشر، على الأقل، لرحلتنا: فبدلاً من أن نظل متيقظين مدة ٤٩ ساعة - وهى مهمة شاقة فى حد ذاتها - واجهنا احتمال أن نظل مستيقظين تسعاً وخمسين ساعة، وربما أكثر من هذا كثيراً، حيث سيتباطأ خطونا حين يتملكنا التعب. ورأيت استحالة هذا، ومن ثم، قررت وأنا محبط إحباطاً مريراً، أن علينا التوقف عن الاستمرار فى الرحلة عند هذه النقطة.

وطرت عائداً إلى لندن؛ وشعرت أن هذه كانت هزيمة خطيرة. فلمدة عشرين عاماً كنت قد اعتدت الرحيل فى الصحراء، وقطعت ١٦,٠٠٠ ميل بالناقة. وفى الواقع، فقد كنت أكثر خبرة عما كانه لورانس حينما عبر الصحراء عام ١٩١٧. وكان حينذاك فى التاسعة والعشرين من عمره، ولم يكن قد قام برحلة على ظهر ناقة إلا قبل ذلك بتسعة أشهر. فقد كنت على استعداد تقبل أن يكون لورانس قد أسرع عنا بدقائق، غير أنى، وبعد عقدين من ركوب النياق، رفضت تقبل احتمال

أن يصل الفرق إلى عشر ساعات . فحتى لو كان لورانس ورجاله أشداء عنا ، وهذه نقطة كنت على استعداد تام للتسليم بها ، فكيف تأتى لإبل منهكة السفر بسرعة تفوق سرعة إبلنا إلى هذه الدرجة ، وتظل باستطاعتها مواصلة السير ؟ فما أثر فى كان هو عظم الفرق . فقد كنت أعلم أننا بذلنا وسعنا ، ولم نتباطأ ، بل تقدمنا بصلابة طوال ما بعد الظهيرة ، ثم لليلة كاملة ومعظم الصباح التالى ، وقطعنا ستين ميلاً ، أى بمعدل ثلاثة إلى أربعة أميال فى الساعة وهو معدل جيد بجميع المقاييس . وقد جعلنى الفشل فى تحقيق المعدل الذى حققه لورانس ، أشك فى خبرة حياتى برمتها .

وبعد أيام ، وبينما كنت أعمل فى قاعة المخطوطات بالمتحف البريطانى ، قام أحد المساعدين فى المكتبة بوضع صندوق أزرق على مكتبى . وكدت أن أقف لأعترض على الفعل باعتباره خطأ . فقد اعتقدت أننى قد طلبت مذكرات لورانس وقت الحرب وكانت مكتوبة فى «نوتة» إشارات عسكرية ، ومن الواضح أن هذا الصندوق الذى لا يزيد عرضه على عرض الكف كان لا يحويها . وفحصت المحتويات ووجدت مذكرتى جيب من ماركة «ليتس» حجمهما صغير جدا لم أكن قد رأيتهما من قبل . وفى الواقع كانت هذه «الخطوط العريضة» لمذكرات لورانس والتى كان يحملها معه ويسجل فيها المكان الذى قضى فيه كل ليلة أثناء الحملة . وأدركت أنها كانت ، عن حق ، أكثر المصادر معاصرة بين جميع المصادر الأخرى . وأخذت أقلب الصفحات بتراخ حتى وصلت إلى صفحة ٦ يوليو وهو اليوم الذى دخل فيه لورانس العقبة . وأدهشنى ما قرأت :

الجمعة ٦ يوليو :

دخلت العقبة العاشرة صباحاً . قرأت خطاباً من نيوكومب . غادرت بعد الظهيرة . نمت عند رأس نقب العقبة .

السبت ٧ يوليو :

ارتوينا عند ثمد . الغروب (بئر) محمد

الأحد ٨ يوليو :

مررت بنخل (كلمة مطموسة) مديفة (صدر حيتان)

الاثنين:

نمت جيداً بالسويس.

إذاً فلم يقطع لورانس المسافة في تسع وأربعين ساعة. وقد نام في الواقع، عند رأس ممر «نقب العقبة»، لكنه، وكأبعد عن أن يكون قد وصل ثمد في منتصف الليل، كما ادعى، فقد وصل البئر قبيل غروب اليوم التالي، لأن بئر محمد، الذى يظهر على الخريطة، يبعد أميالاً قليلة فقط عن ثمد. ويعنى أننا قد وصلنا ثمد أسرع منه؛ وأنه قضى هذه الساعات نائماً على قمة الممر. وقضيناها نحن، بحماقة، في السير الحثيث أثناء الليل في محاولة للحاق بسرعته. فقد أوضح مدخل المذكرات أنه وصل السويس في اليوم الثاني، لا الثالث، بعد خروجه من العقبة. وكانت الساعات التسع وأربعين في «أعمدة الحكمة» مجرد «كذبة». ولم أستطع أن أتبين سبب كذب لورانس في «أعمدة الحكمة»، لأنه لم يكذب على رؤسائه. وحينما أعدت قراءة التقرير الذى كتبه لكليتون في ١٠ يوليو، أي يوم رجوعه إلى القاهرة لاحظت أنه قال «وصلنا العقبة يوم ٦ يوليو.. وركبت في نفس اليوم متوجهاً إلى السويس مع ٨ رجال، ووصلت «الشط» في التاسع من يوليو». وكان هذا التقرير الذى نشر عام ١٩٣٨ في خطابات جارنيت يحملق في وجهي وفي وجه كل كاتب آخر لسيرة لورانس طوال الوقت. وتطلب ظهور الحقيقة رحلة أليمة على الإبل عبر جزء من سيناء مع شيخ طاعن في السن على وشك الموت. ولابد أن لورانس قد أدرك أن شخصاً ما سيلاحظ هذا التناقض يوماً ما. وقادني هذا الشك في أن يكون هذا التناقض إرادياً؛ جزءاً من لعبة «غرابة الأطوار» العظيمة التي ظل يلعبها منذ أن كان طفلاً، فيحير الآخرين بغلالة من الغموض، «آملاً أن يتوق الأفراد لمعرفة من يكون هذا الشخص غريب الأطوار». وفكرت: كم كانت حيلته ناجحة؛ فها نحن الآن، وبعد ثمانين عاماً، مازلنا نحاول يائسين أن نستدل عليه.

ولا تقلل مشاكسات لورانس من قدر إنجازه العظيم باستيلائه على العقبة التي كانت الضربة الوحيدة المتفردة العظيمة في حياته رغم أنه لم يكتب له أن يتمتع

بمثل هذا النجاح المذهل مرة أخرى. لقد أسست عملية العقبة وحدها وضعه، فكان عليه أن ينقل الأخبار بنفسه إذ كان من المحتمل عدم تصديقها لو حملها رسول آخر. والأكثر من هذا، أنه أصبح قادراً على إقناع رؤسائه أنه هو وحده القناة التى لا يمكن الاستغناء عنها لمرور الأسلحة والأموال عبرها إلى العرب. بل لقد أدرك الهاشميون أيضاً أنه لا يمكن الاستغناء عنه. ومن خلال العقبة، أصبح هو «الشخص الرئيسى فى الثورة العربية» على حد قوله. وفى القاهرة، أولم رؤساؤه الولائم احتفاء به، وأرسل كليتون رسالة خاصة إلى مدير المخابرات العامة يقول فيها «لقد وصل الكابتن لورانس من رحلة شبه أسطورية عبر بلد للأعداء.. فقد أقلع من الوجه يوم ٩ مايو ومعه ٣٦ عربياً، وسار عن طريق الجرف ونبق وهو يعبر الخطوط الحديدية ويفجرها فى طريقه». وبعث روبرتسون بثنائه الخاص. وسرعان ما وجد لورانس، الملازم ثان احتياطى لأعمال الترجمة نفسه ضابطا دائماً برتبة ميجور. ومن حسن الحظ أن تلازم وصوله إلى القاهرة مع تعيين الجنرال السير إدموند أللنبى قائداً عاماً. ففى أوائل عام ١٩١٧ كانت قوات مرى قد هجمت مرتين على غزة، وتم صد الهجوم الذى راح ضحيته نحو ستة آلاف نسمة. وكان يؤمل أن يكون أللنبى أشد بأساً. ودخل لورانس، الذى سمح له بلقاء هذا الضابط العظيم إلى مكتبه، حافى القدمين يرتدى زياً عربياً متسخاً. ولعب لعبته التمويهية المعتادة. ثم قام بتسليمه تقريراً مفصلاً بشأن رحلته السرية إلى الشمال. وأدعى أن بإمكانه نشر ما لا يقل عن سبع فرق من المجندين العرب من مواقع رئيسية متنوعة، يمكنها، بحلول آخر أغسطس، تهديد خطوط اتصالات الجيش التركى فى القدس. وكان هذا يعنى ثورة عربية عامة فى سوريا، بما فى هذا الاستيلاء على دمشق، رغم أن لورانس أكد إمكانية حدوث هذا فقط، إذا استطاعت قوة أللنبى فى الحملة المصرية منع القوة التركية من التمركز على خط غزة - بئر سبع، وبذلك تحول بينها، وبين إرسال فرق جديدة إلى حوران. وكان هذا اقتراحاً طموحاً أقرب إلى الخيال. على أن أللنبى أخذ يرقب لورانس وهو يتعجب وغير واثق من «القدر الحقيقى، والقدر المدعىّ فى شخصيته». أما لورانس، فقد وجد الجنرال شخصاً أبوياً بشكل لافت، يمكن إضافته إلى قائمة الآباء الآخرين الذين قضى حياته يعددهم؛ تلك القائمة التى ضمت هوجارث، وشملت فيما بعد توماس هاردى

واللورد ترنشارد. ورغم أنه قد شكا فيما بعد أن أعمق رغباته كانت هي الرغبة في الخدمة «العبودية الطواعية، إلا أنه لم يجد أبداً سيداً يمكنه استخدامه كما يجب». لكن أللنبي كان هو الأقرب إلى مفهوم «السيد الذي يتوق إليه». وفي هذا كتب يقول «كم كان الرجل معبوداً لنا. كان ألمعياً ذا خاصية داخلية عظيمة، لا يشوبها شيء، غريزية وعضوية». ولم يكن من السهل تقدير رد فعل أللنبي على شخصية لورانس. فقد كتب فيما بعد أن أللنبي اعتقد أن لورانس كان قائداً حربياً ألمعياً. ونسب إلى أللنبي قوله إن العرب كانوا في الواقع مجرد عامل إلهاء للأتراك، وأنه ثمة ضباط آخرون كان باستطاعتهم إنجاز المهمة بأسلوب أفضل من أسلوب لورانس. وكان هذا بالطبع افتراضاً لاحقاً على وقوع الحدث. إذ إن لورانس آنذاك كان قد استولى لتوه على العقبة، ولو افترضنا أن العرب الذين عملوا معه كانوا مجرد إلهاء للأتراك، فقد كان هذا أفضل مليون مرة من تركهم ينضمون للأعداء. كان أللنبي واقعياً، وكان يعلم أن أي شيء قد يفعله لورانس في سوريا كان من شأنه تقييد الأتراك، حتى لو فشل. غير أن غموض الجنرال المصمت كان سبباً في عدم استطاعة لورانس الحكم على قدر «فهمه» إياه. إلا أن العرض نجح كالعادة، ووعد أللنبي أن يفعل ما باستطاعته من أجل حلفائه العرب.

وفي غضون أيام من النصر، كانت سارية العلم في أسطول البحر الأحمر، بوريالوس، قد رست في العقبة في إشارة على الدعم البريطاني. وبحلول يوم ١٣ كانت السفينة دفرين تفرغ السلاح والمؤن. وكان على قوات فيصل أن تنتقل من الحجاز إلى العقبة، بحيث تنتقل قوات الهجانة عن طريق البر، وتنتقل القوات النظامة، بقيادة جعفر باشا، بحراً من الوجه. وكان على فيصل أن يعمل تحت قيادة أللنبي، وأن تعمل قواته جناحاً أيمن للجيش البريطاني. وسافر لورانس إلى الحجاز حيث قابل فيصل، والتقى بحسين لأول مرة. وفي جدة، تلقى من القاهرة رسالة اعترضت المسار، مفادها أن عودة أبو طيي كان على وشك الهروب إلى الأتراك. ويسترسل كاتب الرسالة بقوله: «أبلغنا العميل Y أن عودة، الذي كان ذراع لورانس في العمليات الأخيرة في منطقة (معان ـ العقبة) اتصل بالأتراك وقال إن من أسباب عصيانه منح نوري الشعلان زعيم روالة الجوائز، وحرمانه هو منها. وأنه على استعداد للرجوع عن تفكيره بشروطه الخاصة. وأن عودة كتب رسالتين

إلى القائد العام للجيش الثامن يطلب منه هدية. وشعر لورانس بالخطر، ومن ثم عاد إلى العقبة في اليوم الرابع، وهناك ابتاع ناقة شهيرة تدعى غزالة ركبها مسرعا عبر وادى إثم إلى معسكر عودة في قويرة. فقد كان ولاء الحويطات مازال ذا أهمية حاسمة في الدفاع عن العقبة لأن الأتراك كانوا قد استعادوا أبو لسان وأخذوا يقصفون وادى إثم. وكان من المتوقع أن يقوموا بهجمة مضادة على العقبة في غضون شهرين، وكان الشريف ناصر قد أقام أربع نقاط دفاع أمامية لحماية ممر شطار الهام. وكان وادى موسى عند مدخل بترا أحد هذه المواقع، والثانى عند دلغة في جبال البلقاء، والثالث عند بترا، أو النقطة الأكثر ارتفاعا أعلى هضبة شيره، والرابع في قويرة بالسهل المنخفض حيث يقع خزان مياه قديم في ظل جرف صخرى منحدر عميق، وكانت هذه المواقع الأمامية حيوية إلى أن يصل الجيش النظامى العربى إلى العقبة، وكان استمرار تلك المواقع يعتمد على الحويطات وعلى عودة بن طيى، واستُقبل لورانس كصديق في مخيم عودة، وحين تناقشا حول حقيقة اتصال عودة بالأتراك أخبره عودة بأنه تظاهر بذلك كى يحصل على الأموال وهى قصة يصعب تصديقها. وحدس لورانس أن عودة كان غاضبا من البريطانيين حيث إنه لم يتلق أية جائزة نظير استيلائه على العقبة، كما أنهم لم يرسلوا له بأية بنادق أو قوات. وخمّن لورانس أن اتصال عودة بالأتراك كان أكثر جدية مما ادعى. ورغم قوله الرومانسى الغنائى في «أعمدة الحكمة» أن قلب عودة كان «يتوق للعدو المهزوم»، فالحقيقة هى أن الحويطات، شأنها شأن سائر قبائل الحجاز، كانت تعمل من أجل المال، لا الاستقلال، ولم تكن نظرتهم تتعدى حدود التكافل القبلى. وحل لورانس المشكلة بأن وصف لعودة كميات السلاح الهائلة التى كانت ستصل في وقت قريب إلى العقبة، وبين له أن فيصل، الذى كان على وشك الوصول هناك، سيكون «عميق الامتنان» لخدماته. ثم أعطى عودة مقدّم مبلغ كبير كان واثقاً من وصوله إليه لدى قدوم فيصل. وقفل لورانس راجعا إلى العقبة في نفس الليلة آملاً أن تكون محاولته قد ضمنت ولاء الحويطات، على الأقل، لحين وصول الفرق النظامية واحتلالهم الميناء. وصمم أن يحتفظ بسر خيانة عودة لنفسه: لأن البريطانيين ذوى القيم الإقطاعية في رأيه لن يفهموا طبيعة الولاء عند البدو. واعتقد أنهم يريدون أبطالاً مثل أبطال الروايات، ولذا، عمد إلى تقديم

عودة لهم كبدوى غاز شجاع، مثلما قدم فيصل كقائد عربى نبيل، بحيث يتلاعب بصورة العرب لدى البريطانيين لصالح العرب. وقد اعترف أن خدمته لسيدين كانت من عوامل ضيقه فكيف يقول إنه واحد من ضباط أللنبى، وكان أللنبى يتوقع منه أن يبذل جهده من أجل البريطانيين. لكنه كان أيضاً مستشار فيصل، وكان فيصل يتوقع منه الصدق والأمانة والكفاءة. ولدى مقارنته الدورين أحدهما بالآخر كتب قائلا «لا أستطيع توضيح كل الموقف العربى لأللنبى، كما أننى لا يمكننى أن أكشف كل الخطة البريطانية لفيصل».

وكان لورانس قد أخبر كليتون بصراحة أنه تم الاستيلاء على العقبة بمبادرته هو، وطلب منه قيادة «عملية القنفذة» أى حملة العرب البريطانية. إلا أن كليتون لم يستطع تلبية طلبه، لأنه رغم أن لورانس كان قد ترقى إلى رتبة ميجور فقد كان أقل منزلة من الضباط الكبار، ولا يمكن وضعه فى موضع أعلى من أشخاص مثل نيوكومب وجويس. وكان جويس سيقود الحملة رسمياً، لكن، بما أن لورانس كان سيظل ضابط اتصال لفيصل، فكان بإمكانه الاستحواذ على كل السلطة التى يرغب فيها.

وفى ١٨ أغسطس وصل جعفر باشا إلى العقبة مع فرقتين من النظاميين العرب تتكونان بشكل أساسى من مدنيين من مكة وضباط سوريين سابقين فى الجيش التركى. وبعد ستة أيام، أنزلت السفينة هاردنج فيصل مع إمدادات وقوات أخرى. وكان النظاميون، الذين وصل عددهم ألفين، مدعومين بالبعثة الفرنسية من الوجه تحت قيادة الكابتن بيسانى مع بطارية من مدافع الجبل يعمل عليها مدفعيون جزائريون. وكان ناصر قد شغل وقته بتجنيد المحليين الذين اتجهوا بأعداد كبيرة إلى العقبة لمبايعة الهاشميين. وفى نهاية أغسطس، تم إرسال طائرات إلى مطار كونيلا المؤقت فى سيناء، أخذت تقوم بسلسلة من الغارات على معان. ومن أجل بدء الحملة فى سوريا مُنح الهاشميون مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبى و٢٠,٠٠٠ مدفع وعشرين بندقية آلية طراز لويس، وثمانية مدافع من طراز ستوكس وخمسين طناً من قطن البنادق للتفجيرات وسرباً من السيارات المصفحة.

وكان وصول جعفر باشا مع قواته إلى العقبة ومعه شحنة البنادق من طراز

هامبر التي ولدت شعوراً بالاطمئنان يعني أن المدينة أصبحت محصنة ومهيئة لشن غارات الحويطات على خط السكك الحديدية. ولم يتوقع أحد أن تستطيع قوات جعفر صد هجمات الأتراك، إلا أنه كان غير معروف للأعداء، ومن ثم مثلت عاملاً معوقاً. وبنهاية شهر أغسطس، بدا الهجوم التركي على العقبة أمرا غير محتمل إذ إن الأتراك كانوا يواجهون مشكلة وسائل الانتقال؛ فقد كانت إبلهم قليلة وهزيلة، والمراعي فقيرة. وكشفت أوامر من القيادة العثمانية في دمشق، وقعت في أيديهم، أنه قد صدرت الأوامر لحامية معان وعددها ٦٠٠٠ جندي بقطع الطريق فقط على وحدات فيصل للحيلولة دون وصولها إلى مرتفعات البلقاء الخصيبة التي كانت تمد الجيش التركي في فلسطين بالحبوب وبالأخشاب لاستعمالها وقوداً للقطارات. وأشار كليتون على جويس، الذي أصبح قائداً للعقبة، أن الفعل الهجومي الوحيد، الذي كان بمقدرة الأتراك، هو احتلال وادي موسى قرب بترا بواسطة فرقتي مشاة ووحدة فرسان وبعض المدفعيين الذين يمتطون البغال. واقترح كليتون أن تقوم قوات فيصل غير النظامية بالإغارة على السكك الحديدية جنوب معان وتدميرها قدر استطاعتها كي تبقى القوات التركية في تبوك والمدينة منعزلة عن قاعدتها. كما أن تدمير الخط كان من شأنه إعاقة الأتراك عن القيام بهجمة رئيسية وذلك بإذابة قواتهم. وتم التخطيط لعدة عمليات لقطع خط السكك الحديدية في سبتمبر، واختار لورانس «مدورة» هدفاً له، وهي محطة جنوب معان كانت الوحيدة التي بها مياه على امتداد طويل. وكتب رسالة سريعة إلى كليتون قائلاً: «ثمة سبع محطات هنا دون مياه، وإنني آمل أن نتمكن من فعل شيء بالمدافع الستوكس والبنادق اللويس يعوق الخط إعاقة خطيرة. فإن نحن أحدثنا قطعاً كبيراً سأبذل جهدي للإبقاء عليه، إذ إن الحاجة إلى إغلاق الوجه كلية أصبحت ملحة». وفي ٧ سبتمبر خرج من العقبة مع اثنين من مدربي البنادق وهما السرجنت يلز والعريف بروكس وشيخين من بني عطية، وهي قبيلة بدوية تسكن منطقة المدورة. وكانت خطته تجنيد ٣٠٠ من بدو الحويطات في قويرة، ثم التوجه إلى المدورة والاستيلاء على المحطة. وكان للحويطات أجور شهرين متأخرين، وكانوا في شجار دائم ولم يقم عودة، الذي كان يحاول فرض سلطته على القبيلة كلها، بفعل شيء يذكر لتهدئة الموقف. وبدلاً من هذا، سار لورانس خمسة أميال

باتجاه الجنوب الشرقى عبر سهل القويرة إلى وادى رُم حيث كتب أن هناك ثمة ينابيع جيدة، وبعض المراعى، وبعض مناظر الصخور الرملية الجميلة.

كان وادى رُم فى الواقع من أجمل المشاهد البديعة فى كل الجزيرة العربية. فقد كان متاهة من الأحجار الرملية التى بدت سيرورة تطورها كلها واضحة للعيان. كانت ثمة طرق عريضة تكتنفها الأشجاروننتوءات من الصخر الأحمر بدت وكأنها جزء من كيان حى. ولم يتوقف أبداً شعور لورانس فى كل مرة زار فيها ذلك الوادى بالنشوة إزاء تلك الحصون الصخرية وقد أخذت شكل الأسياخ واللفافات وتشققت وتجعدت بفعل الأملاح والرياح والرمال فأصبحت تكوينات لا يقوى أى عقل يهذى بالانفعال على إبداعها هذيان مُرّوع مجسد فى الصخر والحجارة. إنه المشهد الطبيعى للعقل اللاواعى. وأصبح وادى رُم، بالنسبة للورانس، ممراً إلى الكون ـ قد يسبح فيه يوماً إلى فضاء النوم الأبدى المغرى الذى تضيئه الشمس إذ كتب يقول: «كان عقلى دوماً ينحرف عن الطريق المباشر كى أتحرر وأجلو حواسى ليلاً فى رُم وأتجول على مطيتى فى واديه الذى يضيئه الفجر قاصداً السهول الوضاءة، أو أسير فى جنوبه عند غروب الشمس إلى هذا المربع المتألق الذى تحول توقعاتى بينى وبين الوصول إليه. كنت أتساءل هل أواصل السير ممتطياً هذه المرة إلى ما وراء خزيل، وأعرف كل شىء؟»

بيد أنه كانت فى الوقت الراهن ثمة حرب تم الانتصار فيها، وكان هناك خط حديدى يجب تدميره، وامتطى لورانس دابة من أسوار الوادى المهيبة حتى المدرج الطبيعى العظيم فى الصخور أسفل جبل رُم. كان هذا مخبأ مثالياً وقاعدة لعمليات العصابات فقد كانت تحميه صخور ناصعة من جهات ثلاث، ولم يكن بإمكان من يصعد الوادى رؤيته إلى أن يصل إليه فعلاً. كان هناك نبع طبيعى يدعى شلالة على جانب التل على ارتفاع يتطلب خمس عشرة دقيقة من التسلق، وهو يعرف اليوم باسم «نبع لورانس». وكانت الحويطات تنصب خيامها فى مأوى من الجدران الصخرية غرب بقايا معبد نبطى. وعسكرت جماعة لورانس هناك بعد هبوط الظلام، واستقبلوا زواراً من مختلف عشائر الحويطات، وكانوا جميعاً مستاءين لما رأوا من محاولة إعلاء الهاشميين من شأن أبى طيى. ولم يكن بين البدو من يغار

على سلامة صيته مثل بدو الحويطات . وقد ذكر لورانس أن من بين كل أربعة أو خمسة كان هناك واحد يعتبر نفسه شيخاً . وأظهرت عشيرة الدمانية ، بقيادة الشيخ «جاسم أبو دميك» (المحارب الهمام الذى قاد معركة فويلة) تمردها العلنى وعرف لورانس أنه ليس بمستطيع استمالة جاسم ، ومن ثم ، أعلن غاضبا أنه سيجند أفراداً من أية عشيرة أخرى باستثناء الدمانية لشن غارة مدوية . واندفع جاسم إلى الخارج هادراً وأعلن أنه سيلحق بصفوف الأتراك .

وحينما شعر لورانس أنه يفتقد سلطة التعامل مع هذا العصيان بنفسه ، عاد إلى العقبة واستشار فيصل ، وركب عائداً إلى رُم ومعه الشريف عبد الله بن حمزة كى يهدئ المشاكل . وتمكن عبد الله من كسب بعض الدمنيين ، إلا أن جاسم نفسه ظل متحدياً لأسباب ليس أقلها أن «زعل أبو طيبى» ، الذى كان لورانس يعتبره «أفضل المغيرين على الإطلاق» كان من المقرر أن يرافق جماعة الإغارة مع خمسة وعشرين من طويحة . ولم تكن أية عشيرة من عشائر الحويطات لتقبل بسلطة زعل ، كما أن كل قبيلة على حدة رفضت الحديث إلى الأخرى . وبما أن عبد الله كان قد رجع إلى العقبة ، وكان الشريف الآخر مع المجموعة ، وناصر الحارثى الذى فقد بصره فى اليوم الأول لخروجهم ، فكان لورانس هو الشخص الوحيد الذى يملك الحياد الكافى ليتولى قيادة الغارة ، وكان عليه ، أن يتخلى لأول مرة عن عادته في العمل من خلال شريف ، وأن يتولى القيادة بنفسه .

وعلى هذا غادر لورانس رُم فجر ١٦ سبتمبر ومعه مائة وستة عشر بدويا ، واثنان من العسكريين البريطانيين يحمى كلاً منهما اثنان من العبيد من حراس فيصل الشخصيين الذين كانوا على استعداد للموت دفاعاً عنهما . وقد قام برعاية هذين الجنديين البريطانيين بعناية بالغة ، أولاً للحاجة الماسة إلى مهارتيهما ، وثانيا ، للأثر السلبى لفقدانهما على العرب ، وثالثاً ، لأنه كان من طبيعة لورانس رعاية الآخرين . وقد قال بروكس عنه «كان دائماً شديد الاهتمام بنا ويحرص على التأكد من قدرتنا على تحمل الحرارة الفائقة» . وسافرت المجموعة بطول «القاعة» وهى رقعة شاسعة من السبخة تفصل بين رُم وهضبة شيرة ، وقد جعل منها قاعها الطينى المسطح طريقاً طبيعياً . كانت كتل الحجر الرملى كثيرة العقد وبلغت أقصى ارتفاع

لها فى جبل رُم ثم تهبط تدريجياً حتى يقل ارتفاع الكتل الخارجية ليصل إلى ما يقارب طول الرجل العادى. وتراجع الحجر الرملى ليفسح الطريق لمنحدرات صخور جيرية بللورية. وسارت القافلة باتجاه هضبة مدببة القمة منحدرة الجنبات حيث كانت الحافة تتدلى على شكل خرج بين مسندى كُتُب وتشير إلى مدخل سبخة طينية أخرى أمضوا فيها ليلتهم. وفى اليوم التالى عبروا منطقة أكثر وحشة: مرتفعات صخور جيرية تُلَطف من حدتها عُقد من الطرفاء (أشجار نحيلة الأعضاء).. وفى المساء وصلوا إلى بئر مدورة التى تقع فى وادى بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيرى يقع على مسافة أكثر من ثلاثة أميال عن المحطة حيث يوجد اليوم قليل من أشجار النخيل التى توقف نموها مشيرة إلى وجود مياه، إلا أن البئر نفسها تحولت إلى حفرة رمال جافة تماماً، وفى عام ١٩١٧ كانت هناك مياه وفيرة إلا أن الأتراك لوثوها عن قصد بإلقاء جثث إبل ميتة فيها. وكان لحمها المنتفخ واضحا ومقززاً للورانس وجماعته، إلا أنهم رغم ذلك قاموا بملء قربهم لأنها كانت المياه الوحيدة المتاحة وأصيب يلز وبروكس عقب هذا بنوبة إسهال حادة.

وعند مغيب الشمس، تسلل لورانس وزعل والعسكريان البريطانيان على الأقدام إلى حافة الصخرة الأخيرة التى تطل على المحطة حيث كان الأتراك قد أقاموا متاريس حراسة حجرية من الصخر الرمادى الرقيق. ولا تزال تلك المتاريس قائمة. ولدى وصولى فى أحد الليالى زحفت صاعداً إلى القمة ذاتها لأطل على نفس أبنية المحطة التى تقع على الخط الحديدى الشبحى التى نزعت منها القضبان وعربات النوم وجمعت فى أكوام. إلا أن الخط كان قد ظل مثبتاً فى ١٧ سبتمبر عام ١٩١٧، ونظر لورانس من أعلى القمة على سلسلة من المعاقل على طول رصيف المحطة ورأى نوافذها مضاءة بنيران الطهو، وعلى مجموعة من الخيام يسكنها حوالى مائتين من الأتراك. وكتب لورانس لاحقاً أن المحطة كانت تبعد عن القمة بحوالى ٣٠٠ ياردة، أى أنها أبعد من مدى مدافع من طراز ستوكس. وقرر أن يزحفوا إلى مسافة أقرب كى يجدوا موقعاً أفضل، حتى وصلوا إلى مكان قريب من العدو لدرجة أنه كان باستطاعتهم سماعهم يتحدثون ورأوا بوضوح وجه أحد الضباط الأصغر سناً الذى ترك المعسكر ليقضى حاجته ثم أشعل سيجارة بعود من

الثقاب. ثم انسحبوا إلى معقلهم في الجبل، وبحثوا هامسين أمر الهجوم: فقد كان عدد أفراد الحامية مائتين مقارنة برجالهم المائة وستة عشر، وشعر لورانس أن أبنية المحطة كانت أقوى من طلقات مدافع المورتار. وقرر ألا يجازف بقصف المحطة بل يعمد إلى تلغيم الخط بدلاً من هذا.

إذاً نظرنا إلى القرار بعد ثمانين عاماً، لوجدنا أن دوافع لورانس لإفشال الهجوم غير مبررة. ففي صباح اليوم التالي لوصولي، قمت بقياس المسافة بين قمة التل وأبنية المحطة ووجدتها أقل من الياردات الثلاثمائة التي ادعاها، وعلى أية حال فقد كان من المحتمل أن تكون مدافع ستوكس فاعلة من هذا البعد. أما كون أبنية المحطة شديدة الصلابة، فقد فحصتها عن قرب ووجدت أنها كانت قد شيدت من نفس كتل البازلت التي بنيت بها كل المحطات الأخرى، ولابد وأن لورانس كان على علم بهذه الحقيقة. بيد أن العقبة الرئيسية كانت فُرقة العرب وانقسامهم. ورغم أن لورانس ألمح فقط إلى هذا في طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» حيث قال «لم نكن أسرة سعيدة» فقد كان أكثر تحديداً في نص طبعة أكسفورد حيث بيّن أن فكرة الثأر والحقد كانت قد تملكت من الحويطات لدرجة أن كل بدوى كان يخشى أن يشي به الآخر أوأن يطلق عليه الرصاص من الخلف. وقد كانت عدم ثقته بالحويطات هي التي جعلته يعدل عن الهجوم. فلم يكن تلغيم القطار أكثر سهولة فقط من ناحية التحكم فيه، لكنه أيضاً كان عملاً محبباً إلى العرب حيث كانت أعمال النهب ميسرة. وقد سجل لورانس فيما بعد أن العرب كانوا يتحمسون لنسف القاطرات أكثر من حماسهم لأى شيء آخر.

وقرب المدورة ناموا جيداً، وفي الصباح، تحركوا عبر سهل كان قاحلاً حينذاك، أما الآن فقد اخضوضر بمشروعات زراعية. ووصلوا إلى حزام من التلال المنخفضة حيث كان خط السكة الحديد ينحني شرقاً كي يتخطى مشطاً مدرجاً لصخرة منحدرة. واعتقد لورانس أن هذا موقع مثالي للتلغيم. فقد كان على القطار أن يبطىء كي يدور حول المنحنى. كما أن التدريجات توفر مواقع رائعة لمدافع ستوكس إلا أنها كانت أكثر ارتفاعاً من أن تصيبها البنادق الآلية من طراز لويس، لكن بما أنها كانت تواجه الشمال تحديداً، فقد كانت تطل مباشرة على القضبان

وكان يمكن لها أن تكون قاعدة رائعة لقصف صف الجنود. ثم قاموا بإخفاء بنادقهم بين الصخور في أعلى الوادى، وحملوا أسلحتهم ومعداتهم إلى القمة الصخرية. وعلى بعد ثلاثمائة ياردة كانت المعادن (القضبان) تعبر أسلاك أرضية ذات قوسين، واختارها لورانس موقعاً لمفرقعاته. وكان في المرات السابقة قد استعمل مفاتيح ضغط للإشعال، أما هذه المرة فقد جرب استعمال شحنة كهربائية تلحق بكابل وكابس ويتم إطلاقها باليد. وبدلاً من دفنها تحت الأقواس (القناطر) وضع أرطاله الخمسين من الجيلاتين المتفجر في الرمل على السطح حتى يحطم الانفجار باتجاه أسفل الجسر وبعض العربات أياً كان ما سيحدث للقطار. أما الكابل، فقد برهن على كونه مشكلة: فقد كان بمجرد دفن جزء منه يقفز جزء آخر من تحت الرمل. وأخيراً كان على لورانس أن يجذبه إلى أسفل بجلاميد صخر ثقيلة، ثم قام بتسوية الرمال بعناية لإخفاء الآثار. لكن لسوء الحظ لم يكن بالإمكان رؤية الحفرة السفلية (القناة) من موقع إطلاق النيران، لذا قرر لورانس أن عليه الوقوف في منتصف المسافة بين مسار السكك الحديدية والمفجّر (مفتاح التفجير) كي يعطى الإشارات لسالم - أحد عبيد فيصل - الذى تطوع بالقيام بمهمة ضغط الكابس. وكان هذا يعنى أن لورانس سيكون على مرأى من الجنود في القطار.

وبمجرد أن تمت التجهيزات للكمين بدأت الأمور فجأة تسير سيراً خاطئاً. فقد تسلق البدو المكلفون بحراسة الإبل أعلى التل «ليستنشقوا النسيم» وكان بالإمكان رؤيتهم بوضوح من كل من محطة المدورة على بعد تسعة أميال إلى الشمال، ومحطة حلة عمرو على بعد أربعة أميال إلى الجنوب. وصاح فيهم لورانس ليهبطوا، إلا أن الأتراك كانوا قد شاهدوهم وفتح موقع أمامى النيران عليهم من مسافة ميلين ونصف. غير أن مغيب الشمس أنقذ العرب ونامت جماعة لورانس وهم واثقون أن الأتراك لن يحضروا للبحث عنهم في الظلام. إلا أنه بعد فجر اليوم التالى بقليل شوهدت فرقة من أربعين تركياً تتقدم على الخط من حلة عمار. وأرسل لورانس ثلاثين من الحويطات للاشتباك معهم وإبعادهم، إلا أنه مع حلول الظهيرة، غادرت محطة مدورة قوة أكبر كثيراً قوامها حوالى مائة جندى تقدمت نحو الجنوب على خط السكك الحديدية. وقرر لورانس أن ينسحب ويترك الألغام إلى أن تحين فرصة أخرى. وفى هذه اللحظة صاح حارس من أعلى التل أن

هناك قطاراً يقف في محطة حلة عمار. واندفع لورانس إلى أعلى للمشاهدة، وحينما وصل هناك بدأت القاطرة في التحرك ببطء باتجاههم. وصاح هو وزعل في البدو أن يحتلوا مواقعهم، وهرول القبليون والبريطانيان من مكان معسكرهم إلى «المصطبة» التلية. واتخذ يلز وبروكس موقعهيما على «الرف» بينما تفرق البدو من حاملي البنادق بأسلوب مروحي في التصدعات والكوات على طول مسار القطار وأثناء تقدم القطار رأى لورانس أنه يتألف من قاطرتين، لا قاطرة واحدة، وحوالي اثنتي عشرة عربة مغلقة مكدسة بالقوات التركية، التي كانت تتوقع هجوماً، لذا أخذ رجالها في إطلاق النيران عشوائياً في الصحراء من فتحات ضيقة و«صناجر» على ظهر القطار. ودهش لورانس لرؤيته قاطرتين، وقرر بشكل فجائي أن يفجر اللغم تحت القاطرة الثانية كي لاتقوى على جر العربات إن تعطلت القاطرة الأولى. وفي اللحظة التي عبرت فيها القاطرة الأولى القناة السفلية رفع لورانس يده، وأعمل الكابس. فصدر صوت رعدي واندفع دخان أرجواني داكن وأبخرة لمسافة مائة قدم إلى أعلى من خلال كتل من الحديد المحطمة التي كانت تتجه نحوهم، بما في ذلك عجلة قطار كاملة مرت من جانب رأس لورانس محدثة أزيزا واندفعت في الصحراء يصاحبها رنين. وفجرّت القناة الأرضية، وتعطلت القاطرة الأولى وتحطمت الثانية إلى أشلاء صغيرة. وعلى الفور فتح السرجنت يلز وطاقمه العربي نيران بنادقهم في قصف مميت توغل إلى أسطح العربات فأصابت الأتراك وصرعتهم مثل القناني الخشبية وحطمت الألواح الخشبية وحولتها إلى وابل من القطع الصغيرة. وطبقاً للعريف بروكس فقد تمشى لورانس بهدوء عائداً إلى موقع البنادق على التل «متجاهلاً القصف الناري تجاهلاً تاماً بحيث جعلنا نشعر أن الأمر كله لا يعدو أن يكون نزهة». ومن على «المصطبة» رأى لورانس والبريطانيان البدو وقد تجردوا من كل ملابسهم عدا سراويلهم الواسعة وهم يقفزون من حفرهم ويندفعون نحو القطار. وكانت هذه حركة غير مخطط لها، إلا أن أوان إيقافها كان قد فات. وكان الأتراك يتدافعون خارج الأبواب من الجانب الشرقي ليحتموا بالجسور ويسددوا النيران إلى البدو. ولما كانوا محتشدين جنباً إلى جنب أصبحوا هدفاً سهلاً لمدافع المورتار وقذفهم العريف بروكس بقنبلتين قتلت الثانية حوالي عشرة. وتملك الرعب الأحياء منهم فأخذوا في الهرب عبر الصحراء معرضين

أنفسهم مرة أخرى لرصاص بنادق اللويس التى أطلقت على جموع المنسحبين حتى سالت دماؤهم على الرمال وتناثرت أشلاؤهم على الأرض، وانقشع الدخان والغبار وسكنت المدافع التركية معلنة انتهاء المعركة. وحينما نظر لورانس إلى ساعته ذهل لأن هذا الاشتباك استغرق عشر دقائق فقط.

وهرول إلى الخط الحديدى ليفحص حجم الدمار ووجد البدو وقد تملكهم جنون الاستحواذ، فاندفعوا يشقون أبواب العربات ويحطمون البضائع ويتصايحون ويطلقون النار بدون تعقل ويندفعون داخل القطار ثم يخرجون محملين بالبالات والسجاجيد. وكانوا فى حالة فقدوا فيها التحكم لدرجة أنهم تظاهروا بأنهم لا يعرفون لورانس وحاولوا ثلاث مرات انتزاع غطاء رأسه وخنجره إلا أنهم أجبروا على الابتعاد بالقوة. وجد لورانس القاطرة الأولى وقد مالت على جانبها ففجر أسطوانتها بشحنة من المتفجرات كى لا تستعمل بعد ذلك أبداً ومع هذا كتب إلى القيادة يقول: «إننى مازلت أخشى أنها قد تكون قابلة للإصلاح. فلم تكن الظروف تساعد على الأداء الجيد نظراً لمسئوليتى عن عديد من الأسرى والنساء» ولحق لورانس بالنهابين واختار لنفسه سجادة صلاة جميلة من بلوخستان. وكان البدو، الذين أصبح من المحال السيطرة عليهم، يمسكون بأية ناقة متجاهلين مالكها، ويحمّلونها بالغنائم ويرحلون. ولما اقتربت الحاميات التركية من المحطتين فر البدو إلى الصحراء. وفجأة وجد لورانس ويلز وبروكس، اللذين كانا قد عادا إلى التل لاسترجاع البنادق والكابل، أنفسهم بمفردهم. ومن ثم، كانوا على وشك أن يتركوا البنادق، حينما اندفع زعل بن طيى وابن عمه حويمل عائدين على نياقهما وساعداهم فى تحميلها. وأشعل يلز وزعل ناراً مستخدمين طواحين الأسلحة الآلية والذخيرة الزائدة، ووضعوا عليها عشرين قذيفة مورتار مفكوكة وهربوا. وبينما كان الأتراك يتقدمون نحو القطار قابلهم وابل من النيران من القنابل المتفجرة والخراطيش.

وتجمع البدو فى منطقة أكثر أمنا. وكما جاء فى كتابات لورانس، فقد كانوا على وشك الانسحاب حينما اكتشف أن عبداً يدعى سالم، الذى قام بتفجير العبوة، كان مفقوداً. وطلب متطوعين ليعودوا للبحث عنه وعن باقى الأدوات

المفقودة. ووافق زعل وعشرة من رجال الطويحة على القيام بالمهمة. وعادوا على إبلهم إلى الخط الحديدى ليجدوا أتراكاً كثيرين وسط الدمار. وحين تحققوا أن سالم لابد وأن يكون قد مات حيث إن الأتراك لم يأخذوا أى أسرى من العرب، توجهوا إلى موقع معسكرهم وأجبروا، تحت وابل من النار، أن يتركوا الأدوات. ورجعوا فوق القمم تحت غطاء من طلقات بندقية لويس الذى كان السيرجنت يلز يتولاها. ثم انسحبوا إلى بئر المدورة حيث ارتووا وركبوا إبلهم واتجهوا مباشرة إلى وادى رُم ووصلوا هناك مساء اليوم التالى. وكانت خسائرهم قتيلاً واحداً، وجريحين، وخسائر الأتراك سبعين قتيلاً وستين جريحاً وتسعين أسيراً.

وكانت غارة المدورة أحد أنجح هجمات لورانس على الخطوط الحديدية وأكثرها إثارة. وكتب كليتون رسالة إلى أللنبى يقول فيها «أرجو لفت انتباهكم إلى ما أظهره الميجور لورانس من بسالة، وإلى الأسلوب الناجح الذى تحكم به فى قوته الصغيرة. وأود أيضاً أن ألفت انتباهكم إلى الأداء الجيد والمثابرة التى أبداهما السيرجنت يلز من القوات الجوية الملكية والعريف بروكس من قوات العمل الملكية اللذان كانا حديثىْ العهد نسبياً بالعمل... إن نجاح هذه العملية لابد وأن يكون له آثار.. خارج نطاق أهمية العملية ذاتها، إذ إنها سترفع من معنويات العرب وسيتم تناقلها بالطبع، الأمر الذى سيزيد من قدرتها». ويقع اليوم التل الذى ثبت لورانس عليه مدافعه وبنادقه من طرازى الستوكس واللويس على الحدود بين الأردن والسعودية، وباستطاعة الفرد تسلقه مع مخاطرة استثارة عداء حرس الحدود، ويمكن أن يرقد على الرف الحجرى فى «صنجر» حجرى، والذى قد يكون من بقايا المعركة، ويطل على نفس مشهد مسار القطارات الذى شاهده السيرجنت يلز من منظاره يوم ١٩ سبتمبر ١٩١٧. وسيرى أيضاً على بعد ٥٠٠ ياردة، حطام عربة قطار ملقاة على جانبها، تلك التى فجرها لورانس، وسيتحقق أنها عربة مفتوحة، رغم أن لورانس حدد فى جميع تقاريره أن القاطرة كانت تجر عشر عربات مغلقة، وسيبحث الفرد، دون جدوى، عن الجسر الذى وضع عليه لورانس عبوته. إذ لم يعد موجوداً، ولكن إذا كان يتمتع بالصبر لقطع المسافة من التل حتى السد، فسيجده مدفوناً فى الرمال، وسيجد كسارات قناة ذات قوسين، قد تكون القناة التى فجرها لورانس فى هذا اليوم من شهر سبتمبر منذ ثمانين عاماً فى

غضون عشر دقائق حيث قتل هو ورجاله سبعين من الأتراك. ومن الصعوبة تقدير رد فعل لورانس على هذا القتل. فقد كتب خطاباً فى ٢٥ سبتمبر إلى الميجور فرانك ستيرلنج، وكان زميلاً فى القاهرة على وشك أن يعين فى الجبهة العربية، يصف فيه البهجة بلغة صبى مغامر من الكشافة، تلك اللغة التى لابد أنه رآها مناسبة لضابط محترف: «آمل أن تجد هذا مسلياً، كما هو بالفعل. إنه عرض هواة لاه من الطراز الأول. إنك ستجد التجربة فردوساً، حيث لا يوجد أى عائد، أو أوامر، أو رؤساء، أو أطباء، أو وجبات، أو شراب». فقد كان لورانس دائماً خبيراً فى الصخب المتبجح والاستعراض، لكن كانت ثمة روح حساسة تحت السطح. فإن صورة مختلفة تماماً تظهر فى خطاب كتبه قبل هذا بيوم واحد إلى إدوارد ليدز: آمل حينما ينتهى هذا الكابوس أن أستيقظ وأحيا مرة أخرى.. فلن أتحمل العيش حتى نهاية هذه اللعبة. فإنى (أشعر) أنى فى سبيلى إلى فقد أعصابى، كما أن مزاجى يتهلهل. إن هذا قتل... وقتل الأتراك هذا مرعب. فحينما تشن الهجمة، لتجدهم فى النهاية أشلاء متناثرة، والبعض منهم أحياء.. وتعلم أنك قد فعلت الشىء نفسه بمئات آخرين، وعليك أن تفعله بمئات أخرى إن استطعت». ولا يمكن الإجابة على السؤال الذى يطرح نفسه، عما إذا كان اعتبار أحد هذين الخطابين، أو كليهما موضحاً لشخصية لورانس «الحقيقى»، أو أن الاثنين ببساطة انعكاس لشخصيتى متلقيها المتناقضتين.

الفصل السابع عشر

أحمد بن باقر: شركسى من القنيطرة

عملية اليرموك وحادث درعا

أكتوبر ١٩١٧ إلى يناير ١٩١٨

17

امتطيت جملاً يدعى شايلان صباح أول أبريل ـ وكان جمل سباق شهيراً من الحويطات ـ أسفل سلسلة باغودات [هيكل متعدد الأدوار] أم صلاب راعية رُم، وعبر السبخة التي تسمى بالقاعة باتجاه صدع وادى حفيرة. كنت أحمل «أعمدة الحكمة» فى الخرج، ولو صدق لورانس، فلابد وأن أجد فى نهاية الوادى طريقاً شديد الانحدار يصل بى على ارتفاع ألفى قدم إلى قمة هضبة شيراه.

وشعرت بحرارة الجو قبل بزوغ الشمس بوقت طويل، وقبيل الفجر كانت ألسنة من الظلال الليمونية والبرتقالية تلعق عبر اللون البنى للتلال، وتتخيرها مثل تخير المرء كعكاً محلى بالسكر، وتلمع أشعتها على مرآة ملاحات القاعة. وكان الضباب الذى تبخر من مراعى نباتات الرمث والرطام السميكة يغلف وادى حفيرة نفسه. وصلت أسفل الممر عند الظهيرة، وتسلقت بطن واد كان ينحنى بلطف باتجاه قمة صغيرة فى بياض الثلج على ارتفاع آلاف الأقدام. وأخذ الوادى يضيق وتنحنى جوانبه أكثر حتى أنى كنت أسحب الجمل من لجام رأسه فى صدع من الصخور يتسع فقط لمرورنا. وترنحت محاولاً شق طريقى، وفجأة ضاقت الجدران لدرجة أن احتك أحد «جراكن المياه» على ظهر «شايلان» وثُقب وبدأت المياه تقطر منه مما أثار غضبى الجنون. وكانت الشكوك قد ساورتنى منذ ولجت الوادى. فلا يمكن، بالتأكيد، أن يكون هذا هو الطريق الذى سلكه لورانس فى صحبة جيش كامل من العرب، وكتيبة مدافع آلية هندية ومئات من الإبل لأنهم

كانوا ، ببساطة ، لن يتمكنوا من المرور. خشيت أن يضيق الصدع بحيث لا أستطيع أن أدير الجمل لنعود أدراجنا . إلا أننى ، ولسبب ما ، ثابرت ببطء فى القيظ الشديد الذى كان يتردد بين جنبات الصدع الذى وجدته ينتهى فجأة أسفل صخرة شديدة الارتفاع . فلم يكن هذا بالتأكيد ، الطريق الذى سلكه لورانس. ولعنت نفسى وأنا أدير الجمل وأفلت راجعاً . بيد أن قصفاً رعدياً وحشياً فاجأنى ، وللحظة تجمدت فى مكانى ، فقد كان ثمة هواء بارد يتدفق ، ثم هطلت أمطار أخذت تشقب رمال الوادى . وتملكنى الرعب . فلو أن الأمطار كانت غزيرة على الهضبة فستنهمر مياهها فى الوادى وتحبسنى هنا بين الجدران . . ونظرت حولى . وفكرت فى ترك الجمل والتسلق إلى أقصى ارتفاع ممكن . ثم توقفت الأمطار بعد ثوان ، فحمدت الله ، واندفعت مهرولاً إلى أسفل الطريق على قدمى ، وأنا أسحب شايلان الحرون خلفى .

وأدركت أن لورانس لابد وأن اتبع كتف الوادى . إلا أن المسير هناك لم يكن أكثر يسراً . فلم يكن ثمة ممر واضح . وكنت كثيراً ما أتعثر فى الكتل الصخرية ، ثم

سقطت وجرحت قدماى. كنت أسير متذبذباً، نصف منزلق على حصى مفكك، وأحفظ توازنى على نتوءات لا يتعدى عرض كل منها اثنتى عشرة بوصة، ووجدت طريقاً إلى ممر مائى غريب مهدم من الحجارة الأرجوانية والفلسبار (سليكات الألمونيوم) البيضاء. وحدث أن اقتربت من حافة هاوية لدرجة أن شايلان، الذى كان يشب ويجفل ،كاد يدفعنى إلى أعماقها. وشككت مرة أخرى فى أن يكون جيش لورانس قد سلك هذا الطريق. ورغم أنه قد كتب فى تقريره أنه فقد جملين سقطا على جانب التل، ذات مرة أثناء تسلقه فقد ذكر أيضا أنه سار، فى مناسبة أخرى، فى الممر دون أن ينزل عن ناقته إلا فى موقع أو موقعين عسيرين. وارتعدت من مجرد فكرة امتطاء الناقة على هذه الكتل الصخرية الحادة والممرات شديدة الانحدار. إلا أنه كان من الواضح لى أن هذا الطريق هو نفس الطريق المهدم المتعرج لأننى، حينما حملقت خلفى، أسفل مئات الأقدام، استطعت رؤية شارع حفيرة الذى تغطيه الأعشاب، والذى ينتهى بتل مخروطى، وبدا وأنه يقع فى مركز الوادى وتظلله كلة «رُم» الشفافة كما وصفها لورانس تحديدا. وكان تسلق التل صعوداً وأنا أسحب الجمل خلفى أحد أكثر التجارب التى خبرتها إرهاقا. وحينما وصلت إلى القمة، كانت الشمس على وشك الغروب. واستغرق منى الصعود ست ساعات. ولم يكن بمقدورى أن أصدق أن لورانس قد تمكن أبدا من امتطاء ناقته صعوداً وهبوطاً على جانب هذا التل شديد الانحدار دون أن ينزل عن السرج، إلا أننى فكرت أنه، رغم سنوات خبرتى، فقد كان لورانس يفضلنى فى السفر بالإبل.

وقد رأى لورانس فى حفيرة معبراً من بلاد العرب إلى سوريا، بين الحرارة والبرودة، بين أشجار الطرفاء والأسفنتين. وفى الواقع، كانت الهضبة عالما مختلفا تماماً عن رُقع «رُم» الرملية، كانت منطقة مستنقعات صفراء متموجة دون شكل مميز تصل إلى المدى البعيد. وفى صدع، يقع بعد الموجة الأولى، التقيت بمجموعة من خيام البدو، وبينما كنت أسير إلى جانبها، عوت الكلاب فى وجهى، وخرج إلىّ بدوى فى دشداشة سوداء، ودعانى إلى قضاء الليلة هناك. ثم أرانى كيف أنيخ جملى، بينما ساعدنى خمسة أو ستة من البدو، يرتدون الثياب المهلهلة، على إنزال حمولة الجمل. ثم رحبوا بى داخل الخيمة حيث كانوا قد أشعلوا نارا من

أخشاب الرمث فى مربع فى الوسط. وأفسحوا لى مكاناً بينهم. ثم قاموا بذبح شاة بعد الظلام، وجلسنا إلى جوار النار لساعات نحتسى الشاى والقهوة، ونتحدث حتى جاءوا باللحوم على صينية قطرها ياردة، وكان عليها عُجز الشاه وضلوعها، ووضع الرأس فى وسط الصينية وقد بدا فكاه وكأنما تجمدت عليهما ابتسامة شيطانية. وذكرتنى هذه بصينية الأكل الكبيرة التى وصفها لورانس وكأنها حوض استحمام غير عميق، وقال إن عرضها كان خمسة أقدام وتستند إلى رجل واحدة. وكانت تلك هى صينية عودة بن طيى. وكان مضيفى من الحويطات، وسألته عن صينية عودة العملاقة. فأخبرونى أنه لدى احتلال الجيش الأردنى جفر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، تم نهب كثير من ممتلكات عودة وربما يكونون استولوا على الصينية من بين أشياء أخرى. وأخبرنى مضيفى محمد بن سالم، الذى كان قد عمل فى شرطة الهجانة فى الصحراء، أنه قد رأى وهو صبى، صينية محفورة، فى جفر، إلا «أن عرضها لم يكن خمسة أقدام، بل كانت فى الحجم المعتاد». وشككت فى أن تكون القصة هى إحدى «مبالغات» لورانس. فقد كتب فى مدخل مذكراته الأصلية «كان عرض الآنية ثلاثة أقدام»، ثم شطبها وكتب «خمسة أقدام. وبعد ذلك قرأت فى تقرير ألوا موسيل الذى كان قد تناول الطعام مع عودة عام ١٩١٠ ووصف الآنية، وأعتقد أنها كانت هى ذاتها، بأنها كانت من الحجم المعتاد، أى حوالى ثلاثة أقدام عرضاً. فلو أن لورانس قد بالغ فى شأن تافه كهذا، فهل بالغ فى وصفه لممر الحفيرة؟ وسألت الحويطات عن رأيهم، فضحك الرجل الأكبر سناً، وأخبرنى محمد قائلاً، كانت حفيرة مختلفة فى زمن لورانس. لم تكن ثمة طرق أو سيارات، وكان الممر يقع على الطريق الرئيسى من الحجاز إلى معان، وكانت تمر فيه مئات الإبل كل يوم. واعتاد الحويطيون المحليون الحفاظ عليه وتنظيفه وإزالة الأحجار التى تسقطها الأمطار على التلال. أما الآن، فكل فرد يملك سيارة. وهناك طرق تؤدى إلى نقب الشطار. ولا يستعمل الممر الآن سوى الرعاة، ولا أحد يهتم بنظافته. لهذا وجدت صعوبة فى السير فيه. أما فى الماضى، فقد كان مثل طرق السيارات، وكان بإمكانك ركوب ناقتك ذهاباً وإياباً».

وفى هذه الليلة، خلدت إلى النوم فى الخيمة وأنا أشعر بالرضا إذ إن الحويطات قد قاموا بتبرير تجربة لورانس وتجربتى.

وكان مضيفى من عشيرة الدمانية من الحويطات ـ وهم قوم الشيخ جاسم أبو دميك، الذى هدد قبل «المدوّرة» بأنه سيلحق بالأتراك، لكنه لم ينفذ وعيده؛ ولدى عودة لورانس إلى رُم عمل على إرضاء جاسم واقتصر على استئجار رجال من الدمنيين فقط للغارة التالية على الخط الحديدى عند الكيلو ٥٨٩ جنوب معان. وكان قد سلك ممر الحفيرة لأول مرة أول أكتوبر عام ١٩١٧ أثناء مسيرته للقيام بهذه الهجمة. واستغرقت العملية ستة أيام. وأخيراً، وبعد انتظار عدة أيام، كان لورانس قد لغم قطاراً وحطمه عند إمشاش الحسمة، وادعى أنه أصيب فى فخذه برصاص ضابط تركى. وفى الأشهر التالية، حطم لغاموه المدربون سبع عشرة قاطرة، وأعاقوا الخط إعاقة خطيرة، بالضبط كما كان قد حدد. إلا أنه طار فى منتصف أكتوبر إلى الإسماعيلية لمقابلة أللنبى مرة ثانية.

وكان أللنبى يخطط لهجوم كبير على خط غزة ـ بئر سبع فى نوفمبر. وكان لورانس قد وعده فى شهر يوليو بإشعال ثورة عارمة فى سوريا كى يؤمن الجناح البريطانى، إلا أنه، وبعد ثلاثة أشهر، كان يبغض القيام بمثل هذه الخطوة التى لا رجعة فيها؛ فقد أصبح التقرير المفصل الذى كان قد قدم إلى كليتون بعد الاستيلاء على العقبة مجرد «تاريخ قديم» حيث إنه رغم إنجازه هدفه المباشر، أى الدعم البريطانى الكبير للثورة العربية، إلا أنه سرعان ما أدرك عدم استطاعته التنفيذ، حيث إنه فى حالة فشل هجوم أللنبى، أو الفشل فى الوصول إلى يافا والقدس، سيصبح المتمردون العرب معزولين وسيقتلهم الأتراك. فلم يكن عرب سوريا بدوا رحلاً، بل فلاحين مزارعين، يحيون فى قرى مأهولة، وليس باستطاعتهم الاختفاء فى الصحراء مثل رعاة الإبل، أى أنهم كانوا سلاحاً يستعمل مرة واحدة، ويهدر تماماً إن انطلق قبل الوقت المناسب. وقد رأى أللنبى أنه بالإمكان التضحية بالعرب، إلا أن هذا لم يكن رأى لورانس الذى رغب بشدة أن تنجح الثورة العربية. ومن ثم، قرر أن يكرس جهده لتنفيذ اقتراح كان فى الأصل جزءاً صغيراً من خطته الرئيسية ـ أى الهجوم على الجسر الواقع فى أقصى الغرب فى وادى اليرموك، عند جسر الحمى، وكان عبارة عن بنية معقدة من الصلب تمتد أعلى وهدٍ مطمور يحرسه حوالى ستة رجال. وقد رأى أن تدمير هذا الجسر سيعطل الخط الحديدى لمدة أسبوعين. فإن تمكن العرب من تفجير الجسر فى تزامن تام لخطة مطاردة أللنبى

للأتراك، فسيقطع بذلك كلية الخط الرئيسى الذى سيستخدمونه فى تراجعهم إلى دمشق، ويجبرون على الانسحاب سيراً على الأقدام، وقد تكون تلك هى اللحظة المناسبة كى يثور الفلاحون على الأتراك ويعوقون تراجعهم. ووافق أللنبى على الخطة، وطلب من لورانس قطع الخط يوم ٥ نوفمبر، أو فى أى يوم من الأيام الثلاثة التالية.

كانت خطة لورانس هى أن يتبع فى عملية اليرموك الحركة التدريجية المُلفتة التى اتبعها فى العقبة بنجاح عظيم. فقرر أن يسير مع خمسين رجلاً يُفضل أن يكونوا من حويطات عودة، أى البدو الوحيدين الذين كان يعتقد أنهم يملكون الشراسة الكافية للاستيلاء على الكوبرى بهجمة أمامية. كما اعتزم السير فى طريق مواز للصحراء من الرُم إلى الأزرق، أو الواحة التى تقع فى الصحراء السورية والتى كان قد التقى فيها بنورى الشعلان؛ وبعد أن يستأجر مجموعة بدو من قبائل بنى صخر وبنى حسن وبدو ورجال السرحان، يندفع مسرعاً فى الأراضى السورية المزروعة ويهاجم الكوبرى. أى أنه خطط للعملية لتكون صورة من عملية العقبة بالقدر الذى تتيحه الظروف، كما أن هناك دعماً للبدو هذه المرة من فرقة من المدفعيين الهنود بقيادة حسن شاه، مدربين على ركوب الإبل بعد أن قضوا شهوراً عدة يلغمون سكك حديد الحجاز، كان سيرافق لورانس فى هذه المهمة الملازم وود من سلاح المهندسين الملكى، الذى أوكل إليه زرع اللغم فى حالة إصابة لورانس؛ كما كان مقرراً أن يرافقه فى جزء من الرحلة رجل البنوك الويلزى السابق لويد چورچ الذى أدمن لورانس حديثه. ويقود الفريق الشريف على بن حسين الحارثى أو «اللورد الشاب» ذو الشجاعة وحسن المظهر، بدلاً من ناصر ذى الشخصية الكاريزمية الذى كان ينفذ مهمة أخرى.

ولا يكاد يوجد ثمة شك فى أن الشريف كان موضع جاذبية للورانس الذى كتب عنه «لا أحد يستطيع أن يراه دون أن يرغب فى رؤيته مرة أخرى، خاصة حينما يبتسم بشفتيه وعينيه معاً، وهو أمر كان نادراً. لقد كان جماله سلاحاً أدرك هو أهميته». ويعتقد البعض أن S.A الذى أهدى إليه لورانس الكتاب كان الشريف على وليس سالم أحمد. وكان مثل داهوم «ذا جمال جسدى رائع»،

وعلى حين كان الصبى السورى «مصارعاً رائعاً» كان على، على حد قول لورانس، قوياً كالثور، باستطاعته أن يجثو على ركبتيه ثم يقف على قدميه وهو يحمل رجلاً فى كل من يديه. وقد ادعى لورانس أن علياً لم يكن «بإمكانه فقط اللحاق بناقة تجرى على بعد نصف ميل منه، بل والقفز أيضاً على سرجها»، ولم يكن يصطحب أحداً فى عملياته لا يستطيع حمل بندقيته بيد واحدة. كما كتب أيضاً عنه «ليس بالإمكان سبر أغوار الشريف، وهو أيضاً شخص عنيد مغرور، لا يبالى بالقول أو الفعل؛ ويحوز الإعجاب (إن هو أراد) فى المناسبات العامة؛ كما أنه على قدر جيد من التعليم. أما طموحه المحلى، فكان التفوق على بدو الصحراء فى الحرب والرياضة». وباختصار، فإن الشريف نسخة من عودة أبو طيى، لكن أكثر إثارة للرغبة، وأصغر سناً. وكان لورانس يدعو الشريف بمودّة «علياً الصغير». وقال عنه إنه كان لديه على الأقل، عشيق واحد من الصبية؛ من بنى صخر فى السابعة عشرة من عمره يدعى تركى «.. كان الحيوان فى داخل كل منهما ينادى الآخر وهما يتجولان معاً متمتعين بالتلامس والصمت».

غادر لورانس العقبة يوم ٢٤ أكتوبر مع لويد، وورد، وجندى من الفرسان يدعى ثورن، وفرقة من جنود البنادق الآلية من الهنود؛ وقضوا ليلتهم فى رُم حيث لحق بهم الشريف على، وأمير جزائرى يدعى عبد القادر، كان فيصل يعرفه، وكان يمتلك عدة قرى للمنفيين الجزائيين على شاطئ اليرموك. واعتقد لورانس أن فلاحى عبد القادر قد يكونون عظيمى النفع كما أنهم قد يستطيعون شن الهجوم على الأتراك دون أن يتسببوا فى ثورة عامة، الأمر الذى كان يحرص على تحاشيه، نظراً لكونهم أجانب ومحل بغض من العرب. وكان لورانس قد تلقى برقية من الكولونيل برموند، من البعثة الفرنسية، يحذره فيها من عبد القادر كجاسوس للأتراك. ولم ير لورانس داعياً للشك فيه، وعزا الأمر إلى عدم ثقة متبادلة حيث كان جد عبد القادر قد قاد المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين ـ وكان هذا لا يقلل من قدره إطلاقاً فى نظر لورانس. وفى صباح ٢٦ أكتوبر تسلقت قوة الإغارة ممر حفيرة وعبر الرجال الخط الحديدى يوم ٢٧ دون حادث يذكر، ووصلوا جفر فى اليوم التالى.

ومن هذه النقطة أصبح حسن الحظ الذى رافق لورانس فى العقبة أشد وضوحاً لغيابه هنا. فأولاً، لم يستطع إقناع حويطات طويحة الذين التقى بهم فى جفر بالاشتراك فى عملية الإغارة؛ فحتى رجل الغزوات الشهير على أبو طيى عاش مستسلماً بعد هجمة المدورة. فاضطر لورانس لاستئجار خمسة عشر من بني صخر، وثلاثين من السرحيين فى الأزرق، ولم يكن أحد منهم يبدى حماساً حقيقياً للهجمة. بل أجبره السرحيون على الاعتقاد بأن هدفه، أى مهاجمة الكوبرى الواقع فى الحمى، لا يمكن تحقيقه نظراً لازدحام جبال إِبْرِد القريبة بالحطابين الذين كانوا يعملون مع الأتراك. ومن ثم، اضطر إلى تغيير خططه، ووافق بغير حماس، على مهاجمة تل الشهاب، أى أقرب كوبرى جغرافياً، من الأزرق. وكان هذا هدفاً محفوفاً بالمخاطر إذ إنه كان عليه المرور فى أرض مزروعة آهلة بالسكان يصعب على الإبل السير فيها لأنها أرض رطبة، قد تحول أيضاً دون التراجع السريع. وفى يوم ٤ نوفمبر، اختفى عبد القادر ورجاله من الأزرق. ودهش لورانس لهذا وساوره القلق، ورغم أنه كتب فيما بعد أنه شك فى أن يكون الجزائرى قد ذهب إلى درعا ليحذر الأتراك من الهجمة المرتقبة، إلا أنه أرجع انسحابه فى حينه إلى مجرد الجبن حيث كتب لجويس فيما بعد «قول دون فعل.. فلم أفعل أنا أو على ما يسيئه».

كانت نقطة بداية الهجمة نبعاً عند أبو صوانة، حيث وصل الفريق فور رحيل مجموعة من الفرسان الشراكسة كان الأتراك قد أرسلوهم لاستطلاع المنطقة. ثم رحلوا يوم ٧ وانتظروا فى السهل شرق السكك الحديدية ساعتين؛ وبعد الظلام، عبروا الخط وساروا بإبلهم غرباً ونزلوا منخفضاً ضحلاً فى غدير الأبياد حيث اختطفوا سويعات من النوم بين إبلهم المحملة، قبل شروق الشمس. ولم يكونوا ليستطيعوا التحرك قبل الغسق حتى لا يكتشفهم أحد. وكان عليهم بعد ذلك التسلل لمسافة أربعين ميلاً إلى الكوبرى ويفجرونه، ثم العودة متسللين عبر الخط الحديدى مع فجر اليوم التالى. وكان الليل يستمر ١٣ ساعة، أى أنهم كان لديهم ثلاث عشرة ساعة من الظلام يكملون فيها العملية. وشعر لورانس أن فرقة البنادق الآلية الهندية لن تتمكن من قطع الأميال الثمانية فى غضون هذه المدة. لذا، انتقى من بينهم ستة من أفضل ممتطى الإبل بقيادة حسن شاه لمرافقته ومعهم بندقية آلية واحدة من طراز فيكرز. فقد اعتقد أن بإمكان عشرين رجلا فقط

السيطرة على الكوبرى، وكان من الممكن أن يفعل الهنود هذا لولا قلة عددهم. ورغم شكوكه في السرحيين، كان بنو صخر موضع ثقته تحت قيادة شيخهم فهد، ومن ثم عينهم كفرقة العاصفة فى العملية. ومن أجل تيسير عملية التدمير، أعاد وود تعبئة الجيلاتين المتفجر في حمولات زنة كل منها ثلاثون رطلاً ليسهل التعامل معها فى الظلمة على سفح التل شديد الانحدار.

وامتطى الجميع إبلهم عند الغروب وساروا يلفهم الصمت من المنطقة التى رقدوا بها إلى تل الأشهب متبعين طريق الحج القديم. ولم يكونوا فى حالة مزاجية حسنة بل إن لورانس نفسه تملكه إحساس سيئ إزاء الغارة، وكان قد أتعسه فرار عبد القادر، وكان يائساً من نجاح الثورة العربية، أما طريق الذهاب فكان زلقاً بالنسبة للإبل؛ وتطلب الأمر صعوداً وهبوطاً على مرتفعات صخرية مليئة بالكسارات، والسير فى حقول زراعية محروثة، أو مروج مليئة بمصائد الأرانب. وساد التوتر بين الرجال. ثم التقوا بأحد التجار وأسرته ومعهم حميرهم، الذين أجبروا على احتجازهم تحت حراسة حتى الفجر. وبعد ذلك، أطلق عليهم أحد المزارعين بندقيته مرة تلو الأخرى لاعتقاده أنهم مغيرون يقصدون مزرعته وظل يصرخ فى الظلام. وبمجرد تمكنهم من الفرار فاجأهم جمل ضال وكلب ينبح. وفجأة بدأ الرذاذ يسقط وأصبحت الأرض زلقة من الخطر السير عليها لدرجة أن الإبل أخذت فى الانزلاق وسقط منها اثنان أو ثلاثة على الأرض. ثم توقفت الأمطار ومروا أسفل خط للبرق حيث سمعوا صوت المياه المتساقطة على تل الشهاب. ثم أناخوا إبلهم فى صمت، وساعد وود فى تجميع البندقية الآلية، على حين نقل لورانس ومجموعته الجيلاتين أسفل منحدر موحل باتجاه الكوبرى. ثم سُمعت فجأة قرقعة قطار يمر، ورقد لورانس منبطحاً على بطنه، ولمح، لبرهة، جنوداً فى أزيائهم الرسمية قبل أن يعاود زحفه مع فريقه نحو الكوبرى. وزحفوا كالأفاعى فى الوحل حتى قاربوا الأجزاء المعدنية وأبصروا حارساً واحداً بدا واضحاً فى ضوء نار مشتعلة فى الناحية المقابلة على بعد ستين ياردة. وزحف لورانس وفهد آفلين كى يقودا الرجال من حملة المفرقعات، إلا أنه وقبل وصولهم إليهم أسقط واحد من السرحيين بندقيته فأحدثت دوياً ورنيناً اخترق الظلام تماماً كأنه طلقة نارية. وتجمد لورانس. وصاح الحارس التركى متحدياً وسار مع دورية باتجاه الضوضاء وهو يصيح على باقى

الحراس الذين اندفعوا خارج خيمتهم وأخذوا فى إطلاق النار فى الظلام. ورد بنو صخر الطلقات إلا أن رجال البنادق الآلية كانوا مازالو مشغولين بتجميع البندقية ولم يلحقوا بالآخرين، أثناء إطلاق النيران. وخشى السرحيون الذين كانوا يحملون الجيلاتين من انفجاره إذا أصابته طلقة فألقوا به فى الوهد. وتملك المجموعة الخوف، فاندفع السرحيون باتجاه إبلهم، وتبعهم لورانس والهنود وبنو صخر مسرعين. وكان إطلاق النيران قد نبه القرية، وبدأت الأنوار تشتعل لتضىء الريف المظلم. وحينما قابل السرحيون مجموعة من الفلاحين سرقوهم مما زاد الشعور بالخطر. ولمسافة أميال عديدة، صعد القرويون إلى أسطح منازلهم وأخذوا فى إطلاق الرصاص على مجموعة لورانس، بينما هاجمتهم مجموعة من راكبى الخيول من الجانب. وكانت الأرض زلقة تتأرجح عليها الإبل وهى تحاول تخليص أظلافها، ومن ثم، احتل لورانس وعلى مكانيهما خلفها وهما يحاولان دفعها إلى الأمام. ثم تحرك أعضاء المجموعة مسرعين وقد تملكهم شيطان الخوف. وسرعان ما أصبحت الطلقات خلفهم. ومع انبلاج الضوء، كانوا قد وصلوا إلى الخط الحديدى جوعى ومنهكين. وسمع لورانس أصوات مدافع أللنبى الثقيلة تترامى فى الفضاء من ناحية فلسطين واعتبر الصوت بمثابة لوم على فشله. فلو نجحت هجمة أللنبى سيكون لدى الأتراك خطاً خالصاً للانحساب بطول الخط الحديدى. ولو أنه نجح فى قطع الخط الحديدى ما وُجد سبيل لهروب رجل أو بندقية أو عربة، ولفتح السبيل لثورة عربية عامة فى سوريا. ورغم أنه نجح فى تلغيم قطار جمال باشا قرب منيفر.

وفى اليوم التالى، عرف أنه قد فقد كل الفرص العظيمة التى كان يأمل فيها. فقفل عائداً إلى قلعة الأزرق يائسا، ووصلها يوم ١٢ نوفمبر.

أما قلعة الأزرق فقد كانت قائمة منذ أيام الرومان على شاطئ بحيرة متسعة ضحلة تتجمع فيها مياه وادى سرحان العظيم بعد سقوط المطر. وحتى ستينيات القرن العشرين على الأقل، كانت القلعة تقع فى واحة فريدة فى الصحراء السورية ـ وكانت منطقة غابات ومستنقعات تسكنها جميع أنواع الطيور المائية والفهود والضباع والخنازير البرية وحتى الجاموس. وكانت ذات يوم تجتذب الصيادين من جميع أنحاء البلاد العربية. ولابد أن القلعة البازلتية السوداء، فى زمن لورانس،

كانت تبعد أميالاً عبر الرمال والحقول البركانية المتراكمة. أما اليوم، فقد تبددت تقريباً في شوارع فقيرة بها مبانى سكنية من الطوب الأسمنتى الخفيف، ومحطات وقود، وأسلاك شائكة. واختفى منها السحر الذى يصفه لورانس ومعه مياه البحيرة التى سحبت إلى عمان. وصلت الأزرق فى سيارة أجرة صفراء مع صديق لى من القوات الأردنية الخاصة سابقا، ويدعى محمد الحبابة ثم سرنا معا إلى القلعة ووجدناها فى حالة جيدة من الداخل بشكل أدهشنا. وكان راعيها، شيخ درزى بدا لنا معتوهاً، وكان مولعاً بإقحام كلمات إنجليزية بذيئة فى حديثه. ثم أرانا صورة لوالده الذى كان ضابطاً درزياً ادعى أنه عمل مع لورانس، رغم أن الدروز عامة لم يلتحقوا بصفوف الثورة إلا بعد سقوط دمشق. وتجول معنا ونحن نسير من جدار إلى جدار متتبعين وصف لورانس فى نسخته من «أعمدة الحكمة» التى كانت قد سقط عنها غلافها، وكانت أكثر الخاصيات تمييزا للقلعة هى أبوابها الحجرية - وهى ألواح عملاقة من البازلت سمك كل منها قدم وتزن أطنانا وقد ثبتت بمهارة على مفصلات «مشحمة» بحيث يمكن لرجل واحد فتحها وإغلاقها بسهولة. وكتب لورانس أن الباب الرئيسى كان مسدوداً أثناء إقامته، وكان هناك حارس متمركز عند البوابة الخلفية مهمته إغلاقها بعد غروب الشمس وكان صوت الإغلاق يتردد فى أنحاء القلعة. وشاهدنا المسجد الذى كان يستعمل حظيرة للأغنام حتى قام حسن شاه، قائد فرقة المدفعية الهندية، بتنظيفه وتطهيره. وفحصنا البرج الجانبى الذى اختاره الشريف على جناحاً له لدرجة أننا تعرفنا على الشق الجدارى (الذى تم إصلاحه، وكان لورانس قد أحدثه لإدخال الإبل فى الليل). وأعلى غرفة الحراسة، كانت الغرفة التى احتلها لورانس وهى عِلّية متسعة ذات نوافذ منخفضة تنفذ منها أشعة الضوء تتخللها ذرات الغبار. ووجدت الجزء الذى يصف فيه لورانس تجمع رجاله فى الليالى الباردة حيث كانوا يوقدون النار ويجتمعون متشحين بعباءاتهم يتلون الشعر والقصص، بينما تدور عليهم أقداح القهوة. وفى تلك الليالى، وبينما كانت الرياح تصطدم بجدران القلعة، كانت تُسمع أصوات نحيب وتنهدات شبحية من الشرفات المفرّجة، وكان البدو يُعزونها إلى كلاب بنى هلال (الأشخاص الأسطوريين الذين شيدوا القلعة) - التى كانت تجوب الأبراج الستة سعياً وراء أثر لأسيادهم الذين فقدوهم.

وادعى لورانس، لدى وصوله عائداً إلى قلعة الأزرق يوم ١٢ نوفمبر، أنه أصيب بما لا يقل عن خمسة جروح من طلقات فى هجمته على منيفر، كما كسرت أصبع قدمه وتم تجبيرها بشريحة سقطت من غلاية القطار المتفجر. وكانت هذه هى الحركة الأولى من كونشرتو عقابه لذاته علنياً لفشله فى اليرموك. ومثلت الفترة ما بين ١٤ نوفمبر وبين عودته العلنية إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر إحدى هبوطاته السرية إلى العالم السفلى حيث لا يوجد شيء يقينى بشأنها. وطبقاً للورانس نفسه، فقد عانى أثناء هذا الأسبوع أكثر خبراته مهانة وانسحاقاً أى: القبض عليه وتعذيبه واغتصاب الجنود الأتراك له فى درعا. وفى نص عام ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» تتميز تلك النقلة الفجائية من الشعور إلى اللاشعور، ومن المحدد إلى العام، بانقطاع التتابعية الزمنية. فيحدد لورانس حتى يوم ١٤ نوفمبر تاريخ الأحداث على كل صفحة، أما فى الصفحات الأربع التالية، فنجد أنه يخبر القارئ أن الشهر هو نوفمبر عام ١٩١٧. وتستمر الفجوة حتى عشرين نوفمبر حين يظهر ثانية فى درعا بعد أن أسقط ستة أيام فى هذه الأثناء. فأين كان لورانس خلال هذه الأيام الستة؟ تقول قصته إنه ظل فى الأزرق لبعض الوقت وكان وقتاً كافياً ليشرف على إصلاح القلعة ويستقبل وفود الزوار والمؤيدين. كان أحد هؤلاء الزوار هو طلال الحرايضن من طفس، وكان قوياً بين الفلاحين، وخارجاً على القانون رُصِد مبلغ من المال لمن يأتى برأسه. وأبلغ لورانس طلال برغبته فى رؤية حوران لاستكشاف إمكانية ثورة فى المستقبل. وركبا معاً مع حرس تم تعيينهم خصيصاً لهم مكون من شيخ كبير يدعى فارس وصبى يدعى حليم. وسافرت المجموعة بالخيل وزاروا أم الجمال، وأم طيبى، وغزالة، والشيخ مسكين والشيخ سعد، وطفس، وتل أرار، ومزرب، وعثمان ودرعا، ولسبب ما عادوا إلى الأزرق وهى مسافة تقدر بـ ١٧٠ ميلاً.

وكانت درعا، عاصمة حوران، نقطة مركزية على الخط الحديدى، لأن الخطوط من الحجاز إلى دمشق ومن حيفا فى فلسطين إلى دمشق تتقاطع هناك. وكان على من يريد إنجاز أى تقدم إلى دمشق أن يأخذ درعا فى حسبانه. وقرر لورانس التسلل إلى المدينة متخفياً كى يقدّر نقاط قوتها وضعفها من أجل هجوم مستقبلى. ولم يستطع طلال مرافقته لأن وجهه كان معروفاً للأتراك، لذا ترك لورانس الخيل مع

حليم وارتدى زى الصبى الريفى وسار مع فارس وهو «فلاح غير ذى أهمية». وقرب المطار، نادى عليهما رقيب تركى وأمسك بذراع لورانس بقسوة وأخبره قائلاً: «البك يريدك» بينما تجاهل فارس. ثم سار بلورانس إلى ضابط وقدم له «تقريراً طويلاً». وحينما سأله الضابط عن اسمه أخبره لورانس «أحمد بن باقر»: شركسى من القنيطرة. واتهم الضابط لورانس بأنه هارب من الخدمة العسكرية، فأجابه بأن الشركسيين لا يخضعون لقوانين التجنيد. وكان هذا غير صحيح، فرد عليه الضابط بأنه كاذب وأصدر تعليماته إلى الرقيب بتسجيله فى القسم الذى ينتمى إليه «حتى يستدعيه البك». وتم إرسال لورانس إلى الثكنات، وبعد حلول الظلام سار به ثلاثة حراس عبر الخط الحديدى إلى منزل الحاكم المؤلف من طابقين. وكان ناهى بك، وهو شخص ضخم الجسم، أجعد الشعر، يجلس على سريره حينما أدخل عليه لورانس، فتفحص جسده وأحاطه بذراعيه وحاول سحبه إلى سريره. وحينما قاومه لورانس استدعى حرسه الذين قيدوه وجردوه من ملابسه. ثم حملق مشدوهاً فى الجراح التى كانت قد أصابته مؤخراً من جراء الطلقات. وعندها حاول التركى لمس أعضائه قام لورانس برفسه فى حنية فخذه مما جعله يترنح إلى الخلف وهو يئن من الألم. ومن ثم، أمر الحراس بتقييده وأخذ يصفعه على وجهه «بالشبشب». بعد ذلك عض رقبته حتى سالت الدماء، ثم قبّله، وسحب حربة من أحد حراسه حيث قام بنزع شريحة من لحم ضلعه، وعمد إلى غرس الحربة فى لحمه بأن أخذ يلويها ثم بلل أصابعه بالدم الذى سال على بطن لورانس. ثم نطق لورانس يائساً بشىء ما فأجابه «ناهى» إجابة غامضة: «عليك أن تعرف أننى أعلم، ومن الأيسر لك أن تفعل ما أريده». ورفع لورانس ذقنه فى إشارة على الرفض، فأمر البك الرقيب أن يسحبه إلى الخارج و«يعلمه كل شىء».

وأرقده الحراس على مقعد خشبى، ثم أحضر أحدهم «كرباجاً شركسياً». وهو «سوط من الجلد الأسود اللون، مستدير ودقيق الطرف بحيث يصل إلى سمك الإصبع عند القبضة (المغلفة بالفضة)، أما نهايته الصلبة فهى فى سمك القلم الرصاص». وقام العريف بجلده بوحشية. وكان للألم وقع الصدمة على لورانس الذى قرر أن يعد الضربات إلى أن فقد القدرة على العد بعد الضربة العشرين وأخذ يتلوى، بيد أن قبضة الأتراك عليه كانت قوية، وكان راكعاً على الأرض وقد

أمسكوا برسغيه. وحينما أصاب الرقيب التعب، توالى الآخرون على جلده، وكانوا يقومون باغتصابه فيما بين نوبات الجلد، وكثيراً ما كانوا يديرون رأسه كى ينظر إلى جروحه وفى هذا قال: «ومع كل جلدة كانت تقفز إلى سطح جلدى حافة بيضاء مثل خط السكك الحديدية، ثم يقتم لونها ببطء إلى أن تصبح قرمزية». وأخيرا أخذ لورانس يزعق بالعربية. وحينما أنهك تماماً توقفوا. ووجد نفسه يرقد على ظهره على الأرض. ثم لكزه الرقيب بحذائه العسكرى ذى النعل المزود بالمسامير فتهشمت أضلعه، وأمره بالوقوف، بيد أن لورانس تبسم بخمول «فقد تخللت كيانى حرارة شهية، ربما كانت جنسية». وجلده الرقيب جلدتين بالكرباج على خصيتيه، فأغمى عليه، وحينما استرد وعيه وجد أحد الحراس يغتصبه، بينما كان الآخرون يباعدون ما بين ساقيه. ثم نادى عليهم البك فحملوا لورانس إليه. إلا أنه حينما رآه يبكى ويطلب الرأفة عافه لما رأى من دمائه السائلة وجراحه الكثيرة. ثم حمله الحراس إلى كوخ ذى سطح منحدر خلف مبنى الحكومة حيث غسلوا جراحه وضمدوها. وهمس إليه أحد الحراس بلهجة درزية أن باب الغرفة التالية ليس موصداً. وفى الصباح، اكتشف لورانس أن الغرفة كانت مستوصفاً. ووجد طاقماً من الملابس الرديئة معلقاً على الباب، فارتداها وتسلق من النافذة وترنح إلى الشارع، وتمكن من الوصول إلى نزيب فى الموعد الذى حدده لحليم حيث امتطيا الخيل وقفلا عائدين إلى الأزرق. ولم يتعرضا فى طريق عودتهما إلى ما هو غير متوقع سوى هجوم من قبيلة أولاد على الذين لم يكونوا قد انضموا بعد إلى صفوف الهاشميين، إلا أنهم سمحوا لهما بمواصلة الرحلة دون أذى. وكتب لورانس أن التقدير الذى لقيه من هؤلاء المهاجمين الذين عاملوه كشخص يستحق التكريم أتاح له الفرصة، مؤقتاً، أن يتحمل العبء الذى أكده مرور الأيام، أى «كيف أننى فقدت فى تلك الليلة فى درعا حصن سلامة شخصيتى إلى الأبد».
ووصل لورانس إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر، أى عقب يومين من محنته، وفى اليوم التالى، ودع الشريف علىّ وداعاً حاراً، وقبل أحدهما الآخر، وتبادلا الملابس، تماماً مثلما فعل مع داهوم، ثم ركب متجهاً إلى العقبة ووصلها يوم ٢٥ نوفمبر بعد أن قطع ٣٠٠ ميل على ظهر الناقة فى ثلاثة أيام فقط.

وقد سجل لورانس الأحداث هذه فى النص الأخير من «أعمدة الحكمة». ومما لا

شك فيه، أنه لو كان قد تم القبض عليه، وتعذيبه، ثم السماح له بالهرب، فلابد وأنه كان سيبعث تقريراً بهذا إلى الاستخبارات العسكرية، خاصة إذا كان الأتراك قد تعرفوا عليه، كما ادعى لاحقاً. إلا أن هذا الحدث، مثله مثل الأحداث الغامضة الأخرى فى حياته كإطلاقه النار على حامد المراكشى مثلا، ليس له ذكر فى التقارير الرسمية. كما أنه ليس ثمة شهود، أو مداخل لها علاقة بالحدث فى مذكراته، أو أى تقارير توثقه من أى نوع. كما أن الجنود الذين كانوا متموقعين فى درعا، وكان معظمهم عرباً فى خدمة العثمانيين، لم يسمعوا أية إشاعة عن الحادث. أى أنه لو أن لورانس لم يذكرها بنفسه لظلت غير معروفة كلية. ولم تظهر مسرحية درعا حتى عام ١٩١٩ أثناء كتابته «أعمدة الحكمة». واستعمل لورانس القصة فى خطاب له إلى فرانك ستيرلنج، وهو زميل سابق له فى عملية «القنفذة» وكان يعمل حينذاك كبير المسئولين السياسيين فى القاهرة، للإساءة إلى محمد سعيد الأمير الجزائرى، وذلك بإلقائه الشبهات على شقيقه عبد القادر الذى ادعى أنه لحق بصفوف الأتراك، وأحبط عملية كوبرى اليرموك، وتسبب فى القبض على لورانس فى درعا بأن أعطى أوصافه للبك الذى كان اسمه الحقيقى «حاجم» وليس «ناهى» كما هو مذكور فى «أعمدة الحكمة». وأخبر لورانس ستيرلنج فى خطابه، أن حاجم، الذى كان لوطياً، اشتهاه وأنه حينما صد محاولاته، وضعه حرس البك فى «المستشفى». وقال إنه هرب قبل الفجر حيث لم تكن إصاباته بالقدر الذى تخيله. وادعى لورانس أيضاً أن البك منع تسرب أنباء القبض عليه لأنه «وحلّها». وأنه قد عاد إلى الأزرق وهو «شديد الغضب من عبد القادر الذى علم خيانته من البك وحراسه». وقد أضيف هذا السطر فى الخطاب الأصلى كلاحقة فى منتصف الجملة؛ كما لو أن لورانس قد تذكر فجأة أن ستيرلنج قد يتساءل عن كيفية معرفته على وجه اليقين أن الوصف الذى أعطاه عبد القادر هو ما أدى إلى اكتشافه. إلا أنه لا يشير إلى كيفية معرفته أن حاجم قد «منع تسرب أنباء» الحادث. علاوة على هذا، فإن هذه القصة تختلف عن روايته لها فى «أعمدة الحكمة» حيث لم يذكر أنه قد تم التعرف بوضوح على لورانس؛ رغم غموض ما يوحى به قول البك «يجب أن تفهم أننى أعلم». وينتهى لورانس إلى أنه كان «من الواضح أنها رمية دون قصد». وهكذا يفصل أى رابطة بهذا القول مع أى وصف قد يكون عبد القادر

قد أمده به أو لا يكون. ويتأكد هذا من قول لورانس إن رفيقه حليم الذى دخل درعا تلك الليلة بحثاً عنه عرف أن شخصية لورانس لم تكتشف نتيجة لغياب الشائعات. وليس لدينا سوى ما قاله لورانس إن عبد القادر هو من «وشي به» للأتراك. كما أن قصة الخيانة ظهرت متأخرة جداً عن وقوع الحادث. فقد كتب لورانس إلى جويس في ١٣ نوفمبر أن الجزائرى قد هرب «بدافع من الخوف»، ولم يذهب إلى الأتراك، بل إنه مازال يقيم في صلخد بين الدروز وهم مجموعة صديقة. فإن كان الأمر كذلك، فمن غير المحتمل أن يكون عبد القادر هو من أفسد غارة اليرموك التى كانت قد حدثت بالفعل، كما لا يوجد أى دليل قائم بذاته على أنه حدث وأن انضم عبد القادر لصفوف الأتراك أبداً. فقد كان بالتأكيد ضد الفرنسيين والمسيحيين (الغربيين)، إلا أنه كان قومياً عربياً متعصباً؛ وقد يكون الأتراك قد حاولوا اجتذابه إلى صفوفهم، إلا أن تأكيد لورانس بشأن انضمامه إليهم فعلاً أمر غير يقينى. وقد أعلن عبد القادر وشقيقه محمد سعيد، فى نهاية العمليات، قيام حكومة باسم الهاشميين وحينما اعترض لورانس حاولا قتله فى مبنى بلدية دمشق. وأمر لورانس بالقبض عليهما وكان يعتزم إعدامهما رمياً بالرصاص، إلا أن فيصل أصدر عفواً عنهما عقب وصوله. أما عبد القادر، فقد قتله حراس فيصل فى نوفمبر عام ١٩١٧، واستمر شقيقه محمد سعيد، الذى كان يدعو لوحدة العالم الإسلامى، يسبب المشاكل للهاشميين. وكان الخطاب الذى أرسله لورانس إلى ستيرلنج قد أرسل فى محاولة لتقديم دليل يبرر إلقاء القبض على سعيد. وكتب لورانس «إننى شديد الندم على منح محمد سعيد كل هذا القدر من حرية التصرف. فقد طلب فيصل اعتقاله مراراً. إنه هو الداعى الحق الوحيد إلى الوحدة الإسلامية فى دمشق. ونظراً لجنونه، فإن باستطاعته ارتكاب أية جريمة ضدنا». ومن ثم، يمكن القول إن كشف لورانس الأول لقصة تعذيبه فى درعا كان ذا هدف سياسى واضح.

على كل حال سافرت إلى درعا من عمان فى سيارة عادية مع اثنين من السوريين وصديقى ستيفن هوايت. واكتشفنا أن محطة درعا مازالت قائمة، وهى مبنى كبير ناتئ من الصوان مثل جبل الثلج من طابقين وسط سوق يعج بالجماهير المتزاحمة. وكان كل فناء السكة الحديدية فى الواقع من بقايا الحرب العالمية الأولى. كانت

ثمة قاطرة يعلوها الصدأ واقفة، وهي تتحلل بشكل كاد أن يُرى، على قضيب إلى جانب سقيفة المعدات. وتسقلت داخل القاطرة لأجد لوحة محفوراً عليها : A. Bor-sig. Berlin - Tegel 1914. ومن الواضح أنها كانت إحدى القاطرات التي تم شحنها بحراً من أوربا عند بداية الحرب. كانت هناك قاطرات أخرى من نماذج مختلفة على نفس درجة التردى، وجدران أقيمت وملئت ببقايا مماثلة؛ عربات مقفولة، وخزانات مياه، وعربات حراسة، حتى عربات مسافرين جميلة التأسيس أصبحت تستعمل كمراحيض. وقدمنا أنفسنا لمدير المحطة الذى كان منهمكاً فى لعب الورق مع مجموعة من العاملين. قال إنه يعلم عن «لورانس العرب» إلا أنه ليست لدية أية فكرة عن المكان الذى تم تعذيبه فيه أو حتى عما إذا كانت القصة حقيقية. وقال إن الخط الحديدى مازال يعمل فقد كان هناك قطاران يعملان أسبوعياً ما بين عمان ودمشق.

كان بحوزتنا «أعمدة الحكمة»، وحاولنا أن نعيد تشكيل تحركات لورانس فى درعا يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٧ أى قبل ثمانين عاماً. كان مبنى الحكومة عام ١٩١٧ مقاماً جنوب خط السكك الحديدية فى مدينة درعا حيث ألقى القبض على لورانس. وللوهلة الأولى يبدو منطقياً أن محنته حدثت هنا. فرغم أنه لا يقول هذا تحديداً، فقد نقل لورانس بعد ضربه إلى كوخ منحدر السطح خلف مبنى الحكم كى تغسل جراحه وتضمد. كما يذكر أنه اصُطحب عبر شريط السكة الحديدية كى يصل إلى منزل البك الذى لابد وأن يعنى أنه يقع على الجانب الشمالى من خط السكك الحديدية ومن ثم لا يمكن أن يكون مبنى الحكم الرسمى. وعبرنا الخط بجوار سقيفة القاطرات التى كان من الواضح نقطة عبور للمحليين. وقمنا بإحصاء ستة قضبان كما وصفها لورانس تحديداً. ثم استدرنا شمالاً من فتحة مريحة فى الجدار إلى شارع به نخيل بدا منهكاً، ثم يميناً إلى ميدان حيث كان ثمة مبنى مكون من طابقين، وبدا أن المبنى، الذى كان كبيراً ومنعزلاً، ينتمى إلى تلك الفترة. ولاحظت أن بعضاً من مساحة الدور السفلى تحتلها منازل ومحلات لها أبوابها الخاصة. ويتسق هذا مع وصف لورانس فى طبعة أكسفورد حيث يذكر أن منزل البك كان يتكون من طابقين مع وجود محل أسفله. فهل اكتشفنا المكان الذى مر

به لورانس بأكثر خبرات حياته أثراً ساحقاً؟ وحتى مع مرور ثمانين عاماً، فقد بدت التفاصيل دقيقة بشكل ملفت. إلا أنه من الممكن أن يكون لورانس قد ألم بشكل المدينة الجغرافى فى سبتمبر عام ١٩١٨، لا فى نوفمبر ١٩١٧، إذ إنه مكث هناك بعد سقوطها فى أيدى القوات البريطانية والعربية. بيد أن فحص الوصف الذى أعطانا إياه للمكان يثير بعض التساؤلات المحرجة.

أولا: يكتب لورانس فى رواية عام ١٩٣٥ أنه دخل المدينة مع رجل يدعى «فارس كان قد تم اختياره تحديداً للتعرف على منطقة حوران. بيد أنه يذكر فى طبعة أكسفورد أن اسم رفيقه كان مجبل - وهو من بياشر Biashr كان قد استأجره منذ أشهر سابقة. فلماذا إذن وجد من الضرورى تغيير اسم الرجل وإخفاء هذه الحقيقة؟ ولماذا غير اسم البك من حاجم إلى ناهى؟ ويذكر لنا لورانس أسباباً منوعة لتغييره الأسماء فى «أعمدة الحكمة»، إلا أن أكثرها إقناعاً هو السبب الذى ذكره لهيوبرت يونج لتغييره اسمه عند نقطة معينة فى النص إلى «سابين». وحينما أبدى يونج معارضته قائلاً: «قد يقال إنك وضعتنى تحت اسم مستعار لعلمك أنك تكذب بشأنى» أجابه لورانس «لكن هذا بالضبط هو ما جعلنى أستخدم اسماً مزيفاً». وثانيا: إن كثيراً من تفاصيل الجلد لا يمكن تصديقها. فلا يمكن أن نصدق أن يكون للكرباج طرفاً أشد دقة من القلم الرصاص. وإن كان لم يتم التعرف على لورانس فكيف تأتى للجندى أن يعرف أن البك يريده؟ وماذا كانت فحوى «التقرير الطويل» الذى أبلغه الجندى لرئيسه باللغة التركية عن رجل التقطه من الشارع ولم يكن يعرف اسمه أو شيئاً عنه؟ وقد يكون أيضاً من المحتمل أن يُظن أن لورانس وهو يرتدى الزى المحلى كان يبدو شركسياً خاصة إذا شوهد عن بعد؟ لكن ما احتمال الاعتقاد بأنه شركسى بعد تجريده من ملابسه؟

قد تكون اعتراضاتى اعتراضات متحذلقة لاتقدم البرهان على أن لورانس قد اخترع حادث درعا، مع أنها توحى فى مجموعها بوجود تيار معين من عدم الصدق على الأقل، فى قصته.

وفى قسم المخطوطات فى المتحف البريطانى أوليت اهتمامى لمذكرات الجيب التى ألقت بعض الضوء على رحلة سيناء آملاً أن تحل هذه جزءاً من لغز درعا. وأثناء

بحثى عن مدخل يوم ٢٠ نوفمبر أدهشنى أن اكتشفت أن الصفحة قد نزعت. وكان هذا لافتاً للنظر لأنها كانت الصفحة الوحيدة غير الموجودة في كل من مجموعتى مذكرات عام ١٩١٧ و١٩١٨ . وفى أسفل الصفحة السابقة ليوم ١٤ نوفمبر كان مدخل لورانس كالآتى: «قصر الأزرق»، ثم أضاف بقلم رصاص مختلف «إلى حوران». ويوحى هذا أنه كان فى الأزرق ليلة الرابع عشر ثم رحل إلى حوران - ومن المستحيل معرفة متى حدث هذا بسبب الصفحة المفقودة - ثم لاحظت أن الصفحات قد رقمت بخط لورانس، إلا أن هذا قد تم بعد نزع الصفحة لأن الأرقام كانت متتابعة. ويوحى هذا بشدة، إضافة إلى «حوران» التى كتبت فى آخر الصفحة السابقة، أن لورانس نفسه هو الذى انتزع الصفحة. فما دافعه الممكن لنزع هذه الصفحة من المذكرات بهذا الأسلوب؟ وخطرت لى فورا إجابتان:

الأولى أن لورانس شعر بالاشمئزاز والخزى مما حدث فى درعا لدرجة لم يحتمل معها قراءة افتتاحيات مذكراته. والثانية، هى أنه قد تعمد مداراة شيء ما. وفى الحالة الأولى - هكذا فكرت - إذا كان لورانس قد شعر بالاشمئزاز والخزى من المعاملة التى لقيها على أيدى الأتراك، فلم يكن بحاجة لأن يذكرها فى مداخل مذكراته على الإطلاق. وبما أنه كان معتاداً على أن يدخل اسم المكان الذى قضى فيه ليلته، فمن المنطقى إذاً أن الصفحة المفقودة كانت تحوى أسماء الأماكن التى زارها مع طلال، والأمر هكذا، فكان من المتوقع أن يكتب ببساطة «درعا»: ليلة ٢٠ نوفمبر، ولم يكن يوجد فى هذه الحالة ما يثير اشمئزازه فيما بعد. وساءلت نفسى أيضاً، لماذا ألقى لورانس الضوء على ماحدث إن كان قد رغب حتماً فى نسيان الحادث؟ فلو أنه صمت بشأنه لم يكن لأحد أن يعرف أبداً. والنهاية الأكثر منطقية هى أنه لم يكن فى الأماكن التى ادعى وجوده فيها فيما بين ١٤ و٢٢ نوفمبر، وأنه قد نزع الصفحة ليخفى الحقيقة. وكان من المفترض أن بالصفحة المفقودة مداخل لستة أيام، إذ إن اليوم التالى هو ٢٢ نوفمبر حين عاد لورانس إلى الأزرق مرة أخرى. والسؤال الآن: هل غادر الأزرق أصلاً؟

وكانت الرحلة إلى درعا ذهاباً وإياباً ستستغرق خمسة أيام على الأقل، أو خمسة أيام ونصف، مع الأخذ فى الاعتبار وقتاً للضيافة لدى عائلة طلال، ويوماً

كاملا فى درعا . وكان هذا يعنى أن لورانس لابد وأنه غادر الأزرق يوم ١٧ نوفمبر على أقل تقدير . وبما أنه عاد فعلاً إلى الأزرق من مهمة اليرموك / منيفر يوم ١٢ نوفمبر ، فإن هذا يعنى أن إقامته استمرت خمس ليال . إلا أنه بالرجوع إلى وصفه لوقته فى الأزرق فى «أعمدة الحكمة» وجدت إشارات قوية إلى وجوده هناك مدة أطول . فقد «رتب إقامته» فى برج البوابة الجنوبى ، كما كتب ، ومكث كى يستريح «لأيام قلائل» لحين يبدأ الزوار فى التوافد . وحينما مرت هذه «الأيام القلائل» بدأ الزوار يتوافدون «طوال اليوم وكل يوم» : و«جلسنا نستمتع ببقايا الخريف . . فى أيامه المشمسة والممطرة التى يستدير العالم فيها كلية للأمطار» . وكان الزوار يتحولون «ببطء شديد» لتأييد قضية الهاشميين . «وكنا فى هذه الليالى البطيئة فى مأمن من العالم» . وتوضح هذه الإشارات ، إذ تأملناها معاً ، أن لورانس أمضى فى الأزرق أسبوعا على الأقل ـ وقد يكون قد أمضى وقتاً أطول . كما أنه جاء فى خطاب له أرسله إلى والديه يوم ١٤ ديسمبر مايلى : «كتبت إليكما آخر مرة من [الأزرق] فى حوالى الوقت الذى قمنا فيه بتفجير قطار جمال باشا (أى فى الرابع عشر من نوفمبر) ، وتركناه يتسلل هرباً منا . ثم مكثت بعد هذا حوالى عشرة أيام ، بعدها ذهبت إلى العقبة فى ثلاثة أيام ؛ سرعة جيدة . أخبرا آرنى أنه لا يوجد بين خيوله العجوزة حصان يمكنه السير بسرعة جملى العجوز» . فإذا كان بالفعل قد ظل فى العقبة من الثانى عشر حتى الثانى والعشرين من نوفمبر ، فإن مجموع الأيام تصبح أحد عشر يوماً بالتمام والكمال . واعتقدت أن استطلاع لورانس لحوران لابد وأنه كان ذا أهمية كبرى إذ إن حوران كانت ستكون مسرح المعركة الأخيرة . فمن المستغرب إذاً ألا يعرف أحد من رؤسائه شيئاً عن هذا . وعلاوة على هذا ، يورد تقريراً جغرافياً كتبه لورانس نفسه فى ١٥ ديسمبر ليخدم عمليات السيارات المصفحة فى المستقبل ، جميع المواقع التى شاهدها أثناء عملية اليرموك / منيفر ، لكنه لا يورد أياً من تلك الأماكن التى يفترض أنه زارها مع طلال باستثناء إشارة مقتضبة إلى وادى ميدان والتى قد يكون حصل عليها عن طريق أى شخص . بيد أن الفصل الأخير من الدراما ، أى مسيرته على الناقة لمسافة ٣٠٠ متراً إلى العقبة ، هو الذى يلقى بأعتم ظلال الشك على حادثة درعا . فطبقاً لشهادته ، يكون لورانس قد وصل إلى الأزرق يوم ١٢ نوفمبر مصاباً بجروح من أثر خمس طلقات وإصبع قدم

مكسورة، وجلد بقسوة فى درعا بعد هذا بأسبوع واحد. وتحوى سجلات المنشآت العقابية تقارير عديدة عن رجال تهاووا بسكتات قلبية بعد الجلدة الثلاثين أو الأربعين. ولابد وأن لورانس، الذى فقد القدرة على العد بعد الجلدة العشرين، قد تلقى مثل هذا العدد من الجلدات. كما أنه قد ضرب على وجهه «بالشبشب»، وقام البك بعضه، ونخس جسده بحربة، ورُفِس رفسة أصابت ضلعه، واغتصب مرارا، وتلقى جلدات شريرة على حنية فخذه الأعلى مما كان كفيلاً، بلا شك، أن يتسبب فى تضخم خصيته بدرجة لا تمكنه من امتطاء الناقة. فكيف يتأتى لرجل ضرب بهذه القسوة أن ينجز خلال ثلاثة أيام أبرز رحلات حياته على ظهر الجمل ليقطع ستة وثمانين ميلاً فى اليوم؟ من الواضح أن هذا ليس ممكناً. فإما أن لورانس قد بالغ بشأن رحلته على الجمل، أو أنه بالغ بخصوص المعاملة التى لقيها على أيدى الأتراك، أو أن حادثة درعا لم تحدث على الإطلاق.

وقد أخبر الكابتن ل. هـ. جيلمان، الذى اشترك فى مهمة «القنفذة» جون ماك، مؤرخ لورانس، أن لورانس لم يذكر له أو لأى ضابط آخر عمل فى بلاد العرب كلمة واحدة عن الحادث؛ إلا أنه لايساوره الشك حول وقوع الحادث وفى هذا قال: «لقد كان لورانس على قدر من الشهامة والشرف يمنعه من اختراع مثل هذه التجربة، فلا يوجد ما يبررها سوى أنها حدثت بالفعل». وردد جيرمى ويلسون، مؤرخ لورانس الرسمى كلمات جيلمان وذكر «إن من يشككون فى وقوع الحادث فى هذا الوقت يتهمون لورانس بكذبة مبالغ فيها وغير ذات جدوى» بيد أنه من سوء الحظ، فإن الواقع الموثق يؤكد أن لورانس كان يبالغ، وأحياناً يروى أكاذيب لا جدوى منها. فقد ذكر قبل الحرب «أجراس الجمال» بدلاً من «أجراس البغال» دون أن يكون لهذا جدوى (ولا يعقل احتمال نسيان الأمر أو اختلاطه عند شخص له ذاكرة لورانس الفوتوغرافية). كما كان ادعاؤه عبور سيناء فى تسع وأربعين ساعة كذباً بالتأكيد. أما جدوى هذا من عدمه فأمر خاضع لنقاش. وتوضح قصة سيرويها فيما بعد لجون بروس يبين فيها حاجته لأن يجلد، (وهى قصة ظل يرددها ثلاثة عشر عاماً) قدرته على اختراع بنية معقدة والإبقاء عليها. ولم يفكر كل من ويلسون وماك فى مناقشة كذب لورانس على بروس، إلا أنه من المفارقات أن يقرر كلاهما أنهما لم يجدا شاهداً على كذب لورانس؛ وكأن الكذب على شخص من

الطبقة العاملة على قدر قليل من التعليم لا يحتسب كذباً. وبالتأكيد، فإنه كثيراً ما كان شهماً وشريفاً، فقد حاول طوال حياته أن يحيا وفقاً للصورة التي كونتها والدته سارا عنه كفارس «أبيض نقي» إلا أن بعض الأحاسيس أقوى من الرغبات الصادقة. وقد رأى برنارد شو فيه «ممثلاً» وذكر أنه «لا يحرص على الحقيقة بدرجة رهيبة». على حين قال رونالد ستورز الذي عرفه معرفة حميمة إن نقائصه كانت معروفة لزملائه (ولنا أن نفترض أنها لم تكن معروفة لجيلمان!!) إلا أنه كان يُتغاضى عنها لأن ألمعيته كانت توازنها. ويبدو لي هذا أمراً عادياً جداً. ففي نهاية الأمر، لا يوجد منا من هو «فارس أبيض نقي»، ولا من هو شريف وصادق كلية. فلأن نتوقع هذا من لورانس فإننا نصنع منه «الرجل الخارق»، وهي فكرة كان هو سيسخر منها. فحتى أخيل كان معرضا للإصابة من كعبه: فلماذا نتوقع أن يكون لورانس أفضل من أخيل؟ وقد يكون دافعه القسري للمبالغة هو الجانب الظلي للرجل «الشريف» في نواحي أخرى. فقد اعترف ليدل هارت، الذي اعتبره عبقرية عسكرية، أنه كان ساذجاً حينما بالغ في تصديقه شهادات لورانس. وقد انتقد لورانس هارت بالفعل لأنه كان يتقبل كل ما كان يقوله دون مساءلة، مثلما سخر من الآخرين الذين امتدحوا صفاته الحسنة دون أن «يضيفوا إلى مديحهم قليلاً من الملح». وإضافة إلى هذا، يؤكد اعترافه نزوعه إلى المبالغة. فقد اعترف في مقدمة «أعمدة الحكمة» أنه كثيراً ما أخفى الحقائق في تقاريره الرسمية، كما أنه اعترف في مناسبات أخرى أنه ذو موهبة في الخداع. فالذين ينكرون أنه قد كذب يناقضون كلماته هو نفسه ويدعّون له شخصية قد دحضها هو؛ فقد كان ضابط مخابرات موهوباً، أي عضواً في مهنة تتعامل بطبيعتها في الكذب والدعاية وأنصاف الحقائق. وقد عبر الكثيرون عن عدم تصديقهم أن تكون «مبالغات» لورانس قد خدعت زملاءه وكان من بينهم أناس على أعلى مستوى عقلي؛ رغم أن لورانس نفسه، وهو موظف مستحدث في قسم الخرائط، قد تفاخر بغبطة أن مثل هؤلاء الرجال تخدعهم بسهولة المعرفة النخبوية القصرية التي كان يستعرضها بثقة. والعظماء والأقوياء، مثلهم مثل الآخرين، يصدقون ما يريدون تصديقه، ولم يحدث أيضا أن كانوا أنفسهم نماذج للصدق دائماً؛ فمثلاً، اكتُشف أن ريتشارد ماينرتزهاجن قد زور عمداً مداخل مذكراته الشخصية. وكان ريتشارد ضابطاً

كبيراً محترماً فى الإدارة المركزية للمخابرات، ونسب إليه أنه اخترع الحيلة التى أدت إلى أن يعتقد الأتراك أن أللنبى كان متجهاً إلى غزة بدلا من بئر سبع، فكذبه الذكى على الأتراك أمر مقبول، أما أن يكذب على قومه فأمر غير مسموح به. ومن الواضح أن لورانس كان على ثقة تامة من أنه سيصدّق لدرجة أنه كان مستعدا «للمبالغة» حتى فى حالة وجود شهود على العكس. وحينما طلب منه هيوبرت يونج تغيير ما كتبه عنه على أساس أن القصة الحقيقية قد تُعرف يوما ما، أجابه لورانس ببساطة «لا، لن تظهر».

فإذا كان حادث درعا قد اختُرع، على ذلك النحو فإن «الهدف» من اختراعه لا يعزى إلى العقل الواعى بل إلى اللاوعى. فقد كان لورانس مازوكيا ذا طبيعة مثلية، وكان قد حلم منذ طفولته أن يسيطرْ عليه رجال آخرون، خاصة من بين العسكريين. وكما كتب مراراً، فقد كان انحطاط تلك الحياة يلقى منه قبولا. وأنه كان يصبح «حيواناً» فى صفوف الجيش؛ يطعم ويسقى ويكون تحت الطلب دائما ليستعمله الآخرون. وقد يكون من الأهمية بمكان، أن كانت عناوين صفحات لورانس لحادث درعا فى طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» محاكاة ساخرة لتدريبات الجند فى الجيش. فعنوان الصفحة التى يصف فيها إلقاء الأتراك القبض عليه مثلاً هو «مجند تركى». كما أن للصفحات التالية التى تصف محنته عناوين مثل «تدريبات مجند» و«دروس أخرى» وأخيراً «الإغماء». وحاول لورانس وهو فى سن السابعة عشرة تحقيق هذه الفانتازيا بأن التحق بحامية المدفعية الملكية، وفى عام ١٩١٢ اتسعت الفانتازيا فى قصة إلقاء القبض عليه فى خلفاتى على أنه هارب من الخدمة واحتمال ضربه من قِبل الأتراك. ومن الأهمية أيضا أن لورانس يذكر حادث خلفاتى ويربطه بتعذيبه واغتصابه المزعوم فى درعا، لأن مفتاح درعا قد يكون هناك وقد تكون درعا تضخيما لما حدث فى خلفاتى حيث عاشه لورانس وضخمه فى خياله على مر السنين. كما أن لموضعة حادث درعا بعد فشله فى اليرموك مباشرة أهمية أيضا. فقد كان لورانس يرتعد من الفشل طوال حياته، وكان يشعر بالخزى من خذلانه أللنبى الذى كان ينظر إليه كأب. ومن اللافت للاهتمام أيضاً أنه حين يصف لقاءه مع أللنبى بعد هذا بأسابيع قليلة يستدعى فانتازيا وقوفه أمام «البك» فيكتب قائلا: «لقد كان من المستغرب أن أقف أمام

البرج مع (أللنبي) أستمع إلى إعلانه وأنا أفكر كيف وقفت قبل هذا بأيام قليلة أمام البك أستمع إلى كلماته. من النادر أن ندفع ثمن مخاوفنا بهذه الحدة وهذه السرعة. فلو أنني لم أنكمش ذعرا في أكتوبر، من الثورة العامة، لكنا قد وصلنا الآن، ليس فقط إلى القدس، بل إلى حيفا وحلب.. إلا أنني بفشلي قد قيدت الإنجليز الذين لا يعلمون، وسببت الخزى للعرب دون أن يعلموا». إن الخزى الذى ألحقه بنفسه باختراعه المأزق المأساوى في درعا، قد يكون تكفيراً عن الفشل الذى جره على نفسه ـ ليس فقط في تفجير الكوبرى بل أيضاً فشله في إشعال ثورة في سوريا كما وعد أللنبى في البداية. ويمكننا تتبع نفس النموذج في حادثتين، على الأقل، من أحداث حياته؛ هجمة البدوى عليه خلال سيره في سوريا عام ١٩٠٩، وإطلاقه النار على حامد المراكشي. وقد سارت الحادثتان وفق تتابعية في الفشل الخاص ثم التكفير العام بواسطة عنف ظاهر. ولهذا النموذج أصله في طفولة لورانس المبكرة، حين كان يعتقد أن الضرب الذى يتلقاه من والدته تكفيراً عن أفكاره «غير اللائقة». وقد لا تكون مصادفة أن يستعمل نفس التعبيرات بالتحديد لدى إعلانه عن حادث درعا مثل «دائرة اتساقي مع نفسي»... هذه الكلمات استعملها أثناء حديثه عن تهديد والدته النفسي.

لم يقصد لورانس أبداً أن يكون كتابه «أعمدة الحكمة» وثيقة تاريخية خالصة؛ فقد أبلغ، فيما بعد، تشارلوت شو أنه كان «استعراضاً عن نفسي حتى فبراير عام١٩٢٥.. فسيعرفني من يقرؤه أكثر مما أعرف نفسي». ووصف نفسه الحقيقية بأنها «حيوان» وأن الكتاب ما هو إلا نفسه (مغلفة) في جلد أجرب مجفف تم حشوه وأصبح واضحاً أمام الناس كي يحملقوا فيه، أى أن الكتاب، بمعنى آخر، هو اعتراف علني بكل ما كبته، وبهواجسه المسيطرة، ورغباته التي لم يتمكن من التعبير عنها لأى أحد من قبل. ويوضح وصف واقعة ضربه في درعا انبهار غير طبيعي بالمعاناة الجسدية؟: فسرد ه المفصل للون جروحه وقوامها ووصفه الدقيق المحدد لآلة تعذيبه «الكرباج الشركسي» هو أحلام يقظة نمطية مازوكية كما كتب عنها لين كوان «تصبح الآلة، في الفانتازيا المازوكية، محملة بتفاصيل مميزة تحمل معها مشاعر الانجذاب التي تتصف (بالروحانية، والرهبة المقدسة، والجمال والقبح والخوف) التي تخلق وتحتفظ بالإحساس المناسب فقط...» «فحتى في فانتازيا

الضرب الأكثر شيوعاً فإننا نستمع إلى ترنيمة «الشمراخ المقدس» وهو يهوى ويمزق ظهر المتوسل».. فمما لا شك فيه أن لورانس كان يسعى للإذلال العلنى إذ إنه كتب فيما بعد «... أريد أن ألوث نفسى من الخارج حتى يعكس مظهرى القذارة التى يخفيها.» وفى مقاطع أخرى من الكتاب، تظهر حاجته لعرض معاناته، خاصة حينما يبالغ فى عدد الإصابات والجروح نتيجة الطلقات. فقد ادعى أن بجسده أكثر من ستين ندبة من إصابات لحقت به وهو يعمل. إلا أن جيه. ت. لوكمان قد برهن نهائياً على عدم وجود سوى ندبات قليلة على بدنه بعد الحرب؛ وكما يبين لوكمان، فالإصابة بستين جرحاً فى عالم ليس به مضادات حيوية يتطلب أن يكون الفرد ذا قوى خارقة وعلى قدر من الحظ لا يصدق. كما أوضح لوكمان أن شهادة ريتشارد ماينرتزهاجن، الذى ادعى أنه رأى الندبات على ظهر لورانس أثناء استحمامه عام ١٩١٩، كانت ملفقة. ولم يقل لورانس، على أية حال إنه ضرب على ظهره. وفى حالة تصديقنا لوصفه للجروح التى أصابته نتبين أنه جُلد فقط على الردفين، ومن المحال أن يرى إنسان ظهره سوى بمساعدة مرآة. وقد أوضح لوكمان أنه رغم إصابة لورانس بندبات فى مقدمة ومؤخرة جسده، فيحتمل أن تلك لندبات حدثت فى فترة ما بعد الحرب وأنها كانت من فعله هو. ولن نعرف أبداً إن كان الأتراك قد ألقوا القبض على لورانس وعذبوه، إلا أن وزن الشواهد ـ الصفحة المنزوعة، قطع تتابعية التأريخ، الفترة الطويلة التى يبدو أنه قضاها فى الأزرق، غياب الندوب المتعلقة بالحادث ـ توحى لى، على الأقل، أن حادث درعا كان حقيقياً فقط بمعنى أنه كشف طواعية عن لورانس غير المرئى الذى يتخفى فى الظلال. وكان الحادث، كذروة عاطفية «لأعمدة الحكمة» التعبير النهائى لاستعراضيته المقلوبة ـ فقد أخبر تشارلوت شو وهو يشعر بالخجل «لا يجوز أن أخبرك؛ فإن الرجال المهذبين لا يتحدثون عن مثل هذه المواضيع. وقد أردت أن أتحدث عنها فى كتابى. وقضيت أياماً فى صراع مع احترامى لذاتى». ربما كان ما كتبه هو إعلانه النهائى للعالم عن قناعته ـ التى لازمته منذ الطفولة ـ أنه كان «نجساً ومنبوذاً» وأخيراً، وبعد سنوات من العزلة والتعالى، وجد تى. إى. لورانس فرصة ليقول للأجيال التالية «هذا هو توماس لورانس.. هذا هو أنا».

وكتب لورانس أنه شغل نفسه، لدى عودته إلى العقبة، باستئجار حراس

شخصيين، موحياً أن هذا كان النتيجة المباشرة لتعذيبه في درعا. فقد كان هناك ثمن لرأسه وكان يحتاج «أفراد أشداء لامتطاء الدواب، وتحمل العيش» ليقسموا على الولاء له شخصياً. وكتب قائلاً: إنه كوّن جيشا خاصا كبيرا من تسعين من المرتزقة والقتلة والخارجين على القانون وأفراد العصابات من ثلاثين عشيرة مختلفة في سوريا وشمال الجزيرة، وكان لكثير منهم عداوات ثأرية مع بعضهم البعض، وأنه لولا قبضة لورانس القوية لوقعت حوادث قتل بينهم كل يوم. ولأن خروجاته على الإبل كانت ضارية وأليمة، فقد انتقى كل رجاله من راكبى الإبل، وكان كل منهم يمتطى ناقته الخاصة المنتقاة. وكانوا يركبون طوال النهار والليل طبقا لنزوات لورانس، ويقاتلون كالشياطين، وكان يدفع لكل منهم ستة جنيهات فى الشهر، أى الأجر المتعارف عليه للرجل والناقة. إلا أنهم كانوا يكسبون أكثر من الجمّالين الآخرين لأنهم لم يحضروا نياقهم التى لم تكن لتحتمل رحلات لورانس الشاقة. وكان لورانس يمدهم بالإبل من مجموعته الخاصة المنتقاة؛ وكانت فرقة حراسته تتكلف ثلاثة أضعاف أية فرقة أخرى فى الجيش، إلا أنها كانت تؤدى ثلاثة أضعاف مهام الوحدات الأخرى. وكان هؤلاء الصبية يرتدون الملابس ذات الألوان الفاقعة عن قصد كى تناقض اللون الأبيض الصافى الذى كان يرتديه لورانس، وكانت تربطهم، كمجموعة، رابطة شرف، كونتها المتاعب والمعاناة المشتركة التى تحملوها نتيجة ولائهم له. وقال إنهم كانوا يجدون متعة فى الخضوع، ويستمتعون بإذلال أجسادهم ليأكدوا على حرية أرواحهم - وهذه عاطفة تستدعى معها، بشكل يثير الشكوك، رغبة لورانس المازوكية فى إهانة نفسه. وقد لقى ثلثى هذا العدد حتفهم فى خدمته بشهامة. وكان من رجاله خمسون من العقيليين.

ولا توجد صورة أكثر جاذبية فى «أعمدة الحكمة» من صورة لورانس وهو فى ثيابه الشريفية البيضاء على رأس أتباعه التسعين من القتلة، والذين أقسموا جميعا أن يخدموه حتى الموت، وقد فعل الكثير منهم هذا. وقد استشهد مؤرخ لورانس الرسمى باستئجاره لحرسه على أنه الدعم المتفرد الأعظم الذى يؤيد حادثة درعا فقال: «أما فيما يتعلق بتوقيت الحادث، فمن الجدير بالذكر، أنه بمجرد عودته إلى العقبة قام باستئجار حرس شخصى». ومرة أخرى، يبرز الشاهد، الذى هو من سجلات لورانس، هذه. فإنه فى الواقع قد استأجر حرسا شخصيا فى وقت مبكر

يعود إلى مايو عام ١٩١٧ ، إذ إنه كان قد أخبر «فرج وداعود» أنه لا يحتاج إلى خدم ، بل إلى محاربين . وفى أكتوبر ، قبل هجمة اليرموك ، قال إنه قد قرر أن يمنح بعضاً من «حرسه القديم» راحة ، وقام باستئجار ستة أشخاص جدد . وكتب فى طبعة أكسفورد «كان الاختيار الحذر لحرسى الخاص من بين استعداداتى» . أما حراسه الجدد فكانوا ؛ محمود ومصطفى وعزيز وشواق ، وسالم وعبد الرحمن . وقام بفصل اثنين من الحرس القديم هما محمد وعلى ، اللذان كانا بصحبته منذ الوجه ، إلا أنه أبقى على الآخرين بمن فيهم فرج وداعود (أى على وعثمان) وأحمد وكريم ورحيل ومطر خضر ومجبل ، وعددهم جميعاً أربعة عشر . ثم انتقى عواد وضاهر ليصبح المجموع ستة عشر . والآن ، فقد حدث أن عدّد لورانس أسماء حرسه فى مفكرته كى يتابع أجورهم ابتداء من مارس عام ١٩١٨ . ورغم أن الأسماء والأرقام تختلف اختلافا طفيفاً من مارس إلى سبتمبر ، فلا يوجد أبدا أكثر من سبعة عشر اسماً على القائمة دفعة واحدة ، ويصل المتوسط طوال المدة إلى أربعة عشر ـ تماما نفس العدد الذى سجله على أنه يشكل حرسه فى أكتوبر عام ١٩١٧ قبل حادث درعا المزعوم . ويحتمل أنه قام بتغيير العاملين ، لا العدد ، إلا أن كثيرا من الأسماء تتكرر مرة بعد مرة ، ويمكن تتبع عدد منهم إلى حرسه الممكن مثل أحمد ، ورحيل ، ومصطفى ، ومحمود ، وعبد الرحمن ، وخضر ، ومجبل ، وسالم ، وعواد ، وضاهر ، ومطر . وتظهر جميع هذه الأسماء فى قوائم مارس وسبتمبر . واختفى على وعثمان من القوائم ، وهما النموذجان المفترضان لفرج وداعود واللذان لم يكونا فى خدمة لورانس عام ١٩١٨ على الإطلاق . ومن الصحيح أيضاً أن بعض هذه الأسماء شائعة بين العرب ، لكن حتى إن اختلف الأشخاص ، فهذا لا يغير حقيقة أن قوة حرس لورانس الشخصى ظلت دون تغيير جوهرى فيما بين أكتوبر ١٩١٧ وسبتمبر ١٩١٨ ، أى قبل وبعد تعذيبه المفترض فى درعا . ويبين هذا ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنهم لم يؤجروا كنتيجة مباشرة لأى حادث فى نوفمبر ١٩١٧ . وبالتأكيد ، فإنهم لم يؤجروا لأول مرة فى يناير عام ١٩١٧ . ولم يضم الحرس أبدا تسعين رجلاً ، حتى فى حالة احتساب كل الأسماء ، لكن كان متوسط العدد حوالى ١٤ شخصاً بشكل ثابت . وعلى سبيل المصادفة ، تُبين صورة فوتوغرافية ، التقطت للورانس وحرسه فى صيف عام ١٩١٨ . خمسة عشر رجلاً فقط . وقد ذكر

هيوبرت يونج، الضابط الذى كان يتحدث العربية والذى عمل مع لورانس عام ١٩١٨، أن حرسه كان يتكون من حوالى ٢٠ شخصاً. على أن أصل هؤلاء الأفراد، لا يدل على أنهم كانوا حشداً من قطاع الطرق من جميع قبائل سوريا وبلاد العرب. فقد كان محمود «صبياً فظاً من فلاحى اليرموك»، وكان مطر «صبياً طفيلياً» من بنى حسن، وكان مجبل «فلاحاً لا أهمية له، شيخاً فى مثل عمر والد لورانس، وسالم راعى إبل من قبيلة الشرارات المحتقرة، وكان عبد الرحمن عبداً تم إعتاقه، وعزير «فلاحاً له فم مثل الأرنب» من طفس، ومصطفى صبياً أصم، وزيد، شخصاً غير كفء وفصله لورانس لأنه عجز عن تسريح الجمل بطريقة صحيحة، وكان رحيل فلاحاً من حوران انفجر باكياً حينما اشتدت وطأة الأمور. ويمكن أن تنطبق تلك الأوصاف التى وصف بها رجاله على قائد حرسه فقط عبد الله النهابى أو (عبد الله الحرامى) الذى كان خارجاً على القانون. ولم يكن منهم من ينتمى إلى قبائل العرب الرئيسية (وقد أخبر لورانس الشعلانيين أنه كان من التواضع بحيث لا يمكن أن يقتنى حرساً من الروالة)، كما كان معه قليل من العقيليين. أما معظمهم فكانوا فلاحين سوريين لم يكن بوسعهم الحصول على عمل آخر نظراً لكبر سنهم أو ضعفهم أو عدم كفاءتهم. وليس من بينهم اسم يظهر فى مارس ١٩١٨ ولا يظهر فى قائمة سبتمبر. ويحتمل أن يكون واحداً أو اثنين منهم قد قتلوا بيد أن عدد من قتل لا يمكن أن يصل إلى ستين، حيث لم يتعد المجموع الكلى للحرس السبعة عشر، وقد عاش معظمهم إن لم يكن جميعهم بعد ذلك.

وقد ظهرت بعض الادعاءات العنيدة التى تؤيد ما قيل عن آثار المعاملة التى لقيها لورانس فى درعا. فقد كتب جيرمى ويلسون يقول إنه «بعد الاغتصاب الشاذ له، أصبح إتمام أى زواج بغيضاً كلية على نفسه. فقد ترك الحادث فى نفسه بغضاً شديداً للاتصال الجسدى، الأمر الذى لاحظه كثير من أصدقائه». كما قيل أيضاً إن التجربة البشعة أدت إلى انحراف شخصيته، فسيطر عليه هاجس النظافة والاستحمام، وربما تكون قد حولته إلى المازوكى الكامل الذى أصبحه فيما بعد. بيد أن هذه الخاصيات جميعها كانت واضحة لديه منذ طفولته. وقد ذكر هو نفسه فى كتاباته أن نفوره من التلامس الجسدى كان نتيجة الصراع الذى عاناه فى صباه المبكر ومع أمه غالباً. وقد أظهر فى سن مبكرة سلوكاً مازوكياً فى الحرمان الذى

كان يفرضه على نفسه، فكثيراً ما كان يبدى فى خطاباته إلى أهله اهتماماً مبالغا فيه بالنظافة والاستحمام. ودائماً ما كان يفضل الرجال على النساء. وتبين القراءة العابرة «لأعمدة الحكمة» قبولاً لا يمكن إخطاؤه لفكرة الجنس المثلى، ورفضاً ونفورا من الجنس الغيرى. فحتى فى الصفحة الثانية من النص، امتدح لورانس الشباب الذين يرفضون «لحم النساء اللزج الأحمر» ليطفئوا احتياجات بعضهم بعضاً عن طريق أجسادهم النظيفة، وهذه وسيلة باردة ميسرة تبدو بالمقارنة وسيلة لا جنسية، بل حتى نقية» والأيديولوجية هنا واضحة. ومن الصعب جداً أن نفهم كيف، وبأى منطق أعوج، تؤدى خبرة الاغتصاب الشاذ إلى عزوف عن الجنسانية الغيرية وتقبل واضح «لنقاء» الجنسانية المثلية، إلا إذا كان لدى لورانس استعداد مسبق لها. أما عن كون أن التجربة قد «أدت إلى انحراف شخصيته إلى الأبد»، فإن آرنى، شقيق لورانس الأصغر كتب عنه «إنه كان دائماً شخصاً ذا قدرة غير عادية على التحكم وتقمص الأوضاع المختلفة.. وقد استمر كل هذا بعد الحرب، هذا بالإضافة أنه نما لديه حماس هائل لأى شيء فكاهى. ومن الواضح أنه قد مر بصعوبات هائلة وتحكم فيها بأن رأى الجانب الفكاهى منها». فإن كان هذا لا ينطبق على رجل قد حطمت روحه خبرات الحرب البشعة، فإن لورانس حينما لحق بأللنبى فى ديسمبر عام ١٩١٧ عند بوابة يافا فى القدس لدى دخوله المنتصر إلى المدينة، أى بعد شهر من التعذيب المفترض فى درعا، لم يبد كرجل تحطمت روحه من جراء التجارب. إذ إن إيه. ب. وافل، الذى سار إلى جواره فى الموكب كتب يقول: «كان مرحاً فى هذا اليوم، وكان يسخر من زيه المستعار، وأيضاً من المنصب المستعار الذى أوكل إليه بمناسبة الاحتفال وكان هذا ضابط أركان بيرتى كليتون. وكالعادة، لم يقل الكثير عن نفسه، وكاد لا يشير حتى إلى هذه الرحلة العظيمة إلى جسر وادى اليرموك وفشله المؤسف، وكان قد عاد منها لتوه».

١٠

أسوأ مادة تصلح للتشكيل

طفيلة وتل الشهم

يناير - أبريل ١٩١٨

18

وصل لورانس إلى
القيادة العامة وهو يتوقع لوماً على
فشله في عملية جسر اليرموك ليجد
أن أللنبى قد تحرك قدماً. فقد كان قد تم
قطع خط غزة - بئر سبع وسقطت
القدس، وكانت أفكار السير إدموند
تدور حول البحر الميت بالفعل وحينما
استجمعت الجيوش المصرية الإنجليزية
قوتها ووسائل تنقلاتها وإمداداتها فى
مطلع فبراير عام ١٩١٨ كان قد خطط
لإطلاق القوات على أريحا.

لقد كانت قاعدة الهاشميين فى العقبة، آنذاك، خلف صفوفه. ففى حالة تمكن العرب من الاستيلاء على طفيلة فى مرتفعات البلقاء حيث يزرع القمح على الشاطئ الشرقى للبحر الميت، يصبح بإمكانهم اللحاق ثانية بالجناح البريطانى الأيمن. واعتقد لورانس أنه سيكون بإمكانهم التحرك حتى أبعد من هذا، أى إلى أقصى شمال البحر الميت، طالما كان بوسع أللنبى دفع الإمدادات إليهم عن طريق أريحا بعد سقوطها. وعندئذ، تتحرك القاعدة العربية من العقبة إلى أريحا التى يدافع عنها الجيش العربى فى الشمال بقيادة جعفر باشا وكان قد أصبح قوامه ٣٠٠٠ جندى. وقد أدهشت فرق جعفر باشا، وكان ينظر إليهم على أنهم يعوزهم التنظيم والكفاءة، الجميع بمثابرتهم حينما قام الأتراك بشن هجومهم القوى على الموقع الأمامى للهاشميين فى أكتوبر عام ١٩١٧ بوادى موسى بالقرب من البتراء بقوة قوامها لواء كامل. وكان عدد الفرق النظامية حينذاك ٣٥٠ فرداً؛ فرقتان من الهجانة، وفرقتان من المشاة من راكبى البغال بقيادة مولود المخلص ذى الكفاءة

الوحشية. بيد أنهم برهنوا بما لا يدع مجالاً للشك على إمكان القوات العربية الاحتفاظ بالموقع في مواجهة أعداد أكبر. فقد دحروا العدو بحسم لدرجة أن الأتراك لم يهاجموا قوة محصنة من النظاميين العرب مرة أخرى.

ولم يكن الاستيلاء على طفيلة بالأمر الصعب. فقد تم الاستيلاء عليها بعد أن ظهر الشريف ناصر وعودة أبو طيى على أعقابها فى فجر ١٦ يناير عام ١٩١٨ بعد رحلة دامت طوال الليل مع بعض الفرسان من الطويحيين وبنى صخر، وأخذوها دون أية مقاومة. ولم تكن المقاومة الوحيدة التى واجهوها من الحامية التركية بل من الفلاحين المحاسيين المحليين الذين كان شيخهم من معارضى الهاشميين. إلا أنه حينما سار أبو طيى وصاح «أيها الكلاب، ألا تعرفون عودة أبو طيى»، استسلم الفلاحون على الفور. وفى المساء ازداد عدد العرب بانضمام عدد من منافسى عودة. وهم عشيرة ابن جازى من الحويطات الذين كانوا قد نبذوا الأتراك من أجل الهاشميين. ثم وصل لورانس بعد أربعة أيام مع الشريف زيد وجعفر باشا وعائلة زيد والعقيليين، وبيشة وعتيبة، وقوة صغيرة من النظاميين

ومعهم مدفعا جبل . وكانوا قد تركوا قوتهم الرئيسية فى الشوبك لأن مئونتها كانت قد نفدت . ثم بعث عودة وعشيرته إلى جفر كى يمنعوا المنازعات بين القوة وجماعة ابن جازى الذين كانوا قد ظلوا هناك تحت قيادة رئيسيهما الشابين متعب وعناد . وكتب لورانس فى تقرير له بتاريخ ٢٢ يناير أنه كان لدى الهاشميين حوالى ٥٠٠ رجل فى المدينة إلا أن الفلاحين المحليين كانوا منقسمين بشدة وكانوا يخشون بعضهم بعضاً ويخشون الهاشميين . ويستدل على أن الاستيلاء على طفيلة كان يعتبر خطوة فى الطريق إلى مؤاب مما كتبه بأن «الأمور لن تستقيم فى الطفيلة إلا بعد الاستيلاء على الكرك ، ولن تستقيم فى الكرك إلا بعد الاستيلاء على مأدبا» . ثم سار زيد إلى شرطة المدينة وقام بتعيين حاكم لها وبعد ذلك أرسل فرقة فرسان استطلاعية إلى الشمال فى طريق الكرك لاستطلاع مدى قوة الأتراك . إذ إنه كان يفكر فى هجمة سريعة على مؤاب . ثم حدث فى ٢٣ يناير أن وقعت مجموعة طوارئ من جنوده فى قبضة مجموعة استطلاع تركية فى صدع سيل الحايسة ـ ذلك الوادى العظيم الذى يفصل بين إيدوم ومؤاب ـ وكانت المجموعة التركية تسبق ثلاثة فرق من الفرسان ، ومعها مدفعان هوتزر . واعتقد لورانس ، ضد كل تفكير منطقى ، أن الأتراك كانوا فى طريقهم إلى العودة .

وقال لورانس إنه شعر بالإحباط لعودة الأتراك المفاجئة ، مما جعله يقرر كسر قاعدته ويحارب معركة ضارية يلتحم فيها مع الأتراك لأول مرة . وطبقا لوضعه ، كان سير الاشتباك محاكاة ساخرة للمعارك النظامية الكلاسيكية فى كتب كلوزفيتز وفوش . فبدأت المعركة بوحدة خيالة صغيرة من الفلاحين والبدو ومعهم بندقيتان آليتان ، وقاموا بمطاردة وحدة الاستطلاع التركية إلى الهضبة الواقعة شمال طفيلة ، ومن ثم إلى سيل الحايسة حيث التقوا مباشرة بالقطاع الرئيسى من أفراد القوات التركية الذين كانوا قد أقاموا لتوهم معسكراتهم ، ففتحوا عليهم النيران من الهوتزر والبنادق الآلية . وفقد العرب بنادقهم ، وتراجعوا إلى الهضبة واحتموا بصخرة ارتفاعها أربعة أقدام لكى يتفادوا سيل الطلقات الموجهة من خمس عشرة بندقية على الأقل صوبت إليهم من الخطوط التركية . وعند هذه النقطة ظهر لورانس الذى كان يسير حافياً وبدون سلاح عبر الهضبة وسط رصاص الأتراك الذى لم يكن المدفعيون الأتراك قد تمكنوا من تصويبه بدقة بعد . وكان قد

فحص في طريقه بهدوء السطح الخارجي لطلقات لم تنفجر ليعرف نوع المدافع التي يستخدمونها . ولما وجد الموقع ميئوسا منه ، أمر المدفعيين العرب بالانسحاب إلى صخرة على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الخلف ، وكان قد زودها بعشرين رجلاً من حرس الشريف زيد . ثم استعار بعض خيالة ابن جازى ليقفوا فى وضع انتظار لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة كى يغطوا عملية الانسحاب . ثم هرول عائداً بخطى حثيثة حيث لحق به الفرسان المنسحبون والتقطه قائدهم متعب . وكانت قوة زيد قد عبرت الوهدة ؛ أما القوات العربية المساعدة بأكملها فتركزت على «تل الاحتياطى» التابع له حيث سيطرت على المنطقة ، وكان بحوزتهم مدافع الجبل والبنادق الآلية ، لدرجة أنه أجبر الأتراك على وقف تقدمهم .وفى هذا كتب لورانس يقول إن ميدان المعركة كان إسفينى الشكل بحيث شكل «تل الاحتياطى» جانبه المفلطح ، وكانت التلال الشرقية والغربية تتجمع عند حافة جرف حايسة على بعد ثلاثة أميال إلى الأمام . أما القيادة العامة التركية والاحتياطى فكانت تقع فيما وراء رأس الإسفين حيث نُشرت قوات المشاة والبنادق والمدافع الآلية بطول القوائم المركزية للتلال يميناً ويساراً . ورأى العرب أن الحل الوحيد هو الانزلاق على الجنبات تحت غطاء التلال والإمساك بالأتراك عن طريق حركة كماشة . وبناء على هذا ، تم إرسال راسم ساردست ، ضابط المدفعية ، حول ظهر التل الشرقى ومعه ثمانون من الخيالة ، بينما أرسل لورانس دعماً من المستأجرين الجدد (فلاحون من قرية مجاورة تدعى عيمة) كى يزحفوا غرباً حول التل . وقبيل الساعة الرابعة عصرا فاجأ رجال عيمة القوات على التل من الخلف وأجبروا الجنود على الاندفاع من ارتفاع ٢٠٠ قدم والهرب واستولوا على البنادق الآلية . وفى نفس الوقت تقريبا هجم راسم وفرسانه على الجناح الأيسر للعدو بينما اندفع جميع العرب الذين كانوا على «تل الاحتياط» أماما . وهرع الأتراك مغادرين ميدان القتال وتركوا وراءهم بنادقهم الآلية ومدافع الهوتزر . واعتلى القائد العثمانى حامد فخرى جواده كى يعيد تنظيم قواته إلا أن العرب أصابوه بطلقة مميتة . كان أحدهم قد سمعه يقول إنه لم يشاهد طوال الأربعين عاما التى قضاها فى الجندية قوات غير نظامية تقاتل بهذا الشكل . وكانت تلك آخر قشة بالنسبة للأتراك الذين فقدوا معنوياتهم ، إذ انسحبوا مذعورين إلى سيل الحايسة والعرب يطاردونهم . وطبقا

لتقرير لاحق تمكن خمسون منهم فقط من الوصول إلى الكرك، وكان هذا نصراً ساحقا؛ فمن بين الجنود الأتراك الستمائة الذين خرجوا من الكرك قبل يومين من المعركة، قتل مائتان بمن فيهم القائد، وأسر مائتان وخمسون. واستولى العرب على مدفعي جبل قذافين من نوع سكودا، وعشرين بندقية آلية ومائتي حصان وبغل وقد سمى هذا «نصراً حربياً رائعاً» في التقرير الرسمي عن الحرب الذى اعتمد على قصة لورانس نفسه للسجلات الحربية، مثله مثل كل تقرير أوربى آخر. بيد أن لورانس كتب فيما بعد أن تقريره كان محاكاة ساخرة إرادية قصد بها السخرية من اعتقاد رؤسائه فى المبادئ الجامدة للمفكرين العسكريين من أمثال كلوزفيتز وفوش. وكتب أيضاً أن «النكتة» الكبرى هى أنهم بدلاً من التعرف على السخرية فى تقريره، ابتلعوها بوقار ومنحوه وساماً. وسخر قائلا: «لو أتيح لكل رجل كتابة تقريره دون وجود شاهد على ما يحدث، فلابد وأن يكون لدينا فى (سجلات) الجيش اعترافات كلها بهجة». وفى «أعمدة الحكمة»، قال إنه هو، وهو وحده، من كان قد قرر خوض معركة المواجهة فى طفيلة. إلا أنه سخر أيضاً من تقريره عن الاشتباك. ووجدت نفسى أتعجب بشأن دوره الحقيقى فى هذا النجاح الأسطورى.

سافرت إلى طفيلة مع صديقى محمد الحبابة الذى كان يعمل سابقاً فى القوات الخاصة، لأشاهد بنفسى ميدان المعركة. ووجدت المدينة أجمل كثيراً مما تخيلت. كان الجزء القديم منها هو حى المحايسين، وهوحى سكنى شديد الازدحام تتجمع منازله الحجرية حول قلعة صغيرة مربعة تقع على نتوء على شكل يد مقلاة يطل على سيل أزارقة العميق. وعبر الصدع إلى الجنوب كانت قرية بصيرة، وإلى الشمال كانت الهضبة العظيمة أو موقع المعركة نفسها. وكان بالإمكان رؤية وادى البحر الميت المتألق إلى الغرب مباشرة بالنظر بطول شق سيل.

ذهبنا أولاً إلى مكتب السياحة، وكان الموظف لطيفاً وطلب لنا الشاى. إلا أنه لم يتمكن من إخبارنا عن مكان وقوع معركة طفيلة. ثم قال: «وعلى أية حال، فلم يكن للورانس علاقة بالمعركة، لأنه كان مجرد جاسوس إنجليزى». وشكرناه وذهبنا بالسيارة إلى أقدم مبنى فى المدينة، وهو الحصن العثمانى، وقررنا أن هذا هو المكان الذى علينا أن نبدأ منه لأنه كان موضحاً بخريطة المعركة التى صورتها من سجل

الحرب الرسمي. ومن هناك، تعرفت بسهولة على موقع «تل الاحتياطي» الخاص بلورانس. وقاد محمد السيارة حول الممر الضيق إلى سفح الجرف الجيري المنحدر حيث تركنا سيارتنا وتسلقنا أعلى المرتفعات. كانت ثمة أشجار صنوبر حلبي وأشجار أرز قد زرعت حديثاً على السطح. وقرب القمة شاهدت قوالب بناء بين الأحجار التي وصفها لورانس بأنها بيزنطية. وكان الاسم المحلي «لتل الاحتياطي» هو «خربة نوخة». وعلى طول محور التل كانت ثمة حفر، ربما كانت مواضع بنادق المعركة نفسها. كان المشهد أيضاً عبارة عن أرض بور متموجة مغطاة بعشب ماعز أصفر وتجمعات حجارة سوداء وكتل صخرية، ولم تكن هناك شجرة واحدة. وكان بإمكاني رؤية التل الغربي بوضوح أسفل موقعي إلى اليسار، حيث كان موضع البنادق الآلية التركية، والذي استولى عليه رجال العايمة من الخلف. إلا أن بقية ميدان المعركة لم يكن كما توقعت. فقد كنت قد تخيلت، من الخريطة، ومن وصف لورانس، سهلاً مثلثاً تحده الجبال من الجانبين. وبدلاً من ذلك شاهدت منحدراً تلياً متموجاً عليه حقول وجذامة تميل يميناً نحو قاعدة كتف جبل كبير على شكل هضبة حادة القمة منحدرة الجنبات يوجد عند قاعدتها طريق الكرك - طفيلة. وكانت الحافة القصية للهضبة، موقع القيادة العامة التركية، تظهر على الخريطة كما لو كانت في مجال الرؤية. إلا أنها كانت تحجبها في الواقع أرض مرتفعة تقع أمامي مباشرة. إذاً، فقد تمت الهجمة الأخيرة من «تل الاحتياط» بالهبوط على منحدر إلى أرض لا تصلها الطلقات ثم الصعود أعلى تل آخر قبل الهجوم على الأتراك. وهذا يختلف عن قول لورانس بأن الهجوم تم بالاندفاع أسفل التل. وفحص محمد الخريطة بعناية ثم دقق النظر إلى الأرض، ولفت نظري إلى ملحوظة تقول إن الخريطة صممت على أساس«صورة جوية من زاوية مائلة». ومن المحتمل أن تكون هذه هي نفس الصورة التي وردت في التقرير والتي التقطت عام ١٩٢٩ والتي تم فيها رؤية ميدان المعركة من منظور المدينة. وفي الواقع، فقد كُتب التقرير الرسمي في نفس العام، إذ إنني رجعت فيما بعد إلى خطابين من لورانس إلى كاتب التقرير الميجور آرشيبولد بيك مؤرخين عام ١٩٢٩ جاء فيهما «تريدني أن أراجع هذا الأمر الآن على أساس صورة هوائية للمكان ومن خلال ذكريات عمرها الآن اثنا عشر عاماً! ألا يعتبر هذا مبالغة لأمر كان في مقصده... نكتة؟..

إن الأمر برمته عبثى». ورغم أن لورانس كتب فيما بعد أن «خريطة بيك تتطابق مع ذكرياته» إلا أنه كان من الواضح ثمة فروق جوهرية بين الخريطة والأرض. وبدأنا السير أسفل سفح التل ونحن نخطو باتجاه الجزء الغربى حيث قابل لورانس المحايسين وابن جازى وأمرهم بالانسحاب. وبينما كنت أسير، كنت أكاد أسمع أزيز الطلقات. إلى جانبى وكذا رعد وجلبة القذائف المتساقطة ورنين متفجرات الكورديت وقعقعة البنادق الآلية. وبينما كنت مستغرقاً فى حلمى سمعت من يقول «السلام عليكم». ورأيت راعياً شيخاً، رجلاً أسمر البشرة، له وجه كجلد «الرّقة» المعالج، يرتدى عباءة متسخة من جلد الغنم، وغطاء رأس مهلهلاً، ويجرجر قدميه فوق مرعى حجرى وأمامه قطيع من حوالى تسعين من الأغنام البنية والبيضاء. وسأله محمد إن كان يعرف أى شيء عن معركة لورانس فى طفيلة فرد الرجل «لا. بيد أنه كانت ثمة حرب هنا لأننا نجد قذائف ورصاصات أحياناً». واستغرق وصولنا إلى الطرف الغربى لسلسلة التلال، حيث تموضعت البنادق التركية، ساعتين وكان هذا يتوافق مع قول لورانس إن المسافة كانت حوالى ميلين تقريباً. وتسلقنا إلى القمة على التربة المحروثة اللينة، ورأينا من هناك صدعاً عميقاً فى الأرض حفرته المياه فى الزمن القديم كان يتغلغل داخل الوهد. وفكرت أن هذا لابد وأن يكون الممر السرى الذى تسلل منه رجال العايمة من خلف الأتراك وحسموا بهذا مصير المعركة بالكامل. وكان لورانس قد كتب إلى الميجور بيك «إن المجهود التركى الرئيسى كان بطول سلسلة التلال، وقد أزاله فيما بعد، رجال العايمة».

فمن الواضح إذاً أن هجمة رجال العايمة كانت هى التى حسمت المعركة. أما إن كان لورانس هو من دفع بهم للهجوم أم لا، فأمر مازال محل نقاش. وقد قال صبحى العمارى، وهو ضابط عربى نظامى اشترك فى المعركة وكان قائداً لفرقة البنادق الآلية، فيما تذكره عن المعركة أن فلاحى العايمة تجمعوا على تل يدعى خربة السباغة على بعد كيلو متر يمين الجناح التركى. وطبقاً لصبحى، كان الموقع التركى خارج مدى قذائف «تل الاحتياطى». وهذا صحيح فيما يبدو. لأنه رغم أن لورانس أخبر بيك أنه قد ضبط مهداف مدافع الفيكرز ليصل مدى الطلقات إلى ٣٠٠٠ ياردة كى تحصد المنسحبين، إلى أن مدى الفيكرز هو ٢٩٠٠ ياردة فقط

وهو الحد الأقصى لهذا السلاح. وكما أوضح ريتشارد ألدينجتون، فلم يكن أحد في ذلك الزمن يفكر في التبارز بالبنادق الآلية من مسافة قدرها ٣٠٠٠ ياردة. وخطرت لصبحي فجأة فكرة تحريك بندقيتين آليتين إلى التل الغربي كي تصبحا في المدى المطلوب. فهرول هو ورجاله عبر الأرض التي لا تصلها رصاصات بنادق الحصن وزحفوا إلى قاع السلسلة التلية حيث لحق بهم تلقائياً فلاحو العايمة. وتسلق رجال المدفعية الآلية المنحدر وفتحوا النيران على الأتراك من مدى قريب جداً، وسرعان ما لحقت بهم مجموعة مندفعة من رجال العايمة. وأصيبت الوحدة التركية الأكثر قرباً من العرب بإصابات بالغة، وأمر القائد التركي رجاله أن يستديروا ويواجهوا الفلاحين. وهنا حدث أمر غير متوقع. فلدى وقوف الأتراك للاستدراة اعتقد رجال العايمة أنهم على وشك التقهقهر وقاموا بهجمة عفوية وهم يصيحون ويتضاحكون. وترك الأتراك، الذين أصابهم الذهول، بنادقهم، ولاذوا بالفرار، وانتشر هلعهم إلى باقي الوحدات التي تبعت الآخرين. وعرف صبحي، فيما بعد، من أحد الأسرى، أن معظم الضباط الأتراك، في تلك اللحظة تحديداً، كانوا قد انسحبوا من الصفوف لحضور مجموعة الأوامر مع القائد، وهكذا لم يكن ثمة أحد ليجمع شمل الجنود وهم يتقهقرون. ولهذا، فحينما عمت الفوضى أمر حامد فخري ضباطه أن يلتقط كل منهم بندقية ويعود إلى الصف، كما سجل ذلك لورانس، إلا أن الوقت كان قد فات.

وأخبرني المؤرخ العربي سليمان موسى أنه كان قد تحدث مع عدد ممن اشتركوا في المعركة وتذكر معظمهم أنهم شاهدوا لورانس في ميدان القتال.. إلا أنهم أجمعوا أن الاشتباك كان مصادفة عفوية، كما يوحي تقرير صبحي. وقد ألمح لورانس نفسه إلى هذا حينما أخبر ليدل هارت أن «رجال العايمة أتوا من الغرب» (تقع قريتهم على بعد بعض أميال من ميدان المعركة) «وقد تكون للجغرافيا دور هام في تقرير شكل المعركة لا يقل عن دور الاستراتيجية». وماذا عن ادعاءات لورانس الأخرى؟ فقد قال إنه قرر أن يحارب معركة يلتحم فيها الجيشان لغضبه من غباء الأتراك الذين عادوا مرة أخرى، ومن ثم، أرسل البنادق الآلية إلى الأمام لمساعدة الفلاحين وتخير «تل الاحتياطي» كخط دفاع أخير، وأمر القوة الأمامية بالعودة إلى التل، وحث زيد على أن يحرك مجموعته الرئيسية إلى هناك. إلا أن

الشواهد تدل على أنه من قرر مواجهة الأتراك على الهضبة لم يكن لورانس أو زيد، بل فلاحى المحايسين من طفيلة الذين كرهوا أن يعود الأتراك إلى قريتهم. وقد اضطر لورانس أمام فعل عشرات قليلة من الرجال أن يتخذ موقفاً. ولا يوجد من الأسباب ما يدل على أنه لم يكن هو من أرسل البنادق الآلية لدعمهم بمبادرة شخصية منه، أو على أنه لم يختر «تل الاحتياطى». بيد أنه لم يكن هو من نصح زيد بالتحرك أو من أمر القوة الأمامية بالانسحاب. ولكن الواضح أنه لعب دوراً هاماً فى المعركة. فلماذا إذاً السخرية من الذات واستعماله «بهارات» الأمثال والأقوال المأثورة من كتب السجلات العسكرية فى تقريره؟ فما هى «النكتة»؟ والإجابة هى أن لورانس تحقق من استحالة إضفاء شكل منطقى على سلسلة من الأحداث اعتمدت على الصدفة، التى تحسم معظم الاشتباكات الحربية، والتعبير عنها فى شكل تقرير قصير. فكتب إلى الميجور بيك عام ١٩٢٩ قائلاً: استشهدت فى التقرير بتعبيرات معادة سخيفة من فوش وغيره من المحاربين الدمويين. وكنت أعمد فى وصف كل حركة إلى محاكاة ساخرة لما كانوا يوصون به، إلا أننى بالغت لدرجة تجعل التقرير عبثياً. وقد كتبت التقرير عن المعركة بنفس اللهجة، أى أنه كان محاكاة ساخرة لرسالة عسكرية حقة. إلا أن هيئة الأركان فى فلسطين أخذته مأخذ الجد. آمل ألا تقع فى خطئهم.»!

وعقب المعركة بأيام قليلة ذهب لورانس إلى البحر الميت عن طريق الجرف كى يحث قوة من البدو بقيادة الشريف عبد الله الفاعر على تدمير المراكب التركية الراسية فى الميناء عند المزرعة، والتى كانت تنقل الإمدادات إلى الأتراك فى أريحا. وتم الهجوم يوم ٢٨ يناير، وأحرقت سقائف المؤن، وأغرقت سبعة قوارب بعد أن خربت، وبذلك تعطل الإبحار فى البحر الميت. وأثار احتمال توالد قصص عن هذا الحادث لورانس، فأعلن لروبرت جريفز بزهو «أنها كانت واحدة من مناسبتين فى التاريخ الحربى الذى هاجم فيها رجال على مطاياهم أسطولاً فى البحر وأغرقوه. وقد زكيت نفسى بعدها بزهو باعتبارى ضابطاً بحرياً». وفى هذه الأثناء، كانت الخطة الهاشمية مازالت هى التقدم شمالاً إلى الكرك ومأدبا. وفى أوائل شهر فبراير ذهب لورانس إلى قويره ليحصل على ٣٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهبى كانوا سيحتاجونها لاستئجار جنود غير نظاميين لعملية التقدم. ولدى عودته منهكاً إلى

طفيلة فى ١١ فبراير ، بعد أن تسلق مسرعاً التلال الثلجية ، ساءه أن يجد زيد لم يفعل أى شيء للإعداد للسير إلى مؤاب ، وأن الفرصة التى أتاحتها لهم معركة طفيلة قد أُهدرت . وفى رسالة إلى كليتون فى اليوم التالى كتب لورانس «همهم زيد وتلعثم وألقى بفرصته جانباً دون أن ينتفع منها . فقد كانت البلاد بدءاً من مأدبا تحت أقدامه . إن العرب أسوأ مادة تصلح للتشكيل .» وفى الواقع ، فرغم أن لورانس كان قد حاول دوماً أن يظل فى الخلفية ، فقد وجد ، بشكل متزايد ، أن عليه إملاء الاستراتيجية وكتب إلى كليتون« سيتحدون جميعاً يوماً ما للحط من قدرى . فمن المحال أن يتحكم أجنبى فى إدارة شعب آخر وفقاً لإرادتهم الحرة إلى مالا نهاية . وقد كان دورى طويلاً بما فيه الكفاية » . وتحقق أن الشريف قد فقد تصميمه على التقدم وحده ، ومن ثم ، قرر الذهاب شمالاً لحث مجموعات متنوعة غير نظامية على العمل . فقد كان مقرراً أن يصل الذهب إلى طفيلة فى غضون أيام ، وشعر لورانس أن المبلغ سيكون كافياً للإنفاق على حاجته وحاجة الشريف الملحة وعلى دعم الهجوم . وانطلق للقيام باستطلاع فى سيل الحايسة مع الملازم كيركبرايد الذى كان يتحدث العربية بطلاقة وكان قد أرسل من بئر سبع من قِبل القيادة العامة كى يكتب تقريراً عن إمكانيات الاستخبارات . وبعد عودة كيركبرايد إلى فلسطين واصل طريقه مع شيخ من السكان المحليين حتى الكرك ومأدبا . وكان الاستطلاع مرضياً جداً ، وعاد لورانس إلى طفيلة كى يخبر الشريف زيد أن الطريق أصبح مفتوحاً أمامه . وتجادل زيد قائلاً إن هذه العملية ستحتاج إلى قدر كبير من المال ، وحينما ذكر مبلغ الـ ٣٠,٠٠٠ جنيه التى كان قد تلقاها لتوه دهش لورانس أن قال له إنه أنفقها جميعاً فى دفع أجور رجال الحايسين ورجال العايمة وابن جازى وبنى صخر ومجموعات أخرى. وأسقط فى يد لورانس ؛ فقد كان معظم هؤلاء فلاحين متمركزين فى طفيلة ولا يصلحون للتقدم. وكان على النظام الهاشمى استئجار رجال أثناء تحرك القوات قدماً . بيد أن كشف الأجور كان وهمياً ، إذ إنه لم يكن بوسعهم سوى دفع أجور عدد قليل من الرجال الموجودة أسماؤهم فى دفاترهم ، وهم لايفعلون هذا سوى فى وجود حالات طوارئ فى أماكن ما . وعرف لورانس أن زيد يعلم هذا ، وتحقق فجأة من أن الشريف كان يكذب عليه ؛ فقد كانت دفعة الذهب قد وصلت فى اليوم السابق، ولم يكن ثمة موظفون يكفى عددهم

إحصاءها وتوزعيها في غضون أربع وعشرين ساعة. وتحقق حدسه من أن الأشراف سينقلبون عليه ذات يوم. إلا أنه لم يتخيل حدوث هذا بهذه السرعة. وأصر زيد على كذبه وفقد لورانس هدوءه المعتاد وقال «أنا لست تابعاً لك، أو مسئولاً أمامك، بل العكس هو الصحيح. وإنني أتوقع أن تُحترم رغباتي وتكون محلاً للاعتبار في الأمور كلها، لا أن تناقض هذه الرغبات دون تفسير مسبق. فحينما يقوم البريطانيون من خلالي بتحويل جميع نفقات العملية، فلابد أن تُتبع تعليماتي بكل دقة ممكنة». بيد أن زيد لم يتزحزح، وتيقن لورانس أن حملة البحر الميت قد انتهت. وفشل في أن يفي بوعده لأللنبي مرة أخرى. وفي الصباح، أرسل إلى زيد بمذكرة يطالبه فيها بإرجاع النقود. وحينما أرسل إليه الشريف تقريراً منمقاً خادعاً بأوجه إنفاقها، قرر لورانس الذهاب إلى بئر سبع ليبين لأللنبي أنه خذله للمرة الثانية نتيجة لخطأ في التقدير، ويتخلى نهائياً عن الثورة العربية.

غير أنه في نفس يوم وصوله إلى القيادة العامة للقاء أللنبي، كان الأتراك قد أخلوا أريحا، ودخلت الحملة إلى فلسطين مرحلة جديدة. وكان مكتب الحرب في لندن يمارس ضغوطاً من أجل توجيه ضربة قاضية للأتراك. وكان أللنبي يعد العدة للهجوم على دمشق وحلب. ووسط تلك السعادة الغامرة، نسيت مشكلة لورانس التافهة مع زيد بشأن الثلاثين ألف جنيه. وكان أللنبي يريد تأمين جناحه الأيمن وقطع خط السكك الحديدية لأن الأمر لم يكن يحتمل أن تتدخل حامية المدينة المنورة في هذه المرحلة الحاسمة. وكان مستعداً لإرسال هجانته من المصريين والخيالة الأسترالية عبر نهر الأردن للاستيلاء على السلط غرب عمان ويضمن بهذا سلامة هجوم عربي على عمان التي برهنت حاميتها على كونها الشوكة المستديمة في جسد الهاشميين. واعتقد لورانس أنه في حالة وجود وسائل نقل مناسبة سيكون بإمكان نظاميي جعفر باشا البالغ عددهم أربعة آلاف عربي أن يُدفعوا للتقدم بوثبات متجاوزة (وثبة الضفدع) إلى نقطة ما عند خط السكك الحديدية شمال معان والجلوس على الخط إلى أن يخرج الأتراك إليهم كي يزيحوهم. وكان قد وصل إلى القناعة بأن النظاميين العرب كانوا أكثر من صنو للأتراك في المعارك المفتوحة، إلا أنه شك في قدرتهم على الاستيلاء على معان عن طريق هجمة أمامية. وأخبر أللنبي بحاجته إلى إبل ونقود وبنادق. ومنحه الجنرال في التو ٧٠٠ من إبل

الحملْ ومعهم جمّاليهم المصريين، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبي ووعده بمدفعية وبنادق آلية. وانتقل لورانس إلى القاهرة حيث خطط مع بيرس جويس والمقدم آلن داونى، وكان تكتيكياً موهوباً أوكلت إليه رئاسة «القنفذة، التقدم إلى معان. وخططوا لأن تكون آخر العمليات في هذه الدراما هي الهجوم على امتداد السكك الحديدية في المدورة وعزل حامية المدينة نهائياً.

إلا أن الخطط اتخذت مساراً خاطئاً. فقد استولى البريطانيون على السلط إلا أنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على عمان وتم صدهم بواسطة هجمة كبيرة مضادة من الأتراك، فتركوا المدينة يوم ٢ أبريل أي في نفس اليوم الذي كان لورانس، والذي لم يكن يعلم شيئاً عن الهزيمة، يركب عائداً إلى أبو لسان مع حرسه. وفي هذه الأثناء، حشه رجاله على الهجوم على دورية تركية قوامها ثمانية رجال عند جسر السكة الحديدية قرب فريفرة. وكانت الهجمة غير منظمة. فقد سار خادم لورانس عثمان (فرج) متهوراً في مقدمة الآخرين وأصيب بطلقة فور توقف ناقته عند الجسر. وبدا للورانس وكأنه توقف إرادياً أمام العدو ليطلقوا عليه النيران. ولدى وصوله، كان فرج قد أصيب بجرح قاتل في عموده الفقرى، إلا أنه كان سعيداً لأنه «سيموت» حيث إن زميله علياً «داعود» كان قد هلك من البرد منذ أسابيع في الأزرق: «ولم يبتسم أبداً مرة أخرى، وفقد إرادته على الاستمرار دون صديقه». وأجبر لورانس، للمرة الثانية في حياته، على إطلاق الرصاص إرادياً على رجل: «لم يكن لدى فرج سوى ساعات قليلة وبعدها يموت، بيد أنه لم يكن بوسعنا تركه للأتراك الذين كانوا في طريقهم مسرعين على ترولي سكك حديدية، فأمسكت بمسدسي وخفضت يدى كي لا يراه الصبي، إلا أن فرج فهم مقصدي وقال: «سيغضب داعود منك» فرد لورانس «احمل إليه سلامي». فرد عليه العقيلي «سيمنحك الله السلام». وأطلق لورانس النار على رأسه.

شعر لورانس بمسئوليته عن موت فرج. وإن كان وصفه للهجمة دقيقاً، وهذا صحيح، إذ تبين تقاريره أن حرسه الخاص كان يتكون في أبريل عام ١٩١٨ من خمسة عشر رجلاً فقط، إذاً، فقد كان هجومهم على موقع تركى بهذا العدد القليل عملاً تعوزه الحكمة. إلا أنه لا يوجد أى ذكر لهذا الاشتباك في التقارير الرسمية، ولا يذكر لورانس أى شيء عن موت «داعود» و«فرج» أى على وعثمان

فى مذكراته، هذا بالإضافة إلى أنه، وكما رأينا، لا يأتى ذكر على وعثمان ضمن حرسه الخاص فى أبريل ١٩١٨ . ومن اللافت للنظر، أن لورانس يستخدم موت داعود كفاتحة لمقال له عن طبيعة المرأة فى «البحر المتوسط، ويبين أنه على حين أن النساء مجرد «آلات للممارسات العضلية، لا يتوحد الرجال إلا مع أحدهم الآخر». كما أنه لابد أن شعور لورانس أن عليه تغيير اسميهما حينما بدأ فى كتابة «أعمدة الحكمة» على أساس أنهما قد توفيا كان ذا أهمية. وبما أنه قد تكلف المشاق لتوضيح أنهما كانا يرتبطان بعلاقة حب مثلى علنية، وأنهما لم يشعرا بالخزى من هذه العلاقة، فلا يوجد أى سبب منطقى لتغيير اسميهما، إلا إذا كان لورانس، كما فى حالة هيوبرت يونج، يؤلف الأكاذيب عنهما. ويتضح قلق لورانس من أن يستعمل روبرت جريفز القصة فى مذكرته إليه فيقول له: «يبدو أن نشرك قصة موت فرج أمر لا يحتمل. . وأقترح أن تحذفها كلية. إن السرد منظم ولا يعتمد السياق عليها. . وبإمكانك القول إن فرج قد توفى بعد زيارته عمان بأسبوع حيث أصابه جرح مميت فى غارة على دورية خط السكك الحديدية التركى. . وتتركها عند ذلك. فهذه أمور خاصة». ويوضح جريفز بغضب ودهشة أن لورانس كان قد نشر القصة بالفعل فى طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة» التى كان يتداولها الآلاف فى هذا الوقت. فلماذا كشف للعالم «هذه الأمور الخاصة» إن كان قد شعر بالفعل أن موت فرج أمر غير محتمل؟ كما أنه لم يجد موانع لمناقشة القيمة الأدبية «لمشهد الموت» مع تشارلوت شو فى عام ١٩٢٤ إذ إنه كتب «أجد نفسى متحاملاً على الكاتب الذى يترك القارئ يبنى أهم مشهد نيابة عنه كما يحدث فى مشهد حريق القرية فى «كلاب بانبا»، وهى رواية لدانييل كوركرى. لقد تحاشيت هذا فى وصفى لمشهد موت رجلى فرج». ومن المثير للاهتمام أيضاً أن يقارن لورانس مشهداً حدث بالفعل بحادث من رواية يفترض أن أحداثها كلها مختلقة. . كما لو كان قد نسى أن هناك ما يميز الاثنين.

لقد فشل تقدم البريطانيين عبر الأردن، كما فشلت الهجمة العربية على معان، وكان السبب، إلى حد كبير، أن الضباط العرب قرروا عدم الأخذ بنصيحة لورانس والقيام بهجمة أمامية بدلاً من حركة يحاصرون بها الأتراك. ورغم هذه النتيجة شعر لورانس الذى كان قد راقب الهجمة، بالإعجاب بشجاعة النظاميين العرب،

ثم سار إلى قويرة في ١٨ أبريل. وفي نفس اليوم، قام بسرقة عربة فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدى حيث كان داونى وقوة بمصادرة عربة فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدى حيث كان دوانى وقوة من البريطانيين والمصريين والبدو قد اختبأوا في فجوة استعداداً للهجوم وكان داونى قد خطط لعملية تل الشهم بالدقة التى تتبع فى صياغة كتاب دارسى. إلا أن لورانس اعتقد أنه، رغم كون داونى الضابط البريطانى الكبير الوحيد الذى كان باستطاعته التعامل مع تكتيكات الحرب التقليدية وحرب العصابات معاً، أنه مع وجود هذا التجمع غير المتجانس للقوات تحت قيادته، فقد لا تنجز الأمور بالشكل المخطط له. ومن ثم تطوع للقيام بهذه المهمة بنفسه، بصفته الرسمية كمترجم، لكنه أراد عملياً مراقبة العلاقات بين المجموعات الثلاث.

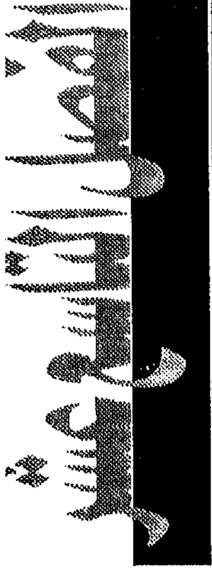
وكان لهذه العملية أن تكون جد مختلفة عن العملية التى قادها لورانس فى المدورة فى العام السابق. فإلى جانب أسطول من العربات المدرعة، كانت هناك عربات حربية من نوع الرولزرويس، وبطارية بنادق تالبوت من مدفعية الميدان الملكية محملة على عربة فورد بقيادة الملازم صاموئيل برودى، وسرب من الطائرات يعمل من قاعة رُم وفرقة من الهجانة المصريين بقيادة فريد بك وأيضاً بدو غير نظاميين بقيادة الشريف هزاع. ومع انبلاج نهار ١٩ أبريل، زحفت العربات المصفحة من فجواتها وسط صخب موتوراتها، وجلبة سيرها على أحجار الصوان، وكانت تخلف وراءها أذيالاً من الغبار. وجلس لورانس فى الرولزرويس على قمة التل إلى جانب داونى الذى كان يراجع كل حركة على خريطة فردها على ركبتيه طبقاً لجدول دقيق الإعداد. وفى الوقت المحدد بالضبط، سارت العربات المدرعة على التل واقتربت من التحصينات التركية المحيطة بمحطة تل الأشهم. واستسلم الأتراك الذين فوجئوا بظهور العربات المدرعة فى الحال. وفى ذات الوقت، كانت اثنتان من الرولزرويس بقيادة الملازم هورنبى من سلاح المهندسين الملكيين تتحركان باتجاه إحدى القنوات السفلية وقامتا بتفجيرها بشكل درامى مثير بواسطة مائة رطل من قطن المفتجرات. وكاد التفجير يرفع لورانس وداونى عن مقعديهما. وفتح الأتراك النيران من خلف «سنقر» حجرى سميك أعلى هضبة صغيرة مستديرة منحدرة، وعلى الفور سمعت طقطقات طلقات من أربع بنادق آلية فى أبراج الهجوم على السيارات المدرعة، وكان صدى أزيز الطلقات يتردد بين

الحجارة، وفى هذه اللحظة أتى غير النظاميين البدو من خلف تل بقيادة هزاع وهم يطلقون النار عشوائياً ويصوبونها على هضبة الأتراك التى سرعان ما استولوا عليها دون جهد. وسار لورانس بالرولزرويس باتجاه خط القتال وهو يقذف شحنات القطن المتفجر على القضبان والجسور تحت غطاء بنادق العربات المدرعة الآلية. وهزت الجو سلسلة من الانفجارات ثم ظهرت فجأة سحابات الكسارات على طول الخط مثل شياطين الغبار. واصطدمت كسارات القذائف بالحجارة ودمدمت على أبراج العربات القديمة المصنوعة من الصلب. ودفع البدو برجال الموقع الأمامى للأتراك نحو جنوب المحطة بالإبل المهتاجة التى تتابعت أعلى الهضبة والتحصينات العالية. واقتربت فى هذه الأثناء فرقة الهجانة بقيادة فريد بك شمالاً من المحطة وهى تشق طريقها أمامها بحذر من تل إلى تل. وفتحت بطاريات التالبوت النيران حيث اصطدمت المتفجرات بمبانى المحطة اصطداماً عنيفاً كاد أثره يصم الآذان. ثم هبطت طائرتان فجأة من السماء الصافية غرباً كخطافين، وقذفت التحصينات بعشرات القنابل. وعلى الفور، ظهرت أذيال طويلة من الدخان على شكل حرف V حول المحطة، وتوجهت العربات المصفحة من خلال الغبار والضباب إلى الأمام وهى تطلق وابل نيران بنادقها الآلية. وهنا ألقى رجال هجانة بيك بحذرهم جانباً واندفعوا يعدون بخشونة عبر السهل. وسمع رعيد البدو، الذين كرهوا أن يسبقهم أحد، وهم يندفعون من الشرق، وأحاطوا بالمحطة فرفع الأتراك أذرعهم واستسلموا وهم يلوحون بقوة وأسى بالأعلام البيضاء. وسبقهم لورانس إلى المحطة بالرولزرويس، واستولى على الجرس النحاسى كتذكار، بينما استبقى داونى «خرامة» التذاكر، وأخذ رولز، سائقه، الخاتم المطاطى. وخرجوا من المحطة ليجدوا العرب والمصريين وقد تملكهم جنون النهب وأخذوا يحطمون المبانى وينقبون عن الغنائم، ويندفعون بشهوة عمياء للاستيلاء عليها. وكان مخزن المحطة يحوى مئات البنادق وآلاف من الذخائر وطعام وملابس، وفى جشعهم، بدأت الجماعات المختلفة تطلق النيران على إحداها الأخرى. وحدث أن خطا جمل على لغم كان قد زرعه الأتراك فانفجر فيه مما أحدث هياجاً وقتياً. وتمكن لورانس، الذى قال فيما بعد، إن الضباط البريطانيين كانوا على وشك أن يخنقوا، من فض الاشتباك بين الأطراف، ثم سمح للهجانة المصريين أن ينتقوا ما يريدونه أولاً،

ولدى صياحه على البدو «تقدموا» ذكر رولز أنهم «اندفعوا مثل كتلة صلدة من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية» إلى المخازن وضغطوا على الباب حتى فتح وغنموا ما أرضاهم ثم حملوا إبلهم واندفع ثلاثة أرباعهم إلى الصحراء. وكان نجاح الهجوم لا يشوبه شائبة، وقال عنه لورانس إنه كان حرباً من الطراز الأول De Luxe. أما تحفظ داونى الوحيد فهو أنه كان مخططاً أن يتم الاستيلاء على المحطة فى الساعة الحادية عشرة والنصف تحديداً، لكن الأتراك استسلموا، من منطلق الجهل والعجلة، قبل الميعاد المحدد بعشر دقائق. وكتب لورانس بسخرية غير معلنة «كانت هذه هى الوصمة الوحيدة فى يوم لم تسل فيه الدماء».

غير أن تحطيم السكك الحديدية لم يكن قد انتهى تماماً. فأرسلت عربة مصفحة إلى الرملة، أى المحطة التالية جنوباً، بينما قام لورانس وفرق تفجير أخرى بتدمير جسور وأميال من القضبان بين المحطتين. وفجرت الحفر السفلية بشحنات حشيت فى ثقوب البالوعات، على حين قام لورانس، الذى كان قد طور أسلوباً أكثر فاعلية لتخريب المعادن بزرع شحن «زنبقية» أسفل عربات النوم بحيث تلوى أطوال كاملة من القضبان وتتركها معوجة.

وبعد أن اقتنع أن الخط الحديدى بين الشهم والرملة قد أصبح عديم الجدوى، قضى لورانس ليلة قرب الشهم يعد للهجمة على المدورة التى كان من المخطط حدوثها فى اليوم التالى. إلا أن الأتراك كانوا يتوقعون الهجمة، ومن ثم، أجبروا القوة المختلطة على التقهقر بنيران مدفعية مميتة مداها ٧٠٠٠ ياردة. وأرسل لورانس العربات المدرعة فى تشكيل قوسى إلى المكان الذى كان قد لغم فيه قطاره الأول ودمر الحفرة السفلية لمسافة تقرب من ٥٠٠ ياردة ابتداء من التل الذى كان قد موضع عليه مدافع وبنادق الستوكس واللويس عام ١٩١٧. وفيما بعد، أرسل محمد الضحيلان ورجاله الحويطيون لشل الخط الحديدى شمال الشهم. وبحلول ٢٠ أبريل كان العرب والبريطانيون معاً قد نجحوا فى تخريب ثمانين ميلاً من الخطوط الحديدية وعزلوا سبع محطات. وبهذا، تم أخيراً تحييد قوة فخرى باشا فى المدينة والتخلص من تهديدها المحتمل.



أطفئت أحلامي كشموع في مهب رياح النجاح القوية

درعا، طفس وسقوط دمشق

شتاء ١٩١٨

19

دخلت سيارتنا العتيقة إلى طفس
عقب الظهر مباشرة. بدت طفس
مدينة حورانية نمطية ـ مكاناً بلا مركز
رئيسي ومجموعات منتشرة من المنازل
بنيت عشوائياً على طول شبكة طرق
أفقية ورأسية، وسط فدادين من أراضي
القمح، ومروج موحشة حمراء لا تنمو
بها سوى بعض أشجار تفاح سدوم
السامة وبعض نباتات البلوط، وأشجار
الأرز والصنوبر الحلبي.

وبإمكان المرء أن يلمح آثار القرية كما كانت عام ١٩١٨ إذ كان ثمة أكواخ قديمة بين البازلت الأسود متناثرة بين المساكن رخيصة التشييد من القوالب الأسمنتية الخفيفة. وسرنا ذهاباً وإياباً فى الطريق الرئيسى لبعض الوقت، ثم أوقفنا رجلاً داكن البشرة يرتدى غطاء رأس من اللونين الأبيض والأسود وسألناه إن كان يعلم أين وقعت معركة عام ١٩١٨. فأجاب: «لا أدرى، إلا أن هناك شيخاً بالقرية كان هناك، بإمكانى اصطحابكما إليه». ودهشت، وخامرنى قليل من الشك فقد أمضيت عدة أشهر وأنا أتتبع شبحاً لا يعرفه أحد سوى بالقيل والقال. فهل سأقابل أخيراً رجلاً رأى لورانس رأى العين؟ واصطحبنا الرجل معنا فى السيارة وأوقفنا عند منزل حديث مقام على ناصية أرض حمراء بين أشجار تفاح سدوم. وفى الداخل، كان ثمة رجل عنكبى يرتدى كوفية حمراء وعباءة سوداء ويجلس على سجادة إلى جوار مدفأة تعمل بالبنزين ويحيطه نصف «دستة» من الأبناء والأحفاد. وكان الرجل يرتدى نظارة سميكة الحواف وله لحية خفيفة بيضاء.

وأخبرني أحد أحفاده، وكان طالب طب في حلب، أن جده قد تجاوز التسعين وجلسنا على الأرض متربعين، وبعد أن أجبنا على أسئلتهم، وارتشفنا الشاي المقرر، سألته، وأنا أكبت انفعالي إن كان قد التقى بلورانس العرب. وأجابني الشيخ بصوت متهدج: «لقد رأيته؛ كنت حينذاك مجرد صبي بالطبع. وأتذكر أنني شاهدت الجيش العربي وهو يسير في القرية. كان يوماً رهيباً، كنت برفقة والدي في قرية أخرى في الليلة السابقة، ولدى وصولنا في الصباح، وجدنا أن الأتراك قد قتلوا الجميع تقريباً. وكانت جثثهم ملقاة في الطريق. رحمة الله عليهم جميعاً».

«وكيف بدا لورانس؟»

«كان رجلاً طويلاً قوياً ذا لحية طويلة».

واصطحبنا حفيده فيما بعد لنشاهد ميدان المعركة، وكان عبارة عن أحد المروج الحمراء مليئاً بالكتل الصخرية. وكان على مسافة قريبة من القرية. وبدا لي،

وبشكل غير متوقع، صغيراً على مثل هذا الحدث الدرامى. ولقد ظل ذبح طابور كامل من الجنود الأتراك على أرض طفس يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩١٨، وما تلاه من ذبح الأسرى الأتراك والألمان، من أكثر الأفعال الخلافية فى تاريخ لورانس. وقد أقنع هذا ناقديه أنه كان سادياً متعطشاً للدماء. أو أنه قيل، كبديل لهذا، إن تعذيبه واغتصابه فى درعا شوه عواطفه بشكل دائم. وقد أذكى لورانس هذا النوع من الخلاف بتعليقاته الساخرة المعتادة. فقد ادعى أنه أخبر حراسه فى هذا اليوم «إن أفضلكم هو من يحضر لى أكبر عدد من الموتى الأتراك». وعقب أيضاً على هذا قائلاً: «لم نأسر أحداً، لأول مرة فى تاريخ الحرب،طبقاً للأوامر». وكان ذبح الأتراك المنسحبين للفلاحين، من غير المقاتلين فى طفس، قد ولّد هذه القسوة. وقد كان هذا المشهد من أكثر مشاهد الحرب بشاعة بالنسبة للورانس. فلم يقم الأتراك فقط بذبح الأطفال، بل أيضاً بذبح النساء وتشويه جثثهن وترك أجسادهن فى أوضاع شائنة.فقد رأى لورانس جثة امرأة حبلى غرست الحربة بين ساقيها. وكتب لورانس قائلاً إن طلال، وهو شيخ من طفس ادعى أنه رافقه فى رحلته الاستكشافية المشئومة فى حوران فى نوفمبر السابق، قد تملكه الغضب من المشهد لدرجة أنه مات ميتة انتحارية بهجمة واحدة على صفوف الأتراك المتجمهرة.

وكانت مذبحة طفس جزءاً من المرحلة النهائية لحلمه التى بدأت فى مايو ١٩١٨، حينما طلب لورانس من أللنبى ٢٠٠٠ ناقة، ذلك الطلب الذى بدا شديد المبالغة نظراً لتسريح فرقة الهجانة الإمبريالية بسيناء. وسأله القائد العام «لماذا تريدها؟»، فأجابه لورانس: «كى أُدخل ألف رجل فى درعا فى اليوم الذى تريده». وكانت خطته هى السير بقوة من الجنود النظاميين العرب على الإبل شمالاً من وهيده، المقر العربى الجديد المتقدم بالقرب من معان، إلى الأزرق ثم إلى درعا ومعها طابور إمداد ومدفعية وبنادق آلية وعربات مدرعة. وكان من المقرر أن يحملوا مؤنهم ويصلوا درعا خلال أسبوعين فقط، ويقوموا بقطع الخط الحديدى بمساعدة بدو روالة، ويكون هذا فى نفس الموعد الذى سيقوم القائد العام فيه بهجومه على سوريا. وتأمل أللنبى الطلب. وكانت الجمال نادرة فى الشرق الأوسط، كما كان أمين التموين فى الجيش بحاجة حثيثة إليها لفصيلة أخرى من الجيش. وأخيراً، أقنعه حماس لورانس. فقام بتسليم الإبل إلى الثورة العربية، وأسرع للقاء فيصل

عند أبو لسان في اليوم التالى وهو واثق أنهم قد حصلوا لتوهم على وسائل النصر الأخير. وتخلص في الحال من فرقة النقل المصرية التى كانت مشغولة تماماً بنقل المؤن بين العقبة وأبو لسان بأسلوب غير كفء. وأحل محلهم جمالين من مكة كانوا يعرفون كيف يسوسون الحيوانات بشكل أفضل. وأوكل إلى الكابتن هوبرت يونج، الضابط الذى كان لورانس قد التقى به فى كركميش قبل الحرب، أمر تنظيم نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم. وكان لورانس قد تخير يونج ليكون وكيلاً له إن هو قتل أثناء المعركة. إذ إنه كان يتحدث العربية بطلاقة كما كان على مقدرة تنظيمية من الطراز الأول. بيد أنه كان يعيبه سرعة الغضب التى جعلت من الصعب عليه التعايش فى سلام مع أى شخص. وقد ذكر نورى السعيد أن مزاج يونج كان عدوه الأسوأ، واستدعى هذا منه أن يقول لبعض الضباط العرب الذين كان يونج قد أغضبهم «لا عليكم، فهو يصيح فى الضباط البريطانيين بنفس الأسلوب» كى يهدئهم. ولولا كعب أخيل هذا لأصبح يونج لورانس آخر للعرب. إذ إنه بالإمكان القول إنه كان أكثر الضباط البريطانيين الذين عملوا مع العرب مقدرة، وكان تصوره لمتطلبات عملية ما، حتى ما سيحمله آخر جمل فى القافلة، تفوق بكثير مقدرة لورانس الزئبقى الذى كان يميل إلى السير بالإبل أولاً ثم دراسة الاحتياجات من المؤن فيما بعد. إلا أنه على حين أنه كانت للورانس مقدرة سحر ألباب الآخرين، كان ليونج مظهر وسلوك الطالب ذى النوايا الحسنة والذكاء المتقد والمزاج العكر. وفى فبراير من عام ١٩١٨ تلقى أمرا مبهماً فى مقر وظيفته بالهند ليسلم نفسه فى القاهرة، وقد كتب عن هذا قائلاً: «لم أكن على علم بشىءحتى دخلت إلى القيادة العامة فى فندق السافوى لأتسلم عملى وفُتح الباب ودخل شخص صغير الحجم.. فعرفت». وفى هذا الصدد، قال له لورانس: «طلبوا منى أن أقترح شخصاً يأخذ مكانى فى حالة حدوث شىء لى، وأجبتهم أن لا أحد يستطيع هذا. وحينما ضغطوا علىّ قلت إنه ليس هناك من اقترحه باستثناء جيرترود بل وأنت، ويبدو أنهم اعتقدوا أنك أنت الأفضل للقيام بهذه المهمة». وسرعان ما تحقق آلان داونى، قائد «القنفذة»، أن خطة «البديل الجاهز» لن تكون مجدية أبداً بسبب مزاج يونج الانفعالى، ورغم هذا، فقد عينه مسئولا عن الإمدادات والتموين.

وبحلول ٢٢ يوليو كان يونج قد أعد خطة مفصلة لإمدادات المهمة ووافق عليها

جويس، قائد الأركان البريطاني في قوات فيصل، وفيصل نفسه. وفي هذه الأثناء، كان لورانس في القاهرة يضع خططه للمهمة مع داوني الذي اقترح الاستعانة بآخر مجموعتين من فرق الهجانة الإمبريالية لإكمال المهمتين اللتين لم يستطع البدو حتى ذلك الحين إنجازهما. أي: تدمير المدورة، وتدمير الجسر الموجود في القصير شمال معان. وعلى غير المتوقع، وافق لورانس على هذا. وتم بعث برقية إلى جويس بالعقبة بها تعليمات بإقامة مستودعات مئونة وذخيرة للقوات غير النظامية في رُم وجفر وبير. إلا أن هذه التعليمات قوبلت بالاستياء في العقبة: فلم يتم استشارة جويس في الأمر، ورأى هو ويونج أن كل حمولة تنقل إلى عملية فرق الإبل، ستعني حمولة أقل لطابور الطيران في الأزرق ودرعا. وفي هذا الصدد كتب يونج: «ناقشت وجويس هذه البرقية ونحن نجز على أسناننا، وقررنا أنه ليس أمامنا سوى استخدام بعض الإبل التي لا تقدر بمال لمستودعات عملية المدورة». وفي ٢٨ يوليو، وصل لورانس إلى العقبة، وقرأ خطة يونج، وأدانها فورا على أساس أنها غير قابلة للتنفيذ. وكان أللنبي يعتزم تنفيذ التقدم الأخير إلى دمشق يوم ١٩ سبتمبر، وكان على العرب أن يستهلوا هذا التقدم ويسبقوا القوات بمدة لا تتجاوز أربعة أيام. وكانت مراعاة دقة التوقيت أمراً حاسماً. وكتب لورانس: إن كلمات أللنبي لي كانت «أن ثلاثة رجال وصبي بمسدسات أمام درعا في ١٦ سبتمبر.. أفضل من آلاف قبل هذا الموعد أو بعده بأسبوع». وكانت خطة يونج ستنتهي بأن يصل العرب إلى درعا بعد الموعد المحدد بأسابيع ثلاث. وكشف لورانس عن خطته التي وضعها مع داوني لتنفيذ عملية أكثر تحديداً وتحركاً ضد درعا. وفقد يونج تحكمه في نفسه، فرد لورانس بسخرية إنه قد نفذ عمليات كثيرة مماثلة قائمة على التحرك السريع بنجاح دون مساعدة جندي نظامي من خريجي إيتون المتعجرفين الذين ظهروا على المسرح. وأجابه يونج إجابة طاعنة بأن قال له (أي لورانس) إنه يقترح أن يقوم هذه المرة بتحريك جنود نظاميين بدلاً من البدو لأن النظاميين جد مختلفين. وسأله إن كان يتوقع أن يركب كل اثنين منهم ناقة وأن يعيشوا على لفائف قمر الدين والمياه لمدة أسبوعين؟ وسأله عن تصوره لمصادر الإمدادات. وعن إمداداتهم إن انسحبوا حيث إن خطة لورانس لم تأخذ في الاعتبار الانسحاب إن فشلت العملية. وكتب يونج «لم يعرف لورانس أبداً الكثير عن الجيوش النظامية»... ولم يكن لديه أي

تعاطف مع مشكلاتنا الخاصة بالنقل، إذ إنه كان ينظر إلى جميع التنظيمات العسكرية باحتقار شديد، ولم يكن لحرف Q (مصلحة أو قسم) الذى يحترمه النظاميون ويوقرونه عن حق مكان فى أبجدية لورانس». وكان الصراع فى جوهره بين محترف ألمعى وهاو ألمعى: وكان جويس قد اشتكى بالفعل لداونى (وكان له مبرره فى هذا) من أن لورانس كان يميل إلى إمطار القيادة العامة بوابل من الخطط الطموحة الجريئة المندفعة؛ إلا أنه حينما كان يحين موعد تنفيذ تلك الخطط المتهورة، كان يختفى. وانتهت المقابلة دون التوصل إلى اتفاق ولم يتحدثا مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام. واستاء يونج من اعتداد لورانس الزائد بنفسه حيث كتب يقول: « . . . إن منظر هذا الرجل الصغير وهو يقرأ «موت الملك آرثر» فى ركن من خيمة الطعام وعلى شفتيه تلك الابتسامة الشيطانية، لم يكن مطمئناً». وأخيراً، أذعن جويس وقبل خطة لورانس وأيضاً عملية فرق الإبل. وأُجبر يونج على الامتثال، واستعمل عبقريته لإيصال الإمدادات إلى نظاميى جعفر باشا فى وهيدة وأبو لسان، وقد نجح فى هذا ضد كل التوقعات. واعترف لورانس بهذا بالرغم منه فكتب «إن تسيير قافلة تموين منتظمة ومتناسقة كان محالاً. إلا أن يونج حقق هذا تقريباً، بأسلوبه الغريب الجاحد.. ويعزى إليه الفضل فى حل مشكلة إمدادات النظاميين على الهضبة».

وفى ٤ أغسطس، أرشد لورانس فرق الهجانة بقيادة بكستون إلى وادى رُم. وتركهم ليقوموا بالهجوم على المدورة بدونه، ثم طار إلى جفر ليقابل نورى الشعلان من روالة. وكان من الواضح أنه يخشى هذا اللقاء إذ إنه كان قد أكد للأمير أثناء رحلته إلى نبق عام١٩١٧ أن باستطاعته الوثوق فى أحدث وعود البريطانيين. أما الآن، فكان نورى على علم بنصوص اتفاقية سايكس - بيكو، وخشى لورانس من مطالبته «بنصف الصفقة غير الشريفة» التى اتفقا عليها فى ذلك اليوم البعيد فى الأزرق. ولم يفصح لورانس أبداً عن فحوى «نصف الصفقة» المبهمة؛ فقد قال إنه أثناء لقائهما فى جفر لم يطالبه الأمير بها، وأن اللقاء انتهى بتأييد الأمير الكلى لقضية الهاشميين. وعاد لورانس إلى جفر بالسيارة ليلتقى بفرقة الهجانة التى كانت قد نجحت فى الاستيلاء على محطة المدورة وتدمير برج المياه. ثم أكمل مهمة استطلاعية فى الأزرق على حين ذهبت الهجانة إلى جسر

القصير. وتم نبذ المهمة حينما اكتشفت الطائرات الألمانية صفوفهم، وأيضاً، فقد علم باكستون أن قبيلة بدوية معادية كانت قد عسكرت بينهم وبين هدفهم تحسباً لهم.

وفي هذه الأثناء، كانت ثمة أزمة بين النظاميين العرب في أبو لسان. فقد كانوا قد قرأوا تقريراً صحفياً أنكر فيه الملك حسين تعيينه جعفر باشا قائداً للجيش الشمالي. وكانت هذه آخر محاولات حسين لإخضاع ابنه فيصل لتحكمه، إذ كان فيصل قد رقى «جعفر» قائداً عاماً دون الرجوع إليه. وكانت الشكوك تملأ حسين من الضباط العرب النظاميين لخشيته أن «يستولوا» على الثورة. ولهذا السبب كان قد فصل عزيز المصرى، سلف جعفر، الذى كان قد طور استراتيجية للحملة العربية قبل لورانس بوقت طويل. وكان حسين يعلم أن فيصل ضعيف الشخصية، سهل الخضوع لتحكم مستشاريه فيه، وكان خوفه الأعظم هو اختطاف أطماع الحلفاء الإقليمية للقضية العربية. ورغم أن لورانس أرجع رد فعل حسين إلى «الغيرة» و«شهوة القوة»، فقد كانت الحقيقة هى أن الفرقة بين الهاشميين كانت فى صالح البريطانيين والفرنسيين مثلهم مثل الأتراك. وكان حسين يعتقد أن فيصل يقوم بفتح أبواب سوريا لأطماع الفرنسيين، ورغم ادعاء لورانس، فيما بعد، أن الرجل المسن كان مجنوناً، إلا أن النهاية برهنت على أنه كان محقاً.

وحينما قرأ جعفر باشا إعلان حسين أنه ليس ثمة «ضابط عربى تعلو رتبته على كابتن» استقال وتبعه فى الحال كل أركانه. كما استقال فيصل تضامناً معهم، ومن ثم، أصبح إيمان البدو بالولاء للهاشميين غير ذى معنى. وباستقالة فيصل تلاشت فرص تجميع قوة كبيرة من روالة، الأمر الذى كان لورانس يرتكن إليه للهجوم على درعا. وبدت الثورة العربية على وشك الانهيار بانقضاضة واحدة ضارية، وأسرع لورانس فى ٢٦ أغسطس إلى أبو لسان ليجد علاجاً لهذا الطريق المسدود. فقد كانت هذه لحظة حاسمة فى عملية درعا. وفي اليوم نفسه، وبينما كانت أولى قوافل إمدادات يونج على وشك مغادرة العقبة تعالت صيحات «طيارة، طيارة» إذ سُمع أزيز طيارتين ألمانيتين وظهرتا من بين ضباب الحرارة الذى كان يغلف وادى عربة وألقت بحمولتى قنابل على القوافل. وجن جنون الدواب التى قطعت

مقوداتها ونخعت حمولاتها ونشرتها على السهل. وأعاد يونج، وسط لعناته الصامتة واهتمامه التام بالتفاصيل، تنظيم وتجميع سُيَّاس الإبل، والتقط الأمتعة وأعاد تحميل الإبل وربط القوافل وأرسلها فى سبيلها مرة أخرى. إلا أن الضباط العرب فى أبو لسان رفضوا الذهاب إلى مواقع جديدة دون إشارة استرضاء من حسين. وأبرق لورانس إلى كليتون يوم ٣٠ أغسطس بأن هيئة أركان القنفذة ستتولى قيادة العملية التى ستسير كما كان مخططاً لها. وكان لورانس على علم بأنه رغم مقدرتهم على الاستيلاء على درعا بدون فيصل، إلا أن الدخول إلى دمشق بدونه كان يعنى القضاء على كل ما عملوا على تحقيقه طوال عامين. فحينذاك، سيصبح العرب دون قوة على التفاوض وسيقيم الحلفاء حكومة فى سوريا. ومن ثم، أخبر كليتون أن بإمكانه إبقاء الأمور تحت السيطرة لمدة أربعة أيام فقط، فإذا لم يتم التوصل إلى حل حتى هذا الوقت، سيصبح عليه أن يخلى المواقع الأمامية وأن تفشل عملية درعا التى يتوقف عليها مصير العرب كلية. ومرت الأيام متثاقلة ولم تصل كلمة من حسين. وأخيراً وفى يوم ٤ سبتمبر وصلت رسالة طويلة من الملك تتضمن اعتذاراً أعرج، وترديداً لنفس الاتهامات بشكل مختلف. وبكل تبجح، قطع لورانس جزء الرسالة غير المرغوب فيه، وكتب عليها «عاجل جداً» وأرسلها إلى خيمة فيصل.

وفى ٣ سبتمبر توجهت، عكس كل التوقعات، قافلة من النظاميين العرب ومعها خمس بطاريات مدفعية فرنسية / جزائرية بقيادة الكابتن بيسانى، على بغالها، إلى الأزرق وبرفقتها طابور مؤن. وقاد فيصل سيارته الفوكسهول لاستعراضهم، على حين كانت الإبل تخب على أراضى سهل شيراه المنخفض. وكتب يونج عن هذا: «... بينما كانت كل مجموعة تحيى فيصل، وصل بى الانفعال إلى أن شعرت بكتلة غريبة فى حلقى الملتحى من عظمة المشهد». وفى يوم السادس من سبتمبر، توجه لورانس إلى الأزرق فى عربة رولزرويس حربية مع الشريف ناصر الذى كان مقرراً أن يقود البدو أثناء الهجمة الأخيرة، واللورد وينترتون الذى كان قد نقل لتوه من فرقة الهجانة، التى تم تسريحها، إلى القنفذة. وبدأت قوة الهجوم فى التجمع طوال الأسبوع الذى تلاه. وفى ١٠ سبتمبر، هبطت طائرتان من السلاح الجوى الملكى، وحضر جويس وستيرلنج، اللذان كانا

قد عينا مؤخراً في المهمة العربية، في عربات مدرعة يوم ١١ سبتمبر. ثم وصل فيصل يوم ١٢ ومعه المسئول الطبي، وأتى خلفه نوري السعيد و ٤٥٠ من النظاميين العرب، وبيساني مع فرقة البنادق الجزائرية، وقافلة إبل الأمتعة المكونة من ١٥٠٠ ناقة ومعها يونج وفرقة من رجال التفجيرات المدربين من فرقة الهجانة المصرية بقيادة بيك، وفريق من جَمّالي قُرخة بقيادة سكوت هيجنز، وبدو روالة غير النظاميين بقيادة نوري الشعلان، والحويطات بقيادة عودة ومحمد الضحيلان، وبنو صخر بقيادة فهد، وعشائر السريدية والسرحيين والقرويين السوريين بقيادة طلال الحريفين. وبلغ المجموع حوالي ألف رجل. وكان لديهم من المعدات الحربية طائرتان بريستول، وأربعة مدافع جبلية سريعة الطلقات من نوع نابليون، وأربع وعشرون بندقية آلية، وثلاث عربات مدرعة بمقطوراتها. وكان هذا هو النصل الذي سينحت النصر الذي عمل لورانس من أجله طوال هذه المدة؛ فقد تحققت ذروة تبشيره بالثورة العربية. إلا أنه حينما اكتملت القوة الضاربة، انتاب لورانس الجزع، إذ تحقق أن وقت الحساب قد قرب مع اكتشاف خداع البريطانيين للهاشميين ودوره الرئيسي في هذه اللعبة بكل ما يحمله من ظلم وإثم. وشعر أنه قد جمع كل هذا «الطوفان من الرجال على وعد زائف، وجعلهم يقدسون مثالاً للوحدة لم يكن هو شخصياً يعتقد فيه». وكان الصراع بين المثال والواقع يعكس الصراع الداخلي الذي كان جزءاً من لورانس منذ الطفولة. أما العرب، فكانوا أكثر واقعية؛ فقد اتصل عودة أبو طيي بالأتراك حينما بدا هذا مواتياً، وتراجع بدو الحجاز عن القتال حينما ناسبهم ذلك، وحتى فيصل، فقد حاول إيجاد خط للتفاوض مع الأتراك. وظل نوري الشعلان محايداً حتى اتضح أن الهاشميين كانوا الجانب الرابح؛ بينما لم تلحق كثير من القبائل، وتقسيمات القبائل في الحجاز، وحتى في سوريا، بمسعى الهاشميين أبداً. وكان القوميون السوريون من أمثال نسيب البكري ـ الذي صب عليه لورانس هجومه القاسي ـ يقاتلون بالتأكيد من أجل الحرية. إلا أن قتال الهاشميين كان، أساساً، من أجل إرث الأسرة. وقد برهن كل من هؤلاء على حدة، على كونه متفجرات مبللة؛ فقد أضاع زيد وادي الصفراء، وكاد علي يفقد رابغ. وفصل حسين أفضل رجاله عزيز المصري، وأوشك على إحباط العملية الأخيرة بإنكاره أن جعفر باشا كان قائداً عاماً للقوات المسلحة. أما زيد، فقد كذب عليه؛

ورفض عبد الله مشورته. وشعر وهو في الأزرق بموجه بغض «لهؤلاء الساميين الحقراء المتجسدين أمامه»، وكره أيضاً نفسه لتظاهره لمدة عامين أنه صديقهم، على حين أنه لم يصبح أبداً واحداً منهم. وبدأ الرعب الرهيب من أن يقتل أويصاب يؤكد نفسه بعنف. وكان قد نجح في درء هذا الرعب لشهور عدة بإجباره نفسه على التظاهر بأعلى درجات الشجاعة الهرقلية والتضحية بالنفس. وكان يعرف أنه على وشك أن يفقد أعصابه وأن عليه، في خلال أسابيع، إما أن يستقيل من منصبه أو أن ينهار. ودهمه شعوره القديم بغرابة الأطوار وعدم الكفاءة حينما وجد نفسه وسط الحشود الكبيرة. وكان هذا الشعور قد اختفى أثناء رحلاته مع حرسه أو وجوده مع فيصل. وزاد الأمر سوءاً أنه قد سمع، ربما بين المجندين السوريين، أن داهوم، صديقه في فترة ما قبل الحرب، قد توفي. وكان الصبي قد ألحق كحارس في موقع كركميش حتى عام ١٩١٦، ثم لقيت نصف قوة العمل تقريباً حتفها في موجة رهيبة من المرض والمجاعة. ورغم أن لورانس لم يذكر داهوم بالاسم، فقد كتب أن أحد دوافعه الأساسية لقيادة العرب هي إهداء الحرية إلى عربي كان قد أحبه. وكتب أيضاً أن هذا الدافع اختفى قبل «بضعة أسابيع من نهاية الحملة» في إشارة منه، لا إلى احتمال موت داهوم عام ١٩١٦، بل إلى اللحظة التي سمع فيها عن وفاة صديقه. وكتب فيما بعد، وهو يؤلف قصيدته الإهدائية إلى «س. أ» (S.A)، أثناء طيرانه بين باريس وليون، «صنعت له الحرية كي أضيء عينيه الحزينتين: إلا أنه توفي وهو ينتظرني.. ألقيت بهديتي بعيداً؛ والآن لن أجد الراحة والسلام في أي مكان». وتحاشى لورانس وهو في الأزرق الصحبة، وسار وحده بحسرة وغضب وتخوف إلى عين الأسد في نوفمبر عام ١٩١٧ حيث يحتمل أن يكون قد قضى بعض لحظات الاستجمام مع علي حسين الحارثي، وهو صديق آخر، ربما شعر أنه قد لا يراه ثانية.

وكان وينترتون قلقاً بخصوص الأمن؛ ففي نفس لحظة وصولهم إلى الأزرق تقريبا. لاحت طائرة تركية، رغم استبعادهم احتمال مشاهدتهم أثناء الرحلة. وكان لورانس يعلم أن تجمع قوات الغزو في الأزرق لابد وأن يبلغ الأتراك، إلا أنه كان واثقاً أن العدو لن يغامر عبر الصحراء ليهاجمهم هناك. كما لم يكن بمقدرة الأتراك التنبؤ بموعد ومكان الهجمة. وكان لورانس من المهارة بحيث إنه أرسل

نقوداً إلى مثقال من بنى صخر مع تعليمات بالسرية التامة كى يبتاع شعيرا لزوم هجمة على السلط وعمان فى سبتمبر . وكان يعلم أن الخبر سيتسرب من عمان حتى درعا . وكان قد تم التخلى عن فكرة الهجوم المباشر على درعا لندرة المجندين من الروالة وحلت محلها استراتيجية التطويق بحيث تتمكن القوة الضاربة من قطع الخط الحديدى المتجه شمالاً وجنوباً وغرباً . وبذا ، تختنق حامية درعا وعددها ٥٠٠ جندى فى غياب خطها الحديدى . . وفى فجر ١٣ سبتمبر ، امتطى بيك وسكوت ـ هينجز ناقتيهما وقادا قواتهما المختلطة من اللغاميين المصريين ، والقرخة ، فى سكون ، وسط كتل البازلت ، وعبرا أراضى قيان الخونة الزلقة . وكانت مهمتهما تدمير الخطوط والجسور جنوب المفرق ، مما قد يؤوله الأتراك على أنه مقدمة للهجوم على عمان . أما القرخاوييون ، فكانوا مكلفين بالهجوم على المحطة ، بينما يقوم لغامو بيك بقطع الخطوط ، ثم تنسحب القوة بكاملها مع انبلاج الضوء وتغطى العربات المدرعة انسحابها .

وفى اليوم التالى سارت القوة الرئيسية ، وتعدادها حوالى ألف شخص ، وسط ركام البراكين وكانت الإبل تزمجر وهى تتعثر فى الحجارة . وامتطى نورى السعيد حصاناً فى مقدمة النظاميين العرب ، بينما تولى جويس أمر باقى العربات المدرعة ومقطوراتها التى كانت تسير فى الخلف على الحرّاء بجلبة . وسار يونج ممتطياً بغلا فى صف فرقة بنادق بيسانى الذين كانوا يمتطون البغال وكانت بنادقهم من نوع نابليون ترقد غير مغطاة ومثبتة على ظهور مطاياهم العريضة . وكتب يونج «حاولت أن أنسى أننا كنا فى الهواء دون وسائل اتصال أو سبل ممكنة للعودة» . أما نورى ، فكان أكثر استرخاء وتذكر أن خطة لورانس (B) كانت هى الاختباء وسط غابات الركامات البركانية فى جبل الدروز طوال الشتاء فى حالة فشل المهمة ، والعيش على ما تنتجه الأرض . وعلى الجانبين ، كان هناك غطاء من فرسان نورى الشعلان المختارين ، بالإضافة إلى وجود طائرة حربية من طراز بريستول كانت تحلق فى سماء الصحراء الزرقاء الصافية متجهة إلى أم الجمل حيث لحقت فيما بعد بطائرة ألمانية وأسقطتها مشتعلة فى الصحراء . ثم عسكروا فى المساء بين الأوتاد ، على القيان ، والتقوا فى الصباح بفريق بيك المهاجم وهم عائدون مشبطين من المفرق . فقد فشل الهجوم على المفرق إذ إنه لم ينقذ أبداً لأن بيك التقى بجماعة

من البدو كان الأتراك قد استأجروهم للدفاع عن الخط الحديدى. وعلى حين كان بمقدرة مسئول سياسى جذب أولئك البدو إلى صفوفهم، ، فقد أهمل لورانس إلحاق مثل هذا الضابط بالمجموعة. ولما كان بيك وسكوت ـ هيجنز يخشون قتال العرب، لذا فقد عادوا على أعقابهم. ولدى وصول لورانس فى الصباح من الأزرق فى عربته الرولزرويس «بلوميست» التى كان يقودها إس. سى، رولز، ثار غضبه لعدم إنجاز المهمة وقرر أن يأخذ إحدى العربات المدرعة وينجزها بنفسه بدلاً من إرسال بيك ليعيد الكرّة.

ترك لورانس القوة الرئيسية عند أم تايه يوم ١٥ سبتمبر، وكانت قرية رومانية مهجورة بها خزان مياه كبير وأصبحت فيما بعد نقطة للانطلاق إلى العملية، وانطلق مع جويس وونترتون باتجاه السكك الحديدية عند مفرق مع مقطورتين وعربتين مدرعتين. وسارعوا عبر سهل حورانى، وبعد الظهيرة، أبصروا هدفهم، وكان جسراً له أربعة أقواس قرب حصن عند الكيلو ١٤٩. وترك المقطورتين مع جويس وراء تل صخرى، وسارت عربة وينترتون بجسارة إلى الحصن وأطلقت سيلا من رصاصات مدافع فيكرز الثقيلة. وكان ثمة عدد قليل من الرجال يحرسون المكان فى خندق. ولدهشة الطاقم البريطانى، قفز هؤلاء من خنادقهم وتقدموا على مرأى من الجميع نحو العربة. وعلق رولز على هذا قائلاً: «... ونظرا لعدم معرفتهم إن كان يُتوقع منهم الهروب أم الاستسلام، فقد خرجوا من خنادقهم للاستعلام عما عليهم أن يفعلوه». واستنتج لورانس فيما بعد أن «ظهور العربة بتلك السرعة جعل الأتراك يعتقدون أنها لقوات صديقة». وقامت مدافع وينترتون بحصدهم دون هوادة بسيل من القذائف، على حين اقترب لورانس من الجسر فى العربة الأخرى التى قصفت مدفعيتها حراسه الأربعة بالمتفجرات فقتل اثنان واستسلم الآخران. واستولى لورانس على بنادقهم وأرسلها إلى جويس على التل. وفى نفس اللحظة تقريباً استسلم الحصن لوينترتون؛ واستغرقت العملية خمس دقائق.

بيد أن السلام لم يدم. فقد شاهد جويس ورولز من على التل دورية تركية من راكبى الإبل تسرع نحوهم. فقاما بقيادة سيارتهما إلى موقع لورانس ومعهم قطن

المفرقعات وساعدوه في إشعال المتفجرات وهم يهرولون غادين رائحين بين السيارات والجسر. وقاموا بزرع ست شحنات في ثقوب البالوعات بين أقواس الجسر وأشعلوها، ثم انسحبوا مسرعين قبل وصول دورية العدو. وفي ثوان حدث انفجار مهول حطم الأقواس الأربعة تحطيماً تاماً. واتجهت العربات إلى قاعدتها وأسرعت ومعها الأسرى على ظهورها. إلا أن سيارة لورانس «البلوميست» تعطلت وكسر أحد أجزائها. وكان العدو على وشك الوصول إليهم خلال عشر دقائق. وقفز رولز وهو يتحسر على الرولزرويس وحاول تسييرها. وبدأ إطلاق النار وكان رولز يعمل بهمة وقد أغرقه العرق. وتم تسييرها بشبه معجزة بينما كانت الرصاصات تتساقط على الحجارة من حولهم. وأسرع لورانس وجويس بتنظيف المسار وقفزا في العربة وقاداها بأقصى سرعة لها باتجاه أم التايه. وهناك وجدوا أن نورى السعيد قد توجه مع القوة الرئيسية إلى تل عرار. ومكثوا تلك الليلة في أم التايه لإكمال إصلاح العربة قدر استطاعتهم. وفي يوم ١٧ خرجوا للحاق ببقية قوة الهجوم وهم واثقون أن الخط الحديدى سيتعطل لمدة أسبوع على الأقل.

وفي الساعة الثامنة صباحاً لحقوا بالطابور الرئيسي في الوقت الذى كان فيه نورى السعيد قد بدأ في نشر النظاميين للهجوم على الحاجز الدفاعي في تل عرار على بعد خمسة أميال شمال درعا، وكان يتولى حراسته عشرون من الأتراك. واندفع فريق من خيالة روالة اندفاعة رائعة أسفل الخط، ثم ترددوا هناك ظناً منهم أنهم استولوا عليه بسهولة. وسار نورى السعيد ويونج في مقطورة فورد، وكانوا على وشك التمتع بجرعة من الويسكي احتفالاً بالمناسبة، حينما قرقعت بندقية آلية تركية من الحصن، واندفع نحوهم ضابط في لباس نومه وهو يزعق ويلوح بسيف أعقف مثل الشبح. ونظر إليه الضابطان مشدوهين، ثم تحققا أن الحامية في القلعة كانت نائمة، فأخرج نورى مسدسه وأطلقه على المهاجم، بينما اندفع يونج، الذى كان أعزل، ليأتي بالمدفعية الفرنسية. وسرعان ما أطلق جنود بيساني من حملة مدافع نابليون نيرانهم وأسكتوا المدافعين عن الحصن بسيل من المتفجرات. ثم تقدمت خيالة روالة، مع دعم من النظاميين إلى الداخل واستولوا على الحصن. وتسلق نورى ولورانس وجويس قمة التل لإلقاء نظرة على مدينة درعا ومحطة مزريب وغزالة إلى الشمال والغرب منها. وكانت الخطوة التالية هى زرع ٦٠٠

شحنة متفجرات على الخط الحديدى والتى قدر لها لورانس أنها ستدمر ٤ أميال من الخطوط تماماً وتعطل المرورخارج المدينة لمدة أسبوع. وبعد الإفطار بدأ اللغامون المصريون ورجال البنادق الجزائريون فى تثبيت الألغام على المسارات. وأثناء انتشارهم، تفحص لورانس مطار درعا بمنظاره المعظم وأقلقه أن رأى تسع طائرات على الأقل تخرجها فرقة ألمانية من حظائرها. ولم يكن لدى رجال لورانس غطاء جوى. وكانت طائرة ميرفى من طراز بريستول قد ثقبت أثناء اصطدامها مع الطائرة الألمانية فى أم الجمل وعادت إلى الأزرق لإصلاحها. وراقب لورانس رجال بيك وهم يعملون على الخط وتعجب ما إن كان بإمكانهم زرع عبواتهم الستمائة قبل وصول الطائرات. وفجأة انفجرت أول زنبقة محدثة ضوضاء كالرعد، وذيلاً كثاً من الدخان الأسود. وفى نفس الوقت تقريباً حلقت طائرة استكشاف من طراز فالز فوق التل، فاندفع لورانس ونورى يبحثان عن غطاء ما. وبعد لحظات، خرجت طائرتان قاذفتان من طراز الألباتروس وأربع طائرات استكشافية هابرشتات من درعا، ثم حامتا وانقضتا وهما تقصفانهم بنيران المدفعية الآلية، وتسقطان حمولات من المتفجرات الأمر الذى أدى إلى تصاعد أعمدة من كسارات الحجارة على شكل حرف V عبر السهل. وحدثت جلبة بين صفوف العرب، وكتب رولز عن هذا «تناثرنا فى كل الأنحاء، وزحفت سريعاً تحت مقطورتى. .وتساقطت القنابل مرسلة أعمدة من الدخان والأتربة». وبسرعة يائسة، مَوْضع نورى رجال مدفعيته من طراز الهوتشكيس فى فتحات على سفح الجبل، وسرعان ما ارتسمت أشكال من الذخائر الخطاطة عبر السماء، وأجبرت الطائرات على الارتفاع خارج مدى القصف. ووجه بيسانى بنادقه إلى أعلى وأرسل قذائفه، دون جدوى، باتجاه الطائرات التى والت ارتفاعها. وعلى الخط الحديدى، استمر اللغامون المصريون يزرعون شحناتهم بمنهجية النمل. وفى هذه اللحظة، حلقت المقاتلة بريستول الثانية بقيادة الملازم جونور بتحد وسط الطائرات الألمانية وتركت طائرات الألباتروس والهابرشتات قصفها وهجومها وتعقبت البريستول. ومنح هذا العرب مهلة مؤقتة. وفى الحال، نظم لورانس فرقة لتخرج وتقطع فرع فلسطين من الخط الحديدى عند مزريب لإكمال عزل درعا. وبعد نصف ساعة فقط، وبينما كان هو وحرسه يتأرجحون على الأسرج، عادت طائرة البريستول التى يقودها جونور

متعثرة بينما كانت الطائرات الألمانية تئز حولها مثل سرب النحل. وعرف لورانس ويونج أن وقودها كاد ينفد. وصرخ يونج في الرجال آمراً إياهم بتمهيد شريط من الأرض لهبوطها. وبينما وقف الآخرون يرقبونها عاجزين، فقدت ارتفاعها سريعاً وارتدت إلى المدرجة المؤقتة واصطدمت بكتلة صخرية واستقرت بعنف على ظهرها. وقفز جونور من كابينة القيادة المحطمة، واختطف معه بندقيته اللويس، والفيكرز وبعض الأسلحة الأتوماتيكية ذات الذخيرة الخطاطة ثم هرع إلى العربة التي كان يونج قد أتى بها لالتقاطه. وبعد ثانية حلقت إحدى طائرات الهابرشتات على ارتفاع منخفض وأصابت البريستول المحطمة مباشرة بقذيفة فانفجرت مشتعلة.

وعلى الفور، امتطى لورانس ناقته باتجاه مزريب ومعه نوري السعيد ورجاله، وخلف وراءه مائة نظامي فقط من القرخة وروالة، والعربات المدرعة في تل عرار. وكان يأمل أن تبدو قافلته كقوة من البدو، إلا أن الطائرات الألمانية ظهرت مرة أخرى، وحلقت ببطء رائع، وأسقطت أربع قنابل باتجاه الإبل المهرولة. ولم تصب الثلاث الأولى أي هدف، إلا أن الرابعة انفجرت وسط الإبل تماماً محدثة قرقعة تصم الآذن، وأسقطت اثنين من حرس لورانس وضربت مطياتهما بعنف. ونهض الاثنان واندفعا إلى أسرج رفاقهما، وسرعان ما ظهرت طائرة أخرى وأسقطت شحنة من القنابل تسبب انفجارها في أن تدور ناقة لورانس حول نفسها وكادت تقذف به من على السرج. ثم شعر بإحساس حارق في مرفقيه لدرجة أنه بكى من الألم. وللحظة رهيبة ساوره الاعتقاد أنه فقد إحدى ذراعيه، إلا أنه حينما أزاح ثنية عباءته وجد أن قطعة من شظية قد أصابته ولم تتسبب في ضرر حقيقي نظراً لصغر حجمها.

وفي غضون نصف ساعة كان نظاميو نوري وفرقة أسلحتهم الآلية قد استولوا على المحطة الأولى من محطتي مزريب. وتسلق لورانس ونوري إلى السطح ليقطعا خطوط البرق وكانا يفعلان هذا «ببطء واحتفاء لنتخلص من غضبنا»، كما كتب لورانس، ثم ركزا اهتمامهما على الخط الحديدي على حين كان رجال نوري يتولون أمر المحطة الثانية. وبدأ يونج في زرع الزنابق على طول المسارات في اتجاه الشرق،

على حين فجر لورانس نقاط المحطة نفسها. وكتب يونج «كنت قد زرعت اثنتى عشرة زنبقة حينما دفعنى شيء ما إلى النظر بطول الخط إلى درعا. وتوقف قلبى إذ رأيت قطاراً يزحف ببطءخارج المدينة باتجاه مزريب» وكانت أول فكرة خطرت ليونج هى تحذير لورانس ومن ثم هرول إلى المحطة وهو يصيح «قطار قادم» فسأله لورانس «طائرة؟». فصاح يونج «ليست طائرة أيها الغبى، بل قطار».

وبهدوء، أجابه لورانس أن الوقت قد حان لإشعال المتفجرات، وقفز يونج راجعاً باتجاه القطارالقادم، وبحث عن فتيل دون جدوى. فأشعل سيجارة وألهب بها الصمام الكهربائى (الفيوز) وقفز على ناقته ليهرب وقد نسى أنها مصابة فى أرجلها، وتعثرت الناقة فى مشيتها، وكاد يونج يسقط، ثم قفز من سرجه وهرول بسرعة محمومة. وأرسلت الزنابق دخاناً، وقرقعت الواحدة بعد الأخرى. وفى الحال، غير القطار اتجاهه، وسار فى الطريق العكسى راجعاً إلى درعا. وعند غروب الشمس، وبعد أن نهب العرب المحطة بالكامل، أشعل لورانس ويونج النيران فى قاطرات السكك الحديدية وعرباتها.

ثم استراحوا قليلاً فى مزريب حيث لحق بهم آلاف من فلاحى حوران. وأثناء الليل، سار لورانس ويونج بضع مئات من الياردات من جسر تل الأشهب، الذى كان قد فشل فى الاستيلاء عليه مع الشريف على فى وقت مبكر من العام. وبدا وكأن ثمة تعويذة تحمى الجسر، حيث إنهم وجدوا أن هناك بطارية مدفعية ألمانية تدافع عنه. ومرة أخرى، أجبر لورانس على الانسحاب. وكان قد تم تدمير السكك الحديدية جنوب وشرق وشمال درعا، وعزل الحاميات التركية. ونجحت المهمة، ولم يتبق سوى اللحاق بالآخرين.

ولحقوا بمجموعة نورى، عند رمثة فى الصباح. وبدأوا ينسحبون إلى أم مطية كى يلحقوا بجويس والعربات المدرعة. واتضح أن مسيرة العودة كانت مرهقة للأعصاب، فقد كان الألمان خلفهم، وكان ثمة احتمال أن يجدوا دعماً من عمان على الخطوط الحديدية أمامهم. كما أن فلاحى الرمثة أظهروا عداء لهم. هذا، إلى جانب توقع هجوم جوى فى أية لحظة. وسار لورانس مع حرسه قدماً ليلغم الخط الحديدى على مقربة من نزيب، والذى كان يقع فى طريق انسحابهم. ووضع نورى

شحنة كاملة من المتفجرات فى المحطة بهدف إشغال الأتراك عن العرب أثناء عبورهم القضبان، وأيضاً من أجل إبعاد الحراس عن الجسر كى تتاح الفرصة للورانس لزرع شحنة مقدارها ٨٠٠ رطل من المتفجرات. وبعد الظلام، زحفت الفرقة بأكملها عبر الخط دون أن يراها أحد. وأشعل لورانس الشحنة تحت غطاء من صخب مدافع بيسانى بعد أن تم نقل المدفعية بأمان. وكتب يونج يصف المشهد «حدث هدير هائل وتوهج أضاء المكان لأميال. وشاهدت على هذا الضوء قوس كتف الجسر يقتلع تماماً ومعه كتلة البناء بأكملها التى انزلقت ببطء أسفل الوادى». ثم عسكروا على بعد ميل من مسار القطارات واستيقظوا مع انبلاج الضوء وقد صدمهم صوت قنبلة انفجرت عن قرب. وكان الأتراك قد أحضروا مدفع ميدان محمل على عربة سكك حديدية وضبطوا مداه بواسطة طائراتهم الاستكشافية. ومن ثم، امتطى العرب إبلهم وهرولوا مسرعين خارج مدى القصف. ثم التقوا فى وقت متأخر من اليوم مع جويس عند أم تايه، وعاد لورانس بالسيارة يوم ١٩ سبتمبر. ثم طار فى اليوم التالى إلى فلسطين ليتلقى التعليمات ويتابع تقدم أللنبى.

وفى صباح ٢٢ سبتمبر، وبينما كان يونج وكيركبرايد يقْلُون المقانق للإفطار فى أم شراب إلى الجنوب من أم تايه، ظهر لورانس ومعه ثلاث طائرات. ثم تبعته فى عصر هذا اليوم قاذفة قنابل من طراز هاندلى بيج التى أنزلت ذخيرة للقوات، ورفعت معنويات العرب عندما شاهدوا ضخامتها. وكانت الأخبار التى وصلت من فلسطين مثيرة؛ فقد سقطت نابلس وحيفا وأفولة وبيسان وشمخ. وتم أسر ٢٢٠٠٠ من القوات التركية، وصدرت الأوامر إلى الجيش التركى الرابع فى عمان بأن يرتد إلى درعا ودمشق. وكان الأُتراك يتراجعون هاربين، وكان على قوات لورانس الإغارة لإعاقتهم وقطع خط التراجع عليهم. وكان الأتراك يعدون بعشرات الألوف ومزودين بالمدفعية والبنادق الآلية، وفى حالة يأس. وبالمقارنة، كانت القوة العربية مجرد برغوث. وعن هذه المناسبة كتب وينترتون قائلاً: «لاحظت بفخر، وبدون أى خوف.. أن لورانس كان قد عقد العزم على إقلاق الأتراك المنسحبين مثلما اعتادت كلاب الحراسة من نوع الدرواس إقلاق الدب داخل الحلقة، دون اهتمام بالنتائج المحتملة». وكان الأتراك قد تمكنوا من إصلاح الخط

الحديدى بسرعة مذهلة، وكان لورانس يتوقع أن يتعطل لمدة أسبوع. وكان على لورانس أن يواصل الضغط على الخط، وأن يعمل على إثارة فلاحى شمال حوران أخيراً. وكان من المخطط له أن تلحق بقوته ثلاثة آلاف من قوة إبل نورى الشعلان والرواليين الذين كانوا ينتظرون فى أجراف الأزرق. وفى اليوم التالى توجه نورى السعيد ونظاميوه ومعهم يونج وستيرلنج ووينترتون فى العربات المدرعة، وقافلة نورى الشعلان على رأس الرواليين. وضربوا الخط الحديدى عند الكيلو ١٤٩ حيث كان لورانس وجويس قد حطموا الجسر من قبل. فقاموا بتدمير ثلثى ميل من القضبان وأحرقوا السقالات التى كانت قد استعملت فى إصلاح الجسر. وكانت هذه هى الضربة الأخيرة لجهودات الأتراك فى السكك الحديدية، فكفوا بعدها عن المحاولة. وبدأت حامية عمان فى الانسحاب إلى درعا سيراً على الأقدام ومعها كل مدفعيتها ووسائل النقل. إلا أن لورانس لم يكن على علم بهذا التطور. وفى يوم ٢٤ سبتمبر، توجه هو ووينترتون وضابط عربى يدعى جميل فى عربة مدرعة لتدمير جسر آخر جنوب مرفق. وكان وينترتون قد تردد فى اللحاق بالمهمة إذ اعتقد أنها غير ضرورية، وأن لورانس قد أصبح يحارب من أجل الحرب. وأتوا جسراً وحصناً صغيراً، وتقدم لورانس فى سيارة لفحص الهدف حينما بدأت بندقية آلية ومدفع ميدان من زنة ٧ أرطال فى إطلاق النيران عليهم من الحصن. وكان قائد العربة الحربية حريصاً على عدم تحدى المدفعية. وبثقة، اقترح لورانس على وينترتون أن يحمل كل منهما بندقية لويس ويزحفوا إلى الحصن ويمطراه بسيل من القذائف على حين تقوم العربات المدرعة بقصفه من الأمام. واعتقد وينترتون أن لورانس قد جن جنونه وسأله «كيف لنا أن ندخل مدى القصف دون أن نقتل؟.. إنهم سيبصروننا ويحولوننا إلى لهيب مشتعل.. هل هناك من سمع أبداً عن الاستيلاء على حصن ببندقية لويس؟» وسأله لورانس إن كان سيادته قدأصبح جباناً؟ فأجابه وينترتون «بالتأكيد لا، لكن كل ما أستطيع قوله هو أنه إذا نجح هذا الاقتراح وقدر لنا أن نعيش فسنكون جديرين أن نمنح وسام V.C (صليب فيكتوريا)». وأتاح هذا للورانس برهة للتفكير، ورأى أن يعود إلى الخطة الأصلية التى تقضى بأن يتم قصف الحصن من العربات المدرعة بهدف إتاحة وصول عربة إلى أسفل الكوبرى وزرع المتفجرات فى حمايتها. وتدحرجوا إلى الأمام تحت وابل

من النيران الثقيلة، وكانت الطلقات تقعقع على دروعهم والقنابل تنفجر من حولهم حينما ظهر جندى تركى خلف سيارة لورانس وقذفها بقنبلة يدوية. وكان لورانس يعلم أن العربة غير محصنة ضد القذائف اليدوية وأن اشتعال قطن القنابل الموجود فى مؤخرتها سيؤدى إلى تقطيعهم إرباً. وفجأة أخبر سائق وينترتون سيده أن عربة لورانس كانت تسير فى الاتجاه المعاكس خارج نطاق العمليات. وسأله «ما أوامرك أيها السيد؟» وأجابه وينترتون «ابتعد إلى خارج نطاق القصف بأكثر سرعة ممكنة».

وفيما بعد قال وينترتون إنه بينما كانوا فى طريق عودتهم إلى المعسكر المؤقت حاول مطاردة بعض الغزلان، إلا أن لورانس توقف ليوبخه غاضبا. واستطرد قائلا «لقد كان انفعاله لدرجة انفجار غضبه، النادر الحدوث، لاصطياد غزالة، أحد تصرفاته النمطية».

ولدى عودته إلى أم شراب وجدوا الشريف ناصر على وشك التحرك إلى أم طيى، وسمعوا للمرة الأولى أن الجيش الرابع التركى كان يتدفق خارجا من عمان. واقترح لورانس ترك الأتراك الهاربين للبدو المحليين ليقضوا عليهم، وأن يتحركوا هم إلى الشيخ سعد شمال درعا ويحاولوا فرض جلاء فورى عن درعا إلى هناك. وتمت الموافقة على الفكرة، ومن ثم تقرر إرسال الطائرة والعربات المدرعة مرة أخرى إلى الأزرق لتنتظر التحرك الأخير للهجوم على دمشق. وتحرك طابور القوات عصر يوم ٢٥ سبتمبر، إلا أنهم ماكادوا يقطعون حوالى أربعة أميال أبصروا سحابات غبار فى الأفق. فقد كان ثمة عشرة آلاف جندى ينسحبون باتجاه درعا فى حماية مفرزة طوارئ من الفرسان تحيط بهم من الجانبين. وقامت إحدى الطائرات بإسقاط رسالة على القافلة مؤداها أن الخيالة الأتراك كانوا يقتربون منهم. ولم تكن هذه هى اللحظة المناسبة. فقد كانت بنادق بيسانى مفككة على البغال. وقرر لورانس وناصر ونورى أن يجنبوا النظاميين وأن تتقدم خيالة روالة بقيادة نورى الشعلان ليواجهوا نيران الأترك. وفجأة ظهرت قافلة العربات المدرعة التى كانت قد شاهدت العدو وقطعت السهل عائدة تتبعها ستائر الغبار واستعدت للاشتباك مع الأتراك. إلا أنه اتضح أن هؤلاء الأتراك كانوا مجموعة من الشاردين وكانوا

يبحثون عن أحد أقصر الطرق. وهكذا ساروا مباشرة وسط صفوف غير النظاميين من العرب الذين أسروا منهم ما يربو على المائة.

وعسكرت القوات هذا المساء فى نويمة، وذهب يونج، الذى كان منصبه الرسمى هو «المستشار العسكرى» للحملة، إلى خيمة لورانس فى منتصف الليل وقال إن العرب قد أدوا دورهم وأن عليهم الرجوع الآن إلى بُصرة فى جبال الدروز حيث كان الدروز مجتمعين تحت قيادة نسيب البكرى. وأن بإمكانهم الانتظار هناك حتى يستولى البريطانيون على دمشق. ورفض لورانس الإنصات إلى هذا إذ اعتقد أنه من الضرورى أن يرى الناس أن العرب هم من استولوا على دمشق. ومع انبلاج ضوء اليوم التالى عبروا الخط الحديدى قرب غزالة وقام لورانس بزرع لغم فى أقرب جسر، بينما أسرع عودة ورجاله من إلحويطات للاستيلاء على المحطة عند خربة الغزالة، وهناك قام بأسر مائتى تركى واستولى على بندقيتى جبل. وهجم طلال مع رجاله الحوارنيين الضوارى على عزرا - التى ادعى لورانس أن الخائن عبد القادر كان يدافع عنها - وطردوا حاميتها الصغيرة واستولوا على مستودع حبوبها. وأسرع الروالة على إبلهم فى الطريق الرئيسى باتجاه درعا وهم يبحثون عن الأتراك الشاردين وعادوا بأربعمائة أسير وعدد من البنادق الآلية. وفى فجر ٢٧ سبتمبر كان طابور القوات قد استقر لتوه بين بساتين الزيتون فى منطقة الشيخ سعد حينما أسقطت عليهم طائرة من السلاح الملكى الجوى رسالة تقول إن رأس حربة أللنبى - أى فرقة الفرسان العاشرة التى تسبق كتيبة الجنرال بارو الهندية - كانت بالفعل فى رمثة بعد أربعة عشر ميلاً من مؤخرة الأتراك الهاربين. وكان طابوران كبيران من الأتراك المتراجعين؛ ٦٠٠٠ من درعا وألفان من مزريب - يقربان المنطقة.

وكانت هذه هى الفرصة المرتقبة. وقرر لورانس وناصر ونورى أن يتركوا الطابور الأكثر عدداً يمر ليتولى أمره رجال خيالة الروالة ورجال حوران، على حين يهجم النظاميون على مجموعة مزريب الأقل عدداً ويقضون عليها. وكانت المجموعة التركية فى طريقها إلى طفس. وكان طلال، وهو شيخ من القرية، يحاول يائساً أن يستبق العدو إلى هناك ليمنعهم من دخولها. وطبقاً لتقرير عربى، سارع طلال مع رجاله من الحورانيين وهاجم الأعداء بعنف، إلا أنه قتل بقنبلة تركية

يدوية. وإذا كان هذا التقرير صحيحاً يكون طلال قد مات قبل وصول الشريف ناصر وعودة اللذين تبعهما سريعاً نورى السعيد والنظاميون، مع بيسانى وفريق مدفعيته. وكتب قائلاً: إنه لدى وصولهم طفس، كان العدو هناك بالفعل، وكانت ثمة طلقات متفرقة من الداخل تنذر بالشؤم، وحجب من الدخان الأزرق تتصاعد من المنازل. وسرعان ما بدأ الأتراك يسيرون بانتظام، يتقدمهم ويتبعهم حملة الرماح، ثم طوابير المشاة وعلى جناحيها فرق البنادق الآلية، وفى الوسط، المركبات، بما فيها سيارة جمال باشا. ولدى ظهور الطابور بين المنازل، زمجرت بنادق بيسانى، واندفعت منها الذخائر وفوجئ العدو بهذا. وطبقا لرواية لورانس، فقد تسلل هو وطلال مع فرقة البدو، وقابلهم منظر يبعث على الغثيان، إذ كان قائد الحرس الخلفى التركى قد أمر بذبح أهل القرية، فقام رجاله بطعن وإطلاق الرصاص على عشرين طفلا صغيرا وأربعين امرأة. وأثناء سير لورانس وجماعته رأوا طفلة ضئيلة الحجم (فى حوالى الرابعة) تحاول الهرب. فقفز عبد العزيز، أحد أفراد حرس لورانس، عن ناقته واحتضنها. وكانت قد أصيبت فى رقبتها ولوث ثوبها الدماء. فحاولت الفكاك منه وهى تصيح «لا تضربنى يابابا»، ثم سقطت ولفظت أنفاسها. وسار موكبهم فى أنحاء المكان الذى شوه فيه الأتراك جثث نساء القرية، ولحقوا بالأتراك الجرحى الذين طلبوا الرحمة. إلا أنهم أطلقوا عليهم النيران من مسافات قريبة. ووقف لورانس ينظر صامتاً بينما كان أحمد الزاعاقى، أحد حراسه يطلق ثلاث رصاصات فى صدر رجل عاجز. وكتب لورانس أنهم حينما اقتربوا من طابور الأتراك، صاح طلال صيحة رهيبة ولكز جواده ومضى بأقصى سرعة وهو يتأرجح على السرج وسط طابور الأتراك المنسحبين. وتحرك لورانس ليلحق به، إلا أن عودة منعه، فقد كان هذا موعد طلال الخاص مع الموت. وطبقاً للورانس، هجم الرجل مباشرة على فوهة بندقية آلية وهويصيح صيحة الحرب «طلال، طلال» إلى أن اخترقت الرصاصات جسده وسقط عن سرجه بين رماح الأترك. وكان لورانس وعودة يرقبان الحادث المروع عن بعد، وفى النهاية علق عودة قائلاً «سوف يدفعون الثمن».

وكان وجود حاجز من المدفعيين قد تسبب فى إحداث صدمة للأتراك جعلهم يتفرقون مذعورين. وتجمع جزء منهم مكون فى غالبيته من رجال المدفعية الآلية

الألمان والنمساويين والتصقوا حول ثلاث سيارات وقاتلوا كالشياطين مبرهنين بذلك على أنهم أقوى من أن يتعامل معهم العرب الذين تركوهم ليذهبوا لحال سبيلهم. إلا أنهم احتجزوا المجموعتين الأخيرتين وقطعوهم إرباً حيث إن لورانس قد أصدر أمره قائلاً «لا أسرى». وأخذ العرب يهاجمونهم المرة تلو الأخرى كشياطين الانتقام وقطعوهم إرباً رجلاً رجلاً. وعن هذا كتب لورانس «وتحت ضغط جنوننا الذى ولده رعب طفس أخذنا نقتل ونقتل، حتى إننا كنا نطلق النار على رءوس من قُتلوا، وحتى على رءوس الحيوانات، كما لوأن موتهم ودمهم السائل كان سيطفىء لوعتنا». وتجمع آلاف من قرويى حوران على جوانب الطابور التركى مثل حيوانات القمامة والتقطوا بنادق العدو أثناء تساقط أفراده صرعى ولحقوا بالعرب الآخرين فى عملية القتل. وبحلول المغرب كانت مئات من الجثث المغطاة بالدماء قد تناثرت فى أنحاء طفس. وطبقاً للورانس، كانت ثمة مجموعة من العرب لم تسمع بالأمرالذى أصدره عن عدم أخذ أسرى، فقبضوا على مائتين وخمسين رجلاً بينهم عدد من الألمان والنمساويين. وبينما كان لورانس يركب فى المدينة أراه الآخرون أعرابيا يدعى حسن كان الأتراك قد ثبتوه فى الأرض بحراب ألمانية وهو جريح إلى أن مات. وبما أن لورانس لم يكن يريد أحياء من الأعداء، كان هذا هو العذر الذى يتلمسه. وكما أخبر أخاه آرنى، فقد أمر فريقاً عربياً بإطلاق المدافع على الأسرى وقتلهم جميعاً، وأنه قد شعر أنه بفعله هذا أنه لا ينتقم فقط لأجيال طفس،بل لأجيال لا تحصى من العرب سحقهم طغيان الأتراك البغيض.

وقد روج فيلم دافيد لين «لورانس العرب» لصورة لورانس السادى المتعطش للدماء الذى أطلق التعذيب الذى تعرض له فى درعا قسوته الكامنة، ويصور الفيلم لورانس وهو تتساقط منه الدماء بعد معركة طفس. فما حقيقة هذه الصورة؟ فالقراءة المتأنية «لأعمدة الحكمة» تبين تسلط هاجس القسوة عليه. وقد أخذ البعض هذا على أنه يبين طبيعة لورانس السادية. فقد وصف كيف أسر رجاله صبياً من الرعاة، فى هجومه الأول على السكك الحديدية قرب أبو النعام، وتركوه موثقاً وهددوه بالقتل وأخذوا يذبحون عنزاته. هناك أيضاً وصف لمشاهد جلد كان «فرج وداعود» يعانيانها باستمرار عقاباً على ألاعيبهما وهذرهما، هذا بالإضافة إلى أنهما كانا يجبران على الجلوس على الصخور الملتهبة ويسلسلون بالحديد

لأسابيع . كما ذكر أيضاص فى «أعمدة الحكمة» أنه قد تم التهجم على شاب شركسى أعزل وربطه إلى ناقة وسَحْله عارياً وشق قدميه بعرض الكعبين بالمشرط ، وكان هذا تهجماً مقززاً لا جدوى منه . كما سجل لورانس حادثاً شاذاً آخر حينما انتزع أشواكاً من شجرة سفط وغرسها فى جسد رجل عقاباً على جريمة غير مفهومة . أما العقوبات الأكثر سادية فلم يسجلها الرحالة العرب العظام كما هو معتاد بينهم ، وتبدو غريبة على الثقافة العربية . وكتب ويلفرد تسايجر أن البدو كانوا يحرصون على كرامة الإنسان لدرجة جعلتهم يفضلون قتله على إهانته . وقد تكون بعض هذه التقارير تخيلية ، أى أنها كانت تعبيرا عن المازوكية لا عنت فنتازيا سادية . لقد كان اهتمام لورانس الدائم بآلامه الشخصية ومعاناته يوضح أنه لم يكن يتوحد مع مرتكبى هذه العقوبات المتخيلة ، بل مع الضحايا . وعلى حين أنه يمكن ملاحظة ميله إلى المازوكية بوضوح طوال حياته فليس ثمة أطوار سادية يمكن ملاحظتها . فقد كان لورانس بطبيعته لطيفاً رقيق الأحاسيس ومتعاطفاً مع الآخرين . وإثباتاً لهذا ، كتب صديقه ڤيڤيان ريتشاردز «يقولون إن شكل فمه يوحى بالقسوة . . . فهل ثمة أثر لهذا فى طبيعته ؟ إننى لم أجد أى أثر للقسوة إبان السنوات الثلاثين التى عرفته خلالها . . . إن الحرب التى خاضها توضح فقط حساً شديداً بالعدالة ، على حين كان الصبر والرحمة سيؤديان إلى شر أعظم» . كما كتب أليك كيركبرايد الذى كان مع لورانس فى نهاية الحرب السورية «من الهراء التام أن نصفه بأنه كان سادياً أو مغرماً بالقتل . . لقد أخبرنى مرة أن مثاله لشن الحرب كان مستمداً من جماعات المرتزقة فى إيطاليا فى العصور الوسطى ،أى الوصول إلى الهدف بأقل الخسائر من الجانبين» .

وفيما يخص ما حدث فى طفس ، يأتى لورانس بادعائين فى «أعمدة الحكمة» لكل منهما علاقة بالآخر : أولاً أنه أصدر للعرب أمراً بأنه لا يريد أسرى ، والثانى هو أن النظاميين العرب قتلوا أعداداً كبيرة بموافقته ، إلا أنه لم يذكر تحديداً أنه أصدر الأمر بقتل الأسرى . فقد ظهر هذا الادعاء فقط بعد الحرب فى حديث مع شقيقه آرنى . وخلافاً لغالبية الأحداث فى حياة لورانس ، فقد كان هناك شهود على معركة طفس . فقد كتب فريد بيك إلى آرنى لورانس أن أخاه قد حاول بالفعل وقف قتل الأتراك . وكان فريد قد وصل إلى طفس عقب وصول لورانس بوقت قصير

ورأى البشاعات بنفسه. وأضاف بيك أن العرب حينذاك كانوا قد فقدوا المقدرة على التحكم بأنفسهم، لذا طلب منه لورانس لدى وصوله مع فرقة هجانة إعادة النظام. وأنزل بيك مائة من المقاتلين من على نوقهم وسيّرهم فى طفس وحرابهم مسددة. حينذاك، استسلم العرب وأوقفوا أعمال قتل الجرحى، وتتبعوا الطابور المنسحب على إبلهم وقتلوا من كانوا قد ضلوا الطريق، إلا أنهم انسحبوا سريعاً حينما رأوا الأتراك عازمين على القتال. ومن المحتمل أن لورانس لا يورد ذكراً لهذا إذ إن أفراداً من حرسه الخاص كانوا ضمن هؤلاء العرب الضوارى، وكان قد ادعى أنه كان يتحكم فى حرسه كما لو كانوا تحت تأثير تنويم مغناطيسى. أما بخصوص تعليماته بعدم أخذ أسرى، فقد تذكر بيك أن لورانس قد أمره شخصياً أن يضمن سلامة الأسرى الأتراك وفى هذا دليل على عدم صدور مثل هذا الأمر. بالإضافة إلى هذا فهناك اختلاف فى روايتى لورانس عن المذبحة. فنجد أنه ذكر فى رسالته الرسمية ما يلى «لقد أمرنا ألا يكون هناك أسرى». وفى «أعمدة الحكمة» يصبح ضمير المتكلم الجمع ضميراً مفرداً. فلدى وصول لورانس إلى طفس كان هناك ضباط عديدون أعلى رتبة منه. فكان هناك الشريف ناصر على رأس النظاميين، ونورى السعيد، وكان مسئولاً عن القوات المدربة بالإضافة إلى عودة أبوطيى. وطبقاً لقول لورانس نفسه، فقد تولى هو المرحلة الأخيرة فقط من الهجوم. فهل من المعقول، مع أخذ هذا فى الاعتبار، أن يأمر لورانس، القوة العربية بأكملها ألا تأخذ أسرى، الذى عرف عنه ادعاؤه أنه كان يعمل من خلال القيادات العربية ولا يظهر فى المقدمة، وقد اتفق كل من بيك، وجون ماك، مؤرخ لورانس، أن كلمة «نحن» القيادية، لاتعبر عن أمر شخصى، بل عن تولٍ للمسئولية. كما سمع يونج، الذى لم يكن حاضراً فى طفس، من ضابط عربى يدعى على جودت، أن لورانس كان يحاول باستماتة منع قتل الأسرى بعد المعركة لكن دون جدوى. وكتب بيك «إننى على ثقة من أن لورانس قد فعل ما باستطاعته لوقف المذبحة. لكنه لم يكن باستطاعته فعل أى شىء لأن أية مجموعة غوغائية تفقد السيطرة العاقلة على نفسها، يصبح التحكم فيها غير ممكن». إلا أنه طبقاً لنورى السعيد، فقد ظل كثيراً من الأتراك الذين وقعوا فى أيد عربية على قيد الحياة. لماذا إذاً يدعى لورانس أنه ارتكب عملاً يعرف أنه ضد التقاليد العسكرية، إضافة إلى كونه مداناً أخلاقياً؟

خاصة وقد عرف عنه شدة تعاطفه مع الآخرين. وكان قد أبقى، قبل أسابيع فقط، على حياة جندى تركى أعزل وجده على الخط الحديدى. كما أنه كتب إلى إدوارد ليدز يقول إن «قتل وقتل» الأتراك يجعله يشعر بالغثيان. ويستدعى هذا الحادث أصداء قصة قتله المزعوم لحامد المراكشى الذى استهل به وصوله إلى منطقة الحرب فى الصحراء. فمن ناحية تصور هذه الأفعال المعلنة لورانس كرجل قوى لا يرحم، يغضب للحق. ومن الناحية الأخرى يوضح سرد هذه القصص عبئاً من الشعور بالذنب يجد فى عرضه على الملأ مصدراً للذة. وقد أوحى آرنى لورانس إلى جون ماك أنه يشك شخصياً فى مصداقية ادعاء لورانس، كما اعتقد أن لورانس كان يتملكه الرعب من إسالة الدماء. وفسر ذكره لهذه الأحداث بقوله: «... ولهذا السبب يميل لورانس للإفاضة عن مشاعر المعاناة فى أجزاء من «أعمدة الحكمة» ويصف مشاهد الموت والجراح.. وإننى أتصور أنه كان شخصياً يهوى العذاب». وفى الواقع، ثمة نوع من المنطق فى القول إن لورانس المازوكى كان يحب أن يستغرق فى خطاياه الشخصية وأيضاً فى معاناة العالم، مثلاً؛ نفاق البريطانيين الذى حمل عبئه على كتفيه؛ بالإضافة إلى تقلب وقسوة وبربرية العرب. فكما رأينا، تهيمن موتيفة مَثَل المسيح على قصة لورانس، خاصة فيما وقع له فى درعا من خيانة وتعذيب وإذلال، وما تلى هذا من «بعث» له. وكان لورانس على وعى تام بهذا الخط المسيانى «المخلِّص»: فكما مات المسيح من أجل خطايا العالم، فقد يكون ولع لورانس بالتضحية قد فرض عليه أن يتحمل مسئولية أفعال وحشية لم يكن له يد فيها.

وعند الغروب، وصل جنود خيالة طراد الشعلان إلى درعا وقاموا بأسر جنود الصفوف الخلفية للأتراك. ووصل لورانس مع انبلاج ضوء النهار. ولم يكن ثمة وقت للتوانى، إذ إن مفرزة الطوارئ من الفرسان البريطانيين كانوا على مرأى من العين، ونظراً لأنهم لم يكونوا على علم بسقوط المدينة، فقد بدأوا بإشراك قوات عربية للاستيلاء عليها. فقد كان أللنبى قد أمر الجنرال بارو قائد «رأس الحربة» من الجنود البريطانيين، بالاستيلاء على درعا. ومن ثم كان بارو يعتزم شن هجوم شامل. ولم يكن ليحول دون وقوع كارثة سوى الفعل السريع. وهكذا، توجه لورانس وحرسه على مطاياهم، مسرعين ليلتقوا ببارو فى الصفوف الأمامية.

وكانت المهمة تحفها المخاطر نظراً لارتدائه زياً عربياً. ولم يكن باستطاعة جنود فريق الفرسان البريطانى التمييز بين البدو الهاشميين، وبين غير النظاميين من العرب الذين يعملون فى صفوف الأتراك. وفى حديث له إلى صحيفة تصدر فى تورنتو، ادعى چورچ ستيبلس، الذى كان يقود فرقة من حرس ميدل سكس، أنه كان على وشك إصدار الأوامر بإطلاق الرصاص على لورانس؛ وقال: «... كان يوماً قائظاً، وكان الانفعال يتملكنا جميعاً، حينما وصل عشرة أعراب على نوقهم من خلف الكثبان الرملية.. وساروا باتجاهنا مباشرة. ولاعتقادنا أنهم أعداء، صوبنا الأسلحة على قائدهم. وحينما كنا على وشك إطلاق النيران، توقف الأعراب، وخرج من بين الثياب العربية صوت ذو لكنة أكسفوردية وقال «أنا لورانس، أين بارو؟» وكان يتصرف وكأنما على العالم أجمع أن يعرف من هو. لقد كان شديد الغرور، وعنيداً بشكل رهيب... ولا أخفى عليكم أننى صدمت حينما علمت أننى كنت على وشك الأمر بإطلاق الرصاص عليه... لقد كان شخصاً نحيلاً صغير الحجم، فى مثل حجمى، يبلغ طوله ٥,٥ قدماً..». إلا أن لورانس لم يذكر سوى أن موقعاً لجنود الأسلحة الآلية البريطانيين ألقى القبض عليه، وأنه بينما كان محتجزاً، كان يراقب الطائرات البريطانية وهى تقصف نظاميى نورى على طريق درعا، بعد أن ظنوا أنهم أتراك. ومن ثم، صارت مهمته حثيثة. وفى النهاية، تمكن من الحديث مع ضابط بريطانى أرشده إلى الجنرال بارو. ثم وجد أن الجنرال كان على غير استعداد للتحاور؛ فلم يعطه أللنبى أية تعليمات بشأن وضع العرب. ولم يتدخل كليتون لاعتقاده أن ليس للهاشميين حق باستثناء مايستطيعون الإبقاء عليه. ولبرهة تعلقت كل جهود العرب ـ ومعاناة لورانس ـ بخيط رفيع. وعن هذا كتب لورانس: «... وأعملت فكرى بأقصى سرعة.. كى أوقف الخطوات الأولى القاضية.. التى قد يخلق بها بريطانى يعوزه الخيال.. موقفاً يستدعى معه سنوات من الاضطراب... (قبل أن يتمكن أحد من) إصلاحه».

وأعلن بارو عن عزمه لوضع حرس من أجل التحكم فى المدينة. فرد عليه لورانس بأن المدينة كانت بالفعل تحت سيطرة العرب. وقال الجنرال إنه سيكلف لغامين بفحص الآبار. فأجابه لورانس أن من حقهم أن يفعلوا هذا، إلا أن العرب كانوا بالفعل قد أعملوا آلات ضخ المياه. وكان أن أجاب بارو بأن العرب يتصرفون

وكأنهم يملكون المكان وأضاف أنه سيتولى أمر محطة السكك الحديدية. إلا أن لورانس أخبره أن العرب قد قاموا بتسييرها وطلب منه، بتهذيب، ألا يتدخل الجنود البريطانيون ومرة أخرى أتت بلاغة لورانس لإنقاذ الهاشميين. فقد كان ما قاله مقنعاً لدرجة أن بارو تقبل سيطرة العرب على المدينة لدى دخوله إليها، بل إنه أيضا وجه إليهم مجاملة سارة بأن قام بتحية العلم الهاشمي وهو يرفرف على مقر الحكم الذى كان قد دُمر.

ومكث البريطانيون بدرعا ليلة واحدة، ثم ساروا فى التاسع والعشرين إلى دمشق، وفى معيتهم العرب بقيادة ناصر على جناحهم الأيمن وانتظر لورانس فيصل الذى وصل فى سيارته الفوكسهول من الأزرق وكان يتبعه عن قرب فرانك ستيرلنج والعربات المدرعة. إلا أنه لم يتمكن تلك الليلة من النوم. وعند الفجر، تسلق إلى عربته «البلوميست» مع فرانك ستيرلنج وتوجها إلى دمشق وهم يقودانها على مسار الخط الحديدى الفرنسى الذى لم يكن صالحا للاستعمال. ولحقا ببارو وهو يتولى سقيا خيله من مجرى مائى، واستعار لورانس ناقة وذهب إليه، ولم يكن الجنرال يعلم أن لورانس قد قطع معظم المسافة بالسيارة، لذا أصابته الدهشة حينما أخبره أنه قد غادر درعا فى الصباح وسأل لورانس «وأين قضيت ليلتك» فأجابه «فى دمشق» ومضى.

وسرعان ما لحق هو وستيرلنج وهما يركبان «البلوميست» بفرسان الهاشميين بقيادة ناصر، وبالرواليين بقيادة نورى الشعلان. ولم يكن الرواليون قد أوقفوا غاراتهم المتكررة عن الطابور التركى الأكثر عدداً، وأدى استنزافهم له إلى تقليصه إلى نصف قوته الأصلية. أما عودة فكان على مسافة بعيدة فى الريف يجمع بدواً محليين لعمل كمائن. وطلب منهم لورانس تعطيل الأتراك لمدة ساعة. وتخير ناصر مزرعة على تل بعيد موضع عليه الرواليين بقيادة نورى لإبطاء حركة العدو، على حين عاد لورانس وستيرلنج بالسيارة إلى الصفوف البريطانية لدفع فرق حرس ميدل سكس ومدفعية الخيالة للهجوم على صفوف الأتراك الخلفية. ولما وجد الأتراك العرب أمامهم والبريطانيين خلفهم، تفرقت صفوفهم، وخلفوا وراءهم بنادقهم ومركباتهم، وهربوا فى مجموعات مشتتة إلى التلال حيث كانت «ضباع»

عودة فى انتظارهم .وكتب لورانس عن اشتباك عودة ورجاله مع فلول الأتراك «وفى ليلة معركة الشيخ المسن الأخيرة، قتل وقتل، ونهب وأسر، إلى أن أنهى العملية انبلاج ضوء النهار. وهكذا انتهى الجيش الرابع الذى ظل حجر عثرة فى طريقنا لمدة عامين».

ونام لورانس وستيرلنج فى الرولزرويس على تل يطل على دمشق. كانت الليلة باردة بدون رياح. وعن تلك الليلة قال ستيرلنج إنه رأى توهجات باتجاه التلال حيث كان رجال عودة يقومون بتقطيع أشلاء الأتراك. وكانت دمشق هدفهم الأخير، يلفها الظلام أسفل التل. وأيقظهم صوت سلسلة من الانفجارات من داخل المدينة فى ساعات الصباح المبكرة. وصاح لورانس «يا إلهى، إنهم يحرقون المدينة». وفيما بعد اكتشفوا أن القوات الألمانية قد دمرت مخازن الأسلحة قبل انسحابها. وأبلغ ستيرلنج أنه كان قد أرسل بالفعل آلافاً من الخيالة الرواليين لتسبق القوات البريطانية فى الدخول إلى المدينة وتبحث عن على رضا الركابى حاكم المدينة الذى كان لورانس قد قابله فى رحلته الخطرة إلى دمشق قبل أكثر من عام. وحمل الرواليون معهم تعليمات من الشريف ناصر أن يقوم على رضا أو مساعده شكرى الأيوبى فوراً بتشكيل حكومة باسم الهاشميين. إلا أن العمل كان قد تم؛ فرغم أن على رضا كان قد غادر دمشق، فقد ساند الأخوان عبد القادر ومحمد السعيد، أعداء لورانس القدامى، شكرى الأيوبى، ورفع حرسهما من الجزائريين علم الهاشميين على سراى الحكم قبل مغادرة آخر جندى تركى المدينة.

وفى صباح ٣٠ أكتوبر نجح لورانس وستيرلنج فى الهرب من بعض المتطرفين من الرماحين البنغال الذين كانوا قد أمسكوا بهما، ودخلا دمشق فى البلوميست فور شروق الشمس، ليرحب بهما رجل كان يسرع على جواده وقال «أخبار سارة، دمشق تحييكما». وطبقاً لما قاله لورانس، كانت الشوارع على طول نهر بردى مزدحمة برجال ينشدون الأناشيد، وعلى حين كانت النساء يقذفن بالأزهار ويرششن العطور، كان الرجال يقذفون بأغطية رءوسهم فى الهواء وهم يصيحون «فيصل، ناصر، شكرى، أرنس» وجاء فى وصف ستيرلنج للمشهد «كان الدراويش يرقصون أمام العربة، وتملك جنون الإثارة التى تسببت فيه ضوضاء وصياح أهل المدينة من البدو الضوارى فأخذوا يعبرون عن فرحهم الهستيرى.

وبينما كنا نقود سيارتنا فى شوارع المدينة ذات المساكن الناتئة، كانت النساء يطللن من النوافذ وهن يصحن ويضحكن ويبكين من الفرحة والانفعال». بيد أن لورانس تذكر مشهداً جد مختلف فى خطاب لاحق أرسله إلى ستيرلنج «إن ذكرياتى عن دخول دمشق هى هدوء الشوارع وفراغها. كنت أبكى مثل الرضيع مع شعورى بالامتنان وأنا إلى جانبك فى العربة. ويبدو لى أن جنون الترحيب قد حدث فيما بعد». وتذكر ستيرلنج أيضاً أن لورانس لم يكن سعيداً: «كان تفكيره معقداً جداً، لدرجة أنه لم يسمح لنفسه بالرضا عن إنجاز تم بنجاح.. كانت تشوب لحظة انتصاره مرارة معرفته أن الحكومة لن تفى بوعودها للعرب». ووصلوا إلى مجلس المدينة الذى كان مزدحماً بالجماهير. وشق لورانس طريقه بينهم بصعوبة ليجد عودة أبو طيى يتصارع بشراسة مع سلطان الأطرش قائد الدروز. وتكاتف لورانس وزعل ومحمد الضحيلان على جذبه جانباً ومنعه من قتل الرجل أمام أعينهم. ولم يكن ناصر، الأعلى مرتبة بين الهاشميين، موجوداً، وعلم لورانس بوجوده مع عبد القادر وشقيقه. ومن ثم، استقل سيارته للبحث عنهم، إلا أنه رأى الجنرال شوفيل يدخل المدينة على رأس القوات العربية. وأفهمه لورانس أن العرب قد أمسكوا بزمام المدينة، وحثه، دون جدوى، أن يحذو حذو بارو فى درعا ويحيى العلم الهاشمى كدليل على حسن النية. ثم عاد لورانس إلى مجلس المدينة واستدعى عبد القادر وأخاه اللذين دخلا عليه مع حرسهما. وكان لورانس قد جمع رجال نورى الشعلان حوله، أما نظاميو نورى السعيد فكانوا قد تجمعوا فى الميدان بالخارج. وأخبر الجزائريين أن ممثل فيصل سيلغى الحكومة التى شكلانها فى اليوم السابق، وأنه قد عين شكرى الأيوبى حاكماً عسكرياً بالنيابة، ونورى السعيد قائداً للقوات. وقفز عبد القادر من مكانه، وسحب رمحه معتزماً قتل لورانس، ولعن إياه كرجل إنجليزى مسيحى. إلا أن عودة ألقى بثقله عليه فى لمح البصر واستخلص الرمح من قبضته. وأعلن نورى الشعلان بهدوء مساندة الرواليين للورانس. وأثناء مغادرة الجزائريين المكان وهما فى قمة الغضب، اقترح أحدهم أن يُصحبا إلى الخارج وتطلق النيران عليهما، وكان لورانس يميل إلى الموافقة على هذا الرأى، إلا أنه امتنع. وفى اليوم التالى بدأ الاثنان يدبران المكائد ويثيران القلاقل مرة أخرى، واكتسبا بعضاً من الدعم من الدروز الذين لم يحاربوا فى صفوف الثورة

ومن ثم، رفض لورانس مكافأتهما. وتملكت لورانس الرغبة في قتلهما رمياً بالرصاص، فأرسل فريقاً من النظاميين للقبض عليهما، حيث أمسكوا بسعيد، وتم قتله وهرب عبد القادر. وقام لورانس بطرد الدروز، ونصب نفسه حاكماً فعلياً لحين وصول حاكم المدينة.

وكان هناك الكثير مما يتحتم عمله؛ فكان عليه تعيين الشرطة، والاهتمام بإمدادات المياه وإعادة الطاقة الكهربائية وتقرير ما يتخذ من إجراءات صحية عامة وإطعام الجائعين. وفي الواقع، فقد أرسى لورانس، خلال أيام قليلة، نظاماً فاعلاً ظل سارياً مدة العامين التاليين. وطلب منه طبيب استرالي العناية بأمر المعسكرات التركية التي كانت قد تحولت إلى مستشفى مؤقت ليس فيه ممرض واحد. وكانت مكدسة بالموتى ومن هم على وشك الموت. وتحقق لورانس أنه قد نسي أمره وذهب ليتفقده وراعه ما شهده. فقد كانت الأرض مغطاة بعشرات الجثث المنتفخة التي كانت ترقد في برك من الدماء النتنة والغائط. وكان الكثير منها لأفراد قد ماتوا حديثاً والغالبية قد قرضتها الفئران. ولدى سماعه أنيناً، رفع لورانس رداءه وسار وسط الجثث ليجد جناحاً مليئاً برجال على شفا الموت طلبوا منه الرحمة. وفي الليل، استيقظ فجأة من نومه وهو يرتعد ويعرق من مشهد الجثث. وعاد في اليوم التالي ليجد أن الأمور قد تحسنت قليلاً. فقد تم تنظيف وتطهير غرفة لإيواء الحالات الخطيرة، كما كان هناك بعض الممرضين. وفجأة، واجهه ميجور بريطاني من الفريق الطبي وسأله عما إن كان مسئولاً عن المستشفى فأجابه لورانس «نعم، أعتقد أنني مسئول بشكل ما» فرد عليه الميجور «إن ما تقوله فاضح ومخزٍ ومثير للغضب، ومن الواجب إطلاق النار عليك».

وضحك لورانس وسأل الضابط عما كان من الممكن أن يعتقد إن هو كان حاضراً في مشهد اليوم السابق. وتمتم الميجور «أيها الوغد الدموي»، وصفع لورانس على وجهه وسار بعيداً. وبدا للورانس أن هذه الكلمات: «الوغد الدموي» ما هي إلا تعبير عن كل مشاعر الخوف والبغض والنفاق التي تحملها لمدة عامين. وكتب: «شعرت في قرارة نفسي أنه كان على حق. وأن كل من يعمل على إنجاح تمرد للضعفاء ضد أسيادهم لابد وأن يلوث في تقدير الآخرين، بدرجة لا يستطيع شيء فيما بعد أن يعيده نقياً أو نظيفاً».

وعاد لورانس إلى فندق فيكتوريا ليجد أن أللنبى قد وصل. وتبعه فيصل الذى كان قد دخل المدينة وهو يعدو بفرسه وسط ترحيب عاصف. وكان لقاء الشريف والجنرال فى الفندق هو أول لقاء لهما. ووقف لورانس مترجماً لهما، أى أنه كان يقوم بنفس الدور الذى خلقه لنفسه وتخيله طوال الأشهر الثمانية عشر الماضية. وأوضح أللنبى لفيصل أنه سيكون له حكم سوريا فيما عدا فلسطين ولبنان، لكنه فقط سيعمل تحت إرشاد الفرنسيين. وأخبره أن لورانس سيستمر فى عمله كضابط اتصال، وأنه سيعين له ضابط اتصال فرنسياً عن قرب. واعترض فيصل بأسلوب غير مؤكد؛ أنه لن يقبل ضابط اتصال فرنسياً ولن يقبل إرشاداً فرنسياً وأنه لا يعترف بسلطة فرنسية على لبنان. وأخبره أيضاً أن ضابط اتصاله، أى لورانس، كان قد أبلغه أن العرب سيحصلون على سوريا كاملة باستثناء فلسطين، واستعلم أللنبى من لورانس، وقد أصابته الدهشة، إن لم يكن قد ذكر للشريف مطالب الفرنسيين فى لبنان. وأبلغه لورانس، كذباً، أنه لم يفعل هذا. واختتم أللنبى قوله بأن فيصل قائد عسكرى يعمل تحت إمرته وأن عليه إطاعة أوامره، على الأقل فى الوقت الحاضر.

ورحل فيصل فجأة كما ظهر، إلا أنه لم يكن فى حالة مزاجية احتفالية. وحالما ذهب، أخبر لورانس رئيسه أنه لا يستطيع العمل مع ضابط اتصال فرنسى وطلب إذناً بالعودة إلى إنجلترا. فقد كانت الحرب قد انتهت وكان باستطاعته العمل لصالح العرب خلف الكواليس فى بلده. وكان شديد الإنهاك، وكرجال عديدين، حاربوا وتمنوا نهاية الحرب، وجد فى هذه النهاية هبوطاً فجائياً anticlimax. فقد نُسيت المعاناة التى تحملها لأكثر من عامين، أوأنها كانت قد حفظت كأسطورة مقدسة. وأصبح عقله خاويا. لقد دخل جيش عربى إلى دمشق وتم الانتقام، بعد خمسة قرون، لغزو سليم الرهيب لها (السلطان سليم الأول). واعتقد لورانس أنه لولا الطموحات الأوربية لتمكن العرب من الاستمرار حتى يستولوا على الأناضول وبغداد واليمن، ولأنشأوا إمبراطورية عربية جديدة فى الشرق. بيد أن الطمع الأوربى قد أوقف الحركة فى أجمل ساعاتها. وتحطم وهم لورانس، وكتب «لقد أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية».

الباب الثالث

الساحر

١٩١٨-١٩٣٥

مازال «الكولونيل لورانس» مستمراً

رغم أنى قد تنحيت جانباً

مؤتمر الصلح ومكتب المستعمرات

١٩١٨ـ١٩٢٢

20

وصل لورانس إلى إنجلترا ضابطاً
برتبة كولونيل، وقد منح وسامى
D.S.O (ضابط خدم بامتياز) و (C.B) أى
Companion of the Bath كانت معه أيضاً
توصية شخصية من أللنبى بمنحه مرتبة
الفروسية. وبعد وصوله بأيام قلائل
فقط دعى إلى قصر باكنجهام
لتقليده الرتبة بشكل شخصى من قبل
الملك چورچ الخامس.

إلا أن لورانس أربك كل الحاضرين بأن رفض، بأسلوب مهذب، الرتبة والأوسمة، وأخبر جلالته بأن الحكومة البريطانية توشك أن تثبط همة العرب باتفاق سايكس - بيكو. وأنه قد وعد فيصل أنه سيدعمه مهما حدث، وأنه قد يضطر إلى محاربة الفرنسيين، حلفاء بريطانيا، في سوريا في سبيل دعم قضية الهاشميين، ومن الغريب، أن الرجل الذى رفض أن يصبح فارساً بريطانياً أبلغ الملك أنه أمير عربي، رغم أنه لم يسجل في أى مكان أنه قد منح هذا اللقب. وعلى حين أن لورانس رفض الأوسمة البريطانية فقد قبل وسام (Croix de Guerr) أو «صليب الحرب» من الفرنسيين الذين كان قد أبلغ جورج الخامس أنه يعتبرهم أعداءه. وتوحى تلك التناقضات بوجود مستوى أكثر قتامة لأفعال لورانس.فبعد كل شيء، لم تكن الفروسية أو الأوسمة الإنجليزية لتساوى شيئاً بين من حاربوا في الحملة العربية (إلا أن الوسام الفرنسى كان أكثر جاذبية وغرابة). كما أخبر لورانس يونج (الذى منح الفروسية فيما بعد) في عام ١٩١٨ إن «بإمكان الفرد الحصول على

كثير من المجد والتكريم دون أية صعوبة ». ومثله مثل السيدة التى ترتدى ثياباً عادية فى الأوبرا على حين ترتدى الأخريات ثياب السهرة ، غدا لورانس متميزاً تلقائياً ، ليس لأنه قد تم تكريمه ، بل برفضه ذلك التكريم علناً ، . ويلاحظ ليدل هارت ، الذى كان معجباً بلورانس «أن انتقاص لورانس من قدر-نفسه برفضه تمييزه مثلاً ، كان نوعاً من الغرور فقد كان فطناً لدرجة أنه رأى سخف التهليل لشخص ما ، ثم وجد نفسه يهوى هذا التهليل ، واحتقر نفسه فيما بعد لأنه أحبه» ذلك أن رفض بطل الحرب الأكثر شهرة للأوسمة والتكريم ، الذى كانت الصحافة تدعوه عام ١٩١٩ «أكثر بريطانى على قيد الحياة إثارة للاهتمام ، قد قلل بالطبع من قيمة تلك الأوسمة وذلك التكريم . فما لا يدعو للدهشة إذا أن تُغضب تلك السخرية العلنية كثيراً من الرجال ، الذين حاربوا أربع سنوات شاقة ، وخبر معظمهم ظروفاً أبشع من تلك التى خبرها لورانس ، ونجوا من مخاطر مروعة ، وقد يكون بعضهم قد أتى بانتصارات شخصية شجاعة ، وشعروا ، عن حق ، أنهم جديرون بالاعتراف بهم . إلا

أن التزام لورانس تجاه الهاشميين كان أيضا حقيقيا جدا. فقد صمم على الدفاع عن الوعود التى قطعها على نفسه لفيصل أثناء الحرب، وعلى أن ينقذ حسه الشخصى بالشرف، وفى غضون أيام من عودته أخذ يمطر مكتب الحرب وموظفى الخارجية بآرائه. وفى يوم ٢٩ أكتوبر - اليوم الذى قابل فيه الملك - ذهب لمقابلة اللجنة الشرقية بمجلس وزراء الحرب. وبدأ اللورد كيرزون، وزير الخارجية بالنيابة، هذا الاجتماع بكلمة ثناء على إنجازات لورانس، إلا أن لورانس رد على الكلمة بفظاظة فقال: «دعونا نتناول القضية مباشرة. إنكم أيها القوم لا تفهمون أى مأزق وضعتمونا جميعاً فيه». فانفجر كيرزون، الذى كان سهل الاستثارة، فى البكاء. ولم يقبل لورانس مساومة على آرائه التى لم يكن ضمنها إنشاء دولة عربية موحدة. ففى عام ١٩١٦ طلب حسين من مكماهون العراق. ومن ثم، كان يتحتم تقسيم هذه المنطقة قسمين بحيث يحكم الشريف زيد بغداد، ويحكم عبد الله البصرة. وكان يتعين أن يحكم فيصل سوريا بأكملها باستثناء لبنان التى يحكمها الحلفاء. وقال إن العرب سيتقبلون الهجرة اليهودية إلى فلسطين التى نص عليها وعد بلفور عام ١٩١٧ إلا أنهم سيقاومون إنشاء دولة يهودية هناك. كما يتحتم على سلطة بريطانية واحدة مقرها مصر الإشراف على الدول العربية الوليدة، الأمر الذى سيستبعد معه تدخل حكومة الهند البريطانية. وكان لورانس يعلم أن اتفاقية سايكس - بيكو تغل أيدى بريطانيا. فطبقاً لهذه الاتفاقية خصصت الموصل للفرنسيين بينما أوكل حكم فلسطين إلى سلطة دولية. فإن عارضت بريطانيا تطلعات فرنسا فى كل من فلسطين والعراق التى كانت تشتهيها مجالاً لنفوذها، فستجد أنه من الصعوبة بمكان أن تعارض مطالب الفرنسيين فى سوريا أيضاً.

وفى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ تم توقيع الهدنة، وعقد مؤتمر ا لصلح فى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس فى يناير من العام التالى. وهناك، جذب لورانس الانتباه إليه بارتدائه غطاء الرأس العربى اللافت للأنظار، وبطلاقة حديثه بالعربية، وبإخلاصه الواضح لفيصل. وقام، بصفته مترجماً لفيصل، بعرض مقترحات فيصل على المؤتمر فى ٦ فبراير. وكان الفرنسيون، منذ البداية، مصممين على عدم تقديم تنازلات بشأن سوريا، وطالبوا أن تحكم مناطق سوريا الساحلية والداخلية سلطة واحدة. وساندت الصحافة الفرنسية هذه المقترحات. بحملة قوية. وكان

لدى لورانس وفيصل ورقتان قويتان: أولاً، مساندة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون الذى اقترح إجراءات تقرير المصير فى سوريا، وثانياً، اتخاذ المؤتمر قراراً بشأن جيش الجنرال أللنبى الذى كان مايزال منتشراً فى البلاد بالفعل بعد رفض رئيس الوزراء البريطانى سحبه. إلا أنه لم يتم التوصل إلى مثل هذا القرار أبداً. وتمسك الرئيس ويلسون باعتقاده فى إجراء استقصاء عن إرادة الشعب. وفى شهر يونيو، وصلت لجنة كينج - كرين إلى فلسطين، وسبر أعضاء اللجنة أغوار الموقف وأجروا استطلاعات واسعة. وفى أغسطس وضعوا تقريرهم أمام ويلسون فى واشنطون مساندين نظاماً مؤقتاً للانتداب، واقترحوا الولايات المتحدة سلطة للانتداب فى سوريا، وبريطانيا فى العراق، واستبعدوا الفرنسيين كلية على أساس أن الانتداب الفرنسى فى سوريا سيؤدى إلى حرب مع العرب. واقترح أعضاء اللجنة أيضاً نبذ فكرة إنشاء كومنولث يهودى فى فلسطين الذى اعتقدوا أنه لن يقوم دون الالتجاء إلى القوة. وكان تقرير كينج - كرين وثيقة «تنبئية بشكل ملفت، لكن، وكما كان متوقعاً تجاهلها البريطانيون والفرنسيون». وحينما تم الإعلان عنها، كان ويلسون مريضاً، وقرر الحلفاء، بعد غياب أى ضغط من ويلسون، أن يصلوا ببساطة إلى تسوية بأنفسهم. وفى سبتمبر أخبر لويد جورج، كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسى، أنه سيسحب القوات البريطانية من سوريا ومن جزيرة صقلية فى أول نوفمبر، وسيتم إحلال قوات فرنسية محل الحاميات البريطانية فى صقلية - غرب الخط الذى حددته سايكس - بيكو. أما القوات داخل سوريا فستحل محلها قوات عربية. إلا أن تقرر الإبقاء على القوات البريطانية فى فلسطين والعراق. وفى البداية، اعتبر لورانس هذا نصراً وكتب رسالة شخصية إلى لويد جورج يشكر إياه على القرار «... لقد أبقيت علي وعودنا.. وأنى لا أشعر براحة كبيرة إذ أنهى ارتباطى بالمسألة بأيد نظيفة». وعاد إلى إنجلترا يوم أول سبتمبر، وترك الخدمة العسكرية دون إجراءات رسمية مثلما حدث لدى التحاقه بها.

بيد أن شعور لورانس بالامتنان كان سابقاً لأوانه. فحتى إن كان لم يدرك هو أن انسحاب بريطانيا من سوريا كان سيتركها مفتوحة أمام العدوان الفرنسى، فإن فيصل أدرك هذا. ومن ثم، وصل الشريف إلى لندن واشتكى بمرارة أن العرب كانوا

حينذاك تحت رحمة الفرنسيين الموجودين فى لبنان. إلا أن مجلس الوزراء البريطانى أخبره أنه عليه التفاوض مع الفرنسيين بمفرده، مما كان يعنى التخلص من العرب. وكان لورانس، الذى جعلته محاولاته فى مؤتمر الصلح شخصاً غير متقبل من الفرنسيين، أصبح فى وضع لا يمكنه معه مساعدة صديقه، لذا فقد شعر باكتئاب شديد. وكان على فيصل أن يواجه العواقب البائسة، وأن يحاول أن يصل إلى تفاهم مشروط مع كليمنصو. إلا أن القوميين اتهموه بالخيانة لدى عودته إلى سوريا فى يناير عام ١٩٢٠؛ واضطر إلى التخلى عن الاتفاق. وفى مارس عام ١٩٢٠ نادى به الكونجرس ملكاً على سوريا المستقلة، والتى كانت تشمل نظرياً لبنان وشمال العراق وفلسطين. وأغضب هذا الفرنسيين الذين كانوا بالفعل يسيطرون على لبنان، والبريطانيين الذين كانوا يسعون إلى السيطرة على العراق وفلسطين، وبعد شهر واحد، قرر مؤتمر الحلفاء فى سان ريمو أن يكون لبريطانيا حق الانتداب على العراق وفلسطين، بينما تكون فرنسا هى سلطة الانتداب على سوريا الكبرى. ورأى العرب أخيراً أنهم كانوا ضحية الأذى والغش من بريطانيا وفرنسا، ومن تلك اللحظة، فقدوا ثقتهم فى القوى الأوربية. وكانت النتيجة الحتمية أن استخدم الفرنسيون ذريعة الهجوم على شخصيات وأملاك فرنسية، ودخلت قواتهم سوريا فى يوليو عام ١٩٢٠، وضربوا قوة عربية قوامها ألفان من النظاميين وغير النظاميين كانوا على استعداد للدفاع عن دمشق، وأرسلوا فيصل إلى المنفى. وأيضاً، تم قمع القوميين بنفس العنف الذى اتبعه الأتراك معهم، وكُمِّمت الصحافة. وفرضت اللغة الفرنسية فى المحاكم والمدارس بدلاً من اللغة العربية وفى النهاية، تحقق ما كان لورانس وفيصل يخشيانه بشدة أثناء القتال.

ولم يف لورانس أبداً بتهديده لمحاربة الفرنسيين. فبحلول عام ١٩١٩ كانت قد حدثت تطورات فى حياته. فأولاً: فقد رغب أن ينشر تجربته فى كتاب، وكان قد بدأ فى كتابة مسودة «أعمدة الحكمة» أثناء مؤتمر الصلح. وكتب الفصول الأولى معتمداً كلياً على الذاكرة؛ إلا أنه فى مايو، طار إلى القاهرة فى إحدى قاذفات القنابل من طراز هاندلى بيج كانت متوجهة إلى هناك لقمع حركات العصيان ضد البريطانيين. وكان هدفه من الزيارة إحضار ملفات المكتب العربى. وحدث أن هبطت الطائرة فى طريقها هبوطاً سيئاً فى كونشيللو بإيطاليا، وقتل الطيار،

وأصيب مساعده إصابات خطيرة ؛ أما لورانس، فقد كسرت عظمة ترقوته، إلا أنه أتم رحلته بعد أيام قلائل، وواصل العمل فى الكتاب وهو على متن الطائرة. وفى سبتمبر، عاد إلى بريطانيا حيث أدت شهرته المتزايدة كشخصية إعلامية إلى فوزه بزمالة بحثية فى كلية أول سولز بأكسفورد، وهى نفس المؤسسة التى لم تقبل ترشيحه للمنحة ذاتها عام ١٩١٠ كطالب دراسات عليا غير معروف. وكانت المنحة قدرها مائتا جنيه استرلينى فى العام مما ساعد على إتمام الكتاب. إلا أن مسودة الكتاب سُرقت منه فى محطة ريدنج أثناء تغييره القطار واضطر للبدء من جديد. ثم انتقل إلى لندن عام ١٩٢٠ وبدأ العمل فى النص فى شقة فى شارع بارتون استعارها من صديقه السير هنرى بيكر حيث أنهى كتابه فيما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ كلمة فى ثلاثة أشهر خلال جلسات ماراثونية. ولم يكن هذا جهداً فوق بشرى كما يبدو، لأن النص الجديد كان منقولاً حرفياً من رسائله أثناء الحرب، ومن تقاريره فى «النشرة العربية» التى كانت بحوزته فى لندن، وكان يقوم بمراجعتها وفقا لتواريخ مذكراته. لذا، فلا يمكن إرجاع الاختلافات بين التقارير الرسمية وما جاء فى «أعمدة الحكمة» إلى أخطاء الذاكرة. ولأن لورانس، على أية حال، كان يتمتع بذاكرة حادة ؛ فقد أخبر كلير سيدنى سميث ذات مرة أن بمقدوره أن يتذكر كل ما قرأه فى أى كتاب، كما أنه لم يحدث أن نسى أى تاريخ. وكانت وثائق لورانس مكتوبة كتابة جيدة بشكل غير عادى، إلا أنه أدرك أن مجرد سردها كسلسلة يقوم بربط إحداها بالأخرى لم يكن ليصنع منها كتاباً - على الأقل، فلن ينتج هذا العمل الفنى الذى كان يشتاق إلى إبداعه. إذ إنه فى هذه الحالة لن يكون للكتاب شخصية، أو بنية درامية مستقلة، أو ذروة عاطفية ذات طبيعة شخصية. إذ يتحتم أن يكون للقصة بطل مميز يُرى وهو يتخطى العوائق الهائلة ويتطور روحانياً نتيجة لتفاعله مع تجاربه. كان لورانس يعتزم أن تكون هذه رائعته: كلمته التى يعرّف بها نفسه للعالم. فمن المؤكد أنه قام بأعمال بطولية ؛ أنقذ حياة جاسم. واقتحم أراضى يحتلها العدو اقتحاماً مُتهوراً وهو يمتطى دابته لمسافة ٥٦٠ ميل بمفرده. كما أنه ابتدع استراتيجية ألمعية لحرب العصابات، وخاض عشرات المعارك ضد الأتراك. ورغم أن هذه كانت أحداثاً بطولية مثيرة للإعجاب، فلم تكن كافية لتضفى على الكتاب البعد الدرامى الذى يطلبه

لورانس. وحلاً لهذه المشكلة قام باختراع سلسلة من الأحداث الشخصية التي تُحمي وطيس القصة. ولم يكن لأى منها علاقة بالرسائل والمذكرات التي لم تذكرها أصلاً. فمثلاً، كتب أن المكتب العربى لم يرسله إلى بلاد العرب فى مهمة مخابراتية، بل إنه ذهب إلى هناك بدافع ذاتى لأنه حدس أن الثورة العربية تعوزها القيادة التى لن يستطيع أحد القيام بها سواه. وأنه تبنى أساليب الحياة العربية كما لو أنه قد ولد عربياً وكأنه كان يحقق نبوءة مسيانية Messianic. (أى أنه يقوم بدور المخلص وفقاً للرؤية التوراتية). وذكر أنه قد شاهد فى رحلته الأولى لبلاد العرب لعبة تمثيلية أداها شريفان عربيان كانت تجسد القسوة والكراهية المتأصلة بين القبائل: الضغائن التافهة التى يمكن تجاوزها فقط بتبنى الشخص لفكرة رومانسية مجردة. كما قال إنه اضطر أثناء عمليته الرئيسية الأولى أن يقتل رجلاً عن عمد، وأنه قام برحلات على الإبل يستحيل على الأفراد العاديين القيام بها. وأنه، كالمسيح عيسى، قد خانه أصدقاؤه، وتم تعذيبه وإذلاله بشكل بشع، ثم بعث ثانية ليكمل نضاله إلى أن أثمر. ثم فقد آدميته لدرجة أنه أمر بمذبحة لأسرى لا حول لهم ولا قوة. إلى جانب هذه الفروق الدقيقة وغيرها، فقد دفع تضخيم تفاصيل أحداث واقعية بشكل معتنى به، بسرد مادة كانت قد تتبلور وتصبح مجرد مذكرات مكتوبة جيداً، إلى مستوى عوالم مالورى وهوميروس، عوالم مليئة بأحداث أكبر من أحداث العالم البشرى، وشخصيات تفوق شخصيات الواقع الإنسانى فنجد مثلاً: الأمير فيصل النبيل، وعودة المحارب المقدام، وعبد القادر الخائن الحقير، والفرسان الأبطال من أمثال الشريف على والشريف شاكر وزعل أبوطيى وطلال الحرايضين، وهناك أيضاً الشريف عبد الله الخامل، ونسيب البكرى الحقير، والمهّرجان فرج وداعود، وأيضاً يقدم لنا ألنبى رمز الأبوة، والعسكريين البريطانيين البواسل، رغم ما بهم من ضيق أفق وجمود من أمثال يونج وجويس وداونى ونيوكومب وجارلاند(وجه إليهم لورانس الهمز واللمز المستتر تحت غطاء صخب المديح). فضلاً عن «المخلوقات» البدوية المؤذية فى مقابل الغيلان من الأتراك. أما لورانس، فتجمعت فى شخصيته، شخصيات أمير مكة، والساحر مرلين والملك آرثر وتوحدوا جميعاً فى شخص واحد مع «فرسان مائدته المستديرة»، أو التسعين محارباً من البدو العتاة القساة الذين أقسموا أن يحموه حتى الموت.

وحوّل قلم لورانس الطلِق الساحر «أعمدة الحكمة» من مجرد سلسلة من الرسائل إلى ملحمة من طراز ملحمة «لورد الخواتم»؛ فكتب إلى جيم إد عام ١٩٢٨ قائلاً: «حاولت جهدى فى كتابى أن أفعل ما لست مؤهلاً له بطبيعتى على الإطلاق؛ أن أنتج عملاً خيالياً إبداعياً».

غير أن النص كان له أيضاً هدف أيديولوجى. فقد كان وقت عمله فى الكتاب، يقوم بحملة صحفية لتأييد الهاشميين. وكان الهدف الثانوى «لأعمدة الحكمة» هو تقديم المديح المتوهج لفيصل وأعرابه بأن يستخدم ألوان بيرن ـ جونس من المدرسة الماقبل رافايلية لتصوير صراعاتهم البطولية. وقد استاء عرب كثيرون من هذه النظرة. كما كتب المؤرخ العربى چورچ أنطونيوس أن المشكلة ليست أن لورانس كان يعوزه الحس أو الذكاء، لكن فكره ببساطة، مثل أى إنسان آخر، كان يخضع لمجموعة من الأسس حددتها ثقافته. فلم يكن بوسعه رؤية العرب سوى من خلال منظور الصور الرومانسية التى تعلمها فى صباه؛ فالعرب النبلاء هم البدو الأشراف، وفلاحو الفرات ذوو الاكتفاء الذاتى أما المدنيون والقرويون الجبناء فكان يعوزهم النبل. ومن المفارقات، من وجهة نظر العديدين، أن كان حاصل مواقف لورانس المؤازرة للبدو والأشراف وبدون قصد منه، هو انتهاج سياسة مضادة للعرب. وأيضاً، فما لم يدركه لورانس، هو أن روح القومية العربية كانت متأججة فى صدور هؤلاء المدينيين والقرويين (الجبناء كما دعاهم). فكتب مؤرخ لورانس الرسمى قائلاً إن «أعمدة الحكمة» كثيراً ما يورد ما هو أقل من الحقيقة كاملة، ويخفى الأمور المدمرة سياسياً؛ كما يقلل لورانس من شأن الإسهام الهائل للشخصيات غير العربية فى الثورة العربية.. ولا يبرر هذا ادعاؤه أنه كان يكتب فقط عن تجربته فى الحرب».

كان لورانس يعلم أن كتابه فريد، فلم يخبر أحد آخر الثورة العربية كما خبرها هو، كما لم يكن ثمة مشاهد أوربى آخر حتى المرحلة «البطولية» الأولى ليناقض ما يقوله. كان لورانس طوال حياته يمارس الحيل والتمويه، وكان يعلم جيداً أن أفضل طريقة لإثارة الاهتمام بعمله هو إخفاء ما وراء أحداثه لأطول فترة ممكنة عن أكبر عدد من الناس. ورغم أنه كان، فى البداية، قد فكر فى الكسب المالى من وراء

الكتاب إذ إنه كان قد أحيا فكرة القصر العصر أوسطى مع ڤيڤيان ريتشاردز، وأيضا بدء مشروع المطبعة فى بول هيل بالقرب من تشينجفورد؛ إلا أن النسخة الكاملة من الكتاب لم تنشر حتى بعد وفاته فى عام ١٩٣٥. وكان قد أكمل طبعة محدودة للمشتركين (طبعة أكسفورد) عام ١٩٢٢. إلا أنها لم تنشر حتى عام ١٩٢٦ وكان سعر النسخة منها ٣٠ جنيهاً إسترلينياً. وكما هو محتمل، فقد يكون لورانس قد أخفى عدد النسخ التى تم طبعها من الكتاب. وفى نفس العام، ظهرت طبعة مختصرة من الكتاب تحت عنوان «ثورة فى الصحراء» حذف منها معظم المادة الشخصية والخلافية ولقيت نجاحاً جماهيرياً هائلاً، بيد أنه سحبها بسرعة لأنه اعتقد أنه قد كسب مالاً كافياً من ورائها، وجعل من نفسه، طبقاً لما قاله جورج برنارد شو فيما بعد، «حديث المدينة» وأضاف زخماً جديداً للإثارة الجماهيرية.

وكما كتب ونستون تشرشل أن منزلة «أعمدة الحكمة» تعادل منزلة أعظم الكتب الإنجليزية، وسماه ملحمة، وأعجوبة، وحكاية معاناة. وقد لقى الكتاب أيضاً الثناء من شخصيات مرموقة مثل جورج برناد شو وسيجفرد ساسون وتوماس هاردى وهـ.جـ. ويلز وغيرهم كثيرين. وكتب لورانس إلى ڤيڤيان ريتشاردز فى عام ١٩٢٣ قائلاً إنه يدرك أن «الكتاب جيد» وأضاف أنه «ليس بدرجة الجودة التى يجب أن يكون عليها». فهو ليس بجودة «موبى ديك» أو «الحرب والسلام». وكانت طبيعة لورانس التنافسية تدفعه إلى أن يطمح فى أن يتساوى عمله مع أعمال تولستوى ومليفيل وآخرين، وكان نمطياً منه أيضاً أن يشعر أنه لم يرقَ إلى المستوى الذى يريده. وفى الواقع، فمع مرور الزمن أصبح غير راض عن «أعمدة الحكمة» وكان يدعوه «برازى». واقتنع أنه عمل فاشل، وكان يرفض تقبل الثناء عليه، ويتغاضى عن أية استحسانات، على أنها «تملق»، ويفسرها على أنها ثناء على «الأسطورة» التى كان هو قد أصبح إياها. ومن ناحية المقدرة الفنية يعتبر «أعمدة الحكمة» عملاً رائعاً. فهو يمتاز بالبديهة والتحكم غير المألوف فى اللغة إلى حد بعيد. إلا أنه يعانى من العيوب؛ فقد قال لورانس نفسه إن الكتاب تعوزه الوحدة الموضوعية وأنه استطرادى أكثر مما يجب، ومشتت وغير متناسق: «فقد أقمحت فيه، مثل بنّاء فى فنائه، كل نشريات الأفكار التى اعترتنى خلال تلك السنين». وكان لورانس كاتباً وصفياً رائعاً، إلا أن طغيان التفاصيل السردية جعل القصة

مبهمة. وقد علق سانت جون فيلبى بقوله «إن الألوان، على لوحة الرسم، لشديدة الكثافة». ومن ثم يصبح ولع لورانس بالتمويه وغرابة الأطوار مضاداً لهدف الكتابة. فالكتابة تهدف إلى إعلام واضح بالأفكار، على حين نجد أن بعض أفكاره معتمة. بيد أن العيب الأكبر فى كتابه هوغياب التلقائية إذ إن عواطفه تبدو مصطنعة حيث تغيب النشوة والانفعال الحقيقى. فما نجده مجسداً هو ميل ونفور، أما عواطف الحب والكره الحقيقية فلا وجود لها. وكثيراً ما سمى لورانس شاعراً، بيد أنه لم ينظم أية قصائد تذكر. ثم أصبح «أديباً» بعد الحرب، إلا أنه لم يكن أبداً كاتباً بالمعنى الذى كانه أصدقاؤه فورستر وهاردى وساسون وجريفز وشو وآخرون. فلو لم يكن ثمة «لورانس العرب» لظل «أعمدة الحكمة» كتاباً عظيماً، إلا أنه لم يكن أن يصبح له نفس الأثر على العالم. أما كتابه الثانى «دار الصك The Mint» فكان من الأفضل ألا ينشر. وقد راودته هو الشكوك بهذا الشأن؛ فحينما حاول التقدم بمقالات لصحف ومجالات مختلفة تحت اسم مستعار، كان يقابل بالرفض. فقد كان لورانس رجلاً شهيراً يملك قصة واحدة يرويها، وقد رواها بمهارة وروعة. وأوجد لنفسه ركناً بين عظماء الفنانين وكتاب العصر، إلا أنه لم يكن أبداً على يقين أنه ينتمى إليهم.

وفى الواقع، فإنه يمكن النظر إلى حياة لورانس الوظيفية بعد الحرب العالمية الأولى، وبأكثر من معنى، على أنها مثال عن مقتضيات الشهرة، أى أنها ظاهرة لم تكن معروفة حينذاك بقدر ما هى معروفة اليوم فى عصر التليفزيون. فقد أصبحنا فى نهاية الألفية نعرف شخصيات «شهيرة لأنها شهيرة» كما يذهب المثل، كما أننا ندرك أن الشهرة تطمس الحقيقة، وأنها تسير فى مركبة ذات أبعاد أثيرية من الفانتازيا التى تعمل على تخليد الذات. وندرك أيضاً الآن أن علاقة الشهرة بالموهبة أو الإنجاز علاقة ضئيلة ، وتكون فى معظم الأحيان نتيجة «لعرض» الشخص. وربما كان لورانس، باستثناء نجوم الشاشة، أول نجم أعظم فى القرن العشرين. وتم خلق «لورانس العرب» بواسطة أول حملة دعاية كبيرة له. فقد بدأت شهرته بمجرد عودته إلى لندن بعد الحرب لدى محاورة مراسلى الصحف له، الذين وجدوه شخصاً متواضعاً غير مدع، وهو البطل الهمام، بدرجة تثير الدهشة. ولم يعرفوا

بالطبع أنه كان قد أتقن بعناية «زراعة» هذا المظهر شديد البراءة منذ الطفولة، وأنه قد ضمن إثارة اهتمامهم بالإيحاء بأن هناك ما يخفيه لأن تواضعه يمنعه الإعلان عنه. واعترف لورانس أن هذا كان هو المقصود بالضبط. وكان مدرسوه فى المدرسة قد لاحظوا عليه هذه الخاصية، وكان لهذا التوجه أثر فى صالحه مع هوجارث وفيصل واللنبى، وهاهو ينجح أخيراً مع الصحافة. وكما كان متوقعاً، أصبح الناس متعطشين لاستقاء معلومات أكثر وأكثر عن «الكولونيل لورانس» الغريب، ثم رسخت أسطورة لورانس عام ١٩١٩ عندما افتتح الصحفى الأمريكى لويل توماس دار الأوبرا الملكية بكوفنت جاردن بمحاضرة مصورة عنوانها «مع أللنبى فى فلسطين ولورانس فى بلاد العرب».

ففى عام ١٩١٨ كلفت الحكومة الأمريكية توماس بإنتاج مادة تولد الحماس للحرب بين أفراد الشعب الأمريكى. ولما وجد أن جبهة القتال الغربية لا تصلح لتقديم الصورة المطلوبة إعلامياً نظراً «لقذارتها» و«أمراضها» و«ورطتها وجمود الحركة عليها»، وجه بتشان، رئيس الدعاية البريطانية، توماس إلى الجبهة الشرقية. وهكذا التقى توماس بلورانس فى مارس عام ١٩١٨ فى القدس، وتعرفت حاسة الدعائى الكبير داخل لورانس فوراً على فاعلية الإعلام، ومن ثم، رتب لتوماس زيارة للعقبة، حيث لم يستعد للتصوير فقط بارتدائه زيه العربى، بل إنه نجح أيضاً فى الحصول لتوماس على ترخيص لتصوير فيلم عن البدو. وقال توماس فيما بعد: إن لورانس لم يرهب آلة التصوير لكن زملاءه من الضباط البريطانيين كانوا يرهبونها. ورغم أن عودة توماس إلى الولايات المتحدة كانت متأخرة عن أن تحقق مادته هدفها الأصلى، فإن عرضه لهذه المادة بعد الحرب حقق ظاهرة نجاح غير مسبوق وارتقى بلورانس سريعاً إلى مرتبة النجم الأعظم. فقد شاهدها فى بريطانيا وحدها أكثر من مليون شخص بمن فيهم الملك الذى طلب منه عرضاً خاصاً. كما نجح العرض أيضاً بأن ربط بالمادة المعروضة سلسلة من النماذج الأصلية للبطولة والتى وجدت قبولاً عميقاً فى الوعى الجمعى لشعب كان بلده قد خرج لتوه من حرب ساحقة. ونجح «الكولونيل لورانس» فى «خلاص» أرواح آلاف الشباب البريطانيين الذين بدا موتهم لا هدف له. وزعم توماس أن العرب كانوا يعتبرون لورانس كائناً خارقاً للطبيعة أرسلته إليهم السماء ليخلصهم من ظالميهم. وأعلن أن

لورانس قد عمل على توحيد العرب أكثر من أى شخص منذ «الخلفاء العظام»، وقال إنه قد حقق هذا بأن «حول نفسه إلى عربى» وتجول فى أنحاء الصحراء هناك يرافقه اثنان فقط، وعمل ببلاغته الخالصة، على إقناع أفراد القبائل أن يلحقوا بالثورة العربية. وأكد أن «الشاب» قد أصبح فعلياً حاكم أرض العرب المقدسة والقائد العام لآلاف البدو. وكانت الصورة شديدة الإقناع، كما أن الطبيعة المسيحية للقصة كانت ما أراد المشاهدون سماعه. وبالإضافة فقد كانت تلك القصة تعبر عن الصور الأسطورية للنموذج الأصلى الذى كان لورانس يهوى ترويجها. ففى أوائل عام ١٩٢٠، كتب إلى السير آرشيبالد مرى، رئيسه السابق فى القاهرة، والذى كان قد اعترض على بعض تعليقات توماس عليه فى المحاضرة، «إنه كان يجلس «دون حراك» بينما كان توماس يدعوه «أمير مكة» وأشياء أخرى لا أخلاقية. بيد أن لورانس كان قد أعلن للملك قبل ذلك بعام أنه «أمير بين العرب». كما أنه قد استعمل لقب «أمير مكة» إرادياً فى طبعة عام ١٩٢٢ من موسوعة "Who's Who". والحقيقة هى أن لورانس قد ولع بمحاضرة توماس، وذهب لحضورها مرات ومرات، وكره نفسه لأنه أحبها. ووصف لورانس هذا النوع من الدعاية بأنه «فاسد»، إلا أنه حينما سأله توماس عما سيكون عليه موقفه من الأجزاء غير الصحيحة التى جاءت بالمحاضرة، أجابه بأنه لن يؤكدها أو ينفيها. وقد كتب توماس، الذى كان خلافاً لمؤرخى لورانس الآخرين، قد التقى به فعلاً أثناء الحرب، «إنه كان يجد متعة بالغة فى قيادة الجيوش، وفى أن يكون استراتيجياً وصانعاً للتاريخ»، وكتب يقول «لقد وجد لذة فعلية فى المجد الذى صنعه نجاحه».

وكانت محاضرة توماس والعرض الذى قدمه ممارسة فى التلاعب بالجماهير ذات أثر مذهل. ففى غضون أسابيع كان هؤلاء الذين عارضوا لورانس أو وجهوا إليه النقد يمتدحونه دون تحفظ، بعد أن أدركوا أنهم كانوا أيضاً عوامل مساعدة فى «قصته البطولية». وبلغت سطوة هذه الصورة الأسطورية درجة أصبح من المحال معها فى السنوات التالية أن يأتى أحد بمقولة متوازنة عن لورانس: فباستثناء محطمى الأيقونات، شعر الجميع أن عليهم امتداح الرواية الرسمية، وأضحت معارضتها تعادل الخيانة تقريباً. وفتحت شهرة لورانس له جميع أبواب الكُتاب

المرموقين والفنانين والشعراء. ومن الطبيعي أن يعتقد المرء أن الكثير من هؤلاء لهم المقدرة على تكوين الرؤى الخاصة المستقلة، إلا أنهم ببساطة تقبلوا حكم الغوغاء. (كانت هناك بعض الاستثناءات فلم يلحق كيبلنج أو داوتي بهذا السيرك الشعبي). كان هذا ما حدث نتيجة للسطوة الساحقة للشهرة. وأصبحت الشهرة نفسها كينونة فانتازية لا علاقة لها بالحقيقة، وأخذت تُغرق كل ما يفعله لورانس أو يلمسه في وهج مبهر رخيص. فصيرت لورانس «بطلاً»، ليس مخلوقاً من لحم ودم يعيش في عالم واقعي، بل شخصية مركبة تقطن ما يمكن أن ندعوه اليوم الفضاء السيبرنطيقي - أو الوعي الجماعي، أي بؤرة تخيلية للطموحات والرغبات البشرية. وأصبح يرتبط لدى الكثير من الناس بمفهوم ما يعنيه أن يكون المرء بريطانياً، لدرجة أن أي نقد كان يوجه إلى لورانس كان يُعتبر، في بعض الجهات، هجوماً على البريطانيين أنفسهم. واستمر الأمر هكذا حتى ستينيات القرن العشرين، أي بعد وفاة لورانس بمدة طويلة، إلى أن وجد الكاتب ريتشارد آلدينجتون الشجاعة لأن يبين عبث عبادة لورانس كقديس دنيوي، وإن كان كشف آلدينجتون للزيف قد شابته سخرية النقد اللاذع غير المحسوب مما أدى إلى تقويض قضيته.

ما دور لورانس في خلق أسطورته؟ مما لا شك فيه أن حساسيته وميله إلى تقديم ما هو واقعي بشكل أسطوري كان له دور رئيسي. فخلق الأسطورة عملية ذات مسارين. فلابد للبطل الذي يُصنع أن يملك إحساساً بالأسطورة التي يظهر فيها: أي مقدرة على أن يعكس ما يتم إسقاطه عليه بواسطة الآخرين. فهو يمدهم بالمادة الخام التي تُبنى بها الأسطورة. وقد كشف توماس أن لورانس كان يزوره بانتظام في ريتشموند، وأنهما كانا يتبادلان المشورة. كما كتب توماس أنه كثيراً ما كان يسأل لورانس عن مدى واقعية حكايات بعينها فكان لورانس يقهقه ويقول: «إن التاريخ لا يتكون على أية حال من الحقائق. فلماذا القلق؟». إلا أن طبيعة لورانس المازوكية منعته من أن يتقبل مداهنة الآخرين ببساطة. فلم يكن مغروراً، كما لم تكن ميوله الاستعراضية التي كانت واضحة خلال حياته من النوع النرجسي. فكان يشعر بنفسه أنه «نجس» في أساسه، وشعر بالحاجة إلى أن يرى العالم هذا. لذا أصبحت حياته جدلاً لا ينتهي بين نشوته بنجاحه وحاجته الغريزية للحط من قدر نفسه.

وأدرك توماس ولع لورانس بالشهرة، وأيضاً حاجته لأن يهرب منها فى ذات الوقت. فكتب عنه «كان يحتج قائلاً إنه يود لو تركه العالم وحده.. إلا أنه فى قرارة نفسه كان يحب كل هذا». وكان توماس نفسه هو من كتب السطر الشهير عن موهبة لورانس «للانسحاب إلى بريق الضوء» (باعتبار أن الانسحاب يضفى عليه بريقاً أكثر). ودعاه برنارد شو، وكان من أقوى الناس ملاحظة فى عصره «ممثلاً بالسليقة» وكتب عنه «حينما كان يقف فى وسط خشبة المسرح، وعشرات الأضواء مسلطة عليه، كان الجميع يشيرون إليه ويقولون «انظروا إنه يختبىء... إنه يبغض الدعاية!!». إلا أن لورانس جلب هذه التعليقات لنفسه. حينما اعترف أن لديه «ولعاً بالشهرة، ورعباً من أن يعرف الناس أنه يود أن يصبح معروفاً». وكان مأزقه شديد الشبه بمأزق «كابتن هوك»، وهو من شخصيات الكاتب جيه. إم. بارى، وكان وغداً عجوزاً من خريجى إيتون، يعذب كيانه إدانته لتفكير المرء بأنه يجب أن يبدو طيباً وأن المرء يمكن فقط أن يكون طيباً بشكل حقيقى دون علم منه بذلك. وهذه الخاصية، طبقاً لتعليق لين كوان، تتوافق تماماً مع الطبيعة المازوكية فكتب «إن المازوكى يكشف عن كونه ممثلاً مقنعاً، فإنه يتحتم عليه أن يمثل ويعيش ليمثل، ويكره أن يمثل. وتكون عذاباته الداخلية شديدة لدرجة يجد معها أن من الواجب أن يخفيها خلف الستائر. إلا أنها تتفجر وتندفع إلى وسط خشبة المسرح». فقد ساعد لورانس على خلق الأسطورة، ثم حاول إنكارها. فأخبر جوزيف كونراد أن أسطورة «لورانس العرب» غير صحيحة برمتها. وكتب إليه قائلاً: «إننى أعرف درجة زيف الثناء، وقدر ضآلة الحقيقة مقارنة بالأسطورة، وما تحويه من قدر كبير يعود إلى الحظ، ودور ضئيل للجدارة». إلا أنه اعترف رغم ذلك أن للأسطورة كياناً مستقلاً حينما أعلن «أن الكولونيل لورانس مازال مستمراً، رغم أننى تنحيت جانباً».

بيد أن لورانس اكتشف، فى نفس اللحظة التى كان «الكلونيل لورانس» يولد فيها أنه لم يكن أبداً تى. إيه. لورانس، ففى أبريل عام ١٩١٩ توفى والده بالأنفلونزا. وعاد إلى أكسفورد من مؤتمر الصلح ليكتشف هويته الحقيقية. فقد ورث توماس عن عمه لقب «البارون» تشابمان عام ١٩١٤، وبالطبع لم يستعمل الأب هذا اللقب أبداً. ولدى عودته اكتشف أيضاً أنه نجل السير توماس تشابمان

الذى كان وارثاً لضياع شاسعة فى أيرلندا. ومن الصعب معرفة رد فعله على هذا الاكتشاف. فقد كان يشعر منذ طفولته أن شيئاً غريباً يشوب علاقة والديه. فمثلا، لابد وأنه قد لاحظ أنه كان بغير أقرباء على حين كان للأطفال الآخرين أولاد أعمام وعمات، وأجداد، وعمات، وخالات، وأعمام وأخوال. ورغم أنه كان يعرف أنه طفل غير شرعى منذ أن كان فى العاشرة. إلا أنه، طبقاً لمذكرات سجلها تشارلز بل، من المتحف الأشمولى، عن دافيد هوجارث، أن لورانس كان يعتقد أن توماس ليس أباه الحقيقى، إلا أنه تزوج أمه ـ وكانت خادمة فى منزل رجل آخر ـ بعد أن ولدت بعض أبنائها أو كلهم. وقد ادعى لورانس أنه لم يبال أبداً بعدم شرعية مولده: فلم يؤثر هذا فى طفولته، ولم يؤثر بالتأكيد فى نجاحه. وقال آرنى لورانس، الذى انفجر فى ضحك أجش، حينما أخبره لورانس بالحقيقة، أن أخاه لم يشعر بمرارة تجاه إرثه «فلم يكن بالإمكان أن يشعر بأى حزن.. لأن المال كان قد انتقل بالفعل إلى والده، ولماذا كان سيحزنه استبعاد بوب من ملكية الأرض (إلا أنه علق ذات مرة أنه لو أصبح بوب السير مونتاجيو لكان هذا أمرا مضحكا)». وبالإضافة، فبما أن لورانس كثيرا ما كتب إلى معارفه يخبرهم أن اسمه الحقيقى ليس «لورانس»، فمن غير المحتمل أن يكون قد شعر بالخزى الكبير من هذا. وكثيراً ما حاول مؤرخو لورانس تحويل قصته إلى حكاية شعور وجودى بالذنب بسبب ملابسات عائلته، إلا أنه، باستثناء بعض التلاعبات باسمه، والتأكيد على كونه أيرلندياً، (وكان هذا أمراً جديداً) فقد أتى الكشف متأخراً بدرجة لم يسهم معها فى تشكيل شخصيته أو التأثير فى عمله؛ فحينما علم بالحقيقة عام ١٩١٩، كان بالفعل على وشك أن يصبح بطلاً قومياً.

لم يقتنع لورانس أن الهاشميين قد لقوا معاملة عادلة من الحلفاء. وكان انتصار الحلفاء على تركيا، الذى كانت احتمالاته المستقبلية قد بدت وردية فى أكتوبر عام ١٩١٨، قد تحول سريعاً إلى حالة من الفوضى. فقد تم قمع انتفاضة سعد زغلول باشا وحزب الوفد ضد البريطانيين فى مصر باستعمال قدر كبير من العنف عام ١٩١٩ حيث فتحت القوات البريطانية النيران على جماهير المتظاهرين وقصفتهم طائرات السلاح الملكى البريطانى وهاجمت المدنيين وتم القبض على قادة المتظاهرين وتعذيبهم. كما تم القضاء المبكر على حركة قومية فى كردستان

بواسطة فرقة بريطانية. وحدثت فى العراق ثورة عارمة ضد الانتداب البريطانى واقتضى الأمر استعمال قوات قوامها ٤٠,٠٠٠ جندى لقمعها بتكلفة قدرها ٤٠ مليون جنيه استرلينى، أى ما يعادل ثلاثة أمثال ما أنفق على الثورة العربية. وبلغ عدد الضحايا ١٠,٠٠٠ بينهم ٤٠٠ جندى بريطانى. أما فى فلسطين فكان التوتر يتنامى بين العرب واليهود. وفى سوريا فيصل، كان رجال القبائل من أتباع فيصل الذين انتزعوا من مواطنهم، يرقبون الفرنسيين من الأطراف بِغْل شديد. وباختصار، وطبقاً لتعبير ونستون تشرشل «فإن الشرق الأوسط برمته يبدى صورة شديدة الكآبة والخطورة».

وفى فبراير عام ١٩٢١ تولى تشرشل منصب وزير المستعمرات وقرر إصلاح الموقف. وجمع حوله فريقاً من المختصين بمن فيهم لورانس الذى وافق على هذا دون تردد خلافاً لتوقعات الكثيرين. ورغم أن خلفية تشرشل كانت أكثر تميزاً بكثير من خلفية لورانس، إلا أن الاثنين كانا لهما نفس الطبيعة، فقد تميز كلاهما بصدق الحدس، وكان كل منهما رومانسياً، كما أن كليهما قد عانى أزمات فى طفولتهما (فقد عانى تشرشل من إهمال والدته التى كانت ذات علاقات جنسية متعددة مشوشة) ولم يكن أى منهما جذاباً جسمانياً، إلا أن كلاً منهما تغلب على قصوره الجسدى بشجاعة وقوة إرادة هائلتين. وكان الاثنان متحدثين بليغين، ودعائيين من الدرجة الأولى، وصانعى ألفاظ من طراز فريد. وكان الإعجاب بينهما متبادلاً. واعتزم تشرشل عقد مؤتمر فى القاهرة يدعو إليه كل الأطراف المعنية بالسياسة فى الشرق الأدنى ليتوصلوا إلى تسوية شاملة. وعقد المؤتمر فى مينا هاوس بالقاهرة فى ظل الأهرامات فى مارس عام ١٩٢١، وشمل تقريباً كل عسكرىّ وإدارىّ له علاقة بقضية الشرق الأوسط. وكانت التوصية التى تم الاتفاق عليها مسبقاً مع فيصل فى لندن هى إلغاء الانتداب البريطانى فى العراق وتسليم الإدارة إلى حكومة عربية مع التوصية بأن يصبح فيصل ملكاً بعد استفتاء عام. ثم تدخل بريطانيا فى تحالف مع فيصل وتسحب القوات البريطانية وتستبدلها بقاذفات قنابل اللورد ترنشارد من السلاح الجوى البريطانى. وفى أبريل، سافر لورانس وتشرشل إلى القدس لمحادثات مع الشريف عبد الله الذى كان قد وصل إلى معان فى اليوم السابق مع قوة مع البدو استعداداً للهجوم على الفرنسيين فى سوريا. واقترح عبد الله أن

يحكم دولة موحدة تتكون من شرق الأردن وفلسطين. لكن هذه المقترحات رفضت بسبب وعد البريطانيين لليهود. وبدلاً من هذا تم تعميد عبد الله حاكماً إقليمياً لشرق الأردن. وظل لورانس في البلاد كممثل لبريطانيا حتى ديسمبر، ثم عاد أدراجه إلى إنجلترا مقتنعاً أنه قد بذل ما في وسعه ليفي بما تعهد به للهاشميين أثناء الحرب. وفي هذا الصدد كتب «لقد حل تشرشل كل العقد، وأوجد حلولاً تفي بكل وعودنا ـ على ما أعتقد ـ نصاً وروحاً (بقدر ما هو ممكن للبشر) دون التضحية بأي من مصالحنا أو مصالح الشعوب المعنية. وهكذا انتهينا من مغامرة زمن الحرب الشرقية ـ بأيد نظيفة. إلا أن هذا جاء متأخراً ثلاث سنوات بحيث لم نكسب الامتنان المتوقع من هذه الشعوب أو حتى هذه الدول».

وعن هذا قال المؤرخ العربي چورچ أنطونيوس إن «هذه مقولة لا تستقيم، بشكل ملموس، مع الواقع الذي حدث، بدرجة تلقي شكوكاً جادة حول فهم لورانس للقضايا المتعلقة». وفي الواقع فقد كان مؤتمر القاهرة نذير زمن قلاقل في الشرق الأوسط، لا يفوقه زمن آخر بما في ذلك زمن الحكم العثماني. فلم يتح للعراق التمتع بسنة سلام واحدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ومازالت حتى اليوم تعاني من الأزمات الرهيبة. ومن الواضح أن هذا ينطبق أيضاً على فلسطين. أما الفرنسيون فقد جوبهوا في سوريا بمعارضة شديدة حتى قبلوا بإدارة عربية عام ١٩٣٦. وفقط في شرق الأردن، وهو بلد فقير نسبياً، أمكن المحافظة على شبه توازن بواسطة الفيلق العربي تحت قيادة الإداري الموهوب جون باجوت جلوب. أما الملك حسين، ذلك الثعلب الذي تآمر منذ شبابه على خلق حجاز مستقل، فقد قام الملك عبد العزيز آل سعود، المنتصر الحقيقي في الثورة العربية، بطرده. ومازالت «مغامرة زمن الحرب الشرقية» تحيا معنا، فلم نخرج منها بعد بأيد نظيفة.

على أن لورانس لم يعد إلى بلاد العرب مرة ثانية أبداً. فقد فعل ما بوسعه للعرب، وخرج (من المغامرة) عن حق، أو عن باطل، كأعظم بطل لأكثر حرب ساحقة في التاريخ، وأجبر على أن يحمل معه «لورانس العرب» الخيالي طوال ما تبقى له من حياة. كان بإمكانه أن يختار أي منصب له. فقد أشاع هو نفسه أن تشرشل عرض عليه منصب المندوب السامي البريطاني في مصر بعد كيتشنر ومكماهون وأللنبي. إلا أنه لم يكن يميل للمناصب العليا. واختار لنفسه، كجائزة

لخدماته أثناء الحرب، أغرب جائزة يتخيلها إنسان؛ فقد اختار أن يلتحق بالقوات المسلحة كجندى (نفر). وهكذا أكمل دائرة الطموح الذى احتضنه منذ أن هرب من منزله وهو فى السابعة عشرة من عمره.

الفصل الحادى والعشرون

نسرع.. لندفع بأنفسنا خارج أجسادنا

القوات الجوية الملكية

وسلاح الدبابات الملكى والوفاة

١٩٢٢ـ١٩٣٥

21

في ٣٠ أغسطس عام ١٩٢٢ ، كان
ثمة رجل مهلهل المظهر
يدعي جون هيوم روس يحوم وهو
يترنح خارج مكتب تجنيد أفراد القوات
الملكية الجوية في شارع هنرينتا بوسط
لندن . تردد في الدخول لبعض الوقت ،
وأخيراً ، وبعد أن اندفع إلى مرحاض
عام ليريح أمعاءه التي كادت تتحلل
خوفاً ، قرر الدخول .

وواجهه صف ضابط متجهم وهو الرقيب أول ماكجى الذى وجد مظهره مشيراً للشكوك، واستدعى الضابط و. إيه. جونز، الذى كان كاتباً متطلعاً، منح فيما بعد صبية العالم التسلية بسلسلة كتبه المسماة Briggles . وأشار ماكجى إلى جونز ملمحاً أن روس قد يكون مشبوهاً إذ إنه لم يكن يحمل أى إثبات هوية أو خطابات توصية. وأرسل جونز روس لإحضار توصية وشهادة ميلاده، وحينما خرج، اتصل بمكتب قيد المواليد فى سومرست هاوس وتأكد من عدم مولد شخص يدعى جون هيوم روس فى التاريخ الذى ذكره الرجل. وعندما عاد روس بخطابات توصية، التى كان فى الغالب قد زورها، قام ضابط الصف بطرده.

إلا أن جونز أصابته الدهشة لدى عودة الرجل فى غضون ساعة برفقة مراسل رسمى من وزارة الطيران يحمل رسالة وقعها القائد العام للقوات الجوية اللورد ترنشارد ومفادها أن يتم تقييد روس كمجند من الدرجة الثانية فى القوات الجوية. بيد أنه كان عليه اجتياز الكشف الطبى. ووجد طبيبا القوات الجوية اللذان قاما

بفحصه أن به آثار ضرب متعمد بالإضافة إلى أنه كان يعانى من سوء التغذية بشدة. ورفضه الطبيبان على أساس أنه لا يصلح. وأرسل جونز الحالة إلى الضابط المسئول الذى هاتف وزارة الطيران. وحالما وضع السماعة قال «احترسوا... إن هذا الرجل هو «لورانس العرب»، أدخلوه وإلا عليكم ترك الخدمة» وعاد جونز إلى الطبيبين، إلا أنهما أصرا على رفض التوقيع. ومن ثم، اضطر جونز إلى استدعاء طبيب مدنى ليسمح للورانس بالالتحاق كمجند فى سلاح الطيران الملكى.

لا تتاح الفرص لجميع الأفراد كى يحققوا أحلامهم، بيد أن أحلام الكثير من الناس تدور حول الرفعة والثروة والنجاح. أما تكوين لورانس النفسى، الغريب، وميوله الاستعراضية العكسية كانت هى التعبير الاجتماعى عن المازوكية، باتجاه الانحطاط والفقر وإنكار الذات والعبودية. الحالة التى كانت تتيح للورانس أن يخبر مثل هذا الانحطاط على أفضل وجه، باستثناء أن يكون عبداً بالفعل، أو سجيناً، كانت هى التحاقه بصفوف المجندين فى القوات المسلحة. وكان مما كتبه «إن ما أقنعنى أن أفضل مستقبل لى، إن ظللت على قيد الحياة بعد الحرب، هو أن

أجند في الجيش، كان خروجي في السيارات المدرعة واختلاطي الودي بأفراد القوات الجوية». ومن ثم، كتب إلى ترنشارد رئيس أركان القوات الجوية في يناير عام ١٩٢٢، وبينما كان مازال يعمل في وزارة المستعمرة، أنه يود الالتحاق كمجند بالقوات الجوية. وكان قد التقى بترنشارد في مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١. وأخبر ترنشارد أن سبب طلبه التجنيد هو تجميع مادة لكتاب له عن القوات الجوية من مستوى القاعدة. وعندما أصدر ترنشارد أخيراً الأمر بإلحاق «جون هيوم روس» بالقوات الجوية برتبة جندي فني من الدرجة الثانية رقم ٣٥٢٠٨٧، في ١٦ أغسطس كتب «إنه يتخذ هذه الخطوة ليعرف حقيقة حياة رجال القوات الجوية». وكتب لورانس فيما بعد لأحد معارفه، إنه التحق بالخدمة لأنه وجد نفسه دون عمل حقيقي، وأن الالتحاق بصفوف المجندين هو طريق سريع وسهل للبقاء على قيد الحياة.

غير أن هذه التوضيحات جميعها لم تكن الحقيقة كاملة كما اعترف هو حينما كتب لروبرت جريفز «لا أستطيع بأمانة إخبارك عن سبب التحاقي. فقد كانت خطوة ضرورية دفعني إليها ميلي إلى المستويات الدنيا، على أمل يائس أن أجد نفسي على أرض مشتركة مع الناس، تحقيقاً لرغبة صغيرة في أن أصبح أكثر إنسانية..» فإن كان تطوعه مجنداً يبدو أمراً شاذاً، فعلينا أن نتذكر أنه هرب من منزله وهو في السابعة عشرة ليفعل نفس الشيء. وكان طوال حياته يجنح إلى تخيل نفسه وهو يلتحق بصفوف المجندين، أو أنه هارب من الجندية. فقد كان يتواجد في عالم مازوكي معكوس القيم يجد لذة في الألم، وتحرراً في العبودية، ويجد إنكار الذات بانغماسه في طقوس اللذات والعربدة الذاتية. وقد أخبر تشارلوت شو فيما بعد أنه «يجب على الإنسان أن يعاني كي يرضى». فلم يكن التحاقه بصفوف المجندين في القوات الجوية أولاً، ثم في الجيش مرة أخرى في وحدة الدبابات، ثم بالقوات الجوية مرة ثانية حيث قضى بها معظم سنوات حياته الباقية، تجربة تكفيرية، بل المكافأة النهائية لنضالاته وإنجازاته. وكان التوضيح «الرسمي» القائل بأن لورانس قد التحق بالقوات الجوية سعياً وراء الأمان غير مقنع. إذ إنه كان بإمكانه الحصول على أمان أكبر كثيراً إن هو التحق كضابط أو كمسئول في مكتب المستعمرات دون التعرض للمصاعب المستمرة والتهديد

بالعنف الذى خبره فى سنواته الأولى من صفوف المجندين. وبمعنى آخر، فقد مكنه تجنيده من تحاشى المسئولية التى ألقتها على كاهله شهرته الدولية وحملته عبء تمثيل دور البطل. إلا أن هذا أيضاً، فى حد ذاته، جعله أكثر تميزاً من الأبطال «العاديين» الذين أتوا بما هو فج ومتوقع كقبولهم رتب الفروسية والجوائز والمناصب الكبرى. وكان لانخراطه فى صفوف المجندين جانبه الإيجابى أيضاً؛ فقد كان لورانس قد عرف فى نفسه منذ زمن طويل قوة تنافسية هائلة، ورأى بوضوح، أثناء احتلال دمشق، وبينما كان هو الحاكم الفعلى للمدينة، أن الفرصة لو أتيحت له فسيتحول التنين داخله إلى طاغية كامل. وقد كان من شأن أى منصب كبير أن يتيح له هذه الفرصة. وشعر لورانس بالحاجة إلى تقييد نفسه وتصغيرها جسدياً من أجل منع الوحش من الخروج. وكانت الخدمة العسكرية تتيح له ممارسة السلطة المعنوية من خلال أصدقائه ذوى السطوة دون الإفساد الحتمى لروحه الذى كان من شأن الثراء المادى والقوة الفزيائية إحداثه. ومن ناحية أخرى،فلو كان هناك ثمة خطر من نسيان «لورانس العرب» فقد كفل التحاقه بصفوف المجندين عدم حدوث هذا ـ ومن المفارقة أن كان هذا أكبر إعلان عن الذات. وعلى مستوى آخر، فبالإمكان النظر إلى سنوات خدمته فى الجيش على أنها وصفة طبية ذاتية لإيجاد توازن بين ما كان يشعر أنه غير سوى فى روحه كى يجعل نفسه إنساناً صحيحاً. فكتب إلى روبرت جريفز عام ١٩٢٣ «لقد أتيت هنا كى آكل القاذورات حتى اعتدت عليها» وأيضاً «ستكون حالة سبات للعقل، وسأخرج منها أقل غرابة فى أطوارى مما كنت عليه قبل دخولى؛ أو على الأقل، أقل غرابة فى أعين الآخرين».

وقد لازمت التحاقه بالجندية السرية والمظهر التآمرى. بيد أنه من الواضح لم يبذل الكثير من أجل إخفاء هويته الحقيقية. فقبل أن يترك مكتب التجنيد فى ذلك اليوم كان جونز يعلم من هو وقال «إن لورانس علم أننى عرفت إذ إننى حادثته طويلاً أثناء انتظار للقطار المتوجه إلى أكسبريدج» كما هاتف جونز أيضاً مركز تدريب المجندين فى أكسبريدج لينبه زميله هناك، الملازم طيار نيلسون، أن «لورانس العرب» كان فى طريقه إليهم تحت اسم مستعار. وهكذا، فمنذ اللحظة الأولى كان الجميع قد عرف سره باستثناء فنيى الطائرات العاديين وضباط الصف الذين شاركهم لورانس الحياة. وقضى شهرين فى أكسبريدج حيث وجد الحياة حياة كد

وتعب يتبادل فيها أعمال السخرة بالمطبخ والتدريبات العسكرية والتمرينات الرياضية. وكان قد أمل أن تساعده القوات الجوية على الخروج من حالة الإنهاك وسوء التغذية التى كان عليها وطاقته التى استنزفها فى كتابة «أعمدة الحكمة». وكان لورانس أكبر سناً من معظم المجندين إلا أنه كان يعانى الوهن، ومن ثم كان لا يستطيع مجاراتهم فى التدريبات الرياضية وكان يرتبك أثناء التدريبات العسكرية. وعمد الضابط المعاون بريس الذى كان يتميز بالجمود إلى إذلاله، وكان من سوء حظ لورانس أنه تبجح وطلب منه غرفة خاصة يواصل فيها العمل فى كتابه. ويعتبر هذا مؤشراً واضحاً لعدم توافقه مع وضعه كمجند جوى عادى. وربما كان هذا الطلب محاولة إرادية لغواية السلطة (كى يعاقب). وفيما بعد، كتب بريس أن العقوبة كانت توقع على «روس» باستمرار للقذارة وعدم إطاعة الأوامر والتمرد والتأخر عن العروض. وتذكر بريس أن «روس» كان يدافع عن نفسه بغطرسته الأكسفوردية قائلاً ببساطة إنه «كان يشعر دائماً بحالة من التعب فى الصباح الباكر». واعتقد زملاؤه من فنيى الطائرات أنه كان شخصاً غريباً، وتذكر أحد زملائه فى الغرفة أن فنيى الطائرات كانوا يجدونه نافعاً، إذ كانوا يقترضون منه، وكان يخبرهم بأمور الكتب ويسدى لهم النصائح الفنية. ورغم أنه، على أحد المستويات، كان يسعى لأن يتقبله زملاؤه، إلا أنه أبقى إرادياً على غرابة أطواره. وكتب إلى إدوارد جارنيت قائلاً إنه كان يشعر بالعزلة فى الثكنات، وأنه كان مثل «اليعسوب وسط الزنابير» أو أنه كان «زنبوراً وسط اليعاسيب». وسرعان ما أكد ميله إلى التوافق مع زملائه دون الانتماء إليهم.

وكان بإمكان لورانس أن يحقق هدفه فى أن يظل مجهولاً لو أنه رغب حقاً فى ذلك. فلو قصد أن يترك «الكولونيل لورانس» خلفه وأن يعثر على شكل «الدودة داخل قوقعة اليرقة» وفقاً لتعبيره، لأمكنه هذا. وكما لاحظ برنارد شو بحصافة فقد كان لورانس يسعى للاختفاء دائماً فى بؤرة الأضواء الساطعة وسط المسرح. فلم يكن هدفه الحقيقى أن يظل مجهولاً. فقد هدف من الالتحاق بالجيش إلى إذلال نفسه، وإلى أن يراه الناس وهو يحقر ذاته؛ أى أن يعانى ويراه الآخرون وهو يعانى. ومثلما كان لرحلاته الليلية للغطس فى الجليد فى نهر تشيرويل أيام الكلية هدف «إحداث صدمة بين التقليديين من الناس»، فقد كان لابد وأن تصل أنباء

خدمته«كدابة» وسط صفوف المجندين إلى الشخصيات الرفيعة التى كان متاحاً للورانس أن يعيش بينها . إذا ، فلابد من الزج بهم للمشاركة فى انحطاطه . فقد التحق بالقوات الجوية كمجند . وفى الواقع ، حاول معظم معارفه بمن فيهم ونستون تشرشل ولورد ترنشارد ، إثناءه عن هذا . إلا أنه بمجرد اختياره لطريقه شرع يكتب سلسلة من الخطابات إلى عظماء البلاد وذوى النفوذ يحقر فيها ذاته طوعاً . ويمكن الإحساس برغبة لورانس الملموسة فى استعراض ظروف حياته الجديدة المقززة فى خطابه لبرنارد شو : «إنك تطلب تفصيلات عما أفعله فى القوات الجوية . فى الصباح ، قمت بحك وتنظيف أرضية المطبخ . . كما قمت أمس بغسل الأطباق فى مطعم ضباط النظام (لا يراعى هؤلاء الضباط الأصول والنظافة فى الأكل . فأطباقهم كانت ملوثة بالزبدة وصلصة الطماطم ، وكانت مياه الغسيل باردة) . وعملت زبالاً ، وكاتباً ، ومنظفاً لزريبة الخنازير . وقمت بشئون الخادمات ، ومساعد الطاهى . إلا أن الأمور ليست شديدة السوء . . » وهناك توازن غريب بين حياة لورانس فى الخدمة العسكرية ، وبين موقفه من «أعمدة الحكمة» الذى كان يقوم بمراجعته أثناء أسابيعه الأولى فى القوات الجوية . فمرة أخرى ، لم يجبره أحد على تأليف هذا الكتاب الذى يكشف فيه عن «أسرار» و«أمور» لم يطلب منه أحد الكشف عنها . إلا أنه بمجرد أن انتهى منه ، وعمل على تداوله بحرص ، بين المقربين ، لم يكف عن النواح والتباكى على قصوره . فكتب إلى برنارد شو الذى كان قد تلقى نسخة أصلية «إن قلت عنه إنه هراء فسأوافقك وأطلق ضحكات سعيدة مردها أن حكمى عليه قد تضاعف» . وإلى إدوارد جارنيت كتب «أود لو لم يكتب هذا الكتاب الفظيع الغبى» وكأنه ليس له يد فى كتابته . ويعتبر موقف لورانس من نشر «أعمدة الحكمة» نافذة عرض لشخصيته ـ تلك الشخصية التى وضعها ليدل هارت بأنها شخصية امرأة «ترتدى حجاباً وتكشف ثدييها» . فقد أكمل لورانس الكتاب عام ١٩٢٢ ، وكان بوسعه آنذاك نشره ونسيان كل شىء عنه . إلا أنه بدلاً من هذا شرع يدفعه تحت أنوف الجماهير ، مغرياً إياهم به طوال ما تبقى من حياته . فبدأ بالإفراج عن ثمانى نسخ لأصدقائه المقربين . ثم أصدر طبعة محدودة للمشتركين بعد أربعة أعوام ، وتبعها بنسخة مختصرة أسقط منها كل المادة الخلافية . واستمر يشتغل على النص لسنوات ، ليضمن بهذا اهتمام الناس

بالكتاب، ومن ثم، الاهتمام به شخصياً إذ إنه لم يسمح للكاتب قط أن يتوارى. إن هذا ليس سلوك شخص يسعى بحق إلى أن يظل مجهولا.

فلو أراد حقاً أن يظل مجهولاً لما صادق جورج برناد شو - أحد أشهر كتاب بريطانيا - أو أى من الشخصيات القوية التى كان يراسلها بمن فيهم تشرشل ولورد ترنشارد وليو آمرى - برلمانى الأميرالية - وحتى رئيس الوزراء السابق لويد جورج. فمثلاً كان فنى الطائرات المجند، الذى أنهى لتوه إطعام الخنازيروتنظيف زرائبها، يخبر بطل صباه تشارلس داوتى، بقدر من التعالى، أن «ثمة ثلاثة أوأربعة أفراد فى وزارة الدفاع الحالية زملاء فى كلية أول سولز، ومعظم الآخرين أصدقائى الشخصيين ومن بينهم دوق ديفونشاير واللورد سالسبرى وآمرى وود». ولا نعرف رد فعل داوتى على هذا. فقد كان يُقدر محاولات لورانس مساعدته على إعادة نشر كتابه «الصحراء العربية»، والحصول على معاش مدنى له. إلا أن داوتى أعاد إليه «أعمدة الحكمة» دون تعليق، وقد يكون فى هذا تعليق كاف. وأيضاً، شرع لورانس فى مضايقة اللواء جوى السير أوليفر سوان رئيس التدريب وشئون الأفراد فى القوات الجوية الذى أمره ترنشارد أن يتخذ إجراءات تجنيد لورانس إلا أنه عارض هذا بقوة. ولذا، فلابد وأن لورانس قد وجد سروراً عظيماً أن يخاطب الرجل باسمه، وهو الجندى وضيع المنزلة، إذ إنه يعلم أنه كان يسانده أعظم عظماء القوات الجوية. ورغم زعم لورانس أنه قد ترك خلفه «الكولونيل لورانس» إلا أن التناقض بين هويتى «لورانس العرب البطل القومى» و«روس الفنى الجوى من الطبقة الثانية» كان مصدراً للحبور والتسلية بالنسبة له؛ إذ كان هذا محاكاة ساخرة للهرمية الاجتماعية - ذلك الحس الطبقى الذى أفسد حياة والديه - وأصبح الأمر تسلية ومصدر متعة هائلة. وكما استطاع «لورانس العرب» التنقل سريعاً بين كونه «أمير مكة» و«ضابط المخابرات البريطانى»، فقد أصبح فى مقدور «روس» فى غضون اليوم الواحد أن يبحر بين مراتب «حارس زريبة الخنازير» و«الديبلوماسى الدولى». فكتب المجند «روس» بعفوية، إلى مساعد قائد السلاح الجوى «سأوالى إرسال مذكرة إليك مع كل تغيير لموقعى». ولم يرق لسوان هذا، وقد يكون قد راوده الإحساس أنه أداة تسلية فى ألاعيب لورانس. فكتب عن هذا قائلاً «قد يخطر ببال أحدهم، وفقاً لهذه الخطابات، أننى كنت أتبادل معه الخطابات الحميمة، أو

حتى أننى كنت صديقه. بيد أننى فى الواقع كنت كارهاً للأمر برمته، وحاولت إثباط أهمية المكاتبات بيننا... أما ما حدث أخيراً فى فارنبورو من اكتشاف لأمره، فكان نتيجة إهمال وزارة المستعمرات فقط، وولع لورانس، المؤسف بإسدال حجاب من الغموض حوله».

وبدأت النهاية فى نوفمبر حينما نقل لورانس فجأة من أكسبريدج إلى مدرسة القوات الجوية الملكية للتصوير فى فارنبورو. وفى البداية سره هذا، وكتب إلى سوان قائلاً إنه أوشك أن يحرق المعسكر من فرحته لدى علمه بأنباء نقله. إلا أنه سرعان ما تغيرت حالته المزاجية لدى وصوله إلى موقعه الجديد إذ اكتشف أن برنامج التصوير الحالى قد بدأ بالفعل وأن عليه الانتظار حتى يناير قبل أن ينتظم فى البرنامج التالى. واشتكى إلى سوان موضحاً أنه إذا لم يبدأ تدريبه على التصوير فوراً فإنه يرغب فى الانتقال إلى موقع آخر. واعترف أنه استراح لنقله من أكسبريدج وذلك لأن الجانب الجسدى من التدريب كان مرهقاً، وأنه رغم أن فارنبورو كانت «منتجعاً بهيجاً» بالمقارنة، إلا أنها لا تمثل القوات الملكية الجوية التى أراد الكتابة عنها، وأنه بدون تدريبه على التصوير، سيصيبه الملل. وشغل هناك مكانا كضابط مناوب فى مكتب المعاون إلى أن وصل أمر من القائد العام للقوات الجوية أن يقيد «روس» الجندى من الدرجة الثانية فى برنامج التصوير الجارى. وكان معظم المتدربين فى مدرسة التصوير قد علموا آنذاك عن شخصية «روس» السرية، وعن وجود شخصية دولية مرموقة متخفية بشكل غير كامل كمجند متواضع بينهم، مما أقلق الضباط الذين شكوا أنه قد زرع وسطهم كجاسوس لوزارة الطيران. واستمر لورانس فى عرض معاناته المفروضة ذاتياً فى صفوف المجتمع الراقى. فمثلاً، كتب إلى إى. إم. فورستر أنه كان يكره «الحياة القذرة» فى الثكنات، وأنه لا يحتمل التفكير فى حياة الفقر الممتدة أمامه. واعترف أنه كان يخشى زملاءه جسدياً، ويكره ضوضاءهم، وحيويتهم. إلا أنه أصر، وكأنه يستجدى التناقض، على أنه مثلهم تماماً، وأعلن أنه لا يرغب فى ترك القوات الجوية لأية وظيفة أخرى.

وكان أثر هذا مثل أثر رجل يقوم بسجن نفسه فى زنزانة قذرة ثم يصيح من

خلال القضبان ناعياً الظروف المريعة فى الزنزانة ويقول فى نفس الوقت إنه يجد فى المكان مكانه الحقيقى وأنه على استعداد لفعل أى شىء كى لا يغادر المكان . ومن الواضح أن لورانس لم يكن ملتزماً بالبقاء فى صفوف الجندين ، كما ادعى . وفى الواقع ، فإنه غدا مستفزاً بشكل معلن مع الضباط فى فارنبورو (حدث أنه لدى انتقاد أحد الملازمين أداءه أن أجابه لورانس بالعربية والإغريقية القديمة مما جعل الضابط مضحكة الرجال الآخرين) . وعلى حين أنه ادعى أن أحد الضباط قد خانه وكشف سره للصحافة ، فإن الأمر الأكثر احتمالاً هو أنه قد كشف بنفسه عن هويته . وفى الواقع ، فقد كان قد شرع فى إذاعة اسمه المستعار وعنوانه دون حذر . وفى إحدى نوبات تدمير الذات ، كتب إلى ر . د . بلومنفيلد ، رئيس تحرير الديلى إكسبريس ، وأعطاه التفاصيل الكاملة لتجنيده وتوسل إليه ألا يذيعها على الملأ . وكان هذا طلباً يستحيل أن يوفى به صحفى محترف ، وقد يكون بلومنفليد قد أدرك أن لورانس كان يومىء إليه ، ضمنياً ، بضوء أخضر . كما أنه من المحتمل أن بلومنفيلد قد ألمح لأحد محرريه بتلك التفاصيل ، لأن الإكسبريس نشرت فى صفحتها الأولى من عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ خبراً عنوانه «ملك غير متوج عسكرى مجند» ، وكشفت للعالم عن مخبأ لورانس ، وجعلت من المحال له أن يستمر فى القوات الملكية الجوية . ولأسفه الظاهرى ، أجبر لورانس على مغادرة القوات الجوية فى يناير عام ١٩٢٣ . إلا أن إحباطه كان حقيقياً حينذاك ، لأنه فى تلك الأثناء ، كان قد تعلق بطيار شاب أشقر جذاب المظهر يدعى ر . إن . جاى ، الذى شبه أحد زملائه جماله الوضاء بجمال إله إغريقى . ووصف لورانس نفسه جاى بأنه «ملائكى» ، إلا أنه ، من قبيل الاستعلاء قال إن لكنة برمنجهام الفجة تفسد هذا الجمال ، وكأنما من الطبيعى أن تتحدث الآلهة الإغريقية بلكنة أكسفورد . ومثلما رأى لورانس أن تعلقه بالقضية العربية كان إلى حد ما ، تعبيراً عن علاقته بداهوم «النبيل» ، فقد بدأ إعجابه بالقوات الجوية كتنظيم ينمو مع تقديسه لجاى . واعتقد أن جاى يجسد الأفضل بين صفوفها ، وسرعان ما بدأ حماسه لسمو شباب القوات الملكية الجوية اللانهائى عن غيرهم من رجال القوات المسلحة . ورغم احتمال الطبيعة الأفلاطونية لعلاقته مع جاى ، كما كان الحال مع داهوم ، فإنهما حينما أجبرا على الافتراق ، كانت قد نمت بينهما حميمية عاطفية .

وكتب لورانس، فيما بعد، إلى جاى قائلاً «أنا وأنت.. كنا جد مختلفين.. وتطلب الأمر سيرورة بطيئة، وعطوفة، وملحة مثل عملية الإقامة فى الثكنات، كى تصهرنا معاً صهراً مريحاً. فلا يصبح الناس أصدقاء حتى يقول كل منهم ما يستطيع قوله، وحتى يمكنهم الجلوس معاً، أثناء العمل والراحة، دون حديث... ولم نصل إلى هذه المرحلة تحديداً أبداً، لكنا كنا نقترب منها يومياً. وبما أن س. أ قد توفى.. فلم تكن ثمة مخاطرة من حدوث ذلك».

طلب لورانس من ترنشارد، ومن وزير الطيران سام هور، إعادة تجنيده إلا أن مدة تسجيله كانت قد انتهت. ورغم أن ألعابه الخاصة بمكانته كانت مصدر تسلية له، إلا أنها كانت ضارة بجدية النظام فى القوات الجوية. ورد ترنشارد بأنه سيعيد النظر فى الأمر فقط إذا طلب لورانس تعيينه كضابط... إلا أن هذا كان سيفسد على لورانس التأثير الذى يطلبه. وبحلول شهر فبراير كان قد نجح فى جذب الخيوط فى مكتب الحرب بمساعدة آلان داونى الذى كان قائد القنفذة وزميله أيام الحرب، والجنرال فيليب شتوود قائد طابور الصحراء فى فلسطين. ومن ثم، نجح فى أن يعاد تجنيده كجندى فى سلاح الدبابات الملكى. وفى مارس، وقع لورانس بالاستلام لفترة تجنيد قدرها سبع سنوات فى معسكر بوفنجتون فى دورست تحت اسم مستعار آخر وهو تى. إى. شو. إلا أنه لم يلحق بصفوف المجندين بمفرده هذه المرة، لأنه حينما دخل غرفة الحراسة فى بوفنجتون، كان برفقته شاب طويل أسكتلندى صارم المظهر، يدعى جون بروس، وكان قد التحق معه بالجيش كتابع له.

كان لورانس قد التقى ببروس فى لندن عام ١٩٢٢ بينما كان مازال يعمل فى مكتب المستعمرات. وحدث اللقاء فى شقة رجل يدعى إدوارد مرى فى ماى فير، وكان حينذاك يحاول إلحاق الشاب الأسكتلندى الذى كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، بوظيفة ما. وفى لقائهما الثانى، كشف لورانس لبروس عن شخصيته وقال إنه كان يبحث عن شاب قوى متيقظ يمكنه الوثوق به وكشف أمور على قدر كبير من السرية له. واعتقد بروس أنه شخص نزق وأجابه بأنه غير مؤهل لذلك. بيد أنه كان فى شدة الحاجة للعمل، وعرض عليه لورانس مرتبا سخياً قدرة ثلاثة

جنيهات شهرياً كخادم له. وفى لقاءاتهما التالية جعل لورانس بروس يقسم على السرية التامة، وبدأ بإخباره بقصة خيالية طويلة ادعى فيها أنه واقع تحت سيطرة قريب له دعاه «الرجل المسن». وكانت فحوى القصة أنه مديون وواقع تحت ضغط من البنك الذى يتعامل معه، ولذا قرر أن يؤلف كتاباً على أمل أن يكسب من النقود ما يمكنه من تسديد ديونه ثم يتقاعد فى الريف. وأخبره أنه تقدم إلى بنك تجارى طالباً قرضاً يعيش منه أثناء عمله على تأليف الكتاب إلا أن البنك طلب منه أن تكون له حقوق ملكية الكتاب وأن يوجد من يضمنه. وأضاف أنه حينما توفى والده عام ١٩١٩ ورث «الرجل المسن» نقوده، وطلب منه أن يضمنه. ووافق الرجل فى البداية، إلا أنه حينما اكتشف أن لورانس ترك وظيفته فى مكتب المستعمرات عدل عن رأيه ودعى لورانس «بابن الحرام» وألحق به قائمة طويلة من الاتهامات والخطايا من بينها إهانة الملك چورچ فى قصر باكنجهام، وهدم منصب اللورد كيرزون وإدارة ظهره لخالقه، وتلطيخ اسم عائلته فى الوحل. وقال لورانس إن «الرجل المسن وافق على أن يتولى أموره المالية ويدير شأن ديونه بشرط توليه «كل الأمور التأديبية». وفى حالة عدم موافقته فسيذيع الرجل ظروف مولده. ومن ثم، أوجب عليه الحد من أنشطة حياته، والالتحاق مجنداً بالجيش أو القوات الجوية، وقضاء وقته إما فى الكتابة أو فى أنشطة الجندية. وأنه لن يسمح أن يكون له أصدقاء من المستوى الرفيع سوى الأشخاص الذين يمارسون الكتابة. وأبلغ لورانس بروس أنه قد أقسم على الإنجيل أن يحترم كل رغبات «الرجل المسن»، وذكر أن الأمر قد يتطلب توقيع عقوبة جسدية عليه. وساورت الشكوك بروس، لا لأنه لم يصدق القصة، بل لأنه كانت تفصله عن لورانس فروق اجتماعية رهيبة، وعجب لسبب اختيار لورانس له لأداء هذه الوظيفة تحديداً، وأوضح له لورانس أنه لا يستطيع الوثوق بمعظم أصدقائه، وأن القليلين من الذين يستطيع الوثوق بهم كانوا على مستوى رفيع جداً، إلا أنهم قد يكونون على استعداد للمساعدة نظير استفادة شخصية وقال لبروس «أنت لا تعرف طبيعة هذه الاستفادة، ولن يثبطك ألا تستفيد شيئاً». ثم بعث به إلى بلده أبردين وأخبره أنه سيستدعيه عندما يحتاجه.

وأثناء وجود لورانس فى أكسبريدج وفارنبورو، كان أحياناً يتبادل الرسائل مع

بروس ويخبره عن مدى بغضه للقوات الجوية، كما أخبره أن «الرجل المسن» كان يعتقد أن هذه الحياة ليست بالقسوة المطلوبة، وأنه ليس من حقه أن يكون هناك إذ إن الرجل قد اتخذ الإجراءات لإلحاقه بالجيش. وفى نوفمبر، طلب من بروس الحضور إلى فارنبورو. وحينما التقيا أخبره أنه تلقى عصا من التبولا وأن الرجل المسن يريده أن «يضرب بها عدة ضربات على ردفيه» كعقوبة «لغشه إياه» والتحاقه بالقوات الجوية بدلاً من الجيش. إلا أنه قبل إرساله «العقوبة» كشف أمر تخفيه فى شخصية «روس» للصحافة، ومن ثم، أجبر على ترك الخدمة. وأخبر بروس أن «الرجل المسن» قد دفع مبلغ ثلاثين جنيهاً لضابط فى فارنبورو ليكشف القصة للصحافة. ثم فقد بروس صلته بلورانس لبعض الوقت، لكنه حضر فى يناير عام ١٩٢٣، إلى لندن ليعمل فتوة فى أحد الملاهى الليلية، وترك رسالة للورانس بهذا المعنى فى شقته التى كان قد استعارها فى شارع بارتون. وبعد أيام قلائل ذهب لورانس للقائه وكان يبدو متسخاً، مهلهلاً، مريضاً، ومنهكاً. وأبلغه أنه كان ينام لعدة ليال فى مكان وعر، وكان فى واقع الأمر ينام فى العربة الجانبية الملحقة بالدراجة البخارية التى كان قد ابتاعها أثناء خدمته فى القوات الجوية. وأخبر لورانس بروس أن «الرجل المسن» كان يضغط عليه للالتحاق بسلاح الدبابات الملكية. وطبقاً لما قاله بروس، فإنه قرر التطوع بالجيش ليكون مع لورانس.

ومن المحتمل أن يكون شخص ما، ذو سلطة فى الجيش، قد علم عن العلاقة بين لورانس وبروس، إذ إن بروس قال إن تجنيده فى أبردين كان قد سبق الترتيب له. وأخبره لورانس أن عرضه لقى قبول «الرجل المسن» وأنه سيكتب إليه مباشرة بمجرد أن يتم تجنيدهما. وفى بوفينجتون أعطيا رقمين مسلسلين متتابعين وسريرين متجاورين في نفس الكوخ. ولم تكن أزياؤهما العسكرية على مقاسيهما، وأوكلا إلى فرقة من عشرين جندياً لتدريب مدته ستة عشر أسبوعاً. وكتب بروس «قمنا بتكوين رأى عن كل فرد فى الفرقة، وكانت مهمتى مراقبة الأشرار منهم، خاصة السكيرين، الذين كانوا كثيراً ما يقربون لورانس من أجل النقود... وحدث أن دخلت الكوخ ذات مرة لأجد أحدهم يهيل الشتائم القذرة على لورانس لأنه رفض منحه جنيهاً فقفزت عليه سريعاً وحدثت مشادة كبيرة». وبعد هذا، استأجر

لورانس كلاودز هيل، وهو منزل صغير مجاور للمعسكر، كملاذ من الحياة فى الثكنات التى لا تكاد تحتمل. وحدث هناك، عام ١٩٢٣، أن قام بروس بضرب لورانس لأول مرة. وعملت ترتيبات الضرب بدقة الطقوس. فبدأ لورانس بإخبار بروس أن «الرجل المسن» قد قرر أنه يجب أن يُعاقب، وأنه قد حكم عليه باثنتى عشرة ضربة. وهنا سلم إلى بروس خطاباً منسوخاً على الآلة الكاتبة وادعى أنه من «الرجل المسن»، يخبره فيه بأن يتسلم العصا من محطة السكك الحديدية المحلية وأن يقوم بتنفيذ العقوبة، ثم يقوم بكتابة تقرير بتنفيذها، ويصف سلوك لورانس أثناء الضرب. وفى البداية، أعلن بروس أنه لن يكون له شأن بهذا، إلا أن لورانس أصر على التنفيذ. وبما أن لورانس بدا راغباً فى هذا، فقد وافق بروس فى النهاية وقام بتنفيذ «الحكم» عصر ذاك اليوم، إلا أن «الرجل المسن» لم يرض لأن لورانس تلقى الضربات الاثنتى عشرة على الردفين وهو مرتد سرواله، فكان على بروس أن يعيد الكرة بعد أن تجرد لورانس من ملابسه. وقال بروس «وبعد أن فرغت من ضربه اثنتى عشرة مرة قال لى لورانس «اضربنى ضربة أخرى على سبيل الحظ». وكان الأمر مثيراً للغثيان. فقد كانت العصا تخترق الجلد وتمزق الأوعية الدموية حتى سالت دماؤه. وكان هو يرقد مكانه ويجز على أسنانه. ولم يتحرك أبداً. أما السؤال عما إن كان هذا هو الضرب الأول الذى تلقاه لورانس فيظل دون إجابة. ومن الغريب أن بروس أكد أنه «لم ير ندبات أخرى»، رغم ادعاء و. إى. جونز أنه قد رأى «عدداً كبيراً من الندبات حديثة العهد على ظهر لورانس» فى مكتب التجنيد منذ أقل من سنة. وقال روس أيضاً إنه لم يكن الشخص الوحيد الذى قام بضرب لورانس بهذا الأسلوب لأنه اكتشف فيما بعد آثار ضرب بالعصا على ساقى لورانس أثناء عملهما معاً فى صالة للألعاب فى بورنماوث وأن لورانس أخبره أن ثمة «شخصاً آخر يعمل لحساب «الرجل المسن» قد أنزلها به». وقد قام بروس فيما بين عامى ١٩٢٣ و١٩٣٥ بضرب لورانس فى تسع مناسبات فى كلاودز هيل وشارع بارتون وفى منزله بأبردين وأماكن أخرى فى أسكتلندا. وقد حدث هذا، فى مناسبة واحدة على الأقل، فى حضور شاهد. وبالإضافة إلى هذا، كشف فيليب نايتلى وكولين سيمبسون، مراسلا الصنداى تايمز اللذان أخبرهما بروس بالقصة، فى مقال لهما عام ١٩٦٨، أنهما يعرفان رجالاً آخرين استؤجروا لجلد لورانس، رغم

أنهما لا يعرفان إن كان هذا قد حدث قبل بروس أو بعده، أو فى تزامن معه. فإذا كان جونز قد رأى «ندبات» حديثة، على ظهر لورانس عام ١٩٢٢، يصبح من المحتمل أن اضطراب الجَلْد قد بدأ مع لورانس قبل لقائه ببروس فى وقت مبكر من ذاك العام. إلا أنه من المحتمل أيضاً زيف مقولة جونز، إذ كان بروس يضربه على الردفين باستمرار، لا على ظهره، مما يوحى بعنصر جنسى حاول مؤرخوه كبته، رغم أن بروس أكد باعترافه أن لورانس كان يصل لدرجة الذروة الجنسية كنتيجة للضرب. كما أن محاولة مؤرخيه «إضفاء القدسية» على مازوكية لورانس باقتراحهم أنه كان يحاول أن يحاكى ممارسات قدّيسى العصور الوسطى تصطدم بهذه النقطة، فإن من كانوا يجلدون أنفسهم من قديسى العصور الوسطى كانوا يفعلون هذا على ظهورهم، لا على أردافهم.

وقد زعم البعض أن اضطرابه هذا كان نتيجة لما حدث له فى درعا. إلا أنه على حين أننا لا نملك دليلاً يدعم ادعاء قبض الأتراك على لورانس وضربهم إياه عام ١٩١٧، فإننا نعلم علم اليقين أن سارا كانت تضربه بشدة على ردفيه وهو طفل، وأنه كان قد كشف عن ميول مازوكية مميزة كصبى، ومن ثم، فاضطراب الجَلْد فى الحقيقة كان ذروة حياة سادتها فانتازيا المازوكية وتحقير الذات اجتماعياً وجسدياً، وأصولها لا توجد فى درعا، مهما كان ما حدث أو لم يحدث، بل فى علاقة لورانس بأمه فى سنواته الأولى. فقد كانت درعا، فانتازيا كانت أم حقيقة، مجرد تعبير واحد عن سيرورة يمكن تتبعها مباشرة من شارع بولستيد فى تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى كلاودز هيل فى عام ١٩٢٣. بيد أن ما يثير الاهتمام فى قصة بروس هو الأضواء التى تلقيها على مناحى أخرى فى شخصية لورانس. فإن هذه البنية الضخمة من الفانتازيا التى أخبر بها بروس، هى كذبة محسوبة من أولها إلى آخرها، إلا أنه قدمها بتفاصيل مدهشة مترابطة، فقد اخترع «الرجل المسن» وجعله يرأس بروس ويكتب له عشرات الخطابات التى كان لورانس هو الكاتب الحقيقى لها. وقد أحب بروس لورانس وأعجب به وكان فخوراً أنه تمكن من مساعدته. وحتى بعد وفاته، رفض الرجل الأسكتلندى أن يصدق أنه كذب عليه عن عمد وظل يعتقد لمدة خمسين عاماً فى وجود «الرجل المسن». وربما كان بروس ساذجاً عديم الخبرة، أعجبته بلاغة لورانس وأبهره عقله وذكاؤه. إلا أنه لم

يكن غبياً. وكان هذا تعليقاً لا يعلوه تعليق على موهبة لورانس على الاختراع والتلاعب بالآخرين والإقناع. فقد استطاع إقناع إنسان آخر بوجود شخصية كانت من مجرد اختراعه، وأن يبقى على الفانتازيا ثلاثة عشر عاماً دون أن يكتشف أمره. وعن قصة «الرجل المسن» كتب آرنى لجون ماك قائلاً: «طبقاً لفهمي الضئيل للحرب النفسية التى امتلك لورانس من أساليبها الكثير، يصبح التمويه المبالغ فيه أكثر معقولية كلما اقترب من الواقع، رغم عدم مقدرة الجمهور على معرفة هذا الواقع، ومن هذا المنطلق (كان لورانس) يعطى الكذب أساساً مختلطاً من الواقع». إلا أنه لم يخطر ببال آرنى وماك أن يكون لورانس قد ألف كذباً مؤسساً على واقع مشوه فى فترات أخرى من حياته... كوصفه لحادث درعا المزعوم مثلاً. كما لم يخطر ببالهما أن لورانس فى هذه الحالة لم يكن يحارب الأتراك، بل كان يخدع شاباً سليم الطوية منحه ثقته واعتقد أنه صادقاً وكرّس جزءاً كبيراً من حياته لمساعدته.

ورغم أنه كانت للورانس صداقات طوال حياته مع مشاهير من أمثال توماس هاردى وجورج برنارد شو وإى. إم. فورستر وروبرت جريفز وكثيرين غيرهم، إلا أنه لم يشعر بالأمن الحقيقي سوى مع ذلك الشاب الأسكتلندى غير المتعلم. وظل بروس قريباً من لورانس طوال ما تبقى من حياته. بيد أنه أصبح موضع سخرية من آرنى وبوب بعد وفاة لورانس وعومل كما لو أن لورانس كان ضحيته. وحتى تشارلوت شو، قد لحقت بالمؤمراة وحاولت إسكاته. وكتب بروس «كانوا على استعداد لفعل أى شيء كى يمنعوا سبب صداقتنا من أن تصبح ملكية عامة.. لقد كان لديهم إحساس كبير بأهميتهم لدرجة ظنوا معها أننى بندقة يسهل كسرها.. ولو أنهم نجحوا ما كان لهذه القصة أن تروى أبداً».

وكان بروس تعيساً فى الجيش، ومن ثم فقد ترك الخدمة سريعاً رغم أن لقاءاته ولورانس استمرت بعد ذلك على فترات. ولم يستطع لورانس نفسه أن يستقر فى سلاح الدبابات، وبدأ يتباكى على سلاح الطيران. فكتب خطابات إلى ترنشارد وهور أخذت نغمتها تتعالى حتى وصلت إلى التلميح بالانتحار. وحدث ذات مرة، بينما كان ضيفا فى بيت ترنشارد فى أثناء خدمته فى سلاح الدبابات أن هدد بأن

«ينهى كل شىء» فى التو واللحظة»، وعندها، ابتسم ترنشارد وقال له إنه، إن لم يكن لديه مانع، فليفعلها فى الحديقة لأنه لا يود أن تلوث سجاجيده. وفى مناسبة أخرى أُجبر بروس أن يضرب يده بعنف على الحائط لينتزع المسدس حينما أعلن أنه سيطلق الرصاص على نفسه وتذكر بروس أن لورانس انفجر فى البكاء حينذاك. فلم يكن عدم رضاه عن الجيش، بل عن نفسه، وعن حاجته الدائمة «للبحث عن اللذة بالطرق المنحطة». ومرة أخرى وجه ناظريه إلى القوات الجوية. وفى شهر يونيو عام ١٩٢٥ كتب إلى إدوارد جارنت قائلاً «لا أصلح للحياة.. وسأهبك مذكراتى عن الحياة فى معسكر المجندين فى القوات الجوية. وستحبطك هذه المذكرات» وانزعج جارنت، وكتب خطاباً إلى جورج برنارد شو الذى بعث بالخطاب إلى ستانلى بولدوين رئيس الوزراء ومعه بطاقته. وأوحى أن انتحار لورانس سيتسبب فى فضيحة خاصة وأن كتاب لويل توماس «مع لورانس فى بلاد العرب» كان قد نشر لتوه ولقى استحساناً جماهيرياً. ودعمه جون بتشان، الذى كان لورانس قد أمسك به فى الشارع ذات مرة، وطلب منه العون، وتدخل بولدوين شخصياً. وفى أوائل شهر يونيو بعث ترنشارد إلى لورانس يخبره أنه سيتم نقله مرة أخرى إلى القوات الجوية.

وحينذاك شعر لورانس أنه قد نال كل ما أراده. وأذعن لوضعه كشخص عادى وثابر على هذا بإخلاص على مدى السنوات العشر التالية. ومن ثم، عُيّن فى كلية الطلبة العسكريين الجوية فى كرانويل بلينكولنشاير وكان هذا أحد أكثر الأماكن راحة واستمر يعمل فى كتابيه «أعمدة الحكمة» و«ثورة فى الصحراء» ويراجع مذكراته عن حياة المجندين فى القوات الجوية التى نشرها فيما بعد بعنوان «دار صك النقود». ثم نقل إلى كراتشى بالهند عام ١٩٢٦ بناء على طلبه كى يتحاشى الضجة الإعلامية التى توقع أن ترافق ظهور «ثورة فى الصحراء» وطبعة المشتركين من «أعمدة الحكمة». ورغم أن الكتابين حققا نجاحاً مادياً فقد قرر لورانس ألا يتكسب من وراء الثورة العربية وتبرع بالنقود للصندوق التذكارى للقوات الجوية. وفى نوفمبر عام ١٩٢٧ عُيّن فى موقع على تل صغير فى ميرانشاه قرب حدود أفغانستان. ثم حدث تمرد فى أفغانستان خلال عامى ١٩٢٧ - ١٩٢٨ وورطته إحدى الصحف البريطانية وتدعى الإمباير نيوز بأن نشرت أنه كان يعمل

كقنصل بريطاني متخف كشخص مقدس هناك . وأعيد طبع المقال في الهند وأدى إلى قلاقل ضُرب فيها شخص مقدس حقيقي على أنه لورانس حتى أوشك على الموت . وأصبح الموقف محرجاً للحكومة البريطانية . ومن ثم تم نقله جواً في ٩ يناير ١٩٢٩ إلى كراتشي ثم إركابه بعد أيام قليلة السفينة س . س . راجبوتانا المتجهة إلى بلايموث . وعاد لورانس من الهند علناً . وتتبعته الصحف من أول دقيقة وصل فيها إلى بريطانيا . وأصبحت خدمة «لورانس العرب» في القوات الجوية حقيقة معلنة . وكان لورانس يدرك أن مزيداً من الإثارة في الصحف قد تؤدى إلى القضاء على وضعه كمجند إلى الأبد . وحاول ألا يظهر علناً لفترة من الوقت . وشأن شخصيات عامة كثيرة في القرن العشرين ، كان لورانس يكره الصحافة فقط حينما لا يستطيع التحكم فيها . وكان ، كدعائي موهوب ، يدرك سطوتها منذ وقت مبكر في حياته . وفي عام ١٩١١ كان قد أسعده توظيف صحيفة التايمز من أجل التلاعب بالرأى العام ولكي يحصل لنفسه على وظيفة جيدة بأسلوب غير مباشر . ثم خاض معارك في الصحف بعد الحرب مباشرة من أجل إيجاد مساندة لآرائه عن قضية الشرق الأوسط . أما بعد كارثة الهند ، فقد بدأ يستوعب طبيعة الصحافة الحقيقية كسلاح ذى حدين .

وكانت سنوات لورانس الست الأخيرة في القوات الجوية أكثر سنوات حياته إرضاء . فقد كان قد وصل إلى أواسط العمر ، وأصبح سميك البنية واختفى الملمح «البناتي» من شخصيته . واستمر تقلب مزاجه بين الابتهاج والاكتئاب ، وتنقله بين غرفته في الثكنات وبين أصدقائه ذوى السطوة والثراء ، واستمر أيضاً في سعيه وراء التخفي وهو متأكد أن الجميع كانوا يعرفون ذلك .أما في أوقاته الأكثر اتزاناً ، فكان يشعر بالتوافق مع العالم . وكتب «إنني أقيس نفسي على الأشخاص الذين التقى بهم وأعمل معهم وأجد نفسي شخصاً عادياً ، لكنني نابه وعاقل . وبإمكاني القول أيضاً أنني أتمتع بشعبية» . فقد وجد ، بشكل جزئي على الأقل ، حساً بالمجتمع ؛ حساً بالانتماء «إلى المخلوقات العادية» ولم يعد يشعر بعدم الانتماء وسط الآخرين من الرجال . ومن ثم ، أخبر أحد الأمريكيين الذين كان يتراسل معهم أنه لا يوجد في العالم أبطال حقيقيون وأنه قد بدأ يرى التماثل بين البشر ، لا التمايز . واعترف ، هذا الرجل الذى كثيراً ما شعر بالحرج من مظهره أن الفرق بين «الرجل

الكبير جداً» و«الصغير جداً» هو مجرد بضع بوصات، وأن هذا الفرق يبدو ذا أهمية فقط للآدميين.

وفي البداية، تم تعيينه في القوات الجوية بكاتووتر أون بلايموث ساوند، حيث نمت بينه وبين قائد الجناح سيدني سميث وزوجته كلير صداقة حقيقية، وفيما بعد، عقب أن شاهد تحطم الزورق الطائر أيريس وقتل أفراد طاقمه الثمانية، شغل نفسه بحماس لتحسين أداء زوارق النجدة السريعة. واكتشف أن لديه موهبة خاصة في الميكانيكا دعمها ولعه بالسرعة، وقد مارس هذا الولع بكثرة بالإبحار على زورقه الخاص الآلي بيسكيت، أما على البر، فقد أرضى هذا الولع عن طريق دراجته البخارية القوية «بونرجس» من طراز بروسوبيريور. وقد بدل لورانس، خلال سنوات، سبع دراجات بخارية من هذا الطراز، والتي كانت، حينذاك، من أقوى الدراجات البخارية. وكانت السرعة إحدى الرفاهيات القليلة التي أشبع ميله إليها إلى درجة الإفراط. وأيضاً، فقد شعر أنه لا يستطيع استعادة الإحساس المكثف بالوجود الذى خبره أثناء الحرب إلا وهو مسرع. فقال لروبرت جريفز «حينما أدفع بمركبتي.. بسرعة ٨٠ ميلاً أو شيء من هذا القبيل، أشعر أن الأرض تتشكل تحتي.. وتكاد الحياة تبعث فيها، فتعلو وتنخفض وتتقافز وتتمايل على كل جانب كالبحر. إن هذه مكافأة السرعة.. وبإمكاني أن أكتب لك صفحات وصفحات عن شهوة الحركة السريعة». وكان بإمكانه، بينما هو مسرع، أن يتسامى على الجسد، ذلك الجزء الذى طالما احتقره وحاول كبحه وكتب في إحدى محاولاته القليلة لنظم الشعر: «حينما نسرع، نلقي بأنفسنا خارج أجسادنا.. لا تستطيع أجسادنا أن تتسلق إلى السماء سوى في سحابة بترول... العظام. الدم. اللحم. مضغوطة كلها داخلياً معاً».

واستمر يلتقي ببروس بين حين وآخر، ويدعو زملاءه السابقين في القوات الجوية وسلاح الدبابات لحضور حفلات موسيقية في كلاودز هيل في عطلات نهاية الأسبوع. واستمر أيضاً في كتابة عشرات الخطابات إلى الفنانين والكُتّاب ومؤلفي الموسيقى وزملائه السابقين. وكوّن صداقات جديدة بين ذوى السلطة الذين كان ضمنهم نائب بلايموث في البرلمان، نانسي آستور، وعضو البرلمان

العمالى عن شورديتش، إرنست ثيرتل. كما أصبح فى وضع الابن البديل لجورج برنارد شو، ودخل فى حوارات أدبية تتميز بالحيوية فى مئات الخطابات التى تبادلها مع زوجته تشارلوت شو. كما مارس كتابة عروض الكتب وكتابة المقدمات لها. ثم شرع فى ترجمة للأوديسة عن الإغريقية القديمة لناشر أمريكى، إلا أنه أصر على أن تنشر فى إنجلترا بدون اسمه، ثم كشف للمؤسسة الأدبية أنه يقوم بالعمل، وهدد بالتوقف حينما تسربت الأخبار للصحافة كأمر حتمى. ورغم أنه كانت تراوده أحياناً أفكار لتأليف المزيد من الكتب، إلا أنه لم يكتب شيئاً بعد «دار صك النقود» ذلك الكتاب الذى شعر ترنشارد أنه يدمر سمعة القوات الجوية وطلب منه أن يوقف نشره إلى ما بعد وفاته. وأيضاً، فقد صادق على سيرتين له كتبهما روبرت جريفز وباسيل ليدل هارت بعد أن دقق فى كل كلمة تقريباً، وطلب من كليهما نشر هوامش تعلن أنه لا علاقة له بالكتابين إطلاقاً، ثم شرع يشكو إلى معارفه من أن الكاتبين سمحا لنفسيهما «بتحريفات فنية» أكثر مما يتطلب الأمر. وانتقد هارت، الذى كان يكن له الإعجاب بإخلاص، لأنه وقع أسير السحرة وفشل فى اتخاذ موقع موضوعى من المادة، وسخر، من السيرة التى كتبها داعياً إياه «المديح III». وبدأ أيضاً يكتشف أنه رغم اعتقاده بأنه كاتب، فإن الحافز الإبداعى ينقصه. وكان يدرك أنه يملك فقط كل حيل الكتابة. إلا أنه لم يكن لديه شىء آخر يقوله. وأحياناً كان يؤدى هذا الإدراك إلى أن تتملك منه حالات من القنوط والكآبة، فكتب «لا أعتقد أن الحياة بهيجة، ولا أحب أن أشعر أننى تسببت فى أن آتى بشخص إلى هذا العالم ليخبر أوقاتاً مثل التى خبرتها ومازلت أعانى منها... لم أجد بعد مبرراً لمواصلة الحياة، إلا أن المرء ليس بمقدوره الرحيل إنها لحالة مؤسفة». وأصبحت محطة القوات الجوية عالمه حينذاك، وأحياناً سجنه؛ فقد كان يتملكه الخوف والتردد خارجها. وأخبر صديقاً جديداً له، وهو الكاتب هنرى ويليامسون، بأنه يشعر كساعة حائط توقف زنبركها. وعرف أيضاً أنه لا منتمى وأنه وجد ركناً له فقط فى الظروف غير العادية للثورة العربية. فقد كان حينذاك الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب. وكسب الحرب فى الصحراء، واستعاد بعض الحرية للعرب بعد أن فقدوها لمدة خمسمائة عام، وقام بتأليف كتاب رائع عن تلك التجربة، كتاب لن يطويه النسيان. وأصبح أكثر

الرجال شهرة فى عصره. فقد كان ظاهرة. إلا أنه خلافاً للفنانين والكُتّاب والشعراء، فلن يتكرر إنجازه الوحيد أو يتحسن. ومن ثم كتب إلى السير إدوارد إلجار عام ١٩٣٢ بأسى «إن لديك حياة كاملة من الإنجازات، لكننى مجرد وهج فى مقلاة».

وفى ٢٢ فبراير عام ١٩٣٥ ترك لورانس الخدمة فى القوات الجوية، وقاد دراجته البخارية من طراز برو من آخر مكان عين فيه فى برلنجتون بلينكولن شاير إلى كلاودز هيل. وكتب «إن فقدانى سلاح الطيران يفقدنى معه الحس. ومن ثم لم يصبح لدى من الأحاسيس ما يمكننى التفريط فيه، لبعض الوقت. وفى الواقع، فكثير ما تعترينى الرغبة أن تسدل ستائر حياتى. فالأمر يبدو وكأننى قد انتهيت.. الآن». إلا أن الصحافة كانت قد علمت بتقاعده واقتفت أثره طوال الشهر التالى وتسببت فى اتعاس حياته إلى أن وصل إلى ترتيبات معينة مع أصحاب الصحف المختلفة أخذ بعدها الصحفيون فى التباعد عنه. وفى أبريل، كان وحيداً، وبدأ فى التخطيط لرحلة صيفية حول بريطانيا بالدراجة البخارية. كما فكر فى كتابة سيرة للسير روجر كيسمنت الشخصية الوطنية الأيرلندية. وبدأ فى دعوة أصدقائه إلى كوخه. ثم كتبت إليه نانسى آستور مُلمِحة إلى احتمال تعيينه فى وظيفة حكومية، أو حتى إيكال مهمة إعادة تنظيم قوات الدفاع البريطانية له . فكتب إليها قائلاً إن الخيول البرية لن تستطيع جذبه خارج كلاودز هيل. وأخبرها أنه قد فقد إرادته «فقد حدث كسر ما فى كيانى».

وفى ١١ مايو عام ١٩٣٥، انطلق لورانس بدراجته البخارية «بونرجس» باتجاه قرية بوفينجتون لإرسال طرد كتب، وإرسال برقية إلى هنرى ويليامسون لدعوته إلى تناول الغداء معه يوم الثلاثاء التالى. وكانت هذه آخر مرة يركب فيها «لورانس العرب» دراجته. ففى حوالى الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة انطلق بالدراجة عائداً إلى الكوخ. وكان الطريق بين بوفينجتون وكلاودز هيل مستقيماً، وتميزه سلسلة من المنحدرات التى كانت إحداها تخفى صبيين من قائدى الدراجات وهما فرانك فلتشر وبيرتى هارجريفز. اللذان كانا يقودان دراجتيهما فى نفس الاتجاه. وغيرّ لورانس سرعته مرتين مبطئاً إياها ليقطع المنحدرات، وسمع بات

نويلز ، جاره وصديقه الذى كان يعمل في حديقته فى مواجهة كلاودز هيل صوت ناقل الحركة الواضح. أما ما حدث تحديداً فى اللحظات التالية ، فقد ظل ، مثل أمور كثيرة فى حياة لورانس ، غامضاً. فقد ادعى الصبيان أنهما سمعا بوضوح صوت الدراجة البخارية قادمة وعمدا إلى قيادة دراجتيهما فى صف واحد . أما العريف كاتشوبل من سلاح المعدات الحربية الملكية الذى كان ينزه كلبه فى الأرض الخربة غرب الطريق ، فقد أخبر هيئة التحقيق فيما بعد أن لورانس كان قد تخطى عربة سوداء كانت قادمة من الاتجاه المغاير ، إلا أن الصبيان قالا إنه لم تكن هناك ثمة عربة ، ولم يمكن اقتفاء أثر لمثل تلك المركبة. ولا يبدو محتملاً أن لورانس كان يقود دراجته بسرعة أكثر من ٤٠ ميلاً لأن نويلز سمع صوت تغيير النقلات بوضوح . وحينما وجدت الدراجة فيما بعد ، كان ناقل الحركة مثبتاً على النقلة الثانية ، مع العلم أن أقصى سرعة للدراجة كانت ٨٠ ميلاً فى الساعة . ولن يعرف يقيناً ما إن كان لورانس قد فقد تركيزه لبرهة ، أم أن الصبيين كانا يقودان دراجتيهما جنباً إلى جنب ؛ فما يبدو ، أن الذى حدث هو أن لورانس جزّ عجلة بيرتى هارجريفز الخلفية وقذف بالصبى من على دراجته . وحينما انحرف ليتحاشى دماراً أكثر ، قُذف به من فوق مقود دراجته وارتمى على رأسه فى الطريق على بُعد خمس ياردات . ثم انحرفت الدراجة بعنف واستدارت وبعد ذلك سقطت ساكنة . وانتهى كل شىء فى ثوان . ورقد فى الطريق وهو يرتعد ، وكان رأسه كتله من الدماء . وفى الحال ، هرول إليه العريف كاتشبول وحاول مسح الدم بمنديله . وفى هذه اللحظة ، وصلت شاحنة جيش فأوقفها كاتشبول ووُضع جسد لورانس على نقالة ، ثم نقل إلى مستشفى وول . وكان مخه قد تدمر دماراً شديداً ، ولم يستعد الوعى أبداً . وأخيراً ، دفع الراكب بنفسه بعيداً عن جسده ، خارج نطاق نقطة اللاعودة . وتوفى فى ١٩ مايو بعد ستة أيام من الحادث .

قمت بزيارة مقبرة لورانس فى ركن المدفن وقد مُيزت بحجر حفر عليه نفس النقش الذى زين واجهة مدرسته «امنحنى النور يا إلهى» ورأيت هذا توكيداً للإله الذى كان قد كف عن الاعتقاد فيه لمدة طويلة . . إلا أن هناك أثراً له أكثر إثارة للإعجاب يقع فى كنيسة سانت مارتن فى ويرهام ، أى فى ذلك القصر الذى ينتمى إلى العصور الوسطى والذى طالما حلم لورانس بأن يمتلكه ، إلا أنه لم ينجح فى

تحقيق هذا طوال حياته. وسانت مارتن هى إحدى أقدم الكنائس الأنجلوساكسونية فى دورست، وهى على وجه التحديد البساطة العارية التى أحبها لورانس. حينما زرت الكنيسة، ذات يوم دافئ، فى نهاية أسفارى جميعها، كان ضوء الشمس يتدفق شلالاً صغيراً مبرقشاً بخطوط رمادية داكنة من خلال نافذة ضخمة، يسقط على تمثال لورانس الذى نحت كفارس صليبى فى زى عربى نحته صديقه إريك كننجتون. وحينما وقفت أحملق فى وجهه الآمن، الذى نحت من الحجر من أجل الأجيال القادمة، أدركت إلى حد ما أننى قد أجبت على ذلك السؤال الذى وجهته لنفسى ذاك اليوم عند النبع فى وادى رُم. فقد اكتشفت أن لورانس، مثلنا جميعاً، متفرداً. فخليطه الفريد من الخصائص كان مطلوباً تحديداً فى إحدى لحظات التاريخ كى ينقذ الثورة العربية من النسيان ويأتى لها بالنجاح. لم يكن لورانس بطلاً ينتمى إلى منظومة الأبطال من قتلة التنين، ذا قوة فوق بشرية جسداً وروحاً، شجاعاً على الدوام، صادقاً وشريفاً بشكل لا تشوبه شائبة، أى أنه لم يكن الفارس الأبيض الذى حاولت أمه سارا خلقه. فمثل هذه المخلوقات، كما كان لورانس يعلم، تعيش فقط فى الخيال. بل على العكس، كان رجلاً أدى به ضعفه الجسمانى، وطبيعته الجنسية الغريبة، ومظهره غير الجذاب، وخوفه غير الطبيعى من الألم، أن يطوّر قدرة غير عادية على ا لتصميم والشجاعة والتراحم والتعاطف فلم يكن سلطوياً، بل رجلاً منحته حساسيته القدرة على التوحد مع الرجال والنساء من جميع الطبقات والأجناس والمعتقدات، رجلاً أتاح له شعوره بفقدان هوية ذاتية قوية أن يصبح أى شيء وأى شخص كان يشعر أن الآخرين يريدونه. فلم يكن لورانس بطلاً متخيلاً، بل رجلاً حقيقياً به خليط من مواطن القوى والضعف. كان قائد واستراتيجياً ومحرضاً ومفكراً وفاعلاً وخالق أساطير ومضخماً للحقائق ومستغلاً للأسطورة. لقد كُتبت ملايين الكلمات فى الثناء عليه، أما بالنسبة لى فإن الكلمات الأكثر ملاءمة للإبقاء على ذكراه هى تلك التى كتبها بنفسه لأحد أصدقائه قبل وفاته بسنوات «أنا بشر. فليست ثمة مخلوقات فوق بشرية كما نحب أن نتصور. فإن كان ثمة مخلوقات كهذه، فإنى لم ألتق بها بعد».



المراجع

Archives

The Bodleian Library, Oxford: Reserve Manuscript Collection (embargoed material on. T.E. Lawrence).

The National Library of Scotland, Manuscripts Collection: Various files, rare books and manuscripts.

The Public Record Office, Kew: Foreign Office and War Office Files; Arab Bureau Files; Intelligence Files.

The British Library Additional Manuscripts Collection: Robertson-McMahon Correspondence; T.E. Lawrence - Letters to Charlotte Shaw; T.E. Lawrence - War Diaries and Pocket Diaries.

King's College, University of London, Basil Liddell Hart Centre for Military Archives: Joyce Pierce Akaba Papers.

Imperial War Museum, London: Kinghtley and Simpson Papers.

Books and Journals

Abdallah, King of Jordan, *Memoirs*, ed. Philip Graves, London, 1950.

Admiralty War Staff - Intelligence Division, *A Handbook of Arabia*, Vol. 1, London, 1916.

Aldington, Richard, *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry*, London, 1955.

Andrews, P., and Brunner, E., *The Life of Lord Nuffield*, London, 1955.

Antonius, George, *The Arab Awakening*, London, 1938.

Baker, Randall, *King Hussain and the Kingdom of the Hejaz*, Cambridge, 1979.

Barbor, Patricia, *Desert Treks from Jeddah*, London 1996.

Barker, A.J., *The Neglected War: Mesopotamia 1915 - 1916*, London, 1967.

Bedarida, François, *A Social History of England 1851 - 1975*, London, 1979.

Bell, Lady (ed.), *The Letters of Gertrude Bell*, 2 vols., London, 1927.

Ben Yusuf, Ofer, and Khazanov, Anatoly, *Pastoralism in the Levant*, 1992.

Berne, Eric, *Games People Play - The Psychology of Human Relationships*, New York, 1964.

Betjeman, John, and Vaisey, D., *Victorian and Edwardian Oxford*, Oxford, 1971.

Birdwood, Lord, *Nuri As Said, A Study in Arab Leadership*, London 1959.

Blackmore, Charles, *In the Footsteps of Lawrence of Arabia*, London, 1986.

Blunt, Lady Anne, *Bedouin Tribes of the Euphrates*, 2 vols., London,1879.

Bray, N. N. E., *Shifting Sands*, London 1934.

Brill, E. J., *Mecca and the Tribes of Arabia - Some notes on Their Relations in Society and Religion from Jahiliyya to Islam*, ed. M. . Kister, London, 1990.

Brown, Malcolm, *A Touch of Genius - the Life of T. E. Lawrence*, Oxford, 1988.

Bullock, David L., *Allenby's War - The Palestinian - Arabian Campaign 1916 - 18*, London, 1987.

Burbidge, W. F., *The Mysterious AC2 - A Biographical Sketch of Lawrence of Arabia*, London, 1943.

Burckhardt, J. L., *Notes on the Bedouins and Wahhabys*, 2 vols, London, 1830.

Candler, E., ' Lawrence in the Hedjaz', *Blackwood's*, 243 (December 1925).

Charmley, John, *Lord Lloyd and the Decline of the British Empire*, London 1987.

Clayton, Gilbert, *An Arabian Diary*, Lodon, 1969.

Cowan, Lyn, *New Ways in Psychoanalysis*, New York, 1966.

Cowan, Lyn, *Masochism - A Jungian View*, Texas, 1982.

Djemal, A., *Memories of a Turkish Statesman 1915-1919*, London, 1922.

Donner, Fred McGraw, *The Early Islamic Conquests*, Princeton, 1981.

Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, 2 vols, Cambridge, 1888.

Ellis, Havelock, *Psychology of Sex*, New York, 1933.

Eph'al, Israel, *The Ancient Arabs - Nomads on the Borders of the Fertile Crescent 9th-5th Centuries BC*, London 1982.

Facey, William, and Grant, Gillian, *Saudi-Arabia - The First Photographers*, London 1996.

Falls, Cyril, *et al.*, *Military Operations in Egypt and Palestine*, Vol.

1, 1928, Parts 1and 2 (Official War History).

Foucault, Michel, *History of Sexuality*, London, 1975.

Glen, Douglas, *In the Steps of T. E. Lawrence*, London, 1934.

Glubb, Jhon Bagot, *The Great Arab Conquests*, London, 1963.

Graves, Robert, *Lawrence and the Arabs*, London, 1927.

Graves, Robert, *T. E. Lawrence to His Biographer Robert Graves*, London, 1938.

Gurney, O. R., *The Hittites*, London, 1972.

Herbert A., *Mons, Anzac and Kut*, London, 1919.

Hitti, Philip, *A History of the Arabs*, New Yrok, 1937.

Hogarth, David G., 'War and Discovery in Arabia', *Geographical Journal*, March 1920.

James, Lawrence, *Imperial Warrior - Life Times of Sir Edmund Allenby*, London, 1993.

James, Lawrence, *The Golden Warrior - The Life and Legend of Lawrence of Arabia*, revised edn, London, 1995.

Jarvis, C. S., *Yesterday and Today in Sinai*, London, 1941.

Kedourie, Elie, *In the Anglo-Arabian Labyrinth - the McMahon - Husayn Corespondence and Its Interpretations 1914 -1939*, Cambridge, 1976.

Kirkbride, Alec, *A Crackle of Thorns*, London, 1956.

Kirkbride, Alec, *An Awakening*, London, 1971.

Kinghtley, Philip, and Simpson, Colin, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia*, London, 1969.

Knowles, Pat, *A Handful with Quietness*, London, 1992.

Kressenstein, K. von, 'The Campaign in Palestine from the Enemy Side', *Journal of the Royal Society Institute*, Vol. 67, 1992.

Lancaster, William, *The Rwala Beduin Today*, Cambridge, 1981.

Lawrence, A. W. (ed.), *T. E. Lawrence by His Friends*, London, 1938.

Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, Oxford text (limited edition), London, 1926.

Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, London 1935.

Lawrence, T. E., *Crusader Castles*, London, 1936.

Lawrence, T. E., *The Mint*, London 1936.

Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Edward Garnett, London, 1938.

Lawrence, T. E., *et al., The Home Letters of T. E. Lawrence and his Brothers*, ed. M. R. Lawrence, Oxford, 1954.

Lawrence, T. E., *Fifty Letters 1920 -1935*, Texas, 1962.

Lawrence, T. E., *Letters to E. T. Leeds*, ed. Jeremy Wilson, London, 1988.

Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Malcolm Brown, Oxford, 1991.

Lawrence, T. E., *Secret Despatches from Arabia*, ed. Malcolm Brown, London, 1991.

Lawrence, T. E., and Wooley, L., *The Wilderness of Zinn*, London, 1915.

Layard, Austin, *Nineveh and Its Remains*, London, 1848 - 9.

Layard, Austin, *The Ruins of Nineveh and Babylon*, London, 1853.

Lewis, Norman N., *Nomads and Settlers in Syria and Jordon 1800-1980*, Cambridge, 1987.

Lewis, R., *Everyday Life in Ottoman Turkey*, London, 1971.

Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence: in Arabia and After*, London, 1934.

Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence to His Biographer Liddel Hart*, London, 1938.

Lockman, J. N., *Scattered Tracks on the Lwarence Trail - 12 Essays on T. E. Lawrence*, Michigan, 1996.

Lonnroth, Eric, *Lawrence of Arabia, An Historical Appreciation*, London, 1956.

Lowe, Gordon R., *The Growth of Personality*, London, 1972.

Mack, John, *A Prince of Our Disorder - The Life of T. E. Lawrence*, London, 1976.

Marriot, Paul, *The Young Lawrence of Arabia 1988 - 1910*, Oxford, 1977.

Marriot, Paul, and Argent, Yvonne, *The Last Days of T. E. Lawrence*, London, 1996.

Mauger, Thierry, *The Bedouins of Arabia*, London, 1988.

McCarthy, Fiona, *William Morris - A Life for Our Times*, London, 1991.

Meeker, Michael, *Literature and Violence in North Arabia*, Cambridge, 1979.

Meinerzhagen, Richard, *Middle East Diary 1917-1956*, London 1959.

Meyers, Jeffrey, 'T. E. Lawrence and *Seven Pillars of Wisdom*' in *Homosexuality in Literature 1890-1930*, New York, 1987.

Meyers, Jeffrey, *The Wounded Spirit - T. E. Lawrence's Seven Pillars of Wisdom*, New York, 1989.

Meyers, Jeffrey, (ed.), *T. E. Lawrence: Soldier, Writer, Legend*, London, 1989.

Miller, James, *The Passion of Michel Foucult*, New York, 1993.

Montgomery-Hyde, H., *Solitary in the Ranks- Lawrence of Araia as Airman and Private Soldier*, London, 1977.

Morris, James, *The Hashemite Kings*, London, 1959.

Morris, James, *Farewell The Trumpets - An Imperial Retreat*, London, 1978.

Morris, Jan, *Oxford*, London 1965; Oxford, 1978.

Mousa, Suleiman, *T. E. Lawrence - An Arab View*, Trans. Albert Butros, London, 1966.

Musil, Alois, *The North of Hegaz - A Preliminary Report of the Expedition of 1910*, P R O F O 882/1-3, 1916.

Musil, Alois, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York, 1928.

Neville, R. G., and Sloggett, T., *Oxford as it Was*, Oxford, 1979.

Nicolle, D., *Lawrence and the Arab Revolts - Warfare and Soldiers of the Middle East, 1914-18*, London, 1989.

O'Brien, Philip, *T. E. Lawrence: a Bibliography*, London, 1988.

Ocapmo, Victoria, *338171' T.E'*, ed. D. Garnett, London, 1963.

Orlans, Harold (ed.), *Lawrence of Arabia, Strange Man of Letters - the Literary Criticism and Correspondence of T. E. Lawrence*, London 1993.

Park, James, *Sons, Mothers and Other Lovers*, London, 1995.

Payne, Robert, *Lawrence of Arabia: a Triumph*, London, 1966.

Pearson, E., *Awakening the Hero Within*, New York, 1991.

Pratten, Dr John, *Social Stratification in Edwardian England*, 1985.

Randell, John, *Sexual Variations*, London, 1973.

Reik, Theodor, *Of Love and Lust: A Study of Human Sexual Emotions*, London, 1954.

Reynolds, J. J., *Canon Christopher of St. Aldates*, London, 1967.

Richards, Vyvyan, *Portrait of T. E. Lawrence, The Lawrence of the Seven Pillars of Wisdom*, London, 1936.

Rolls, S. C., *Steel Chariots in the Desert*, London, 1937.

Sachar, H., *The Emergence of the Middle East 1914-1924*, New York, 1969.

Said, Edward, *Orientalism*, London, 1978.

Schild, Marten, *Lawrence and Arabia and T. E. Lawrence: Essays on the Private Life of an Immaculate Hero and His Imperfect Shadow* (draft MS, unpublished).

Seymour-Smith, Martin, *Robert Graves*, London, 1982.

Sherwood, John, *No Golden Journey - A Biography of James Elroy Flecker*, 1973.

Stewart, Desmond, *T. E. Lawrence*, London, 1977.

Stirling, W. F., 'Tales of Lawrence of Arabia', *Cornhill Magazine*, 74 (1933).

Stirling, W. F., *Safety Last*, London, 1953.

Storr, Anthony, *Sexual Deviations*, London, 1973.

Storrs, Ronald, *Orientations*, London, 1944.

Sugarman, Sidney, *A Garland of Legends: Lawrence of Arabia and the Arab Revolt*, Worcester, 1992.

Sweet, Louise E., 'Camel Raiding of the North Arabian Bedouin: a Mechanism of Ecological Adaptation', *American Anthropologist, 67* (1965).

Sydney Smith, Clare, *The Goden Reign - The Story of My Friendship with Lawrence of Arabia*, London, 1940.

Tabachnick, S. E., and Matheson, R., *Images of Lawrence*, 1988.

Thesiger, Wilfred, *Arabian Sands*, London, 1959.

Thomas, Edward, *Oxford*, 1903.

Thomas, Lowell, *With Lawrence in Arabia*, London, 1924.

Turner, Adam, *The Making of David Lean's Lawrence of Arabia*, London 1994.

Weintraub, Stanley, *Private Shaw and Public Shaw - A Dual Portrait of Lawrence of Arabia and GBS*, London, 1963.

Weintraub, Stanley and Rodelle (eds.), *Evolution of a Revolt: Early Postwar Writings of T. E. Lawrence*, Pennsylvania, 1968.

Williamson, Henry, *Genius of Friendship 'T. E. Lawrence'*,London, 1936.

Wilson, Colin, *The Outsider*, London, 1956.

Wilson, Jeremy, *T. E. Lawrence - Lawrence of Arabia, National Portrait Gallery Catalogue of the T. E. Lawrence Exhibition*, 1988.

Wilson, Jeremy, *Lawrence of Arabia. The Authorised Biography of T. E. Lawrence*, London, 1989.

Winstone, H. R. V., *The Illicit Adventure*, 1987.

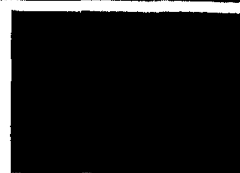
Winterton, Lord, *Fifty Tumultuous Years*, London, 1955.

Winterton, Lord, 'Arabian Nights and Days', *Blackwood's Magazine*, 207 (may 1920).

Woolley, C. Leonard, *Dead Towns and Living Men, being Pages from an Antiquary's Notebook*, London, 1932.

Yardley, Michael, *Backing into the Limelight*, London, 1985.

Young, Hubert, *The Independent Arabs*, London, 1933.



المحتويات

الصفحة

شركة مطابع لوتس - بالفجالة - تليفون وفاكس: ٥٩٠٩٣٦٣

تهشيم الصورة

اقترن اسم لورانس فى كتب التاريخ بثورة الشريف حسين أمير الحجاز ضد الحكم التركى فى يوليو ١٩١٦ المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى لقد أصبح يعرف فى الأدبيات «بلورانس العرب». وقد خلعت هذه الكتب على لورانس ألواناً من البطولة وصنوفاً من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تخلب لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها. وربما ترجع «أسطرة» هذه الشخصية إلى الغموض الذى اكتنف صاحبها عند الذين التقوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر فى رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه، ثم كانت وفاته وهو على ظهر دراجته التى كان يعشق ركوبها وتشعره بأنه يدوس العالم لتجعل منه بطلاً تراجيدياً بالمعنى المسرحى.

ولم ينشغل العرب الذين التقوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأثناء الصراع مع الأتراك بالتعرف على حقيقته، ولماذا يتصل بهم ويعرض خبراته لمساعدتهم فى الإعداد للثورة. كما لم يتوقفوا أمام ما لاحظوه عليه من سلوك شاذ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما اتضح لهم صدق تصوراته فى التطبيق العملى، وطالما أنه يساعدهم «فعلاً» لإعلان مملكة عربية مستقلة طبقاً لمراسلات الشريف حسين مع هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ - ١٩١٦). كما لم يدرك العرب آنذاك - ولم يكونوا منفردين فى هذا - أن لورانس ينفذ خطة فى استراتيجية بريطانية تمت صياغتها سراً منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا فى الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها.

....

وليس من باب المغالاة القول إن المؤلف يثأر من لورانس لسبب أو لآخر.. يريد أن ينزله من عرش مزيف توج عليه ملكاً للعرب أو زعيماً لهم، إذ نراه يتعقبه فى رحلاته التى كتب عنها فى مذكراته ويقارن ما ورد بها بما ورد بمفكرته الصغيرة وبما ورد فى رسائله إلى الآخرين، ثم نراه يقيس المسافات بين كل الأماكن التى ذهب إليها لورانس والزمن الذى استغرقه التنقل عبر هذه الأماكن ليقول للقارئ فى النهاية كم كان لورانس كذوباً ومخادعاً. ثم نراه يركز تركيزاً شديداً على شذوذه الجنسى ويعتبره مفتاح فهم شخصية لورانس. وليس من شك أن التركيز على هذه المداخل الشخصية يسهم فى تهشيم الصورة المثالية التى أراد لها لورانس أن تستقر فى مخيلة الناس وخاصة فى مخيلة أهل الشرق حيث تحتل الأخلاق مرتبة عليا فى تقويم حركة الناس وتصرفاتهم وسياساتهم. وحسناً فعل.

فهل نجح المؤلف فى هذا؟ إننى أدعو القارئ العربى ليتعرف على العالم الخفى للورانس «العرب» داخل صفحات الكتاب.

عاصم الدسوقى

تصميم الغلاف: جولى